وليد الحجّار

رحلة النيلوفر

أو

آخر الأمويين

رواية

ماذا يفعل المرء إذا ما قادته الظروف لاكتشاف الجريمة الكاملة ؟!

بماذا يجيب ، إذا ما تصدّى له أحدهم بقوله : « وكيف تكون هذه الجريمة كاملة، وأنت ، حسب ادّعائك ، قد كشفت سترها ؟! »

لكنها كذلك !! جريمةُ ، فكريةُ مروّعة!! تفوق غرابة أحداثها الوصف !! تسرّبت سمومها خفيةً عبر أذهاننا، وتمركزت في مصادر التلقّي في حياتنا الفكرية جزءاً منها. حتى استحال البتر ، وأصبح الرجاء الوحيد يقع في معجزة بأن المرضى أنفسهم الدّاء عدائهما !!

فراس .. هجر الشرق في رواية "مسافر بلا حقائب" .. بحثاً عن الحضارة المثلى دخان ظلنته فيما وجده في الغرب من

ان حوادث وأبطال هذه الرواية ، جميعاً ، من نسج الخيال .. وان أي تشابه ، قريباً كان أو بعيداً ، مع أي انسان ، حياً كان أو ميتاً ، لهو من محض المصادفة..

المؤلف

وليد الجبّار

رحلة النيلوفر
أو
آخر الأمويين

رواية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩٨٤

الى اخويّ الحبيبين .. المصطفى .. ورضوان

القسم الأول

الفصل الأول

أطلّ تاج العارفين على حديقة داره ، يخبر والدته المسنّة أن السيارة التي تقلّ طفليه ، من المعهد الداخلي الإنكليزي ، في جبال لبنان ، قد وصلت .

أسرع الطفلان .. أصغرهما ، في العاشرة من العمر ، يقبّلان أيدي ووجنتي والديهما ، وجدّتهما ، في سعادة عصبيّة غريبة .. يحاران فيما يفعلان ، وفيما يقولان ، وقد طغى على إحساسهما ما ليس في وسعهما التعبير عنه ، إلاّ بما بدا منهما من فرح مجنونٍ لعودتهما الى دارهما ، وذويهما !

لم تستطع والدتهما كبح جماح عاطفتها أمام ما رأت من اندفاع طفليها ، فانقلبت دموع الفرح على وجنتيها ، الى دموع أسف ، ولوعة .. وتمتمت لزوجها ، تحاول ألا يفهم ولداها ما تقول ..

ــ يا لقسوة قلبك ..! ألا ترى ما هما فيه ، من حرمان وحاجة لرعاية الأم ؟ ألا ترى ما يفتقدانه من عطف وحنان .. انظر الى وجهيهما الشاحبين ، الضامرين .. انظر !

مال تاج العارفين برأسه ، غير مكترث بما سمع .. واذ أقبل أصغر ولديه ، فراس ، يقفز أمامه ليقبّله .. رفعه من إبطيه عن الأرض .. وضمه الى صدره ، جاهداً ألا يُشعره بما ضعف في نفسه من وقارٍ مفتعل ... وما أحسّه من حاجة ملحّة للكشف عن شوقه لولديه .. وعن حبّه الأثير لصغيرهما ، فراس !

هزّت الجدة رأسها ، وقد أدركت ما يعتمل في صدر ولدها ، من عاطفة ، عوّدته نشأته العثمانية الصارمة على كبتها .. وتساءلت ، وهي تعود أدراجها الى حديقتها ، تقلّم أزهارها ونباتاتها .. تساءلت ، عمّا يضطر ولدها للإصرار على متابعة الصرامة الزائدة ، في معاملة أولاده ! هل لأنه فقد أباه ، منذ زمن بعيد ؟.. فاضطرته الظروف الى ترك دراسته ، في الأستانة .. كي يدخل عالم التجارة والمال ، ولم يأخذ كفايته بعد ، من مرح الشباب وطيشه ؟

متى فقدت زوجها ؟ أحين كان لبِكْرها هذا ، تاج العارفين ، سبعة عشر عاما .. أو أقل ؟.. إنها ، في مثل سنّه ، كانت قد أنجبت ثلاثة أطفال ! ولقد كانت طفلة ، في الثالثة عشرة من عمرها ، حين زُفّت الى الشريف مصطفى ، وكانت سنّه تزيد على الخمسة والأربعين !

لم يعتد زوجها العمل قط ، لكسب عيشه .. توفّاه الله قبل نهاية الحرب العالمية الأولى .. كان ينفق جميع ما كانت تصرف له السلطنة ، على عادة أسلافه ، وبقية الأسر الشريفة النسب ، في دمشق ، منذ خلافة السلطان عبد الحميد .. فما إن انهارت السلطنة حتى انقطعت عنهم المساعدات .. واضطُرت ، هي ، الأرملة الشابة ، الى إدخال ابنها البكر ، تاج العارفين ، حقل التجارة ، مزوّدا بما كانت تملكه من حليٍ وذهب ، وما لأخوتها من علاقات تجارية وثيقة .. خصوصا مع إيران ، مسقط رأس جدّها ، الذي كان قد آثر البقاء في دمشق ، بعد أن زارها ، وتزوّج إحدى بناتها ..

عادت الى حديقتها ، تجلس القرفصاء ، وانهمكت في قلع الأعشاب

الطفيليّة التي داهمت أزهار البنفسج الدمشقية ، الهادئة العطر ، والجمال ..

إنها لم تعرف جدّها .. لكن الجميع يقولون إن أباها ، صورة عنه .. وإنها ، لفرط شبهها بأبيها ، لا بدّ ستبلغ من العمر ، ما بلغ !

هل لهـا حقا سبعون عاماً من العمر ؟! إنها لتشعر كأنهـا ما زالت في أواخر الأربعينات من عمرها !.. كيف لا .. وأبوها ناهـز المئة والثمانية من الأعوام !.. ولولا تباطؤ بسيط في حركته ، وبعض الضعف في نظـره ، لبقي على ظرفه ، ومرحه ، لا يشكو من مرضٍ أو علّة تذكر ..

يقول أبوها إنه وُلد يوم أُكره ابراهيم باشا على الخروج من دمشق ، والعـودة الى مصر .. وانه مشى في الموكب الرسمي « للبرنس فريدريك » والد « غليوم » ملك المانيا سابقاً ، يوم زار دمشق ، وجلس بجوار جـامع الشيخ محي الدين ، يتأمل الجامع الأموي من بعيـد ، ويتأسّف على ماضي دمشق العتيد .. على مسمعٍ من الأشراف ، ونقيبهم !

كان في الموكب الرسـمي ، يومئذ ، أبو زوجهـا ، بعمامته الوقـور الخضراء .. أسوة بما يلبس بقية الأشراف ، ممن رافقوا «البرنس» الالماني.. وتوطدت بينهما صداقة دفعت بوالدها للسعي وراء تلك المصاهرة ..

نادت أم تاج العارفين أحدهم كي يأتيها بمنكاشها الصغير الذي احتفظت بـه ، ذكرى من حديقة بيتها الفسيحة ، في دمشق القديمة ..

كان زوجها يُؤثر الإقامة في الاستانة ، وقد قيل لها ، إنـه تسرّى فيها بفتاة شقراء ، من البلقان .. لكن أحداً من أولادها لم يفاتحها قـط بشأن تلك الفتـاة .. وكانا دائمي التنقـل بين استانبول ، ودمشق ، يهرعان الى دفء حضنها ، وقبلاتها ، هربا من معاهـد الدراسة في الأستانة ، تماماً كما هـرع حفيداها الى والديهما ساعة وصولهما منذ قليل .

لم يكـن زوجهـا ، الشريف مصطفى ، ممن يميلون الى السفر أو الى الترحال .. لكنه استُدعي الى الاستانة من قِبل الباب العالي ، وكان هـذا

دمشقياً ، على معرفة بالأنساب الشريفة ، وما لأصحابها من كرامات !. فلما مرض ابن السلطان رشاد ، استدعى زوجها .. وشاء الله أن يشفى وليّ العهد ، على يده .. فخلع السلطان عليه داراً على بحر البوسفور . ومن يدري ؟ لعله ، هو ، الذي أهدى اليه تلك الجارية الشقراء اللعينة !

* * *

عادت تنادي أحد الخدّام ، في نزق .. وكان خدم البيت في شغل عنها ، منهمكين في التنظيف ، وتحضير الطعام ..

سمع فراس نداءها فهرع اليها .. يسألها ماذا تريد ..

— What do you want Grand'ma ?

صعقت أم تاج العارفين .! وهي تسمع حفيدها يكلمها بلغة فطنت الى أنها لا بد ، انكليزية ..!

تفرّست في ملامحه ، مستنكرة ، متعجبة ، تقرّب نظارتيها من عينيها .. وقالت غاضبة ..

— وهل نسيت الكلام .. أيها المغضوب ؟! أين منكاشي الصغير ؟!

ارتبك الطفل .. وتلعثم ، ثم أجابها بلهجة جبال لبنان العامية ..

— هوَنوْ ورا الخِلفيْ ..

زاد ذلك من غيظها ! فهرب الولد منها ، يبحث عن أبيه ، قبل أن تستشيط غضباً !

نهضت تنفض ما علق على ثوبها ، من حشائش .. وسارت نحو الدار ، تنادي أباه !

لم تكن أم تاج العارفين من اللواتي تسهل مناهضتهنّ ، أو يهون ، حتى الرد عليهنّ ، اذا ما غضبنَ ، أو قرّرن وضع حد لما يرين أنه خطأ !

راحت تنظر الى ولدها ، طويلا ، في صمت بارد ، وتحدّ !. فتبسّم

هـذا ، وطفق يُهدىء من روعها ، يحادثها بالتركية ، كما تعوّد في مثل هـذه الحال ..

ــ إنه طفل يا أماه .. ليس له من العمر سوى عشر سنوات ! ثم ، انه يردّد ما يتعلم في المعهد !.. لا يقصد سوءاً بما يقول ..

ــ ولقد كان له من العمر ثماني سنوات حين بعثتَ به الى ذلك المعهد المشؤوم ..! دون أن تلتفت الى ويلات الحرب !. أو الى أن الانكليز والفرنسيين في بيروت !. أو أننا لا نستطيع زيارتهم في بلدة معهدهم المهجور !. أو الى أن تلك البلدة اختيرت مقرّا لقيادة الجنود البريطانيين !! ماذا دهاك يا تاج العارفين ؟ ليس لك من الذكور سوى ثلاثة .. كيف تفرّط فيهم ؟! ولماذا لم تبعث بالرضيع كذلك ؟!

تنهّد تاج العارفين ، متململا .. وقال ..

ــ كل هذا لأن الولد خاطبك بالانكليزية ؟! إنها لغة المعهد ، يا أماه ! وهم لا يتكلمون غيرها فيه ! جميع أساتذتهم من الانكليز .. فما غرابة ذلك !؟ وليس فيه سوى أطفال الأجانب ، من الدبلوماسيين !

ــ يا للفخر !.. ولغة آبائه ، وأجداده ؟!.. أهذا حفيد الشريف مصطفى؟ ونسيب الشريف محمد ، شريف بك ، أمير عسكر المسلمين لدى السلطان ؟! أهـذا هو مآل آخر العنقود من أحفاد الإمام علي الرضا ، بن الامام موسى الكاظم ، بن الامام جعفر الصادق ، بن الامام محمد الباقر ، بن الامام زين العابدين ، بن الامام حسين ، رضوان الله عليهم أجمعين ؟!

كانت أم تاج العارفين قد قالت ذلك في نفَسٍ واحد .. فصمتت تسمع لهاثها .. وتنتظر الجواب !

أنزل تاج العارفين طفله عن ركبتيه .. طالباً منه اللعب في الحديقة .. ثم تمهل ، وسأل والدته ، متبسما ..

ــ إن من يسمعك ، يظن أننا الوحيدون ممن ذكرتِهم من أحفاد هـذه

السلالة ، يا أمـاه !. إن في دمشق وحدها العشرات ، ان لم تكـن المئات من المنسوبين .. مثلنا ..! ان الزمان لم يعد زمن الآباء والأجـداد .! من الـذي يلتفت الى الأنساب اليوم ؟. لقد بادت الدولة العثمانية يا أمي ..! إن السلطان رشاداً ، قد مات !! والراتب السلطاني قد تلاشى .! ثم .. ماذا كنا تتكلم منذ هنيهة يا أمـاه ؟! وهل التركية لغة الأجداد ؟!.

لم تحـر والدته الجواب .. أشعلت لفافـة « خانم » ، وراحت تهـز رأسها ، في حيرة ونزق !. فبادرها ولدها على الفور ..

ـ لقـد كانت التركية لغـة أهل الحكم .. والقـوة ..! والانكليزية والفرنسية ستكونان لغتي الحكم والقـوة في المستقبل القريب ! ان القوة يا أماه ، ليست في تجاهل لغة الأعداء .. بل في فهمها ، وإتقانها !

ـ ولغة الأجداد ، أيها العاصي .. والقرآن الكريم ؟! من يعلّمهما إياها ؟! أعداؤنا المستقبلون ؟ اذا لم يعلّمنا الأتراك العربية ، فهل سيتعلمانها على يد الانكليـز ؟

ـ لا تجزعي .. سيتولى ذلك شيخ ، يتفرّغ لهما طوال أشهر الصيف ، من كل عام ، ويعلّمهما أصول الدين كذلك ..

نظرت أم تاج العارفين حولها تبحث عن حفيدها البكر ، فلما رأته أشارت اليه أن يتقـدم منها .. وكان هذا ينصت الى ما يدور بينها وبين والده ، من بعيـد . لعله توقّع أن شيئا ما سيتم ، بعد هذا الحوار ، يمنع عودته وأخاه الى شقاء وحرمان الحياة في المعاهد الداخلية ! فأقبل مسرعا ، يود لو يستطيع القيـام بشيء ، ليساعد جدته على أبيـه !

سألته جدته في هدوء ، وكان أثيرها ، لِما في ملامح وجهـه من شـبهٍ بهـا ، وبأسـرتها ..

ـ كم لك من العمـر .. يا بني ؟
ـ أربعة عشر عاما ..

ـ وهل تدرس التاريخ ؟
ـ أجـــل ..

ـ منـــذ متى ؟
ـ منذ عامين .. أو ثلاثة على ما أذكر .

ـ أي تاريخ تدرّسون ؟
ـ تاريخ العـــالم !

ـ حسناً .. قل لي .. ما اسم أول السلاطين العثمانيين ..؟

فوجىء حفيدها بالسؤال .. وظن أن لا بأس عليه ، إن لم يعـــرف الرد الصحيح .. فتلعثم ثم أجـــاب ..

ـ خـــالد بن الوليـــد ..!

هـــزت الجـــدة رأسها في تصبّر .. وتابعت ..

ـ من كان أول خلفـــاء المسلمين ؟

أدرك الطفل أنه أخطأ في الإجـــابة الأولى .. فـــلم يشأن أن يزيـــد في فداحة ذنبه .. فأطرق واجماً ، لا يرد على جدته ، وهو الذي لم يسمع بكلمـــة « خليفـــة » قبل اليوم !

ـ من الذي فتح القسطنطينية ؟ من هو أول الخلفاء الراشدين ؟!
ـ ... !!

ـ مَنْ الشريف حسين ؟ أو الملك فيصل ؟
ـ ... !!

ـ من الذي يحكم سورية اليوم ؟
ـ ... !!

نظرت أم تاج العارفين الى ابنها في مرارة .. ثم عادت تسأل حفيدها .. برفـــق ..

ـ من الذي يحكم بريطانية ؟ هل تعرف اسمه ؟
ـ الملك « جورج » السادس .. إنه ملك الـ ..

ـ .. من ملك انكلترا ، الذي حارب بلادنا .. في الماضي ؟
ـ الملك « ريتشارد » قلبالأسد !. ولقد حارب ، وهزم صلاح الدين !!

ـ هـزمه ؟!.
تردد الطفـل ، ثم قـال ..
ـ لست أدري بالضبط .. لكن صلاح الدين ، لم يكن شريفاً في حربـه معـه !. وإلا لكان الملك « ريتشارد » فتح دمشق .. وأنهى جميع الحروب ، وأعـاد الحق الى أهـله !

امتقع وجه تاج العارفين .! حدّق في وجه ابنه البكر الذي لم يفهـم أي أنواع الخطـأ قـد ارتكب !

كان فراس قد عاد من الحديقة ، وتقدم في سكون ، يراقب ما يجري بين والده ، وجدته ، وأخيه .. لحظات ، وطغى على نفسه إحساس مبهم بالخجل ، بدل أخيه .. خالطه شعور عنيد بأنه لن يقف مثل الوقفة ، المربكة الحمقاء ، من أحـد ، في يوم من الأيام !

عادت الى تاج العارفين ابتسامة الرضى لدى ملاحظته نظـرة التحدّي التي ارتسمت على وجه ابنه الصغـير ..

نظـر الى والدته ، في حـزم وهدوء .. وقال ..
ـ لا عليك يا أمـاه .. هذه هـوّة في ثقافتنا لم أتنبه لهـا !. سوف أردمها .. حتى تستوي .. ثم تصبح جبلاً أشمّ !

داعب وجنتي صغيره ، وتابع ، مبتسماً ..

ـ إن فراساً لمّا يبدأ دراسة التاريخ بعد .. سوف أستعين بك .. وبابن عساكر .. والطبري .. وبكتب « الظاهرية » .. لتلقينه تاريخ أمته ، وبلاده !

* * *

لئن كانت الطبيعة هي التي تنظّم قوانين الوراثة .. فتحصر التوالد في جنس المخلوق نفسه .. وتكثّف ما يكتسبه النوع ، من ذكاء وتجربة ، حتى تتحول التجربة المكتسبة الى قفزات كيفيّة نوعية ، ينطبع أثر شيء منها ، مهما ضؤل حجمه ، وأثره ، على السلاسل الكيميائية المشكّلة لأنسجة الوراثة فيتناقل النوع ، جزءاً من محصّلة هذا الذكاء المكتسب .. لئن كانت ، هذه ، هي المعادلة لقانون التطور الذي بدأ بحثه « داروين » ، وغاص في تيه تفرّعاته علماء القرن العشرين للكيمياء البيولوجية ، إلا أن أحداً لم يتقدّم لدراسة قوانين تطور الحضارات .. ثم انحلالها !. وليجمع ، في معادلة ، أو يفسر في معادلات شافية ، حركة العوامل المتشابكة التي تدفع ببيئة ما ، للتخلي عما اكتسبته عبر أجيال طويلة ، من عادات حضارية .. عادات ، كانت بحدّ ذاتها ، العلامة الفارقة التي ميّزتها ، إبان رقيّها ، عن باقي الشعوب ..

كيف ، ولماذا تحطم التراث الأغريقي ، في أوربا المتديّنة .. كيف ، ولماذا أُجبر العرب والمسلمون على التنكّر لتاريخهم وحضارتهم !

* * *

هكذا ، عادت أم تاج العارفين الى حديقتها ، التي صمّمها ولدها على الطراز الأوروبي الحديث .. عادت تشذب أزهار البنفسج ، تنظر الى البركة المثمّنة الأضلاع ، المرصوفة بالبلاط الأوروبي الأزرق ، وتأسف في سرّها على بركة دارها العربية ، في دمشق القديمة ، التي أهملها الشريف مصطفى يوم لبّى طلب السلطان ، وآثر الاقامة في استانبول !.

لقد وافقت على ترك تلك الدار الأثيرة..شريطة أن يحتوي بيتها الجديد، جميع مميّزات البيت القديم .. من تعدّد الغرف ، الى القاعات الفسيحة ، والحدائق الغنّاء .. علاوة على جميع وسائل الراحة التي ما كان أحد ليطمع بأن تتوافر له في أجواء بيوت دمشق القديمة !. لكن برداً قارساً حلّ على أسلوب حياتها ، منذ أن تركت تلك الدار .. برداً لا تنفع معه أساليب التدفئة

الحديثة .. ولا فرنها الفرنسي الكبير الذي يوفر الماء الساخن ، على الدوام ، وينقله تحت رخام الدار ، الى الحمام ، وجميع دورات الميـــاه !.

كانت ، في ما مضى ، اذا ما جلست لتشرب القهوة ، في الصباح الباكر ، على شرفة « القصر » .. (هكذا كانت تدعى غرف النوم في دارها القديم) ، تطلّ على فناء الدار ، وعلى حديقته الغنّاء التي تطفح بالياسمين .. الأبيض منـــه والذهبي ، بالزنبق ، وبالفل ، والزيزفون ، والريحان..! ترى كل ذلك من علٍ ، وأشعة شمس الصباح تنعكس على ماء بركتها الحجرية ، الوردية اللون ، الواسعة الأطراف ، فتدخل الحرارة والنور الى غرف لا تصيبها أشعة الشمس إلا وقت الغـــروب ..

كانت دارها تحيط بحديقتها ، من جوانبها الأربعة .. على طراز جميع بيوت الشام القديمة .. واذا ما انهمكت في تشذيب نباتاتهـــا ، أو جلست الى حافة بركتها تلك ، تحس بدفء الدار يغمرها بالسكينة والراحة ، وتشعر أن من فيها من الناس يحيطون بها ، حيثما تنقلوا ، وهي ، أنّى تلفتت ، تتوسط ذلك العـــالم الذي ينبض بالحيـــاة ! تتوسط دارها .. وحديقتها التي كانت تبدو لهـــا أحياناً كأنها المحور الذي يلفّ حوله الكون !. ولقد كانت تلك هي الحال لدى جميع من سكنوا دمشق القديمة على تفاوت سعة بيوتهم العريقة أو ضخامتهـــا !.

أما الآن ، فهي وحديقتها ، في طرَفٍ الدار .. والدار ومن فيها في الطرف الآخر ، تحرسهم وتبعدهم عنها ؛ جدرانه السميكة ، بنوافذها الخشبية !.. أما الأولاد ، فبدل أن يلهوا أمامها ، فتقرّعهم ، أو تنصت الى حكاياتهم العذبة ، فهم بعيدون عنها .. يلهون مع كلبهم الأوروبي ، في الحديقة الخارجية التي تزّين مدخل الدار .. تطل على الطريق العام بما فيه من صخب المارة ، وتطفّل نظراتهم ، وهم يمرون أمام بابه الحديدي الكبير ، المزين على الطراز الفرنسي العريـــق !

لماذا وافقت ابنها على ترك تلك الدار في « المدينة » ؟ ألتسكن في جوار صديقاتها ، من أمهات رجـــال الحكم ، الذين عششوا كالطيور الأليفـــة في

« بستان الرئيس » ؟! بضع عشرات من أُسرها ، جميعها سكنت في شـــقق بسيطة ، من عمارات َلصَق بعضها ببعض ، على طريق لا يزيد طولها على مائتي ذراع !! ولِمَ ترك هؤلاء بيوتهم ، العريقة ، الفسيحة ، في دمشق القديمة .. وهربوا منهـــا ، كأن وباء حـــلّ فيها ؟! تركوها ، لتصبح مخـــازن للقطن ، والحبوب .. يسرح فيها الجرذ .. تبلى سقوفها الخشبية البديعة .. تنهـــار جدرانها ، وليس من يرممها ، أو يحفظ ما نُقش عليها من آيات التراث !..

هل كان عليها أن تصرّ على البقاء ، ولو بقيت وحيدة ، في تلك الـــدار الحبيبة ؟!.. ما حيلتها ، وولدها مصرّ على مسايرة الركب الحديث ، وللركب شروط لا تقبلها أوساط المدينة القديمة المحافظة !.

* * *

أقبل تاج العارفين يدعو والدته للطعام ، وكانت شـــاردة اللبّ تجمع باقة من الأزهار لتزين بها قاعة الضيوف .

ســألها ، وهو يأمل ألا تُسمعه نصحها المعتاد ..

ـ هل ستحضرين الحفل معنا الليلة ؟. لقد دعوت أصدقاء لي ، للعشاء ..

أطرقت برأسها قليلا ، تنظر الى عينيه من فوق عدسات نظاراتها .. ثـــم هزت رأسها .. وســـألت ..

ـ مجموعة الأصدقاء .. ممن لهم زوجات أجنبيات ؟!

ـ بعضهم فقط .. أما البقية ، فانك تعرفين زوجاتهم .. وذويهم ..

لشد ما كانت تكره تلك الحفلات التي ترتدي فيها زوجة ابنهـــا اللباس الأوروبي السافر الكتفين ، والتي يتعاطى فيها الرجال ، بعض كؤوس الخمر !. تعلو موسيقى اسطوانات الحاكي .. ويسهر الجيران ، متخفّين وراء ســـتائر نوافذهم ، يراقبون مدخل الدار ، ويحاولون أن يتعرفوا اللواتي تجرّأن على خلع الحجاب من زوجات المدعوّين ، أو أخواتهم !. لم تكن ، هي ممن يسترن

وجههن على عادة المتحفظات من النساء ، لكنها كانت تصر على تزيين رأسها بالحجاب الأسود ، أسوة بنساء استنبول .. ترتديه على طريقة رسم رأس المرأة ، على علبة دخان « خانم » التي لا تفارق جيبها !

هزت رأسها بالنفي .. وقالت ..

ـ سأذهب لزيارة ابنة عمي ، في سوق ساروجة .. وسآخذ الأولاد معي..

* * *

ما كان في وسع سيارة ابنها الوصول بها الى حيث تريد في سوق ساروجة .. هزت رأسها ، تحسراً ، اذ جال في خاطرها أن لعل هذا ، سبب آخر ، حضّ ولدها على ترك منزلها القديم !

كان السائق قد نادى عربة الخيل ، سبقها حفيداها اليها ، فرحين ، يجلسان قبالتها على مقعدين صغيرين كانا مطويين الى جانب العربة .. وسرعان ما أطلق الحوذي صوتاً ، قرع السوط بعده .. فتقدم الجوادان .. ثم تسارع وقع حوافرهما على ما رُصفت به أرض الصالحية من أحجار مكعّبة سوداء ..

ما ان ابتعدت العربة عن دار ابنها حتى مدّت أم تاج العارفين رأسها .. وصاحت بالحوذي ..

ـ دعك من سوق ساروجة .. واذهب الى مقام صلاح الدين !

صفّق حفيداها ، فرحين ..

ـ حقاً .. جدتي !.. هل سنزور مقام صلاح الدين .. و « ريتشارد » قلب الأسد ؟!..

تبسّمت أم تاج العارفين ، في عطف ، وقالت ..

ـ لا ، ليس لـ « ريتشارد » هذا ، قبرٌ في بلادنا .. سوف تشاهدان مقام البطل .. صلاح الدين ! وستسمعان قصة حروبه .. كذلك ! لكنها

القصة الحقيقية ، لا كما علّمكما إياها ، أبناء الزنادقة ! وستزوران غــدا ، قبر خولة بنت الأزور .. ثم نزور موضع رأس الحسين ، عليــه السلام .. وهو جدّكما .. ثم نزور مقام السيدة زينب .. ونزور ..

صاح فراس ، فرحــا ..

ـــ ولن نعود الى المعهد بعــد انقضاء العطلة ؟!.

وجمت جــدتهما .. تذكرت قول ولدها .. ثم تبسمت .. وقــالت في إصــرار ..

ـــ بل ستذهبان .. وستردّدان ما أعلّمكما إياه ، على مسامع الجميع !! وسنرى من الذي سيجرؤ على تكذيبكما ..! ستذهبان ياولدي ، لا لتتشرّبا طباع وعادات أبناء الزنادقة ، إنما ، لتتعلماها ، لتجعلاها ثوباً اضافياً أو درعــاً حصينة ، تواجهان به الزنادقة اذا ما اضطررتما ، يوماً ، الى ذلك .! أما ثوبكما الدائم ، أما غلالة الحرير التي لن تفارق جسديكما فسأنسجها لكما بأصابعي هــذه ! وسيكون لكما في كل خيط منها ، آية إسلامية .. وفي كل حبكة ، معــركة من تاريخ أجدادكما المجيد !.

وتابعت كمن تحدّث نفسها ..

ـــ كانت استنبول عاصمة الإسلام ، وعاصمتنا في الوقت ذاته.. فيها يتلقّى المسلم قمة العلم ، ويتعرّف مآثر التاريخ والدين.. فلا يعود الى وطنه ، حاملا عقــدة التخلف !! ماذا تبقّى لكما اليــوم أيهــا المسكينان ؟!.. عاصمـــة ، لا جامعة تذكر فيها .. ولا منبر علم .؟! ستعودان الى معهد الزنادقة .. لأن الأيام ستضطركما الى متابعة علومكما في عواصم العلم .. الكارهة لدينكما .. في أوروبا !! إنكما من الأشراف .. ولا يجــدر بكمــا أن تطــآ أرض تلك البلاد ، إلا وأنتما على مستوى أشرف أبنائها .. علماً وأدبا !

* * *

لم تكن أم تاج العارفين من اللواتي قطعن شوطاً بعيدا في مضمار الثقافة التقليدية .. صحيح أنها تعلمت الفارسية والتركية في بيت والدها ، إلا أنها

زُفّت الى زوجها قبل أن تكمل حفظ القرآن الكريم ، وتحسن استظهار ما كان يستحسنه والدها من المعلقات .. ومن شعر الفردوسي !

انتقلت ، عبر زواجها ، الى عالمٍ غريب عن ذاك الذي نشأت فيه .. عالم يعيش نمطا من التقاليد ، بدت لها في البدء ، بعيدة عن الجد ، مسلّية .. وسيلة للهروب من تقاليد العلم ، الصارمة ، الصحيحة ! لكنها سرعان ما أدركت ، بعد وفاة زوجها المبكّرة ، أنها عرفت في ظلّه ثقافة وتقاليد عريقة ، ربما تعود أصولها الى مئات السنين !. وان عليها أن ترسّخها ، ليس في أولادها فحسب ، بل في نفوس أحفادها ، أيضا ، في شكل يفرض على هؤلاء نقلها ، بدورهم ، الى أولادهم ، وأحفادهم ، على مرّ الأجيال !

تعلّمت في تلك الدار ، العزف على العود .. لا على يد زوجها الذي كان يجيد العزف على القانون كذلك ، بل على يد جارية تونسيّة متقدمة في السن ، كانت تتقاضى قطعة ذهبية ، كلما أتقنت أم تاج العارفين عزف تقسيمة أو بشرف .. وتتقاضي قطعة ذهبية أخرى ، كلّما أحسنت غناء موشح أو قصيدة أندلسية ، وأجادت اختيار المقامات ، والتنقل بينها ، بما يماشي روح تلك القصيدة وإيقاعها الموزون !

كانت أحاديث زوجها اليومية مع أهله ، وبين صحبه ، عن نوادر الحب ، تكاد تكون تلاوة محفوظة عن كتاب ابن حزم ! وروايات التاريخ التي لا يكفّ عن ترددها .. نقلا مفصلا عن سير ابن عساكر ، وابن خلدون !.. ناهيك بعادته اليومية ، من جلوس في صدر إيوانه .. بعد أن تكون نساء الدار قد سفحن الماء على رخام الحديقة ، وبلّلن الأزهار .. ينادي هذا ، من أولاده ، أو ذاك من أقاربه ، ليقرأ على مسامعه أخبار وطرائف الانسان والحيوان ، عن كتب الجاحظ ، أو ليتعجب من جهل وضيق حدود المعرفة ، لدى بعض الأقدمين ، اذا ما قرئت على مسامعه أخبار أفريقيا أو الصين !. يوازن ، أمام السامع ، بينها وبين ما قرأه هو ، في مصادر تركية ، نُقلت عن الدولة الروسية .. ويطلب منه أن يدوّن الموازنة ، على هامش الكتاب .. حتى أضحت بعض هوامشه كأنها مخطوطات كاملة ، مستقلة بذاتها !

لم تكن أم تاج العارفين تناقش قيمة ما يقال ، أو تفهم جميع ما يُقرأ أمامها من هذه المواضيع ، دينيّة كانت أو دنيويّة ! حسبها أنها تسمعها .. فتدرك أن لزوجها ، الشريف ، وجهة نظر خاصة فيها ، فتحفرها في ذاكرتها ، وتحرص على تكرارها أمام من لم يسمعها ، من أولادها !. تحفظها كما تُحفظ السيرة الشريفة ، أو تنقشها في ذاكرتها ، كما يُنقش العسير من أبيات الشعر القديم !. فما إن توفي زوجها .. وشاهدت عمامته الخضراء تمر أمامها على تابوته المغطى بكسوة الأشراف ، حتى أدركت أن دارها يجب ألا تخلو من ذكرى حضوره الشريف .. وان عليها ، هي ، متابعة ما بدأه زوجها !. فأولادها ، مهما يتذكروا من تقاليد والدهم، فانهم ما زالوا أحداثاً .. تخاف أن يمحو الزمان ما تعلموه .. ولعلها خشيت أن تسهو عن بعضها .. لذلك نبذت أسلوب الشرح الذي لم يكن لينسجم مع طبيعتها الصارمة ، ولجأت الى طريقة التكرار ، والتأكيد .! حتى غدت النظافة ، وآداب المجلس ، والحديث ، والطعام ، طبيعةً ، لا كطبيعة ثانية ، لأهل الدار .. بل كردود أفعال منعكسة لديهم ! طبيعة أولى ! لقنتهم الأم ، يعودون اليها بهدوء وارتياح ، مهما تغيرت أحوالهم ، أو تقلبت عليهم الأيام !.

ومن كل ما تعلّم فراس في ساعات الصباح المبكرة ، وأثناء اللعب والطعام ، وقبل أن يهجع .. ومن كل ما غاب في طيات ذاكرته ، وتمثّلته طبيعته الغضّة .. علقت في ذهنه أقوال كانت تردّدها جدته على مسامعه ، ورأسه في حضنها ، تداعب شعره ، وتقول له كمن تحدث نفسها .. وتحاول أن تستوعب ما خفي عنها .. مما استتر من معنى وراء ذاك الكلام ..

— وأنتم يا بني .. أحفاد أهل البيت .. أي أهل البيت .. لكم حق الشفاعة ، يوم الدين .. لكن عليكم فرض ، واجب ، لا تكتمل آخرتكم دون تحقيقه .. هو اظهار ما اختفى .. رأب الصدع ، وإحياء ما استشهد في سبيله الصالحون ..!

* * *

الفصل الثاني

خرج فراس بعد سبعة وعشرين عاماً ، مع صديقه ، « شارل غوستاف » من كنيسة « السانتا ماريا ماجيوري » يتلقّفان نسيم روما الدافىء ، المضمّخ بعبق ما امتلأت به حدائقها العامة وساحاتها ، من ورد بريّ .. كأن أريجه عطر خاص .. خليط من الفلّ الدمشقي ، والياسمين ..

قال « شارل » ، وفي نبرة صوته ترقّبٌ ، وضبطٌ لإحساس آخر ، لا علاقة له بالسؤال ..

— إنها كنيسة جميلة .. وقور .. أليس كذلك ؟.. ثم .. شتان ما بين تماسك فنها الرائع .. وترامي أرجاء كاتيدرائية القديس بطرس المترفة .. التي تعجّ بما لا حصر له من كنوز العالم الفنية ..

تبسّم فراس ، متسائلا .. عاتباً .. وقال ..

— أتسخر من رأيي ؟ اني أصرّ على أن في ضخامة تلك ، ما يوحي بأنها معبد امبراطور روماني ، اعتنق الديانة المسيحية ، عن غير قصد !

وأضاف ، مبتسما من جديد .. يستعجل رد صديقه ..

— بل لنقل إنها أقرب الى متحف هائل ، مهيب ، منها الى بناء ديني ..

— المهم .. هل أحببت هذه « البازيليك » أم لا ؟..

وإزاء صمت فراس قطّب «شارل» قليلا ، وأكمل ، كمن يحدث نفسه..

— رأيت في عينيك ، وأنت تنظر الى سقفها الخشبي ، بريق إعجابٍ

لم أفهم ما تخالطه من حزن بعيد !. لقد طالعتني النظرة ذاتها في عينيك ، ونحن في « فيرينزه » .. وفي البندقية .. وفي ..

توقف فراس عن السير ، فجأة ، وسأل ، في نبرة هادئة ، صارمة ..

ــ متى شيدت هذه الكنيسة .؟. أو هذه « البازيليك » .. هل تذكر ؟!

ــ في القرن الخامس ..

ــ ومتى أضيف إليها ذلك السقف الخشبي الرائع .. الذي هو محور حديثنا الآن ؟..

ــ في القرن الثاني عشر ، على ما أعتقد ..

ــ وكنيسة « فيرينزه » ؟.. وبرج « جيوتّو » الشهير ؟.. و ..

ــ في القرنين الثاني عشر .. والرابع عشر ، كذلك .. لكن .. ماذا يعني هذا التوافق بالتاريخ ؟...

ــ ما لك لا تحسن الربط ؟.. إنه تاريخ احتكاك أوربا بالشرق .. إنه تاريخ الحروب الصليبية يا « شارل » ؟! لقد نقل الغرب هذا الأسلوب في الفن ، إثر مجاورة أروع حضارة في العالم آنذاك ، في الأندلس .!

ــ .. صحيح .. صحيح ..

ــ سقف « السانتا ماريا ماجيوري » هذا ، الذي أدهشك جماله يا « شارل » .. وبعث الأسى في نفسي .. ألم يتبادر الى ذهنك أن تتساءل ما اسم هذا الفن ؟.. ألم تر مثله في الحمراء ، في « غرناطة » ؟.. وفي الكثير من البيوت الدمشقية ، اليوم ؟..

وإزاء صمت « شارل » .. تابع فراس بسخرية ، ومرارة ..

ــ فاذا أمعنت في تأمّل دليل « ميشلان » الشهير ، هذا .. الذي بين يديك .. أو في أي دليل آخر .. فهل ستجد فيما كتب فيه ، إشارة الى أنه

فن عربي أصيل ؟.. ومسلم ؟.. هـل ستجد إشارة الى أن أجمـل كنائس « فيرينزه » مزيّنة بالفن العربي المسلم ؟! أرني كتاباً عاديا ، من بين مئـات ، بل ألوف الكتب الفنية والسياحية التي تملأ مكتبات روما وباريس ولندن ، كتاباً واحدا يذكر بوضوح ، أثر الفن العربي الجليّ المباشر ، على ما تلقبونه بالفـن « القوطي » ..، أتدري ما يقولون في الكتب ؟.. أتدري أسـلوب التزوير الذي اتبعوا ؟ لقد لقّبوا العرب ، المسلمين ، في شرقي البحر الابيض المتوسط بالـ « ساراسان » (وهي تسمية لا يمكن للأوربي العادي ، اليوم ، أن يفهم أصلها أو مدلولها ، أو علاقة هذا الاسم ، بالعرب) .. ثم قالـوا إن الفـن القوطي مشابه لفن « الساراسان » !! لمـاذا « ساراسان » ، بـدل كلمة عـرب .. أو مسلمين ؟ أو سوريين ؟!. هل غريب أن ترى بعض المرارة في ظراتي ، وأنا أرى هـذا التجاهل الصارخ ، بل التزوير الواعي ، لكـل ما هـو عربي ، ومسلم ، من فـن ، وعـلم ، مما دخل أوربا ، منذ القرن السابع ، حتى القرن الخامس عشر ؟..

تنبّـه « شارل غوستاف » الى أمر ، فقـال على عجل ..

ـ رويدك يا عزيزي .! هل أنت تقصد فن الـ « Roman » فيما رأيناه في سقف الكنيسة الخشبي ! إن هـذا الفـن الشرقي ، يرجع تاريخـه الى الامبراطورية الرومانية .!

قهقـه فراس ، في سخرية واضحة ..

ـ « L' Art Roman » وهل قمت بنفسك بهذه التحريات ؟ أم قرأت عنها ، فقط ! إن ما فيه من جـذور رومانية لا يزيد على الخمسة بالمائة .. وجميع ما تبقى .. عربي .. ومسلم !!.. ومع هذا ، فلقد لـُقـّب بفن الـ « Roman » !! ان كوميديا التسميات هـذه ، التي ابتكرتموها ، لمهـزلة ، لم تعـد تثير في نفسي الضحك .. بل النفور ، والغثيان .! فما إن يـُطلق أحدكم تسمية ما ، على فـن ، أو لغـة ، أو أدب ، أو شعب ، أو دين ، وهو يتحـدث عن الشرق ، حتى تنسوا المسمّى . ويصبح للاسم عندكم وجود حسّي ، يطغى على

وجود المسمى نفسه وكيانه .. تقول فـن" الـ« Roman »، فمن أين أتت هذه التسمية ؟ هل تعلم ذلك ؟

تردد « شارل غوستاف » ، وأجاب ..

ــ آسف يا عزيزي ... هلا أجبتني أنت ؟

ــ انها تسمية ، ابتكرها كاتبان من شمال فرنسا عـام ١٨١٨ .. وذاع صيتهـا ، إذ نُشرت في كتـاب « ألف بـاء علـوم الآثار » الـذي نشـره « Arcisse de Caumont » عام ١٨٥٠ ! هذه التسمية التي تتقبلونها اليـوم كبديهيّة هندسية .. انما هي في الأصل ، من ابتكار انسان عادي ..

.. إنها تسمية لا يزيد عمرها على قرن ، وبضع سنين .. وهـذا يعني أن أوربا المتخلـّفة ظلـّت تقتبس وتنهل من فن وحضارة العـرب والاسلام ، طوال ثمانية قرون ، دون أن تجرؤ على اطلاق تسميات غربية على ما تقتبس ! الى أن غيـّبت همجية الأسبان ، معالم الحضارة العربية في الأندلس .. ودكّ المغول قواعدها ، في بغداد ، ودمشق .. فما إن تهيـأ لأوربا القـرن الثامن عشر أن أصحاب الحق ، من عرب ومسلمين ، قد غيـّبهم التاريخ ، الى غـير عودة .. حتى انبرى أمثال« A. de Caumont » هذا ، يطلقون على ماسرقوه أسماء لا يمكن أن يُستدل منها على أصلها العربي !.. وبات أمثالك ، مـن المثقفين الأوربيين ، يا عزيزي « شارل غوستاف ، كونت دي بروفانس » ، ومعظم المثقفين الشرقيين ، كذلك ، يرددون هذه التسميات .. كأنها واقع ، أوربي الجذور .! بديهيات علمية ، لا تحتاج الى دراسة ، أو تفسير .! كأنما الفـن « القوطي » فن أوربي ، ثـم ينسى المثقفون أن أصله ، من الفـن « الساراساني » ، وهو في جوهره عربي ، مسلم .!

نظـر « شارل غوستاف » الى صديقه ، وعلى شفتيه ابتسامة تجاهد في كبح مرارة من أصابته لطمة مؤلمـة ، من انسان يحب !

كانا يسيران على غير هدى،تقودهما خطاهما نحو غابة «الفيلا بورغيزي» حيث كانت تحلو لهما النزهـة ..

قال « شارل » في صوت هادىء ، دون أن ينظـــر الى صديقه ...
ــ ألا ترى أنــك تحمّلني .. شخصياً .. أكثر مما يجب عــلي ، فيما تقول ؟ وقد يكون كل ما تقوله صحيحاً ..

بادره فراس بالهدوء نفسه .. كأنه على علم بما سيقول صديقه ..
ــ نعم .. ولا .. انك ، بالطبع ، لست مسؤولا عما قامت به أوربا . طــوال خمسة قرون ، من سرقة وانتحال وتزوير ! لكن الجهل بالخطــأ ، لا يعفي صاحبه من المسؤولية ! وهذه ، بالمناسبة ، مادة قانونية أوربية ، من زمن نابليون .. على ما أظن ..

ثم ضحــك ، قليلا ، ليمحو ما كان قــد تسرّب الى حديثه من نبــرة متوترة ، ثم أضــاف ..
ــ لكنك يا « شارل » لا تفتأ تنظر الي أنا ، من هذا المنظار نفسه .. ألستَ القائل إنك تحار ، أحيانا ، هل أنا فراس العــربي ، أم « مكسيم » الفرنسي ، أم « ميشكا » الروسي ؟ ألستَ البادىء في تقصّي الهويّات ؟.. والغائص وراء أعماق الجذور ؟.. وما بحثك عن الجذور سوى صورة أخرى للبحث عن التسميات ..عبر مدلولاتها الأوربية ، وطريق آخر لاهمال الأصل ، والتعلّق بالمسمى !.. وهل للمسميات في ذهنك غير دلالاتها الأوربية ؟.. تماماً كعلاقة ذلك السقف الخشبي ، بتسميته الأوربية ..« Roman ».. ثم ترجيع هــذا المعنى الى أصل روماني ، مفتعــل !!

ــ هل ترى ضيماً في بحثي عن الجذور ؟ وما الخطأ في محاولتي تقصّي الدوافع الباطنة لما يحرّك الأشياء ، والانسان ؟
ــ اتبــه الى ما سأقول ..
ــ حســن ..
ــ هل في وسعك ، أو في وسع أي إنسان أن يدرك الأشياء والدوافــع دون إدراك وفهــم أسمائها ؟.

ـ ان وجود الأشياء ، يسبق وجود أسمائها ..

ـ .. ان لكل الأشياء ، وجوداً مستقلا ، خارج دائرة حياة الانسان ، وطريقة إدراكه .. لكن هـذا الشيء ، سرعان ما يدخل دائرة الفكر ، والادراك .. فهل يمكن أن يتحدث الانسان عنه ، من غير تسميته برمزٍ ، هو الاسم ؟

ـ لا .. بالطبع .!

ـ ومن الذي يطلق هذه الاسماء في العالم اليوم ؟! من الذي ينشر التعاريف ، ويوزعها على مسمياتها ؟ أي التعاريف تتداول في حديثنا اليوم ، اذا ما تحدثنا عن الفكر .. أو الأدب ، أو التاريخ ، أو الفن ؟.. أهي تعاريف صينية .. أم « سانسيكريتية » .. أم أوربية ؟!

ـ في الغالب .. أوربية .. بل جميعها على ما أظن ..

ـ بل ، بالتأكيد !. حتى لو استعملنا كلمات ، ورموزاً غير أوربية .. مثل كلمة « سانسكريت » مثلاً .. فأنها باتت كلماتٍ أوربيةلمسمى غير أوربي .. ولا نفهم منها ، اليوم ، إلا مدلولها ومعناها الأوربي !

ـ « مكسيم » أرجوك .. كف عن التعميق .. أنا ، ياعزيزي .. إنما أقوم بالبحث عن الجذور ، فيما يتعلق بك .. مدفوعا بعاطفة تجاهك ، لا حيلة لي في السيطرة عليها ! لطالما قلت لك : إن الشرق ، بالنسبة إلي متمثّل فيك .. وأنا ..

ـ أعلمُ ياعزيزي !. لكنك اذا أخطأت فيما تقودك اليه عاطفتك، هذه ، من دراسة ، وتحليل ، لخفايا شخصيتي .. فانك لن تلحق بي ضرراً يذكر ! لئن أسميتني فراساً العربي ، ثم ألبستني ما في ذهنك مما تعودّت أن تكسو العرب به من مسوح أعرابية ، أو بدوية .. أو أسميتني « مكسيم » الفرنسي ، أو « ميشكا » الروسي .. فان ما تقوم به ، لن يخرج عن دائرة صداقتنا .. أو حتى معارفنا .! أما غيرك ، من جهابذة المستشرقين .. الذين قادتهم عاطفتهم لدراسة الشرق (وليس من يؤكد أكانت عاطفتهم هـذه كرهاً له ، أم محبّة

به !) .. فانهم مزجوا دراستهم للشـرق بسُمٍّ، ما زال الغربيون قاطبـة، ومعظم أبنـاء الشرق يشربونه حتى اليوم !

ـ رويدك يا عزيزي .. رويدك .. ثم أرجو ألا يغلبك الانفعال ! إذا كان هنـالك المزيـد من آثـام أوربا مما في نيّتك أن تهيـله على رأسي اليـوم .. فأنـا ..

ـ انك تعلم أني لا أقصـدك، شخصيا .! لكنك تّصبح شـريكا في الذنب .. بل في المؤامرة، كلما تحدثت عن أي موضوع، يتعلق بالشرق ..

ـ أتراني .. غارقاً في الجرم، دون أن أدري ؟!

ـ بل، أكثر .! هـل تريد برهاناً سريعاً على ذلك ؟ اذن، أجب عـن سؤالي .. بسرعة .. « ماذا يربط الشعوب العربية، باليهود ؟ »

ـ انهم ساميّون، من أصل واحـد !

ضحك فراس، في مرح من يُطلِق الأحاجي ..

ـ كان الأحرى بك أن تقول لي، إن سؤالي خطـأ ! فالعـروبة .. قومية .. واليهودية، دين .. وليس هنالك ما يربط بين التعريفين !

ـ أهذا كل ما في الأمر ؟ وما تقول في العـرب، واليهود الشرقيين ؟ أليسوا جميعهم ساميين ؟

ـ لا بالطبع .. أو بالأحرى، ليس بالمعنى الذي تفهمه أنت .. وهـذا بيت القصيد !! إنك استعملت كلمة « ساميّ » فهل تعرف من أين أتت هذه الكلمـة ؟ أو هـذا التعريف ؟

أجاب « شـارل » بتواضع .. مازح ..

ـ بل أجبني أنت .. العارف بكل شـيء .!

ـ مرة أخرى .. انه تعريف أوربي .. « كلمة » ابتكرها العالم اللغوي

الألماني « فون شلوتزر » ، في عام ١٧٨١ .. كلمة ، لا سابق وجود لها في أي نص ديني أو تاريخي ، قبل ذلك التاريخ!!اخترعها ذلك العالم ليربط بواسطتها مجموعة اللغات التي تداولتها الشعوب التي عاشت في شبه الجزيرة العربية ، وشرقي حوض البحر الابيض المتوسط ، والتي يختلف تركيب أفعالها .. الثلاثي ، مثلا : فعَل ، وضربَ .. عن تركيب الأفعال ، في اللغات الهندية الأوربية !! هذا هو سبب هذه التسمية .. وأصلها ..

عجب « شارل » لجواب فراس ، وقال ..

ــ حسن ، وما الغريب في الأمر ؟..

ــ الغريب في الأمر أن عالِماً لغوياً ، أطلق تسمية ما .. هدفها الظاهري هو ربط مجموعة لغات ، فقط .. لكنه اختار كلمة « ساميّ » ، أي اسم أحد أبناء نوح (الذي لا برهانَ علمياً لوجوده) .. وإذا بالذهن الأوربي ، المكتظّ بالأساطير ، لا يكترث إلا لمعنى هذه الكلمة التوراتي .! واذا بأوربا .. والعالم من ورائها ، تجعل من هذه التسمية اللغوية ، قضيّة عرقيّة ! ويصبح الساميّون ، عرقاً مختلفاً عن باقي عروق البشر !! دم .. يختلف عن باقي دم البشر !!

كانا قد وصلا الى شارع « الفيا فينيتو » .. فجلسا في أحد المقاهي ، على طريقة ذلك الشارع الغربية ، في الجلوس على الرصيف ، على مقاعد صفّت قبالة جدران الأبنية .. حيث يدير الجالس ظهره للطريق العام ، وللسيارات ، ولا يرى أمامه سوى المارّة ، الذين يتدرجون بين صف واجهات الحوانيت الزجاجية ، وصف الجالسين في المقاهي ..

قال « شارل » ، كمن يود أن ينهي نقاشا ، لم يصل الى نهاية مقنعة ..

ـ لكنك تعلم ، ولا بـد ، أن عـدد المناهضين للنظرية العرقية ، بين المثقفين ، على الأقل ، أكبر بكثير ، من عدد أنصارها !

هز فراس رأسه ، نزقاً .. ورد على الفـور ..

ـ إنك تخطىء ، مرة أخرى .. فأنا لا يهمني صحة النظرية العرقيـة ، أو عـدمها ، فهي لشدة سخفها ، لا تستحق البحث ... إني إنما أتكلم عـن طريقة ولادة هذه النظرية .! وتحوّلها ، في أذهان العـامة ، ولدى الجـزء الأكبر من الخاصة ! وذلك ، عن طريق كلمة ، أطلقت جزافاً ، تسمية لشيء ، ولهـا في الوقت ذاته جذور تمتد في مجال آخر .! فاذا بالناس يتيهون عـن الهـدف الأصل ، وينتقلون ، عبر المعنى الثاني لهـذه الكلمة ، الى مجـال آخـر ، يسقطونه على المسمى .. فتنقل التسمية ، عبر هـذه الجسور ، من اسم ، لعـدد من اللغـات .. الى تعريف لعرق انساني !!

هز « شارل غوستاف » رأسه ، كمن لم يستوعب تماماً معنى ما سمع .. وفي الوقت نفسه ، بدا كأنه لا يود أن يستزيد صديقه ممـا يسمع .. لكنـه لم يلبث أن سـأل .. مترددا ..

ـ وهل لمـا تقول من نتائج .. غـير الذي ذكرت ؟..

ـ أذكرك على سبيل المثال .. بعشرات التسميات التي يحلو لعلماء الآثار أن يطلقوها علـى ما يكتشفونه في الشـرق من حفـريات .! « آرامي » ، « كلـداني » ، « حثّي » ، « فينيقي » ، « آشـوري » ، « بابـلي » ، « سومري » ، « آكادي » ، « فرعوني » ، الخ .. كل هـذه التسميات ، لبضع مئات ألوف البشر .. من أصل واحد .. كانت تنتقل على دفعـات ، بين حدود جغرافية تكاد تكون محدودة ! وهي ، بدءاً من الجنوب ، في شـبه الجزيرة العربية ، الى جبال طوروس .. سعياً وراء منابع المياه ، والكـلأ .. ثم جنوباً ، على طريق الساحل والأنهار ، حتى مياه النيل .! وهل غـريب أن يكون لهجرات وتنقلات هذه الأمة الواحدة ، لهجات متفاوتة ، اذا تناءت ؟.. وأن تبني لقراها ، ومدنها ، حصوناً ، لتحميها من غزو القريب ، والغريب ؟!

ألم تكــن ، هــذه ، حال أوربا ، حتى القــرن الثامن عشر ؟! ما معنى أن يلقب اليوم من عاش من الناس ، منذ ألفي عام من عرب ، بالشعوب البابلية ، أو الأكادية ، أو السومرية .. ومن عــاش منهم في سوريا ، وعلى سواحلها ، بالكنعانيين ، وبالفينيقين .. وكل هذه تسميات لم تشتق في الأصل الا مــن اسم لهجــة ، أو لكنة ، أو اسم قرية ، أو ملك ...

ما معنى بأن تؤكــد الاختلافات في طريقة معيشة هؤلاء .. فنقــول : إنه كان لكل منهم لغــة ، وحضارة ، تختلف عن الأخرى ؟ حتى اذا رجعنــا الى مرجع آخــر .. وجدنا علماء التاريخ يقولون إن هــؤلاء « الفينيقين » مثلا ، إنما انتقلوا الى تلك السواحل ، بعد هجرات متعددة ، من اليمــن ، والبحرين .. وان سكان اليمن ، والبحرين ، كانوا ، وما زالوا ، عرباً ، حتى اليوم ؟!. قل لي بربك .. لماذا تختفي تسمية « عرب » عن هــذه الشعوب ، متى تجاوزوا ، في هجراتهم ، بادية الشام ؟!.

صمت فراس هنيهة ، ثم ضحك ساخرا وتابع ..

ــ لا شك أن للغرب عيناً ساهرة تخاف وحدة العرب ، والإســلام ! بعثت بمستشرقيها أمثال « دوساسي » و « ريشــان » .. ولجأت الى أسلوب الغــرب المفضّل ، في اطلاق التسميات المتعددة الأهداف ! فاذا لكل بقــايا جدران قرية ما .. « جيش » .. و « ملك » !! ولكل مدينة .. « مدنيّة » ، و « حضارات » !! ولكل اختلاف بسيط في اللهجة ، أو في أسلوب الكتابة ، اسم جديد للغة جديدة !! مخالف تماماً ، لاسم اللغة ، التي تتكلمها الشعوب نفسها ، والتي تفرّق بعضها عن بعض بضع مئات من الكيلومترات !!

ســأل « شــارل » ، متعجبــاً ..

ــ أتود القول : إن كل هــذه التسميات ، التي ذكرت ، انما تشــمل أمــة واحدة ؟! وحضارة واحــدة ؟!

قال فراس ، كمن يضبط صوته ، كي لا يصيح في وجه صديقه ..

ــ حضارة واحــدة .. على قــدر ما تقول اليوم إن للغــرب حضارة

واحدة ، في أوربا !.. هل تقولون اليوم ، في أوربا : « حضارة الغرب » ، أم .. « حضارة ايطاليا » .. و « حضارة انكلترا » .. أو « بلجيكا » .. أو حضارة « فرنسا » .. الخ ؟.. ان اللغة اللاتينية قد تفرعت الى لهجات تطورت ، وصار عنها كل من اللغات الايطالية ، والفرنسية ، والاسبانية ، والبرتغالية ! ورغم ذلك ، فإنكم ، حتى اليوم ، تلقّبون هذه اللغات ، باللغات اللاتينية !.. وحضارتها ، بالحضارة الغربية .! لو أن الحياة توقفت ، فجأة ، في أوربا ، اليوم .. وجاء علماء الآثار ، بعد ألفي عام ، ينقّبون بين آثارها ، فهل ترى أنه يحق لهم تسمية ما كتب من « اللهجات » الايطالية ، « لغات » ؟! واذا وجدوا أن « ميلانو » كانت تتكلم الايطالية ، وباريس ، الفرنسية .. فهل يحق لهم ، الكلام عن حضارة « ميلانيّة » .. وأخرى « باريسية » ؟! وهل ترى اليوم أن بينهما اختلافاً حضارياً ، يُذكر ؟!

ــ لئن كان الأمر على هذه البساطة المنطقية .. فلا بد أن الكثيرين غيرك يعرفون هذه الحقائق .. فعلام تثور ؟!

ــ ليس المهم أن يعرفها بعض المثقفين .. إنهم لا يجرؤون على المجاهرة بها ، خوفاً من أن يُتّهموا بالخروج على قواعد سنها ، ودرج عليها علماؤكم ، من المستشرقين ، طوال قرنين من الزمان !!

ــ أنتم إذن أمة واحدة ؟.. ولكم حضارة واحدة ، منذ آلاف السنين ! فلماذا هذا التناحر والاقتتال إذن .. لماذا لا تتوحدون ؟.. ها ؟!

ــ وأنتم .. أبناء الديانة الواحدة ، والحضارة الواحدة ، في أوربا .. أين تناحرنا نحن .. من حروبكم ؟! وأين حروبنا .. من مجازركم ؟!

صمت الصديقان برهة ، ثم ضحك « شارل غوستاف » وقال ..

ــ صحيح .. ان ضحايا الحرب العالمية الثانية وحدها بلغت الخمسين مليوناً من البشر .. ولا أظن أن ضحايا حروبكم ، على مدى التاريخ ، بلغت مثل هذا الرقم المريع !!.. قم ، تعال !. لقد سئمت الجلوس .. لنتمشّ نحو الساحة الاسبانية .. ان لي بعض الحاجات أود شراءها من شارع «الفراتينا»..

الفصل الثالث

لم يتساءل فراس عن وقع مثل ذلك الحوار في نفس صديقه الفرنسي ، الفخور بحضارة بلاده ، وبمفاهيمها .. صحيح ، أنه لم تكن لتبدو أية بادرة من « شارل غوستاف » تدل على هـذا الاعتزاز .. لكن حياده الظاهـر ، اذا ما نوقشت مثل هـذه المواضيع ، أمامـه .. وهجومه الصريح على بعض المفاهيم الغربية الباليـة .. انما كان يخفي قناعة تامة ، بأن العالم لا يمكن له أن يدور ، الا حول المفاهيم الغربية ، للحيـاة .. وانه ، ما على المثقفين ، في الغرب ، الا أن يعدّلوا ، هنـا ، ويشذّبوا ، هناك ، لكي تصلح الأمـور ، ويعود الدفع الفكري ، والفني ، لينطلقا مع قواعدهما الأوربية .. بل ، لِمَ لا يكـون كذلك ؟ من باريس ذاتهـا ! تمامـاً كما كانت الحـال ، زمـن « ديكـارت » ..

نزل الصديقان المدرج العريض المؤدي الى الساحة الاسبانية ، يكادان يتسابقان على مئات درجاته ، التي زيّنت بمئات أصص الأزهار ذات الألوان المتناغمة .. بحيث بدا المدرّج كحديقة ، شاسعة ، مائلة .. مروحيّة الشكل .. يربض في صحنها ، وسط زحـام المارة ، والمتنزهين ، قارب حجريّ من تحت « برنيني » ، ينبع منه الماء ، ويتدفق على أطرافه ، ليملأ بحيرة بيضوية الشكل ، تحلّق حولها الجالسون ..

انتاب فراساً إحساس غريب بأن هنـاك من يراقبـه ، فتوقّف هنيهـة .

يتلفت حوله .. دون أن يجد مسوّغاً لما شعر به .. فالتفت اليه صديقه الذي كان قد تقدّمه بالسير .. وقال ..

ــ إن كنت لا تميل الى ارتياد المحلات التجارية معي ، في مثل هذا الجو المشرق ، فما رأيك في انتظاري هنا .. أو على ضفة البحيرة ، ريثما أبتاع بعض الحاجيات .. ربع ساعة .. أو نصف ساعة ، على أطول تقدير ..

هز فراس رأسه ، بالموافقة .. وتوقف ، يتفيأ ظل إحدى مجموعات الأصص ، يجول بناظريه بين ما اكتظ به المدرّج من حشود الفتيات ، والشبان ، معظمهم من غير الإيطاليين .. منهم من تجمّع حول فنانين .. يرسمون وجوه السياح ، ومنهم من يستعرضون ما فرشه البعض الآخر ، من حليّ يدوية الصنع ، معدة للبيع .. ومن بقي ، من مئات الذين يقصدون هذاالمدرج .. جلس ، معظمهم ، على درجاته ، يحتسون الجعة .. يغنّون ويمرحون ، أو استلقوا على ظهورهم ، يتلقّون أشعة الشمس ، وأغلب الذكور منهم ، عارية جذوعهم ، لا يرتدون سوى سراويل قصيرة ، أشبه بما يُرتدى على شاطىء البحر ، من لباس السباحة ..

عاوده الشعور بأن هنالك من يراقب حركاته !.. فلم يتلفت حوله ، كما فعل في المرة السابقة .. بل راح يدقّق النظر في الوجوه المحيطة به .. يدور بناظريه ، في تأنّ ، نحو المصدر الذي ارتاب به .. فاستوقفه وجه رجل ، أسمر البشرة ، إسباني الملامح ، يشخص أمامه ، في شبه ابتسامة ، دون أن يقصد أحداً بتلك الابتسامة !

همّ أن يسير .. في الاتجاه الذي غاب فيه صديقه « شارل » .. ثم تمهّل ، وقد طغى عليه يقين أنه يعرف ذلك الرجل .. وأن ذلك الغريب يلاحقه .. ينتظر منه ما يوحي بأنه قد تعرّف إليه !

كان قد وصل الى البحرة ، القارب ، في أسفل المدرّج ، وتمهّل ،

يبحث عن مكان يجلس فيه ، على رصيف حافتها .. فما إن استدار قليــلا .. يشحذ الفكر في البحث عن هوية ذلك الوجــه .. حتى رآه يجــدّ وراءه .. ثم يتوقف فجأة ، يطالعه بابتسامة صريحة ملؤها التساؤل والعتاب ..

سمع فراس نفسه يضبط صيحته ..

ــ عثمــان .. إنــه عثمــان !

وكاد يقفز نحو الرجل !. لكنه تمالك نفسه .. وتلفّت حوله ، مـرة ثانية ، يتقــدم منه ، ويقول ، على عجل ..

ــ إني أنتظر وصول صديقٍ فرنسي ، خلال ربــع ساعة من الزمــن .. لكنه قد يفاجئنا في أيــة لحظة .. عثمان .. عثمان .. يا الله !! أبعد هــذه السنين الطوال ؟! تعال .. تعال نجلس في ذلك المقهى .. بعيدين عن الأنظار !..

وأمسك بكتفي الرجل كمن يهمّ أن يعانقه .. لكنه استدرك نفسه مرة أخـرى ، فأرخى ذراعيه ، وسارا صامتين ، نحو المقهى ، فدخلاه ، وجلســا متقابلين الى مائدة ، لا يحرجهما صمتهما .. يتبادلان نظرات تحمل من الماضي ذكريات أحداث كفاح باتت من التاريخ !.. لعلهــا ، فيما يخصّهما ، لم تكــن ســوى ومضات مقتضبة من نار حرب طــويلة استعر أوارها مــدى سـنين طــويلة !.. لكنه تخيّلها في تلك اللحظة ، كسقط الزند .. لحظات مكثّفة ، مفعمةٍ بنور ثورة جبّارة .. أعادت الحياة ، في الهواء الطليق الحــرّ ، الى شــعب نبيل ، يستحق الحيــاة !

ســأله عثمان ، في هــدوء ..

ــ ما أظنك عــدت الى الجزائر .. بعــدَ ..

وتوقف .. ثم ضحك ، وهو يتابع ..

ــ بعــد فراقك منهــا !.

ـ لا ، لم أعد اليها ..

تمهّل فراس قليلا ، ثم تابع ، وهو يهز رأسه ..

ـ ليتني كنت معكم .. يوم خروج الفرنسيين منها !! ليتني شاركت في تلك الفرحة !

هزّ عثمان رأسه بدوره .. وقال ..

ـ لا .. لم يكن ذلك اليوم كما تظن .. كله أفراح النصر !. ان سيل التضحيات والآلام لم ينقطع ، مدة طويلة .. حتى بعد ذلك اليوم الذي كنا نظنّه خاتمة الأحزان !!

راح يحرّك رأسه ، كمن يتابع حديثاً داخلياً .. ثم قال ..

ـ ليس التاريخ كما يُكتب في صفحات كتبه .. تلي الحمرَ منها ، صفحاته السود .. ثم .. تقلب الصفحات .. فتقرأ ما سيكتبه المستقبل من صفحاته البيض !! لا .. ليس التاريخ كذلك .. قصة عاطفية ذات خاتمة سعيدة !!.. كم من الكتب التاريخية لا تعرف سوى الأسود ، ثم الأحمر ، ثم الأسود ، والأحمر !! وهكذا ، دواليك !!

راح عثمان يبحث عن لفافة ، ما إن أخرجها من علبتها ، وأخذ يشعل طرفها ، حتى تنبه فراس الى رجفة طفيفة بدت على يديه اللتين كان في الماضي قد أعجب بنزقهما ، وبقوة خطوطهما الطويلة الرشيقة ..

تأمل فراس رفيقه القديم ، وقال ، مواسيا ..

ـ إن الأمور لا تسير على ما يرام ، وعلى ما كنت تشتهي !.. أليس كذلك ؟ لكن ، هيهات بين ما كنّا فيه بالأمس ، وما نحن فيه الآن !..

رد عثمان ، كمن لم ينتبه لتفاؤل صديقه ..

ـ لا شك أننا اليوم أحسن حالا مما كنا البارحة .. لكن .. يبدو لي أن أمورنا لن تستوي أبداً على ما كنّا نشتهي ، في يوم من الأيام !..

كان فراس ينظـــر الى وجه رفيقه .. يخص بالنظـــر عينيه الأعرابيتين الخضراويين .. وحاجبيه الكثيفين اللذين لم تكن تقطيبتهما الطفيفة لتفارقهما .. حتى أثنـــاء المرح ، والابتسام !

كان عثمان قد أدار وجهه نحو النافذة ، وشعاع النور العريض المتدفّق منها .. فتنبه فراس الى حدقتيه الواسعتين ، رغم ما سقط عليهما من وهج !.. فقال ، عجلان ، مرتبكاً بعض الارتباك .. وهو ينظر الى لفافة رفيقه ..

ــ عثمان !.. هل أنت تتعاطى الـ .. ؟ هل أنت .. تدخن الـ ..؟!

ثم تلعثم بعض الشيء ، لا يدري كيف ينهي سؤاله !

هزّ عثمان رأسه بالإيجاب ، وقال ، في واقعية ساخرة ..

ــ نعـــم .. لقد بتّ في حاجة الى أكثر من الأمل والوعود ، لتهـــدئة أعصابي ! لكن .. هوّن عليك .. فليس في لفافتي هذه ، شيء ..

وبعد أن عبّ نفساً طويلا منهـــا .. قال ، يعاتب نفسه ..

ــ .. ليتني ما زلت في تلك المرحـــلة !. مرحـــلة ما في اللفافات ، من مخدّر !! إنني يا صديقي ارتقيت في هذا المجال ، مرتبة أعلى .. أعلى بكثير :!

أحسّ فراس كأن شيئاً في أحشائه يوشك أن يتقلّص ! لماذا ، عثمان ، بالذات ؟! لمـــاذا ينوب عثمان هذا البلاء ؟ وأمل الشباب .. وحلم يقظة أمـــةٍ بكاملها كان يراه مجسّداً فيـــه ؟! تمنّى لو أن جميـــع الحجب تزول فجـــأة بينهما .. لو أن ريحاً عاصفة تُزيل جميع ما تراكم بينهما من غبار الزمـــان .. فيدخـــل في تفاصيل ما يؤرّق هـــذا المحارب وخباياه .. يخفف عن كاهليه ما يدفعـــه نحو تلك الهوة المخيفة !.. لكن خطاً موازياً تراءى له ، في ذهنـــه ، وتفسه يعتصرها ذاك الإحساس .. إن ما ربطه بعثمان في الماضي ، لم يكـــن محض صداقة اختيارية ، بقدر ما كان لقـــاء هيّأته المصادفة ، ثم مال أحدهما

نحـو الآخر .. وتحابّا ، لكـن ليس فيما ربطهما قاعدة صلبة من المعرفـة الشخصية تبيح لأي منهما محاولة خـرق حجب حياة رفيقه الخاصة ..

سمع صوت عثمان يقطع عليـه أفكاره ..

ـ ما زلتَ يا فراس كمـا رأيتك .. أول مرة .. على متن ذلك المركب ، ونحن نجتاز مضيق جبل طارق !.. ما زلت على توثّبك .. وغموضك !

ارتسمت على شفتي عثمان ابتسامة ملؤها حنان أخوي .. وهو يتابع ..

ـ إنك تنظـر اليّ ، الآن ، باللهفة الصادقة نفسهـا التي رأيتهـا في عينيك ، يوم ظننتك أوربياً ، قادماً الى الجزائر ، لتلتحق بالفرقـة الأجنبية .. وما هدفك الا محاربة الوطنيين فيها ! كم مضى على ذلك التاريخ .. إثنا عشر عاماً ؟! غريب ، إنك اليوم أكثر وسامة .. وفي عينيك نظـرة صادقة ، أقـل بروداً .. أكثر قلقاً .. أبعد عمقاً .. مما كان لهما في الماضي !

ضحك فراس ، وقـال مازحـا ..

ـ وتذكـر كل هذه التفاصيل عني ؟! ها أنت ذا قد أزلت حجب الزمان بيننـا ! ما زلت يا عثمان تعرف كيف تأخذ بعنان المبادرة !.. أتذكـر حين كنت تعدني ، وأنا مفترشاً الأرض في غرفتي في القصبة ؟.. حين كنت جريحاً .. بخنجرٍ عربيّ .. ظنّ صاحبه أني أوربي .. عدو .. و

ـ كيف تقول ظنّك ؟! لقد كنت « مكسيم » .. كنت بالفعل فرنسياً ! ومتطوعاً في الفرقة الأجنبية .. بل مرتدياً لباسها الرسمي ! أما زلت تلوم ذلك القـروي البسيط ؟!

صمت فراس برهـة ، ثم أجاب ..

ـ لست أدري لماذا أكلّف غيري النظر الى أعماقي ، عبر جميع ما أحيط بـه نفسي ، عامداً ، من أزياء تنكريّة .!

ـ أعـرف أنك أنت ، تنظـر الى غيرك بدءاً من النسغ ، لتصـل الى

القشور ، لا يهمك ما يبدونه للغير من أدوار .. ولا ما يتقمصونه من أوضاع وشخصيات !

تعجب فراس ..

ـ وتعرف هذا كذلك !.. كيف ؟

ـ من التفاوت الكبير بين أنماط البشر الذين تخالطهم ! هل من حاجة الى أن أذكّرك بمن تعرفهم من الخارجين على العدالة .. هكذا ، ارتقاءً على السلم الاجتماعي ، حتى تصل الى طبقتك الارستقراطية .. والعشرات من أمراء الشرق ونبلاء أوربا !!

لم يكن في إشارة عثمان الى بعد النقيضين فيمن ذكرهم ، هدف سلبي.. لكن فراساً راح ينظر الى عيني محدثه في صمت ..

نظر عثمان الى ساعته .. ثم قال ..

ـ لقد تأخرتَ على صديقك .. أليس كذلك ؟

ثم اعتدل في جلسته ، مقترباً من فراس ، وتابع في صوت خفيض..

ـ اسمع يا صديقي .. إن لقاءنا اليوم لم يكن محض مصادفة !

وإزاء دهشة فراس .. أمسك يده برفق ، وتابع ..

ـ إني أتقصّى أخبارك منذ زمن بعيد !.. ولقد كنت أتتبع تنقلاتك منذ عدد من الأسابيع .. لا تعجب !.. فالحرص واجب في مثل هذه الظروف !.. لكن هذه تفاصيل ثانوية ، لا أهمية لها .. سوف أطلعك عليها فيما بعد . المهم في الأمر ، هو سؤال ، أود أن تجيبني عنه الآن !.. إجابة جازمة ، كما تعوّدنا في الماضي !.. « هل أنت على استعداد لمؤازرتنا ! » من جديد .. هذا هو السؤال !.. إنني ما زلت مع المقاومة ، ولو أن العمل فيها قد انتقل الى مرحلة أخرى .. كما أني شخصياً صرت في موقع ذي حساسية أكبر ..

بل أنني في مركز قيادي !.. أحد هذه المراكز ، على الأقل ..

تبدلت نظرة الدهشة التي كانت على وجه فراس .. وارتسمت مكانها نظـرة متفرّسة ، متوثّبة ، متسائلة ..

ـ عثمان !.. أنا لم أعـد ذلك الشاب المتطوع في الفرقـة الأجنبية .. لا بد أنك تعلم ذلك !.. ما دمتَ على ..

ـ أعرف .. أعرف ذلك .. لكنك ، رغم ظاهرك ، ما زلت ذلك الفنـان البوهيمي .. الوطني !!

ـ أنا .. ماذا أقول ؟!.. إن حياتي اليوم لأبعد ما تكون عن المجـال العمليّ للثورة والثائرين !.. لست أدري .. لعـل ما تريده ، سوف يقتضي مني أن أبدّل كلياً ، من منهاج حيـاتي !.. وليس هذا هو المهم .. انما لست أدري في الحقيقة .. هل أنا قـادر على ..

ـ لن تكون في حاجة الى أن تبدّل فيها قيد أنملة !.. انمـا نمط حياتك هـذا ، هو بالذات ما شدّني إليك !! بل ربما تحتاج لأن تزيد من سـعة هذا الحيّز الاجتماعي الذي تجول فيه .. في هذه الحريـة الكاملة !.. فراس ، إن ما نحتاج إليه اليوم لم يعد المال !.. أو اليد المحاربة !.. فلقد بات لدينا الكثير من هذا .. والعديد من هؤلاء !! إن ما ينقصنا اليـوم هو حلقـة الاتصال بين ما لدينـا من مال .. وما يستطيع المـال شراءه من سـلاح متطور ، ومـن أذهان متطورة !!.. لقد أدركنا هذا النقص ، وهذا تطور هام في حد ذاتـه .. بقي علينا الآن ، سـدّ هذا النقص !..

دهش فراس لمـا سمع ..

ـ وهل ينقصكم السلاح ؟! ثـم .. ماذا تقول يا عثمان .. إن بلادك قد نالت استقلالها ، منذ أمـد بعيد !.. أي نوع من المقاومة تتحدث عنه ؟!.. وأيـة أذهـان متطورة ؟!

ـ ألست تثق بي يا فراس ، أو بإخلاصي على الأقل ؟!.. إن ما نحـن

في صدده اليوم لا يجري الصراع عليه .. في بلادي .. ذلك لقطر الصغير الذي تسمّيه بلادي .. إننا نعمل على الساحة الكبرى .. بكاملها !.. بل وهنـا ، بالذات !.. في أوربا !.. نحن نقاوم أعداء بلادنا .. حيثما وجدوا !.. هـذا عن الهدف .. أما عن السلاح .. فإنه أحـد مجالاتنا .. لكنـه مجال في غايـة الخطورة .. ولست أتكلم عن البسيط منه ، الذي هو في متناول معظم المنظمات والجيوش .. إنّنا في حاجة الى نوعية لخاصة ، يستعملها أعـداؤنا !.. وهي دوماً في تطوّرٍ مذهل التسارع !.. ولا يباع هنا ، أو في أمريكا ، إلا لهـؤلاء الأعـداء .. أو للجماعات اليمينية التي يستوثقون سلفاً من أنه لا علاقة لهـا بنا البتة !.. والتي لا يمكن لهـا أن تقوم لنـا بدور الوسيط !.. ان السلاح المتطوّر لا يباع لنا .. إلا حين يكون لدى الأعداء منه سلاح أكثر تطورا !!

ــ ألم تستطيعوا تجاوز هذا الحظر .. حتى الآن ؟

ــ بل فعلنا .. مرّات .. عبر وسطاء متخفّين غربيين ، ما لبث المنتجون أن كشفوا أمرهم !.. ولعـل أعداءنا هم الذين كانوا يتولون أمـر كشف هـويّاتهم !

هنا ، توقّف عثمان هنيهة .. كأنه يحاسب نفسه على ما سيقوله .. ثـم تابع .. وهو ينظر في عيني فراس ، وعبرهما ، الى الرفيق القديم ..

ــ ولقد لقي بعض هؤلاء مصيراً تعْسا .. حتى لم يبق هنالك من يجرؤ على التوسّط لنا .. مع الجهات المنتجة ! وإن ُوجدوا .. فإن ثمن الوساطة صار أكبر مما نستطيع أن نثابر على بذلـه !!

نظر فراس الى ساعته قبل أن يسند رأسه الى كفّه .. يحـدّق في عيني رفيقـه .. ثم قـال ، وهو يبتسم ..

ــ أراني مضطرا الى الايجاز ، فنحن لا نريد لصديقي أن يأتي باحثـاً عني .. هنـا !

ثم تابع ، متمهلا ، بلهجة هـادئة ، مدققة ، فيما يقول ..

ـ إنـك تريدني أن أقـوم بهـذه الوساطة .. لا كفراس العـربي ، بالطبع !.. بـل كـ « مكسيم » الفرنسي ، اذن ؟ لا بالطبـع ! فلـ « مكسيم » تاريخ حافل في الفرقة الأجنبية .. ألم يفـرّ من الفرقة بعد أن سلّم أسـراراً عسكريـة الى الوطنيين المجـاهدين في بـلادك ؟!.. أيـة شخصية إذن ؟.. « ميشكا » ؟.. دعني أفتـح حقيبة أدواري المسرحية ، لأجد لباسـاً مناسباً لهـذا الـدور !!

سـأل عثمان ، مستوضحاً .. متعجباً ..

ـ ومن يكن هـذا الـ « ميشكا » ؟.. أشخصية أخرى ممّا تقمّصت ؟!

ـ شخصية إنسان روسي .. لا يربطه شيء بعالمك ، أو بعالم الأحياء ، إجمـالا !..

ـ لا تهزأ ، يا فراس !.. لا تسخر !.. فالأمر ، وإن لم يكن على تلك الدرجة من المباشرة التي عرفتَها لحركتنا ، أثناء الاستقلال .. لكن .. يكفي أن أقول لك : إن ألوف القتلى من مجاهدينا قد استشهدوا ، حتى اليـوم ، في سبيل ما أنا أتحدث عنه !.. لقد اغتالوا أخي في « بروكسل » منذ أسابيع !!

كان صوت المحارب القديم قد تهدّج بعض الشيء ، قبل أن يصمت .. وحينما وضع فراس يده مرة أخرى على يد رفيقه قبل أن يرفعها ليشعل لفافة .. أدرك من رعشتهـا أن الأمـر بالنسبة الى عثمان بالـغ الجديـة .. فأطـرق يمعن في التفكير ، ثم رفع رأسه ، وقال متمهلا ..

ـ وكيف أقوم بهذه الوساطة..وأنا ضمن دائرة علاقاتي التي تعرف؟!.. أم هـل سيتحتم عليّ أن أقوم بدور رجل الأعمال بينهم ؟.. إنك تعـلم أن لا طـاقة لي بالقيام بهذا الدور ، ولو شئت ذلك !

ـ لا .. لا .. عـلى العكس !.. إن أصدقاءك من النبـلاء هم الذين سيقومون عنك بهـذا الدور .. ويتقاضون كالمعتاد ربح الوساطة !.. لا أظن أن من بين أصدقائك من لا يقسم أنك من صُلب اليمين !.. وهل في ظاهـرك

ما يـدل على غير ذلك ؟! نحـن نوافيك بتفاصيل ما نريد ، وبالجهة المنتجـة المقصودة .. وأنت ، تطلب ممـن يناسبه الدور ، من معـارفك ، أن يقـوم لحسابه الخاص بدور الوسيط .. مصرّاً على سرية هوية الشاري .. مؤكداً لـه ، أنه من أقصى اليمين !.. إن كل ما نطلبه هو أن يكون الوسيط أحـد معارفك من الأوربيين .. على أن تقوم أنت بإقناعه أن الجهة الشارية تعمـل لحساب اليمـين !

ــ وأسلحتكم هذه .. من الذي يستلمها من معاملها ؟ وكيف تنتقـل « سـرّاً » الى حيث تريدون ؟

ــ تزوّر وثـائق الشحن ، من المصدر ، كالمعتاد .. على أنهـا بضائع عـادية .. وتشحن الى بلدٍ محايد ، ثم نعيد شحنها ، نحن ، الى حيث نريد ، بعد أن نكون قد هيّأنا رجال الجمارك في البلد المقصود ..

وقف فراس وهو يتنفس بعمق .. ثم تنهـد ، وقال ..

ــ لقـد تأخرت على صديقي بما فيه الكفـاية .. ما رأيك أن تتـابع حديثنا في مناسبة مقبلة ؟..

قطّب عثمان ، وقال ، في أسى ظاهـر ..

ــ فراس .. أتتهرب !.. هـل ستخذلني ؟!

ــ أنا لم أقـل ذلك !.. أتريد أن تتوافى ، هنا ، غداً .. في مثل هـذه الساعـة ؟

ــ كلمة واحدة ، أريدها منك الآن ، قبل أن تنصرف .. نعم ؟ أم لا !..

ــ نعـم .. ربمـا ..

وخرج فراس ، مسرعاً ، يبحث عن « شارل غوستاف » الذي صار للقبه « كونت دي بروفانس » في ذهنه ، ولأول مرة ، معنى آخر !

* * *

كان «شارل غوستاف» يجلس على حافة بحرة «برنيني» شأنه شأن عشرات الجالسين عليها .. كتفاً الى كتف .. ينظرون ، تارة الى الماء المتدفّق ، وتـارة أخرى الى المدرّج الذي بدا كأنه مكسوّ ببسطٍ منمّقة من الأزهار البيض والوردية اللـون ..

بادره فراس ، وهو يجلس ، حاشراً نفسه الى جانبه ..

ـ أرجو المعذرة !.. لقد فاجأني لقاء صديق قديم .. جلست وإياه في مقهى الـ « كرِكتو » ..

ـ عثمـان .. أعـرف ذلك ..

بوغت فراس بسماع اسم صديقه على شفتي « شارل غوستاف » !.. لكـن هذا تابع قوله ..

ـ رحت أتمشّى ، أبحث عنك .. وحـين تأخرت .. خمّنت أنك قـد تكون في المقهى .. تحتسي القهوة على عجـل .. فما إن شاهدتك معـه حتى عـدت أدراجي ، أنتظر رجوعك ..

ـ وكيف عرفت أن الذي كان معي هو عثمان ؟.. عثمان بالذات !!

ـ لعلك نسيت !.. لقد حدّثتني مطولا عنـه .. في الماضي .. منـذ زمـن بعيـد ..

ـ أذكر أني حدّثتك عنه .. لكنّك لم تره قبل هذا اليوم .. ولا أملك صورة لـه !

كان فراس يحاور صديقه ، وعلامات العجب البالغ تبـدو على وجهه .. فربت « شارل غوستاف » على كتفـه ، وقال ..

ـ هـوّن عليك .. لقد ظننت في البـدء أنه « بيدرو »* .. صديقك الغجري ، عازف القيثار الاسباني ..

---

* « بيدرو » شخصية اسبانية وردذكرها في رواية « مسافر بلا حقائب» للمؤلف .

ندّت عن فراس صيحة دهشة مكبوتة ..

ـ عثمان ، « بيـدرو » .. وتذكُرُهما من الماضي ، ماضيَّ أنـا !! وتتحدث عنهما في بساطة كأنك تلقاهما كل يوم !! «شارل» انك لاتعرف عنهما سوى ما حدثتك به .. منـذ زمن بعيـد ..

تبسّم « شارل غوستاف » .. وقال ..

ـ كلاهما « أسمر ، أخضر العينين .. قاسي الملامح » .. ثم .. لقـد كنتَ تتحدّث اليه في مودّةٍ ولهفٍ ، لم أرهما فيك منذ أمد طويل !.. منذ كنا في الحي اللاتيني ، وفي صحبة « غونتر » و « جون » و « باتريس » ..

صمت الصديقان برهة طـويلة .. لعل خيال كل منهما طار نحو أيـام الشباب الأول .. « غونتر » و « جون » .. ذاك الانفجار الرهيب !! رفاتهما ، باتـا جزءاً من تراب أحد سفوح جبال الجزائر .. لعل طيوراً جارحة تغذّت بذلك الرفات .. وطارت فـوق قمم جبـالٍ أخرى .. ثـم ماتت .. وعادت بدورها الى التراب !

أين يضيع ومض الحياة الذي يتدفّق في الجسد الدافىء الحي ؟ أيـن يتبدّد شـرر لهيب الحب الجامح ؟.. أي عـدمٍ يتلقّف ما ينبض به جسد الانسان الحي من عاطفة .. مستعرة ؟.. يموت الناس .. وتتبدّد الأجساد . والصدى ؟.. أصداء صيحات أو بكاء هؤلاء ، أحزانهم .. وأفراحهم .. جميع ما نغّصَ حياتهم ، وما أسعدها .. أين يغيب صدى ما تناغم بين النفوس من عشقٍ ووجـد ؟!

عاد خرير الماء المتدفّق الى سمعهما .. سأل « شـارل غوستاف » ، في شـرود ..

ـ متى نرى « باتريس » ؟

ـ نحن مدعوان .. بعد عشرة أيام ، لسهرة عند خالته .. الماركيزا « كولونا »* ..

ـ وهل يقيم وزوجته .. عندها ؟

ـ لا .. إنها تملك شقة في شارع « سيستينا » .. غير بعيد عن قصرها .. أظن أنهما يشغلانها ، في الوقت الحاضر ..

تمتم « شارل غوستاف » في تعجب ..

ـ غريب هذا الزواج .. إن « كولونا » من أعرق عائلات روما .. ترى ، أيّة مصادفة جمعت خالة « باتريس » ، بتلك الأسرة ؟!

ـ ليس « باتريس » نبيلا من جهة والده فقط .. إن والدته من أسرة « دو شينييه » التي من أفرادها الشاعر « أندريه دو شينييه » .. ولقد لجأ عدد من أفراد أسرة « كولونا » وبينهم الأمير الجد ، الى فرنسا ، أثناء الحرب ، وأقاموا لدى أسرة « شينييه » عند سقوط حكم « موسوليني » واحتلال الحلفاء لايطاليا ..

ـ وهل كانوا من دعاة الفاشية وأنصار « موسوليني » لدرجة اضطرتهم الى الهرب من ايطاليا ؟

هزّ فراس رأسه ، وقال ساخراً ..

ـ إن أسرة « كولونا » أرفع من أن تكون من أنصار هذا النظام ، أو ذاك .. أو من أنصار هذا الحاكم ، أو ذاك !

قاما يتمشّيان عبر شارع « فراتّينا » يستعرضان ، دون انتباه ، ما حفلت به واجهات المحلات التجارية من آخر مبتكرات دور الأزياء الأوربية ، من ألبسة ، ومجوهرات ، وأدوات تزيينية ..

قال « شارل غوستاف » مبتسماً ..

Marquesa Colonna *

ــ ان من يسمع منك تعليقك هـذا ، يظنّك في صفّ الارستقراطية ، المتشددة في مناصرة اليمين !

علّق فراس ، في سخرية ..

ــ وانه لمن سوء الحظ ألا يؤازر الارستقراطية ، الا اليمين !

ضحك « شارل غوستاف » مرحاً لما سمع ، وقال ..

ــ يا لها من جرأة عجيبة !.. أتود لأحزاب اليسار أن تناصر الارستقراطية ؟

تبسّم فراس ، وعاد الى الجدّ ، قائلا ..

ــ لم يعد هنالك ، في أوربا ، على الأقل ، أحزاب تعمل حقاً لصالح حكمٍ ارستقراطي ما !.. ان أحزاب اليمين تجرّ في أذيالها ، فيمن تجرّ ، بعض الارستقراطيين ممن يظنون أن في حكم اليمين ملجأً لهم .. يأمنون فيه عاديات الزمان !.. أنت تعلم أن السلطة هنا محصورة في يد البورجوازية الصناعية .. كما هي الحال في الولايات المتحدة .. وأن ملوك أوربا لا سلطة فعلية لهم !. لقدكانوا ، في العصور الوسطى ، أعداء البورجوازية والفلاحين .. أما اليوم .. فمن السخف أن يتكلم عنهم الانسان ، « كطبقة » ، عدوة لأية طبقة كانت !.. كانوا طبقة ، في يوم من الايام .. واندثروا !.. لا ، ان الارستقراطية التي أتكلم عنها باتت رمزاً ، وأسلوب تعاملٍ في الحياة .. ليس غير !

ــ وأسرة « كولونا » ؟.. وما لها من ممتلكات شاسعة .. هل هي رمز ، أم واقع ؟!

ــ أين ممتلكات هذه الأسرة .. من ممتلكات وثروات عشرات ألوف الصناعيين .. أو القائمين عن المال وأصحابه ؟! فأنا حين أذكر كلمة

ارستقراطية .. أعني بذلك ، كما قلت ، أسلوب التعامل .. ونمط الحياة .. لا سواهما ..

ــ هذا الأسلوب .. ليس وقفاً على هؤلاء ، كما تعلم !

ــ ليس كأفراد ، بالطبع ! فالنبل ، ميزة .. أو صفة أخلاقية ، يمكن أن يتحلّى بها أي إنسان .. مهما قلّت ثقافته ، أو فقر حاله .. لكنني لا أعرف وسطاً يجاهد في الحفاظ على هذه الصفة (سواء وفّق الى ذلك أم لا) مثل الوسط الأرستقراطي ! خذ العلم مثلاً .. إنه لدى الوسط البورجوازي طريق إلى النجاح ، سبيل إلى الحفاظ على الثروة ، أو الحصول على مزيد منها !.. حتى النظافة .. والأدب ، في التعامل والكلام .. إنها صفات خارجية يتحلّى بها البورجوازي .. لا تراث تليد يحافظ عليه .. كما هي الحال في الأسر الارستقراطية المحافظة !

لم يكن « شارل غوستاف » قد سمع صديقه ، رغم معرفتهما الطويلة ، يطرق مثل ذلك الموضوع ! لمع في ذهنه خاطر مفاجىء !! كيف غابت هذه الملاحظة عن ذهنه ، طوال هذه السنين ؟! إن معظم الأشخاص الذين أقام فراس معهم علاقات حميمة ، كانوا من النبلاء !.. « الكونتيس دي روكموريل ».. التي ماتت بين ذراعيه.. « باتريس ».. الأمير «يوسوبوف».. الدوقة « انستازيا » .. وهو ، « شارل غوستاف » !! ثم أمراء الشرق .. والأمير مراد !

مرة ثانية ، تبددت هوية « فراس » العربي التي كان قد تعب « شارل غوستاف » في فرضها على إدراكه ، وحلّت محلّها صورة « مكسيم » ، النبيل الروسي ، الذي عرفه في الحيّ اللاتيني ، والتقاه في دار أوبرا باريس ..

نظر إلى صديقه ، كأنما يستحلفه ألا يخيّب ظنّه مرة أخرى ، وقال ..

ــ « مكسيم » !.. « مكسيم » ؟!

تبسم صديقه ، في مرح .. وأجاب ..

ــ بل فراس .. يا عزيزي !.. فراس ، آخر الأمويين !

الفصل الرابع

صدح جرس الهاتف برنين موسيقي لخافت .. كان فراس على وشك أن يغطّ في إغفاءة قصيرة ، فتمطى . سعيداً ، يسحب ذراعه من تحت عنق رفيقته . يمسك بالسمّاعة التي كادت تهوي من يده ..

سمع صوت العامل يقول ..

ـ الكونت « دوبروفانس » يطلبك .. يا سيدي ..

ـ حسناً .. هاته ..

جاء صوت « شارل غوستاف » حيياً .. متردداً ..

ـ اعذرني .. هل أنا .. هل أقلقت قيلولتك ؟

ـ لا عليك .. لقد سَرقَتْها غادة حسناء .. يداعب النوم أجفانها هذه اللحظة ..

ـ إيطالية ؟

ثم علا صوته ، كمن فطن لأمر فاته من قبل ..

ـ لا .. أراهن على أنها تلك الإنكليزية .. التي لقيناها مع صحبها في « البياتزا نافونا » !

ـ بالضبط !.. إنك يا « شارل » ، أرِبٌ .. لا يفوتك شيء !

ـ إن صوتك على الهاتف لا ينقل لي غير ما تقول .. لكني أرى بعض سخريتك المعهودة على طرف شفتيك !.. اسمع .. إني أخابرك لأسألك هل

كنتَ تودّ زيارة صديقتي الإسبانية ، التي حدثتك عنهـا .. هـذه الليلة .. تتناول عندها كأسا من الشراب ، قبل العشاء ..

سأله فراس ، ضاحكاً ..

ــ وهل حدّثْتها عني ؟!

ــ لا .. إني أسـألك رأيك أولاً .. ثـم نرى ماذا نخطّط للمساء .. والسهرة ..

ــ حسناً .. ليس عندي ما يشغلني .. لكن .. لي طلب عندك ..

ــ أنت ، تطلب مني أمراً ؟! تفضل .. مرني !

ضحك فراس ، وتابع ..

ــ لا تخبرها بمن أكون .. أعني .. آراءك الخياليّة عني .. أو غـير ذلك !.. قل لهـا إني صديق .. مجرد صديق يفضّل كتمان هويته عن الناس مؤقتا .. لأسباب شخصية .. أو ما إلى ذلك .. « مكسيم » فقط ..

ــ حسن .. هل نلتقي في مقهى « الكانوفا » .. في الساعة السادسة ؟

ــ إلى اللقاء .. « الكانوفا » .. في الساعة السادسة ..

كانت الفتاة قد صحت من شبه إغفاءة خفيفة .. فنهضت ، تجمع شعرها الخصب الأسود الطويل ، في عقدة ، ثم أطلقته إلى الوراء ، فتهـدّل عـلى بشرة ظهرها الناصعة البياض .. يكاد يغطّي كتفيها المنسكبين ..

نهض فراس من الفراش الدافىء .. ونظر إليها متبسّما .. متعجّباً .. ثم قـال ..

ــ مالك تسترين نهديك ، هكذا ؟!.. كأننا على وشك دخول الفراش ! لا كأننا خارجان منه !

تنهدت الفتاة ، وهي تُخرج ساقيها من تحت الغطاء .. تجمع حاجتهـا بيـدٍ .. محتفظة باليد الأخرى بملاءة السرير التي تابعت التستّر بها ..

قالت في نبرة حيادية .. كمن يصف أمراً لا علاقة له به ..

ـــ لقد توقّعتُ ، منذ البدء ، أن تكون إنساناً .. ماذا أقول . إنساناً .. لا كغيرك من الناس !! لكنني .. بالتأكيد .. لم أتوقع هذه الدرجة من الغرابة ؟!

تعجّب فراس لصيغة كلامها ، ولتعليقها .. لكنه أخفى شعوره .. وكاد يسألها عن سبب انطباعها ذاك .. ثم آثر الصمت .. واثقاً أنه خير طريق لسماع ما تبقّى لديها من هجومٍ ، أثاره خطأ ما ، ارتكبه ، دون قصد ..

تابعت الفتاة ، وهي ترتدي ملابسها ، في هدوء ..

ـــ هل تدرك ما أعني ؟! انك لم تحرْ جواباً على ما قلت ! فأنا ، لو قلت، ما قلت ، لغيرك من الرجال ، لكنتُ وإياهم ، الآن ، وسط نقاش مثير !.. أما أنت ، فانك تتابع ارتداء ملابسك .. في نفس الارتجال الواعي الذي مارست به معي ، جلسةً .. جلسةً .. لست أدري بالضبط ..

تباطأت الفتاة ، في شيء من البرودة المفتعلة .. ثم تابعت ..

ـــ قل لي أنت .. ماذا كانت تلك ؟.. أجلسة جنس ؟.. أم جلسة حب ؟.. أم جلسة .. لا ..

لمعت عيناها فجأة .. وقالت ، تاركة مظهر اللامبالاة الذي كانت تحاول التمسك به ..

ـــ لقد كنت تكرّر معي .. تكرّر .. مطارحةً قمتَ بها مع إنسانة أخرى ! لم تكن تتخيّلها مكاني .. لا ! كنت تكرّر المطارحة ، وحسب !.. تكررها ، معي أنا !!

عجب فراس لملاحظتها .. فسألها ..

ـــ إنسانة أخرى ؟!

ـــ .. نعم .. ولن أقول إنسانة تحب .. أقول فقط ، إنسانة .. عزيزة عليك !

ـ إنسانة .. أشتهيها ؟! أتخيل أنها مكانك ؟.. أهذا كل مافي الأمر ؟.. إن الرجل ليقوم بذلك مع زوجته ، في بعض الحالات !.. لا مع فتاة جميلة مثلك وأثناء لقائهما « الحميم » الأول !!

ـ لا .. لا .. ولو أنك فعلتَ ذلك .. لما كان في الأمر غرابة .. فالكثيرون يقومون بذلك .. لا .. أنا أقول إنسانة عزيزة عليك ، أثيرة على نفسك .. كنتَ تكرّر الواقعة ، معي .. أنا !.. ليس مع غيري .. لكنك أنت .. أنت ..

توقفَتْ عن الكلام ، فجأة .. ثم قالت في عصبية ..

ـ أوه .. لم أعد أدري ماذا كنت أود أن أقول !.. ثم .. كنت أود أن أزيد على ذلك .. أنني الآن نادمة على ما فعلت ! وها أنا ذي الآن بتّ لا أدري ما إذا كنتُ حقاً نادمة على ذلك !! ويحك !.. لقد أربكتني .. يا لك من إنسان غريب !

تباطأ فراس .. كان قد انتهى من ارتداء ملابس السهرة .. فجلس ينتظر الفتاة التي كانت تتم زينتها أمام المرآة ..

قالت ، فجأة ، وهي تعيد أحمر الشفاه الخفيف إلى جيب بنطالها ..

ـ لقد فاجأني فندقك الفخم !.. صحيح.. ان مظهرك في«البياتزانافونا» لم يكن يوحي بانسان بوهيمي .. تائهٍ !.. لقد ظننتك فناناً .. ممن لهم مرسم في شارع « مارغوتا » .. أو ما شابه !.. أما أن تكون من نزلاء الـ « غراند أوتيل » .. وأن ترتدي ملابس خاصة للسهرة !..

سكتت برهة ، ثم قالت ..

ـ إنك صيد ثمين !.. وجب علي أن أكون من بنات الهوى !! ماذا .. ألن تخرج من جيبك حافظة النقود ؟!

وأدارت وجهها فجأة من النافذة .. تشعل لفافة بارتباك !

نهض فراس .. وتقدم إلى حيث وقفت .. أمسك بكتفيها ، ثم شد ظهرها إلى صدره .. مالت برأسها إلى الوراء ، فلامست وجنتها الندية وجهه .. وتمتمت ..

ــ أنا لم أضاجع رجلا في حياتي .. أخذني بمثل ترفّعك هذا .. ماذا بك ؟ أهي علّة بي ؟! لقد تعودت أن أترفع أنا .. على الرجال !!.. يا الله .. ماذا أقول ؟!

شدها ثانية إلى صدره .. أدارها نحوه .. وقبلها طويلا .. ثم قال ..

ــ هيا بنا .. لقد تأخرت عن موعدي ..

سارا في الممرات العريضة في صمت .. وحينما نزلا السلم الرخامي الذي يقود إلى بهو يعج بالنزلاء من أصحاب الشهرة ، أو الثروات ، أو الألقاب الطويلة .. نظرت إليه ، تـزم شفتيها .. تحاول ألا يبدو عليها شيء مما تحس به ..

ــ هل نلتقي ثانية ؟!

ــ ظننتكِ سائحة .. كما قلتِ لي .. على وشك مغادرة روما !

ــ وهل كنتَ تود مني أن أريك جواز سفري .. إثر الحوار العابر الذي قادني إلى حيث أنا الآن ؟!

ــ حسنا .. وكيف أراك ؟

كانا قد وصلا إلى مدخل الفندق .. فولجا بابه الدوّار ، ثم وقفا برهة ، ينتظران سيارة أجرة استدعاها لهما البواب .

نظرت الفتاة إليه طويلا .. ثم قالت كأنها تفضي إليه بسر ..

ــ إني مقيمة في روما !

تبسم فراس لتحفّظها .. وأجاب ..

ــ حسنا .. وماذا بعد ؟

ـ إذا كنا سنلتقي ثانية ، فلا مجال للتخفي ، والمخادعة !.. ثم .. أظن أنني أستطيع أن أثق بك ! أليس كذلك ؟!

نظـرت إلى الأرض ، تتشاغل عـن متابعة ما بدأتـه .. ثم قالـت ، دفعـة واحدة ..

ـ إني أعمل في إحدى السفارات !

تعجب فراس .. وسأل في برود ..

ـ سفارة صاحبة الجلالة .. لا شك ..

ـ لا .. السفارة الإسرائيلية !.. إليك برقم الهاتف في منزلي ..

كان البواب قد فتح باب سيارة الأجرة ، ينتظر من النزيلين دخولها ..

سمع فراس صوته ، يقول للفتاة ..

ـ سـوف أتصل بك ، في أول فرصة مناسبـة .. هـل أوصلك إلى جهـة ما ؟

ترددت الفتاة .. ثم مدت يدها تصافح فراساً ، وتبتعد عن السيارة .. وهي تقول ..

ـ لا .. لا عليك !.. عندي ما أقوم به في هذا الحي .. ما رأيك في يوم السبت القادم .. إنه يوم عطلتي ..

طارت أفكار فراس..وتبعثرت،في كل اتجاه..لكنه تمالك نفسه،وأجاب..

ـ بالتأكيد .. إذا لم يطرأ علي ما يشغلني .. إلى اللقاء !

* * *

تقدم فراس إلى حيث جلس « شارل غوستاف » .. الذي تهللت ملامحه كعادته ، لدى لقاء صديقه .. أحس براحـة مفاجئة بعثت الدفء في نفسـه ، فجلس إلى جانب « شارل » دون أن يلقي عليه السلام .. وراح ينظر إليـه

في صمت، يستجمع إدراكا طالما غيّبه في طيات حياته اليوميـة ، وبين شعاب علاقاته الإنسانية المتفرعة ..

أدرك « شارل غوستاف » أن خاطرا مهمّاً يدور في نفس صديقه .. فرد على الصمت كعادته ، بابتسامة ..

قال فراس فجأة ..

ــ في العربية مثل يقول : « رب أخٍ لك لم تلده أمك » .. أنت الذي يعرف اللغة العربية كأحد أبنائها .. هل تعرف هذا المثل ؟!

أحسّ « شارل غوستاف » بغصة في حلقه .. وكادت دمعة أن تصعـد فجأة إلى مآقيه .. لم يحـر جوابا .. أدرك من صمت صديقـه أنه يعاني من أزمة ما .. فسأله ، يجاهد في كتمان لهفته ..

ــ ماذا بك ؟.. حدّثني !.. ما سبب وجومك هذا ؟..

ثم تابع في سخرية محببة ..

ــ .. وهذه العاطفة المفاجئة نحوي .. بعد تقريعك لي ، منذ أيام !

ولمّا نظر فراس إليه مستغربا .. أقلع « شارل » عن سخريته .. وتابع ..

ــ إنما أنا أمزح !.. بربك قل لي ، ماذا بك ؟! إني أعرفك جيدا .. إنك لا تعي عمق ما يحب بعضنا بعضا ، إلاّ حين يصيبك أمر جلل !

تنهّد فراس .. وهز رأسه موافقا .. مبتسما ، ثم قال ..

ــ إنك الصديق الودود .. الذي لا أستطيع العيش دون تقريعـه .. ومضايقته !.. أما عما أصابني .. فانك على حـق كذلك .. فأنا في مأزق .. لا .. لا .. هوّن عليك .. ليس هنالك ما يستحق توثّبك ! جلّ ما في الأمر ، أني ، منذ أيام ، ماذا أقول .. إن قدري حقا لأمـر غريب .. ولن أكف عـن التساؤل .. هل أنا أقوده ؟.. أم أنه يقودني .. يقودني الى منعطفات لم تكن لي في بال ..

تمتم « شارل غوستاف » متسائلا ..

ـ عثمان ؟.. هل الأمر يتعلق بعثمان ؟!

ـ عثمان .. وغيره .. والله لم أعد أدري !

ـ ومن يكون غيره ؟! إننا لم نفترق الا ساعات الليل ، والقيلولة .. منذ وصلنا روما ..

صمت فراس برهة يمعن في التفكير .. ثم أجاب ..

ـ تلك الفتاة التي كانت معي ، كما خمّنت ..

ـ « ليزا » ؟.. الإنكليزية ؟.. ما شأنها ؟!

ـ نعم .. « ليزا » .. الإنكليزية .. إنها من أصل بريطاني .. لكنها تعمل في السفارة الإسرائيلية .. ولعلها تحمل الجنسية نفسها كذلك !

فتح « شارل غوستاف » عينيه دهشة.. ثم تمالك نفسه، وقال في هدوء..

ـ وماذا في الأمر .. إن روما ، وأوربا تغص بالسياح ، الإسرائيليين .. وغيرهم ..

تابع فراس كأنه لم يسمع رد صديقه ..

ـ إنها تعمل في السفارة الإسرائيلية !.. تصوّر !

ـ وهل هي التي أدلت إليك بذلك .. أم أنك وقعت على هذه المعلومات، بنفسك ؟

ـ بل .. لقد أخبرتني بذلك .. بنفسها !

صمت « شارل غوستاف » برهة .. ثم قال ..

ـ اذن .. إنها مجرد مصادفة غريبة ، ليس غير !.. ولو كان الأمر على عكس ذلك .. لو كان وراء الأمور ما وراءها .. لما أفضت لك بما تقول !

هز فراس رأسه متعجبا ..

ــ وهل نسيت عثمان ؟!

دهش « شارل غوستاف » ثانية .. وعاد يطارد ما تلاحق في ذهنه من احتمالات .. ثم قال ..

ــ وما شأن عثمان في الأمر ؟.. ماذا يؤكّد لك أنها على علم بمن يكون عثمان ، في الأصل ؟!

ــ جميع الاحتمالات واردة .. في مثل هذا المجال !.. هل الأمر حقاً مصادفة فحسب ؟ أن ألقى عثمان ، منذ أيام..ثم ألقى فتاة في«البياتزانافونا» .. فترافقني الى الفندق .. تذيقني من أنواع اللذة ، كل ما أشتهي !.. لا تطلب مني أيّ مقابل !.. تدمع عيناها ونحن نفترق !.. ثم تطلعني على أنها تعمل في السفارة الإسرائيلية ؟!

ــ وما علاقتهما .. في ظنك ؟

ــ قد لا تكون « ليزا » على علم بأمر عثمان .. لكن .. من المحتمل أن يكون هنالك من شاهدَ مقابلتي لعثمان .. ثم خطط للقائنا العفوي « بليزا » !

هنا ، تعجّب « شارل غوستاف » لابتسامة طارئة ظهرت على شفتي فراس .. فسأله ..

ــ وهل وجدت الحلّ ؟!

ــ لا .. لكنني واثق من أمر واحد .. فلئن صحّت جميع هذه التوقّعات .. إن الجهة التي دبّرت لقائي « بليزا » لا تعرف بالتأكيد ، من أكون !.. وفي الوقت ذاته .. ترى ، هل في الأمر فخّ ، لا أعرف القصد منه ؟!

تمتم « شارل غوستاف » موافقا ..

ــ لا بالطبع !.. لا .. لا .. فلو أنهم يعرفون أنّك عربي .. لما صرّحت لك « ليزا » عن هويتها .. بل لسلكت طريقا يختلف عن هذا ، كل الاختلاف !

لم يحر فراس جوابا .. صمت الصديقان برهة طويلة يناقش كل منهما، مع نفسه، احتمالات لا يودّ لصديقه أن يطّلع عليهـا !.. لعلّ « شارل غوستاف » أحسّ بأنه أمام بابٍ يقود الى ظلمة مليئة بالمفاجآت والأخطار.. أو انه، على الأقل، يقود الى موردٍ للقلق لم تألفه طبيعته النظامية !

راح يفكّر في قدَر صديقه .. يحسده، في سرّه، على تلك الطاقة العجيبة على استقطاب الأحداث المثيرة !.. وفي الوقت ذاته، يشكر قدره، هو، على أنه يطلّ على تلك الأحداث، عبر معرفته بـ « مكسيم » .. كمن يطلّ على عاصفة تحمل الثلوج والأمطار !.. يطلّ عليها، وهو في منجى يعصمه منها، يقف خلف نافذة غرفة دافئة، لا يتسرّب اليها، من العاصفة، إلا صورتها، وصوت الرعد، والهواء المثير !

نظر الى صديقه متفرّساً، متعجبا .. ثم قال في بساطة ..

ـ « مكسيم » .. ماذا نحن فاعلون الليلة ؟

تنبّه فراس الى صوت «شارل غوستاف» .. فصحا من شروده وأجاب ..

ـ ماذا نحن فاعلون ؟.. نحن ذاهبون للقاء صديقتك الاسبانية !

ضحك، ثم قال ..

ـ آمل ألا نكتشف فيها أو عندها .. « ماتا هاري » أخرى !!

ـ « الكونتيسة » ؟.. صديقة الكاردينال ؟!.. إنّك تهرف !

التفت فراس الى صديقه، مستغربا ..

ـ صديقة الكاردينال ؟.. ماذا تعني بذلك ؟

ـ لا .. لست أقصد شيئا مما خطر لك !.. إنها صداقة بريئة .. وبالمناسبة .. إن للكونتيسة عشيقاً شاباً، لم يتجاوز ثلاثة وعشرين عاما ..

ـ وهي ؟ كم بلغت من العمر ؟

ـ هي .. أظنها في أوائل خمسيناتها ..

نهضا ، يسيران نحو سيارة « شارل غوستاف » ، وحينما أقلّتهما وتحركت نحو وجهتهما .. سرد « شارل غوستاف » لصديقه ملخّص ما يعرفه عن حياة تلك السيدة .. شارحاً له ظروفها المالية الحسنة .. وما ورثته عن أبيها .. وما تتقاضاه من نفقة ضخمة من زوجها الأميركي ، إثر طلاقٍ ، صدر الحكم فيه ، لمصلحتها ..

سأل فراس ..

ـ وما تعرف عن ذويها .. أليس لها أولاد ؟.. بقية أسرة .. لماذا تقيم وحيدة في روما ؟

ـ إن لها أختاً .. « بالوما » تقيم في جنوب إسبانيا .. تزورها من حين لآخر .. ثم ، إنها لا تعيش وحيدة ، كما قلت لك .. بل تقيم مع عشيقها .. ومنذ أربع سنوات !.. وليس في الأفق ما يشير الى أن هذه العلاقة تدنو من نهايتها !

ـ لكنّك لم تشرح لي مدى صداقتكما .. هل تعرفهما منذ زمن بعيد ؟

تبسّم « شارل غوستاف » في حنينٍ تشوبه المرارة .. وقال ..

ـ لا أكاتمك ، أنني كنت يوماً عشيقها !.. لا تعجب مما أقول !.. لقد كانت لي سنّ عشيقها الحالي .. أو أقلّ .. وكانت هي تبدو في الثلاثينات من العمر .. بضّة !.. مشرقة الوجه !.. واسعة العينين السوداوين .. خفيفة الظلّ .. مرحة !.. ماذا أقول ..

تمهّل برهة ، ثم أضاف ..

ـ خفيفة الظلّ .. والعقل ، كذلك !! تطرق أخطر المواضيع ، في خفةٍ ، طالما قادتها الى مواقف محرجة ، لا تحسد عليها !

علّق فراس ، متعجباً ، في شيء من السخرية ..

ـ كل هذه الصفات الحميدة .. تؤهلها للصداقة مع الكاردينال !.. إن للكاردينالات هذه الأيام ذوقاً غريباً في اختيار الأصدقاء !

ـ إنك لم تفهم قصدي ..

ثم استدرك « شارل » وأضاف ..

ـ صحيح .. فأنا لم أشرح لك علاقاتها به .. إن الصداقة ما كانت لتقوم بينهما لولا اجتماعاتهما على هِواية واحدة .. ولولا أننا قاربنا الوصول الى شقتها ، لتركتك تحزر ما هي .. لكني سأخبرك الآن .. ولا أكاتمك أنه أمر لشدّ ما استغربته في الماضي .. هل تدري يا عزيزي أن الكاردينال ، والكونتيسة الطروب ، يشتركان في هواية جمع الكتب القديمة ؟!

نظر فراس اليه ، مستغرباً .. لكنّ « شارل غوستاف » تابع كلامه ، وكأن وراء الأمر أحجية ، لم يهتد الى حلّها حتى الآن !

ـ ليس الكتب القديمة فحسب .. بل المخطوطات القديمة .. كذلك !

بهت فراس .. وعلّق ..

ـ المخطوطات القديمة ؟.. ومن يقرؤها عندها .. أعشيقها الشاب ؟!

ـ إنه أمر لم أفهمه منذ زمن .. فالكاردينال علاّمة .. يتقن تسع لغات ، بما فيها العربية ، والأمحرية ، والسانسكريتية .. وهو يجمع هذه المخطوطات منذ سنين طويلة !.. وإنك لتراه دائماً يجدّ في البحث عن مخطوطات قديمة ، لها أسماء لا تخطر على بال إنسان ..

راح « شارلغوستاف » يسهب في وصف تعلّق الكاردينال بالمخطوطات القديمة .. يحدّثه عن الكثير من المرّات التي طلب منه ، هو ، أن يحصل له على هذا المخطوط ، أو ذاك ..

بان على وجه فراس أن حديث « شارل » وقع على مسمعه وقع من يكتشف أن لصديقه علاقات خفيّة مع أناس غرباء .. فتبسّم مستغرباً .. وقال ..

ـ ولم العجب ؟! ألم أطلب منك في دمشق أن نزور المكتبة الظاهرية ؟..

لقـد ..

ـ لكني لم أعرف آنذاك أنك تزورها باحثاً عن شيء محدّد !.. بل أنا لم أسمع منك ، قبل اليوم ، انك تعرف مثل هذا « الكاردينال » !

أجاب « شـارل غوستاف » في عفوية ظاهرة ..

ـ لست أدري .. لعلي كنت أخـاف أن تربط معرفتي بـه ، بالدين .. وتظنني متعصّباً للكاثوليكية .. إنك تذكر كره الأوساط الثقافية .. والحي اللاتيني بشكل خاص ، لكل ما يمتّ الى الأكليروس ..

تمهّل برهة ، وكان يلفّ منعطفاً ضيّقا .. ثم قـال ..

ـ إن معرفتي بالكاردينال تعود الى أيّام طفولتي .. الى والدتي قبـل وفاتها ، والى أسرتها .. إنّه إنسان بالغ الذكاء .. عجيب الفراسة !.. ثـم .. تصوّر عالمـه !.. جميع هذه اللغات ، التي يتقن .. ومكتبة « الفاتيكان » ، تحت إمرته !.. هـل يخطر في ذهنـك أن هنالك من حـدود لمـدى سـعة معرفة هـذا الانسان !

أبطأت السيارة أمام باب أحـد القصور الكبيرة في روما القديمـة .. أدار « شارل غوستاف » المقوَد نحو بابها المفتوح على مصراعيه ، وولج في ممـرّ ضيّق معتم ، سرعان ما خرج منه الى فنـاء واسع ، داخل البنـاء ، تتسلّق جدرانه الأربعة نباتات كثيفة ، خضراء ، كست معظم مساحات أدواره الخمسة ، وتهدّلت فـوق نوافـذه المفتوحة .. لخيوطٌ ، غضّة ، تشبّعت ذؤاباتها بإنـارة غازية قديمة ، وانسكبت على تلك الجـدران ، كخصلات زمـرّدٍ شفّاف ، تتماوج عروقه على إيقاع نسمات ليلٍ خريفيّ ، من ليالي رومـا ، الأزليّة ، الحالمـة ..

كانت تلك القصور التاريخية القديمة ، قد قسّمت ، منذ زمن بعيـد ،

الى دور مستقلة .. تسكنها عشرات العائلات .. تحافظ في شكلها الخارجي على تاريخ روما ، عاصمة المسيحية ، منذ العصر الوسيط .. روما الكنيسة ، والعائلات النبيلة .. التي لجأت الى أبنية روما الامبراطورية القديمة ، ومعابدها ، ففككت حجارتها ، وتوزّعت رخامها .. فبنت بها كنائسها الشهيرة ، والمئات من تلك القصور ، حتى لم يبق لروما ، من آثارها الرومانية العريقة ، سوى النزر اليسير !!

* * *

كانت الكونتيسة « فرانشيسكا دل بيلار » تقطن شقّة متوسطة المساحة ، في الدور الأخير من ذلك القصر ، تمتاز بشرفةٍ شاسعة ، يحيط بجوانبها صفّ عريض من النباتات المزهّرة ، العطرة .. ينبثق من بينها ، على مسافات منتظمة ، شجيرات منسّقة مشذّبة ، على شكل أهرامات ، ضيّقة القاعدة ، عالية الرأس .. وفي منتصف المسافات ، تلك ، برزت تماثيل رخامية ، قديمة ، تعكس إنارة خفيفة ، خفيّة .. فما ان يدخل الزائر ، ويرتمي نظره على الشرفة ، عبر نوافذ قاعة الاستقبال ، الزرقاء اللون ، والذهبية الزخرف ، حتى يتوقّف عند تلك التماثيل .. فيرى جمال « أبولّو » و « فينوس » .. تؤكّده زرقة سماء روما ، الداكنة .. تتخلّلها أوشحة سحب فضيّة ، تعكس نور قمر بعيد .. فيشعر أنه في عالم فوقيّ .. عالم يطلّ على روما .. ولا ينبع منها .. عالم ، معلّق ، متمكّن من الأناقة والجمال .. لكنه ذلك الجمال الرائع ، الذي تضفيه الزينة على وجه المرأة .. فتخاف إن أنت أقفلتَ جفنيك ، أن تفتحهما ، فترى أن الزينة قد ولّت .. وأن ما بقي أمامك من واقع ، إن هو ، على حقيقته ، إلا أمر لا معرفة أو علاقة لك به !

صاحت الكونتيسة ، في صوت دافىء ، تنبىء بحّته بما تتعاطاه صاحبته من دخان ..

— « شارل غوستاف » !.. يا عزيزي .. ما أسعدني بهذه الزيارة !

والتفتت الى فراس ، تخفي نظرات تحاول أن تتمعّن في تقاطيع وجهه ، ولا تستطيع ذلك ، دون نظّارتيها .. وقالت ..

ــ أهــلا .. بصديق صديقي !

وتابعت ، وهي ترفل في دلال مصطنع ، تجــرّ وراءها ثوبهــا الأسود الهفهاف ، الذي يخفي بعض بداتتها ..

ــ إن صديق صديقي .. لهو صديقي ..

ضحكت ، ثــم أكملت ..

ــ من قال هــذا المثل ؟.. بربّكم .. لا أذكر !.. المهم .. تعــالوا الى الشرفة .. إنهــا فخري ، واعتزازي !.. « شارل » تعــال الى الشرفة ، أُرِكَ كيف نمت هــذه الأزهــار !.. كــدت أيأس من ذلك !.. إنهــا الشمس ، يا عزيزي !.. شمس الصيف في روما ، محرقة ! محرقة !! لكنني لجــأت الى حيــلة .. حيلة رائعة ! فنيّة ! جــديرة بأن يكتب عنهــا !! هل ترى هــذه الستارة الزرقاء ؟.. إنهــا خفيفة الوزن .. لكنها واقية .. أضعها ، من جهة ، على يــد « فينوس » ، ومن جهــة أخرى ، ألفّها حول خصر « أبولّو » !.. بشكل فنّي .. هكذا .. انظــر ! انهــا هكذا تحمي الزهور من الشمس .. وتبدو .. ألا ترى كيف تبدو ؟!.. ألا ترى ؟ قل !.. إنّ يد « فينوس » تشدّ الثوب الذي يستّر خصر « أبولّو » ، أليست فكرة رائعة ؟!

ســأل « شــارل غوستاف » صديقته ، وهو يرفــع الستارة عن يــد « فينوس » ، وخصر « أبوللو » ، دون الثناء على فكرتهــا « الرائعــة »، أو الاكتراث لهــا ..

ــ وأين « كلاوديو » ؟

هزّت هذه كتفها ، في عــدم اكتراث .. وقالت ..

ــ أوه .. إنه في « اوستيا » .. في مكان ما على شــاطىء البحــر .. يلاحق فتاة في الرابعة عشرة .. أو يلعب بمحرّك السيارة !.. ماذا .. أتريدني أن أكون من السخف بحيث أرافقه الى البحر !.. إن النهار له !.. والليل لي !! حكمة جميلة N'est - ce Pas ؟! لكن .. ماذا تشربان ؟

وتوجّهت نحـو رفوف زجاجات الكحول ، المصفوفة ضمن ما يشبه المكتبة ، تطلب من خادمتها إحضار الثلج ..

كان فراس يتمشّى داخـل الشقة ، يستعرض ما بداخلها من تحف .. ينظر الى « شارل غوستاف » وصديقته ، على الشرفة .. ويجول في ناظـريه بين رفوف الكتب القـديمة ، الثمينة ، التي اكتنزت بها المكتبة .. كان على وشـك الخروج الى مضيفته ، على الشرفة ، حين استرعى انتباهه باب" ، في شكل شبه نافـذة ، مغطّى بزجاج ملوّن ، يخفي وراءه كتباً قديمة .. ما إن تقدّم منها ، ليرى ما وراءها ، حتى سمع صوت مضيفته يقول ..

ـ أرى ، يا صديق صديقي ، أنّك لا تكترث الا للأمور المعتقـة !.. إن هـذا لممّا يسرّ ..

والتفتت الى « شارل » تسأله ..

ـ وهل تعرّف صديقك الى الكاردينال ؟

هـزّ « شارل غوستاف » رأسه بالنفي .. وأجاب ، مازحاً ..

ـ ها أنت ذي ترين ما يلفت نظره !.. من الذي يهمّه أمر « كاردينال » بسيط .. إن « مكسيم » قـد .. يهتمّ .. بالبابـا !!

وضحك ، مسـروراً ممّا قال .. ينقـل نظـره بين صديقتـه وفراس يستطلع الأثر الذي تركته عندهما تلك الملاحظة !

ـ إذا كان الأمر كذلك .. فتعال أُرِكَ ما عندي من مخطوطات رائعة ! ستدهش لها ، دون شك !

قالت « الكونتيسة » ذلك ، في صوتٍ زاد من عمقه نبرة جدّ مفاجئة ! وأشارت إلى فراس أن يتبعها إلى موضع آخر ، في الحائط .. لا ينمّ ظاهره على أن وراءه شيئاً .. أدخلت أصبعها في ثقب صغير فيه ، كان يبدو جزءا من زينة الحائط ، وضغطت .. فإذا بدرفة بابٍ ، عاليـة ، تنفصل عن الحائط .. فتحتها الكونتيسة ، بيـد ، لتكشف ، بيدها الأخرى ، عمّا وراءها من رفوف

ضيّقة ، صُفّت عليها ، بحذر بالغ ، كتب مفتوحة ، فغرت عيني فراس وهو يلمح مطالع بعضٍ منهـا !!

صاح « شارل غوستاف » دهشة ..

ــ هذا مصحف ! وهذا ! وذاك ! إنّكِ لم تطلعيني على هذه المكتبـة من قبـل !!

كان فراس ينظر إلى مجموعة رائعة من المصاحف الكريمة ، صُفّت ، مفتوحة ، فوق رفوف مبطّنة بالقطيفة الحمراء ، النادرة ، القديمة ، فـزاد ذلك من بريقِ ذهـبِ الرقشِ الذي زيّنـت به أطر صفحاتهـا .. وبدت الانعكاسات الحمراء ، على بعض أجزائها كأنها ألسنة لهبٍ تختفي وراء تلك الصفحات ..

لم ينتبه أحـد إلى نظرة الدهشة والمرارة التي برقت في عيني فراس .. كان قد تمالك نفسه .. حين سمع « شارل غوستاف » يسأل صديقته ..

ــ ومنذ متى تملكين هذه المجموعة النادرة ؟

هزّت « الكونتيسة » رأسها ، في دعابة ، هازئة .. ثمّ قالت ، في صوت خافت ، ملؤه الجدّية ..

ــ « شارل » !.. إن « كلاوديو » لا يعرف بوجود هـذه المخطوطات هنا .. فأرجوك الحذر !.. لا أود أن أصحو من نومي ، في أحـد الأيـام ، فلا أجدها مكانها !!

ثمّ عادت إلى نبرتها الأولى .. وتابعت ..

ــ إن هذا إرث ، تتناقله في أسرتي ، منذ أجيال !.. قليلون هم الذين على علم بأنني أحتفظ به ، في داري ، هنا ..

تساءل فراس ..

ــ منذ أجيال ؟!

أجابت ، دون اهتمام ظاهر ..

ــ أجل .. منذ فتح الأندلس !

تبسّم فراس ، قائلا ..
ــ لعلّ أجدادك كانوا عرباً .. مسلمين !!

امتقع وجه « الكونتيسة » .. وقالت ، تكتم شرراً في عينيها ..
ــ أنا ؟.. مسلمة !! يا للسخرية !! إن أجـدادي حصلوا عـلى هذه المخطوطات حين فتحوا غرناطة .. حصلوا عليها .. عنوة !!

أجاب فراس على الفور .. بلهجة هادئة ..
ــ سيّدتي ! لو أن أجدادك ممّن فتحوا غرناطة ، كمـا تقولين ، لمـا كانوا قد أنقذوا هذه المصاحف .. بل لكانوا أحرقوها ، أسوة بما أحرقوه ، من غيرها ، ومن نصف مليون مخطوط ، في ساحات تلك المدينة !
حدّقت الكونتيسة في وجه فراس ، وكان على بعدٍ كافٍ منهـا .. ثمّ تبسّمت فجأة .. وقالت ..
ــ لئن كان أول من أنقذها جدّ مسلم لي .. فأنا على ثقـة أن ابنـه أصبح كاثوليكياً صادقاً !!.. وأنا يا عزيزي ، اليوم ، الحفيدة ، الصغيرة لذلك الكاثوليكي الورع !!
نظر فراس إلى « شارل غوستاف » وعيناه تلمعان بجميع ما جال في ذهنه من حوار سابق حول تزوير التاريخ ..
تململ هذا .. وقال ..
ــ أين تركت كأسي ؟ لقد أنستني هذه المفاجأة جميع ما كنت فيه !.. وأنت .. يا « مكسيم » .. ما رأيك ؟
ــ أنا ؟ إنها ذكّرتني بأشياء كثيرة !.. موضوع كنت أقرؤه عن تزوير التاريخ ..
لم تستسغ « الكونتيسة دل بيلار » تعليق ضيفهـا .. أمسكت بذراع « شارل غوستاف » تقـوده ، في لا مبـالاة ، إلـى الشرفة ، وهي تقـول لـ « مكسيم » ، مشيرة بيدها إلى مصاحفها ، بحركة متأنقة من أصابعها ..

إن شئت التوسّع في مشاهدتها .. فهي تحت تصرفك .. سنكون في انتظارك على الشرفة ..

ثمّ لفّت ذراع صديقها ، في ودّ ظاهر .. وهمست في أذنه .. تسائله .

ــ من صديقك هذا ؟ إن لفي الأمر سرّاً ! إن حدسي لا يخيب في مثل هذه الأمور .. قل .. « شارل » .. من هو في الحقيقة ؟!

ردّ « شارل » عليها في لهجة عفوية .. تبعد فضولها ..

ــ لا .. لا .. إنّها مشكلة عائلية .. ثمّ .. لست أدري .. قد يكون إسباني الأصل ! فعلاً .. لا يودّ لذويه أن يعلموا أنه في رومـا .. مشكلة عائلية .. لا غير .. أظنّ أنّها تتعلّق بزوجته !

فتحت « الكونتيسة » عينيها ، وقد زاد فضولها ..

ــ لا بدّ أنها مشكلة طلاق !! لكن .. لماذا شنّ عليّ هذا الهجـوم ؟ أنا .. مسلمة ؟! أو من أصلٍ مسلم ؟! بل .. وعربيّة !! يا إلهي !!

ثمّ تمتمت في مرارة ..

ــ إن هذه الأقوال تذكرني باتهاماتٍ ظنّنا أننا انتهينا منها ، منذ قرنين !

تعجّب « شارل غوستاف » .. وقال مستطرفاً ما سمع ..

ــ « أنتم » ؟ .. ماذا تعنـين بـ « نحن » ومن كـان يوجّه « لكـم » الاتهامات ؟!

تدافعت الأفكار والذكريات في رأس « فرانشيسكا دل بيـلار » وقالت مستغربة ..

ــ كيف ! ألم تقرأ تاريخ إسبانيا ؟

ثمّ تابعت على الفور ، في مرارة ، وسخرية ، ظاهرتين ..

ــ نحن ؟.. سكّان جنوب اسبانيا ، يا عزيزي !.. إلى جانب من بقي في « اندلوثيا » من العرب ، بعد فتح الملكة « إيزابيل » .. والملك « فرديناندو » لها !.. نحن الذين اتّهمنا ، ظلما ، بأننا من الـ « الموريسكاس » أو العـرب الاسبان ، المدجّنون ، الذين أرادوا الحفاظ على إسلامهم !! لعـلّ « محاكم التفتيش » لم تبتدىء في إسبانيا ، إلا بسببنا !

أظهر « شارل غوستاف » من الاهتمام لما سمع ، ما حضّ صديقته على سرد رواياتٍ طويلة عن فظائع التعذيب ، والتقتيل ، التي مارسها كهنة محاكم التفتيش في الأندلس ، بحثاً عمّن حافظوا على إسلامهم ، من العرب !

ـ .. لقد انتحلوا هذه القضيّة عذرا .. أو ، من يدري ؟! لعلّهم فعلا بدؤوا حملتهم ، بحثاً عمّن أخفى إسلامه ، وراء قناع مسيحيّ .. لكنّهم سرعان ما راحوا ينكّلون بجميع من يكرهون ، من معارضي تفسيراتهم للأناجيل !! حتّى لم يعد هنالك من يجرؤ على انتقاد لون ثياب الكهنة .. خوفاً من اتّهامهم بالكفر ، أو الزندقة !! فيُحرق ، أو تُقطع أوصاله ، في الساحات العامة !!

ـ وما علاقتكِ ، أنت ، بكلّ ما ذكرت ؟!

ـ آه .. هنا بيت القصيد ! قلت لك أن ملكي « كاستيل » و « أراغونا » .. فتحا غرناطة .. باسم وحدة إسبانيا ، والدين ! لكنّهما سرعان ما انتقلا الى محاربة الارستقراطية الاسبانية المعارضة .. في « اشبيلية » ، و « فالينثية » ، وغيرهما من مدن الأندلس العريقة ! فباتوا يلقون بالتهم ، جزافاً ، على نبلائها ! فلمّا لم يجدوا عذراً دينياً .. اختلقوا لهم ، أصلا عربيّاً .. أو قرابة عربيّة !.. حتى بات الأمر حرباً خفية بين نبلاء الشمال ، ونبلاء الجنوب !

علّق « شارل » .. قائلا ..

ـ إن هذا ليذكّرني بكره نبلاء عائلة « البوربون » .. لعائلة « بونابرت » !.. وكراهية نبلاء إمارات ايطاليا .. بعضهم لبعض .. قبل وحدتها ، وبعدها ! إنّه كره عتيق ، يمارسون بسببه التجريح ، والتشنيع ، حتى اليوم !!

تنبّه « شارل غوستاف » الى ما جرّهما الى ذلك الحديث .. فتبسّم ، وسأل مستفسرا ..

ـ وما علاقة كلّ ما ذكرتِ .. بصديقي ، « مكسيم » ؟!

هزّت الكونتيسة رأسها ، عاتبة .. وسألت ..

ــ لقد وافقتُ على أن تأتــي بصديقك ، إلى داري ، دون أن تطلعني على حقيقة شخصيته .. لأنني أثق بك ، وبمن تعاشر من الأصدقاء !.. لكنني أسألك جادة ، ولا أقبل منك تهرّباً من سؤالي .. هل « أنت » ، على الأقل ، تعرف حقيقة هويّته ؟! بشكل لا يقبل الشك ، أو الاحتمال ؟!

بهت « شارل غوستاف » لسؤالها المحرج .. وأجاب ، متردداً ..

ــ إنني أعرفه منذ زمــن طويــل .. لكنني .. لكنني .. لا أستطيع أن أجزم بالضبط ! بمعنى .. إني لم أر قط جواز سفره .. مثلاً !!

لم تترك « فرنشيسكا دل بيلار » لصديقها فرصة شرح تردده ..

أردفت على الفور ، وعلامات الثقة والتحفّز على وجهها ..

ــ ليس عندي أدنى شك ، أنه .. من هؤلاء !! أعني .. من اللاتينيين .. نبــلاء الشمال !.. هل لاحظت ترفّعه ، وتعاليه ، حين رأى كتبــي ؟! وتلك الابتسامة الجامدة ، الصفراء ، التي تسمّرت على شفتيه !.. كأنه يقول لي .. « نبلاء آخــر الزمان !! » .. « ومــن تكونين ؟! كــأن في استطاعة الكتب الأثرية أن تزيد من قدرك !! » هل لاحظت تلك الابتسامة ؟!!

كانت « فرانشيسكا دل بيلار » قد انساقت مع تصوراتها .. حتى بدت لـ « شارل غوستاف » كأن ما من شيء في استطاعته أن يهدىء من تحفزهــا ، لمجابهة ذاك العدو المتخفيّ !

ــ .. هل لاحظت .. « شارل » .. أجبني ؟!

لكنّها لم تنتظر اجابته .. فأردفت ..

ــ .. ومن ذا الذي يجرؤ على التلفظ بمثل هذه التهمــة التي وجهها إلــي ؟!

وتقمّصت حركات نبيل متعجرف ، مهذّب ، وهي تقول !

ــ لقد وجّهها إلي ، في أسلوبه المهذّب الرقيق ، الذي يخفــي وراء أناقته سمّاً زعافاً !!

كان فراس قد أعاد مصحفا إلى مكانه ، على رفّ المكتبة السرية .. وأعاد

إغلاق بابها في هدوء من يتأمل طريقة عمل قفله الخفي .. تمشّى نحو باب الشرفة العريض ، يتقدّم في بطء من صاحبة الدار وصديقها ..

همست « فرنشيسكا » « لشارل غوستاف » تتصنّع ابتسامة وجّهتها إلى فراس ، من بعيد ..

ــ يا إلهي .. لست أدري إذا كنت أرى حقيقة ، أم خيالاً ؟!

سألها صديقها ، في دهشة بالغة ..

ــ ماذا تقولين ؟.. ماذا ترين ؟!

ــ قد يكون هو .. أو قد لا يكون .. لكنّه بالتأكيد يبدو لي ، في هذه اللحظة .. صورة مطابقة لأكبر أجداد عائلته .. Don Fernando Alvarez de Toledo !!

ــ أية عائلةٍ هذه تتكلمين عنها ؟!

ــ جدّ تلك العاهرة الشهيرة .. دوقة « ألبا » .. ذلك العسكري ، المتوحش ، الذي حاربنا ، والذي تابع أحفاده شنّ الحروب علينا .. الى أن استلم « فرانكو » الحكم !

فغر « شارل غوستاف » فاه ، وهو يسمع كلام « الكونتيسة » الغريب ..

كان فراس قد بات على مسمع من حوارهما .. فسأل ، مازحاً ، في تهذيبه المعتاد ..

ــ ما هذا الحوار السرّي الذي يشغلكما ؟ هل تحوكان مؤامرة ضد أحد ؟!

أصاب وجه « الكونتيسة » بعض الشحوب ، فقالت ، متحدّية .. وفي نبرتها سخرية تخفي حقداً مفاجئاً مكتوماً ..

ــ .. كنّا نتكلّم عن الدوقة « دي ألبا » .. وعن أخلاقها العالية !!

ونظرت الى «شارل غوستاف» مسرورة ، لما نالت به من عائلة صديقه ..

تعجّب فراس .. وأجاب .. لا يفهم سبب انفعالها ..

ــ هل تشيرين الى علاقتها بـ « غويا » .. واللوحة التي رسمها لها ،

وهي عارية ؟ أنا لا أرى عاراً في ذلك ! أما كنتِ تفخرين لو كان لك لوحة من رسم « غويا » يا سيدتي ؟!

امتقع وجه الكونتيسة .. وردّت على الفور ..

ــ وعلاقتها بذاك الكهل ، العامي المنشأ ؟!

استغرب فراس حماستها .. وأجاب في عفوية بالغة ..

ــ أليس هذا هو بالضبط ما يبرّيء علاقتهما ؟! كونه كهلاً .. وكونها شابة نبيلة ، ثريّة ، وجميلة ؟! أليس واضحا أن ما سحرها به ، هو شخصيته ، وفنّـــه ؟!

غاب اللون من وجه « الكونتيسة » وكـأن في الــرد الذي سمعته ، إشارة الى علاقتها الجنسية البحتة بعشيقها الشاب !

نهضت تنتحل انشغالا طارئا في غرفة مجاورة ..

تعجّب فراس للتغيّر البالغ الذي طرأ على ملامحهــا .. وسمع صديقه يهمس في أذنه ..

ــ هيّا بنا نذهب من هنا .. لقد طعنتها بما فيه الكفاية .. وفي الصميم !

* * *

الفصل الخامس

جلس عثمان في ساحة « عمر الخيّام » ، على مقعد حجري عريض ، قرب تمثال الشاعر الفارسي « الفردوسي » ، الذي صفّ الى جانب عدد من تماثيل كبار رجال الأدب في العالم .. كانت تلك ، واحدة من عشرات الساحات المبعثرة بين أشجار غابة « الفيللا بورغيزي » الباسقة ، المتعددة الأنواع .. تلك الغابة الرائعة التي لقّبت باسم أحد نبلاء روما ، وكان هذا النبيل قد تزوّج إحدى أخوات « نابليون بونابرت » .. فبنت فيها متحفا صغيرا ، رائعا ، ضمّ مئات اللوحات ، والتماثيل ، للمشاهير من فنّاني أوربا ..

كان عثمان قلقاً .. ينتظر لقاء فراس في تلك البقعة القصيّة من الغابة .. يتيه في أفكاره ، تارة ، بين ما يعدّه للمستقبل من عمل ثوري سرّي ، موزّع الجبهات .. وتارة أخرى ، بين ماضيه البعيد ، الحافل بالعمل المنظّم ، المباشر .. بالأهداف الوطنية الصريحة .. وبالعلاقات الانسانية الحميمة التي كانت تربط بعض المقاومين ببعضهم .. وهؤلاء ، بأبناء المدن والقرى ، الذين تكتّلوا وتعاضدوا .. تربطهم بالمقاومين محبّة ، كالماء القراح .. تدفعهم نحو هدف صريح واحد .. وهو إقصاء المستعمر المحتلّ عن وطنهم الأثير !

لم يكن عثمان يميل إلى مواقع الزعامة .. ولو شاء لكانت مواقفه البطولية ، في الماضي ، تقوده إلى مركز قيادي أكثر حساسية من الموقع النائي الذي خُصّص له !.. كانت طبيعته تميل الى المناقشة .. والتشاور .. تمنعه من القرارات الحاسمة ، التي كثيرا ما اتّخذت أمامه ، في شكل قاطعٍ جازم ،

ردّه عن مكاشفة أصحابها عن حقيقة رأيه فيها!.. فما الفائدة في مكاشفة هؤلاء، وحزمهم، بل تصلّبهم ذاك، كان جزءا من طبيعتهم، لا صفة من صفاتها!.. طبيعة، مُزجت فيها الحماسة بالتصلّب.. وذاب هذان العنصران بما يتفجّر في نفوسهم من وطنية صادقة عنيدة!

لكم حارب في صفوف قادة انهارت زعاماتهم، وبات يرى المنظّرين من الثوّار يحارون في نقد وتجريح من كانوا، حتى شهورٍ قليلة مضت، مثلاً يُقتدى، في الحنكة، وصواب الرأي!.. أين كانت نباهة هؤلاء، حين كانوا يمجدون حركات وسكنات من دار عليهم الزمان!

وماذا يفعل هو، حين يرى نقاط الضعف في القيادات الجديدة.. إنّها شروخ إنسانية في طبيعة من يشكلّون الجدار الثوري.. شروخ من الطمع وحبّ الذات، تتّسع كلّما علا الجدار!.. ماذا ينفع أن يُرفع صف، أو تستبدل بضعة صفوف بغيرها؟! والشرخ يمتد إلى القاعدة.. بل، إلى التربة القلقة، المتحرّكة، التي يرتكز عليها الجدار!

نهض عثمان لملاقاة صديقه.. ووجهه يطفح بشراً لما أنبأه به فراس من استعداده لمؤازرته!

جلسا يتحدّثان برهة.. تفيض نفس عثمان بما يؤرّقه، ويقلقه، والحديث لم يعد حواراً.. بل بات بوحا.. بين رفيقين، حميمين، يربطهما عمل ثوري واحد..

قال فراس، يخفّف مما ضاق به صدر صديقه..

ــ لكنّ هذه ظاهرة، لا تخصّ بلادنا، وشعبنا فقط!.. وإلا، فما معنى أن يُنفى «تروتسكي».. ثم يُقتل؟! ما معنى أن تقلب، وتُدكّ، تماثيل، وتُصب «ستالين»؟! ناهيك بمقصلة الثورة الفرنسية، التي حصدت من رؤوس الشعب أكثر مما حصدت من رؤوس النبلاء!! ثمّ.. وهذا هو العجب العجاب.. هل نسيت ما حلّ بذكرى «ماوتسي تونغ» على أيدي

مواطنيه .. في بلاد الألف مليون من البشر ؟!.. وفي بلاد الألوف المؤلفة من الفلاسفة ، والعقلاء ؟!

هـز ّ عثمان رأسه ، موافقا .. ثم ّ فتح كفّيه ، ينظر إليهما .. وقال ..

ـ إنّي أعرف كل ّ هذا !! ولا شك أن فيه ما يخفف من ألم الجروح .. لكن ّ الجرح ، يا فراس .. يدمي !.. وماذا يفيد جرحي ، أن تدمى جراح ألوف الملايين ، غيري من البشر ؟! ان دمي يسيل .. والعدو يقتات من لحمي!. وجميع من في قدرتهم إنقاذ أمّتنا ليس في وسعهم أن ينظروا إلى علّتي دون حساب ما سوف يتقاضونه من ثمن !!

ـ ألهذا تبحث عن السلاح المتطوّر ، والعقول المخطّطة ؟!

ـ لهذا ، ولجميع من يقف في وجه أمّتنا من أعداء !

خيّم صمت طويل على الصديقين .. طار خلاله خيال فراس إلى الماضي .. إلى الجزائر .. إلى يوم جرى فيه حديث بينهما في القصبة ..

كان عثمان الوسيم إذ ذاك قد تربّع أمامه على بساط مقهى عربي أليف .. تتوقّد عيناه الخضراوان بعشق الوطن .. لا يرى من سبيل لإنقاذه إلاّ بندقية المجاهد .. وكشْف أسرار العدو العسكرية !.. وها هو ذا عثمان الآن .. وقد زاده الزمان خبرة،ومرانا .. لقد أدرك أن الذين أنقذوا الوطن مرّة لا يحسنون إدارته ، ولا يستطيعون إنقاذه مرّتين .. لقد تبيّن له أن الذين طردوا المستعمر ، يكادون يصبحون من حيث لا يدرون أعداء الوطن الجدد !.. لكن ّ سبيل عثمان ما زال على ما كان !.. إنّه اليوم يسعى وراء السلاح المتطوّر .. والعقول المخطّطة ؟!

ماذا يقول له ؟! ودّ لو يقول .. « لا يا عثمان .. لا أيّها المجاهد !! إن العقول المخططة لا تقبل بأن تحرّكها أنت ، ومن وراءك ، من المخلصين !.. إن للعقول المتطورة الواعية خططها وأهدافها ، هي .. ولن تقبل أن تقودك إلى حيث تشاء !! »

« .. لسوف تحصل على هذا السلاح ، لكن ّ هذه العقول لن تسير معك

بهذا السلاح ، إلا بمقدار .. لقد مضت سنوات على حرّية بلادك .. لقد كان عليك أن تزرع فيها هذه العقول .. لتحصدها الآن !.. ماذا فعلتَ بثروات بلادك ، كيف هدرتها ؟.. لقد ابتعتَ بها سلاحاً يتحوّل إلى نفايات ، خلال سنوات قلائل !.. كان عليك أن تحرث الأرض، لتزرع فيها من باستطاعته فهم وإنتاج هذا السلاح ! أليس هذا ما فعلته اليابان إثر صحوتها ؟! وشعبك على ماهو .. أمّي ما زال يجهل كيف يستعمل السلاح ! إن أمّتنا لا تخلو من هذه العقول ، لكنّها منفيّة ، مشرّدة في بلاد الله الواسعة. طردْتها أنت ، ورفاقك، في يوم من الأيّام !.. حين كنتَ في غمرة حماستك .. ونقمتك على الذين ترفعوا على آبائك وأجدادك من المظلومين !.. إنّك لا تلتفت لضمّ هؤلاء إلى صفّك .. انّك لا تلتفت إلى استرجاع هذه العقول إلى وطنها !.. انك ما زلت تكرهها ، وتخافها !.. فأنت ما زلت تظنّ أن الوطنية وقف على أصحاب الأكف الغليظة ، والأصوات العميقة الرنانة !.. إنك لا تثق بأحد !.. لا تثق إلا بطائفتك ، أو عشيرتك !! وبالرغم من كلّ ذلك .. فإني سأقول لك اليوم ، ماقلته لك بالأمس .. سأخدمك يا عثمان .. سأنفّذ ما تطلبه مني بحذافيره ، ولو تعرّضت حياتي للخطر .. لا شكّ أنّها لعنة التاريخ ، أو أنّه التاريخ ، فحسب ؟!.. أمثالك ، من حفاة الماضي وأبطاله ، صادقون ! صاروا حكّام اليوم .. لكنّهم ما يزالون لا يعرفون « غرناطة » .. ولا فلاسفتها !!.. يظنّون أنّ غرناطة هي القصور والمال ، والعيش الرغيد !.. وأمثالي .. أمثالي يا عثمان ، تعيسون ، ما زالوا لا يعرفون سوى الكلام ، والقلم .. لا يحسنون استعمال السلاح المتطوّر .. وليس من يسعى إلى اقتنائه في أمّتنا ، إلا أنت ! »

نهض فراس من حيث كان يجلس على المقعد الحجري .. وتقدّم قليلا نحو جدول يمرّ ماؤه في بطء ، على عمقٍ بسيط ..

كانت قد نبتت على ضفاف الجدول نباتات .. تتماوج أزهارها البيضاء فوق ورقها العريض ، الأخضر .. فبدت كأنها تسبح فوق سطح الماء ، دون أن تبرح مكانها ..

جلس فراس على حافّة الجدول ، وأمسك بعصى دقيقة ، بلّلها ، ثم راح يرشّ الأزهار بقطرات متفرّقة .. متباعدة ..

أدار وجهه نحو عثمان .. وقال ..

ـ أتدري ما مشكلتنا يا عثمان ؟! مشكلة الواعين لهموم هذه الأمة ؟ لقد عاصر جيلنا بداية هذه النكبة .. وهو لا يودّ أن يموت دون أن يرى آخرها !!.. لكنّ هذه النكبة أصابتنا ونحن حديثو العهد بتاريخ أمّتنا الجديد .. لا خبرة لنا بالكرّ ، والفرّ !.. لا نعرف كيف نفرّق بين المعارك ، والحروب !.. لقد رفضوا تعليمنا ، ونحن أحداث ، حقيقة تاريخ بلادنا القريب ، والبعيد !.. أخفوا عنا تفاصيل الحروب الصليبية .. حقيقة هوية أعدائنا .. وتفاصيل وقائع ما يسمّى بعهود الانحطاط !.. رفضوا الحقيقة .. وعتّموا عمّا يكرهون ، بدعوى أنها تثير الحزازات بين أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة في البلاد !.. وماذا كانت النتيجة ؟.. لقد نشأنا .. جيلاً ليس في ذهنه سوى فكرة ضبابية عن تاريخ بلاده !.. جيل .. يحدثك عمّا مرّت به أمّتنا ، طوال تسعة قرون ، في صورة مقتضبة مختزلة !!.. لا يعرف أسباب الهزائم التي توالت على هذه البلاد .. لا يعرف من ناصر الغازين من أهلها ، ومن حاربهم .. طوائف ، تكره بعضها .. تخاف مناقشة علنيةً لتلك الكراهية .. فتدعي التسامح والمحبة !! جيل ، لا يفهم سبب نقمة بعض أجزاء الأمة على بعضها الآخر !! حتى بات لا حسّ تاريخياً حقيقياً عنده .. يُفهمه أن نكبة ، مثل ضياع فلسطين ، لا يمكن أن تحلّ أثناء حياة جيل واحد !.. ولو درس التاريخ ، لفهم ذلك ، لعرف كيف يهيىء المؤونة والعدة لغيره .. للجيل الثاني .. أو الثالث !!.. يعبّد الطريق لصلاح الدين ، ولا يبعثر مقدرات أمتنا في حروب ثأر هوجاء ، يُطالب كل منّا نفسه فيها ، اليوم ، أن يكون صلاح الدين !!

كان عثمان يصغي إلى صديقه دون أن ينظر إليه .. ويمعن التفكير فيما يسمع ..

تابع فراس كلامه ، في هدوء ..

ــ إن أخطر ما يمكن أن تصاب به أمة أو جيش ، هو الإحباط !.. هذا الشعور القاتل الذي يطغى على الإنسان ، كأنه يغرق في بحر من الفشل !.. لقد أصاب هذا الإحباط حتى شعراءنا !!.. وما الذي يخلق هذا الشعور في الإنسان ؟.. إنه الوعد بالوصول السريع إلى غايته ، بالنصر السريع .. ثمّ عدم تحقيق هذه الغاية ، أو هذا النصر !.. مرّة ، ثمّ أخرى ، تتكرّر المحاولات الفاشلة .. حتى يُقتل ، في النفس ، الحافز على تكرار المحاولة ، حتى مجرّد التفكير في محاولة أخرى ، يصبح مدعاة للألم والقهر !! لا تنظر إليّ هكذا ، متعجباً .. مستغرباً بساطة ما أقول !.. إنّها آخر أساليب الحروب النفسية !!.. الإحباط ، الذي يقود إلى عمليّة غسل الدماغ !.. انها أنجح ما يُستعمل في السجون من أساليبٍ ، لغسل الأدمغة السياسية ! أليست مهزلة ، أن نستعملها ، نحن ، ضدّ أنفسنا ؟! ترى .. هل يشفع لمن يمارسونها ، وطنيتهم الزائدة .. وقصدهم الأعمى الشريف !!.. ولو أنّنا دَرَسْنا تاريخنا الحقيقي .. وبالتفصيل .. دون الخوف من الحزازات .. لأدركنا أسباب إخفاقنا في الماضي .. وما علينا أن نعدّه للحرب في المستقبل !!.. ولما أقبلنا على الحروب كما نفعل اليوم .. قبل أن نكون قد أحسنّا التهيؤ لها !!

ــ أنت إذن ترى أن ليس لما نعانيه .. حلولاً سريعة !

ــ وهل تشفى العلّة المزمنة ، في يوم .. أو يومين ؟!

تمعّن عثمان طويلا في وجه صديقه .. يتفرّس في تقاطيعه ، كمن يراه لأول مرّة ..

ــ أتدري يا صديقي أنّك تتكلّم كأنك لست من أمّتنا ؟!.. وكأنك لا تعرف اللهفة التي تعتمل في صدور الجميع .. لهفة انقلبت إلى ذلك الإحباط الذي تتكلّم عنه ، والذي يُترجَم إلى ما نسمع عنه .. من ذبح وتقتيل !

ــ بل أنا من صلب هذه الأمة ، يا عثمان .. ولقد نجوت من هذا الإحباط لأنني لم أتتلمذ على أيدي أساتذتها ، ومعلّميها الذين غرسوا في نفوس أبنائها حبّ السعي المرتجل ، وراء الحلول السريعة !

ـ إذن فأنت نجوت من التيّار ! وكيف فعلت ذلك ؟! ألستَ منه ؟ ألست فيه ؟!

ضحك فراس لسؤاله ..

ـ إن لي طريقة في الإجابة عن مثل هذه الأسئلة .. يرجع تاريخها إلى حياتي في باريس ، والحي اللاتيني .. فهل تريد رداً على مثل تلك الطريقة ؟

ـ أريد رداً شافياً .. لا أكثر ، ولا أقلّ !

ـ إذن ، اظر الى هذه الأزهار التي تنمو على ضفاف الجدول ..

قال ذلك ، وأشار الى عثمان بأن يقترب من حيث جلس هو .. ثمّ تابع قوله ..

ـ أتدري ما اسم هذه الزهرة ؟

ـ ليس بالضبط ..

ـ إنّها زهرة النَيْلوفَر .. وبالمناسبة ، فإن هذا الاسم ، عربي ، لزهرة شرقية ، استحضرت الى الغرب ، مع اسمها !.. أتدري كيف تنمو هذه الزهرة ؟.. يقال إن بذورها تسقط على الماء .. فلا يتفتّح منها إلا الذي يسقط على ماء هادىء .. كمثل طرف الجدول ، هنا ، حيث أنّك لو أسقطت بذرة ، لبقِيَتْ في مكانها !.. إن هذه البذرة تبدأ في النمو من الأعلى .. الى الأسفل .. تمدّ جذورها نحو القاع .. في محاولة يائسة للحياة .. فإذا ما وصلت الى الأرض المناسبة .. وخلال الوقت المناسب ، علقت جذورها بالتراب الصالح ، وغبّت وتغذّت من الأرض .. وإلا ماتت ، وجرفها التيّار كغيرها ممن ليس لهنّ حظّها !

ضحك عثمان ، مغتبطاً لما سمع من صديقه ..

ـ إنّها صورة جميلة .. ودرامية في الوقت ذاته !.. هل هذه حقيقة علمية ؟

ضحك فراس بدوره .. وأجاب ..

ـ لقد قرأت ذلك في كتب الحكمة البوذية .. أما عن مدى صحّة هذه الحكمة ، علمياً .. فالله أعلم !

نظر عثمان الى صديقه في استغراب ، وعطف ..

ــ إنّها صورة جميلة .. ليس في ذلك شكّ !.. لكن .. هل لي أن أعرف كيف طبّقت هذه الصورة على حياتك.. في شكلها العملي ؟!.. وهل لي أن أعرف أين تتلمذت .. قبل أن ألقاك على ذلك القارب ؟!.. طالباً فرنسياً .. يؤدي خدمته العسكرية .. متطوّعاً في الفرقة الأجنبية !!

تبسّم فراس ، وقال ..

ــ درست العلم ، وتاريخ الغرب ، على يد الانكليز .. لكنّي درست تاريخ أمتي ، يا عثمان ، على أيدي مؤرّخيها الحقيقيين .. وليس على أيدي ما يقرّره أصحاب السياسة فيها اليوم !.. نهلت من تلك المخطوطات ، والكتب التاريخيّة ، المهملة ، التي يعلوها الغبار في المكتبات .. والتي لا يكترث لها أصحاب الثقافة المحدثة !.. ولقد كانت أستاذتي جدتي .. ومدرَستي بيت" دمشقي عريق !

* * *

كان فراس قد حدّث عثمان على الهاتف ، قبل ذلك اللقاء ، في غابة « الفيللا بورغيزي » ، مشيراً الى لقائه بـ« ليزا » .. والى ضرورة توخّي الحذر الشديد ، نظراً للغموض الذي أحاط بظهورها المفاجىء ..

لم يبدِ عثمان قلقاً زائداً لما سمعه من تفاصيل لقاء فراس بتلك الفتاة .. قال ، في واقعيّةِ من ُأصيب بعلّة لا حيلة فيها للطب ..

ــ وماذا تريدنا أن نفعل ؟!.. انّه أمر تعوّدناه !.. لا سبيل لنا الى التحرّك في الغرب ، دون مراقبة الإسرائيليين وأعوانهم !.. لقد ألِفْنا ملاحقة الأعداء ، حتى بتنا نقيس نجاحنا بمدى طول الفترات التي نزوغ فيها عن تلك المراقبة ! لا يا فراس .. ليس من سبيل لنا أن نعمل في الخفاء !.. وليس سبب ذلك علّة فينا .. فهم محصّنون ضدّ المراقبة والملاحقة .. ونحن مكشوفو الهويّة .. والهدف !.. منهم الفرنسي الإسرائيلي !.. والانكليزي الإسرائيلي !.. والإيطالي الإسرائيلي .. يتكلّمون جميع لغات أوربّا ، كأبنائها .. فهم أبناؤها .. يحملون جميع جنسيّاتها !.. يحتلّون أعلى المناصب

فيهــا ، سواء بين صفوف اليمين ، أو اليسار !! ولهم جميع حقوق المواطنين ، في كل ما يعملون !.. أمّا نحن .. فعرب ، غرباء في أوربا !.. لا نجيد لغاتها .. ولا عاداتها .. تكشف لكنتنا ، أصلنا العربي .. تسلّط الأضواءِ علينا .. حيث تنقلنا !.. ولأعــدائنا ، في جميع أجهزة الأمن ، أناس يُشعرونهم بوصولنا ، منذ اللحظة التي تطــأ فيها أقدامنا أرض المطارات !.. هل تفهم الآن مـــدى اهتمامي بالدور الذي يمكن أن تقوم به أنت ، لمصلحتنا .. ومصلحة أمّتك ؟.. هل ترى أهمية هذا الدور ؟!.. ستكون أحد الأوربيين العرب ، القلائل جداً ، الذين يعملون لمصلحة الثورة .. ولك .. فوق كل هــذا ، اســم .. وتاريخ أوربيان ، يحميانك من الشبهات ، أو من أدنى علاقة بالعرب !

ــ معنى ذلك أنني لــن أستطيع العودة الى بلادي .. طــوال فتــرة تعــاوني معكــم !

ــ .. إلا عبر الطــرق الملتوية .. وبعد التدقيق الشديد ، من أن ليس هنــالك أيّة مراقبــة لحركاتك !!

ــ و « ليــزا » ؟.. لئــن كنتَ لا تكترث للمراقبة التي تعودْتَها .. فماذا أنا فاعل إزاءها .. هل أتجنبها ؟

تبسّم عثمان .. ثم ســأل ..

ــ .. وهل تعجبك الفتاة ؟!.. فأنت لم تذكر لي أنّك حين طلبت منها مرافقتك الى فندقك ، كنت ترمي الى أبعــد من لقــاءٍ عابر !

سبح فراس بأفكاره الى جسد الفتــاة .. ثم الى ما تكشّف له مــن شخصيّتها ، قبل فراقهما .. فتابع ، وابتسامة متحفّظة على شفتيه ..

ــ .. انّها .. كفتاة إنكليزية .. لا بأس بهــا .. ولولا قضيّة السفارة الإسرائيلية ، التي تقــول إنّهــا تعمل فيها .. لكان من المحتمل لعلاقتي بهــا أن تطــول ، وتتطوّر ..

ــ اسمع يا عــزيزي .. إذا كانت « ليــزا » تسعى فعلا لمراقبتك ..

فمن الأفضل لك ، متابعة صلتك بها .. فذلك يسمح لك بمبادلتها المراقبة !..
بدل أن تتهرّب منها .. ويضطرّك ذلك الى التخفّي !

ولمّا وجـد لدى فراس أذنـاً صاغية لما يقول .. أضاف ..

ــ .. ولا تنس أن رفقة فتـاة إنكليزية ، تعمل في سـفارة إسرائيلية ، هو خير جواز سـفرٍ لك ، في أوساط أعدائنا !.. وأفضل دليلٍ على انتمائك اليمينية لدى الذين ستطلب منهم شراء المعدّات لمصلحتنا !

ســرّ فراس لما سمع .. لكنّه تعجّب من عـدم حيطـة عثمان ، فيما يتعلّق بأمره هو .. فسأل صديقه ..

ــ إنّك ، إذن ، تكاد تجزم أن ليس للفتاة علاقة بك ؟

ــ على العكس !.. إن كلّ من يهمّه الأمر ، من أعدائنا ، يعرف من أنا !.. إن تسميات « أبو فلان » و « أبو علاّن » لا تخفي حقيقة هويّاتنـا إلا عن بعض العرب !.. لكنّي أكاد أجزم أنّهم لا يعرفون من أنت !

ــ أنت تقول ، إذن .. إنهـا إنما تحـاول الوصول إليـك ، أو الى ما تريد ، عن طريقي أنا !.. أهذا ما يُستنبط من كلامك يا عثمان ؟!

ــ اذا كانت قد سعَت إليك ، بعد لقائنا ، فلأنها تظنّ أنني وجـدتُ فيك الطـريق الى ما أريد .. أو أنني أبحث عن هـذا الطريق ، من خـلال أصـدقائك !

ــ ولماذا أدلَت لي عن طبيعـة عملهـا ؟!

ــ لثقتها التامة أنّك سوف تكون من طرفهـا !!

تعجّب فراس لقول عثمان .. وقال حـائرا .. مستغربا ..

ــ وهـل في مظهري ما ينمّ ذلك ؟.. هـل مكتوبٌ على جبيني أنني متطرّفٌ .. يميني ؟!

كانت نبرة الحنق قـد تخلّلت صوت فراس .. لا يفهـم كيف يُسـاء فهمـه .. ويُتّهم بنقيض ما هو عليه تماما !!

أجـابه عثمان مهـدّئا ، مطمئنا ..

ــ نحن نقوم بسلسلة من الاستنتاجات ، يا فراس .. وقد لا يكون لجميع

ما قلنـا ، ذرّة من الواقع !.. نحن إنما نستعرض الافتراضات ، ليس غـير ! فاذا كانت تلك الفتاة ، تسعى إليك ، مدفوعة بهدفٍ سياسيٍّ .. فمن المنطقي التوقع أن هنالك من يراقبك ، أو من راقبك !.. وأن تلك الجهة لهـا إلمـام بالوسـط الذي تعيش فيه !.. لذلك فإن « ليـزا » لم تجـد أي حـرج في إطلاعك على مكان عملها .. مستندة الى ما لديها من معلومات عنك !.. ممّا سيسهّل عليها ، في المستقبل ، أن تطلب منك مساعدة ما .. في عفوية تامـة ، دون مواربة أو التفاف ، فلا يحومن الشك عندك ، في انهـا بيّتت مسبقاً طلب تلك المساعدة !.. وأن لقاءكما ..مدبّر ، مقصود !

صمت برهة ، وبدا على ملامحه كأنه تنبّه الى أمـر كان قد سها عنه .. فسـأل ..

ــ هل صديقك « شـارل غوستاف » يعرف أنّك عـربي ؟

ضحك فراس ، وأجـاب ..

ــ إنّـه يظنّ أنني « عربي .. تائـه » !.. أو « أوربي .. مفقود » !

ــ بربّك .. دعنا من الإبهام .. ألا ترى خطورة ما نحن فيه ؟!

ــ حسنا .. لقد زارني في دمشق ، مراراً .. ويعرف الكثير عن حيـاتي الخاصة ، لكنّه مستعد ، رغم كل ما يعرف ، أن ينقلب على الحقيقة .. ويعود الى سابق معرفته بي !.. إنّه .. في قرارته ، يؤثر ألا أكون عربيّاً !!

ــ هل غـيره من أصدقائكم ، يعرف ذلك ؟!

ــ لا ..

ــ عظيم .. عظيم جـدّا !!

ثم نظر الى عيني صديقه .. مقطّبا ، في جدّية صارمة ..

ــ فراس .. إنهـا قد تصبح قضيّة حياة أو موت ، بالنسبة لك !!.. يجب ألاّ يعرف مخلوق..هنا في روما، أنّك عربي!!ليس أصدقاؤك فحسب . بل جميع من سوف تتعرّف اليهم !..

ــ لكنّ جواز سفري .. واسمي في الفنـدق ..

ـ لذلك ، يجب أن تغادر فندقك ، في أسرع وقت .. ولا تقابل « ليزا » حتى تكون قداتّخذت لك سكنا آخر .. سكنا تسجّله باسمك الجديد !

بهت فراس ، وتمتم ..

ـ اسمي الجديد ؟!

ـ نعم .. اختر لنفسك ما تشاء من الأسماء .. ونزوّدك نحن بجنسيّة أوربية .. ماذا تفضّل ؟!.. إن في استطاعتنا أن نؤمّن لك الخيار بين جواز سفرٍ إيطالي .. أو فرنسي .. أو اسباني .. أو يوناني .. هذا ما لدينا الآن !.. فما رأيك ؟

ولما لم يحر فراس جواباً .. أردف عثمان ..

ـ .. لا تقلق لهذا الشأن .. إنها جوازات سفر شبه حقيقية ، ليس في وسع أي سلطة كشف أمرها ، إلا اذا دقّقت ، ولجأت الى الخبراء المتمرّسين !.. ثم هذا الجواز سيكون للاستعمال المحلّي فقط .. للسكن . أو لمخالفة أمن معترضة .. أو ما شابه .. لقد دخلتَ البلاد بشكل نظامي ، وحين تخرج منها ، تلجأ الى جوازك الأصلي !.. هه .. ماذا قلت ؟.. إن هذا أمر لا يحتمل التردد والتسويف !.. إذ عليك مغادرة الفندق ، في أقرب وقت !

رفع فراس كتفيه في حركة مستسلمة .. وقال ..

ـ إسباني ، إذن ..

تردد هنيهة .. ثم قال ، يحدّث نفسه ..

ـ .. ولم لا ؟.. إسباني ، أو غيره !.. الجنسيات كلها سواء عندي ، فأنا لن أستعمله إلا لعقد إيجار شقّة .. ولفترة مؤقتة !.. على أيّة حال .. أشعر أن جوازاً إسبانياً يقرّبني من وطني السالف .. الأندلس ..

أخرج عثمان ورقة وقلماً .. وسأل ..

ـ وماذا عن اسمك ؟.. هلاّ اخترت لنفسك اسماً ما ؟

صحا فراس من شروده ، وأجاب ..

ـ لا يجول في ذهني لقب معيّن الآن .. المهم أن يكون الاسم الأول « ماكسيميليانو » .. ومصغّره « مكسيم » الذي اعتدته .. أما عن اللقب، فسوف أُطلعك هذا المساء على اختياري .. على الهاتف ..

أعاد عثمان الورقة الى جيبه .. وقال في لهجة عمل جدية .. فاجأت فراساً ..

ـ أما وقد انتهينا من هذه التفاصيل .. فلنعد الى الأصل .. واسمع جيّدا ما سوف أقول .. فأنا لن أستطيع أن أراك، لزمن طويل، بعد اليوم !!

وتكلّم عثمان في إسهاب عن ضرورة عدم لقائهما، إلا بعد عدد من الاتصالات الهاتفية، تجرى من أماكن عامة .. على أن يُرمز الى كلّ مكالمة إشارة خاصّة، تتبدّل مع أسماء الشهور .. شارة، لا علاقة لها بالحديث، تفهِم الطرفين أنهما في أمان، وأن ليس هنالك من يسترق السمع على الطرف الآخر .. أو أن أحد الطرفين مجبر على قول ما لا يريد !.. ثم اطلع فراس على عدد من الأماكن التي يمكنه اللجوء اليها، من غير حاجة الى استئذان أحد .. في حالة الضرورة القصوى !.. وأعطاه عددا من مفاتيح صناديق الأمانات، وأطلعه على أن كلاً منها يحتوي على مبلغ من المال إذا ما احتاج اليه، في حالة اضطراره الى السفر أو الهرب المفاجىء ..

ـ أما عمّا نريدك أن تبتاعه لحسابنا .. فسوف نطلعك على طبيعته، في حينه، وعن طريق عملاء مختلفين، في شكل مطبوعات عادية، سياحية، أو غير ذلك .. تحتوي على لائحة بما نطلب، مع عناوين الجهات المختصة ببيعها، وتجهيزها .. فما أن تشعرنا أن عميلك قد حصل على الموافقة، من الجهة المنتجة، حتى تفتح الاعتمادات المصرفية باسمه، ونوافيك بالجهة التي نختارها للشحن ..

لم يأت مساء ذلك اليوم، إلا وفراس يسعى حثيثاً للقاء « شارل غوستاف » .. يسعى الى دفء صداقته الآمنة، ليملأ ما انتاب نفسه من فراغ وصقيع، إثر لقائه الأخير بعثمان !

راحا يتخالسان نظرات خفيّة .. يتحاشيان لقاء عينيهما .. يحس « شارل » ، كعادته ، أن نفس صديقه تطوي ما ينغّصها .. فلا يطرح الأسئلة عليه .. بل يجاذبه أطراف انطباعات تائهة .. في انتظار ما سوف ترسو عليه مراسيه من قرار ..

تنهّد فراس طويلا .. ثم قال ..

ــ « شارل » .. إنك تعرف محبّتي لوطني .. وما أنا دوماً على استعداد للقيام به ، لخدمته ..

أجاب « شارل غوستاف » في بساطة ..

ــ ومن ذا الذي لا يحبّ وطنه ؟.. فما الجديد في الأمر ؟

ولما لم يحر فراس جواباً .. تابع سائلا ..

ــ ماذا في الأمر .. هل هي مهمّة أخرى .. تتعلّق بعثمان ..

هزّ فراس رأسه ، دون أن ينظر اليه ..

ــ مهمّة ؟! بل ، قل ، مهمّات !! يطلب مني أن ألجأ الى مساعدتك ، في تنفيذها .. دون أن أدعك تدرك قصدها .. لكني لا أستطيع أن أقوم بذلك .. إلا اذا وافقت !

سكت « شارل غوستاف » عن الرد برهةً مرور حشدٍ من السياح .. يتسارعون كالخراف الحائرة .. يقطعون شارع « الفيا فينيتو » .. من رصيف مقهى اا « دوناتي » .. الى رصيف مقهى « باريس » ..

راح فراس ينتظر رد « شارل غوستاف » .. وقد علّق عليه ، ليس مصير مهمّته فحسب .. بل مدى طبيعة علاقته الشخصية بجمهرة من المعارف والأصدقاء !.. علاقة ، قد لا تدوم طويلاً إذا ما اضطر إلى الوصول إليهم ، متجاوزاً « شارل غوستاف » أو .. بالرغم من مناهضةٍ ما ، قد تصدر عن صديقه !

سأل فراس ، في لهف مكتوم ..

ــ ألن تجيبني عما سألت ؟.. هل أنت تستسيغ ، حين تسألني أمرا ما .. أن أتركك معلّقاً بين نعم ، و لا ؟..

رد « شارل » متسلياً ..

ــ إذن ، لقد جاء دوري في تعذيبك !

ــ بربّك « شارل » .. هلاّ أجبت !..

ــ على رسلك يا صديقي .. على أن لا يكون يوماً ، فيما سيطلبه صديقك منّا ، مهمّة تتعارض ومصلحة بلادي !

ضحك فراس ، وسأل صديقه ، في غبطة ظاهرة ..

ــ وهل تريد جواز سفرٍ .. غير الذي تحمل ؟.. على طريقة أساليب قصص العباءة والخنجر ؟! هل يسلّيك ذلك ؟

تعجّب « شارل غوستاف » .. وسأل ..

ــ ولِمَ هذا السؤال .. هل أنت ستحصل على مثل هذا الجواز ؟

هزّ فراس رأسه بالايجاب .. وقال ..

ــ وهل يعقل أن يكون حولي أمثال « ليزا » .. وأتجوّل ، بهويّتي الحقيقية ، في بلدٍ ليس لي من حماية فيه !

ــ ومتى ستحصل عليه ؟

ــ الليلة ، أو غدا صباحا .. ثمّ أنتقلُ من الفندق الذي أنا فيه ، الى مسكن خاص في أقرب فرصة ممكنة ..

ــ وهل انتقيت اسماً لك ؟ أرجو ألاّ تختار اسماً جديدا يصعب علينا التعود عليه !

ــ « ماكسيميليانو » .. فقط .. بدل « مكسيم » ..

ــ وما اسم الأسرة ؟..

ضحك فراس لما جال في ذهنه فجأة ..

ــ ما رأيك بأسرة « ألبا » ؟! إن ذلك قد يسقط « فرانشيسكا دل البيلار » مغشياً عليها !! فيما لو سمعت به !

أجاب « شارل غوستاف » في جدية ، ووضوح ..

ــ لا حاجة « لفرنشيسكا » أو لغيرها ، أن ترى جوازك الجديد .. أو

أن تطلّع على ما فيه..وإن جوازاً مزورا ليس أمرا بسيطا في نظر السلطات هنا!!

هزّ فراس رأسه موافقاً ..

ـ إني أدرك ذلك ، كل الإدراك..ولولا حاجتي إليه .. لعقد السكن .. لما قبلتُ بعرض عثمان ..

صمت برهة ، ثم عاد الى التبسّم ، وقال ..

ـ ما رأيك أنت ، أي اسم أسرة أختار ؟!

ـ « ألبـا » أو غيره .. سيان عندي .. « ألبـا » .. ولم لا ؟.. طالما أن الشكوك تحوم حولك وحول هذا الاسم .. إنه اسم جميل !

* * *

الفصل السادس

تردّد فراس في الرد على رنين الهاتف .. ما كان في وسعه أن يطلب من عامل المقسم رفض مكالمات « ليزا » ، ولا من الإدارة ، إخفاء اسمه ، لو سئلت عن وجوده في الفندق ، دون إثارة التساؤلات عن سبب هذا التخفّي !.. ولدى إصرار الرنين .. قرّر في النهاية أن يردّ ، فما إن سمع صوت « شارل غوستاف » حتى قال ، منشرح الصدر ..

ــ ألم يخبرك أحد أنّك ذو صوتٍ عذبٍ ! ..

ثمّ عاد الى نبرة الجدّ .. وتابع ..

ــ أرجوك ، يا « شارل » ، .. أن تساعدني في إيجاد سكن لي ، غير هذا الفندق .. سكن خاص .. أليس لك من الأصدقاء من يودّ أن يؤجّر شقة ، أو بيتا .. أو ..

ردّ « شارل غوستاف » على الفور ..

ــ .. بل إن الكونتيسة « دل بيلار » لخير دليل لك .. لولا ما أثرتَ في نفسها ضدك من ضغينة !

احتدّ صوت فراس ، متعجّبا ..

ــ وما ذنبي أنا ؟.. إذا كان خيالها على هذه الدرجة من الجموح ! على أية حال .. ليس هنالك من محذور يمنعك السؤال .. ألا تملك في روما غير شقّتها ؟.. وماذا عن غيرها ، من الأصدقاء ؟!

ـ سأتّصل بها أو بأحدهم .. ثمّ نرى ماذا يجدّ .. هل نلتقي بعـد القيلولـة ؟

ـ على رسلك .. نلتقـي في « الكانوفـا » .. لا .. لا .. في مقهـى « روزاتي » .. حوالي السادسة من هذا المساء ..

* * *

كان الجالس الى إحدى مـوائد مقهـى « الروزاتي » .. في سـاحة « البوبولو » أو « ساحة الشعب » يشرف على جميع المعالم التاريخيـة التي تحيط بساحةٍ من أجمـل الساحات العامة في « روما » .. فعلى امتداد نظره ، الى اليمين ، يرى الأعمدة الرخاميـة لمدخلي كنيستين قديمتين ، متطابقتين في أسلوب البناء .. وقبالته .. ترتفع كالجدار الأخضر ، دروبٌ ملتوية ، تصعد الى شـرفة « البينشيو » الشهيرة ، المزيّنة بالتماثيل والأشجار النـادرة .. والى يساره ، يرى السور العريض ، وأقواس « البورتابيا » .. كلّ ذلك .. يحيط بساحة مترامية الأطراف .. تتوسّطها بركة جميلة .. في وسطها مسلّة مصرية ، قديمة .. يتدفّق الماء إليها ، من أفـواه أربعة أسود ، من رخـام ، تربض على جوانبها ..

أشرق وجه « شارل غوستاف » بابتسامة عريضة .. وهو يتقدّم من حيث جلس فراس .. قال له ، بعد مبادلته التحيّة ..

ـ يا لها من امرأة غريبة الطباع !

ـ صديقتك « دل بيلار » ؟! وهل حدّثتها عني ؟.. هل أقفلت الهاتف في وجهك ؟!.. قل !

ـ بل بادرت الى إعطائي عدة عناوين ! وأصرّت ، هل تتصوّر .. أنها أصرّت ، على ألا أدعك تتخذ سكناً لك ، دون مشورتها ؟! هل تتصور ذلك ؟

ضحك « فراس » .. غبطة ، وتعجّبا .. وسأل صديقه ..

ــ وماذا تفعل الآن ؟.. أين تقع هذه المساكن .. أرجو ألا تكـون من البناء الحديث !

ــ تتّجه بعد قليل نحـو أقربها منّا .. يا للمصادفة .. إن أحدهما هنا خلف ذلك السور !

دهش فراس ، وسأل متلهّفا ..

ــ أين ؟ في « الفيللا بورغيزي »!! وهل في هذه الغابة من دور للسكن ؟

ــ إن قسماً منها ما يزال ملكاً للحكومة الفرنسية .. بنت فيه عدداً من المساكن القديمـة ، أعدتهـا لأولئك الفنانـين والموسيقيين الـذين ينالـون « جائزة روما » .. في باريس .. فيقيمون فيها ، متفرّغين للرسم والتأليف !

ــ أليس فيها غير مساكن هؤلاء الفنانين ؟

ــ بل فيها عدد من قصور النبلاء .. هذا كلّ ما أعرفه عنهـا .. لكن .. لم التساؤل ؟.. ألسنا ذاهبين لنرى بأنفسنا ، بعد حين ؟

كان « شارل غوستاف » قـد أطلع صديقه على جميع ما خفي عنـه من ظنون الكونتيسة « دل بيلار » .. خصوصاً تلك التي ابتدعتهـا من أسـباب تخفّيه !.. مما أضحك الصديقين طويلا !

قال ، متعجباً ، بعـد أن احتسى رشفة قهوة ..

ــ لكني لا أفهم إصرارها على مساعدتك في اتخاذ سكن لك !.. أنـا لست أدّعي معرفة كاملة بها .. أو حتى شبه كاملة .. لكني واثق من شـيء واحد ، حولكما .. وهو أنّك لست من نوع الرجال الذي يستهويها !

ــ لعلها لم تفعل ذلك الا من أجلك أنت .. من أجل صداقتكما !

ــ لا .. لا .. إنك لن تفهـم قط هـذا النوع من النساء !!.. فهـن لا يقمن بخدمة لأحد ، إن لم يكن لهن فيها منفعة مقابلة !

شـرب « شارل » فنجانه من قهوة ، ثم قال ، متبسما ..

ــ من يدري .. لعلها تفكر في أختهـا !

ــ أختهـا ؟

ــ « بالوما » التي حدثتك عنهــا .. لعلها تسعى الى الربط بينكما .. رغــم امتعاضها منك !

لوّح فراس بيده ، مغيراً مجرى الحديث ..

ــ إنك لم تشرح لي علاقة صديقتك بالمسكن الذي سوف نرى .. ألم تقل أنه ملك الحكومة الفرنسية ؟.. فممّن استأجره ؟

ــ .. إنه في حوزة فنان كهل .. نحّات بولوني ، كانت له شهرة لا بأس بهــا ، في العشرينات .. أخبرتني « فرنشيسكا » أنــه شخصية طريفــة .. فهو يدّعي أنه من أسرة نبيلة ، هربت من الحكم البلشفي ، بعــد الحرب .. وبما أن ذلك لم يجــد له أي صدى في إيطاليا ، المصابة بتخمة الألقاب ، فلقد تزوج امرأة ارستقراطية .. وابتاع ، بمالها ، قلعــة كانت ملكاً لآخر « دوق » من أسرة إيطالية معروفــة !

ــ وماذا أفــاد من ابتياع تلك القلعــة ؟!

ــ يقــال ، إن مَن يبتاع مُلكاً ، كان سكناً لأسرة نبيلة ، انقرضت .. يحق له متابعة حمل لقبها !.. هل نذهب لمشاهدة المسكن ؟

ــ هيــا بنــا .. وبالمناسبة ، فإن « فرانشيسكا » حذرتني من ذكــر موضوع الإيجار أمام أحــد من سكان تلك المنطقة .. إذ أن الفنان ، فيهــا ، لا يحق له تأجيرها .. سنذهب إليه كزائرين عاديين ..

استقلا سيارة فراس ، وكانت من النوع الإنكليزي العريق .. فاجتازا عرض الساحة ، في بطء .. ثم السور الكبير ، عبر أحــد الأقواس الأثرية .. أشار « شارل غوستاف » لصديقه أن ينتحي درباً جانبية ، الى يسار طــريق الغابــة العريض .. ما إن تجاوزا منها مسافة قليلة ، حتى تعرّجت ، في عــدد من المنعطفات الصاعدة ، فإذ هما ، فجــأة ، وسط جزءٍ كثيفٍ من الغــاب .. يقود مباشرة الى رتاجٍ مغلقٍ ، مقوّس ، شاهق العلو .. الى جانبه ، كــوخ حجري صغير ، تراءى لهما أن في داخــله ، حارساً ، أو بوّاباً ، لم يبــد منه سوى رأسه المغطى بقبعة رسمية ..

زمّر فراس ، بلطف .. ومدّ « شارل غوستاف » رأسه من النافـذة ، يقول للحارس ..

ــ .. « الفيللا سترو هايم » .. إذا سمحت ..

هـزّ الحارس رأسه ، بالموافقة .. وخرج في بطء ، يفتح باباً عريضاً ، اقتُطع من الباب الأصلي ..

كان لتعرجات الدرب المفاجئة .. ولصمت الغـاب الكثيف بالأشجار ، وللباب المقوّس الكبير ، والحارس الكهـل ، الذي جـرّ سلاسل الباب ، أمامهما ، في صمت ، مشيرا اليهما بالدخول .. كان لكـل ذلك أثر السحر في نفسَي فراس ، و « شارل » .. ولجا الباب ، في صمت ، ونفس فراس ، طارت الى زمن بعيد .. الى الغـابة السوداء ، وأساطير ألمانيا .. الى الطرق المتعرّجة التي قادته و « لـورا » الى قصرها القـديم .. وإلى ما سبّبته « لـورا » لـ « باتريس » من لوعةٍ ، لعله لن يشفى منها طوال حياته* ..

فتح عينيه ، كمن يصحو فجـأة .. وسأل « شارل » ..

ــ ماذا كنتَ تقول ؟ أين أتجـه ؟..

كانت الدرب قد بدأت في التلوّي والتعرج من جديـد .. تطالعهم بين الأشجار الكثيفة، مداخل عتيقة لمساكن بنيت في بداية القرن.. كُتبت أسماؤها على لافتات صغيرة ، علّقت على أبوابها ..

أشار « شارل » الى بنـاء بعيد ..

ــ يا لذلك القصر البديع .. ليته كان المسكن المقصود !

ضحك فراس منه .. قائلاً ..

ــ وهل جننت ! إننا نبحث عن مسكن لفنان ، لا عن قصر ملكي !

---

* ورد سرد تلك الحادثة ، في رواية « مسافر بلا حقائب » للمؤلف.

وما إن تجاوزا مدخل القصر وهمّا بالتفاف حول منعطف آخر .. حتى طالعهما رجل مسن ، أشار إليهما بالتوقف ..

ســأل الرجل ، في أدب جـمّ ..

ــ هل أنتما أصدقاء الكونتيسة « دل بيلار » ؟.. هل تبحثان عن أحد ؟

ولمـا ردّا عليه بالإيجاب .. أطلعهما انه النحّات المقصود .. صـديق الكونتيسة « دل بيلار » وطلب منهما أن يكملا طريقهما .. ويتوقفا أمام مدخل أول ما يطالعهما من مساكن ..

ضحك فراس ، وهو يقول لـ « شارل » ..

ــ يظهـر أن لصديقتك مكانة عظيمة في هذه الأوساط .. إن هــذا ليبشّر بالخـير ..

لم يبـد من ظاهر السكن الحجري القديم الا ما تسلّق فوق جدرانه من نباتات كثيفة تهدلت ذوائبها فوق بابه ، ونوافذه الخشبية ، العتيقة ..

أخرج الرجل مفتاحاً طويلا ، قديما ، أسود اللون .. وقال ، وهو يديره داخل القفل .. ويدعو الزائرين الى الدخول ..

ــ إنه لشرف كبير لي .. إنه لشرف كبـير !

فوجىء فراس بما شـاهده ، لحظــة صار الى الطـرف الداخلي من المسكن !.. طالعته قاعــة ، واسعة الأرجاء ، يدخل النور الساطع إليهـا من سقف بالغ الارتفاع ، نصفه من الأعمدة الخشبية الغليظة .. ونصفه الآخـر ، من الألواح الزجاجية ، المحصّنة بالحديد ، التي لا سبيل الى الوصول اليها ! يتدلّى منها حبل متين سارع صاحب المسكن الى شدّه ، فإذا بقسم من ذلك السقف الزجاجي ، يرتفع في الفضاء ، ليكشف سـماء روما الصافية .. التي سرعان ما تدفـق منها ، سيل رطب ، من عبـق أشجار الصنوبر ، والأرز ، والسنديان ..

غلبت سعة القاعة على محتوياتها .. بدا كل ما فيها صغير الحجم ، باهت المقاييس ، عـدا تمثالاً رخامياً أبيض ، كبير الحجم .. شاهق الطول ، لفتاة

عارية .. وقفت ، تنظـر الى السماء ، وفي يديها ، وعـاء ، مدّته فوق رأسها كأنهـا تنتظر أن تمـلأه من المطر !

قال الرجل ، يعلّق على ثنـاء الزائرين على فنّه ..

ــ إنّها تحفتي الرائعة ، التي سبَقَت العشرينات ، وتأخرت عن الفن الحديث .. هـذه مصيبتي .. لقـد ركبتُ قطاراً ، غـادر موطنه .. وما من محطة له ، ليتوقف فيهـا !

سخر من قدَره وهو يتابع الكلام ..

ــ لعلها مثلي أنـا ، تماما .. مثل هذا المسكن ، بجميع ما فيه .. مثل هذه الموقدة الحديدية الضخمة .. لقد كانت تعمل على الفحم .. في يـوم من الأيـام ، تقوم بتدفئة جميع أرجاء هذا المسكن .. أما اليوم .. فأين تجِـد الفحم ، اليوم ؟.. لقد استبدلوا به الغاز السام !.. وهذا الحمام الصغـير ، بمغسلته الحقيرة ، وأنابيبه الصدئة .. يكاد يكون عملاً فنياً حديثاً ! لكن ، لم العجب ؟.. إننا لم نكن نغتسل ، في تلك الأيـام !

كتم قهقهة طريفة ، وقـال ..

ــ لم نكن ندري أن على الإنسان أن يغتسل !! أوربا العظيمة !! كنـا نستعمر أناساً يغتسلون كل يوم !! ومنهم من كانوا يغتسلون ، خمس مرات في اليوم الواحـد !! وكنـا نظن أننا نحن الشعوب الأرقى ، وذات العـرق الأفضل !! إن الذين عاصروا هذه الحقائق قد ماتوا .. والجيل الجديد يظـن دوماً أن أجداده كانوا على عادات جيل اليوم وعلى طباعه نفسها ..

عـاد الى القهقهة المكتومة ، وتابع ..

ــ إن لي رأيـاً في سبب انتصاراتنا الدائمة على تلك الشعوب ، هـل أقوله لكما ؟.. إن جيوشها كانت تنهـزم أمامنا ، هرباً من رائحـة الجنود !! جنودنا نحـن !!

بدا « يان فراتيشيك » وكأنه في السبعينات من عمره .. يشكو ضعفاً في النظر ، وضع حـداً مبكراً لتطور موهبته الكبيرة .. كان متورّد الوجـه ،

مستديره .. واسع العينين .. ظهر من الشيب على حاجبيه الكثيفين أكثر مما بقي منه على رأســه الأصلع ..

وصلت زوجته بعــد برهة ، تبدي شــديد الاعتذار عن تأخيرها ، مما أدهش الزائرين .. فما إن تم لفراس مشاهدة بقية أجزاء المسكن .. ولم يكن فيه ، عــدا قاعته الشاسعة الشاهقة ، وحمّامه الهزيل ، الا غرفة نوم متوسطة الحجم .. تحيط بهــا النوافذ العريضة من جميع الجهــات ، حتى ليشعر من هو في سريرها المريح ، إنه نائم أو مستلق وسط الغاب .. ما إن تم له ذلك ، حتى التفت الى الشيخ الفنان ، وزوجته ، قائلا ..

ـ لا أظــن أني أستطيع الإقامة هنا طويلا .. لنقل ستة أشــهر ، ماذا تريدان مقــابل ذلك ؟.. وما الاجراءات المطلوب عملها ؟

ارتبك الزوجان في شكل ظاهر ، لم تكن الزوجة تتصور أن إنساناً يمكن أن يقبــل بالسكنى في هذا المسكن الوحيــد ، المهجور .. الخالي من وسائل الراحة الحديثة !!

تمتمت .. تقــول ..

ـ لكن هــذا أمــر لا يهم البتة .. إن المبــلغ الذي تدفعــه مقبول لدينــا .. يا ..

لكز « يان فراتيشيك » زوجته بطرف ذراعه ، يظنّ أن أحداً لم يلاحظ ما فعل .. فتماسكت هذه ، وشدت بعض الشيء من نبرتها ..

ـ نكتب عقــداً ، صورياً ، بيننــا .. ورقــة بسيطــة .. من أجــل الشكليات فقط ..

ثمّ أردفت ، كأنها ندمت على ما بدر منها ..

ـ لا .. لا .. إيصــال بسيط فقط .. إن ايصــالا بسيطاً يفي ويغطي جميع الشكليات ..

ثم نظرت الى فراس ، متسائلة .. وقالت ..

ـ ماذا أكتب يا .. يا سيدي ؟! كم المبلغ ؟

ثــم تلعثمت ، وقالت ..

ـ وأي اسم أكتب ؟

تردد فراس .. نظر الى « شارل غوستاف » يسأله رأيه ، فذكر هذا مبلغاً ، هز ّ الزوجان لسماعه رأسيهما ، بالموافقة .. تلكأ هنيهة .. ثم .. مد يده الى جيبه يخرج جواز سفر ديبلوماسي ، يحمل على غلافه شارة النسر الإسباني المذهّب .. وقال ، في شيء من الحيرة ..

ـ هل ضروري حقاً أن نكتب الإيصال ؟!.. هاهو ذا المبلغ ، وأنا ، من جهتي لا أطلب منكما أي إيصال ! فما حاجتكما .. أنتما ، لإيصال ؟!

كانت السيدة « فراتيشيك » قد فتحت عينيها دهشة ، وهي تلمح الجواز .. فمدّت كلتا يديها ، تأخذ المبلغ بيدٍ .. وترد جواز السفر الى فراس بيدها الأخرى .. كأنما لتمنعه من فتحه .. ثم تمتمت ، في لهجة مبهورة ، وهي تتراجع بضع خطوات ، الى الوراء .. وتشد بيد زوجها ، لكي يتراجع معها !

ـ إن أكبر اسم في اسبانيا .. يا سيدي .. لا يُكتب على ايصال !!

* * *

سرعان ما خرج الزوجان من المسكن ، تاركين فراسا ، في دهشة مما سمع ورأى ، لا يدري ما يقول ، أو يفهم !.. و « شارل غوستاف » .. يتلفّت حوله ، بلا معنى .. يتمشى ، جيئة وذهابا ، فيسمع لصوت خطواته صدىً تردده الجدران الخاوية ..

قال بعد هنيهة صمت ..

ـ إنها « فرانشيسكا دل بيلار » !.. هذا من عمل « فرانشيسكا » !.. كيف لم أفطن الى ذلك ، منذ البدء ؟ إنها على معرفة وطيدة بهما !.. خصوصا ، بزوجته الارستقراطية ! ولا شك أنها أطلعتها على ظنونها .. حول هويّتك .. وأرادت مني أن أقودك الى حيث يستطيع أحدهما التحقّق من جواز سفرك ! لذلك ، غرضت هذه عليك كتابة الإيصال ! لتسألك عن اسمك !.. فما إن رأت غلاف جواز سفرك الدبلوماسي ، حتى اكتفت بذلك ..

وأدركت أن في إحراجك ، لخسارة كبيرة لهــا !.. خصوصاً بعــد أن حصلت على ما تريد .. وتيقّنت من أنك إسباني !!

أجاب فراس ، في حيرة شديدة مما ســمع ..

ــ وماذا يعني كل هذا !.. وممّ تراها تأكدت ؟

تبسم « شــارل » ، ساخراً ..

ــ من إنك النبيل الإسباني الذي تخشاه .. والذي هزىء منها ، وحقّر علاقتها بعشيقها !.. ومن يجــرؤ على فعل كل هذا .. سوى سليل عائلة ألبــا العريقة !! الدوق « دي ألبــا » بلحمه ، ودمه !!

هــزّ فراس رأسه في تعجب بالغ ..

ــ لكن .. ما معنى كل هذا .. وهل هنالك من دوق « دي ألبــا » في الأصل ؟!.. إن كل ما رأته تلك المــرأة من جــواز سفري .. هو الغلاف .. لا غير !.. فكيف تقفز الى جميع هذه الاستنتاجات ؟!

ــ لك كــل الحــق أن تستغرب كل ما أقــول !.. لكنك لو سمعتها تشرح لي شكوكها التي ما انفكّت تتفاعل في رأسها منذ أن تركناها آخــر مــرة .. « مكسيم » .. لــو انك سَمِعت الصورة التي ركّبتها لــك في مخيّلتها .. منذ ذلك الهجوم .. لأدركتَ أنها لم تكن في حاجة لأي برهان ، لتتأكد من صحة ظنونها !! « مكسيم » .. إننا لا تتكلم عن امرأة متوسطة .. عادية !.. ولقد شاهدتَ تصرفاتها ، ونمط حياتها .. إن مثلها ، من النساء ، قادرات على إشــعال الحروب بين الدول !!

صمت فترة .. يحاول إعــادة أشتات أفكاره ..

ــ أما الآن ، وقد جاءها البرهان القاطع .. ولا شك عندي انــه يصلها على الهاتف ، في هــذه اللحظـــة !

لم يتركه فراس ينهي كلامــه .. فقــال ..

ــ أي برهان قاطع هذا ؟! أقول لك إنها لم تر سوى غلاف الجواز !!

هــزّ « شارل غوستاف » كفّيه عجباً ..

ـ أحـار في أمرك .. هل تصطنع السذاجة ؟! ألا تدري ما قيمة جواز سفر دبلوماسي إسباني ، في زمن يحكم فيه إنسان متعسّف مثل « فرانكو »؟! ومن الذي يُمنَح جوازاً دبلوماسياً ، من غـير الدبلوماسيين من النـاس ؟! ألا تجيبني ؟! مَن مِنَ المدنيين ، يمنح مثل هذا الجواز ؟! وعلى يد سـلطة مثل حكم « فرانكو » ، غـير إنسان على مستوى الـ « دوقا دي ألبـا » ! سواء وجد هذا « الدوق » ، في الحقيقة ، أم لم يوجد !!.. عزيزي !.. لقـد أصبحتَ الدوق « دي ألبا » ، بالنسبة « للكونتيسة دل بيلار » على الأقل ، سـواء شئت ذلـك ، أم أبيت !!.. وسـواء أكان لهـذا الإنسان وجـود حقيقي ، أم لم يكـن !!

* * *

لم يطـل انتظار فراس كي يأتيه ما يؤكد له صدق توقعات « شـارل غوستاف » حول خطـة ، وظنون « الكونتيسة » !

جـاء في صباح اليوم التـالي يتفقّد ما قـام به الخادمان من تنظيف سكنه ، وترتيب ما ابتاعه من أثاث ، وكانت الطبّاخة ، وابنها الشاب ، مـن أقارب أو معارف خادمـة « الكونتيسة » .. فما إن وصـل مسكنه ، وكان مفتوح الباب .. ودخـل ، ينظـر حوله ، حتى رأى المـرأة وابنها يسرعان لاستقباله .. يتسمّران على بعد بضعة أمتار منه ، ثمّ ينحنيان انحناءة كبيرة الى الأمـام !

قـالا ، في صوت واحـد ..

ـ أسعدت صباحا .. يا صاحب النيافـة !..

توقف انتباه فراس فوراً على كلمة « نيافة » .. وراح ينظـر اليهما ، بعد أن ردّ التحية بإشارة طفيفة من رأسه .. يمعن في التفكير فيما سمع ..

جال في خاطره ، انهما لم يلقيا بتلك التحية جزافاً !.. ولو أن الأمر كان مصادفة ، أو مجـرّد مبالغـة في الاحترام ، لسيدٍ أجنبي ، لتفوها بعبـارة بسيطة .. مألوفـة في وسطهما .. ولكانا قـالا عبـارةً تماثل « يا صاحب

السعادة » .. وهو قول يوجّه الى الكثيرين في ايطاليا .. ولما قالا .. « صاحب النيافة » .. وهي عبارة مختارة .. مخصصة لـ « كاردينال » أو لـ « دوق » ! أما وقد سمعهما يرددان ذاك التعبير بالذات ، ويشتركان في ذلك ، دون تردد ، فمعناه أن هنالك من هيأهما لمثل ذلك الأسلوب في الكلام .. بل ، ربما ، زوّدهما بمعلومات إضافية لا يعلم فحواها إلا الله !

* * *

سعى فراس جهده ألاّ يعير ذلك الجانب من حياته اهتماماً زائداً .. لم يكن في وسعه التبسّط مع خدمه بالحديث ، ولا مكاشفتهما بأمور تتعلّق بحياته الخاصة .. لذلك ، اكتفى بأن طلب من الطاهية إهمال الألقاب ، في حديثها معه ، ونبّه الشاب الى الكفّ عن التسمّر في مكانه ، والانحناء له ، كلما مرّ من أمامه ، أو وجّه اليه الكلام ! ورغم أن الأمر في البدء بدا صعب التنفيذ عليهما ، إلا أنهما سرعان ما تعوّدا الامتثال له ، لا عن قناعة منهما ، بل تلبية لطلب نبيلٍ ، غريب الطباع ! فلم يحاولا إخفاء أسف واضح كان يتبدّى على ملامح كل منهما ، كلما دعاهما عملهما اليومي الى مبادلة سيّدهما الحديث .. راحا يتلقيان أوامره ، في أدب جمّ ، يخفي وراءه مرارة من فُرض عليه العمل في شروط تحرمه متعةً ، هي من صميم حقوقه !

* * *

شغف فراس بمسكنه الجديد .. وتفرغ لتأثيثه .. أحب طابعه السلفي الأوربي ، فتسلّى بالعودة الى بداية القرن ، عن طريق « دانونزيو » ، .. و « خليل جبران » .. وروح ذلك العصر التي استراح فنّها للقطيفة الدافئة ، الحمراء ، والطنافس الشرقية المذهبّة .. فأصغت دامعة لحنين « ريكله » .. واهتزّت لعنفوان « رامبو » .. وتواءمت مع رؤى « رودان » .. وتأجّجت ، ثم هدأت لموسيقى « فاغنر » ، و « شومان » و « شوبان » ..

لم يكن في نيّته أن يقوم في مسكنه بنحت ما ، يخاف غباره .. أو رسمٍ ،

يخشى مما يخلّفه وراءه من زيتٍ وألوان .. لذلك غطّى جدرانه الشاهقة ، الجرداء ، بمئات الأمتار من القطيفة الثمينة النبيذيّة اللون .. تهدّلت على شكل ستائر ، تحجب أبوابا خفية .. ثمّ كسا أرضه بمثل لون الستائر .. فبان تمثال الفتاة الرخامي الأبيض ، آلهة تضرع الى السماء ، وسط معبد ، وثني ، قديم !

كان يحلو له ، من وقت لآخر ، تبديل موضع الأثاث القليل ، الذي تفرّق على جوانب القاعة .. ينتظر ساعة مغادرة خادميه .. ليقوم بما صمم على تحريكه في النهار ..

تنبّه يوماً الى أن الشاب قد نسي أن يحرك صندوقا كبيرا كان قد طلب منه تبديل موضعه .. صندوقا ، مقفلا ، تركه صاحب المسكن مع بقية ما ترك .. فقام فراس ، يحاول تحريكه من موضعه .. دون جدوى ، الى أن طرأ له أن يخفف من ثقله ، بتفريغه مما احتوى ، ثمّ يعيد ما كان فيه ، بعد إيصاله الى المكان المقصود ..

حاول فتح قفله القديم .. دون جدوى .. فلجأ الى الحيلة المعهودة .. سيخ معدني ، لوى طرفه ، على شكل زاوية قائمة .. أدخله في فتحة القفل وظلّ يعبث به ، يمنة ، ويسارا ، الى أن تمكن منه .. فأداره على صوت خفيفه الصدىء ..

رفع غطاءه الثقيل ، يكتم في نفسه غبطة لما سيكتشفه فيه من تحف أو معدّات .. وإذا به يفاجأ بقطعة قماش حريرية تغطي حاجات مصففة ، لم يبد له أنّ لها علاقة بالنحت .. ما إن همّ برفع قطعة القماش ، حتى تهلهلت بين يديه .. وكأنها حجاب نُسج من خيوط العنكبوت ..

بوغت بما رآه تحتها .. كُتب مرصوفة فوق كتب ! صفوف منها ، محشورة على طولها ، أو على حدّها .. جميع ما رآه ، منها ، مغلّف بجلد

قديم .. منها ما بليت أطرافه .. ومنها ما تآكلت زواياه .. وبدت ، كأنها لم تر النور ، منذ أكثر من نصف قرن ..

* * *

أمضى فراس ليلة مع تلك الكتب ، لن ينساها زمناً طويلاً !.. أخذ يخرجها من وكرها ، كتاباً ، كتاباً .. ينفض الغبار عنها .. يتصفحها ، في تمعن . يتسلّى بمطالعة بضع صفحات من كل ما يجده منها ، مما طُبع أو نسخ بالانكليزية ، أو الفرنسية ، أو الإيطالية أو الإسبانية .. وكان منها ما بدا له ثميناً .. يرجع تاريخ طباعته الى زمن بعيد .. ومنها ما نسخ باليد ، بحروفٍ قوطيّة ، تتضمن زينة ، ونمنمات جميلة ..

ما كاد يصل الى قعر الصندوق حتى فوجىء بعلبة خشبية صغيرة تربض على أرضه .. كشف غطاءها ، وإذا هو أمام غلافات جلدية .. فتحها ، فبهت إذ طالعته مخطوطات عربية قديمة .. راح يتفحصها بلهفة من وجد أثرا فنيّاً غطاه التراب منذ غابر الأزمان !

راودته فكرة الاتصال بصاحب المسكن ، على الفور ، ليسمح له بترتيب تلك الكتب خارج صندوقها المتآكل .. فتنبه الى أن الليل قد ولّى .. وأن الوقت شارف أولى ساعات الصباح ! فأزمع إرجاء ما اعتزم ، الى اليوم التالي، وهم أن يعيد المخطوطات العربية الى مكانها ، داخل مخبئها الصغير .. وإذا ببضع صفحات مبعثرة ، داخل الصندوق ، أثار انتباهه منها ، ما بان من كتابات عليها .. رفعها ، وإذا هي عنوانات لمخطوطات ، محفوظة ، في غير هذا المكان !.. أدرك أنه أمام فهرس ، أو بضع صفحات بالية من ذلك الفهرس ، فنقل ناظريه بين محتوياته ، حتى توقفا فوق اسم « عبد الرحمن بن خلدون » .. واذا هو يقرأ بين العناوين المتفرقة ..

« خلاصة النظر في فلسفة العبر »

ماذا ؟! مؤلف .. على مثل هذا العنوان الفلسفي لابن خلدون ؟! هل يعقل ذلك ؟! كان يعلم بوجود مخطوطات لابن خلدون .. مؤلفات ، لها جميع ما قرأه من عناوين .. عدا « خلاصة النظر ، في فلسفة العبر » !! كيف لم

يسمع به ؟.. أو يقرأ عنه ؟! وهو المعجب بابن خلدون ، القارىء لجميع ما كتبه هذا المفكر الفذ ! ثمّ ما حقيقة هذا الفهرس ؟! أو هـذه الصفحات المتبقيـة منه ؟!.. وأين بقيته ؟! حينئذٍ ، عدل عن رأيه الأول ، وأعاد جميع ما أخرجـه من مخطوطات ، وكتـبٍ ، الى مكانهـا .. محتفظا بتلك الصفحات الصفراء اللون .. مزمعاً اتبّاع أسلوبٍ آخر في الوصول الى حقيقتها ؟!

* * *

لم يبدِ فراس أي ميلٍ الى الاتصال بجيرانه مـن السكان ، وتجنـب الاحتكاك بهم ، متجاهلاً حتى تبادل تحيات اللياقـة العابـرة إذا ما صادف أحدهم في طريقه .. كان قد انغمس كليـاً في تأثيـث مسكنه .. هاربـاً من المفاجآت المتتالية التي هبطت على حياته .. كأنما هو في هدنة مؤقتة ، يستجمع فيها قـواه ، قبل أن يعود الى ما بات يتوقعه من أحداث متشابكة ، ستجرّها عليه الأيام ..

كان « يان فراتيشيك » صاحب مسكن فراس .. أو « يانوش » كمـا كانت تلقبـه زوجته ، قد تعوّد التردد على « ضيفه » ، دون استئذان ، وفي ساعات غير محددة ، من النهار .. مما أزعج فراساً ، حتى لجأ في نهاية الأمـر الى عدم إخفاء تبرّمه من تلك الزيارات .. ولعلّ ذلك الفنان البولوني المتقاعد أحس أن في وجود « الدوق ماكسيمليانو دون كارلوس دي ألبا » ، أحد كبار نبلاء اسبانيا ، فرصة ، عليه استغلالها .. رغم ما بدأ يحسّـه من امتعـاض « الدوق » لزياراته المتكررة ..

لم يكن « يـان » قد ابتاع قلعـة الأسـرة النبيلة المنقرضة ، تحقيقـاً لنزوة عابرة ، كما أراد لغيره الظـنّ ! كان يحتضن فكـرة مشروع رائـع ، مربح ، لطالما فكـّـر أنه خير ما يمكن أن يحلم به فنان ، لقضاء البقية من أيام تقاعده ، وشيخوخته .. وما كان ينقصه لتحقيق مشـروعه ذاك ، إلا المال !..
وها هو قد حصل على مصدر محتمل لهذه الثروة .. مصدر لم يكـن ليحلم بخير منه .. مال ، واسم أسرة إسبانية .. يكفي ، لقـبٌ واحدٌ من ألقابهـا الثمانية عشر ، لكي يضمن لمشروعه نجاحا منقطع النظير !

لم يشأ أن يدع ، للزمان والمصادفات ، فرصة توطيد صداقة ما ، بينه وبين « الدوق ماكسيمليانو » ، كي يفاتحه بما تغلي به نفسه من حماسته ! تخطّى نصح زوجته له ، حول عدم مفاتحة النبلاء بالمشاريع التجاريّة ، وتحذيرها ، له بالذات ، من عدم مفاتحة « الدوق ماكسيمليانو » بأي شيء من هذا القبيل ! قصَده صبيحة أحد الأيام ، مدعيا أنه إنما كان في طريقه لزيارة المندوب الفرنسي الرسمي لجميع القصور ومساكن الفنانين ، التي يحتويها ذلك الجزء من « الفيللا بورغيزي » ، وقال على الفور ..

ـ إنما كنت في طريقي الى المندوب الفرنسي الرسمي .. انه جارك ، بالمناسبة .. قصدته .. لأن في نيّة السلطات استغلال قلعتي في مشروع فني هائل !

تعجّب فراس .. لم يكترث لما سمع ، لكنه سأل تأدبا ..

ـ وأي مشروع هذا ؟

فبادر « يان » القول ، على الفور ..

ـ أن نجعل من هذه القلعة معهدا للفن .. للرسم ، والنحت .. "أدرّس فيه .. مع مساعد ، أو مساعدين ، إذا لزم الأمر .. معهد" .. يستقطب اسمه جميع هؤلاء الأجانب المليئة جيوبهم بالمال .. الذين يأتون الى إيطاليا من أقاصي الأرض ، ظناً منهم أن من أرضها ، أو من هوائها ، ما سيجعل منهم فنانين عظاماً !

ردّ فراس ، في برودة مهذبة ..

ـ إنها لفكرة حسنة .. وهل ستتبنّى الحكومة الفرنسية هذا المشروع ؟

ـ .. يا عزيزي الـ « دو .. » .. يا عزيزي السيد « ماكسيمليانو » !.. ان الحكومة الفرنسية لا ينقصها المال .. بل الاسم اللامع ، البراق .. فقط !

تردد في متابعة حديثه .. ثمّ توقف كأنما أدرك أنه تسرّع في ذكر الأسماء اللامعة ، وهو ، مفروض عليه ، ادّعاء جهله بلقب أسرة محدّثه !

تململ في تحسّر .. ثمّ قال ..

ــ آه لو إني أعرف أحد الألقاب النبيلة .. نبيل حـق ، يفهم الفن .. ويقدر رسالة الفنان ، حق قدرها !.. لو أنني أعـرف مثل هـذا الانسان ، لاستطعنا أن نلقّب المعهـد باسمه !.. بل لاستطاع هو أن يلقـي الدروس فيه ، والمحاضرات ، إذا شاء .. ولجعلنا تلك القلعة درّة برّاقة !!

لمعت عيناه .. وقال على عجلٍ .. يحرّك يديـه ، وأصابعه .. يرسـم بهما ما يزيد في شـرح ما ارتسم في خياله ..

ــ نسلّط الانارة الأثرية عليها ، من جميـع الجوانب .. نأخـذ لهـا صوراً فوتوغرافية ، في الليـل !.. نسلّم أمـر الترويج لهـا الى احـدى الشركات الأميركية التي تدخل دعايتها الى كل بيت أمريكي !

قاطعه فراس ، مازحاً ..

ــ .. أراك تصف فندقاً سياحياً .. لا معهداً للفـن !

تبسّم « يان فراتيشيك » في سخرية .. ووافق ..

ــ وهل هؤلاء الذين يقصدون روما لدراسة الفـن ، من الفنانين ؟!.. يا عزيزي « ماكسيميليانو » .. إنك تعيش في برجك العاجي .. أنا فنـان .. وأعرف ما في نفوس الفنانين ! إن ألوف الطلبة .. عشرات الألوف منهم ، ممن يأتون رومـا منذ عشرات السنين .. لخير لهم أن يخدموا في المطاعم .. أو في أحسن الحالات .. أن يعملوا مدرسين للفـن ، في معاهد الحضانة والأطفال ! وتخرّج المعاهد عندنا منهم المئات ، بعـد المئات ! ماذا أقول .. إن معاهدنا تتقيؤهم .. لتعيدهم الى أوطانهم ، يحملون أوراقاً عليها كتابات ، وأختـام !! فيصبحون مدرسين للفن في بلادهم !! يا للسخرية !!

ــ إنك لترسم صورة زاهرة لطلبة الفن ، الذين تودّ استقطابهم !

ضحك « يان فراتيشيك » وأجاب ..

ــ .. ان أكبر شرف لهم ، سيكون في أني سأمنحهم فرصة الحيـاة في وسطٍ فنّي !! إن ما سيدفعونه من أقساط ، لن يكون مقابل ما سأعلّمهم من فـنّ النحت ، أو الرسم !.. فما من قـوة على الأرض تستطيـع أن تفرض على يـد التلميذ أن تتحرك وفـق ما تراه عـين الأستاذ ! إن يـد التلميـذ

تتحرك وفـق ما تراه عينـه ، هو ! والنظـر .. ليس فقط ما تنقله العـين ، بل ما يجمعه الإدراك !! وهذا أمر لا علاقة له بالمعاهد ، والعلوم .. فمـا من علم ، أو دواء ، يستطيع أن يزيـد من تجاوب السمع ، مـع ، الموسيقى .. والعين ، مع تناغم الحركة ، أو الألوان !!

كانا ، في حديثهما ، يتمشّيان بين أشجار الغاب ، أمام مدخل المسكن .. واذا رجل" مسن" .. مقبل في اتجاههما .. ما إن صار على مسمع منهما ، حتى قال ، يخاطب « يان فراتيشيك » ..

ـ أسعدت صباحا ، يا دوقنا العزيز !

أدرك فراس أن الرجل ينوّه باللقب الذي ابتاغه « يـان » مع قلعته .. همس « يـان » في أذن فراس ..

ـ .. هذا هو مندوب الحكومة الفرنسية !.. أرجوك ألاّ تلمّح أمامه الى قضية الايجار بيننا .. إنك ضيفي ، وحسب !

ثم توجه الى المندوب ، قـائلا ، بصوت جهوري ، مازح ..

ـ أية دوقية ، هـذه ، التي تتحدث عنهـا ؟!.. يا صاحب السعادة .. إن الدوق الحقيقي بيننا .. فهل تُذكر الشياطين ، في حضرة الملائكة ؟

قطب فراس في وجه « يـان » فارتبك هـذا .. وقال ..

ـ يا صديقي « دون ماكسيمليانو » .. أقـدّم لك صاحب السـعادة السيد « فالمـار » مندوب الحكومة الفرنسية ، المسؤول عن هذه البقعة من الجنة في رومـا ..

ثـم التفت الى المندوب قـائلا ..

ـ يا صاحب السعادة .. اسمح لي ألا أقـدم لك صديقي إلا باسـمه الأول .. « ماكسيمليانو » .. إن مشكلات عائلية له ، في مدريد ، دفعته الى اللجوء الى هـذا المكان المنعزل عن العـالم .. وهو يفضل ألا يُعرف فيه ، إلاّ باسمه الأول ..

تمتم الرجل الوقور .. في أدب جـم ، قـائلا ..

ـ طبعا .. طبعا .. بل إننا نرحب بذلك .. إنها عـادة « كاثوليكية » قـديمة .. سنعتبر ضيفك ، ضيفاً لنـا ! نبيـل .. قاصد عـزلة ، في أحـد الأديرة ! فهل يُسأل النبيل في مثل هذه الحـالة ، عن اسمه ؟.. أو عن سبب عزوفه عن حيـاة الدنيـا ؟!

★ ★ ★

الفصل السّابع

ما كاد المندوب الفرنسي يمضي في سبيله ، حتى قطّب فراس في وجه « يان فراتيشيك » .. في عتبٍ ، وحنقٍ مكتوم ، لما بدر منه في البدء ، من ذكر الألقاب أمام ذلك الرجل الغريب ..

كان لانشغاله بتأسيس سكنه ، أثر مسكّن على نفسه ، أنساه بعض الشيء ، وقع المضاعفات التي توالدت في حياته ، إثر لقائه بكل من عثمان .. و « ليزا » و « الكونتيس دل بيلار » !.. ولعله كان يهيىء ، في ذهنه الباطن ، سبلاً للخروج مما بات يترقبه من صعوبات .. يشعر بالاطمئنان الشديد لعزلة مسكنه ، ووحدة وهدوء أجواء الغابة الساكنة .. يشاغل النفس بمهمات الشراء ، والنقل ، والتأثيث .. ويرتّب ، في قرارته ، ويحضّر ، لأساليب جانبية ، تهيىء له الانخراط ، بانسجامٍ ، في ما قد يطلبه عثمان منه ، في أية لحظة !

نظر طويلا الى « يان فراتيشيك » العجوز الطيب ، الثرثار .. فأدرك أن مثل هذا الحديث ، لو تكرر ، فإنه سيفتح جبهة جديدة في عقر داره .. جبهة لا حاجة له بها .. ولا طائل له من ورائه !

قرر التخلّص منه ، في أسرع وقت .. فاتجه نحو مسكنه ، يهمّ أن يودّعه .. فتلعثم « يان فراتيشيك » وكان قد أدرك هفوته ..

ـ « دون ماكسيميليانو » .. تمهّل .. أرجوك .. كنتَ تسألني عن

الصندوق .. هل تريد أن تزيحه من مكانه ؟!.. يمكنك أن تفعل به ما تريد !..
أي شـيء !

هزّ فراس رأسه في امتعاض مكتوم .. يود التخلص من الكهل اللجوج بأي ثمن .. ولا يدري كيف يفعل ذلك ، دون جرح شعوره .. لكن « يـان » تابع ، في تسارع ..

ــ هل أبعث لك من يزيحه ؟!.. لا أظن إن « مارتشيللو » ابن الطاهية.. يستطيع القيام بذلك ، بمفرده .. لا .. ولا أريـد لإنسان غريب أن يعبث بما فيه .. « دون ماكسيميليانو » .. هل تدري ماذا يوجد داخله ؟! انهـا كتب ومخطوطات !.. ليس فيه أدوات نحت ، أو ما شابه !.. إن الجميـع يظنون أني أحتفظ داخله بأدوات نحتي القديمة .. لكنهم يخطئون ..

وهمس في سـريّة ، كأنه يدلي لفراس بأمر جلل ..

ــ إني أحتفظ بأدواتي ، ونسخ تماثيلي ، جميعهـا ، في غرفـة جانبية خفيـّة .. لهـا باب يفتح في جـدار الحمام !

ضحك مما قـال .. وتـابع ..

ــ « خفيـّة » .. لا !.. قل غرفة عتيقة ، أثرية !!.. لا يكترث لفتحهـا أحـد !.. إنه ذلك الجدار الحديدي المتآكل !.. الذي يقبع وراء المرجـل .. ذاك بـاب ، وليس جداراً !

ثم عـاد الى سابق لهجته ، في محاولة إثارة اهتمام فراس ، يلطّف من أثـر هفوتـه ..

ــ « دون ماكسيميليانو » .. هل تهتم بالكتب القديمة ؟!.. بعضها .. في ذلك الصندوق .. أما القسم الأكبر منهـا ، فإنني أحتفظ به ، في مكتبـة داري ..

تحسّر فجـأة .. وتـابع ..

ــ لكن ، ما الفائدة ؟!.. تكاد عيناي تصبحان أداتي زينة في وجهي . ليس أكثر !.. لا تعينانني إلا في السـير عـلى الطرقـات الآمنة !.. « دون ماكسيمليانو » .. اعذر ثرثرتي ، وطوافي المتواصل حـول مسكنك !.. إن

هذا الغـاب هو المكان الوحيد الذي أستطيع المسير فيه ، في أمـان ، دون خـوف من أن تصدمني عربة !!.. وهـذا المسكن ، قبـلة حياتي الماضية ، إني وإن كنت قد هجرته ، منذ زمن بعيد .. فهو المكان الوحيد الذي تبقّى لي من ذكريات الشباب الدافئة !

تأثر فراس لكآبة الفنان العجوز ، الصادقة .. أدرك فجأة مـدى الأسى الذي يمكن إصابة فنـان .. إذا ما بُليت عيناه بالكلل !.. نظر اليه متبسّما ، في حنوّ عاتب .. لكنه أدرك في الحال ، أن رفيقه هذا لا يرى ما تبديه الوجوه من تعبيرٍ مختزلٍ ، صادق !.. ولعـل الرجـل نسي أن وجهه ، قـادر على الكلام ، لذلك بات يلجـأ الى لسانه ، لا يشعر بثقـل وطأته على الآخرين .. ولا يحس أن في الصمت ، راحـة .. بل فجـوة سوداء ، يجب عليه الإسراع في مـلء فراغهـا ..

ــ .. « دون ماكسيمليانو » .. هل أفتح لك صندوقي ؟.. هل أفتحه ، الآن ؟!.. إنني لم أفتحه منذ أيام الصبا الأولى !

تعجب فـراس ..

ــ وهل تحمل مفتاحه معك ؟.. لا شك أن مفتاحه كبير الحجم قديم !

سُر « يـان » لسؤال فراس .. وأجـاب ..

ــ إن مفتاحه دوماً .. في « الاستديو » ولا يمكن لأحد أن يراه !

ولما لم يحر فراس جواباً .. ولعله كان يتردّد في إظهـار حقيقة اهتمامه بما سمع .. تابع « يـان » .. قـائلا ..

ــ تعـال ، أريـك !..

وتقدم « يـان » وفراس ، الى داخل المسكن .. ثم قـال ..

ــ « دون ماكسيمليانو » .. في غرفة الحمام قضيب طويل .. معقوف الرأس .. معلق في زاوية الجدار المحاذي للباب الحديدي .. فهل .. هل ..

ــ سأحضره حـالا ..

ودخل فراس الى غرفة الحمام .. حيث لاحظ الباب القديم الذي كان قد غفل عن وجوده .. ثم عاد بالقضيب .. ووقف ينتظر ما سيقوله « يان » ..

تبسّم هـذا ، وقـال ..

ـ هل ترى الصحن الذي بين يدي الفتاة ، في تمثالي ؟.. هذا الصحن الذي ترفعه نحو السماء والنور ؟.. إن في هذا الصحن لمفتاحين .. أحـدهما خاص بالصندوق والكتب .. والآخر .. يفتح غرفة أدواتي .. تلك .. وفيهـا نسخ عن تماثيلي .. ونسخة نادرة .. نسخة نادرة يا « دون ماكسيمليانو » !! لتمثالٍ ، لا يمكنني التحدث عنه ، دون أن ينتابني الخشوع والوجـل !.. إن فيها .. نسخة من الجصّ لتمثال « البييتا » « لمايكل أنجلو » !! نعم .. « البييتا » بالذات .. العـذراء التي تحتضن جسد المسيح !!.. ولا أظـن ، إلا أن « غورينغ » نفسه ، قد أمـر بصنعها ، أثناء الحرب .. على يـد خبراء ألمان ، كي لا يصاب الأصل النادر بأذى !!.. لعله كان يودّ الاحتفاظ بهـا في مجموعته .. ثـم آلت الى الكاردينال « فيليتشي بانيفيلي » .. فعهـد إليّ بالحفاظ عليها .. أثنـاء الحرب ، بغية إخفائها .. بين غيرهـا من النسخ ، في هـذا المكان الأمين !.. ثم تركها لي ، مكافأة ، على خدمات أسديتها لـه .. وبقيت النسخة في حوزتي ، هنـا .. لا أستطيع إظهارها أمام أحـد .. وإلا استرجعها « الفاتيكان » ، ودفنهـا بين نسخ عشرات ألوف التحف التي في حوزته .. والتي ليس لدى الناس عنها من خبر أو علـم !!

لعـل « يـان فراتيشيك » ما كان ليبوح بسرّه القـديم الدفين ، إلا ليقينه بأنه أمـام « الدوق ماكسيمليانو دون كارلوس هيريديا دي ألبـا » ، إنسان ، إن لم يكن في مقـامٍ أعلى من مقام الكاردينال نفسه ، فلا شـك ، أنه في مكانته !!.. فالكاردينال « فيليتشي بانيفيلي » ، صديقه الجليل المقام ، الواسع العـلم والنفوذ .. لم يكـن محاطاً ، في رأيه ، بهـالة كنسيّة ، أو دينية !.. لقد كان أحد « أمـراء الكنيسة » فحسب .. وأمراء الكنيسة ، في ذهنه الدنيوي الواقعي ، ما كانوا سوى أناس يسعون الى السلطة ، والألقاب الارستقراطية !.. فلما لم يحصلوا عليها ، عن طريق الوراثة ، أو المال ، لجأوا الى مؤسسة الكهنوت ، التي لم تكن في نظره سوى مؤسسة وظيفيّة ، مثـل

غيرها من المؤسّسات .. كمؤسسة الجيش ، أو قوى الأمن ، أو الجمارك !

كان « دون ماكسيمليانو » ، بالنسبة الى هذا الفنان العجوز ، معجـزة نادرة ، وضعتها الأقدار في طريقه ، قبل أن يموت !.. نبيل" ثريّ ، شـاب ، أحـد كبار نبلاء اسبانيا الذين يجلّهم الفاتيكان ذاته ، لمـا قدّموه لـه في الماضي ، وعبر الأجيال من خدمات .. يتمتـع واحدهم بجميع ميّزات أمـراء الكنيسة ، دونما حاجة منه لارتداء أزيائها السود ، والحمر الكارنفالية .. أو الى تأدية طقوسٍ ومراسم ، قد لا يؤمن بهـا !

لقد حذّرته زوجته من مفاتحة « الدون ماكسيمليانو » عن أحلامه الفنية التجارية .. وشرحت له أن الارستقراطية الحقّة ، رغـم حاجتها الى المـال ، تكره رائحته ! وان الأثرياء ، من النبـلاء ، لا يكرهون الحديث عـن المـال فقط .. بل يحتقرون توظيفه .. ويرون أن الثراء لهـو من حقوقهم الطبيعية ، كحقّ الأرض من مطر السماء ، قد يعجّل قدومه ، أو يتأخـر .. قد يفيض ، أو يشحّ إلاّ أنه لا بد آتٍ !

لكن « يان فراتيشيك » كان على عجلة من أمـره .. يحسّ أن ما تبقى من حياته غدا لا يستحق التحفّظ أو الحذر ! ماذا .. إذا لم تتحقق أحلامه على يدي هذا النبيـل العابر ؟! إن لفي صحبته .. والحديث معه ، مكافأة في حدّ ذاتها ! وان في البـوح له بما امتلأت به حياتـه من مغامراتٍ ، إحياء لهـا ، وتجسيداً لذكريات كادت أن تبلى ، وتموت دون أن تقع على مسامع من يعرف كيف يعيرها قدرها الحق ! فما قيمـة اللحن الرائع ، إذا لم تسمعه وتتذوقـه أذن مرهفة صاغية ؟!

كان « يـان فراتيشيك » تتنـزى في نفسـه الحاجـة الى مسـاورة « دون ماكسيمليانو » .. ولا يدري كيف يبدأ ، أو يقوم بذلك ..

تبسّم طويلا لدى سماع سؤاله ..

— وهل تحب الكتب القديمة والمخطوطات ؟

فأخذ مفتاح الصندوق ، الذي كان فراس قد أسقطه من صحن التمثال ، على الأرض ، أداره في قفله .. وراح يحدّث رفيقه .. وهو يرفع الغطاء ، ويخرج ما فيه من كتبٍ ، ومخطوطات ، كان فراس قد شاهدها ، في الليلة السابقة ..

أطلق « يان فراتيشيك » العنان لما يحسّه منذ زمن طويل من حاجته للإفضاء بما تجمّع في ذاكرته من حوادث طريفة ، أو خطيرة .. تراكمت ؛ وعلاها الغبار ، كما تجمّعت نسخ التماثيل التي أوصد من دونها باباً من حديد .. تآكل قفله ، حتى بات من العسير عليها أن ترى النور ..

قصّ على رفيقه ذكريات من « بولونيا » .. ما قبل الحربين .. صورٌ ، بعضها واضح المعالم ، وبعضها الآخر ، منسوج من آماني « يان فراتيشيك » الشاب ، الذي هجر بلاده المنسيّة .. قاصداً روما ، عاصمة النحت في العالم.. محور الأحداث السياسية التي بدا زعيمها الناهض « موسوليني » ، كأنه على وشك إحياء ما درس من أحلامها !.. حلم إمبراطورية رومانية جديدة .. لا ينقصها إلاّ الثروة التي هي الطريق الوحيد لبناء آلة حربيّة جبارة ، فقصد منابعها التاريخية الأولى .. منابع الذهب في شمال أفريقيا ، والحديثة .. وجهّز لذلك أمّته التي باعت حليّها ، والعزيز مما تملك ، لتشتري بها للجيش ، عدّته الأولى ، التي بها سيفتح الشرق ، ومن ثم ، يعود بالثروة الى بلاده ، فيجهّز الآلة الحربية العصرية التي بها سيُخضع مناوئيه من حكام أوربا !

كان « يان فراتيشيك » ، النحات الموهوب الناشىء ، لا يلزمه سوى جسر يصله الى طبقة الحكام ، التي ستكون له سدّة ، يقف عليها ، ويشرف على ما في العالم من ملذّات الشهرة والمجد ! .. وجاءه الجسر في صورة فتاة ارستقراطية ، تزوجها .. تجمع ، بين أقاربها ، أميرا من أمراء الكنيسة .. « كردينالا » ذائع الصيت .. يتنبأ له الكثيرون ، إن آجلاً أو عاجلاً ، بالكرسي البابويّ .. نفسه !

تنهّـد « يـان » وقد لمعـت عيناه الكليلتان ، وراء عدسات نظارتيه ، البالغتي الثخانة .. وقال ..

ـ إنّ المشكلة الكبرى ، التي واجهتني في فنّي .. هـي أن الاتجـاه السائد كان يتسارع في مسـار الحداثة ، بينما النحت ، كما تفهمـه السلطات الدينيـة ، كان عليـه أن يتوقّف عنـد « برنيني » ! لقـد نحـتُّ تمثـالا « للكاردينال » .. قريب زوجتي ، رائع الدقـة .. حتى لتخـاله من أعمـال « برنيني » نفسه !.. ولئن كنتَ تتبسّم لمقارنتي هـذه تظنّهـا ادّعاءاً .. فـلا تفعل ! فباستطاعتي أطلاعك على نسخة منه .. هي الآن في داخـل تلك الغرفة ! وسترى بنفسك درجـة الاتقان التي بلغها فني ، في الثلاثينات !! لكن أحداً لم يكن ليهتم لتمثال ، كلاسيكي ، لكردينال كهـل ! ولعلّ « فينوس » هذه ، التي أمامك ، والتي قمـت بنحتها قبيـل الحرب ، كانت قـادرة على استقطاب الانتباه .. لو أني قمـت بنحتها قبـل ذلك التاريخ ، بخمسة عشر عاماً ! لكني .. كما قلت لك .. كنت أصل دوماً الى المحطة المقصودة .. عـلى صوت صفير القطـار الراحل عنها !.. خلاصة القول .. توطّدت بيني ، وبين « الكاردينال » ، صداقة أكيدة .. وكانت عيناي قـد بدأتا تضعفان ، فعرض عليّ طريقاً طريفاً لكسب العيش .. ما كنت لأشك في البدء إلاّ أنه جـزء من حمـلة « موسوليني » لبناء الإمبراطورية القديمة .. من الناحيـة الثقافية !

تعجّب فراس ، وأبدى اهتمامه لما سمع ..

تابع النحّات حديثه ، وهو يمسح نظارتيه .. كأن ضعف نظره يرجع الى علّة فيهما ..

ـ لقد طلب مني السفر الى « القسطنطينية » .. أعني ، استنبول .. في مهمّة ، مفادها ، شراء جميع ما أستطيع من كتبٍ ، ومخطوطاتٍ قديمة !

تساءل فراس ، متعجبا ..

ـ وهل كانـت مثل هـذه المخطوطات ، مطروحة للبيـع هناك ؟.. في سوق ما ؟

تبسّم « يان فراتيشيك » ، في خبث ، وأجاب ..

ــ .. هنا بيت القصيد ، يا صديقي ! فالمهمة كانت ، في ظاهرها ، « ابتياع » تلك الكتب ! أمّا الصلاحيات التي أوكلت لي .. فلقد كانت « الحصول » عليها .. بأي ثمن ! شرعيّاً ، كان هذا الثمن ، أو غير شرعي !!

صمت برهة ، كأنمّا يرى في ذهنه صوراً من الماضي .. ثم قال ..

ــ ولقد كانت لي قصص" .. وأحداث" خطيرة ! لا أستطيع البدء في إطلاعك عليها !! ماذا أقول ؟! كانت معظم هذه المخطوطات في مكتبات الجوامع الإسلامية .. في مكتبات بيوت تركية عريقة .. وأحيانا ، في أديرة قصيّة ، بعيدة عن العمران !.. وكان عليّ الاحتيال على أصحابها .. أو بثّ من يحتال عليهم !.. ولقد كنا نلجأ في بعض الأحيان .. إذا ما رفض صاحب المخطوط بيعه .. نلجأ ، الى دفع ِ أحدهم ، الى .. الى .. الى « انتشاله » من ملكيّته ..

رفع فراس حاجبيه .. سائلاً في دهشة ، واستنكار ..

ــ انتشاله ؟!

هزّ « يان فراتيشيك » .. وأجاب ..

ــ أو تريدني أن أقول « سَرقته » .. صراحة ؟! حسن" .. ها أنذا أقولها الآن !

عقب فراس ، على الدور ..

ــ .. أنت ، الذي تتكلّم ، يا عزيزي !! أنا .. لا أريدك أن تقول شيئا !

تورّدت وجنتا « يان » قليلا ، لتقريع « الدون ماكسيميليانو » .. فبدا طفولياً في شيخوخته .. وتذكّر أنه لا يستطيع أن يكلّم الجميع على قدم واحدة من المساواة .. في اللهجة ، أو المزاح ..

كان فراس يتحرّق لاستزادته من الكلام .. لكنه كتم لهفته .. وقال ..

ــ وهل لديك مكتبة .. فيها مثل هذه المخطوطات ؟

ــ فُتات مائدة .. يا عزيزي .. فُتات مائدة .. عدد لا يذكر !

ــ .. لماذا .. ألم تحصل في سفراتك على صيدٍ وفيرٍ ؟!

ضحك « يان » متعجباً ..

ــ صيد» .. وفير» ؟! أنا لم أكن أعـود من صيدي ، كما تسميه ، إلاّ وشباكي تطفح به ، وتفيض !! لكن جميع ما أجمعـه .. كـان يذهـب الى الكاردينال .. ومن ثمّ ، الى المكتبة ..

ــ أيـة مكتبة هذه ؟!

ــ مكتبة الفاتيكان ، بالطبع ! وما غيرها ؟ كان الكاردينال ، فيما مضى ، قيّمـا على تلك المكتبة .. آهٍ لـو تراها .. لو تتجـوّل في دهاليزهـا .. يا « دون ماكسيميليانو »!.. هل تصدق ؟إنّ فيها ملايين الكتب والمخطوطات !! إن مكتبتكم .. مكتبـة « الاسكوريال » الشهـيرة .. لا تشكّل نقطـة في بحرها !! إن باب المخطوطات الشرقيـة ، وحده ، يضـم مئات ألـوف من المجلّدات !!

ــ المخطوطات الشرقية ؟! وهل هذا الباب يجمع كثيراً من اللغات ؟

ــ .. جميع اللغات الشرقية .. لكن ، معظمها ، باللغة العربية ..

تمهّل هنيهة ، ثمّ تابع ..

ــ .. إنّ أمر هؤلاء العرب ، لغريب حقاً !.. كأنهم اليـوم ، لا علاقـة لهـم البتـّة بماكانوا عليه ، في الماضي ! ترى .. ما السبب .. في ظنّك ؟

لم يحـر فراس جوابا .. ولم يكن محدّثه ينتظر الجـواب .. فأجْداد « دون ماكسيميليانو » .. أو جدّه الأول .. « فيرناندو الفاريز دي توليدو » أول دوق من سلالة « ألبـا » ، طـرد آخر المسلمين من إسبانيـا ! مَحَقَ آخر معالم حضارتهم .. وساعد في امتداد حكم ملوك إسبانيا في أوربا ، حتى وصل المانيا .. وهولندا !

كان « يان فراتيتشيك » قد شـرد بعيدا .. يحاول الربط بين أفكـار متقطعةٍ في نحياله .. قال بعد لأي ..

ــ لا شك أنهم جُرّدوا من تاريخهم .. فأنا لم أكن إلاّ واحداً من هؤلاء الوسطاء .. ولقد كان للكاردينال ، على مـدى أربعين عاما ، مئات الوسطاء ، منهم من سُيّروا الى دمشق .. وآخـرون ، الى القاهـرة .. وغيرهم ، الى القيروان ! ماذا أعدّد لك ؟! لقد كان له المئات منهم .. يذهبون بالمال ، وكتب

التوصية ، الى السفارات .. ويعودون ، من الصين ، والهند ، والباكستان اليوم ، وجميع أنحاء الشرق .. بالصناديق ، تلو الصناديق ، وقد طفحت بهذه المخطوطات القيّمة !! معظمها باللغة العربية ! لغة الحكم طوال عشرة قرون !!

تصاعد ما كان يكتمه فراس في نفسه من غيظ !! نهض ، مقترباً من محدّثه ، وراح يقلّب معه الكتب القديمة .. متظاهراً بعدم الاكتراث لها .. الى أن وصل الى الصندوق الصغير .. فأخذ يقلّب صفحات بعض مخطوطاته العربية ، كأنه لا يفهم ما فيها .. ثمّ قال ..

ـ ما هذه .. أكتب عربية ؟!

ردّ « يان » على الفور ..

ـ بالضبط .. وإن لديّ في داري عدداً قيّماً منها .. لشعراء ، لا يعرفهم العرب !.. فهل يهمّك هذا الأمر ؟.. لئن كان الأمر يهمّك .. فإن مكتبتي رهن إشارتك ؟!

ـ وهل كنتم تجمعون كتب الشعر ؟!

ـ كنّا نجمع كل شيء .. وكنّا في سباقٍ مع جميع مكتباتِ أوربا ! « دون ماكسيمليانو » .. لا أظنّ أن لديك فكرة واضحة تماماً عمّا كان يدور في هذا الصدد !.. لئن كان « الفاتيكان » ، والعديد من أديرة أوربا ، قد فطنت في الماضي الى أن أسرار العلوم ، والفلسفة ، ومفاتيحهما ، موجودة لدى العرب .. وإن على الكنيسة الحصول على هذا السرّ ، لتخنقه ، في مكتباتها ، قبل أن يتسرّب ، عبر الترجمة والنسخ ، ثم ، عبر الطباعة ، الى يد الشعب .. خشية أن يفلت زمام قيادته الروحية ، من أيديهم ! أقول لك .. لئن كان الفاتيكان قد فطن الى هذا الأمر ، منذ عشرة قرون .. أي قبل أن تفتحوا غرناطة ، بخمسة قرون ! فلقد بدأت مكتبات العالم أجمع هذا السباق .. بدفعٍ من حكوماتها .. منذ قرنين ، على أقلّ تقدير ! إن حملة نابليون ، وحدها ، الى مصر ، لم تترك في ذلك البلد المسكين إلا قصص ألف ليلة وليلة ، وكتب الشعر ، والتاريخ الهزيل !!

تعجّب فراس لسعة اطلاع محدّثه .. وقال ..

ـ وعمّ كنتم تبحثون إذن ؟! ما دام هذا السباق قد بدأ منذ قرون ؟!
ـ إن شباك الصياد تجمع كل ما يتحرّك .. ومن ثمّ يأتي التصنيف : وهنا بيت القصيد !
ـ وهل كان للكاردينال ، قصدٌ معيّن ؟! بعد مضيّ هذا الزمان الطويل على بدء سباق الصيد !
ـ بالطبع !! لقد كان دائم البحث عن المخطوطات الفلسفية ! وسبب ذلك ، ما وصله من هولندا من فهرسٍ قديم ، طار لبّه له ! لن أنسى ما حييت ، لهفته ، واضطرابه ، وهو يحدّثني عما يريد !! ولا شك أنّ الأمر كان بالغ الأهمية .. لكن الكاردينال كان يخفي طبيعة عاطفية ، خلف قناع الوقار الديني ، وذكاءً مفرطاً ، تحت قبعة الكاردينالية ، الحمراء !!
ـ أي فهرس ، تتكلم عنه ؟! ماذا يعني وصول « فهرس » ، بالنسبة إليه ؟!
أدار « يان فراتيشيك » ناظريه نحو فراس ، يحدّق في وجهه ، رغم ضعف نظره الشديد .. يحاول استطلاع ما يمكن أن يرتسم على وجهه الإسباني النبيل ، من انطباع ! كان على وشك أن يقرن اسم محدثه بأسماء أحد أجداده ! لكنه تذكّر حنقه ، حين ذكر قضية الألقاب ، أمام المندوب الفرنسي .. فآثر متابعة تجاهله للقبة .. قال ، وهو يبتسم ..
ـ إنه فهرس من مكتبةٍ يقال انها كانت لـ « الدوق فيرناندو الفاريز دي توليدو » .. أعظم قوّاد إسبانيا العسكريين .. ومؤسس دوقية سلالة « ألبا » العظيمة!!إنك تفهم ما أقول!!يُقال .. وأنا ، إنما أقول .. «يُقال» .
إنه فهرس لكتبٍ عربية ، خرج بها .. « الدوق فيرناندو » من غرناطة .. ولعله جمّعها عنوة ، من حيث توارت فيبيوت الأندلس العربية .. وسافر بها الى هولندا !! خطفها .. أو سباها .. الى هولندا !!
سأل فراس في تجاهلٍ تام لأهمية ما كان يسمع ..
ـ ولماذا لم يحرقها ، كغيرها من المخطوطات العربية ؟!
ـ « دون ماكسيميليانو » .. أرجوك !!.. إن «دون فرديناندو » لم

يكن إنساناً كغيره من الناس !.. لقد أحرق ما أحرق ، من مخطوطات ، مدفوعاً بهدفٍ مبيّت !! أراد من جهة ، إزالة تاريخ العرب ، والمسلمين ، من تراب الأندلس ، وغير الأندلس ! لكنه احتفظ بعدد غير قليل من المخطوطات التي تشمل خلاصة الفلسفة ، والفلك ، والعلوم ، والموسيقا .. للاستفادة منها . وسافر بها الى هولندا !!

ــ .. ولماذا هولندا بالذات ؟!

ــ « دون مكسيمليانو » .. إن جميع ما أرويه لك الآن قد أتاني مباشرة من الكاردينال « بانيفيلي » نفسه ، نقلا عن مصادر كنيسيّة ، ولا أعلى .. مصادر ، في كلٍّ من حاضرة روما ، ومدينة أمستردام !! وإنك .. إنك .. لو لم تكن « دون ماكسيمليانو » بالذات .. لما تفوّهت أمامك بحرف واحد مما تسمع !!

هزّ فراس رأسه ، وتمتم ..

ــ حسنٌ .. وماذا بعد ؟

ــ لقد كان هدف مَنْ خطّط لهذا الموضوع .. هو ترجمة هذه المخطوطات والتصرّف بها .. بما يتماشى مع أهداف الحقّ ، والكنيسة !!

امتقع وجه فراس !! حملق في محدّثه ، ثم أدار وجهه عنه ، محاولاً جهده إلاّ يُبدي من انفعاله ما يصل الى محدثه العجوز .. وسأله ..

ــ .. التصرف بها ؟! ماذا يعني هذا .. بالضبط ؟

ــ .. في كل بساطة .. نشر ، ما يراد نشره ، باللغة اللاتينية ، بعد حذف ما ينافي الدين منه ، وما يتطلب الواجب الديني حذفه .. ثم ، زيادة ما يُراد ، هنا .. أو حذفه ، هناك !! لكن لماذا تتعجّب ؟ إن المكتبة الفلسفية المسيحية كانت في أشدّ الحاجة الى مثل هذه المخطوطات .. ليس لخدمة الدين الإسلامي الذي كُتبت من وحيه ، بالطبع .. بل لخدمتنا ، نحن !! فما الغريب في ذلك ؟! ثم ، أليس الله ، واحداً ؟! أو هكذا يجب أن يكون .. لدى الجميع ؟! إن الهدف كان .. « استعارة » النصوص والمخطوطات ..

تقديمها للفكر الأوربي ، في لغــة أوربية ، وقالب أوربــيّ ، ليس غير !! ولو أنها نُشرت تحت أسماء مؤلفيها العرب ، لغــاب القصد من ورائها ، ولأصبحت قراءتها تَرفع من شأن الدين ، والعقل الإسلامي .. بينمــا المقصود ، كــان ، خدمة العقل الأوربي ، وعقيدته .. اللّذين ظلاّ عاطلين عن العمــل ، طــوال ألف عام !!

توقف « يان » عن الكلام برهة ، يستجمع أفكاره .. ثم تابع ..

ــ تسألني لماذا « هولنــدا » .. نعــم .. لكنــك تعلم ولا شــك أن « دون فيرناندو الفاريز » .. « كبير إسبانيا » .. حَكَم هولندا مدة لا بأس بها .. باسم التاج الاسباني بالطبع ..

كان العجوز يحاول أن يتأمل وجــه « دون ماكسيميليانو » .. ينظر إليه من تحت إطــار نظارتيه ، يحاول رصد الأثر الذي يتركه كلامــه على الحفيد الأصغر لـ « دون فيرناندو ألفاريز دي ألبا » الذي يتحدث عن أخباره !!

ثمّ ضحك من خاطر مرّ في ذهنه .. فأردف ، على الفور ..

ــ .. ولا تستغرب بعد هولندا ، عن الأندلس ! .. إذ .. ماذا تفعل الهرة، حين تمسك بفريستها ؟ .. ألا تراها تهرب بهــا ، بعيداً .. بعيداً ، الى مكــان آخــر ؟ .. بعيد عن الأنظار ؟ .. في مأمن من المراقبة ؟

حرّك فراس رأسه .. موافقاً .. متعجباً .. لا يدري ماذا يقول .. فتنهد « يان فراتتيشيك » .. وقال ، مبتسماً في مكرٍ مبطّن ..

ــ .. يا لغرابة الأقدار .. ها أنا ذا أخبر الدون « ماكسيمليانو » عــن ســرٍ كتمــه الدون « فيرناندو الفاريز دي توليدو » .. منذ خمسة قرون !

تبسّم فراس ، يجاري تعجب محدثه ، وسأل ..

ــ وهل يعرفه الكثيرون غيرنا .. يا « سنيور فراتتيشيك » ؟

سرّ « يان » أن يسمع اسمه على شفتي حفيد « دون فيرناندو » فقال ..

ــ لا أحد عدا الكاردينال « بانيفيلي » .. ونحــن !! .. والسبب ، في ذلك ، يعــود الى أن أخبار هذه الواقعة .. حين أتت من امستردام ، قبــل الحرب .. وصلت الى الكاردينال « بانيفلي »مباشرة .. وكان ، هو القيّــم

على المكتبة ، والمسؤول عن جميع الشؤون الثقافية في الفاتيكان ، آنذاك ..
أمّا عن المصدر .. أي « استرذام » .. فإن الكاردينال الذي كان فيها ، آنذاك ، كان قد توفّي .. وتعاقب على كرسيه كاردينالان ..

نهض فراس من حيث جلس على مقعد نخشبي كبير ، قبالة « يان فراتيشيك » .. تقدّم ثانية من صندوق الكتب والمخطوطات العربية .. وسأل، مستفسراً ..

ـ إنّ هذه قصة .. أو رواية طريفة .. بل مثيرة ، ولا شك ! لكن ، أين يوجد هذا الفهرس الذي تتحدث عنه ؟.. وماذا حلّ به ؟!

قطّب « يان » جبينيه ، وهو يتلمّس قعر الصندوق الصغير بأصابعه ، لا يتوقع العثور فيه على شيء .. وقال متعجّبا ..

ـ .. لك كامل الحق ألاّ تصدّق رواياتي !.. فأنا أتكلم عن جريمة ، شاهدتها ، وما من جثة هنالك ، تدعم ما أقول !!.. « دون ماكسيمليانو » . ما رأيك اذا قلت لك إني كنتُ أملك نسخة عن الفهرس .. نسخة مخطوطة . وانها سُرقت مني !!

عاد بنظره الى قعر الصندوق ، وتمتم لنفسه ..

ـ .. أظن أنه كان قد بقي منها بضعة وريقات .. لا أجدها الآن .. لا بد أنها تبعثرت .. أو بليت .. من يدري ..

ثم عاد بناظريه ، يرفعهما في اتجاه وجه فراس ، ويكرر ..

ـ .. إني لم أفهم هذه الحادثة قط .. لم أجدْ لها أي تفسير !.. لماذا اختفى الفهرس من صندوقي ؟!.. وبالمناسبة ، فلقد كان في هذا الصندوق ، العديد من المخطوطات العربية الثمينة .. زمن اختفاء الفهرس ..

ـ إنك تناقض نفسك .. يا سنيور « فراتيشيك » !

تعجّب هذا ، وسأل ..

ـ أنا .. كيف ؟..

ـ تقول انه ليس غيرنا ، « والكاردينال » على علم بقضية الفهرس ،

اليوم .. فكيف يكون ذلك صحيحاً إذا كان الفهرس قد سُرق منك ؟!.. إن الذي سرقه لا بد أن يكون على علم بهذه القضية !

تبسّم « يـان » في خبث .. وأجـاب ..

ــ إلا إذا كان الكاردينال ، نفسه ، هـو الذي حرّض أحـدهم على سرقته مني !!.. لمحقهِ من الوجـود !!

ــ وكيف يصـل الى ذلك .. أليس هنـالك سجلّ مفتوح بمحتويات المكتبة ؟!.. ألا تُدرج جميع محتوياتها في فهارس مكشوفة ؟!

قهقه « يان فراتيشيك » لما سمع ، وقال ..

ــ لكم أنت متفائل !.. شريف النوايا ، يا « دون ماكسيمليانو » !.. وهـل تظـن ان فهارس « الاسكوريال » تكشف للناس جميـع ما تحتويه مكتبتهـا ؟!.. إن من الصعب عليك أن تتحرّى الأمـر بنفسك ، هنـا ، في « الفاتيكان » .. فلا شك عندي أنك قادر عليه ، في إسبانيا !.. وان لك من العلاقات من يفتح لك الأبواب الى ما يُخفى عن الناس ، في المكتبات ، مـن آثـار !.. آثار لها فهارس لا يطّلع عليها إلا رؤساء الأديرة !

تنهّد طويلا ، وحرّك يديه كمن يتلمّس طريقه في الظلام ، وقال ..

ــ .. لقـد عملت الى جانب الكاردينال ، في تلك المكتبة ، ردحـاً من الزمن .. كان يستعين بي لتصنيف ، وتسجيل ، ما كنتُ أعود به من كتب .. تصوّر .. انه لم يكن يثق حتى بالعاملين بهـا ، من الكهنة !!.. ولعلّه لـم يكن يثق بي ، أصلاً .. إلا لمعرفته بأنني .. سواء شاء ، أم أبى ، فأنا لا يمكن أن أجهـل وجود المخطوطات التي حصلت عليها بنفسي !!.. آه .. لو كنت ترى أروقة تلك المكتبة ، وسراديبها الرطبة ، الحالكة الظلمة .. والمخيفة ، في بعض الأحيان !!.. ليتك تراها يوماً !!

تنبّه من شروده ، وتابع قـائلا ..

ــ .. كنت أحدّثك عن الفهارس .. فياعزيزي « دون ماكسيمليانو » ، إعلـم أن الفهارس بالنسبة لتلك المكتبة ، مثل دفـاتر الحسابات ، بالنسبة

للتاجر !.. فكما ان للتاجر منها عدداً ، لا يُظهر منه إلا ما ُيناسب المُدقّق .. كذلك ، لمكتبة الفاتيكان !!

ــ والفهرس الحقيقي ؟!.. هل هو في حوزة القيّم وحده ؟!

تبسّم « يان فراتيشيك » في سخرية ، وتعجب ..

ــ .. لا شك أن هنالك فهرساً يظن كل قيّم ، بدوره ، أنه الفهرس الحقيقي !!.. لكن الحقيقة هي أن ليس للمكتبة من فهرس حقيقيٍ جامع !.. فلقد تعاقبت على الفاتيكان عصور كادت أن تصل النوائب والكوارث ، أثناء بعضها ، الى عتبة بابه !!.. وفي كل مرة ، كانت السراديب تُفتح ، عن سراديب أخرى ، تحتها ، وخلفها .. ويجري إخفاء تحفه ، ومخطوطاته !.. وفي كل مرة ، كانت هذه الفهارس تختفي ، ثمّ تعود !.. لا أحد يعرف ما ينقص منها ، أو ما يضاف اليها !!

ــ ولماذا لا تُجرد محتوياته ؟.. ويصار الى برمجتها ، على حاسبات « الكترونية » ، في ظنّك ؟.. أم لعلهم قاموا بذلك الآن ..

ــ انها خير طريقة لقتل الهدف !.. إن كان الهدف من هذا الجرد ، هو حماية المخطوطات .. فإن خير طريق للقضاء عليها .. هو أن يُكشف عن أسمائها !!.. خصوصاً على لوائح الكترونية ، في متناول الجميع !! لا يا عزيزي لا !.. إن « الفاتيكان » ليس على هذه العفوية والسذاجة في التعامل مع الجميع !

تعجّب فراس لقوله .. وسأل ..

ــ .. وماذا تعني بكلمة « الجميع » .. وهل هنالك من « غرباء » .. داخل أسوار الفاتيكان ؟!.. وهل هنالك غير الكهنة .. بل ، نخبة هؤلاء ، ممن يعملون فيه ؟!

رفع « يان فراتيشيك » رأسه ، نحو وجه محدثه ، ونظر اليه يستغرب جهل ، وعزلة الارستقراطية ، التي سمحت للغرباء بغزو عقر دار مقرّها الروحي .. والعبث بأقدس مقدّراتها !!

قال ، في أناة ..

ـ .. وهل هنالك من « يزرع » هؤلاء الكهنة .. ويعرف كيف تُختار البـذور ؟!.. أليس الكهنة في الاصل ، أناساً عاديين ؟.. من عامة الشعب ؟.. يلتحقون بالكنيسة ، والشاطر منهم ، من يعرف اسم جدّه ؟!.. لا .. لا شك ان الكنيسة تدقّق ، حسب قدرتها ، في أصل ، ونشأة ، ودوافع ، من يلتحقون بهـا .. لكن .. وهنا يقع السؤال الأهـم .. كيف لهـا أن تعرف ما إذا كان المُنتسب اليها هو من أصل يهودي .. يتعمّد إخفاء عقيدته ؟!.. وهل للدين ، لون ، يظهر على الوجوه ؟!.. إنه أسلوب معروف .. إنها عادة أجهزة التجسّس القـديمة .. تدفع بعناصـر لهـا ، تنزلق في صفوف أعـدائها .. والعكس ، بالعكس !.. وقـد تصل هـذه العناصر المتخفّية ، الى أعلى المناصب ، في الجهـاز المعادي !!

سأل فراس ، يتعمد عـدم خبرته في هـذا المجال ..

ـ ولماذا اليهود ، بالذات ؟

ـ لأن الكنيسة الحقيقيـة ، هي عـدوّهم الأكبر !.. والأناجيـل ، لعَنَتْهُمْ ، وحكمت عليهم بالتشرّد الى الأبـد ، جـزاء ما فعلوا بالسيد المسيح !!

صمت فراس برهة .. ثم سـأل .. وهو يعرف الجواب ..

ـ ألم يقرر المجمع الكنائسي ، مؤخراً .. إزالة لعنة التشرّد ، هـذه ، عنهـم ؟!

ـ .. ومن تظنهم كانوا وراء هـذا القرار .. من رؤساء الأساقفة ؟!.. قرار ينقض مباشرة ، نصوصاً صريحة ، وردت في الأناجيل الأربعة !!

تدافعت في رأس فراس خواطر لا حصر لهـا .. راح يحارب في نفسه ميل الإنسان الغريزي للسعي وراء أقرب الحلول ، وأسهل الأجوبة !.. يقاوم فكرة حصر جميع ما مـرّ به من أحداث متفرّقة ، في بوتقة واحـدة ، سعياً وراء إجـابة سهلة ، صريحة !

أثار حديث « يان فراتيشيك » في نفسه ، هواجس دقيقـة .. تعجّب من نفسه ، كيف كان على وشك التخلّص منه .. وإذا به ، يفتح أمامه عوالم

أقل ما يقال فيها .. إنها عادت به الى أيـام طفولته الأولى !.. أيـام أحاديث جدّته .. وزرْعها في نفسه حبّ البحث والتنقيب ، لا عن هوى ، أو تسلية .. أو ، حتى ، عن حبٍ للبحث العلمي ، المجرّد .. بل بدافعٍ من حسٍّ غريب .. هو ديني ، ولا علاقة له بالدين !.. قومي ، ولا علاقة له بقومه !

لطالما قاوم في نفسه ميلاً طبيعياً الى قصص البطولة ، والتضحية !.. كان يقرأ في طفولته سِيَر الأبطال .. تغصّ حنجرته ، بما يعتمل في صدره ، وهو يعيش ، مع أبطالها ، قصص Ivan Howe و Sir Galahad و King Richard لا يميّز الخـير ، من الشرّ فيهـا !.. الى أن لقّنته جدّته تاريخ خـولة ، وخـالد ، وصلاح الدين ، ثم قيس ، وعنترة ، وابن زيدون .. فتعلّم كيف يميّز الصالح ، من الطالح ، والقبيح ، من الجميل ، والعدو ، من الصديق !

ها هو ذا يقف أمام عالم ، لم يخطر له على بال !.. عالم ، فيه بالنسبة الى الانسانية جمعاء ، من التصوّر والخيال ، أكثر مما فيه من واقعٍ ملموس !!.. ورغم ذلك ، فها هو أمـام فنان ، كهل .. يكاد يتعثّر اذا ما سـار وحيداً في الظلام .. يحدثه عنه ، حديث العـالم ، الدّاري !.. لا قصد مباشـر له من وراء حديثه ، سوى إثارة اهتمامه بـه .. علّه يصل الى هـدفه البعيد ، في إحيـاء رفات قلعته الدارسة !

أقبية الفاتيكان .. تحفه الرائعة المخفيّة .. مكتبته الأسطورية .. ملايين الكتب القديمة .. وعشرات ألوف المخطوطات العربية المجهولة !.. وعـلاوة على كل ذلك .. فهرسٌ (هذا اذا لم يكن هنالك فهارس) فيه ما لا يخطـر على بـال من كتب مجهولة !!.. وكتاب مجهول ، لابن خلدون !!.. وعـن الفلسفة بالذات !!.. كل ذلك ، ومن دونه هـذا العجوز ، الذي راح يعيـد كتبه الى صندوقه القـديم .. يقوم بذلك في بطء يعرف أنه أثـار انتباهه ، وما زال لا يدري كيف السبيل الى إثارة اهتمامه ، بقلعته الحبيبة !

أدرك فراس أن ما من طريق للحصول على مساعدة « يان فراتيشيك »

الا عن طـريق فائدة متبادلة .. فقــال ، يحتال على قصده .. يكسوه بألطف ما يستطيع ، من حجب ..

ـ « سينيور فراتيشيك » .. ألم تفكر يوماً أن تحوّل قلعتك هـذه ، الى معهد شامل ، بدل أن تقصره على الفن ، والنحت ؟!

فوجىء « يـان » بما سـمع .. ولم تستطع سنوات خبرته الطـويلة بالمفاجآت ، إخفـاء ارتباكه !

أحكم وضع نظارتيه فوق أنفه ، في لهفة ظاهرة .. وقال ..

ـ معهـد شامل ؟!.. ولم لا !!.. أنا لم أفكر بهـا كمعهد فنّي ، إلا اختصاراً للتكاليف .. ولأنني كنت أستطيع تدريس النحت ، آنذاك !!.. أما اليوم ، فلم يعـد في وسعي أن أُعلّم ، لا أستطيع سوى إدارتها !!

توقّف برهة .. لا يصدق أنه سمع ما سمع .. وأنه أجاب ، بما أجاب !! راح يـردّد ..

ـ معهـد" تربوي !.. معهد" .. داخلي ..!.. وربما لأولاد ، أو بنات الأثرياء .. وتقوم زوجتي كذلك .. بـ ..

ـ لا ريب ان جميع اتصالاتك ، بمكتبة الفاتيكان ، قد قُطعت ..

فوجىء « يان فراتيشيك » بما سمع .. فردّ على الفـور ..

ـ قُطعت ؟!.. ولماذا ؟!.. إنني لم أعد أعمل فيها .. اذا كان ، هـذا ، هو القصد من سؤالك .. لكن الكاردينال ، الكهل ، ما زال على قيد الحياة .. وهو يطلب مني القيام له ببعض الخدمات ، فيها ، من وقت الى آخر ..

ـ مثـلا ؟!

ـ مثلاً .. آتي له ببعض الكتب ، أو المخطوطات .. ثـم أعيدها الى مكانهـا !..

ـ ولمَ يلجـأ إليك بالذات ؟.. ألا يستطيع غـيرك من عَمَلة المكتبة خـدمته ؟!

تعجّب « يـان » لسذاجة محـدثه .. وقال ..

ـ « دون ماكسيمليانو » .. ماذا بك ؟!.. ألم تَعِ ما سبق وقلته لك ؟!

إن معظم المخطوطات القيّمة ، التي أودعها الكاردينال ، في المكتبة ، لا يعرف وجودها غيره !!.. فأنا نفسي لا أعرف ما هي .. ولا أعرف إلا ما أتيت بـه ، بنفسي .. أو معظمه .. وهو لا يريد لغيرنا الاطلاع عليهـا !!.. ولو استطاع ذلك ، لاقتلع ذاكرتي ، من رأسي !!.. لا شـك عندي انه ينتظر أن أمـوت قبـله ، فيعيد ترتيب ما رتّبنا معـاً بحيث لا يبقى هنالك من يعرف سرّه ، إلا هـو !!

ــ ومن بعـده ؟!.. ماذا سيحصل بعـد أن يموت ؟!

ــ .. من يدري ؟.. لعله سرّ لا يتناقله إلا الذين يجلسون على الكرسي الرسولي نفسه !!

جمع فراس شتات ما تلاعب في خيـاله .. وقال ، في لا مبالاة هادفة ..

ــ وهل نستطيع ، يوماً ، أن نزور هـذه المكتبة .. معـاً ؟!

تعجّب يان لسؤاله .. وقال .. وهو لا يفهم سبب تجاهل هـذا النبيل لأسرتـه ولقبـه !

ــ « ذون ماكسيمليانو » !.. إني لا أفهم ما تقول !! إن جميع الأبواب ، مفتوحة لك !!.. إن في وسعك أن تزور من تشاء ، وما تشاء ، في الفاتيكان ! في الوقت الذي تريـد !!

فهم فراس قصد محدثه ، لكنـه تجاهل ذلك .. وأصرّ ..

ــ إني أريد زيارة المكتبة .. لا كـ « مكسيمليانو » .. بحيث تفـرض علينا المرافقة .. بل نزورها معـاً .. فتطلعني ، بنفسك ، على ما لا يعـرفه غيرك !.. ولا يدري أحـد عن الزيارة شيئاً !!

صمت « يـان فراتيشيك » طويلاً .. لم يفهـم سبباً جوهرياً لتخفّي محدّثه !.. ولا كان يحقّ له أن يستطلع منه سبباً لذلك التخفّي !.. لكـن حديثهما المطـوّل ، قـد أدخل عنصراً جـديداً على علاقتهما ، مسحة مـن الودّ .. أحسّ أنها كسب حقيقي له ، فلم يشأ أن يخسره بسؤال محـرج ، أو تطفل ، لا طـائل من ورائـه ..

توجّه « يـان » الى فراس في محبّة صادقة .. وقـال ..

ــ .. « دون ماكسيمليانو » .. إني ، وإن كنت لا أجـرؤ على التشبّه بوالدك .. إلا أنني لا شك في مثل سنّه .. أو أزيد .. فهل لي أن أطرح عليك سؤالاً بسيطاً .. ليس لي من هدفٍ شخصي وراءه ؟!

ولما هــزّ فراس رأسه بالموافقة .. قال « يــان » ..

ــ هل أنت تعــاني من مشـكلة ما ؟.. تمنعك .. تمنعك ..

قطع فراس سؤال « يــان » في لهجة هادئة صارمة ..

ــ « سنيور فراتيشيك » إن هذا ليس سؤالاً بسيطاً .. ولست أريد أن أسمع منك المزيد من هــذه الأسئلة ، في المستقبل !.. نعم ، إني أمــرّ في أزمة في حياتي الزوجية .. تمنعني عن إظهار مكان إقامتي .. هــذا كل ما في الأمــر !.. فإما أن تتعامل في المستقبل على هــذا الأساس .. دون أيّة أسئلة شخصية .. ولا محاولة اللفّ والمواربة للوصول اليها .. وإما أن نفتــرق ، ولكل حــادثةٍ حــديث !

لم يبد « يان فراتيشيك » أي امتعاض لما سمع !.. لعله ، في شيخوخته ، تعوّد ألا يأخــذ الأمور ، على محملٍ شخصي .. أو ، ربمــا كان في حــاجة الى من يوقفَ دفعَ تطفّله ، في شكل قاطع ، جذري !.. يرحّب بمن يزجره ، فيهدأ الى التعامل مع أمثال « دون ماكسيميليانو » النبيل ، دون محاولة تخطّي ما رُسم له ، من حدودٍ ، صريحةٍ ، واضحة !

هــزّ رأسه ، في هدوء ، وقال مرتاح البــال ..

ــ لن أسألك شيئاً من هــذا القبيل ، بعد اليوم !.. كن على ثقــة من ذلك .. وسأحضّر لتلك الزيارة التي طلبت .. وأطلعك على ما يتــم لي مع الكاردينال في أقــرب حــين ..

عــاد الى الصمت هنيهة .. ثم قال في لهجة صادقة حميمة ..

ــ .. إنه لمما يشرّفني أن تعتبرني ، في يوم من الأيــام ، صديقاً لك ، يا « دون ماكسيمليانو » .. ولئن لم نصل على درب هــذا التعارف ، إلا الى هــذا .. فسأكون جدّ قانع ، وسعيد !

* * *

الفصل الثامن

لم تكن ، تلك ، المرّة الأولى التي رأى فيها فراس« الفيللا لودوفيزي » حيث تقيم الماركيزا « كولونّا » .. فمعظم قصور روما العريقة تقع ضمن القسم القديم من المدينة .. الملقّب « بالوسط التاريخ » ، حيث لا يسع المار إلا أن يتعوّد مشاهدتها خلال تجواله اليومي .. فتصبح جزءاً من خياله ، وذاكرته ، يألف سكون حدائقها ، الكثيفة الأشجار .. وصمت نوافذها المغلقة .. فتصبح كالأنصاب التاريخية ، في ذهنه ، كأنها جزء من أرض المدينة ، لا حياة فيها ، أو بشر !

كانت حديقة القصر تحتلّ مربّعاً كاملاً ، من بين الأشكال الهندسية العديدة التي يشكّلها تقاطع الطرقات القديمة ، التي تفصل شارع « الفيّا فينيتو » ، عن سور غابة « الفيللا بورغيزي » .. وكان القصر ، وحديقته ، يربضان على مرتفعٍ يُحصّنه سور حجري عريض ، يرتفع القصر ، بدوره ، فوق أكمة ، ضمن تلك الحديقة المسوّرة ، تشرف على المدخل الرئيسي .. ومن الطرف المقابل ، تسيطر على حديقة رائعة .. قطعة من غابٍ قديمٍ ، يحرسها ذلك السور ، يحفظ فيها جزءاً من تاريخ روما ، تعود أصوله الى عشرة قرون ..

قال فراس ، يُعجب بسلّمٍ رخامي يتفرّع الى ذراعين ، يحيطان بشلاّل ماء صغير يتحدّر ماؤه فوق صخورٍ تغطّي تجوّفاً طبيعيّ ، يحمي تمثالاً لعاشقين ، متعانقين ، يضيؤهما نور برتقالي .. خفيف ..

ـ يا لـه من قصر رائـع !
علّق « شارل غوستاف » ، متبسّماً ..
ـ يا لهـا من مدينة رائعـة !
تنهّـد فراس .. وقـال ..
ـ يا لـه من شـعبٍ عـريق !

صعد الضيفان ، أحد فرعي السلم ، تواكبهما التماثيل الرخامية ، صُفّت على حافته المعشقة بالنباتات .. فما إن وصـلا الى الباب الرئيسي ، وتخطّيا عـدداً من حرّاس القصر الذين تسمروا قـرب أعمدته الرخامية في ثيـابهم الزرقاء والذهبية التقليدية .. حتى أشرفا على القاعة الرئيسية .. تفرّق فيها كل من كان قـد وصـل من المدعوّين ، يتسامرون في هـدوء ، على صوت موسيقى ناعمة ، تتنقّل « الماركيزا » بينهـم ، توزّع ابتساماتها المهـذّبة ، هنا ، وهناك .. في شموخٍ ، ودلال ..

كان « باتريس دو غريفيل » .. صديق فراس القديم ، أول من لاحـظ دخولهما .. فخفّ لمقابلتهما ، بعد استئذان « الكوتيسة دل بيلار » ، التي وقفت تسامر زوجته ، تتهامسان عن سرّ عدم زواج « أمادِيو » ، « دوقـا داوستي » ، الحفيد الثالث ، للملك « فيكتور امانيويل » الثاني .. وقف ، وظهره الى المدعوين ، يحمـل سنواته الستين ، في عنادٍ متصابٍ .. يتفحّص إحدى اللوحات الزيتية القديمة التي اكتظّت بها جدران القاعة ..

التفت « الدوقـا » يبحث عن « الماركيزا » .. يسألها ، قبـل أن تقع عيناه عليهـا ..

ـ « أنّا ماريا » .. يا عزيزتي .. هل هـذه هي اللوحـة الأصلية .. « لفيتّوريا كولونّا » ؟.. لم أكن أعلم أنّها ..

أجابت « الماركيزا » على الفور ، وكانت تتّجه في هدوء لمقابلة ضيفيها ، تقدّما منها برفقة ابن اختها ، « باتريس » ..

ـ لا .. يا عـزيزي .. فاللوحـة الأصلية في « فيرنزة » .. في متحف « بوناروتي » !

هـز ّ الدوق « داوستاي » رأسه ، في امتعاض .. وقال ..

ــ .. يا للسخرية ! قصر عائلتك القديم .. أصبح متحفاً للّوحات ! ولوحات أفراد أسرتك ، في متحف آخر ، بعيدة عنك ، وعن أفراد الأسرة ! لم يبق أمامنا ، إلا أن تتفرّق ، بدورنا .. نوزع ، ونعرض في المتاحف ! شخوص تاريخية !!.. تماثيل من الشمع !!.. على طريقة أشخاص متحف « توسّو » !!

. . .

لم يلجأ « باتريس » الى طريقة التعارف الرسمية .. كان على علمٍ بطلب فراس إخفاء هويّته الحقيقية .. لذلك ، اكتفى بالقول لخالته .. على مسمعٍ من معظم الحاضرين ..

ــ .. خالتي .. أقدّم لك أعز أصدقائي .. وأنبلهم .. « مكسيم » ..

ثم توجّم الى « مكسيم » .. يشير الى « الماركيزا كولونا » ..

ــ .. « مكسيم » .. هاك خالتي .. إنها غنيّة عن التعريف !

لثم فراس يد « الماركيزا » .. يرميها بنظرات خاطفة متفحصّة .. وبعد أن تبادلا عبارات اللياقة المألوفة ، أمسكت ذراع ضيفها الجديد .. وطافت به ، تعرّفه الى الجميع .. تقدّمه باسمه الأول .. « مكسيم » في ألفةٍ ، ومودّةٍ ، أضفت عليه طابع الصديق القديم ، مما حدا ببقيّة ضيوفها لقبوله بينهم ، كأنما هم على معرفةٍ سابقة به ..

تلفّتت « الماركيزا » ، فجأة .. وتساءلت ..

ــ .. لكن .. أين « بالوما » ؟.. ألم أرها بيننا هنا ، منذ حين ؟.. أين توارت ؟..

ثم نظرت الى « مكسيم » مليّا .. وفي رأسها الكثير مما سمعته عنه ، من ابن اختها « باتريس » ..

ــ .. لعلّني أستبق الأمور .. لكنني أتوق ، حقاً ، لمعرفة رأيك في صغيرتنا .. « بالوما » ..

توقّفت ، ورفعت يدها في حركة أنيقـة من أصابعها ..

ــ .. لا شك أنك تستغرب تسرّعي !.. لكن « باتريس » أخبرني أنك بالغ الفراسة ! على أيّة حال .. سوف نرى ..

ضحكت ، وكررت قولهـا ..

ــ سوف نرى ..

نظرت عبر الزجاج المحجّر ، الى الشرفة المقابلة .. فرأت خيالاً يستند الى أحـد الأعمدة ، البعيدة .. فهمست لفراس ، في أناقـةٍ ومرحٍ المضيفـة التي تعرف كيف تشغل ضيوفهـا بما يهمّهم ..

ــ هذي هي « بالوما » .. لقـد آثرت الليل ، على ضوضائنا .. على عادتها .. تعال معي .. وقد تشكرني يوماً ، على ما أفعله الآن ..

* * *

لطالما أعـاد فراس في ذاكرته تجسيد اللحظات الاولى من ذلك اللقاء .. يبـدّل في تقييم معطياته .. يحاول رصـد ما غيّبه الزمان ، مما اختفى وراء النظـرات المترددة .. والكلمات المبعثرة ، التي نُثرت ، هنا ، وهنـاك .. ولطالما تساءل .. هل تحمل اللحظة الأولى ، في طيّات احتمالات تفرّعاتهـا اللامتناهية ، جميع ما يتشعّب عنها فيما بعـد ، ويتكاثر ؟.. كالنطفة الأولى التي تتقسّم ، وتتضاعف ، في اضطراد ، لتُخرج عنها شكلاً مقرّراً بذاته من أشكال الحياة ، شـكلاً ، لا مجال للمصادفة في مسار تكوينه ؟!.. ما هي حقيقة دور الاحساس الأول ، بالإقبال ، أو التردد ؟.. وما قيمة المبادرة الحييّة البكـر .. أو الإحجـام عنهـا .. إذا كان المسار مرسوماً لتلك النظـرات ، المتردّدة ، المتفحّصة .. الأولى ؟!

لطالما كرّر في ذهنه ، تشكيل تلك الشرفة المطلّة على الظلال المعتمـة لأشجار الغاب الكثيفة الباسقة .. يعيد رسم ما تكشّف أمام عينيه من قلـق

نظرات « بالوما » .. قلق° ، كانت تبديه أشعة القمر الكاشفة على ملامحها الساحرة .. ثم تغيبه ظلمة ظلال السحب السابحة .. التائهة ..

كانت « الماركيزا » قد تركتهما ، فجأة ، كأنما ضيعتهما ، عامدة ، في جزيرة نائية ليس فيها غيرهما من البشر !

أزاحت « بالوما » ما تهدل على طرف جبينها ، وانساب على كتفها ، من خصلات شعرٍ أملس ، أشقرٍ ، طويل .. فأشرقت بشرتها البيضاء بنور القمر !

نظرت ، ساخرة ، بطرف عينيها الخضراوين ، تقول في إيطالية ذات لكنة إسبانية محببة ..

ــ أرجوك .. اعفني من المديح .. لا تقل لي .. « هل تعلمين أنك فتاة جميلة ، رائعة ! » ..

تبادر لفراس أنه زُجَّ في مأزق .. أحس كأنه مشى خطواتٍ ، داخل مكانٍ مظلم ، فسيح .. لا يعرف أبعاده !

أجاب ، في ترددٍ من يُصدر الصوت ، ليسمع الصدى .. ويقدّر موقعه من سعة مكانٍ مجهول ..

ــ .. أنا ، لم أشأ هذا اللقاء .. أو أسعى اليه .. هل تفضّلين أن أتركك ، لوحدتك ؟..

هزّت « بالوما » كتفيها ، في عدم اكتراث متردد ..

ــ ان الشرفة واسعة .. مفتوحة للجميع ..

لم ينس فراس ما تلا تلك الكلمات القليلة من صمتٍ محبب ، محرج !..

كانت أصوات المدعوين تصلهم خافتة ، دافئة .. تسبح على سيلٍ موسيقى ليس لها من لحنٍ أو ايقاعٍ مميّز ، يلفت الانتباه ..

تمشّى أحدهم نحو الشرفة ، فما إن أحسّ وجودهما في ظلمتها ، حتى تريّث متردداً ، ثم عاد أدراجه من حيث أتى .. كارهاً أن يتطفّل على خلوتهما ..

زاد ذلك من حرجهما .. وتقاربهما ..

سمع فراس صوت الفتاة يقول في ابتسامة حائرة ما لبث أن كشفها ضوء القمر ..

ـ .. أنا لستُ من اللواتي يُحسنّ مجاذبة الناس أطراف الحديث الممتع ..

ـ .. ربما ، لأنك لا تحسنين المحادثة المفروضة ، المفتعلة ..

هزّت رأسها ، ترفع طرف خصلات شعرها ، تنظر الى فراس ، مرّة أخرى بطرف عينيها ..

ـ .. لا .. لا .. أي حديث كان ..

صمتت برهة .. ثم تابعت وعادت بناظريها الى السماء ، والسحب ..

ـ .. الواقع .. هو اني لا أحبّ الكلام .. إلا اذا كان الموضوع على جدّيةٍ وعمقٍ كبيرين !

ضحك فراس .. وقال مؤيداً ..

ـ وأنا .. كذلك .. ما أجمل الصمت !

نظرت إليه تتمعّن في تقاطيعه التي كثّفت العتمة من وقع خطوطها .. ثمّ قالت ..

ـ إنك مصمم إذن !

مدّ فراس يده اليها بلفافةٍ .. يستغرب قولها ..

ـ مصمم ؟.. ربما !.. لكني لست أدري على ماذا !.. وأنت ؟

هزّت « بالوما » كتفيها ثانية .. وقالت ..

ـ .. رويدك .. فحين تخبرني أنت ، علام صمّمت .. أردّ عليك !

لم يكن في كل ما تبادلاه من هدفٍ واضح ، أو قصد معلوم .. ولعل الحوار ما كان ليدور بينهما إلا استجابة لمحرّضٍ عفوي ، تبدي النفس فيه ما عندها .. كالوتر ، يستجيب بحسبِ ما شُدّ عليه ، وليس انصياعاً للأصابع الضاربة !.. وما كان الذي يشدّ أحدهما الى الآخر في تلك الليلة ، حديثهما

أو نظراتهما .. أو الشرفة المُعتمة وسط غـابٍ كثيف ، يكشف سحره ، بين الفينة والفينة الأخرى ، ضوء القمـر !

لعل ما أثار أولى حوافز الرغبة ، لدى فراس ، كان قلقاً خفيّاً مكتوماً ، أخفته أقـوال « بالوما » في حـذرٍ ، أنثويٍ أخـّاذ .. وكشفته حـركات وجههـا ويديهـا !

أثار ذلك الجانب الخفيّ من شخصيتها انتباهه ، ثم رغبته .. حتى غاب عما لفت نظره ، في البـدء ، من أثرِ سـحرٍ خاصٍ بجمال قسماتها .. أثرٌ ، دافىء ، شهيّ .. يحرّض المـرء على محاولة اختطافه ، أو أخـذه عنوة !.. على عكس ما كان يكسو مجمل مظهرها العام ، من أناقة هادئة ، مهذّبة ..

أقبلت « الماركيزا » .. نحوهما .. تنبىء عن اقترابها منهما ، بنـداءٍ عـذبٍ ، خفيف ، نـدّ عن صوتها الموسيقي ..

ـ « بالومـا » .. .. « بالومـا » ..

ولما صارت في الشرفة ، وقفت على بعد خطوات منهما ، وسألت ..

ـ ألن تسمعينا ، من عزفك ، على القيثار ؟.. شدّ ما يؤلمني أن أقطع عليكما هذا اللقاء الخاطف .. لكن « أماديو » يتحرّق لهفة لسماع فنّك ..

وتوجّهت نحو فراس ، متابعة ، مازحـة ..

ـ و « ماكسيمليانو » كذلك ؟.. أليس هـذا صحيحاً ؟!

كان لمـا قالته « الماركيزا » ما وضع الـ « دوقا داوستي » مـع « دون ماكسيمليانو » في مقـام واحـد .. فنظرت « بالوما » الى صاحبة القصر ، وأجابت في استسلام ..

ـ .. ماذا أستطيع قـوله ، في مثل هذه الحال .. سـوى الاستجابة لرغبتهما السامية !

لئن كان فراس لم ينتبه ، خـلال تلك السهرة ، رغـم ظرف المضيفة ،

وروعة المكان ، إلا الى « بالوما » ، فلأنه أُخِذ ، مرة أخرى ، بما تبدّل من شخصيتها ، لحظة توسّطت قاعة الاستقبال الفسيحة ، وأسندت القيثار الى فخذها الأيسر ، تداعب أوتاره ، تُصلح من شدّها ، تُنقّل ناظريها ، أثناء ذلك ، بين الضيوف ، وتحف المكان .. كأن جميع ما ترى أمامها ، بات على درجة واحدة من الجمود .. وكأنها تهيّىء ، عبر قيثارها ، جسوراً ، سوف تصل من خلالها ، الى حيّز في الوجود .. لا يعرفه إنسان غيرها ..

عزفت ، في البدء ، قطعة كلاسيكية هادئة ، « لسور » ، تمازجَ إيقاعها مع زينة القاعة البيضاء والذهبية .. وترادفت نغماتها مع ومضات النور التي رجّعتها مئات قطع الكريستال ، البديعة الحفر ..

كان « أماديو » ، دوق « داوستي » ، يبدي سروره لما يسمع ، بابتسامة شاردة .. ونظراتٍ تائهة تسبح فوق جدران ، وسقف ، القاعة .. يحرّك أصابعه ، بنقرٍ صامتٍ على طرَف مقعده المذهّب ، الفخم .. فما إن أنهت « بالوما » المقطوعة الأولى ، وانتقلت الى جنوب اسبانيا ، عبر أحد ألحان « ألبينيز » العاطفية .. حتى هزّ « أماديو » رأسه طرباً .. تفلت من يديه ، بين الفينة والأخرى ، حركة مرافقة لما يسمعه ، يُقفل معها جفونه ، ويرنّح رأسه ، فيزيد ذلك من سرورِ الحاضرين .. يَشعر بعضهم ، أن ليس مثل الدوق « داوستي » من يعرف كيف يعبّر عن مدى طربه وتذوّقه .. مدركين أنه لا يجوز لغيره القيام بمثل تلك الحركات العفويّة ، دون التعرّض لنظرات « الماركيزا » الهازئة ..

أُعجب فراس ، منذ البدء ، بمرونة ، ودقّة أصابع « بالوما » المتمرسة في العزف والأداء .. لعله كان يتوقّع ما تعوّد سماعه من عزف «الصالونات»، المتوسّط الجودة !.. فما إن تخطّى ذهنه ذلك الانطباع الأول .. حتى انزلق الى الموسيقى نفسها ، فبدت ، كأنها تنبع من لوحات ، وجدران « الفيلا لودوفيزي » ، نفسها ترجّع الصدى ، فيمور فوق رؤوس الحاضرين في وئام ، كأن تلك الموسيقى كُتبت لعصرهم ، في زمن مضى ..

ما كان في حاجة لسماع جوقاتٍ بكاملها ، تعزف ألحان « فيفالدي »

أو « باخ » لينفذ من خلال أصوات العديد من آلاتها المجتمعة ، الى سرّ روح الغرب ، متمثّلة في ما تخلقه الجوقات من بحارٍ زاخرةٍ بجميع أنواع الحركة والحيـاة .. يسيطر تمازجها على إحساس السامع ، تبعث في عاطفته أمواجـاً متتالية .. تتمكّن من وعيه الجدلي .. فلا يستطيع ، إذا تـكَلّم ، إلاّ اللّهج بالثناء .. ولا ، إذا صَمت ، إلاّ الغـَرَقَ في لجج العاطفة ..

لقد درس الموسيقى ، وكان يعزفها ويكتبها .. يعرف مدى ما يستطيعه العِلم أن يزيـد على اللحن البسيط من أنـواع الزخرف ، والمرافقة .. حتى ليضيع اللحـن ، ويصبح أسـلوب العرض والتنميق هـو الهاجس الأول ، والأخـير ..

تذكّر قولاً لـ « سغوفيا » عـن وحشيّة صوت البيانو .. وصراخ ، وزعيق الكمان .. وأن ليس سـوى القيثار ، في نظره ، من آلـةٍ لا تعرف المبالغة .. وعاد في ذهنه إلى وطن القيثار .. إلى الأندلس ، وتحسّر على زمنٍ كاد القيثار فيه أن ينطق بالعربية .. لغـة آبائه ، وأجداده ..

* * *

كانت « بالوما » قد أنهت عزف مقطوعتها الثانية .. ولعلها أوشكت أن تستريح .. حـين سألها فراس ، في لهجةٍ بدت للحاضرين كأن فيهـا شـيئاً من التحـدّي ..

ــ وهل تجيدين « الفلامينكو » .. كذلك ؟.. أيّتها الآنسة ..

أدارت « بالومـا » وجهها نحوه ، وهي لا تزال على شرودها الأول .. لم يفارقها ، منذ أن أمسكت بقيثارها .. لم تردّ على سؤاله .. لكنها أطرقت تنظـر الى أوتار قيثارها ، ثم ضربت بيدها اليمنى فجـأة على خشبه ، ثلاث طَرقاتٍ .. ماتعاتٍ .. مصمّمة .. أطلقت بعدها لجميع أصابع يدها العنان .. في سيلٍ من العزفِ الصاخب ، ذُهل الحاضرون لعنف مقدّمته ! ولما أدخله على رتابـة جوّهم الأنيق ، من حـرارة مفاجئة ، ودفقِ عاطفـةٍ لا تعرف التريّث أو الكلل !

اختلط الإعجاب بالتأثّر على وجـوه الحاضرين ! لكـن أكثر الذيـن تبدّت عاطفتهم على ملامحهم كانت الكونتيسة « دل بيلار » .. امتزج تأثّرها بمسحةٍ من القـلق ، بانت في نظراتٍ راحت تنقّلها على وجوه غيرهـا من المدعوّين .. تحاول استطلاع حقيقة انطباعهم .. تتهيّبه .. تتساءل عن كيفيّة تقبّل ذاك الجمع ، لموسيقى الأندلس ، البعيدة كل البعد عن الأناقة المدروسة للمكان ومن فيه من الحاضرين من ذوي الألقاب الكلاسيكية !.. تردّدت في فهـم دوافع « دون ماكسيميليانو » في طلب ذاك النوع من الموسيقى ، مـن أختها .. هل كان يشير إليها ، هي ، من طرفٍ خفيّ .. وإلى أصلها الأندلسي المزعوم !.. لو أن عينيه ما كانتا تبرقان إعجاباً بما سمع ، لأوشكت تظنّ أنـه يحاول أن يلصق بهـا تهمةً باطلة .. ثم التشهير بهـا .. على الطريقة الساديّة المترفّعة لأهـل الشمال !

ما كان مـن الطبيعي ألا يلتفت فراس ، طـوال تلك السـهرة إلا الى « بالوما » ، وسحرها الحـائر بين دفء حضورها ، وبين القلق الذي ما برح يندّ بين الفينة والأخرى ، عن نظراتها ، وابتسامتها ، الوجلة ، الحائرة ..

لعل الأمور لو سارت على شكلها الطبيعي ، لالتفت إلى مضيفته ، أو الى صديقه « باتريس » .. ولانشغلت « بالومـا » بتقبّل الثناء ، من الجميع .. خصوصاً من « الدوق داوستي »، الذي كان يلاحقها بنظراته، حيثما تحرّكت!! لكن الظروف شاءت عكس ذلك ..

أعلن رئيس الخدم « للماركيزا » ، أن العشاء ينتظر الحضور ، فقامـت هذه ، تتقدم ضيوفها ، نحو المائدة ، فتصدّرتها ، بعد أن أجلست الدوقا الى طرفها الآخر ، مشيرة الى بقيّة المدعوين باتخاذ الأماكن المعدّة لهـم .. والى « الدون ماكسيمليانو » ، بالجلوس الى جانب « بالوما » ..

سألت « بالوما » .. وكان فراس يساعدها على الجلوس الى المائدة ..

ـ هل لي أن أعرف .. لماذا طلبتَ مني موسيقى « الفلامينكو » ؟!

ـ وماذا تظنين ؟

لا أظن أنك كنت تمتحن قدراتي الموسيقية !

همس لها ، متبسّما ، ممتحناً ..

ـ كنت أعلم أنك تخفين شحنة عاطفية .. وشئتُ مساعدتك على إطلاقها !

رفعت « بالوما » حاجبيها .. تعجّبا .. وقالت ..

ـ .. أرى أنك من هؤلاء الذين يظنّون أنهم يجيدون فهم النساء !

ـ وهل أخطأت في تقديري ؟!

صمتت هنيهة .. ردّت أولاً على ملاحظةٍ عابرةٍ أدلى بها أحد المدعوين .. ثم التفتت ثانية الى فراس ، تقول ..

ـ ليس هذا بالامتحان الكافي ! هنالك ما هو أصعب بكثير .. وسنرى ما إذا كنتَ ستوفّق إليه .. في المستقبل !

قال أحد المدعوين بإيطالية تشوبها لكنة أجنبية ..

ـ ان الانسان الغريب عن هذه البلاد .. ليعجب مما يطالعه فيها .. من فارقٍ شاسعٍ في كل ما يراه .. حتى في حياة شوارعها !.. يرى الفن الراقي ، والجمال الرائع ، حيثما يسير ، في روما .. والى جانب ذلك .. يرى العنف والإجرام .. يتربّصان به .. في كل مناسبة .. وفي معظم العيون ! إنه لأمر مؤسف .. حزين ..

ردّ عليه « شارل غوستاف » ، قائلا ..

ـ أليست هذه هي الحال ، كذلك ، في كلٍّ من باريس .. ولندن .. ونيويورك ؟!

ـ صحيح .. والمؤسف في الأمر ، هو ، أنك .. في « نيويورك » .. لا تشاهد فنّا يُذكر ، في شوارعها .. فن ، يتعاظم أثر العنفِ والإجرام أمامه !.. كذلك لندن .. فليس في بعض الآثار التي تزيّن معالم تلك المدينة ، ما يُشكّل تنافراً ظاهرا مع سلبيّات الحياة فيها .. بل إن أبنيتها القاتمة ..

وضبابها ، وهواءها ، الفاسدين .. يشجّعان الغريب على توقّع القسوة والمصائب التي تطالعانه فيهـا !! أمّا « رومـا » .. فإن الشـر فيهـا يداهم الإنسان .. وهو في غفلة عنه ! فلا شمسها الساطعة ، أو غاباتها .. ولا حدائقها أو آثارها .. تنذر الزائر بما قـد يصادفه من وجـوهٍ ملؤها الحقد والشر ! يراها تنبـع أمامه ، فجـأة .. ولا من حدودٍ لما يمكنها القيام به .. للحصول على ماله .. أو لخطف سلسلة ذهبيّة على عنقه !

تبسّم فراس ، وهو يهمس في أذن « بالوما » .. يسألها ، مازحاً ..

ــ ما رأيكِ .. فيما تسمعين ؟.. وهل طالعك مثل هذا العنف .. يوماً ؟!

هزّت كتفها في لا مبالاة ، وأجابت ..

ــ .. العنف ؟.. لعلّني أكرهه .. إذا كـان وجـه صاحبه قبيحاً ! أمّا إذا كان وسيم الطلعة .. جميل الجسد ..

تردّدت برهة ، ثم تابعت ، في لهجة متحدّية ..

ــ .. إذا كان العنف جميلاً .. فإني قد أحبّذه ! نعم .. ولِمَ لا ؟!

التفت إليها قليلاً .. يحاول رصد ما على وجهها من انطباع ! وانتابـه إحساس طـاغٍ برغبة مفاجئة في لمس جسدها !! لم يفهم سبباً لذلك .. فأخفى قلقـه وعاد الى طعامه .. يحاول تجاهل ضربات قلبه .. فإذا بها تهمس .. وفي صوتها سخرية تشوبها الخيبة ..

ــ ماذا ؟.. أراكَ فوجئتَ بما سمعته مني !.. ظننتك واسـع الخبرة ! عميق التجارب !

أسقط فراس منديله قـرب مقعدها .. وانحنى وراءه .. يتشـاغل في البحث عنه .. تحت المائدة ! فإذا بوجهه أمام ساقها التي لا يسترها إلا طرف ثوبها الهفهاف ! مالَ بشفتيه على ساقها ، فإذا بها تكشف الثوب عنها ، بطرف أصابعها .. وتفرجها قليلاً ، لتقترب من مداعبة شفتيه !

مرّ ذلك في بضع ثوان .. عـاد فراس بعدهـا الى المائدة ، والطعام .. وحركات قلبـه قد تحوّلت الى نبضاتِ طربٍ ، وهناء ..

قال الدوق « أماديو » متحسّرا ..

ــ إنها أيام عصيبة .. لم يعد فيها أمان لأحد .. إنها « الديموقراطية » .. المفروضة علينا .. هذه محاسنها .. وثمراتها الشهيّة !

تعجّب « شارل غوستاف » ، قائلاً ..

ــ لا أظن أن رومـا .. زمـن الفـن ، وعصر النهضة .. كانت هانئة ، آمنة .. أكثر منها اليوم ! هل كان هنالك من يجرؤ على السير في الطرقات .. بعـد غروب الشمس ؟! ولا ننسى .. أنها كانت تعيش آنذاك في ظلّ الحكم البابويّ .. ونفوذ أصحاب القصور !

ضحكت « الماركيزا » .. وقالت ..

ــ بالضبط .. والفارق الوحيد .. هو أننا لم نكن ، آنذاك ، مضطرين للخروج من قصورنا .. إلا لزيارة غيرها !.. فالشارع ، ومن فيه ، كان لحظةً عابرةً في حياتنا .. نستر وجوهنا عنه ، بمروحةٍ أنيقة !

قالت الكونتيسة « دل بيلار » مازحة ، مسرورة ..

ــ أنا .. على الأقل .. إذا حملتُ مـروحة إسبانية أنيقـة اليـوم .. فسيبدو ذلك أمراً طبيعياً بالنسبة إليّ .. إن لديّ مجموعة رائعة منها ! على إحداها رسم بريشة « غويا » ..

قال « باتريس » .. معلقاً على ملاحظة « شارل غوستاف » ..

ــ أمران ، لا بدّ من أحدهما .. إمّا الخضوع لمخالطة العامّة وتجاهل « ميزاتها » !.. أو الهرب منها !.. لذلك ، أوجدَتْ الارستقراطية الفرنسية « فرساي » !.. لتهـرب من باريس .. ومِنْ اضطرارها اليومـي ، لمخالطة السوقية و القبح !

قال فراس ، هازئاً ..

ــ إن « فرساي » ، قصـة طويلة !! إنهـا التطبيق العمليّ ، للمدينة

الفاضلة .. على يـدِ الارستقراطية الفرنسية !.. جميع النبلاء .. الطبقة الحاكمة ، بأسرها .. تعيش ، في مئات الغرف ، من قصرٍ هائلٍ ، في ظلّ حكمِ أكبر ملوكها .. « ملك الشمس » ، لويس الرابع عشر !

ردّ « شارل غوستاف » .. في شبهِ دفاعٍ .. كأنه يستبق الهجوم !

ــ لعلّه حلّ « طوباوي » .. لكن .. ليس هنالك من يُنكر جماله !.. جمال « فرساي » .. وحدائقها .. رغم مساوىء تلك الطبقة .. وعلاّتها ..

تابع فراس في سخريّة ، مبطّنة ، لاذعة ..

ــ جمال « فرساي » .. الذي لا مراحيض فيه ؟! ولا دورات مياه ؟! أذكّرك بقول « ميشليه » الكبير « ألف عام لأوربا .. دون حمّام » !!

بُهتت « بالوما » .. وسألت ..

ــ دون حمّام ؟.. ماذا تعني بذلك ؟!.. ألف عام ؟!

ــ إنّ الكنيسة تكره الحمّام .. ولقد ظلّت تكرهه .. حتى القرن التاسع عشر ! لقد كرهته .. هكذا .. وبكلّ بساطة .. وأوصت ضدّه ! ذكّرها بحمّامات روما العريقة .. ثمّ بحمّامات العرب .. والمسلمين !.. وليس الذنب ذنب الكنيسة وحدها .. فأوربا ، بلاد باردة .. كرهت النظافة ، على مرّ العصور ! تكرهها حتى اليوم .. تصوّري .. ان هنالك من كان يجاهر بأن الدهن ، والقذارة ، يشكّلان طبقة يجب تركها على بشرة الإنسان .. لحمايته من البرد ، أو العوامل الطبيعية !! ولقد قيل هذا القول .. في زمن « فولتير » .. و « ديكارت » .. وكبار مفكّري أوربا !! يا لقذارتهم !

بادر « شارل غوستاف » مفسراً ..

ــ لا .. لا .. إن للأمر علاقة بالنظرة الدينيّة للكون .. فالكنيسة تكره الجسد .. الذي هو ، بالنسبة إليها ، سجن الروح .. فكيف تريدين لها أن تكترث لنظافة هذا السجن ؟!

أجابت « بالوما » متعجّبة ، ساخرة ..

ــ أفلا يقوم السجناء بتنظيف سجونهم ؟!

ــ ثمّ .. هنالك مسألة الجنس .. فالكنيسة تكره الجنس كذلك ..

فترى في التعرّي ، والاعتناء بالجسد .. نـداء للبواعث الجنسية !.. وفخاً ، يسقط الانسان فيه .. في المعصية الكبرى !!

ضحكت الماركيزا « كولونا » التي كانـت تفخر بجسدها ، وتغتسل كل يـوم .. وقالت ..

ــ .. لقد كانت « ماري انطوانيت » تأتـي بالمغطس الصغـير .. الى غرفتها .. وتنزل فيه ، دون خلع ثيابها الداخلية ! تصوروا !

علـّقت « الكونتيسة دل بيلار » .. موافقة ..

ــ ثلاث مرات .. أو أربعاً .. في السنة ! على أكثر تقدير !!

كان « باتريس » على وشك قـول شـيءٍ ما .. ربمـّا ، دفاعاً عن ملوك أسلافه .. فأشارت « الماركيزا » إليه بيدها .. قائلة ..

ــ لا .. يا عزيزي .. فأنا من أصلٍ فرنسي .. وأعرف خفايـا حيـاة القصور !.. فـإن كان في إمكاننا السكوت عن معظم مساوئها .. أو المـرور عليهـا ، لتسـْويغها ، بشـرحٍ أسبابهـا التاريخية .. فـإن هنالك أمـوراً حضاريـة لا يمكن السكـوت عليهـا ، أو تسويغهـا !.. لا من بعيـد .. ولا من قريب !

نظر « باتريس » إليها قلقاً .. مستفسراً .. فأجابت ، ضاحكة ..

ــ مسألة نهوض « لويس » الرابع عشـر .. مثلاً .. من نومـه كل صباح ، وتغوّطه في طشتٍ .. وسط جمهـرة النبلاء التـي تنتظره .. وعلى مرأى منهم !! ذلك المنظر القبيح .. وتلك الرائحة .. يا إلهي .. أمام الجميع !!

هـزّ الدوق « داوستي » رأسه ، موافقاً ..

ــ حقاً .. إني لا أفهم ذلك ! كيف كان الملك يدير مؤخرته العارية .. لأحد النبلاء .. بعد ، انتهائه من التغوّط .. كي يمسحها النبيل بقطعـة من القطن !! ثم يهديه الملك تلك القطعة ، القذرة .. كذكرى عزيـزة ، لما نابـه من شـرفٍ رفيـع !!

عـلا صوت « بالوما » بصرخة مكتومة ..

ـ لا بدّ إنكم تمزحون !! وهل يعقل ذلك ؟! إنني لم أقرأ هذا في أيّ من كتب التاريخ التي درسناها !! « ملك الشمس » ، موحّد فرنسا !!

هزىء فراس منها ..

ـ وهل التاريخ يُدرَّس في المدارس ؟!

عادت الى تساؤلها ، في عصبية ظاهرة .. تكرّر ما سمعته ، كأنمّا لا تحسن استيعابه ..

ـ وهل كان ملك فرنسا ، فعلاً ، يقوم بذلك ؟! أمام النبلاء ؟! كلّ صباح ؟! ويهدي القطنة لمن يقوم بمسح مؤخّرته ؟! يا لها من حضارة !! خيرٌ لعلماء « الأنثروبولوجيا » دراسة مثل هذه الظواهر .. البدائية .. في مجتمعاتنا نحن .. بدل ما يقومون به من دراستها في جزر « هايتي » ، أو غابات « الأمازون » !!

علّقت الكونتيسة « دل بيلار » قائلة ..

ـ إنّ ما يُحيّرني هو .. هل كان النبلاء يعتقدون ، فعلاً ، أنّ تلك القطنة ، بما عليها من غائط ملكيّ ، هدّية ملكيّة رفيعة .. ذكرى ، تجب المحافظة عليها؟! هل كانوا يقومون بذلك عن قناعةٍ أم، مُجاراة لنزوةِ الملك؟!

هزّ فراس رأسه في شيء من النزق ، وقال ..

ـ سيدتي .. ليس الأمر نزوة عابرة ولم يقتصر على ملوك فرنسا وحدها .. إنّ أوربا ظلّت تتناسى عيوب ماضيها .. حتى نسيتها ! وهل تظنين أن ملكاً ، يدير مؤخرته أمام بلاطه ، إذا لم يكن ذلك البلاط يرّحب ويبتهج بما يرى ؟! أم هل تظنّين أن مثل هذه الفعلة « الحضارية » ، يمكن أن تكون من ابتكار جيلٍ واحد !! ولا يُبدّل في الأمر شيئاً ، أن يُفسّر أحدهم ذلك ، فيرّجعه الى أحد الطقوس التي لها علاقة بالتوتم « الفرويدي » !

صمت الجمع برهة .. وقد التفتوا الى صنفٍ جديد من الطعام ، قُدّم لهم ..

كانت مائدة « الماركيزا » تضمّ ستة عشر ضيفاً .. يقوم على خدمتهم ، نصف عـدد هؤلاء ، من النُدُل .. يهتم كل نادلٍ بضيفين .. يقف وراءهما مباشرة ، بشعرهِ الأبيض المستعار ، الطويل ، وبملابسه التقليديّة ، الزرقاء والمذهّبة .. يبدّل الصحون .. يملأ الأكواب .. ويخفّ لتلبيــة طلباتهما ، لدى أدنى إشارة من أيّ منهما ..

تنبّــه فراس الى أنّ ابتسامة خبيثة ترتسم على ثغـر « بالومـا » بين الفينة والأخرى .. وكــان مشغولاً بالحديث .. فلم يلتفت الى مصدرها .. لكنّه ما لبث أن لاحظ أنّ تلك البسمة تَعْقب كل مـرةٍ يقـوم النـادل فيها بأداء لخدمةٍ لأيٍّ منهما ! فلمّا أصرّ ، بالنظر ،على « بالوما » ، مستفسراً عن سبب ابتساماتها المتكررة ، تلك .. هزّت كتفها ، في عبثٍ ، وهمست ..

ــ إنك .. إذن .. لم تلاحظ شيئاً مما يجري ، منذ بدء العشاء !

ولمّا كرّر فراس إشارة التساؤل .. عادت تهمس قائلةً ..

ــ حسنٌ .. سوف ترى !

ورفعت طرف أصابعها ، دون أن تلتفت الى الوراء .. إشارة منهــا الى النادل كي يتقدّم منهــا .. فما إن صار وراءهــا ، حتى همست تطلب منــه شيئاً ، لم يفهمه تماماً .. فتقدّم منهــا ، وانحنى ، يكرر محاولة السماع .. فإذا بها تعيــد قــول ما طلبته ، وهي تحرّك ذراعهــا الى الوراء ، بما يسمح لكوعها بمداعبة ساقي النادل ، الذي وقف مرتبكاً ، يتفصّد عرقاً .. يحاول أن يستر بيديه أثــر تلك الملامسات على جســده الشاب ، وقد طفح الــدم الى وجهــه !!

صعد الدم ، بدوره ، الى وجه فراس !!

تبسّمت « بالوما » في خبثٍ ، وقالت ..

ــ ألامس الشاب!فيبدو الهياج على « دون ماكسيميليانو »؟!ياللعجب!!

كان المدعوون ما يزالون يتنادرون عادات حياة القصور .. وجاء أحدهم على ذكرِ انعدام دورات المياه في جميع قصور وبيوت أوربا .. حتى بدايــة

القرن العشرين .. فقهقهت الماركيزا « كولونا » وقالت ..

ـ ماذا ؟! أرى أنّ الحديث ، ما يكاد يبتعد عن مثل هذه المواضيع المشهيّة، حتى يعود أدراجه إليها .. راكضاً ! هل أصبحنا، من حيث لا ندري ، أتباعاً لـ « الماركي دوساد » ؟!

همهم « الدوقا داوستي » .. وأضاف ، في جدّية مفاجئة ..

ـ .. حقاً .. حقاً .. لست أدري .. كيف تظنّ أنّنا أرقى الشعوب ! وقد أمضينا أكثر من ألف عام .. دون دورات مياه !! دون مراحيض .. دون حمّام !! تتبرّز العامة ، في الطبيعة .. وعلى قارعة الطرقات !! والخاصة ، في أوانٍ .. داخل سكنها .. وقصورها .. دون اغتسالٍ بعد ذلك .. ولا يناقش هذه الظاهرة أحد من علمائنا .. بل تتستّر عليها !.. لا نودّ فهم سبب هذا التراجع الحضاري .. وعلاقته بجذورنا .. وبالدين !

تساءلت الكونتيسة « دل بيلار » في شيء من الامتعاض ..

ـ وما شأن الدين بهذه الأمور؟!ما لكم تربطون هذه العادات، بالدين!

ـ ومن تولّى شؤون أوربا ، خلال الألف عام الماضية ؟! سياسية كانت ، أم دينية .. أم أخلاقية .. أم اجتماعية ؟! وما الذي تبدّل في نظمها الاجتماعية، منذ نظام حكم الامبراطورية الرومانية ، سوى ما بدّله الدين ؟! والأدهى من ذلك .. ان النظافة والاستحمام كانا سنّة من سنن الحكم الامبراطوري الملحد !!

تدخّل « شارل غوستاف » يخفّف من وطأةِ هجومِ الدوق « داوستي » ..

ـ إن الكنيسة لم تخلق العادات .. الحسن منها ، أو السيء .. إنها كانت تسوسها ..

احتد صوت الدوق « داوستي » .. ممتعضا لوقوف « الكونت دو بروفانس » ضده .. فيما ارتأى ، وأجاب ..

ـ لعلّ هذا الأمر صحيح.. في فرنسا.. ذات الحضارة الحديثة الأمد !!.. أما روما .. فليس من يجهل تاريخها التليد .. وحضارتها ، قبل أن تتسلّم

الكنيسة فيها مقاليد الأمر والنهي !!.. لقد عرفنا في هذه البلاد الفلسفة الأغريقية .. التي محقتها الكنيسة ، وأحرقت كتبها !!.. عرفنا النظافة ، والاغتسال .. منذ ثلاثة آلاف عام !!.. كانت ثياب الكهنة الوثنية ، والناس.. بيضاء .. ناصعة !! ثم تحوّلت زمن العقيدة والإيمان ، الى سوداء كالحة !! فهل هذه مصادفة ؟!.. كانت طقوس العبادة تجري في أجواء الفرحِ والبهجة .. وغدت .. في زمن الإيمان .. تقترن بالحزنِ والبكاء ، وجلْد الجسد ، وتعذيب الروح !! فهل هذه كذلك مصادفة ؟! كنّا أقذر شعوب الأرض .. أو من بين أكثرها قذارة ، واذ بنا نصبح .. أقذرها .. طوال ألف عام !! هذا .. والى جانبنا ، طوال هذه المدة ، في الجنوب .. حضارة المسلمين العرب .. الذين نلقّبهم بالكفرة !! حضارة تنبع من دينٍ ، فرض الاغتسال على أصحابه ، خمس مرات .. كل يوم !!

سألت الكونتيسة « دل بيلار » في لهجةٍ متحدّية ..

ــ وما رأي « الدون ماكسيميليانو » في كل هذا ؟! إننا لم نسمع صوته منذ حين ..

أجاب فراس ، في عدم اكتراث .. يتجنّب محاولتها إشراكه في تقريع الارستقراطية لذاتها !

ــ .. وهل يمكن لصوتي إلا أن يساند صوت « الدوقا داوستي » . إنه ، ليس عميد الملكيّة الايطالية فحسب .. بل عميد هذه الجلسة ، وكل جلسة ..

سرّ « أماديو » لهذا الحليف الذي كان خشي هجومه .. وقال ، موضّحاً ، متبسّما لفراس ..

ــ .. ولعلّ الأمر كان أشدّ وضوحاً ، في بلادكم !.. ولا يعود ذلك الى زمن بعيد .. خمسة قرون ، أو أقل !.. كانت حضارة أعدائكم من المسلمين.. في غرناطة .. أجلى من أن تحاولوا التعامي عنها .. يا «دون ماكسيميليانو» !.. لذلك .. توجّب عليكم اقتلاعها ، من أسّسها !.. أو تقمّصها ، إذا أمكن ذلك !!.. وإخفاء كل ما يمكنه الإشارة الى هذا التقمّص !

ســألت الماركيزا « كولونــا » ، متعجّبة ..

ــ .. تقمّص ؟.. وماذا تعنون بذلك ؟! أنا لا أعرف بلداً حارب عادات أعدائه ، وابتعد عنها ، مثل محاربة إسبان الشمال ، لعادات وحضارة العرب ، والمسلمين ، في الأندلس !

هــزّ « أماديو » رأسه ، موافقاً .. وقــال ..

ــ ظاهرياً !.. ياعزيزتي.. ظاهرياً !.. لقد حاربوا اللباس ، والعادات، وغير ذلك .. حتى إن « مدريد » .. تكاد تكون خاليــة .. اليوم .. من أي أثرٍ للعرب .. لكن « مدريد » ، بكبريات أسرها النبيلة .. فطنت الى المهمّ من حضارة هؤلاء .. « الكفرة » !

ضحك « أماديو » ضحكة خبيثة .. وتابع ، متّجهاً الى فراس ..

ــ أليس الأمــر كــذلك .. يا « دون ماكسيمليانو » .. ألا توافقني فيما أقــول ؟!

ثم أضاف ، وهو يهــزّ رأسه .. ويحكّ ذقنــه .. ويزيــد من لهجــة العجب في كلامه ..

ــ هنــا .. كان للكنيسة دور" لا بأس بــه !.. وهذا أمر" .. يجب الاعتراف به ! نقطة ، في مصلتحها .. نقطة كبيرة !!

كان فراس يشارك في الحديث .. يحاول جاهدا إخفاء حركةِ عينيه اللتين كانتا تتنقّلان بين طعــامه ، ومحدّثه ، وما تبتكره « بالومــا » من أنواعِ التصرّفات المثيرة ، الخطــرة ..

سألها ، في صمتٍ خفيض ..

ــ .. وهل يُعجبك النادل .. حقــاً ؟!

كان الشاب قد بــدأ يستمرىء مداعبات « بالوما » !.. زال عنه وجله الأول ، لدى ما فاجــأته بــه تلك الفتاة الارستقراطية ، النزقــة .. فاستعاد سيطرته على نفسه ، وراح يزيد من الدنو منها ، كلّما أشارت إليه بالاقتراب !

هزّت كتفها ، في عــدم اكتراث .. وقالت ..

ـ حـان الوقت لكي أصرفـه عني !.. لقد زال عنـه الأثر العفويّ للمفاجأة .. فبات كغـيره من الشباب .. إنسان عاميّ ، يسعى للوصول الى ما هو أعلى مقاماً منه !

ـ وهل كنتِ تتابعين إثارته .. لو أنه ظلّ تحت أثر المفاجأة .. الأولى !

لم تردّ عليه .. علا صوتها ، فجأة ، بسؤالٍ وجهته الى « أماديو » .. فقـالت ..

ـ لقـد قرأتُ في إحـدى روايات الدوقا « دي لامبادوزا » ، وصفاً مثيراً لسهرة أرستقراطية ، في بدايـة هذا القـرن .. كان النبلاء يبولون . ويتغوّطون ، أثناءها ، في إحدى حجرات القصر .. في أوعية ، وآنية خزفيّة ، أو معدنية .. بلغ عددها المئات !!.. هل ذلك صحيح ؟

قهقه « الدوقا داوستي » على مهل .. وأجاب ..

ـ .. صغيرتي .. كانت تلك هي الحال ، في بيوت الجميع ، وخلال كل الحفلات .. حتى الحرب العالمية الأولى ! لكن ما أهمل « لامبادوزا » توصيله للقارىء .. هو تلك الرائحة الزكية .. التي كانت تندفّق على الحاضرين .. من تلك الغرف المليئة بمئات آنية البول .. والغائط !! وقد يطفح بعضهـا .. أو تندلق محتوياته على الأرض !! ان تلك الرائحة النتنة المروّعة .. لم تكن تمـلأ على الأوربيين بيوتهم ، وشوارعهم فحسب ، بل انها كانت تخيّم على المـدن ، تطفو فوقهـا !!.. حتى ان رائحة الغائط .. كانت تستقبل المسافرين وهمَ على بعد أميال من مدنٍ شهيرةٍ مثل باريز .. ولندن .. وغـيرها !!.. فما قـولك ؟!

ما كاد « أماديـو » يتوقف عن الكلام لأخـذ أنفاسه .. حتى سـألت « الماركيزا » ضيوفها في أدبٍ جـم ..

ـ هل نأخـذ القهوة .. في الداخل ؟

ونهضت .. تعلّق على قول ضيفها .. في لهجةٍ من لا يستغرب شيئا ..

ـ لقد كانت تلك الرائحة .. جزءاً من حياة السهرات الأوربية .. كرائحة

تعرّق الضيوف .. ورائحة الشموع المنيرة .. ورائحة الأقدام ! إنها الحياة .. فلماذا تترفّع عنهـا !!

مشى فراس برفقـة « بالومـا » نحـو الشـرفة .. يتبعان عددا من المدعوين .. على رأسهم الماركيزا « كولونا » ، و « الدوقا داوستي » ..

تنبّه الى إشارة « أماديو » حـول دور كبريات الأسـر الإسبانية ، في أمر تقمّص حضارة الأندلس .. ترى ، ماذا كان يعنيه من إشـارته تلك ؟! وهـل كان لحديثه صـلة ما .. بما سمعه من « يـان فراتيشيك » حـول أسرة « ألبـا » ؟!

عجّل في المسير ، حتى اقترب من الدوق « داوستي » ، وسأله في لهجةِ من لا يودّ لغيره فهم معنىً خفيٍّ ضمّنه سؤاله ..

ـ دون « أماديو » .. هل تعرف الكاردينال « بامفيلي » .. معرفة وثيقـة ؟

ارتسمت على وجه الدوق « داوستي » علامات ارتياح إنسان ، جـاءه أخيرا ، ما يؤكّد ظنّه ، وما يزيل جميع شكوكه !

همس في أذن فراس ، قائلاً ..

ـ أخـيراً !..

ثـمّ اطمأن الى أنّ أحداً لا يستطيع سماعه .. وتابع ..

ـ يسرّني أنك لجأت إليّ .. في نهاية الأمر !.. تربطني صداقة قديمة ، وطيـدة ، بالكاردينال « بامفيلي » !.. ولقـد أعنته على تحقيق الكثير من أهـدافه ! بل .. لقـد كانت لنا مشاريع مشتركة .. ما كانت لتنجح لـولا مساعدة أحـدنا .. للآخـر !..

اطمأن ، مرة ثانية ، الى أنّ أحـداً لا ينتبه الى حديثه .. ثم تابـع ..

ـ إنها لقضية خطيرة .. هذه التي أتت بك الى روما !.. ولقد أحسنتَ في إخفاء شخصيّتك !! لطالمـا أشرتُ على الكاردينال بحرقِ تلك الفهارس اللعينة !! لكنـه لم يستمع الى نصحي .. حتى أثبتت الأيـام صحّة رأيي ..

وسرق الفهرس !!.. إنه لأمر عجيب" حقاً !! ترى .. من الذي فطن لأمره بعد انقضاء أربعة أو خمسة قرون على إخفاء محتوياته ؟! ثم .. كيف تسرّب نبأ وجوده .. أو وجود محتوياته .. وهي في حرزٍ أمين ، مثل مكتبة الفاتيكان ؟! « دون ماكسيمليانو » !.. إن في الأمر لسراً يجب اكتشافه .. على عجل !.. بالمناسبة .. فلقد أطلعتني الكونتيسة « دل بيلار » على نبأ قدومك الى روما .. لكنها .. ثرثارة .. ويجب وضع حد" لإذاعتها هذا النبأ ! وإلا .. كيف نعمل بالسرّية المطلوبة ؟! يا إلهي .. تصوّر انكشاف أمر هذا الفهرس يوماً على الملأ!! إنها ستكون كارثة لأوربا..ما بعدها كارثة!!

ما لبث همسُ الدوقا « داوستي » أن لفت انتباه بقيّة المدعوين .. عمدوا الى تجاهله .. فتفرقوا عنه .. في أنحاء الشرفة ، تاركين « دون ماكسيمليانو » في خلوة محرجة مع محدثه ..

أطرق في صمتٍ ، خشي أن يطول .. خوفاً من سؤالٍ محرجٍ قد يلقيه عليه الدوقا « داوستي » .. فسأل ..

ــ وهل صحة الكاردينال .. على ما يرام .. هذه الأيام ؟

هزّ « أماديو » يده ، قائلا ..

ــ ليس ما يمنعه من مقابلتك .. إنه عليل ، لا يترك فراشه ، منذ أسابيع .. لكنها قضية نفسيّة ، على ما أظنّ .. لقد أصابه نبأ سرقة الفهرس في الصميم .. وليس هنالك ما سيُفرحه ، أكثر من نبأ وصول إنسان مثلك ، لمحاولة العثور عليه ، أو للاهتداء ، على الأقل ، الى هوّية الجهة التي قامت بسرقته !!

كانت أفكار فراس تتدافع في رأسه ، لا يعرف ماذا يلتقط منها .. كيف يرتّبها .. كيف يربطها بعضها ببعض .. أو إلامَ سيقوده ذلك الحديث المفاجىء !! هل كان الدوق « داوستي » يتكلم عن فهرسِ الكتبِ العربية ؟ عن الوريقات الباقية منه ، في حوزته ؟! لو أنّ الأمر كذلك ، لما تركت تلك الوريقات ، مهملة ، في صندوق « يان فراتيشيك » !.. لا .. لا شك أنه يتكلّم عن فهرسٍ آخر .. أو ربما .. عن النسخة الأصلية لفهرس « يان »!..

على أية حال .. لقد قادتــه المصادفات الى دائرة مثيرة ، مُغلقــة .. أُحكــم ختمها على بضعة أشخاص .. يخفون سراً خطيراً ، يتعلّق بأكثر الأمور أهمية في رأيــه !! وهــو ، حتى تلك اللحظة ، كانــت تكشف أمامه الحجب ، دون أيــة محاولة منه لإقحام نفسه عليها !! كل ذلك ، بسبب صدعٍ مفاجىء طرأ على عــرى تلك الدائرة !! لكنه خشي لسلسلةِ الأحداثِ المصادفة ، التــي قادتــه الى تلك اللحظة الحاسمة ، أن ينفرط عقــدها ، لسبب ما ، فيُقصى عنها .. وما من عاملٍ يستطيع أن يعيــده الى ثقــةِ هؤلاء الأشخاص ، أو الى دائرتهم ، إذا ما تطرّق الشك في أمــره الى ذهــن أحدهم !

أحسّ أن عليه أن يبادل مبادرة الدوق « داوستي » بمبادرة مماثلة .. تُكسبه المزيد من ثقتــه !.. أو على الأقل .. أن يتطوّع بتقديم دليــل ما ، مهما ضؤلت قيمته ، من شأنه دعــم ثقــة « أماديو » فيه !

سأل فراس « الدوقا داوستي » فجأة ..

ــ أليس من نسخة أخرى .. لدى الكاردينال ، للفهرس الذي سُرق ؟!

هــزّ « أماديو » رأسه نافياً .. وأجاب ..

ــ لا .. إنه لا يحتفظ إلاّ بما في رأسه من أسماء وأرقام ! حتى هذه .. فإن السنّ ، والزمان ، على وشك أن يمحو أثرهما من ذاكرته !

تمالك فراس شجاعته ، وقال في نبرة هادئة ..

ــ إن في حوزتي جزءاً من هذا الفهرس .. ربما سيسَرّ الكاردينال .. لسماع هذا النبأ !

التفت الدوقا « داوستي » فجأة نحوه .. ممسكاً بطرفي ذراعيه .. يشدّ عليهما في صمتٍ ، وتأثّر .. ثم قال ، والانفعال المكتوم بادٍ على وجهه ..

ــ لم يخطىء من لقّبكم في الماضي بسندِ الكنيسةِ الأولِ ، والأخير ! يا لكــم من أسرةٍ نبيلة .. بعيدة النظر !!

لاذَ الى الصمت برهة .. ثم تابع ..

ــ يا لكم من أسرة !.. إنكم تحتفظون ، فيأسرتكم ، بنسخةٍ خاصةٍ ..

تتناقلونها عبر القرون .. في سرية تامة !.. إن أسراركم لأشد مناعة من أسرارِ الفاتيكان !!

* * *

كانت « الفيلا لودوفيزي » تجمع في آن .. كلاً من عناصرِ الجمالِ الكلاسيكية ، في وجود الحديقة الرومانية القديمة ، المتّصلة بالدار ، بأعمدتها الأثرية المتفرّقة ، وفسقياتها الساكنة .. وعناصر الجمال الرومانسية .. المشتقة من مفاهيم روما البابويّة التي تعزلُ الحديقة عن قصور نبلائها المنيعة .. فتغدو أشبه بالقلاع ، منها ، ببيوت السكن ..

كنتَ في تلك الحديقة ، مُحاطاً بجوّ رومانيّ بديع .. هانئاً برموزِ الجمال ، وقد مدّها الإنسان الى الطبيعة التي لم تَعُدْ روما تخشى أخطارها ومفاجآتها .. وفي الوقت ذاته .. كنتَ بين أشجارٍ باسقة .. خيّم الليل عليها .. تُذكّرك بمكائد الملوك ! تنظر عبرها ، من بعيد ، الى نوافذِ بناءٍ تُحصّنه قضبان حديدية .. في وسعها أن تحيل القصر ، في لحظاتٍ ، الى قلعةٍ حصينة .. أو سجنٍ منيع !

كانت الماركيزا « كولونا » ، في ثوبها الوردي الهفهاف ، ذي عقدةِ الصدرِ العالية ، تبدو كـ « مدام ريكامييه » .. في لوحة « دافيد » .. تخطر بين مدعويها .. الذين تفرّقوا حول بحيرةٍ صغيرةٍ في الغاب .. تهمس لهذا .. تسامر ذاك .. يخفّ ندُلها إليها ، لدى إشارة طفيفة من أصابعها .. يسعون لإرضاء الضيوف .. ثم يعودون أدراجهم الى أماكنهم ، فيقفون فيها ، دون حراك .. كأنهم زينة أخرى من زينة القصر .. تماثيل شابة .. ذات لباسٍ أزرق وذهبي .. تكمّل صفّ تماثيلِ الحديقةِ الرخامية .. التي تعكس أجسادها العارية ضوء القمر ..

تقدّم « باتريس » من حيث جلس فراس ، و « شارل غوستاف » ..

اللذان أحاطا بـ « بالومـا » .. يرتّبان معها حفـلاً تنكرياً أزمـع فراس أن يقيمـه في سكنه ..

قال ، يشدّ على ذراع صديقه ..

ـ « مكسيم » .. أرجـو أن تكون قد سُـررت بهذه الدعـوة .. ما رأيك في خالتي ؟ أليست سيدة مدهشة ؟ انظر إليها ، كيف تمشي .. كأنها تسبح فوق سطح الغاب !

تبسّم فراس لصديقه الحميم ، وهزّ رأسه بالموافقة ، دون أن يتكلّم ..

عجب « باتريس » لصمته .. فألحّ بالسؤال ..

ـ هل بالغتُ في اطرائها ؟! بربّك ، أجب .. لقد حدثتُها طويلاً عنك .. وإني أتوق لمعرفة رأيك فيها ..

تنهّد فراس ، وقال متبسّماً ..

ـ ماذا أقول لك .. إني لا زلت أرى فيها الرمـز .. أكثر ممـا أرى الإنسانة .. ومن يدري ، لعلها رمزٌ ، أكثر منها واقعاً ، حيّاً !

ـ خالتي .. رمز ؟ يا لها من فكرة طريفة !

وهمّ « باتريس » بمناداة خالته .. فاستوقفه فراس ، قائلا ..

ـ ويحك .. ماذا تفعل ؟ إنما كنتُ أكلّمك على نهجٍ ما كنّا نفعـل سابقاً .. قبل زواجك ! ما لك تودّ إشراك خالتك في حديثنا ؟! وهل تظنّ أنّ قولي هذا سيروقها ؟ أيـن « باتريس » الماضي ؟! أراك يا عزيزي تقتـرب في طباعك الاجتماعية ، من زوجتك !

صُدم « باتريس » بما سمع. أطرق برهة.. ثم قال ، يُخفي امتعاضة..

ـ هذه عادتك !.. إنك دائم التقصّي .. دائم الجدّية !.. لا متّسع لديك للتسلية .. أو المزاح .. معي .. على الأقل !

تدخل « شارل غوستاف » ..

ـ إنك تعرف « مكسيم » .. أكثر مما أعرفـه .. ألا تذكره في الحيّ اللاتيني .. وقوله .. إن كلمة « مزاح » خطأ لغوي .. لا معنى له ؟!

قال فراس ، في بساطة ..

ـ إن الجديّة تقطر مما يسمّيه الناس مزاحاً .. وأنا ، أفضّل أن أسمّي الأمور ، بأسمائها الحقيقية !

كانت « بالوما » تستمع الى حوارِ الأصدقاء .. كأنها تتنصت خِفية الى حديثٍ لا شأن لها به ..

قالت ، متعجّبة ..

ـ غريبٌ شأنكم ! كل هذا اللّغط ، بسبب سؤالٍ بسيط ؟! لنعُدْ الى الأصل .. « دون ماكسيمليانو » .. ما رأيك في مضيفتنا ؟.. وما معنى قولك .. إنها رمز ؟!

ردّ فراس عليها ، في لهجةٍ هادئة ..

ـ إنها كقارب نوحٍ ، أوربي .. وعاءٌ .. « لاتيني » الأصل .. يحمل عاداتٍ وتقاليد عريقة .. يرجع تاريخ بعضها الى ألف عام ! قاربٌ .. محمل بالثمين والجميل من العادات والتحف الأوربية .. يمخر لججاً قد تأتي عليه ، في أية لحظة !

ـ قارب نوح !! هل هذا ذمّ ، أم إطراء ؟!

ـ في حالة « الماركيزا » .. إنه إطراء .. لا شك في ذلك ! فأسرة « كولونا » لم تعرف سوى الرفعة والسؤدد ، طوال ألف عام .. لذلك ، فإنه لمن الطبيعي أن يتناقل أفرادها ، ما جمعته ، عبر العصور ، من تقاليدٍ حضارية ! إنما الأسر .. في نظري .. كالجداول والأنهار .. منها الكبير ، ومنها ، من لا يتجاوز مساره جيلاً ، أو جيلين .. إنها .. كالأنهار .. تنقل ، في مجراها ، جميع ما يترسّب في مسارها .. صالحاً ، كان ذلك ، أم طالحاً !.. فإن كانت مسارات بعضها صالحة ، نقلت معها « الطمي » ، كالنيل .. والغذاء الحسن ! وإذا ساءت ، نقلت الوباء ، والأخبار ! كحال الشعوب المتخلّفة التي تنقل أَسرها الجهل ، من جيل ، الى جيل !

قالت « بالوما » ، في شيء من السخرية ..

ـ لم أكن أعرف أنك ملكيّ .. أكثر من الملك !

سخر فراس منها ، بدوره ، وقال ..

ـ .. إني لست ملكيّاً ، يا عزيزتي .. بل أنا ، على النقيض من ذلك ! فالملوك ، وأسرها ، لا تحمل دوماً خير ما وصلت إليه أمّة ما ، من عاداتٍ حضارية !! من الذي لا يعرف أن للحكم طرقاً ، وأساليباً ، قد لا تمتّ للحضارةِ بصلة ؟! إني أرى ، في كل بساطة ، أن حضارات الشعوب .. لا تنقلها الكتب .. بل يتناقلها الأفراد .. فيما يتوارثونه من عاداتٍ ومفاهيم إنسانية ، راقية ، متطوّرة !.. إنه أسلوب معيشتها .. يرث الأبناء عن آبائهم ما تسلكه الأمّة من سلوكٍ خاصٍ بظروفها ، وبيئتها ! وميزة « الماركيزا » ، في نظري ، لا علاقة لها باسم أسرتها ، وبلقبها .. بل تقع في تواصلها ، وفي ديمومتها ! لقد هيّأت الظروف لهذه الأسرة فرصاً متواصلة .. سمحت للقرون أن تتعاقب عليها ، دون أن تقع في العَوَزْ ! وسمحت لعاداتها أن تظلّ في حوزتها .. كإرثٍ عتيق .. كتمثالٍ قديم ، كلوحةٍ فنية .. تزايدت مع الزمان ، عبر تواتر الفرص ، فأضحت مجموعة من اللوحاتِ الفنية .. لا تزال حتى اليوم ، مِلكها .. وملك أمّتها !!

علّق « شارل غوستاف » ، مازحاً ..

ـ إن كلامك منطقي .. يذكّر بأبحاث « برودون » عن المُلكية الأولى .. والإرث ، الخ .. لكني لا أخفي عنك .. إني أشتم رائحة الارستقراطية في الخفاء .. وأنك تشدّ هذا النقاش لمصلحتها ! إذ ، ما إن نقبل بقولك هذا ، حتى نصل الى نتيجة أنّ ما من حضارة إلا وتدرّجت حسب قاعدةٍ هرميّة .. على رأسها ملك .. أي أن لا حضارة إلا بوجودِ الملكية .. وأن ما من طبقة مهيّأة لتناقلها ، إلا الطبقة المالكة !

ـ وما الذي يخيفك في استنتاجك هذا ؟! إن المُلكية ليست مقصورة على « الفيودالية » التي ذَكَرتْ ! هناك المُلكية الزراعية الصغيرة .. تعال معي الى القرى لأريك مُلكيات يعود تاريخها الى مئات السنين .. تركّزت

فيها ، وتعلّقت في فلكها ، أسر ، تحمل عاداتٍ وتقاليد ريفيّة قديمة ، ترجع أصولها الى قرون بعيدة من الزمان !

ضحكت « بالوما » .. وقالت ..

ـ بمعنى آخر ، إن الإنسان .. في هذا الخصوص .. وعاء يصبّ في وَلَده ، ما صبّه والده ومجتمعه ، فيه ! والحضارة ، هي الجيّد والمُركّز ، ممّا يبرز من هذا الإرث المتناقل ..

ـ بالضبط .. فالأسرة هي أول شروط هذا التناقل .. وأنا ، بالطبع ، لا أحصر عمليّة التناقل هذه ، في الأسرة فقط !.. فاليتيم الذي يهيم في الشارع ، لا بد أن ينقل ما يراه ، وما يسمعه .. وإذا أُدخل معاهد التعليم ، تأثّر وهضم ما لُقّن به .. لكنكِ ترين في مثل هذه الحال ، خطورة اليتيم المثقف ، على حضارة شعبه !.. فهو إنسان رهن ظروف دراسته ! ورهن مشيئة أولئك الذين يختارون له اسم المعهد ، ونوع الثقافة !!

أقبلت الماركيزا « كولونا » نحوهم تبتسم لهم .. تكاد تمشي على رؤوس أصابعها ، تشغل يديها بزهرةٍ بيضاء ، طويلة الساق ..

سألت ، في أسلوبها الودود ، المهذّب ..

ـ وما هذا الحديث .. الذي يشغل الشباب عنّا ، عن الكهول !

أجابها « باتريس » ..

ـ خالتي .. كنّا نتحدّث عن الحضارة ، ودور الأسرة فيها .. إن « مكسيم » يرى فيك ، الرمز الباقي ، لقاربِ الحضارة الأوربية عبر العصور !

حطّت « الماركيزا » ابتسامتها على فراس .. وعلّقت ، في لهجة من لا تنتظر لسؤالها جواباً ..

ـ إنه للطف زائد منه .. لكني .. لا أدري ما يجد عندي .. مما لا يحمله .. هو !

ســرّ « باتريس » أن تتبادل خالتــه و « مكسيم » ، ذلك الإطراء .. ولمّا شــرح لها وجهــة نظــر صديقه ، فيمــا قيــل .. تنهّدت ، في بعض الجدية وقالت ..

ـ إنه لمن المؤسف أن يتسرع السياسيون ، والمصلحون الاجتماعيون ، في محاربة الأسس العريقة التي قامت عليها مجتمعاتنا !.. لا شك عنــدي .. أن نظــام المِلْكية الخاصة ، غير عادل .. لكنه .. النظام القائم .. وإذا كنّا نتغذّى منه .. أو نسير عليــه .. فمــن الجنونِ محاولةُ قطعِ جذوره ، أو أغصانه قبل تطبيق غيره ! أنا أفهــم آراء المشرّعين .. الذين يحاولون قلــب النظام .. أو تبديله بنظامٍ آخر .. لا مِلْكية .. ولا قَبَلية فيــه !! أولئك مثاليون .. إنسانيون .. شعراء !.. أمّا هؤلاء الذين يقبلون بــه .. يقبلون بالمِلْكية الخاصة .. ثم يحاربون أجمــل أزهارها .. وأطيب ثمارها .. فإنهم حاقدون .. حاسدون .. ليس غير !!

افتقد فراس « بالوما » .. فطن الى أنها قد تسلّلت من ذلك الجمــع .. دون أن ينتبه الى غيابها أحد !

أحسّ بضربات قلبه تعلو ، دون أن يفهم لذلك سبباً .. وجال بناظريه ، يستطلع جوانب الحديقة المعتمة .. يتابع مسامرة مــن حوله .. وهــو ، في سرّه .. لا همّ له سوى العثور على خيالها بين جذوع الأشجار البعيدة !

أحس المدعوون بقشعريرة بردٍ مفاجئة .. تراكمت ، بعــدها ، سحبٌ كثيفة ، مضمّخة بعبــق الرطوبة ، والمطــر .. فقاموا .. يتمشون في اتجــاه القصر .. في حين همّ النُدُل بجمع ما تفرّق ، هنا وهناك ، من آنية ، وأثاث لا يتحمّل البلل ، تبعثر بعضه في جميع أنحــاء الغاب ..

انتهزها فراس فرصة ، فتشاغل برهــة ، ثم ابتعد عن بقيــة المدعوين ، يتمشّى في هدوء ، يبحث عن « بالوما » بعينيه .. ويحاول ألا يلفت انتبــاه غــيره الى حقيقة هــدفه ..

سرعان ما تعمّق في مسيره ، حتى كاد يبلغ السور الحجريّ الذي غلّف من الداخل بحزامٍ عريضٍ من النباتات المشذبة ، الكثيفة .. سورٌ نباتيّ ، موازٍ ، بدا في ظلامِ الليل كأنه جدارٌ داخليّ عريض .. يلاصق سورها الحجري ..

كانت عادة إيطالية قديمة ، تقضي أن تُقص الخمائل في الحدائق ، في شكلِ أقواسٍ ، وقببٍ ، ومغائر .. كأنها أعشاش لمخلوقاتٍ كبيرة ..

سمع أصواتا خفيفة ، أشبه بالهمس ، تنبعث من وسط الجدار النباتي العريض ، فتعجّب ، اذ لم يرَ خلفه ، مباشرة ، من فراغٍ ، يتّسع لغير سور الحديقة الحجري !..

مشى إزاءه برهة في الظلام ، يلامس بيده المفتوحة سطحه المورق .. يتعجب لما سمع ، الى أن وجد نفسه أمام فتحة ، بدت له ، كأنها مدخلٌ لنفق كان قد شُذّب وسط ذلك الحائط النباتي ..

ولج داخل عتمة الخميلة ، يعبر النفق ، يعلّل نفسه بأنه إنما يحتمي من زخّة مطرٍ خفيفةٍ كانت قد بدت بالهطول !.. لكنه ، تسلّل على رؤوس أصابعه ، في هدوءٍ وحذرٍ ، وقد شحذ أذنيه ، يتسقّط مصدر ما سمعه من همس .. يسعى نحوه .. يودّ مفاجأة غيره ، لا أن يُباغَتَ بهم !!

توقّف على بعد خطوات من حركةٍ بانت قُبالته .. تسمّر في مكانه . برهة طويلة ، سمع بعدها همساً مكتوماً ، لم يفهم دلالته !!

سمع صوت احتكاكِ عودِ ثقابٍ ، سطع بعده نوره البرتقالي ، بغتة ، لبرهةِ جزيئاتٍ من الثانية .. ثم عادالمكان ، الى ما كان عليه ، من ظلامٍ دامس !

طبع في ذهنه خيالات مما رأى .. ماذا رأى ؟!.. شخصين ، أم ثلاثة ؟.. ثلاثة.. بالتأكيد !.. ثلاثةٌ ، واقفون .. هل كان غيرهم .. على الأرض ؟!.. لم يعدْ يذكر !.. والواقفون ؟.. من هم ؟!.. جميعهم عراة .. أو أنصاف

عــراة !!.. الثلاثة متلاصقون .. لم يتبيّن لون شعر الفتاة .. كانت وسـط شابين .. مستسلمة لهما .. لا تبــدي حراكاً !

أحس بالــدم يعلو الى وجهه ، وسمع ضربات قلبه في صدغيه !!.. من تكون الفتاة ؟!.. لا .. لا يمكن أن تكون هي .. لا .. هــذا لا يمكن !!.. من تكون إذن ؟!.. إنــه لم يرَ شعراً أشقر .. لعلهــا إحدى المدعوات .. أو فتــاة من شغّالات القصر !.. والشابان ؟!.. هــل كانــا من النـُدُل ؟!.. لا شــك في ذلك !

تذكّر وهج نورِ عودِ الكبريت على أجسادهما الشابة .. المتوترة !!..

ماذا يفعــل ؟!.. ماذا يفعل ؟!

أحس فجأة بلمسٍ خفيفٍ على جسده !!.. يدٌ تتجوّل على ساقيه .. كأنها آتية من جسمٍ مستلقٍ ، أو متربّعٍ على الأرض !!.. ثم أحس باليــد الأخرى تفتح أزرار بنطالــه !!

لم يفاجئه ما رأى منــذ لحظات ، قدر ما باغته ، أنه قد وجــد نفسه ، بغتة ، وإثر ملامسةِ ذلك الشخصِ المجهول ، جــزءاً مما يحــدث ، دون أن يبادر ، للمشاركة في ذلك !!

هل شاء أن يتحرك ؟!.. هل شاء أن يتملّص ؟.. ولم يقوَ على قطــعِ ما انتابه من إحساسٍ بالخــدر ، لدى ملامسة الشفاه المجهولة ما تعرّى من جسده ؟!.. هل شــاء أن يتقدم ، ليشارك ، فيما بقي في ذهنــه ، من صورةِ الأشخاصِ الثلاثة الذين ما زالوا على خطواتٍ منه ؟!

فطن الى أنه كان مع رابعهم !!.. حرّك يديه ، أمام ساقيه ، يبغي ملامسة الرأس الذي انهمك في إثارة جسده !.. لامس بشرة ناعمة .. ثم شعراً طويلاً أملس .. تتبع امتداده .. وطوله ، واذا به ينساب على ظهرٍ ، أملس ، عارٍ !!

لم يشأ أن يتعرّف ، أكثر من ذلــك !.. لم يشأ أن يزيــد من مقــدار تأكــده ، ولا أن يقلّل منه !!

غمره إحساسٌ عجيبٌ بأنه في حلمٍ ، وانه تحت تأثير مخدّر فعّال !!..

كان مع من يشتهيها ، دون أن يكون !.. يلامس رأسها .. جبينها ، وخدّيها ، وعنقها .. في الواقع ، كأنه يفعل ذلك في الخفاء !.. يقوم بما يشتهي .. كيفما شـاء ، دون أن يكون لما يقوم به من رديفٍ واقعي .. أو لذلك الرأس ، من وجودٍ إنساني حقيقي !!.. يستقلّ بالمتعة ، مع إنسانةٍ ، معروفةٍ ، مجهولة .. وفي الوقت ذاتـه ، يرى ، في ذهنه ، ما يقوم بـه الأشخاص الثلاثة ، ويحس بوجودهم ، كأنه يشعّ بحرارة أجسادٍ ذات وجوه ، لا معالم لها !!

ما أمتع لـذة الشفاه المجهولة !!.. وما أقـوى سحر يـدٍ خفيّـة ، تلامس جسده في الظـلام !!

ما إن بلغ نشوته ، حتى تبدّل جميع ما حوله .. وخبا سحره .. في نفس الصمت ، والابهـام ، اللذان كان قـد ابتدأ بهما تلك الرحلة الى الظـلام والمجهول !

عاد أدراجه ، عبر النفق المظلم ، وخرج منه ، ليتلقّف وابلاً من زخّاتِ المطـر ، احتمى منها ، تحت شجرةٍ كثيفة .. تمهّل برهة ، يستجمع كامـل حضور ذهنه ، وقواه ، ثـم أسرع راكضاً نحو القصر الذي لم يكـن ليبدو منـه ، في ذلك الظـلام ، سوى فتحات نوافـذه .. ينبعث منها نورٌ برتقالي خـافت ..

لم يلحظ « بالومـا » بين الحاضرين ، ولم يسـعَ للبحث عنهـا ! تهيّأ بعضهم لوداع « الماركيزا » ، فتذرّع بما أصابـه من بلل .. يستأذن ، هـو الآخر ، بالانصراف ، شاكراً لطف دعوتها .. وكان « شارل غوستاف » ينتظر مثل ذاك المسوّغ ، لينصرف الى موعدٍ ليليٍّ متأخر ..

تردد طويلا ، ثم سـأل صديقه ، في شرود ..

ــ لم أشاهد « بالوما » .. ونحن خارجون .. هل شاهدتها .. أنت ؟

ــ كانت بيننا ، ثم افتقدناها ، برهـة قصيرة .. أظن أنهـا كانت تصلح زينتها ، عنـد انصرافنا ..

صمت فراس .. لكن محرّضاً داخلياً دفعه الى متابعة ما يتقصّى خبره ، فسأل ..

ــ هــل كانت مبلّلة بالمطــر ؟

ــ متى ؟.. ماذا تعني ؟

ــ لدى مشاهدتك لهــا .. آخر مرة !.. هــل تظن أنهــا كانت .. في الغاب ؟.. وقت هطول المطــر ؟!

هــزّ « شارل غوستاف » كتفه عجباً .. وأجاب ، في شرود ..

ــ لستُ أدري .. ثم ، لستُ أفهــم معنى لهذه الأسئلة .. على أيــة حال .. عندي مفاجأة لك..نخبر" ، سيدهشك..هل تعلم من سأقابل هذه الليلة؟

ــ حبيبة جــديدة ؟!

ــ جديدة ، قديمة ، لم أعد أدري .. إنها « ليزا » ! هل تصدّق ذلك ؟!

تعجّب فراس لمــا سمع .. أنساه ذلك تساؤلاته عــن « بالومــا » .. فأرجــأها لوقت آخــر .. وأنصت لحديث صديقه ، يروي لــه قصة لقــائه « بليزا » ، صباح ذلك اليوم ، في مقهى « دوناتي » في « الفيافينيتو » ، ومــا روته له ، من أخبــار مدهشة !

ــ تقول إنهــا تعرفنا ، منذ زمن بعيد !

قطّب فراس حاجبيه ، متعجباً .. فتابع «شارل غوستاف» .. متبسّماً ..

ــ يظهر أنهــا كانت في لنــدن ، في الشتاء الماضي ، وكانت ترتاد ملهى « التشرتشل » مع صديقٍ لها .. زمن كنّا نرتاده ، نحن .. هل تذكر ؟

ــ ولِم لَمْ تخبرني بذلك .. يوم لقائنــا ؟!

ــ وهل وُجــد من يفهم المــرأة ؟!

تمهّل فراس ، ثم ســأل صديقه ، في حــذر ..

ــ هل تنوي إقامــة علاقة .. حميمة ، معهــا ؟!

ضحك « شــارل » .. وأجــاب ..

ـ كأن ذلك لا يتوقف إلا على نواياي !.. أنا ، يا صديقي ، من جهتي ، لا أمانع في ذلك!!.. بقي أن نعرف ما تهدف إليه .. هي !..

هـز ّ فراس رأسه ، في شرود .. وقـال ..

ـ ما رأيك لو أتيتَ بهـا الى سكني .. هذا إذا لم يكن في نيتك أن تختلي بهـا .. هذه الليـلة ..

ـ فكـرة رائعـة !.. انهـا الثانية عشرة الآن .. سنكون عنـدك في الواحدة .. وإلا ، فلا داعي للانتظار ..

* * *

الفصل التاسع

ترك فراس سيارة صديقه ، عند الباب الخارجي للسور المحيط بسكنه . وآثر الترجّل ، عبر دروب الغاب ، الى داره ..

كانت حُبيْبات الأمطار التي توقفت عن الهطول ، لآلىء مشكوكة ، لا تزال عالقة على أوراق الأسجار الباسقة الكثيفة .. تتساقط بين الفينة والأخرى ، على دربٍ محجّرة ، تنيرها مصابيح خافتة ، متباعدة ، تضفي عليها رهبة هادئة عجيبة !

توضّح في ذهنه خاطرٌ لم يكن قد تنبّه إليه من قبل !.. ما أشد ارتباط الغرب ، بالغابات ، والأمطار ، وبما يتراءى للانسان من أشباحٍ ، ومخلوقات سحرية عجيبة .. يخلقها الضباب ، وجذوع الأشجار ، في ظلمة الليل البهيم !

كانت السحب السوداء قد رحلت مسرعة ، مخلّفة وراءها سحباً فضيّة عالية .. تسبح في هدوء ..

تبدّلت أجواء الغاب فجأة .. وزال الإحساس بالرهبة المعتمة .. والخوف مما يمكنه الخروج من وراء الأشجار ، بغتة ، من مخلوقاتٍ رهيبة !.. حلّ مكان الرهبة ، فرحٌ بسحرِ إشراقةٍ فضيّة .. تنبىء بوجودِ جنيّات يتمشين ، عاريات .. يتلقّفن على أيديهن الناصعة البياض ، ما يتساقط من لؤلؤ شكّ على أوراق الشجر !

ألهذا خلق الغرب آلهة ، مقطّبة ، للزوابع والقتال ، وأخرى ، رائعة الجمال ، للنّيل ، والصيد .. والحب .. والجمال ؟!

هـذا الضباب الذي يلتف ويتلوى حول جذوع الشجر .. ترى ، منذ أية عهود سحيقة ، حفر في مخيلة الإنسان الغربي ، صوراً مجسدة عن القوى الإلهية ؟.. اقترنت بها ، ثم توحدت معها .. حتى بات لا يرى « زويس » .. و « أبولو » .. و « فينوس » ، إلا عبر تماثيل، نحتهالها . وصار ، حتى في القرن العشرين ، لا يقوى على تخيل القدرة الإلهية ، إلا عبر هذه التماثيل نفسها .. والتصور الحسي ذاته .. ولو تبدلت الأسماء ، واختلفت الصور !

عاد الى خاطره ما جرى له ، تلك الليلة ، في حديقة «الفيللا لودوفيزي» .. وتلاشى من ذهنه كل معنى جنسي لتلك التجربة !.. ماذا ؟.. ألم يكن يشارك أشخاصاً مجهولين ، في طقوس غريبة لا يعرف اسماً لها ؟!.. يعود تاريخها الى آلاف السنين ؟!.. ألم تكن ، تلك ، الامتداد المباشر للطقوس الوثنية التي عرفت بها أوربا .. والتي انقلبت عليها الكنيسة ، فاشتطت في محاربتها ، حتى كادت تحرم الجنس نفسه على الانسان الاوربي ؟!.. لقد كان إنساناً ، في تلك اللحظة ، لحظة مارس تلك الطقوس .. ذلك أمر لا شك فيه .. لكنه كان إنساناً غربياً ، يتجاوب مع ضبابها .. يجري لقاحاً غامضاً في رهبة الليل .. فوق أرض تسطع بلغز نور قمرها الفضي المهيب !

ما الذي دفع الإنسان الغربي للثورة على واقعه الغريزي ، فانقلب على الجنس ، في محاولة يائسة للتخلص من جذوره الطبيعية ؟!.. وماذا عن الشرق ؟.. أليس الانسان فيه جزءاً من أرضه كذلك ؟!.. بلى .. لكنه جزء من أرض سما عنها .. أرض ، لا ديمومة فوقها للنباتات ، بطحالبها .. والأشباح ، بأشكالها البشرية الآلهية ..

* * *

كانت عادة « مارتشيللو » ابن الطاهية ، انتظار عودة سيده لقضاء آخر حاجاته ، قبل النوم .. يستقبله ، في ود ظاهر .. يساعده على خلع ملابسه ، يعتني في ترتيبها .. يحضر له شراباً ساخناً .. يكلمه بلهجة « الروماناتنشو »

العاميــة ، الطريفة ، يروي له ، أحيــاناً ، حوادث وأخبــار « تراستيفيري » المثيرة ، الخطــرة .. ولا يترك جانبَ فراشه ، الا حين يتيقّن من أن النعاس قــد دبّ في عينيه ..

عجب فراس ، إذ رأى « مارتشيللو » على الباب ، في ثيابِ الخِدْمــة الرسميّة .. يتحرك في مكانه ، ويفرك كفّيه ، في قلقٍ ظاهر !

هرع لملاقاة سيّده ، وقال ، على عجــل ..

ــ سيدي !.. إن في الدار فتاة .. في انتظارك .. تقول إنها على معرفــة وثيقة بك !.. وصلت منذ حين .. ولم ..

ــ ومن تكون .. ما اسمها ؟

ــ لم تدلِ باسمها !.. لكنها حسنة المظهر ، والثياب .. لم أجــدْ بــداً من إدخالها .. ريثما تعــود ..

بهت ، إذ وجــد « بالومــا » .. مستلقية على مقعد عريض ، في قاعــة الدار ، تنصت الى موسيقى هــادئة .. وتنقــل ناظريها بين حمــرة الستائر القرمزية ، الشاهقة الارتفاع ، وبياض التمثال الرخامي ، للفتاة العارية ..

تقــدّم منها .. يكتم انفعاله .. يدرك أن تلك الفتاة أصابت من نفسه موضعاً رخصاً ، لا يحسن حمايته ..

ارتسمت على وجهها ابتسامة قلقة ، تخفي وراءها نزقاً مكتوماً ! قالت ..

ــ يجب أن يكون هنالك مَنْ ينــذر الناس .. ضدّ خطــر تعارفها بعضها ببعض !

ــ تنذرهم ؟ أم تنبئهم .. بما سيكون بينهم ؟!

هــزّت كتفها ، ساخرة .. وأجابت ..

ــ وماذا يجدي النبــأ ؟! على الإنسان أن يُنذَر ضدّ ما ينافي راحته الداخلية .. كي يتجنّبه ، أو يستعدّ لمحاربته !!

رفع فراس حاجبيه ، تعجّباً .. وقال ، يصطنع الهدوء ، واللامبالاة ..

ــ ولِمَ الحــرب !.. والاستعداد .. والإنذار ؟!.. إنك منفعــلة !.. اهــدئي أولا .. وسترين أن لا لزوم لجميع ما تقولين ..

زاد قوله في نزقها .. فنهضت ، وتراجعت في جلستها ، حتى استقرت في زاوية المقعد العريض .. تمدّ ذراعيها على طرفيه .. تتمسك بهما .. ثم أفلتت يديها ، تهزّهما في انفعالٍ وتحدٍّ .. وقالت ، في نزقٍ شديد ..

ــ إني ، إذن ، مضطربة ! تعال ! تعال !.. هدّئني ! إنك .. بالطبع .. تمتلك الدواء الشافي !!.. هل تتعرّى ؟ هنا ؟! أم ننتظر انصراف خادمك ؟!

تسارعت أفكار فراس ، وتضاربت في رأسه !.. هل كانت « بالومـا » تلك ، حقاً ، في نفقِ الخميلة .. منذ ساعاتٍ ، أو أقل ؟! .. أم هـل توهّم ذلك ؟! وإذا لم تكن ، هي ، تلك الجنيّة ذات الشعر الطويل .. التي نبعـت من الأرض وسحرته بمداعبتها في الظلام .. فمن تكون ، تلك ؟!

راح يحـدّق في وجهها .. يجري يديه ، في خيـاله ، على تقاطيعها التي لامسها في الظلام ، يحاول تعرّفها من جديد !!.. هل لامسها ، حقاً ؟!.. كان في بادىء الأمر ، يداعب فكرةَ مفاتحتها بما جـرى ، فما إن تسرّب شـكٌ حقيقي الى نفسه ، حتى بات على بعد أميالٍ وأميالٍ ، من ثقته الأولى بنفسه ، ومن إحساسٍ سابقٍ ، حميم ، بأنه بات يعرفها عن قرب !

تمالك نفسه ، وأجـاب في هـدوء ..

ــ أنـا لم أقترح دواء ما ، بالتحـديد !.. ثم .. إني لا أمتلك أسماء الأدوية اللازمة لمثل هـذه الحالات !

تمالكت « بالوما » نفسها ، بدورها .. رفعت ذراعيها تأخذ نفساً عميقاً ، ثـم أصلحت في انسياب خصلات شعرها .. قـالت .. وقـد خافتت مـن نبـرة صوتهـا ..

ــ هـل لي بكأس ؟!..

ثم تبسّمت في كآبـة .. وتابعت ..

ــ .. لست أدري ولست أفهم .. ماذا ينتابني ، من وقت لآخر .. لعلها الأسفار المتتالية .. والحياة في روما .. ونظرات الناس أمثال «الدوقا داوستي» الشبقة ، المتهالكة .. واستحالة الانسجامِ مع ما تشتهيه المـرأة ، من أمثالِ ذلك النـادل !!

تلفّتت حولها .. وأضافت ، تبحث عن « مارتشيللو » ..

ـ أو .. أمثال .. ما اسمه .. خادمك ، ذاك ؟!

ـ .. أليس من حـل ّ وســط ؟

عادت الى نزقها السابق ، وأجابت ..

ـ .. إني لستُ من دُعاة الحلولِ الوسط !! .. أم إنك لم تفطن الى ذلك بعــد ؟!.. ثم ، أين تعيش أنت .. بربّك ؟!.. وفي أي عصر ؟!.. أم أن صورة المــرأة الاسبانية ، أو الأندلسية ، العــربية الأصل ، عالقة أبــداً في ذهنك ؟!.. تظن ّ أنها ستتهالك بين ذراعي أول « فحل » .. يصادفها .. لمجرد أنّ له عضواً كبير الحجم ؟!

بهت فراس لمــا يتجاذب « بالوما » من مرارة غاضبة ، وكآبة ساكنة ، حــائرة !..

لم يفهم سبب التفاوت الكبير بين هاتين الحالتين .. و لاسبب ما تُشعره به من إقبالٍ عليه .. ورفضٍ لــه !

تعجّب للفارق الكبير بين « بالومــا » .. الجالسة أمامه ، في تحفّــز ، وغضب ، وبين تلك التي جلست وحيدة على حــافة الشرفة ، منذ ساعات .. تسامر ضوء القمر !.. تذكّرها .. أثنــاء العزف .. وتنبّه الى أنهــا ، حتى آنــذاك ، كانت تمور بين هــاتين الحالتين ، وهي تحتضن القيثار ، فتستنطق منه ، تــارة ، هــدوء وسكينة الموسيقى الكلاسيكية ، وتارة أخرى ، حرقة غضب ألحان « الفلامينكو » الساخطة !

ناولها كأساً ، وقال مازحاً ، وهو يصب ّ فيها الشراب ..

ـ هو ّني عليك ! إنها شد ّة طارئة .. لن تلبث أن تزول !

تبسمت ، هي الأخرى ، تتمالك نفسها ، وتسخر منها ..

ـ إن ّ الأمر سهل عليك .. أن تلعب دور الإنسان الهادىء المتماسك ! انظر إليك .. الى بيتك هذا .. الى هذه « الخيمة السحرية » .. وسط جنونِ

وتطاحن الحياة في روما !! عزيزي .. إنك لأسطورة ! فهل يؤخذ على الأسطورة غرابتها .. أو شططها ، في مدى بعدها عن الواقع ؟!

أجابها .. في هدوء ..

ـ قد يكون الأمر على ما تقولين ! لكن .. تصوري .. حين شاهدتك على حافة تلك الشرفة .. كنت أحس بأني ، أنا الواقع .. وأني كنت أقف .. في تلك اللحظة ، أمام الأسطورة !

تعطفت ملامحها .. وقالت ، في هدوء ..

ـ هل تهتم بعلم النفس ؟ أعني .. جدياً ..

وحينما هز رأسه ، بالإيجاب .. تابعت ..

ـ .. يقال إن التي على مثل حالتي .. عليها أن تتهيأ ، جنسياً ، مع « زيد » ، من الناس ، ثم تمارس الجنس ، مع « عمرو » !.. لكني أرفض ذلك ! بودي لو أكتفي بإنسان واحد ! ليتني أجد إنساناً واحداً يكفيني عن كل من « زيد » و « عمرو » !

ـ هل جال في ذهنك .. أنك تقبلين بمثل هذه الفرضيات ، بدأ من مسلمات تقبلينها عن نفسك ، وإنها قد لا تكون صحيحة ؟!

ـ ماذا تعني ؟!

ـ تقولين « من على مثل حالتي » .. فما حالتك هذه ؟ هل تشخيصك لحالتك ، في الأصل ، لا يحتمل الخطأ ؟! إنك ترفضين صورة معينة للنساء ، في ذهنك ، تلقيتها « حالة المرأة الأندلسية ، التي هي من أصل عربي » .. فما أدراك ، أن تكوني في الواقع مثل هذه المرأة ؟!

ـ هل تعني أني « أمثل » دور المرأة الأوربية المتحررة ؟ وأتعب في حل تناقضات .. لا تخصني ؟

ـ لا أقول بأنك تقومين بذلك ، وأنت واعية لما تفعلين ! إن ظواهر التناقض بادية في قلق تصرفاتك . فلا بد أن يكون لهذه الظواهر من جذور !

نهضت « بالوما » وتمشت نحو مائدة الشراب الصغيرة ، تملأ كأسها .. وقالت ، في لهجة هازئة .. متعجبة ..

ــ وأين تقــع جذور التناقض هذه .. في ظنّك ؟!
ــ إنها .. حرب الأندلس ، مع الشمال ! ثقافة شمالية دخيلة .. لا علاقة لهــا مــع جــذور واقــع الجنوب الاجتماعي ، الــذي تعــود أصوله الى قــرونٍ بعيــدة !!
قهقهت « بالومــا » عاليــاً .. وقالت ، متسلّية ..
ــ أنا ، إذن ، عربيّة الأصل ، مسلمة !!
ــ رغــم عقيدتك الظاهرة .. وجميع ما قــد تمتلكينه من أيقونــات مقدّسة .. وصلبان !!
التبس الأمــر على « بالومــا » ! بــان على وجههــا حذرُ مَنْ لَمْ تفهــم القصد الذي قد يختفي وراء ما قيل لهــا !.. أحسَّت أنّ ما ابتــدأ على أنه حديثٌ اجتماعي مثقّف .. قد أخذ فجأةً منعطفاً خطــراً .. ذكَّرها بما قرأته عن أساليب محاكم التفتيش !
حيّرها أنّ « دون ماكسيميليانو » ، في كل ما وجّهه إليها من اتهاماتٍ خطيرة ، كان دائم الابتسام .. لم يَبدِ على معالم وجهه أيــة صرامة تذكر !.. وأنه ، حتى في نبرة صوته ، لم يغيّر من ودّه الظاهــر ، وما كأنّه يُقوّض ، من تحت قدميها ، عقيدة كاثوليكية أكيدة ، وأصلاً شمالياً ، يفاخر به جميــع مَنْ عرفتهم من شيوخ أسرتها العريقة ..
لم تفهــم قصده .. لذلك ، لم تكاشفه بما ترى من تطرّف في آرائه .. نَفَتْ ، بحركةٍ من أصابعها الدقيقة ، المرهفة ، جميــع ما سمعته .. وقالت ، وقد وجدت في التجاهل خير سبيل للخروج مما كــاد يقودها إليــه مثل ذلك الحديث ، من مآزق ..
ــ عربيّة ، في ظنّك ، أو لا .. فأنا « بالومــا » التي أعرفهــا أنا !.. وهذا هو الأهــم ! وهــذه « البالومــا » .. « السراسانية » المتخفّية .. أو الـ « Morisqua » .. التائهة .. لا تزال على نقمتهــا .. تعيش في عالــمٍ لا يثير شهوتها فيــه ، إلاّ أمثال « مارتشيللو »!.. ولا يعرف من يحدّثهــا ، إلاّ أمثال الدوقا « داوستي » !!

بدّل فراس شريط الحاكي ، بآخر ، عليه موسيقى لـ « سكريابين » ..

ثم نادى « مارتشيللو » الذي خفّ لدى سماع صوت سيده ، يرفع خصلة من شعره الأسود الكثيف ، كانت دائمة التهدّل على جبينه ..

كان الشاب ، حسن الطلعة ، مستطيل الوجه ، قوي العنق ، والبنية .. عريض المنكبين .. وقف في شيء من الارتباك ، ينتظر أوامر سيده ، وقد أطال النظر اليه .. التفت فراس الى « بالوما » برهة .. ثم الى « مارتشيللو » .. وقال على عجلٍ ..

ــ أريد منكَ مساعدتي في إزاحة ذاك الصندوق .. هذا ، إذا كان ذلك في استطاعتك ! تعيده الى مكانه الأول ، تحت النافذة مباشرة .. هنا !

وجلس في مقعده العريض ذي مسند الظهر العالي .. يوجّه « مارتشيللو » .. ويراقب نظرات « بالوما » ، من طرفٍ خفي ..

سعى الشاب ، في بادىء الأمر ، الى تنفيذ ما طُلب منه ، دون بذل جهدٍ ظاهرٍ ، يضطره لتبديل مظهره الخارجي ، وحركاته المضبوطة المدروسة ! حاول شدّ الصندوق الى الموضع المطلوب ، ثمّ دفعه .. من الطرف المقابل ، دون جدوى .. فراح يُعيد المحاولات .. يزيد من الطاقة المبذولة .. في كل مرة ، يكرّر الشدّ ، والدفع ، من زوايا مختلفة .. يحتقن وجهه .. يغطّي شعره جبهته المقطّبة ، حتى بدأ يتعرّق ، ويظهر البلل ، دوائر ، بدأت تتسع تحت إبطيه ..

كانت « بالوما » تجلس في أناقةٍ ، والكأس في وضعٍ ثابت ، قرب شفتيها ..

قالت لفراس ، تخفي ابتسامة لطيفة .. لخبيثة ..

ــ إن هذا الشاب سوف يسبح بعرقه .. بعد لحظات !.. لماذا لا يخلع سترته هذه ؟!

كان « مارتشيللو » يرتدي سترة العمل الرسمية الصفراء .. المخططة .. ذات الأكمام السوداء .. التي هي في الوقت ذاته قميص عادي ، وسترة

خارجية .. سمع اقتراح السيدة .. فتوقف ، يلتقط أنفاسه .. ينظر الى سيّده .. ينتظر رأيه ..

هزّ فراس رأسه بالموافقة .. لحظات ، وكان « مارتشيللو » قد خلع سترته ، ووضعها جانباً ، ثم وقف ، عاري الصدر والجذع ، في عفوية أي شابٍ إيطالي ، نشأ في مدينة تقدّس الجسد الانساني ، تفاخر بما نحتت له ، عبر الأجيال ، من تماثيل رائعة ، تعوّد أطفالها رؤية جميع أعضائها العارية ، لا في المتاحف فقط ، بل على نواصي الشوارع ، وفي الحدائق ، ومعظم أماكنها العامة ..

رفعت « بالوما » حاجبيها إعجاباً بما تكشّف أمام عينيها فجأة من جذع « مارتشيللو » الرياضي ، الفتي ، ذي البشرة الصافية الملساء !

كان الشاب قد عاد الى محاولاته الجادة المرهِقة .. يبالغ في إظهارها .. لا يعرف كيف يتمكن من صندوقٍ عريض ، طويل ، لا يزيد ارتفاعه عن علوّ ركبته .. غرزت قاعدته الملساء في السجادة .. جلس القرفصاء ، وبذل غاية ما في طاقته في دفعةٍ ، انزلقت لها قدمه ، فكاد وجهه أن يرتطم بالصندوق ، ويصاب بالأذى !

غضب من حذائه اللامع الذي سبّب له الارتباك ! لحظاتٍ ، خلع خلالها حذاءه ، وجوربيه ، وعاد الى دفعٍ مرهقٍ ، نجح بعده أخيراً في زحزحة الصندوق بضع أصابع عن موضعه ..

قالت « بالوما » في لهجة فرنسية أنيقة ..

ــ لا بأس به البتة !.. إن له قدمين إغريقيتي المقاييس !.. ونظيفتي الأصابع !.. لا بأس !.. إن صغيرك لتحفة مخبّأة ، يا عزيزي !

ثم كتمت ضحكة خفيفة .. وتابعت ..

ــ إنْ أخَذَه مزيد من الحماسة ، فسوف يخلع البنطال !

حدّق فراس في عينيها .. وقال ، في تحدّ ..

ــ وهل تودّين ذلك ؟!.. هل أطلب منه أن يخلع البنطال ؟!

صمتت برهة ، ثم بادلته نظراته ، بمثلها .. وأجابت في تأنّي من يكتم امتعاضه ..

ــ .. تقول ذلك ، وكأنك واثق من استجابته لجميع رغباتك !.. وهل تضمن أنه سينفّذ طلبك ؟!.. هل تتذرع بي ، لتصل الى أمرٍ تريده .. لنفسك ؟!

أطلقت ذلك ، كمن تنفي عن نفسها تهمة باطلة ، تردّ هجوماً ، بهجوم آخر .. ثم صمتت برهة ، تنبهت خلالها الى نفسها .. وتذكرت أنها هي التي ، في الأصل ، خصّت الشاب بالاهتمام ، وان « ماكسيميليانو » ، في تلبيته لرغباتها الدفينة ، قد لا يكون وراء إنسانٍ سواها !

تنهّدت .. وقالت في حيرةٍ ، وقنوط ..

ــ اعذرني .. أرجوك !.. ها أنت ترى ، بنفسك ، ما يعتريني من تناقض !.. ما إن أواجَه بحقيقة رغباتي ، حتى أنقلب عليها !.. ما إن أراها في العراء .. حتى أهرب منها !.. وأحارب من يشير اليها .. مشكلتي ، هي أني لا أقبل ،أو لا أستطيع الاقتراب من أمثالِ هذا الشاب ، إلا في الظلام !!

كان « مارتشيللو » ما يزال واقفاً بينهما ، عاري الجذع والقدمين ينصت الى حديثهما بالفرنسية ، لا يدري ماذا يفعل !.. وكان لا بد لفراس من إيجاد مخرجٍ طبيعي ، لما بدأه .. فأشار على « مارتشيللو » بتحريك الصندوق ، بعد تفريغه من محتوياته .. مما أدهش الشاب ! فنظر الى سيده ، في إعجاب زائد .. يتحسّر لأنه لم يفطن الى ذلك الرأي بنفسه !.. ثم جلس على الأرض ، بين « بالوما » ، المضطجعة على مقعدها الوثير ، العريض .. وسيده المستندِ الى مقعده العالي المهيب ، يُفرّغ الصندوق .. يُخرج محتوياته منه ، كتاباً ، كتاباً .. هانئاً ، بما يقوم به .. يخطف النظر ، بين الفينة

والأخرى ، الى ساقي « بالومـا » .. في إعجابٍ .. ثم يعود ليلحظ فخـذي سيّده ، في تساؤلٍ .. يحاول التنبؤ بما سيتمّ عليه ذلك اللقاء !

* * *

سرعان ما سمع هدير محرك سيارةٍ ، تقترب من بعيد ، توقفت أمـام الدار .. ثم علا صوت جرس الباب ، اليدوي ، القديم ..

نهض « مارتشيللو » مسرعاً ، ثم تنبّه الى وضعه ، فجمع سترته وحذاءه بيده ، وهرع نحو الباب يفتحه ، بيده الأخرى .. ليستقبل «شارل غوستاف» صديق سيده .. وسيدة جميلة ، في رفقته .. تبيّن له أن اسمها « ليزا » ..

كان قسمٌ من كُتب الصندوق ما يزال على الأرض .. فلمّا لم يشر إليه سيده بمتابعة عمله .. عاد الى المطبخ ممتعضاً ، يرتدي ثيابه في هدوء ، يصلح هندامه من جـديد ، يُعيد غرّته السوداء الى مكانها .. ويعير أذنـاً صاغية الى ما يدور بين المدعوين ، في الردهـة ، يَلعن المصادفات التي أعـادته الى المطبخ ، بدل ما كان فيه من موضعٍ أثير !

سمع « شارل غوستاف » يقول لسيّده ، متعجباً ..

ــ ومنذ متى .. يقوم « مارتشيللو » بأعماله .. نصف عارٍ من الثياب ؟!

ثم صوتاً نسائياً ، لعلّه صوت السيدة « بالوما » .. يقول ..

ــ ليتها تغدو عادة بين جميع المستخدمين .. الذكور ، والشباب منهم .. على الأقـل !

ــ ولماذا لا يشمل ذلك الفتيات .. كذلك ؟!

ــ سمعتُ أنهم يقومون بذلك ، في بعض السهرات .. يتجوّل النـدُل بين الضيوف .. فتيـات كانوا ، أم شباباً ، بستراتهم الرسمية ، وأحذيتهم ، دون بنطال .. أو أي شيء .. ممّا يستر عوراتهم !.. على عكس ما كان فيـه « مارتشيللو » تماماً .. منذ لحظات !

واذا بصوت نسائي ، لـم يميّز صاحبته ، يضحك ، ويقـول .. وقـد خفّض من نبرتـه ..

ـ « دون ماكسيمليانو » .. هـل تمانع في قيام « مارتشيللو » بهـذا الدور ، في سهرة كهـذه ؟!

ـ إن « مارتشيللو » لا يضع عورتـه تحت تصرفي ، كي أكشفها ، أو أسترها ، كما أريـد !.. إنه ذو كرامة ، وعنفوان !

ـ بالطبع .. بالطبع .. إنما كنت أمـزح ..

تعجّب « مارتشيللو » لما سمع من قول المرأة ، وردّ سيده عليهـا !.. ما أسخفها ! وهل هو دمية آلية ، كي يتجوّل بين رهطٍ من الناس ، مهما علا شأنهم ، دون بنطال ، أو سروالٍ داخلي ؟!.. وهل تظن أنه لم يلحظ شهوتها ، في نظراتها ؟!.. ليتهـا تأتي الى الدار ، دون أن يكون سيّده فيها !!.. كي يذيقها طعـم ما تشتهيه !!.. ليتفنّن في مضاجعتها ، بـل .. سيجعلها ، هي ، تتجوّل في الدار ، دون ثوب أو سروال !.. وسيجلس، هو ، في مقعد سيّده ، يتأملهـا ، وهي تهـزّ ردفيها !!

سره أن يردّ سيده عليها بما قال .. لقد أفهمها أن « مارتشيللو » ، وإن يكـن ابن طاهية ، إلا أنه « رجـل » حـرٌ ، لا تدخل رجولته في سـوق المساومة !!.. طغى عليه شعور بالمحبة والامتنان لسيّده .. وأحسّ أنه قادر على تلبية أي طلبٍ لـه .. مهما يكن !

سـمع صوت الضيفة الجديدة تتساءل عن سبب طول غيابه .. هـو .. وتطلب فنجـاناً من القهوة .. ثـم صوت السيدة « بالوما » تقـول للدون « ماكسيمليانو » بأنهـا ستحضّرها بنفسها .. وأدرك أنهـا لا بد ستدخل المطبخ ، في أيـة لحظة !

طـرأت له فكرة غريبة ، وجـد نفسه ينفذها ، دون تفكير !

أدار مفتاح النور ، فخيّم الظلام على المطبخ !.. ثم أرخى بنطاله ، ووقف ينتظر القادمة ، في هياجٍ ، ويده على المفتاح ، كي يمنع القادمة من إضاءتـه من جـديد !

لحظـات ، وكانت « بالومـا » داخـل المطبخ ، تبحث بناظريها عـن « مارتشيللو » ، عبر ما تسرّب الى المكان من نور الردهة الخافـت ، وحينما طالعها ما رأته من خياله العاري ، وقفت مبهوتة ، تتلمّس الباب خلفَ ظهرهـا كي تقفـله !

قامت بذلك ، واجفة ، مرتجفة .. ثم تقدّمت منه في سكون !!

ما طال غياب « بالومـا » أكثر من دقائق معدودات .. خرجت بعـدها بلا قهوة ، شاردة الذهن ، محتقنة الوجه .. واتجهت مباشرة نحو باب غرفةٍ ، خيّل إليها أنهـا غرفة المنامة ..

قالت ، ويدها على جبينها ..

ـ دون « ماكسيميليانو » !.. لقـد أصابني دوار طارىء في المطبخ .. هل أستطيع الاستلقاء في غرفتك .. برهـة قصيرة ؟!

خفّ فراس لمساعدتها ، وأسرع نحوها ، يقودها الى غرفته ..

ما إن صارا داخل الغرفة ، حتى قالت ، في وهنٍ ، ورجـاء ..

ـ أرجوك .. لا تشعل النور .. دعني أستلقي على الفراش .. وأمسكت بيده ، تشدها الى صدرها ، في شهوة محمومة !!

لحظات .. وراح فراس يحقق ما اشتهاه منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناه على خيالها ، في ضوءِ القمـر !!

* * *

جال في ذهن فراس ، وهو في شبه صحو من نومه ، أن « بالوما » همست له عن موعدِ لقاء ، قبل أن تسبقه الى النهوض من فراشه !

تنبّه الى أن الوقت لا بـد قد تقدّم في النهار ، رغم عتمة غرفته ، ذات الستائر الكثيفة .. فمـدّ يده ، يقرع الجرس ، إيذاناً لـ « مارتشيللو » بـأن يحضّر له قهـوة الصباح ..

صحا ، مرة ثانية ، على صوت الشاب ، يسأله في مودّة زائـدة ، ما إذا

كان يودّ منــه أن يدلّك جسمه .. فتبسّم له بالإيجاب ، واستسلم لمتعــة يديه القويتين ، تعيدان لجسمه حركته ، ونشاطه ..

سأل فراس ، في كسل .. كأنــه يسترجع ساعات الهناء التي قضاها في الليــلة الفائتة !

ــ متى غادرت السيدة « بالومــا » الدار ؟

ــ في التاسعة ، يا سيدي .. نحن الآن في الواحدة ظهرا ..

ــ و « الكونت دو بروفانس » ؟.. ورفيقته ؟.. متى ذهبا ؟!

قهقه « مارتشيللو » !!.. في صوتٍ خافت .. وقال ..

ــ حوالي الرابعة صباحاً .. ولقــد أمضيا وقتاً ممتعاً ، قبل مغادرتهما الـــدار !

دمدم فراس ، في لهجةٍ حاول أن يدخل عليها نبرة التأنيب ..

ــ .. وهل كنتَ تسترق النظر اليهما ؟.. إن هذا لأمــر معيب ..

أجــاب « مارتشيللو » ، في براءةٍ واضحة ..

ــ وماذا كان باستطاعتي أن أفعل .. بعد الحالة التي تركَتْني عليهــا السيدة « بالومــا » ؟!

أحسّ فراس كأنه أصيب بوخزٍ مؤلمٍ شديد ، تقلّصت له أحشاؤه !

حاول استرجاع تفاصيل حوادث البارحة ، وقد تنبّه ذهنه لما سمع ..

تمهّل في سؤاله .. يصطنع اللامبالاة .. يودّ معرفة تفاصيل ما خفي عنه..

ــ وماذا جرى لك معها .. بالضبط ؟!.. ألم يكن ذلك من حسن طالعك ؟

ــ سيدي !.. ليتك شاهدت وجههــا ، كيف تقلّص ، وهي تراني دون سروال ، في عتمة المطبخ !.. أنا .. لم أتحرّك من مكاني !.. لــم يكن الذنب ذنبي !.. سمعتُ صوتها ، يقول لك .. إنها تودّ أن تراني على تلك الحالة .. فلبّيت مطلبها !.. لا بد أنهــا ظنّت نفسها في حلمٍ !.. لا شك في ذلك !!.. وإنني كنت تمثالا ، لا رَغبات له ، ولا مزاجاً خاصاً به !.. فانقضّت عــليّ ، بكلتي يديها ..وبشفتيها .. حتى كدت أجن !!.. يا لها من مجنونة !!.. ثــم

توقّفت .. فجأة !! وتركتني في مكاني ، كأنها لا تعرفني البتة !! وانصرفَتْ إليك !!.. يا لغرابـة طبع النساء !!

كان « مارتشيللو » قد زاد من شدة التدليك ، وهو يسرد روايته ، حتى كاد يؤلم سيده .. فتناهض فراس ، يشير إليه بالتوقّف ، وبفَتْح الستائر .. ثـم قـال ..

ـ و « الكونت دو بروفانس » ؟

كان لنهوض سيده من فراشه ، ما أعـاد الحياء الى وجهـه .. فقـال مترددا .. لا يستطيع التراجع عما اعترف بـه ..

ـ لقد راقبتهما .. برهة وجيزة .. فقط !.. كنت في حالة هياجٍ زائد .. وهل من إنسان يقوى على ردع نفسه .. وهو على تلك الحـالة ؟!

كان « مارتشيللو » قد كشف الستائر عن النوافذ العريضة التي تفصل غرفة النوم عن أشجار الغاب الكثيفة .. فأردف ، وقد أزال ضوء النهار ماكان يحس بـه من إلفة تجـاه سيده ..

ـ سيدي ، لقـد أعدنا ترتيب الكتب في الصندوق ، على ما تريده ..

ـ ماذا تعني بقولك أعـدنا .. ومن عمـل معك ؟!.. أليست والدتك في إجـازةٍ يوم الأحـد ؟!

ـ بلى .. لكن السيدة « ليـزا » عملت معي على ترتيبها .. بـل إنهـا أصرّت على ذلك .. قبل انصرافها ..

انهمك في جمـع ما ترامى من ثياب سيده ، على الأرض .. وترتيبهـا ، وتصفيفها في الخزانـة .. ثم قـال ..

ـ لقد أبدت السيدة « ليزا » اهتماماً بالغاً بما وجدته من بين بعضهـا : تصوّر يا سيّدي .. كان الكونت « دو بروفانس » يقبّلها ، وهي ، في بعض الأحيان ، شاردةعنه .. تنظر الى ما ترامى منها على الأرض !.. فكنتُ أضحك في سرّي مما أشاهده ، من فتحـة باب المطبخ !!

ثـم استدرك قائلا ..

ـ .. كان ذلك قبل أن تتعاون على اعادة ترتيبها في الصندوق !.. ولقد دوّنَتْ بعض أسماء الكتب في مفكرتها !.. رأيتها تفعل ذلك ، وهي ما تزال عـارية ، حين أغفى « الكونت ذو بروفانس » ، لبرهة قصيرة !!

صمت هنيهة .. ثم تراجع ، وكان قد همّ بمغادرة الغرفة ..

ـ سيدي .. لقد أتى لك رسولٌ ، برزمة صحفٍ ، ومجلات أجنبية .. هل آتيك بهـا ؟

ـ ومتى أتى بهـا ؟.. عجّل .. آتني بهـا !

كانت تلك الرزمة المنتظرة من قِبَل عثمان .. تضمنت ، بين صفحاتها ، عـدداً من الأوراق .. فيها لائحة مفصّلة بجميع مواصفاتِ جمـلةِ أنواعِ الأسـلحة والآلات الألكترونية ، التي قَبِلَ فـراس التوسّط في شرائها ، لحساب صديقـه ..

* * *

الفصل العاشر

بدا لفراس أن في وصول تلك الرزمة ، إيذناً له بأنّ فترة اللهو الصرف ، وزمن المتعة التي لا تحرّضها إلا الرغبة الخالصة في السعي وراءها .. زمـان" قد انقضى .. وحلّ محلّه ، أو تبدّى ، الى جانبه ، عنصر " آخر في حياته .. هدف" ، لا يصل الإنسان إليه ، بعد اجتياز شوطٍ من المصاعبِ ، يتعب من دونها ، أو يجهد في تخطّيها ، ثم يستريح .. بل هدف" ، هو ، في آن ، الطريق والهدف !.. دربه شـاق .. ومعالجةٌ مصاعبهِ ، أحجية" ، مرهقة الحـلّ .. ووصول الإنسان الى غايته فيه ، يخلق بدوره مشكلة في حـدّ ذاتها .. كأن الانسان في هذا المجال الخطر ، على دربٍ دائري ، لا أول ، ولا آخر له !

بادر في الحال الى استشارة « شارل غوستاف » .. وكان هذا قد وافق على مساعدته .. وقرر الإثنان ، باديء ذي بدء ، أن يلجأ « شارل » ، بمفرده ، لنصيحةصديقٍ له ، « سويدي » الأصل .. رجل أعمال معروف ، على علاقة وثيقـة بمعامل الأسلحة ، في « السويد » ، وبمعـامل الآلات الألكترونية ، الدقيقة الصنع ، في اليابـان ..

مرّت فترة انتظار كان لا يدري فراس خلالها ، ما إذا كان قد بدأ العمل فعـلاً ، في هذا المجال الجديد ، أم أنه حـلم بقيامه بذلك !.. فهو لم يألف قط ، عمـلاً ، يغرق الانسان في همومه ، وهواجسه .. ولا يأخذ من وقتـه الحقيقي ، إلا زمن محـادثةٍ هاتفيةٍ ، لوكيلٍ ما ، كل بضعة أيام .. أو مـن

لقـاءٍ عابرٍ مع إنسان غريب .. من فترة الى أخرى !.. لا يجري خلاله سوى تبـادلٍ ، مقتضبٍ ، لبعض المعلوماتِ الهامـة !

كان السر ، كل السر ، مكثّفاً ، مدوّناً على تلك اللائحة التي أخفـاها عثمان في رزمـة الصحف .. فما يكـاد الراغب في محتوياتها يتهيّأ للشراء ، وتتوافر لديه القدرة المالية اللازمة ، حتى يُصبح إيجاد البائع ، أمراً لا يحتاج إلا لبعض الوقت ، والكثير من السرّية والتخفّي !.. تسبح أو تطير ، صور" منسوخة" لتلك اللائحة ، بين مدنٍ وأقطارٍ كثيرة .. تتنقّل فيهـا من عميل الى آخر ، من معمل الى آخر .. يضيف هؤلاء ، جميعاً ، عمولاتهم ، الى الثمن الأصلي .. فما إن تتـم الدائرة ، ويعود العرض الى صاحبه حتى ينوء ، في بعض الأحيان ، بحمل ثمنه المرتفع !.. فإن تراجع عن الشراء .. أُقصي ، هو ، ومن عمل لمصلحته ، من عملاء ووسطاء ، عن دائرة تلك التجارة المختـارة !.. أما اذا أكمل الشوط ، وقام بشراء ما طلب ، فُتحت له أبواب المعامل ، وأُخطر كبـارُ رؤساء البنوك ، في سويسرا ، عن المقدرة المالية للوافـد الجـديد ، الى عالم المال ، والسلاح .. ورشّح ، بذلك ، لعضوية نادي أنصاف الآلهة !

كان فراس يحتاج الى التداول مع عثمان ، من وقت الى آخر ، لدراسة عروضِ الأسعار ، أو لمناقشة بعض أمـور الشحن ، فيما لو تمّ الاتفاق بين هـذه الجهة أو تلك .. يضطر للجلوس إليه ، ومحادثته .. وأصبحت تلـك اللقاءات ، في ذاتهـا ، صعوبة أخـرى ، يقتضي تخطّيها ، نهـاراً بكامله .. يركب فراس الى موعده ، عدداً من وسائل النقل .. يُبدي بالغ الحذر من أن يكون في إثره أحد .. يتوثّب من أي احتكاكٍ بإنسانٍ غـريب .. يتوجّس من أيـة إشارةٍ تثير الشك في نفسه ، وقد يعود إثرها أدراجه ، يرجع مـن حيث أتى ، مؤثراً إلغـاء الموعد ، وتكرار المحاولة على المثابرة فيها ، والمضيّ في طـريقه الى عثمان ، رغم ما ثار في نفسه من شكوك !

لجأ الى الحيطة ، في البـدء ، بل الى الإمعان فيها !.. وهو مرتاح" الى ذلك ، يعلم أن الحرص ، إنما يجنّبه مخاطر طالما حذّره منها عثمان .. لكـن

الحيطة ، سرعان ما أصبحت هاجساً ، في حـد ّ ذاته ، بات يُشعره بالتقصير أو بالذنب ، إذا ما هو تلكّأ فيه ، يسأل « شارل غوستاف » أن يكون علـى مثلِ حذره ، ويثور في وجه صديقه إذا أحس منه إهمالاً ، أو عـدم اكتراث لـمـا بات يراه أمـراً غاية في الأهمية !

كان « شـارل غوستاف » يتقبّل فورات صديقـه ، بصـدرٍ رحب ، يفهم دوافعه ، وينظر عبرها الى صداقتهما القديمة الوطيدة .. لكنّـه ما لبث أن أدرك أن صديقه يخفي من أسباب نزقه ، أكثر مما بات يقبـل الشرح أو التعليل ، من دوافعَ مباشرة !.. كأن الأمـر لم يعـد يتعلّق بحيثيات عملهما المشترك ، بقـدر ما بات يمس ّ القضية بمجملها !

فاتحه في هذا الشأن ، وكانا يتنزهان في ساحة هضبة الـ « جيانيكولو » التي تشرف على بقيـة هضاب رومـا .. وأصر ّ على طلب الجواب .. حتى ردّه فـراس ، سادراً .. مؤثراً مكاشفة صديقه حقيقة ما بنفسه ، فلا يتركـه في شـكّ قـد يؤثّر في عملهما ..

— إنها « بالومـا » .. يا « شـارل » .. وليس العمل ، أو مخاطـر العمل !.. إنها مصيبتي !.. لم أعـد أدري ماذا يجري لي معها !

فوجىء « شارل غوستاف » بما سمع .. وتريّث ، ينتظر قول فراس .. فتابع هـذا .. شـارد اللب ..

— .. ولا تنتظر مني ، اليوم ، الكثير ، حول هـذا الصدد .. فأنـا ، ذاتي ، لا أعرف أيـة دروب أراني أطرق معهـا !.. ولا ما إذا كنت ممسكاً بزمـام الأمـور !

— كنت أتوقع أن يحصل لك مثل هذا .. أن تمر ّ بمثل هذه التجربة .. لكني ظننتك ستسعَد لهذا الشعور .. مع إنسانة على مثل شفافية « بالوما » !

هـز ّ فراس رأسـه حيرة ً ، لا يعرف كيف يشرح تناقضات الفتـاة ،

دون أن يرسم لهـا صورة ، سوف تبدو لصديقه ، معقّدة ، قبيحه ، مهمـا جهـد في تهذيبهـا !

كيف يبرر لـه ذاك التضارب الكبـير في شخصيّتها ، وتلك العوامـل المتناقضة التي تحرّك دوافعها الجنسية !.. ثم .. وبعـد كل هـذا .. كيف يفسّر له ، أنها لا تغيب عن ذهنه ، لحظـة واحدة ، منـذ رآها أول مرة .. وأنـه ، كلما أغمض عينيه ، رأى نفسه مُطبقاً على شفتيها ، يداعب نهديهـا وجسدها ، وانتابته شـهوة عارمـة ، يتسارع لهـا نبضه ، يحسّ بضربات قلبـه ، تعلو ، فيسمع صداها في صدغيه !

جـاءه صوت صديقه ، يسأله ، في تمهّل ..

ــ هل أنت مغرمٌ بها ، الى هـذا الحد ؟.. هل تحبها ؟

أجاب فراس ، في صوتٍ يكتم مـرارة المقهور على أمـره ..

ــ إني أشتهيها .. كما لم أشته إنسانة بعـد !

ضحك « شارل » .. متسلّيا ، وأجاب في ترفّع ..

ــ كنتَ تقول في الماضي ، « إن الحب ، شهوةٌ طويلة .. والشهوة ، حبٌ قصـير » !.. فأيـة مرحلة تراك تجتاز اليوم ؟.. هل شهوتك هـذه ، حُبّ ؟!.. أم هل حُبك يتبدّى لحواسك على شكل شهوة ؟!

ــ دعـك من المزاح !.. أرجـوك !.. كنتَ تبحث عـن سببٍ لنزقي وعصبيّتي .. تظن أن السبب يتعلق بنوعية ما نحن فيه ، من أعمال .. فـلم أكد أُطلعك على حقيقة مشاعري ، حتى أدرت الموضوع الى مزاحٍ ثقيل !

ــ هوّن عليك .. ولا تدع العصبيّة تنتابك ، من جديد !.. كل ما في الأمـر ، هو أني سُررت لما سمعت !.. عـزيزي ، مهما أتعبك حبّك .. أو شهوتك « لبالوما » .. وبإمكانك أن تسمّي الموضوع كما تشاء ، فإنها لـن تتجاوز كونها قضية عاطفية ، بينك وبين فتاة من أسرة نبيلة إسبانية ! تصوّر الأمر ، لو أنـه يتعلق بـ « ليزا » !

علّـق ، فراس في شرود ..

ـ صحيح .. صحيح .
ثم تنبّه ، وسـأل فجـأة
ـ و « ليزا » !.. ماذا حـل بها ؟.. هل تلقاها ؟
ـ آه .. « ليزا » « ليزا » ماذا أخبرك عنهـا !
نظـر فراس الى صديقه ، متعجّباً .. وسـأله ..
ـ وهل في الأمر جديد .. على هذه الدرجة من الغرابة ؟!
ـ .. لا أظن أنها سوف تنسى إهمالك لها .. لكنها تبدو لي كأنها تناست علاقتها بك !.. جمّدتها !.. وأبعدتها عن طريق حياتها اليومية !
ـ بالطبع .. وإلا كيف تبتدىء علاقـة جـديدة .. معـك ؟!
علّـق « شارل غوستاف » مؤيداً ..

ـ جديدة ، وجديّة ، في الوقت ذاته !.. لكن الطريف في الأمـر .. هو قولها ، إنهـا تعرفنا من قبل !.. قبل لقائنا الأول في « البياتزا نافوتا » !!.. والتأكيد على ذلك .. كأنما لتستقي من تلك المعرفة السابقة ، هالة من الثقة ، تضفيها على علاقتنا !.. تلك الثقة التي تتولّد عن الصداقة القديمة !.. إنهـا لا تكف عن السؤال عن هـذا ، وذاك ، من معارفنا .. كأنها تسبُر مـدى سـعة اتصالاتي !

ـ إذن .. إن هـدفها واضح .. ومرتبط بعملها !
تململ « شارل غوستاف » .. غير مقتنع ، تماماً ، بوجهة نظر صديقه .. وقـال في حـيرة ..
ـ لا أظن أننـا على الخطّ الصحيح في تقـديرنا لأهدافها البعيدة .. هـذا .. إذا كانت لهـا أهداف بعيدة !

تعجّب فراس لميل صديقه المفاجىء لتبرئة « ليزا » من أي قصدٍ خفيّ ، يرتبط بعملها !.. وكان على وشك إبـداء رأيه ، حين تذكّر ما وصفه لـه خادمه ، من اهتمامها بالمخطوطات التي في مسكنه

قـال « شارل غوستاف » في لهجةٍ من يتساءل ، ولا تنقصه مقـدرة الاجـابة ..

ــ .. عزيزي .. وهـل كل موظّف ، أو موظّفة ، في سفارة ما ، هـو بالضرورة جاسوسٌ لتلك السفارة ؟!

لم يجـد فراس بـدأ من إجـابة هازئة ..

ــ أنت تتكلّم عن السفارة الإسرائيلية !.. أم هل نسيت ذلك ؟!

ــ أعرف .. أعرف ذلك .. لكن « ليزا » امرأة .. وكونها تعمل في تلك السفارة لا ينفي أنهـا امرأة أوربية ، عزباء .. قـد تكون لا تطمح إلا الى الزواج ، خـارج دائرة قومها ، ودينهـا !

فغـر فراس عينيه دهشة ، وصـاح ..

ــ أنت ؟! .. « شـارل غوستاف ؟! كونت دو بروفانس » و « ليزا » الفتاة التي التقطناها من « البياتزا نافوتا » ؟!!

لم يكن « شارل غوستاف » يعني نفسه ، حين أشار الى حاجة « ليزا » المحتملة ، للزواج .. وما كان يظن أن هنالك انساناً يمكن أن يربط بينه وبين فتاة مثل « ليزا » .. في مثل هذا الرباط الشخصي الحميم !.. أحسّ بوخـز في كرامته لـا سمعه من صديقه .. وأدرك في الوقت ذاته أن صديقه ما كان ليقفـز الى مثل ذلك الاستنتاج ، ويستنكره ، بتلك الشدة .. لولا دفاعـه ، هو ، عن « ليزا » ومحاولة إيجاد مثل تلك المبررات الواهية ، لعلاقته بها !

أجـاب فجأة .. كمن أسقط في يـده ..

ــ « مكسيم » !.. هل أصابني .. ما أصابك ؟! هل أُعاني .. بصـدد « ليزا » ، ما تعانيه أنت ، تجـاه « بالوما » ؟!.. هل يعقل أن أهوى فتـاة ، على مثل خفّتها ؟!.. وبعدَ الذي كان لها ، معك ؟!

سـأل فراس ، مستغرباً ..

ــ وهل أنا حجر العثرة الوحيد ؟!.. ثم لماذا هذا الربط بين حالتينا ؟.. هل يخفّف ذلك من وطأة إحساسك بالذنب ؟!

ـ أي إحساس بالذنب ، هذا ؟!.. أنا لا أحس بالذنب أو ما شـابه .. قدر إحساسي بالضياع التام ، إزاء من أعرفهن من نساء !.. لم أعـد أدري ما إذا كان العيب في ثقافتي ، وتربيتي .. أم أنـه في نمطِ تربيةٍ ، وثقـافةِ جيل الشباب ، والفتيات ، من أمثال « ليزا » !.. ماذا تظن ؟.. « مكسيم » .. هل أنا رومانسي الى هـذا الحد ؟.. وإن كنت كذلك .. فكيف تثيرني فتـاة مثل « ليزا »؟!.. أتعامى عن عدم اهتمامها بشخصي !.. أتعامى عن دوافعها !.. وأشتهيها !.. وأندفع وراء شهوتي .. كأن إهمالها ، هذا ، لا يزيد من شهوتي إلا احتـداما ؟!.. ولا تذكّرني « مكسيم » .. بما كنّـا نعيشه في الحي اللاتيني ، من شبه إباحية ، وتخبّط جنسيّ .. فذلك كان زمن المراهقة ، أو الشباب الأول ، وكنّا ، جميعاً ، نفكّر ونتحرّك كأننا نقوم بأدوار تمثيلية ، من مسرحيةٍ رائعة ، كتبها عبقريٌ مجهول !.. أدوار لم نكن ندري من الذي لقّننا إياهـا !

ـ تقوم اننا كنا نمثّل ؟!.. هل كنتَ تمثّل .. أنت ؟!

ـ دعك من التجاهل ؟.. إن معظم الناس يمثّلون أدوارهم .. سـواء عاشوا في الحي اللاتيني ، أم في غـيره .. والفارق الوحيد بين أهـل الحي ، وغيرهم .. هو أن أدوار شباب الحي ، أكثر طرافة ، وجدّة .. بل أعمق معاناة !

حـدّق فراس في عينيه ، وسـأله فجأة ..

ـ وأنا .. يا « شارل » .. هل أنا أمثّل ؟!.. هل كنت إذ ذاك ، أمثّل ؟!

تبسّم « شارل غوستاف » لصديقه في مودّة ..

ـ .. صديقي .. أنت لا « تمثّل » دوراً في الحياة .. إنك المسرح نفسه !!

ضحك فراس لقوله .. وأجـاب ..

ـ ها أنت ذا تساق وراء مواهبك الأدبية !.. هل نسيتَ ما كنّا فيه ؟! « ليزا » ؟!.. ماذا أنت فاعـل بشأنها ؟!

ـ وماذا أنت فاعل .. بشأن « بالومـا » ؟!

ضحك الاثنان ، لما وجـدا نفسيهما فيه ، من مأزقين متشابهين ، فقال « شارل غوستاف » وقد أحس ببردٍ مفاجيء ..

ــ نعود أولا الى السيارة .. ثم الى داري .. أبدّل فيها ملابس الصباح هذه ، ثم يتصل كل منا بفتاته .. فنخرج معاً ، نقضي السهرة في مكان ما !

جهـد فراس ، وهما في طريقهما الى دار « شارل غوستاف » أن يعيـد النظر ، ولو ذهنياً ، بعلاقته بـ « بالوما » .. يبسط الأمور ، يكرر على نفسه أنهـا مجرّد علاقة جنسية ، مهما عظمت شـهوته لها ، فهي لا بـد ستضمر وتزول .. شـأن جيع العلاقات المماثلة ..

راح يناقش معرفته البسيطة بها .. وقصر أمـد تلك العلاقة .. يراهـا من منظار مشاغله البالغة الأهمية ، وضمن أفقِ معارفه الحميمة ، العديدة .. فلا يفهم كيف احتلّت ، مثل تلك الفتاة ، من ذهنه ، ذاك المكان الكبـير .. ويتعجّب من مدى تمكّنها منه ، رغم رفضه ، في قرارته ، لهـا .. ونبذه لمـا يدفعها للقيـام بتلك التصرفات الغريبة !

تنبّه الى أن صديقه يسلك دربـاً بعيدة عن طريق داره !.. ثم أدرك أن « شارل غوستاف » شاردٌ بدوره .. سابحٌ ، في تأملاته !.. يقـود سيارته على غير هدى ، في دروب روما القديمة الأليفة ..

قال لـه ، منبّهـاً ..

ــ سوف يضطرنا شرودك هذا ، للّف حول « الكولوسيو * » !

وراح يتأمـل للمرة الألف ، ذلك الصرح الروماني المهيب ، بجـدرانه الشاهقة ، ومئات أقواسه العالية .. بدت في الليـل كفتحاتٍ سوداء ، تخفي وراءها عالمـاً مجهولاً مخيفـاً !

كانت الطريق الأساسية العريضة التي تقود الى ملعب « الكولوسيو » ، مسدودة بحواجز خشبية ، عريضة ، تحمي حفرياتٍ ، أو إصلاحاتٍ ، يقوم

* ملعب روماني قديم ، اشتهر بألعاب المصارعة القاسية التي كانت تجري على ساحته أمام عشرات الوف المشاهدين .

بهـا العمال أثناء النهار .. مما منع عنه حشود السياح الذين تعودوا التحلّق حوله ليلا ، نهاراً .. يشاهدون فيه أكبر مسرحٍ في التاريخ لألعاب القـوى والموت !.. ويسمعون عنه ما يردّده المختصون ، مما لفّقته الكنيسة ، حول وحشية تاريخه الوثني ، مما جعله في نظـر الجميع ، مذبحاً ، كأنه لم يُبْنَ ، إلا لإراقة دمـاء القديسين !

قال فراس ، يسأل صديقه على عجـل ..

ـ أليست تلك سيارة « بالومـا » .. هنـاك .. الواقفة قرب الحاجز الخشـبي ؟!

ليس مـن السهل تعرّف سيارة ما ، ضمن ألوف السيارات التي تمـلأ طرقات رومـا ، على الدوام !.. لكن « بالومـا » كانت تملك سيارة أنيقة ، مكشوفة ، حمراء ، من صنعٍ بريطاني ، وذات لوحة بريطانية يسهل تمييزها !

قال « شارل غوستاف » .. سـادراً ..

ـ ماذاتراها تفعـل في « الكولوسيو » .. في مثل هذا الوقت ، وهـو ليس وقتاً مخصّصاً لارتياد السيّاح ؟!.. لعلها ترافق زائراً ..

ثم استدرك قـائلا ..

ـ لكن .. أي زائرٍ يدخل « الكولوسيو » !!.. في مثل هـذه الساعة المظلمة ؟!.. إن من يفعـل ذلك يقامر بحياتـه !.. « مكسيم » .. ماذا أنت فاعل ؟!.. ألم تسمع عمن قتلوا ، أو سرقوا وهم داخله أثناء الليل ؟!

أجـابه فراس ، في هـدوء وتصميم ..

ـ أرجوك ، هلا انتظرتني لحظة ، ريثما أستكشف الأمر ؟!

توقفت سيارة « شـارل » قرب سيارة « بالوما » ..

ترجّل فراس ، ثم تخطّى الحاجز الخشبي .. وراح يجـول بناظريه ، بين عشرات الأقواس التي حملت جـدرانه الشاهقة .. يختار منها ، أقلّهـا ظلمـة .. وأكثرها أماناً ، ليدخلها ، بحثـاً عن « بالوما » ، في ذلك التيـه ، الخطـر ، المخيف !

لحظات ، وكانَ قد تخطّى إحدى الأقواس ، وصار في ممرٍ مظــلمٍ ، أسرع الخطى ، يعبره ، يتّجه ، نحــو قوس أخرى فيه ، ليخرج منهــا الى بعض ما تسرّب من وهجِ أنوار المدينة ..

غابت أصوات السيارات ، وخرج من القوس الثانية الى ممرّ جديد ، أقلّ عتمة من الممر الأول ، يحيط بفناء الملعب الشاسع ، البيضوي الشكل .. وينفتح عليــه ، عبر أقواس جديدة ، ضيّقة ، تطــلّ فتحاتها على المدرج ، وأرض الفناء الذي سُرقت أحجاره ، ورخامه ، فبان ما تحته من جميع دروب الأقبية المتعرجة ، كانت تُقاد الحيوانات الكاسرة عبرها ، لتباغت الجمهور ، فتظهر فجأة أمامه ، وتتقاتل تحت أنظار سبعين ألفاً من المتفرّجين !

لم يكــن فراس قد دخــل « الكولوسيو » من قبــل ، في تلك الساعة المتأخّرة .. لعله أُخذ ، لبرهةٍ وجيزةٍ ، برهبة المكان ، فراح يتأمل ما حوله ، كأنما نسي ما جــاء من أجــله !

تنبّه الى ظــلالٍ تسبح على أرض الممر .. سرعان ما فطن الى أنهــا ظلال أناسٍ متخفّين .. ينتقلون في حــذرٍ وصمت ، بين خبــايا المكان .. يتوقّفون ، من حين الى آخر ، فيغيبون في ظلمةِ عشراتِ الأعمدة ، والصخور الكبيرة ، وزوايا ، وخبايا ذلك التيــه الكبير !

كيف يجــد « بالوما » بين هؤلاء ؟!.. ولماذا تيقّن أنها لا بد واحــدة من تلك الأشباح المتنقّلة في الظــلام ؟!

كان قلبه يطرق بشدّة .. أحسّ أن أطرافه قد انتابها الصقيع !

تذكّر حديقة « الفيللا لودوفيزي » .. ووحشة النفق الذي دخله ، في جدارها النباتي !.. فأحسّ أنــه ، بالمقارنة مع ذلك المكان ، كان ، في تلــك الحديقة ، كأنه في أمان بتيه !.. وبدا له ذلك النفق النباتي ، المعتم ، مريحاً ، هــادئاً ، وكأنه تحت غطــاء فراشه الدافىء !

كيف يتعرّفها ؟!.. وهو لا يستطيع حتى أن يناديها ، كي لا يلفت إليه الانتباه !.. وكيف يأمن شرّ أشخاصٍ ، ينتقلون في ذاك الحذر .. ويهرعون ، من ظلمةٍ ساترةٍ ، الى أخرى !

تنبّه الى صخرةٍ كبيرةٍ كثرت حولها الحركة .. وتجمعت قربها ظلال كثيرة ، تحلّقت حول أشخاصٍ صدر عنهم ما يشبه حفحفة العراك !

تَقدّم في وجلٍ ، من هؤلاء .. يتلفّت حوله ، كلما قام بخطوة .. ينظر خلفه ، كي لا يُفاجأ بما لا يسرّ !

ما إن أصبح على قربٍ كافٍ ، حتى تيقّن مما توقّعه ، من عددٍ من الأشخاص ، يجامع بعضهم بعضاً ، عراة ، أو أشباه عراة .. وحولهم ، تحلّقت تجمّعات أخرى ، صغيرة العدد ، ثلاثة ، أو أربعة أشخاص ، هنا وهناك .. يتلقّون الوحي والإثارة ، من الحلقة الأم !.. يمارسون ، في فلكها ، ما تفتّق عنه خيالهم ، أو هواجسهم الدافعة ، الباطنة ، وما من رقيبٍ ، غريبٍ ، يردعهم عما يشتهون !.. يحرسهم الظلام ، من غيرهم من العيون المتفحّصة ، ومن أنفسهم ، تخيفهم رهبة المكان ، والخطر المحدق بكلّ منهم ، فيتفتّق خيالهم عن حركاتٍ ، أشبه بما قد يبدر عن الانسان ، وهو في النزع الأخير !!

لم يعثر على « بالوما » بين ذلك الجمع .. تريّث برهة ، ثم قرر أن يعود أدراجه الى سيارة صديقه .. تعامى في البدء عن مضايقة عدد من الأشخاص ، كانوا قد حاولوا إشراكه في تلك الطقوس .. تراجع ، مبتعداً عنهم ، في بطءٍ ، وحذر !.. فما كاد يعبر الممرّ المظلم في سلام ، حتى خرج من بين أقواس الجدار ، وركض ، مسرعاً ، نحو سيارة صديقه !

كانت « بالوما » في سيارتها ، تدخّن لفافة ، في شرود .. ترقّب عودته ، وقد علمت أنه ذهب للبحث عنها ، تنظر الى « شارل غوستاف » ، دون أن تكلّمه ، وتنقّل ناظريها في برودٍ ، بين ما حولها ، من أعمدةٍ ، وآثار !..

وقف فراس برهة إزاءها .. ثم قال لها ، يحدّثها من نافذة سيارتها ..
ــ أما لهــذه المعضلة من حــل ؟!.. قولي !
هزّت أكتافها ، وأجابت ، في لا مبــالاة ..
ــ إنما هي مُعضلة ، لمن لا يعرف حلّها !.. لمن لا يفهم مغزاها !
أدارت محرك سيارتها ، تتبسّم له ، في جمودٍ .. وقالت ..
ــ « دون ماكسيمليانو » .. متى ستفهم أني لست تلــك الشرقية .. الخفــور ؟!
وابتعدت بسيارتها .. تلوّح له بذراعها .. وتقول ..
ــ اتصل بي غــداً .. إذا شئت .. سأكون في دار أختي .. طــوال بعد الظهــر ..

قال « شارل غوستاف » متعجّباً ..
ــ ظننتها ستكون برفقةِ أحد !.. غريبة هذه الفتاة .. كيف تجرؤ على دخول « الكولوسيو » في مثل هذا الظلام الدامس !
أطرق هنيهة .. ثم قــال ..
ــ لا شــك أن « بالوما » تشكو من وحــدة قاتلة في داخلها .. وإذا كانت تستمرىء وحشة هــذا البنــاء ، في الليل .. فهي تخفي من الوحــدة أكثر ممــا ظننت !
لحظ فراس ، صديقه بطرف عينيه .. وسأل ، متفرّساً ..
ــ هل دخلتَ تلك الأقواس يوماً .. في الليــل ؟
ــ مــرة أو مرتين .. في رفقة أصدقاء .. أتوا ليشاهدوا وحشة فنــاء الملعب ، في ظــل الصليب الذي باركت بــه الكنيسة أرضه .. وطردت منــه شياطين ، وأرواح ، ماضيه الروماني ، السحيق !
ــ ولم تلحظ شيئاً غريباً .. في أروقته ؟!

التفت « شارل غوستاف » نحو صديقه ، ينظر اليه ، يستزيد من عينيه ما خفي عنـه ، من سؤاله ..

ـ شيئاً غريباً ؟!.. ماذا تعني ؟!.. كانت تلك الأقواس في الماضي ، أثناء الحرب وما بعده ، مرتعاً لبنات الهوى .. وأبنائه ، توقد النساء ناراً صغـيرة ، في ظلمتها ، تبعث الدفء فيما تكشفنه ، مـن صدورهن البيض ، وعوراتهن السود ، للملأ !.. تماماً ، كما كان الأمر ، في أروقـة ، وتحت أعمدة سـاحة « الفاتيكان » !.. لكن تلك الأمور مُنعت ، منذ زمن بعيد .. وصار لبنات الهوى أماكن مخصصة .. أو ، صرن يتفرّقن على أطراف الطرقات المهجورة.. يُشعلن النار نفسها ، ويجلسن إليهـا ، ونورها البرتقـالي ينـير سيقانهن المكشوفة .. وعوراتهن السوداء !.. يا له من منظر !

ضحك فراس لما تداعى في ذهـن صديقه .. من صور ملوّنة ، وقال ..

ـ كنت أسألك عـن « الكولوسيو » .. وإذا بك تطـير الى عورات بنات الهوى !

ـ بالضبط .. هذا ما كنا نراه .. في الماضي !.. فهل رأيتَ شيئاً مماثلاً الآن .. داخل « الكولوسيو » ؟!

ثم صمت فجأة .. وعاد يتساءل ، في حيرةٍ ، وشرود ..

ـ تـرى ما الذي حـدا بـ« بالومـا » لدخـول « الكولوسيو » في هذه الساعة ؟

ثم تنبّه ، كمن أفاق الى مفاجأة سارة ..

ـ .. ما رأيـك في زيـارة « باتريس » وزوجته ، هذه الليلة .. بـدل العشاء ، لخارجاً ، أو عنـد آل « باولي » ؟! ثم .. لمـاذا تتحاشى صديقك .. كيف تتناسى ما كان يربطكما من محبةٍ وودّ ؟!

ـ « شارل » .. أنا ، ما زلت عـلى ودّي القديم .. أما « باتريس » ، فلقد بدّله الزواج .. ألاَ تذكر شعره الأشعث ، بضفائره الذهبية نظراته

الباحثة ، الحائرة ، على الدوام !.. وحبّه المستفيض للمطالعة ، والتقصّي عن كل ما هو جديد في مجالي العلم ، والفن ؟! أين ذاك من « باتريس » اليـوم ، الأنيق الملبس ، الحليق .. الأملس الشعر ، والكلام ! إن صديقي ذاك .. قـد حشر ماضيه ، في صناديق معـدنية ، عزلهـا في مكان أمـين ، أو واراهـا تحت التراب !!

تبسّم « شارل غوستاف » في خبث .. وقال ..

ــ إذن .. فلقد كنتَ في الماضي تبادله نفس المحبة التي يكنّها لك ؟!

ــ « كـان » يكنّها لي !

ــ بل.. وما يزال !.. « مكسيم » إن كل ما في الأمر.. فيما يخصّكما.. هو أنه كان وجِلاً ، متردّداً ، الى علاقة متطرّفة معك .. وتساعدتَ ، أنـت والظروف ، على إقفالِ هذا الباب في وجهـه ! وبإحكام !! فلماذا تلومـه على ما يحيط نفسه به ، من أساليب الدفاع ؟!

أطرق فراس ، برهة .. وقال واجماً ..

ــ قد تكون على حق .. وقد يكون ، هو ، كذلك ، محقّاً فيما يفعل ! لكنها أساليب وقائية ، غليظة الثخانة .. حجبت عن عيني تلك الشفافية التـي كنت أحبها فيه !.. إن تلك الشفافية .. يا « شارل » .. لم تكن « ميـزة » من ميزات « باتريس » .. بل جزءاً منه !.. لقد كنتُ لا أفصِلها عن شخصه !.. وكنتُ أرى فيه ، الى جميع ما هو فتيّ ، ونقيّ ، في أوربا .. وكـان حبّي لذاك النقاء ، يُترجَم ، محبة لـ « باتريس » ..

ضحك في سخرية ، وأضاف ..

ــ وأين نقاء الشباب ، وصفاء فتيتها .. اليوم !!

علّق « شارل غوستاف » على الفور ..

ــ هل تدري ماذا علينا القيـام به ؟!.. هـل أتركك تحـزر ؟! نسافر جميعا .. نذهب معاً في رحلة .. الى « فينيتزيا » .. ما رأيك ؟!

— رحلة الى مدينة البندقية ؟ بشوارعها المائية ، وقواربها ؛ و « جوندولاتها » ؟!

التفت فراس الى صديقه .. يتمعّن في ملامحه .. وقال ..

— ومن أين لك بهذه الفكرة الرائعة ؟!

تابع « شارل غوستاف » قوله ، على الفور ..

— .. تذهب ، « بالوما » وأنت !.. « ليزا » وأنا !.. و « باتريس » وفتاة أخرى .. غير زوجته !! ما رأيك ؟!

تبسّم فراس ، وقال ..

— إنها مجموعة فريدة من المتضادّات ، المتجاذبة ! ولا أظنّ أن في العالم بوتقة ، خيرٌ من البندقية ، لصَهْرِ وتصفيةِ ما نحن فيه !

* * *

كان في شوقٍ لزيارة تلك المدينة الرائعة ، فطار وراء أمانيه ، كأن تلك الرحلة سهلة التحقيق .. ما عليه إلا تمنّيها ، بالصورة التي رتّبها مع « شارل غوستاف » ، فتتحقق !

كان على « ليزا » انتظار عطلة رسمية ، أو ادّعاء سبب صحّي ، كي يسمح لها بالتغيّب عن عملها .. كذلك « باتريس »، وجد « شارل غوستاف » صعوبة في إقناعه بالتخلّي عن رفقة زوجته ، للسفر الى مدينةٍ كان يحلم ، في الماضي ، أن يزورها مع حبٍ له ، قادر على اقتلاعه من جذوره ! أما « بالوما » .. فلقد تلكّأ فراس طويلاً في مفاتحتها ، بهذا الخصوص .. يخشى رفضها ، أو ردّ فعلٍ نزقٍ ، قد يزيد من إحساسه بالتعلق بها !.. مما قد يكشف لها عن مدى حاجته إليها ، وذلك أمرٌ ، كان يحرص أشد الحرص على كتمانه عنها ..

سأله « شارل غوستاف » متعجّبا ، لا يجد سببا لتشاغل صديقه عن مفاتحة فتاته ..

ــ .. وهل في نيّتك الذهاب وحيداً الى « فينيتزيا » ؟!.. أم أن في ذهنك فتاة أخرى ، غير « بالومـــا » ؟.. إن الخريف على وشك الانقضاء .. ومناخ الشمال قارس البرد ، كما تعلم !.. ما الذي تريده بالضبط ؟! « مكسيم ».. ليس ما يؤخرنا في « رومـــا » من مشـــاغلٍ تخصّ عثمـــان .. بالله عليك ، هلاّ قررت ، ما إذا كنتَ تودّ الذهاب ، أم لا ؟!

أجاب فراس في حيرة ، ووجوم .. لا يعرف كيف يتفهم صديقه حقيقـــة مشكلته مع « بالوما » ..

ــ .. « شارل » .. يا عزيزي .. أيها النقيّ ، الطاهر ..

لم يترك « شارل » صديقه يتمّ كلامه ..

ــ أنا ؟ نقيّ .. وطاهر ؟! وهل تهزأ مني ؟!

ــ هوّن عليك !.. أنا لا أهزأ منك .. بل أقول حقيقة ناصعة البياض .. إنّ سريرتك ، وتربيتك ، تجعلانك قادراً على ممارسة معظم الشرور ، دون أن تتلوّث قرارتك بهـــا !.. هذا هـــو ما عنيته ! إذن .. فهل تستطيع فهـــم أن « بالومـــا » تحبّني .. ولا تكتفي بي .. سواء أدركْتَ ، هي ، ذلك أم لا ؟!

ــ .. لا تكتفي بك ؟! وماذا تريـــد غيرك .. أو الى جانبك ؟! أحفلاتُ جنسٍ جماعية ؟! هل يعقل ما تقـــول ؟! ثم أنت .. ظننتك قد تجاوزت هـــذه المرحلة .. منذ كنّا ، في باريس !

ــ مهلك .. يا صديقي .. مهلك !

وراح فراس يبحث عن كلماتٍ تشرح ما يراه من حالة « بالومـــا » .. دون أن يشوّه صورتها .. فلمّا أعيـــاه ذلك ، قال .. في بطءٍ وأناة ..

ــ إنها .. إن « بالومـــا » .. في حاجة الى مؤثّرات خارجية !.. بل إنها دائمـــة الحاجة الى تلك المؤثّرات .. وقد تشترك فيها ، أو لا !.. وإذا فعلت ، فإنها تؤْثر الهرب منها ، الى دفء إنسان تحب !!

ثمّ تنهّد ، وأضاف ..

ـ .. هل فهمت ما أعني ؟! إنها لا تسعى وراء الممارسات الجماعيـة : التي ألِفناها في الماضي ، في الحـي اللاتيني !.. إنها ممارسة .. جماعيـة . فردية .. من نوع غريب !!

كان « شارل غوستاف » يستمع الى صديقه ، رافـع الحاجبين ، يميـل برأسـه تارة الى اليمين ، وتارة الى اليسار .. يعـلم أنّ صديقه لا يهـزأ ، ولا يستخف بـه .. لكنه لا يفهـم سبباً لتلك الصورة المُركّبة التي يرسمها « مكسيم » ، لحالةٍ بسيطةٍ .. لفتاةٍ معقّدة ، جنسيّاً !

قال ، يهزّ رأسه ، استغرابا ..

ـ لا شك أنك مغرم بها !! « مكسيم » .. لولا أنك موله" بحبّ تلك الفتاة .. لما أعرتَ عقدها الجنسية هذه ، أكثر من التفاتة عابرة !.. ولما حاولتَ خلق حالةٍ دراميةٍ ، من علّة ، بات يشكو منها معظم من نعرف ، من بشر !

همّ فراس" بشرح المزيد من تفاصيل ما يـراه ، من حالة « بالومـا » الفريدة .. في نظره .. لكن « شارل غوستاف » قطع حديثه في تبرّم ، وسأله ..

ـ على رسلك .. يـا عزيزي ! لنفرض أن كـل ما تقوله صحيح وأنّ حالتها المعقدة أكثر إشراقاً ، أو عتمـة مما تصف ! فماذا يمنعك من دعوتهـا للسفر معنا ؟! ألستما على علاقةٍ باتت حديث الجميـع .. منذ أن تعارفتما ؟ فما الفارق بين « رومـا » ، و « فينيتزيا » ؟!

نظر فراس الى صديقه ، مستعطفاً ، أن يفهم قصده .. ثم قال في هدوء .. واستسلام ..

ـ وماذا نفعل في « فينيتزيا » ؟ ماذا نفعل ؟.. لكي .. لكي ..

ـ لكي ماذا ؟!

ـ لكي أضاجعها ! ألم تفهم « شارل » !.. ألا تفهم الفرنسية !

هـزّ « شارل » رأسه وكتفيه ، عجباً .. وقال في بساطةٍ .. يحدّق في عينيّ صديقه ..

ـ تفعل هناك .. ما أنتَ تفعله هنا !

أجاب فراس .. كمن أسقط أمره ..

ــ « شارل ».. هنا ، يوجد « مارتشيللو » .. ليحرّك الأمور بيننا ! فماذا أفعل في « فينيتزيا » ؟! هل أستأجر لها « مارتشيللو » .. محليّ ؟.. أم أتركها تسرح في طرقات المدينة .. قبل أن تعود إليّ ؟!

فتـــح « شارل غوستاف » شفتيه ، دهشـــةً .. ثم ســـأل ، لا يصدّق ما يســمع ..

ــ وهل كانت تحتاج لـ « مارتشيللو » ، في كل مرة ؟!

هزّ فراس رأسه بالإيجاب..فتابع «شارل» سؤاله .. يسخر مما يقول..

ــ وهل تبتدىء معه .. أم تنتهي به ؟!

ــ بل تبتدىء ، معـــه .. ثم تهرع إليّ .. نادمة .. متأجّجة .. وتصفو إليّ .. كأنها ما عرفت إنسانا لا قبلي .. ولا بعدي !!

ــ إن حالتها لأعقد مما ظننت ! آسف يا عزيزي على ما بـــدر منّي من استخفافٍ بما كنتَ تقول !

أطرق « شارل غوستاف » يعيد ترتيب ما سمعه من صديقه ، في ذهنه ، ثم قال ، متبسّما ..

ــ لقد وجدتها .. يا عزيزي وجدتها ؟!.. نأخذ « مارتشيللو » معنـــا .. فهل أبسط من هذا الحل ؟! إنك دائم الحاجة الى من يهتمّ بطعامك ، وثيابك .. وقهوة الصباح التركية !.. ومَنْ ، خيرٌ مِن « مارتشيللو » .. لهذه الأمور؟!

تبسّم فراس لفكرة صديقه .. وقال ..

ــ مرافق خاص .. في فندق ؟!

ــ ولِمَ لا ؟

* * *

الفصل الحادي عشر

ماذا يقال في مدينةٍ ، ما مرّ فيها مفكّر ، أو فنان ، إلاّ وأُخذ بسحرها ، فترجم إحساسه بأدبٍ أو شعرٍ أو موسيقى .. حتى غدت ، كأنها « مونا ليزا » المدن .. يضيع الإنسان العادي في سحرها .. ويقف الناقد ، مذهولا ، بما يرى .. يودّ لو أنه لا يعرف فن الكتابة ، فلا يُضطر الى وصف نور الشمس ، أو سحر ضوء القمر !

أناس يولدون في قرى جافة قاحلة ، جرداء .. وآخرون يولدون في مدينة مثل البندقية ، بُنيت فوق مائة وسبع عشرة جزيرة .. يتخلّلها ، مائة وخمسون قنالاً مائياً ، يربط بعضها ببعض ، أربعمائة جسرٍ ، بُنيت من الآجرّ الأحمر اللون ، علت فوق مائها ، كالأقواس المشدودة .. يقف الانسان فوقها ، كأنه فوق صهوةِ جوادٍ يتحفّز للقفز !

البندقية ، مدينة ، تخالها تطفو فوق سطح الماء .. شيدت أبنيتها في عمق أرض البحر ، فَعلَت ، تداعب الأمواج قواعد جدرانها .. يخرج المرء من باب داره ، الى طريقٍ ، هو البحر ، بمائه وأمواجه .. يركب قاربه الخاص ، أو ينادي مركب أجرة .. أو ينتظر مركب نقلٍ عامٍ ، يمخر تلك الشوارع المائية .. ينتقل من قنال الى آخر .. يرسو إزاء أرصفتها ، وساحاتها .. فإذا ترجّل المرء ، سار في عالم ينعدم الغبار فيه .. تتكاثف القصور ، في أزقته القديمة ، جنباً الى جنبٍ مع أصغر الدكاكين .. تبرق جميعها بفرحِ ما تحمله من تحفٍ ، سلفيةٍ ، وحديثة !.. ما من آلة تنفث سمومها السوداء ..

في تلك الأزقّة العتيقة الرائعة .. وما من أصواتٍ ، غير همس المارة .. ينقلون أنظارهم ، حيثماً ساروا ، بين أصص الأزهار ، المعلّقة على الجدران الخارجية للبيوت ، والنباتات التي تدلّت فروعها من نوافذها !

البندقية .. التي تمازجت فيها حضارتا الغرب والشرق ، حفظت ، من الشرق ، أسلوب الحياة في البيوت المُغلَقة ، بأبوابها العتيقة ، التي تخفي وراءها قصوراً باهرة الجمال .. وتمسّكت بعتيقها ذاك ، وبما تعلّمته من الشرق ، في الماضي ، من الحفاظ على رونقه وتظافته .. فغدت دروبها القديمة ، شرايين تسري فيها حياة ما تعجّ أبنيتها به ، من تحفٍ ، وآثارٍ ، تشهد على حضارة الانسان ..

* * *

لم يدخل الأصدقاء البندقية من « ميستري » ، في القطار ، عبر جسرها الطويل ، الذي يبدو منه دخان المصانع توزّعت على السواحل البعيدة .. بل آثروا الأسلوب الصعب ، والمكْلِف ، وهو ركوب البحر إليها من «كيوجيا»، في قاربٍ خاص ، استغرق وصوله إليها ، ساعات !.. فما إن بدت من بعيد ، معلّقة بين السماء والماء .. وهم في وسط البحر ، قادمون إليها ، كأنهم من عصرٍ مضى .. حتى صاحت « بالوما » ، في انفعالٍ شديد ..

ـ الآن أدرك لماذا لُقّبت « بفينوس ، الخارجة من البحر »!.. يا إلهي.. لكم أتمنّى أن أعيش ، وأن أموت ، في هذه المدينة !

بدت واجهة فندق « دانييلي » الفخم ، من البحر ، كاحدى واجهات القصور التي تحيط به .. اقترب قاربهم منه ، ثم توقّف على رصيفه الخاص ، ذي الألواح الخشبية التي أحالها البحر الى ما يشبه الأحجار السود .. بينما خفّ السّعاة ، في لباسهم الموحّد ، لحمل حقائبهم ..

لم ينتبه أحد لما بدا على وجه « مارتشيللو » من دهشةٍ وإعجاب .. فما إن رأى « باتريس » ما علا وجهه من تعبير ، حتى نبّه بقية الشلة إليه ، بالفرنسية ..

قال فراس ، في إنكليزية يفهمها الجميع ..
ـ إنه الوحيد بيننا الذي لم يـزر « فينيتزيا » قبـل اليوم .. فلا عجب
عقبّت « ليـزا » ، قائلة ..
ـ ثمّ .. إنه الإيطالي الوحيد بيننا ، على ما يبدو !
حمل « مارتشيللو » حقيبة سيده الخاصة .. وآلات التصوير .. وسار وراء الركب الذي دخـل الفندق ، مازحـاً ، طربـاً .. يستريح على مقاعده التاريخية الوثيرة .. يتأمـل زينته ، وزجاجه المعشّق ، الذي عـاد بهم ، في الزمان ، الى عدّة قرون ..

تبادل « باتريس » و « شارل غوستاف » نظراتٍ ، حطّت على فراس !.. تبسّم ثلاثتهم لها .. كأنما ، تلك اللحظة ، تفشّت عن سحرٍ مبهمٍ ، سـرى مفعوله بينهم ، فأدركوا ، دونما إفصاح من أحدهم ، أن الزمان قد عـاد فعلا الى عصـرٍ مضى ، التقى فيه نبيلان ، من بـلاد الغـال ، بسيّد أمـويّ ، حطّوا معـاً في البندقية ، عروس البحر ، التـي فيها لبلادِ كل منهـم ، أثرٌ واضحٌ ، في أبنيتها ، وزينتها ، ونمط الحياة فيها .. جـزرٌ سحرية محايدة ، انصهرت فيها الحضارات .. وذابت في مياهها أحقاد التاريخ ..

تقدّم موظّف الاستقبال من « شارل غوستاف » يعيـد إليه جوازات السفر ، وكان قد نُقد ، سلفاً ، مبلغاً محترماً من المال .. قال مرتبكا ..
ـ أرجو المعذرة .. يا سعادة « الكونت » .. لكني لا أجد غرفة منفصلة لمرافق « الدون ماكسيمليانو » ، غداً .. ربما ، أو بعد غد ..
بـادر « باتريس » الى القـول ، في بساطة ..
ـ لينزل في غرفتي .. أليس فيهـا سريران ؟.. ليس للطبقية في حـالنا هـذه من معنى !
سُرّ ، الموظف لذلك الحـلّ ..
ـ حـالاً !.. يا سعادة « الماركي » .. حـالاً !

وأوعز الى السعاة بنقل الحقائب الى الأجنحة المُخصصة ، المطلة على البحر ..

* * *

تملّكت فراس رغبة جامحة في ملامسة جسد « بالوما » !

كانت جالسة تحت نافذة من الزجاج المعشّق ، تعكس بشرتها جميع ألوانه الحارة .. والى جانب مقعدها ، إناء نحاسي كبير ، فيه نخلة استوائية تعلو سعَفها العريضة الوارفة إطار النافذة ، ثم تتدلى في الهواء ، فوق الجالسين على المقعد ، فتظلّلهم ، وكأنهم في واحةٍ ، من نسجِ خيالِ فنانٍ أوربي ، يحلم بالشرق الغريب ..

رأت « بالوما » ما لمعت به عيناه !.. فنهضت من مقعدها في نزقٍ يعكس تجاهلها لما بنفسه !.. وأبدت رغبتها بالخروج ، للتنزّه في المدينة !

أحس فراس بانقباض لما لمسه من ردة فعلها تلك ، لم يفهم تهرّبها من كل ما يُبدي تجاهها من لفتات محبّبة .. خصوصاً ، تلك التي باتت تُشعِرها برغبته في ملامستها ، أو الدنو منها ، على مرأى من غيرهم من الناس !.. ولمّا صعد الجميع ، سلم الفندق العريض ، الى أجنحتهم ، همست في أذنه وهي تمر إزاءه في عجل ..

ــ أرجوك الكف عن بسط حدود ممتلكاتك ، أمام الجميع !

نظر إليها في دهشة وتعجّب ، فتابعت سيرها نحو الرواق ، تسأل ، على مسمعٍ من الجميع ..

ــ أين غرفتي .. أرجو ألاّ نكون قد أُقحِمنا ، بعضنا على بعض !

طغت على نفس فراس كآبة لم يعرف مثلها ، منذ زمنٍ بعيد !

خرج وحيداً الى رصيف البحر ، ثم الى ساحة « سان ماركو » .. يتمشّى بين الأروقة الحجرية ، ينظر الى ما تطاير أمامه من أسرابِ الحمام ،

دون أن يميّز شيئاً مما يراه ! لقد نالت منه « بالوما » .. كما نال « باريس » من مأخـذ« آشيل » !.. أصابت ، من حيث لا تدري ، نقطة ضعف ، خفيّـة فيه !.. نقطة" ، كان يجهلها في نفسه ، وها هي ذي تـمعن في تعذيبه !.. أكانت واعية لمـا تقوم بـه، أم لم تكـن !

جلس في شرفة مقهى « الفلوريان » على أحد جوانب ساحة الـ « سـان ماركو » ، يتأمل واجهـة « البازيليك » .. بزينتها الشرقية المذهبة ، ومئات الأعمدة التي تسوّر الأروقة المحيطة بتلك الساحة المستطيلة ، الرائعة !

لم يستطع أن يزيح من خاطره فكرة أن الشاعر « غوتيه » تعود الجلوس في ذلـك المقهى ، و « بايرون » ، و « جورج سـاند » ، و « ألفريـد دي موسيه » .. و « فاغنر » !.. لعل ذلك خفـّف من إحساسه بالوحدة .. تبسّم في سرّه للأثر الغريب الذي خلـّفه ذلك الجـوّ في إحساسه .. وما كان قـد مضى على وصوله الى البندقية ، إلا بضع ساعات !

ما الذي كان يدفع « بالوما » لمثل ردودِ الفعلِ ، تلك ، أمام أصدقائه ؟! صحيح" أن لا قيمة لتلك الأقوال ، والفورات العصبية ، أمـام ما يربطه بهـا من وشائجٍ حسيّةٍ عاطفية ، معقّـدة .. ثـم استوقف نفسه ، ليتساءل ، في حيرة مفاجئة ، وما الذي كان يربطه بتلك الفتاة أصلاً .. وما انقضى ، بعـد ، شـهر" من الزمان على معرفته بهـا !!

كان بحـاجة الى قربهـا ، والى رؤيتها أمامـه .. بابتسامتها القلقـة ، الواجفة .. ليدركَ مدى تعلـّقه بهـا !.. فما إن تغيب عن عينيه .. ويخلد الى نفسه ، كما جلس في تلك اللحظة في « الفلوريان » ، حتى يغلب وعيـه ، على إحساسه .. فيـُدرِكَ أنـه أمام إنسانة تشـكّل خطـراً على توازنه النفسي ، وأن تجاهله لهـا ، والبعد عنها ، لأسلم له من محاولة التقرّب منها ، أو محاولة تسوية الأمـور بينهما !

كـان ينتظـر وصـول « شـارل غوسـتاف » الى حيث جلس ، في

« الفلوريان » .. فنهض فجأة ، وقد صمّم على العودة الى الفندق ، ليرى ما تمّ من أمرِ ترتيب حوائجه .. و « مارتشيللو » نزيل غرفة أخرى ، عند « باتريس » ..

صادف « باتريس » في طريقه ، خارجاً من الفندق ، برفقة « شارل غوستاف » و « ليزا » .. وهم في طريقهم الى الساحة .. غارقين فيما طالعهم من جوّ البندقية الساحر ..

قال له « باتريس » ، على عجل ..

ـ لقد رتّب « مارتشيللو » حوائجك في غرفتك .. نحن في طريقنا الى جسر الـ « ريالتو » .. هل نلتقي .. هناك ؟

هزّ فراس رأسه بالموافقة .. لم يسأل صديقه عن « بالوما » .. واكتفى بأن تمتم بأنه لن يتأخر في الفندق ..

صعد السلم مسرعاً .. ومشى في الرواق الطويل الذي صفّت الآنية الصينية الكبيرة الحجم ، على طرفيه .. يُهيّىء نفسه للموقف اللامبالي الذي سيتّخذه من « بالوما » ، إذا لقيها مصادفة في طريقه ..

فتح باب غرفته ، يتوقّع منظر البحر من النافذة المقابلة ، وإذا بستائرها قد أُسدلت . وضوءٌ خفيفٌ ينبعث من مصباحٍ خفيفٍ .. ينير جسد « بالوما » .. وقد استلقت على سريره .. عارية .. تداعب وشاحاً شفّافاً ، كان قد لازم عنقها طوال تلك السفرة !.. فما إن أغلق الباب خلفه .. حتى سترت وجهها بذاك الوشاح .. ومدت ذراعيها إليه ، في وضعِ ضراعةٍ ، ثم سمّرتهما ، في الهواء .. كأنها تنتظر قدومه !

مضت ساعات على حاله تلك ، تناسى فراس فيها وعيه !

أطلق للإحساس جميع ما يلجمه .. حتى غاب بما هو فيه عن جميع ما حوله !

لم يدرِ إلا وغشاوة النشوة تنجلي عن عينيه ، و « بالوما » تفلت من

ذراعيه ، كالظبية الهاربة ، تدخل مخدعها ، من بابٍ مشترك بين غرفتيهما .. تطبقه خلفها ، في صوتٍ مُدوٍّ .. وهي تقول ..

ـ لا تنتظرني .. سألحق بكم ، جميعكم ، بعد حين !

لم يشأ فراس في تلك اللحظة أن يبحث عن مسبّبات ، أو نتائج ذاك اللقاء !.. حسبُه أنه عبّ من جسدها ما كان يتحرّق لملامسته !

نهض ، يرتدي ملابسه ، ينظر الى عتمة السماء ، وقد خيّمت على البحر ، عدا بريق أضواء قواربَ بعيدةٍ ، تتنقّل في سكون ، بين الجزر المتقاربة ..

تهيأ لرطوبة الليل ، فالتفح إزاراً طويلاً من الصوف الأسود .. لفّه حول عنقه ، ما إن تنفّس فيه ، حتى عاد الى شمّه ما كان قد علق من عطر « بالوما » على وجهه ..

خرج من الفندق ، يسير الهوينى ، يتنشّق عطر فتاته .. يحمله على جسده ، وقد عاودته شهوته لها !.. سرّه أن يحتفظ منها بتلك الذكرى ، تسير معه عبر ساحة الـ « سان ماركو » العريضة .. وما تفرّع عنها من دروبٍ ضيّقة ، خلت من المارة ، فبدت مقفرة ، لا آخر لالتواءاتها ..

لم يكن قد زار البندقية في مثل ذلك الموسم البارد ، ولا أُتيح له من قبل رؤية دربٍ من دروبها ، أو جسرٍ من جسورها ، إلا وسيل متواصل من البشر ، معظمهم من السيّاح ، يتدفّق عليه !

لقد غدت تلك الحركة المتواصلة من الأغنام البشرية التائهة .. جزءاً من المدينة كحجارتها .. حتى لم يعد في وسع إنسان أن يتصورها ، خالية منها !

ولج دروباً نائية ، ضيّقة ، فاجأه فيها ما لم يكن يحلم به من سكونِ الليل ، وضباب بحريّ ، تخاله رذاذاً معلّقاً يغلّف المدينة ، ويغطي دروبها الحجريّة ، والمائية ، بوشاحٍ أسطوري ، يلمع ، بين الفترة والأخرى ، بدوائر

نور المصابيح القديمة .. يكشف الطريق ، فـوق جسورٍ صغيرة ، تجمّعت إزاءها مراكب الـ « جندول » ، السود ، المزخرفة .. رست على أرصفة ضيّقة ، بين البيوت .. يهتزّ المـاء تحتها ، لحركةِ البحرِ البعيد ، فتحتكّ جوانبها ، بعضها ببعض .. ويُسمع لذلك ، حفيفٌ خافتٌ ، يحـاكي صوت مخلوقات خفيّة ، تعيش ، وتتنادى في الليل ، حين تخلو تلك الأماكن من البشر ..

جلس على أفريز أحـدِ الجسور .. يتنشّق عبـق البحـر .. يتلقّف رذاذ الضباب على وجهه ، في سكون ، وكأنه تمثالٌ ، تُرك في ذلك المكان !

سمع صوت خطى ، كان لوقعها على الأرض الحجرية ، أثر محبّب أليف. ذكّره بمن يعودون الى بيوتهم ، بعد سهراتٍ عارمة ، يتبسّمون لأنفسهم ، في سكون ، يحتفظون بذكرى ما مـرّ معهم ، في دفء ألبستهم ، ما إن اقترب الصوت منـه ، وازداد وضوحُ وقعِ الخطـا ، حتى رأى صاحبه ، شخصٌ في مقتبل الشباب ، يتلفح ثوباً عريضاً ، أسود .. صعـد درجات الجسـر ، ثم توقّف لحظـة ينظر اليـه !

دنا الشخص منه ، في بطء وحذر ، وسأله ، في لهجة البندقية العامية ..

ــ هـل معك عـود ثقـاب ؟!

فلما أشـعل له فراس لفافته .. رأى وجـه الشاب ، يتبسّم في لطف . ويقول .. متردداً ..

ــ .. قـد تصاب بذبحـةٍ صدريةٍ .. في هـذا المكان البارد !.. إن الرطوبة .. في مثل هذه الأمكنة .. ضارة !.. ألا تجد مكاناً تأوي إليه ؟!

جال في ذهن فراس أن الشاب ما كان ليُلقي عليـه بمثل ذلك السؤال ، لولا غرابة المكان ، والساعة ، التي جلس فيها على أفريز ذلك الجسر النـائي عن الحـركة !.. كان على وشك الردّ عليه ، حين فطن الى أن الشاب ظنّـه من سكان البندقية .. يكلّمه بلهجتها العامية .. فتبسّم بدوره .. وقال ، في لهجة إيطالية ، صحيحة .. لا يعرف غيرها ..

ــ .. بل أنا هنـا .. للنزهة فقط .. شكراً .. لاهتمامك !

نظر الشاب الى ساعته ، في استغراب .. وأضاف ..

ـ وفي مثل هـذه الساعة المتأخرة ؟!.. هيـا .. هل تتناول فنجانـاً من القهوة .. عندي ؟!.. إني أقطن في تلك الدار .. هناك .. على بعد خطوات ..

وأشار الى نوافذ مزخرفة ، في الدور الأول ، من بنـاء مجاور ..

أعاد فراس النظر الى لباس الشاب .. وتمعّن في وجهـه ، فاطمأن الى أنه ليس من الشطّار .. ثم التفت الى الدار التي أشار إليهـا .. وكان لمدخل بنائهـا باب حديدي مزخرف ، يقـود إليه جسر" خاص ، يعلـو فوق قنـاة متفرّعة عـن تلك التي كانا يتحدّثان فوقها .. فانساق مع سـحر المكان ، والليـل ، وغرابة تلك الدعـوة ..

هـزّ رأسه في بساطة ، وقـال ..

ـ ولـم لا ..

وتبع الشاب ، الذي تقـدّمه الى الجسر ، وكان قـد أخرج من جيبه مفتاحاً كبيرا ، أداره في قفل الباب ، ثم دفعـه .. طالباً من فراس الاحتراس .. يصعد سلّماً مرتفعاً ، غاب أعـلاه في الظلام ..

ما إن بلغـا قمّة السلّم ، حتى أدار الشاب مفتاحاً للنور ، فسطع الضوء على مدخلٍ أنيق ، أرضه من الرخام المرقّش بالأشكال الهندسية الملوّنـة ، والى يمين الباب المعشّق بالزجاج الملوّن ، تمثال" لـ « فينوس » .. بالحجـم الطبيعي ، تقف على قاعدة أُحيطت بنباتاتٍ ، كادت تتسلّق على ساقيها ..

فتح الشاب الباب الزجاجي ، فدخلا قاعـة واسعة ، أول ما طالع فراس فيها هو عـدد كبير من اللوحات الحديثة ، والقـديمة .. عُلّق معظمها على الجدران .. واستند الباقي ، على أطراف الأثاث .. هنـا ، وهناك ، أو تراكم في الزوايا .. بعضها ، ما يزال في طورِ الرسم .. والبعض الآخر ، وقف أمـام أطـرٍ مذهّبةٍ ، تنتظر مَنْ يُتمّم تركيبها ..

تسارعت قطتان فارسيّتان جميلتان ، ذاتا وبر طويل أبيض ، وقفزتا الى حضن الشاب ، حيث استقرّ على أحد المقعدين الكبيرين .. رتّبا على طرفي

موقـدٍ رخاميٍ قديم .. هيّئ الحطب فيه .. لا ينتظر إلاّ عـود ثقـاب ، كي يعيد الدفء الى جوّ ذلك العالم الحميم ..

قال الشاب ، يتبسّم مسرورا لدهشة فراس ..

ــ هل نتعارف ؟.. على حقيقة أسمائنا ؟! أم هـل تفضّل أن تبقي على سحرِ المجهول ؟!

لم يردّ فراس على سؤاله مباشـرة .. تلفّت ، يبحث عن مكانٍ يجلس فيه ، وقال للشاب ..

ــ ألا تدعوني للجلوس .. أولاً ؟!

ــ تفضل .. أرجوك !

وأشار الشاب الى المقعد المقابـل له .. لكن فراسا آثر الجلوس حيـث كـان .. على مقعـد « بيانـو » ، كان يستند إليه وهـو يستعرض أثـاث وأجواء المكـان ..

قال الشاب في طرافةٍ ، ومرح ..

ــ إلا تتلهّف الى معرفة من أكون ؟!.. إنها فرصة نادرة .. لا تدعها تفـوتك !!

تنبّه فراس الى أن مرحه المفتعل ، قد يكون سببه مخدّر قد تعاطـاه .. فسأله ، بما يجاري سياق الكلام ..

ــ وأية فرصة .. تعني ؟

ــ فرصة لقـاء « فينيتزيا » الحقيقية .. متمثّلة بشخصي !.. بدل الفكرة التي تحفظونها عنها .. « فينوس .. خارجة من الماء » .. وهـي التمثال الذي أحتفظ بنسخة عنه ، على باب مرسمي هذا ، كما شاهدت ! ولو أني أبدلـت الماء ، بالتراب ، والنباتات ، والتي بدأت تشوّه ساقيها !

ضحك فراس لقوله .. وأجاب ..

ــ سنيور « فينيتزيا » .. لقد تشرّفتُ بمعرفتكَ !!

ولم يشأ أن يترك ، مبهما ، ما ألمح اليه في قوله .. فأضاف ..

ـ ألا تجد غرابة في أن ترمز لنفسك بـ « فينيتزيا » .. وهو اسم مؤنث ؟!

هزىء الشاب من إشارة فراس .. وقال .. يكتم انفعالا ، مفاجئاً ..

ـ يا لكم من همجٍ .. بيزنطيين .. لا قلوب لكم ! « فينيتزيا » تغرقُ في البحر .. وأنتم .. تناقشون ما إذا كانت الملائكة ذكوراً ، أم إناثاً !! ومن يلتفت ، اليوم ، الى مثل هذه الترّهات ؟!

صمت برهة .. ورفع نبرة صوته ، مبتهجا .. كأنه فوجىء بما قال ..

ـ .. أنا ملاك !.. وهل للملائكة من جنس ؟!

تبسّم فراس لقوله ، وأجاب ..

ـ لي الشرف بمعرفة أحد ملائكة « فينيتزيا » .. أما أنا .. فلست ملاكاً ..

وبعد تردد قصير .. أضاف ..

ـ .. ولا شيطان ..

قام الشاب يشعل النار في الموقد .. فسأله فراس ، يُعيد النظر في ما أحاط به ، من لوحات ..

ـ هل هذه اللوحات ، لك ؟.. أعني .. من رسمك ؟!

هزّ الشاب رأسه بالإيجاب .. فتابع فراس سؤاله ..

ـ إن فيها من تقليد مواضيع القرن السابع عشر ، والثامن عشر ، فهل أنت رسمتها أيضا ؟

نهض الشاب .. وكان قد أوقد النار .. فالتفت الى فراس ، وقال ..

ـ نعم يا عزيزي !.. أنا من الذين يثابرون على إحياء الأسطورة !.. أسطورة « فينيتزيا » القديمة .. الرائعة .. التي تغوصُ في الماء ! يرتفع البحر .. ليغمر منها قدر أصابع .. كل عام .. ولا يلتفت أحد الى هذه الكارثة .. إلا على صفحاتِ الجرائد !

عجب فراس للمنحى الذي اتخذه الحديث .. ولشدّة انفعال الشاب ، وهو يتكلم عن البندقية !.. ومض في ذهنه خاطرٌ سريع .. ذكّره الشاب بنفسه ، بلوعته هو ، وهو يفكر أو يتكلم عن مصائب دمشق القديمة .. فتبسّم لمحدّثه .. في ودٍّ صادقٍ .. وأشعل لفافة ، وهو يقول ..

ــ هل لي بسؤال معترض ؟!.. لماذا دعوتني الى فنجان قهوة .. ولا قهوة في مرسمك ؟!.. ثم .. ألا تتحسّب للمفاجآت التي لا تسرّ ؟!. ألم يَرِدْ الى ذهنك أني قد أكون ، لصاً .. أو مرتزقاً ، قد يبيّت لك الشر.. ولا أخرج من هنا ، إلا بمالك ؟!

هزّ الشاب يده في استخفاف .. وقال ..

ــ إن اللصوص ، والمرتزقة .. يا عزيزي .. لا تنتعل أحذية من صنع « رفائيل » .. ولا تحمل ماساً حقيقياً على خنصرها ! كان حرّي بك ، أنت ، الحذر من دعوتي !! وفي هذه المدينة من لا يسمح لك بالخروج ، بعد دعوةٍ مثل هذه ، إلا بعد تجريدك من جميع ما تحمل ! ولا شك عندي أن حافظتك مليئة بالنقود !

ــ إنك لشديد الملاحظة !

أجاب الشاب ، في ثقةٍ ، واعتزاز ..

ــ .. سيدي .. أنا « باولو ألبيرتو فوسكاري » .. سليلُ أحد أعرق أسرِ هذه المدينة الرائعة .. المتآكلة !

وصمت برهة .. ينظر الى ما حوله .. ثم الى أصابعه .. وقال ..

ــ والآن .. هل لي أن أتعرّف بمن دعوتُ الى داري ؟! دعني أخمّن .. إنك سائحٌ ، ولا شك .. هل أنت فرنسي ؟! أم إنكليزي ؟

ــ لا هذا .. ولا ذاك ..

ــ إسباني ؟!

هزّ فراس رأسه بالنفي .. فبادر الشاب على عجلٍ ..

ــ إنك ، قطعاً ، لست يونانياً أو تركياً .. أو أمريكياً .. أو من أصحاب

أنصاف الجنسيات !.. ألماني ؟! لا .. ليس في كلامك ما يشير الى لكنتهم البربرية !

ـ إني عربي !

أطلق الشاب ضحكةً عاليةً .. وقال ..

ـ هذه نكتة ! نكتة .. لا بأس بها !

أصرّ فراس على كلامه .. وقال في جدّية ، وبساطة ..

ـ بل أنا عربي .. وما الغرابة في ذلك ؟!

نهض « باولو أليبرتو » من مقعده ، وقال ..

ـ حسنٌ ! إنك لا تريد أن تدلي بحقيقة شخصيتك .. ولا ألومك .. أثر هذه الدعوة الغريبة ! بماذا أدعوك مؤقتاً ؟.. ما اسمك الأول ، على الأقل..

ـ « ماكسيمليانو » ..

غاب « باولو أليبرتو » برهة ، عاد بعدها يحمل طبقاً عليه فنجانين من القهوة الإيطالية ، السريعة .. قال ، وهو يدنو بمقعد صغير مريح من حيث ظلّ فراس جالساً ، قرب البيانو ..

ـ عزيزي « ماكسيميليانو » !.. يا فارس الليل الوسيم .. إني في حالة بوحٍ .. هذه الليلة .. فلا تلتفت الى ما قد يزلّ به لساني ! قلتُ لك .. إني الرمز الحيّ لـ « فينيتزيا » .. وهذه حقيقة .. فليس من لم يسمع باسم أسرتي.. التي شاركت في حكم هذه المدينة ، مدى أجيال طويلة ، منذ القرون الوسطى ! لكن الزمان تبدّل ، وجدّي تزوّج امرأة كانت خادمة في قصره .. أما والدي ، فلقد تزوّج ابنة صاحبِ متجر للصيد ! وأنا .. اليوم .. بعد أن فقدت والدي في طفولتي .. ثم والدتي ، بعد مرض عضال ، أراني وحيداً .. ورثت قصراً بديعا ، تكاد الدولة تشاركني في ملكيته ، بعد أن أحالته الى مركزٍ للفن ومتحفٍ للوحات « تينتو ريتو » .. أعيش في هذا المرسم الذي كان عشّ الغرام لجدي .. وأرسم مثل هذه اللوحات ، ذات المواضيع القديمة .. يبيعها

بعضهم للسيّاح على أنها فعـلاً قديمة .. فأكسب عيشـي بهذه الطرق نصف الملتوية .. وأنا أغرق !! تماما كما تعيش مدينتي .. وتغرق !! نحافظ على ذكر أمجادنا ، عبر أساليب ، نصف ملتوية ! فبدل تجارة مدينتي السالفة.. العامرة ، باتت تكسب عيشها مما ينفقـه السياح فيها ! تزداد غرقاً في البحر ، سنة ، بعد سنة !.. ما من خطة ، أو مصدرٍ للمال ، ينقذها من قدرها المشؤوم !

كان فراس يتمعّن في ملامح وجه محدثه ، الأنيقـة الخطوط ، الصافية البياض .. يصغي في سـرورٍ الى لهجة البندقية الخاصّة في إحالة حـروف الزاي الى ذاء .. يتعجب لحاجة مضيفه الملّحة لتفريغ ما في نفسه من هموم !

توقّف « باولو أليرتو » فجأة عن الكلام .. ثم قال وقد تورّد وجهه..

ـ إن نظراتك هذه ، لتبعث الحيـاء في نفسـي .. لماذا تتفرّسني على هذا الشكل ؟!

ثم ضحك ، وأردف في لهجةٍ شاعرية ..

ـ آه .. ليتك كنت عربيّاً حقاً .. غامـق السمرة .. أسود العينين !.. لو كنت كذلك ، لأسميتك « عطيل » .. ولأسمعتك ألحان العـود الشـرقي القديـم ..

تبسّم فراس .. سائلاً ..

ـ وأين « ديزدامونا » ؟

نظر « باولو أليرتو » الى فراس ، واجماً .. تكاد تطفر الوحدة والكآبة من عينيه .. وتمتم قائلا ..

ـ أليس في استطاعتي .. أن أحل مكانها .. ولو الى حين ؟

نظر فراس إليه طويلا .. ثم قال ..

ـ بلى .. شريطة أن يقتصر ذلك بيننا على الكلام .. والشِعر !

لعلّ « باولو أليرتو » كان يتوقّع رفضاً من زائر الليل ، يحيل وجومه ، ووحدته ، الى حزنٍ حقيقي .. تعـوّد أن ينهي ليله في أعماقه المأساوية !

باغته ما سمع من ردٍّ ، أتاه كالمداعبة ، بدلَ الصدمة التي كان يتهيّبها ..
فأشرق وجهه ، في امتنانٍ .. وتمتم ..
ــ إنك لشاعر حق .. وإنسان كريم .. فوق كل شيء ..
وكأنّه لم يشأ أن يحتفظ لنفسه ، طويلاً ، بـدور الانسان المسالم ..
أضاف ، وقد عاد صوته ، فجأة ، الى نبرته الساخرة ، الأولى ..
ــ .. إنما .. تنقصك الشجاعة !.. لا تجـرؤ دوماً على المضـيّ ، حتى نهايــة ما تبتدئه ، من الطرق الوعرة ! وأظنك تدرك أني لا أقصد من قولــي هذا ، أيّة إشارة الى ما رفضتَه ، في لباقــة ، بالنسبة لي !

لم يحر فراس جواباً .. طار خياله الى حيث تــرك « بالومــا » .. الى ما يشكو منه ، في علاقتهما .. تذكّر أنصاف الحلول التي يجدها للمآزق التي توقعه فيها .. أنصاف الأسئلة التي يطرحها على نفسه ، بخصوصها .. وأنصاف الأجوبة التي بات يكتفي بها !

لقد صار أسير شهوته .. يهجع الى النوم على طعم شفتيها .. ويصحو ، في اليوم التالي ، على صورة نهديها ! كان محدّثه الغريب على حق ! فراس ، لم يعــد ذاك الإنسان الذي لا يقبل بالمواربة ، وأنصاف الحلول ! لقد أعماه حبه لها ، حتى بات يقبل بأي حل .. طالما أنه يبقي على علاقته بها !
نظر الى محدّثه طويلاً .. وكاد أن ينسى اسمه .. وقال ، يكتم مرارةً ، تصاعدت في نفسه ، فجأة ..
ــ قل لي ! ما الذي يجعل إنسانة تُحبّ ، تهرب من ذراعيك ، بمجرّد الوصول الى نشوتهــا ؟! تتجنّب عينيك .. كأنــك قاضٍ من قضاة محاكم التفتيش .. ضَبطْتها تقوم بفعلة نكراء ؟!

أدرك « باولو ألبيرتو » أن سحر الليل قــد سرى الى نفس محدثه وأنه يُســرّ إليه بهمّ دفين .. فخالجه ، نحوه ، شعور بالمشاركة والرأفة ، أعــاد الى نفسه إحساساً بالتماسك كاد يفقده منذ حين !.. انتابه ، خلال لحظة خاطفة ، شعور بالتشفّي لما يمكن أن يعــاني منه إنســان « ســوّي » من مصاعب !

إنسان" ، على غير ميوله الجنسية ، هو ! لكنه تعامى عن الشماتة .. وقـال ، يُدلي برأيه الصريح ، في لهجة جادة ، سمحة ..

ــ .. لا أظنّ أن هنالك ما يقسرها على ممارسة الجنس .. معك !

هزّ فراس رأسه ، نافيا .. فتابع الشاب ..

ــ .. أظن أنها ترفض الجنس .. نفسه !

ــ لكنها تسعى إليه .. في شبقٍ عجيب !!

وقف « باولو أليبرتو » واتجه نحو الموقد ، يغذّيه بقطعٍ من الحطب .. ثم قال ، كمن يمتحن سعة اطلاع محدثه ..

ــ إن الحاجة للجنس أمر" .. وطريقة إروائه .. أمر" آخر ! الحاجة .. واحدة .. كما تعلم ، أما الطرق الى إروائها .. فمتعددة .. مرتبطة ببناء الفرد النفسي .. وعلم النفس ، واضح" في تأييد ما أقول ! ألا توافقني ؟!

نظر فراس إليه طويلاً .. وقال ، ونفسه تتوق للبوح بما يوجعه ..

ــ وما رأيك لو قلت لك ، إن تلك الفتاة لا تأتـي إليّ ، إلا بعـد أن يثـير شهوتها شاب" ، سوقيّ !! أي شابٍ كان .. شريطة أن يكون ذا جسدٍ مفتولٍ ، وعضوٍ يتحرّق للإيلاج !!

ضحك « باولو أليبرتو » .. وقال في مرحٍ ظاهرٍ ..

ــ هل أنت واثق من أنك تتحدث عن امرأة ؟!

فتح فراس عينيه ، دهشة ، لما سمع .. وتمتم قائلاً ..

ــ ماذا تعني ؟ بالطبـع !.. إني أتكلم عن امرأة ! بل امرأة .. كاملـة الأنوثة ! ولقد كنتُ معها ، قبل أن ألقاك !!

تابع الشاب لهجته المرحة ، وأردف ..

ــ خلتك تتكلم ، في صورة مبطّنة ، عن شابٍ .. مثلي .. لا يميـل صراحة الى النساء .. لا يكاد يفـرغ من مضاجعتهن ، حتى يهـرب منهن الى غيرهن .. مثل « دون جوان » !.. فإذا كنتَ حقاً تتكلم عن فتـاة .. فظنّي أن فتاتك هذه تشكو من العقد نفسها ! إنهـا لا تميل الى الرجال ! ولعلهـا

ما تزال في الطـور الذي ترفض فيـه الاعتراف لنفسها بما تشكو منه !

عاد الى حيث كان يجلس ، قرب فراس ، وقال ..

ــ ليتني أتعرّف على مثل هذه الفتاة ! ليس مثلي من يعرف السبيل الى إرضاء حاجاتها !

تأجّجت في نفس فراس ، غيرة مفاجئة ، عجيبة ، لمجرد سماع ما ذكـره الشاب ! وبدا ذلك على ملامحه .. فنهض في نزقٍ ، وقال ، وهو يقصد الباب.

ــ لقد حان موعد عودتي .. أشكرك على دعوتك !

بادر « باولو أليبرتو » الى الاعتذار .. ولحق بفراس ، يشدّه من ذراعه ، في لطفٍ .. يرجوه ألاّ يُساء فهمـه !.. الى أن قال ، يتوسّل اليه ..

ــ أرجوك .. لا تتسرّع .. لا تتركني على هذه الحال !.. كيف تغضب مما قلت .. وأنا لا أعرف من التي تتكلم عنها ، ولم أرَ فتاتك هذه في حياتي ؟! إنما كنتُ أحدّث نفسي .. أتمنّى مثل هذه الفتاة .. لنفسي .. لأنني أحـلم بها ، منذ زمـنٍ بعيد .. أمنّي النفس بأنها قد تحلّ عقدي .. فتنتظم حياتي على منهجٍ ما .. أُشـرك فيه امـرأة في حياتي .. أية امـرأة كانت ! بـدل ما أنا فيه ، من وحدة ، لا أعرف كيف أنهيها !! وحدة قاتلة ، قد لا يكون لهـا من آخر .. إلا عن طريق يدٍ مجرمة .. أخطىء ، فأدعوها يومـاً الى داري .. هرباً من تعاطي المخدرات التي باتت سبيلي الوحيد للنوم !!

كانت دموع « باولو أليبرتو » قد تجمّعت في مآقيه .. فأدار ظهـره ، يحاول إخفاءها ، قال ..

ــ ألم تنسَ شيئاً .. عندي ..

وتشاغل في البحث هنا ، وهناك ..

عاد فراس نحوه وقد نسي ما أغضبه منه .. وقال ، في لهجـةٍ صادقةٍ ، عطـوف ..

ــ لقد تأخرتُ فعلاً .. سأراك غدا ، إن كنتَ تشاء ذلك .. تعال الى مقهى « فلوريان » .. في الخامسة بعد الظهر ..

ثم اقتــرب من « باولو أليرتو » .. وقبّله على خــده ، في عطــف .. وهو يقول ..

ــ عدني .. أنك لن تتناول من مخدراتك .. هذه الليلة .. على الأقل !

تبسّم الشاب ، وقال ..

ــ أعدك بذلك .. الى الغد !

ثم استوقفه ، سائلا ..

ــ وهل تعرف الطريق الى فندقك ؟

ــ .. لا أظن ذلك .. لكنه ليس ببعيد ..

ــ إنها الرابعة صباحاً .. ولا يحسن بك أن تســير في الأزقّة الخالية ، وحيداً .. في مثل هذه الساعة .. سأرافقك ، مسافة بعض الدرب ..

وتدثّر « باولو أليرتو » بمعطفه العــريض ، وخرج الاثنــان ، مــرة ثانيــة ، الى رطوبة رذاذِ الضباب ، وعتمة الطرقات الضيّقة ، ذات الإنــارة التاريخية الباهتة .. وسارا في صمتٍ ، لا يسمعان فيه سوى وقع أقدامهما ، على ما رصفت به تلك الدروب ، من حجارة مكعبة سوداء ..

* * *

الفصل الثاني عشر

سمع فراس طرقاً خفيفاً على باب غرفته .. فتنبّه من نومه .. أضاء نوراً الى جانبه ، يستطلع الساعة .. ثم سـمع صوت « شارل غوستاف » يستأذنه بالدخول .. فلمـا أذن له ، دخـل ، والقلق بـادٍ على وجهـه .. ويسأل ، على الفـور ..

ــ ماذا بك ؟ هـل ألمّ بك شـيء ؟.. قل ! إن عامـل الهاتف يرفض أن يصلني بك !

ولما طمأنه فراس .. تابع « شارل » ، في عتابٍ وحيرة ..

ــ لقد تواريت البارحة عن الأنظار .. دون أن تترك خبراً يطمئننا عنك ! لم أتعـوّد هذا منك ! كنتُ على وشكٍ طلب تدخّل السلطات .. أو أحد .. للبحث عنك ..

واسترسل « شارل غوستاف » ، يُفرغ ما احتبس في نفسـه من أفكارٍ سوداء ، مثـلت في مخيّلته ، منذ البارحة .. سبّبها اختفاء صديقه المفاجىء ..

قال فراس ، يتشاغل بالنهوض من فراشه ..

ــ كان حريّاً بك توقّع ذلك .. منذ شاهدتَ « بالومـا » ، توافيكم وحيـدة .. من دوني ! لا سيّما أنك على اطّلاعٍ بما يتجـاذب علاقتنـا ، من مـدّ وجـزر !

ثم استطرد ، بعد أن تثاءب في كسل ..

ــ يا إلهي .. إنها الساعة الواحدة ! أين « مارتشيللو » ؟

ــ لقد أرسلته في طلب القهوة لك .. أردتُ أن أكلمك برهة ، على انفراد ..

ــ وبقية الأصدقاء .. الأعزاء ؟!.. أين تفرقوا ؟!

ــ إنهم .. في بهو الفندق .. يسامرون أميرك .. الذي أخفيتَ عنا معرفتك به !!

سأل فراس ، في دهشة ساخرة ..

ــ أميري ؟! ومن يكون « أميري » هذا ؟!

ــ الأمير « فوسكاري » !! ومن غيره ؟!

قطّب فراس حاجبيه .. يسترجع حوادث الليلة السابقة .. ثم قال .. في دهشةٍ صادقة ..

ــ « باولو ألبيرتو » ؟! وهل هو هنا ؟! أمير ؟!

تعجّب « شارل غوستاف » .. وأجاب ، في حيرة ..

ــ أنت .. تسألني مثل هذا السؤال ؟! لقد عهدتك علاّمة في التقصّي عن الأصول ! عزيزي .. إن صديقك « باولو ألبيرتو » ليس أميراً فقط .. أو أحد أدعياء الألقاب الرنانة .. إنه أحد القلائل ، ممن تبقّى لـ « فينيتزيا » من أمرائها الأقحاح ! ليتك رأيت ما أحاطه به موظفو الاستقبال ، من احترامٍ ورعاية ، حين أتى يطلبك ، منذ ساعة !!

صمت « شارل غوستاف » ، ثم تابع كمن يسترجع شيئاً كاد يغيب عن ذاكرته ..

ــ إنه سليل « فرانشيسكو فوسكاري » الـ « دوج » الكبير ، الذي حكم هذه المدينة في القرن الخامس عشر ! هل تفهم معنى كل ذلك ؟!

هزّ فراس رأسه عجباً لما سمع .. ثم قال .. مازحاً ..

ــ ومن أين لك .. أنت .. بهذه المعلومات ؟.. لم أعهدك موسوعة في علم التاريخ ، من قبل !

ـ عزيزي .. إن حروب هذا الـ « دوج » مع أسـرة « فيسكونتي »، التي حكمت « ميلانو » .. جزءٌ من تاريخ هذه المدينة ! لكن .. كيف أخفيتَ عنا معرفتك به ؟صحيح ، إنه ، كمثل الكثيرين ، من نبلاء إيطاليـا الحقيقيين ، ليس له ثروة شخصية تُذكر .. ولعل هذا هو سبب تجنّب معظمهم للأماكن الفخمة ، العامـة .. لكن إنسانة مثل « الماركيزا كولونا » تفخر ، أي فخرٍ ، لو قبل صديقك هذا أن يشرّف قصرها بزيارة !!

ـ تقول هذا عنهـا ، وهي التـي لا يفـارقها النبلاء ؟! وهل نسيت « أماديو » سليل عرش إيطاليا ؟!

ـ « مكسيم » ! إن « أماديو » ليس إلا متطفّلاً ، حديـث النعمـة ؛ بالمقارنة مع أسـرة ، كعائلة « فوسكاري » !!.. لقـد كـان « فرانشيسكو فوسكاري » دوج « فينيتزيـا » !!.. ومعنى ذلك ، أنه كان يحكم أقـوى ، وأجمل ، جمهورية في العالم الوسيط ! أين مجد « فينيتزيا » في ذلك العصر ، من حُكم الأسرة المَلَكيّة الإيطالية الحديثة ؟!

قـال « شارل غوستاف » ذلك .. في لهجةٍ من يُدلي بأمورٍ حيويّة .. وفي نبرته بعض الأسف لجهل صديقه بهـا !.. وكان فراس قد اغتسل ، وخرج لارتـداء ملابسه ..

دخل « مارتشيللو » يحمل القهوة ، وباشر فوراً في مساعدة سيده ..

بدا لفراس أن الشاب يُبدي له من الألفة ، في أداءِ عمله ، ما لم يشعره منه ، من قبـل .. يرفع السترة جيـداً ، وهو يساعده في ارتدائها .. يربّت على الطيّات ، حتى تأخـذ شكل الكتف .. يمسحها ، هنا وهناك ، ثم يسرع بالفرشاة ، ليزيح عنها ما لا يراه سواه ، من بعض الغبـار ..

سـأله ، في عفويته المعتـادة ..

ـ هـل استرحت في سريركَ الجـديد ؟!

ارتسمت على شفتي « مارتشيللو » ابتسامة عريضة .. وقال ..

ـ كل الاستراحة .. يا سيدي .. كانت ليلة .. ولا أهنأ !

تعجّب كل من فراس و « شارل غوستاف » لنبرة المبالغة التي خصَّ بها الشاب كلامه ، وهو يذكر هناء البارحة !

فسأله فراس ، يكتم عجبه ، وتوجسه ممّا سمع ..

ـ وهل من مغامرة خاصة ؟!.. أو سببٍ خاصّ .. مرّ بك البارحة ؟!

غمز « مارتشيللو » بعينيه ، ثم أشار بحركات من رأسه ، يومىء لسيده أنه يفضل إرجاء الكلام ، الى حين انصراف « شارل غوستاف » .. وكان ، في تلك المحاولة بالذات ، إشارة جديدة الى إلفة ، مع سيّده ، لا يسمح له بها مقامه !.. مما حدا بـ « شارل غوستاف » الى النهوض .. وانتحال عذر ، للانصراف ، تاركاً لصديقه فرصة التحدث معه ، بالشكل الذي يريد ..

قال لفراس ، وهو يتّجه نحو الباب ..

ـ لا تتأخر .. نحن في انتظارك في البهو .. مع الأمير « فوسكاري » ..

تمتم « مارتشيللو » لنفسه في صوتٍ خافتٍ .. وهو يسمع قول « شارل غوستاف » ..

ـ « أمير فوسكاري » .. أمير ؟!.. إن نظري لم يقع على أمير ، إلا على شاشة السينما !

كان فراس قد أوشك على الانتهاء من ارتداء ملابسه ، فسأل « مارتشيللو » على عجل .. يتبسّم سلفاً لما يتوقّع سماعه من أخبار مغامرةٍ طريفة !

ـ إيه !.. أخبرني .. أين قضيتَ سهرتك ؟

ـ هنا .. في الفندق .. يا سيدي .. والليل كذلك !

ـ حسنْ .. ومع من ؟!

أجاب « مارتشيللو » متعجّباً .. لا يفهم سؤال سيده ..

ـ ظننتك على علم !.. مع السيدة « بالوما » طبعاً .... سيدي !.. لقد كانت رائعة حقاً !!

رفع رأسه ، وأغمض عينيه برهـة ، وهو يتابع ..
ــ رائعة ، حقـاً .. في المرة الأولى .. وفي الثانية !

غاب الدم من وجـه فراس .. واعتصر الألم أحشاءه ، فجأة .. فاستدار نحـو النافذة ، في بطء ، وأخرج لفافـة ، أشعلها ، وهو يقول ، مستدركاً ، متخفّياً على جهـله ..

إني على عـلم .. بالمرة الثانية .. ومتى تمّت .. المرة الأولى ؟!

أجاب « مارتشيللو » ، مبتهجاً لرغبة سيّده في استزادته من ذلك الحديث الذي يُرجع ذكريات البارحة الى ذهنـه ..

ــ سيدي !.. المرة الأولى .. كانت ، لدى وصولنا الى الفندق .. فـور صعودنا الى غرفنا !.. وكنت قد حملتُ الى السيدة « بالوما » بعض متاعها ، الى غرفتها .. كانت السيدة « ليـزا » عندها .. وكانتا تتضاحكان في خفّـة مثيرة .. وقـد احمرّت وجنتاها !.. فقلت لهما ، مازحاً .. « مـاذا .. هـل استغنت النساء عن حاجتها لهذا » وأشرت الى .. الى .. انك تعرف يا سيدي إلامَ أشرت !.. صدّقني ، يا سيدي .. لقد كنتُ في حالة استعداد .. منـذ دخلت الغرفـة !!

توقّف « مارتشيللو » برهة ، يأخـذ أنفاسه .. ثم تابع وهو يقوم بطيّ ملابس الليلة الماضية .. وإعادتها الى أماكنها ..

ــ لقد غاب عن ذهني أن أخبرك ، يا سيّدي ، أنها لم تكن جرأة مني !.. ولا مفاجأة !.. فلقد لاحظتُ ، منذ كنّا في المركب ، أن السيدة « بالومـا » تداعب السيدة « ليـزا » .. مداعبة بسيطة جـداً .. خفيّة !.. غابت عـن ملاحظة الجميع ، ما عـداي أنا !

كان « مارتشيللو » يتكلّم ، وتتحدث كلتا يديـه ، معه ، في فصاحـةٍ إيطاليةٍ معبّرة .. ضمّ حاجبيه ، في خبثٍ طفوليّ ، بريء ، وتابع ..

لكنني كنت أراقب مايجري .. دون أن أدع أحـداً يلحظ ذلك !.. حتى فطنتُ الى أمـرٍ مهمّ .. وهو أنه من الخير لي، أن أُعلِمهما أني على علمٍ بسرّهما !!.. وكنت عـلى صواب !.. إذ ما إن فعلت، حتى باتت كل منهما تعيرني مداعبة خفيفة، بيدها، من برهـة الى أخرى !

قال فراس في صوتٍ أجشّ، اضطر أن يسعّل بعده ..

ـ وماذا حصل في الفندق ؟!.. لدى دخولك غرفتها ؟!

ـ تداعبنا .. يا سيدي .. ثلاثتنا معا، برهـة وجيزة .. ثـم خرجَتْ السيدة « ليزا » الى غرفتها، خوفاً من سؤال الكونت « دو بروفانس » عنها .. فما إن خلا الجو لنـا، حتى قمنا بجولةٍ أولى، بسيطة .. قصيرة المدى ..

ـ ماذا تعني ؟!

ـ سيدي !.. مناورات فقط .. كان السعاة في جيئةٍ وذهابٍ، يحملون الحقائب الى الغـرف المخصّصة !.. لذلك .. لـم نجـد الوقت الكافي .. لإتمـامِ .. كل شيء !

تمهّل برهة، راح ينظـر خلالها الى سيّده في إعجابٍ شديد ..

ـ لكنك أتممت يا سيدي .. الجـولة، والمباراة معاً !.. حين ذهبتْ السيدة « بالوما » الى غرفتك .. تنتظرك في السرير !.. ولقد شاهدتُ قسماً وجيزاً مما جرى .. من وراء باب السيدة « بالوما » .. الملاصقة لغرفتك !.. لقـد كان مشهدكما يفوق جمالاً، كل ما شاهدته في حياتي !.. خصوصاً ذلك الوشاح الأبيض، الذي كانت تستر به وجهها في البدء، كيفما تحرّكتما !

جفّ حلق فراس .. وتمزّق، بين رغبة جامحة في ضرب زجـاج النافذة التي أمامـه .. وأخرى موازية، في الجلوس الى مقعدٍ قريبٍ منه .. خـائر الأوصال .. ليستمع في هـدوء واستسلامٍ، الى بقيّـة ما لـدى خـادمه من مفاجـآت !!

لم يغب عن إدراك فراس، أنـه في كل ما سمعه منه، لم يشعر تجـاهه بالغيرة، أو الغضب !.. كان لبساطة طبيعة « مارتشيللو »، وعفوية أسـلوبه

في إدراك الأمور ، ما يغفر لــه ، لدى فراس ، جميع ما يسرده عليه !

كيف يحسّ بغــيرة ما تجــاه نادل ، مثــل ذاك الذي وقف وراءهما ، خلال العشاء ، في الفيلا « لودوفيزي » ، عنـد الماركيزا « كولونــا » ؟!.. ما ذنب ذلك الشاب الذي كان الدم يطفح الى وجهــه ، والعرق يتصبّب مــن جبينه ، لمداعبةٍ ، لا حيــلة له أمامهــا .. ولا سيطرة لــه على صاحبتها ؟!.. وماذا كان دور « مارتشيللو » ، هذا .. في كل ما جرى ؟!.. إن لم يكــن دور جسدٍ شــابٍ .. يأتمر بما يؤمر بــه !.. ينفّذ ما يُطلب منه !.. ويتوقّف ، صاغراً ، عند أي حدٍ من حدود لذّته ، مهما دنا من ذروة الشهوة !

سمع صوت « مارتشيللو » يسأله في هــدوء .. كأنه يجيب نفسه عــن تساؤلاتٍ جالت في خاطــره ..

سيدي .. هل شاهدتَ السيدة « بالوما » ، وهي تعود الى غرفتهــا .. هذا الصباح ؟.. هل .. هي .. التي أطلعتك على المرة الثانية ؟!

تنبّه ذهن فراس الى سؤال خادمه !.. ماذا عنى بقوله « تعــود هــذا الصباح » ؟!.. ومن أيــة غرفة يمكنها العودة .. وليس لهم في ذلك الفنــدق إلا جنــاح « شــارل غوستاف » .. و « ليــزا » ، ثم غرفة « مارتشيللو » .. و « باتريس » ؟!.. ثم مَن الذي يمكنه إطلاعــه على « المرة الثانية » إن لــم تكــن « بالومــا » نفسها ؟!

أجاب في أسلوبٍ يدعو « مارتشيللو » لتكملة الحديث ..

ــ .. شاهدتُها .. ولم تتحدّث .. كانت مغتبطة .. تعبة ..

تبسّم « مارتشيللو » .. وقد فهم ما كان قد غاب عنه .. فقال ..

ــ لقــد كان « الماركي دو غريفيل » إذن .. هو الذي أخبرك .. عــن كــل شيء !

تلفّظ « مارتشيللو » بلقب ، واسم أسرة « باتريس » ، في شيء مــن من السخرية ، المبطّنة !.. فلم يفهم فراس سبباً لذلك .. وإذا بالشاب يتــابع قــوله ، في لهجةٍ تشبّعت بعطفٍ جديد ..

ــ إن « الماركي دو غريفيل » لإنسانٌ رقيق القلب ، حقاً !.. أظن أنـه تنبّه الى حالتي ، إثر ما جرى لي ، مع السيدة « بالوما » .. منذ عـدتُ الى غرفته .. فشاء أن يخفّف حملي ، عن كاهـلي !

ثم ضحـك ، وأضاف ..

ــ ولعل الأمـر لم يكن سراً .. وبنطالي كان على وشـك أن يتمزّق ، بسبب ما تركَتْني السيدة « بالوما » فيه !!

علّق فراس ، على مضضٍ .. في سخرية مقنّعة ..

ــ نعـم .. إنه ذو قلب رقيق !

ثم صمت برهـة ، سـأل بعدها ..

ــ وكيف لخفّف « الماركي دو غريفيل » عنك ، حِملك ؟!

سُرّ « مارتشيللو » لأسئلة سيّده المتتابعة .. فردّ على الفور ..

ــ داعبني .. قليلا ، في البدء .. ثم قال لي .. إن أمامنا الليـل كلـه !.. وبالفعل .. عدنا الى الفندق ، بعد العشاء .. ثم الى غرفتنا .. وأطفأنا النور .. وكنـتُ لا أنفـكّ أفكـر بالسيـدة « بالومـا » .. ثـم ، تصـوّر : يا سيـدي !!.. فوجئنـا بعـد ، بقـرعٍ لخفيف على البـاب ، فقـز لـه « الماركي » كالمجنون من السرير ، فما إن فتحه ، حتى رأينا السيدة « بالوما » تدخـل الغرفة كالشبح ، تطبع قبـلة على شفاهه .. ثم تنظـر إليّ ، كأنهـا توقّعت ما تراه ، وتقول لي .. « كنت أعلم أنك سوف تفسد الجميع !! » ..

شدّ فراس على أسنانه يكاد يطحنها ، ثم سأل ، في هـدوء ..

ــ وماذا حـدث بعـد ذلك ؟!

ــ كل ما هو طبيعي ، وجميـل !

كان « مارتشيللو » يُحسن الكلام ، في طلاقة وسرور ، ما دام مشغول اليدين ، يقـوم بترتيب الثياب ، أو منهمكاً في أداء عملٍ ما ، لا لزوم لـه ، والخدمة متوفرة في الفندق .. فما كاد يُنهي كلامه ، وكان قد أتـمّ ما يشغله دون أن يجـد حوله ما يمكن إعادة ترتيبه ، مما قد يُطلق لسانه من جـديد ،

حتى توقّف عن الكلام ، وراح يراقب سيده ، الذي كان على وقفته الأولى ، ظهره له ، يدخّن لفافته ، وينظر الى البحر البعيد ..

سمع صوت سيده يسأله ، فجأة ..

ـ « مارتشيللو » !.. هل تميل حقاً ، الى .. الى تجارب مثل التي جرت لك البارحة مع « الماركي دو غريفيل » .. قبل وصول السيدة « بالوما » ..

ردّ « مارتشيللو » على الفور ..

ـ أنا لا أميل إليها ، بشكلٍ خاص !.. إنها أمورٌ طفولية .. كنّا نعرفها .. أيام المراهقة الأولى .. وأما فيما بعد .. فما حاجة الشاب إليها ، طالما أن هنالك نساء ؟!

ـ إذن .. إنها ، كبديلٍ .. ليست بعيدة ، كل البعد .. عن التجربة الطبيعية !

صمت « مارتشيللو » برهة ، أحس كأن سيّده يقوده نحو فخّ ، أو نتيجةٍ قد تكون محرجة لرجولته .. مأزق قد لا يعرف التخلّص منه .. فقال ..

ـ سيدي !.. « طبيعي » .. أو « غير طبيعي » .. أنا لا أفهم معنى لمثل هذه الألفاظ !.. هنالك أمور ، ممنوعة .. وأخرى ، مسموحة !.. لكن الأمرين ، كليهما ، طبيعيان بالنسبة الى فهمي معنى الكلام !!.. فالإنسان المكتفي ، لا يسرق !.. والحاجة ، قد تدفع البعض الى السرقة !.. والسرقة ، أمرٌ ممنوع !.. لكن الإنسان يبقى « طبيعياً » سواء سرق ، أم لم يسرق !!

أطرق برهة .. كأنه قد خاف أن يضيّع على سيده ما بدأ يضيع على فهمه ، هو .. فأعاد ، في قناعة تامة ..

ـ سيدي .. إن الإنسان السارق .. إنسان طبيعي !.. أليس كذلك ؟!.. أليست السرقة ، في الطبيعة ، أمرٌ طبيعي ؟!.. إنها أمر مكروه ، لا شك في ذلك ، لكنه ، طبيعي !!.. أليس كذلك ؟!

لم يردّ سيده على سؤاله .. نهض ، يقول له ، وهو يتّجه نحو الباب .

ـ قد لا أكون في حاجة إليك طوال اليوم ، والليلة !.. « مارتشيللو » ..

إن لك ملء الخيـار فيما تقوم به ، مع أي إنسان تريـد .. لكني أطلب منك شيئاً واحداً .. وأصرّ عليك ، في تنفيـذه !.. وهـو ، ألاّ تخبـر أياً مـن « الكونت دو غريفيل » أو السيدة « بالوما » بأنك قد رويتَ لي ، ما رويت.. هل تفهم ؟!.. إيّاك أن تطلعهما على ما يـدور بيننا !!

ـ سيدي !.. لكنك قلتَ لي إنهما يحدّثانك عن ذلك ؟!

تصاعد حنق فراس فجـأة .. لسبب خفيّ يجهله .. فقـال في برودةٍ متعاليـة ..

ـ هذا شأننا نحن !!.. ولا علاقة لأمثالك بـه !!.. أم هـل تظن أنك ستصبح يوماً موضوعاً .. تتحدث عنه ؟!.. اسمع .. لا تغادر الفندق اليوم !! فقد أحتـاج منك أن تعود الى روما !.. اليوم ، أو غـدا !!

خـرج من غرفته ، يستغرب ما بدر منه ، يتعجّب أنه لم يكترث لمـا في قوله من ترفّع لا بـدّ قد جرح إحساس لخادمه !

أحس أنه على وشك الاستسلام لحنقٍ دفين ، وغضبٍ ، بات على وشك أن يتفجّر في وجـه جميع من حولـه !!

لماذا يكترث لإحساس شـابٍ مثل « مارتشيلاو » ، حـين لا يكترث هذا ، لما تسبّبه له أقواله تلك ، من جرحٍ وتخديش ؟!.. من قال ، إنـه على تلك البراءة التي يراها فيه ؟!.. ومن يكفل له أن بساطته الظاهرة ، لا يحرّكها حقـد طبقيّ دفين ؟!.. صحيح أن لـ « بالومـا » فتنة قـادرة على الإطاحة بتحفّظ أي إنسان ، كائناً من كان !.. وأن « باتريس » ، بالنسبة الى شـاب مثل « مارتشيللو » .. ليس ذلك البديل المكروه !.. لكـن .. أين مشاعره هو ، في كل ما يجري حوله ؟!.. ولماذا يتصرف الجميع ، بدفعٍ من غرائزهم ، في حين يقيّد نفسه ، هو ، برفعة كرامته ، وبحافزٍ من الإدراك ، صار أسـيراً لـه ، يكبّله بالتفهم ، والتسامح ؟!

قرّر على التو إبعاد « مارتشيللو » الى روما !!.. أما « بالوما » فماذا يفعل بشأنها ؟!.. كيف يبتعد عنها .. أو تبتعد عنه ؟.. ليته لم يعرفهـا !!.. ليتهـا تختفي فجـأة من حيـاته !!.. ليت من يأتيه ، في تلك اللحظة ، بنبـأ موتهـا !!.. فيستريح منهـا الى الأبـد !!

ماكان في وسع فراس أن يزداد حنقاً ، على حنق ، ولا أسى ، على أسى !!

كان ، لِما أرخى له العنان ، من بعض نوباتِ الغضب ، للحظات ، أثر" معاكس" في نفسه !.. فبـدل أن يريحـه ذلك ، ويخفّف عنه ، بعض ما كان يكبته في نفسه ، من أثرِ التجاهل لمـا يمرّ به ، والسكوتِ عليه .. تسارعت حاجته لإطـلاق ماتبقّى في نفسه ، من قهـرٍ مكبوت !.. حتى كاد ، وهـو يسرع في السير عبر الممر الطويل ، أن يضرب الآنية الصينيّة التي مرّ بهـا ، بيـده ، أو يركلها ، بقـدمه !!.. تراوده لذّة مسبقة لما سيحدثه ذلك مـن ضجيج ، وضرر !!

توقّف برهة على رأس السلم العريض ، المشرف على بهو الاستقبال .. يستجمع أنفاسـه ، يلملم شتات سكينته ، يبحث ، من حيث لا يُرى ، عـن رفاقه الذين جلسوا في إحدى الزوايـا الهادئة ..

أفاق فجأة الى أمر آخر ..من الذي قاد « باولو ألبيرتو » الى فندقه ؟!.. كيف اهتدى مضيف الليل هذا ، إليه ؟!.. أما وقد أتى .. فما تراه بات يعرف عنـه ؟.. وهو لم يكشف أمامه ، في الليلة السابقة ، إلاّ اسمه الأول !!

تنفّس في عمقٍ .. وراح يذرع عرض الممرّ جيئة وذهابا !!

تظاهر بالهدوء ، وهو يرى أحدهم خارجاً من غرفته .. ثم كاد يعود الى سابق توتّره ، لولا مرور إحدى مدبرات الغرف ، قبل أن تغيّبها غرفة أخرى ، شرعت في ترتيبها ..

توضح في ذاكرته أن « باولو ألبيرتو » كان قد رافقه، حتى ساحة الـ « سان ماركو » .. في الليلة السابقة !.. وليس من نزلٍ، في الاتجاه الذي تابع سيره فيه، إلا فندق « دانييلي » الشهير .. فكيف يخطئه « باولو ألبيرتو » .. وهو ابن البندقية العريق ؟!

بقي في ذهنه أمرٌ واحدٌ، كان، وهو في غمرة انفعاله، يحاول إدراكه، دون الخوض في التفاصيل !.. لا بد أن أحد موظفي الاستقبال، قد أكد لـ « باولو ألبيرتو » وجوده في الفندق .. ثم أعطاه رقم غرفته .. فهل أطلعه ذلك الموظف، كذلك، على اسم أسرته الجديد ؟!

نزل السلم الذي يقودَ الى البهو .. يعدّ خطواته .. يراقب رفاقه، وهم في غمرة حوارٍ طريفٍ مع ضيفهم الجديد ..

حيّا الجميع، في بساطة معهودة، يكتم انفعاله .. دون النظر الى « بالوما » .. وتبسّم لـ « باولو ألبيرتو » في أدبٍ، وتحفّظ !

جلس ينظر إليه، يتعجّب في سرّه للفارق الشاسع بين « باولو ألبيرتو » الليل .. وأمير « فوسكاري » النهار !

تذكّر « باولو ألبيرتو » الرومانسي .. التائه، في الليلة السابقة، بثوبه الأسود الفضفاض، الذي لفّه حول كتفه .. وخصلات شعره التي تهدّلت على جبينه .. استرجع في ذهنه .. ظهوره المباغت، في ذلك الدرب الضيّق، وتحت الإنارة الخافتة .. ثم تردده، ولهفه المكبوت !!.. وتعجّب، لما رآه أمامه الآن، من نفس الشاب، في لباسٍ محافظٍ، إنكليزي المظهر، والتصرّف .. ذي ربطةٍ صوفيةٍ، أنيقة .. يدخّن الغليون، في هدوء .. وقد لفّ ساقاً على ساق، يهزّ قدمه .. ويبتسم في ثقةٍ وتحفّظٍ لما يسمعه من سيلِ ملاحظاتِ الإعجابِ بمدينته الأثيرة !

لعلّ كليهما، كانا يخافان الكلام، كي لا يدلي أحدهما بما يناقض رواية الآخر، حول طريقة تعارفهما !.. فلا الأمير « فوسكاري » كان يودّ

أن يُعرف عنه أنه يدعو أناساً غرباء الى مرسمه ، بعـد منتصف الليـل ! ولا « دون ماكسيمليانو » كان في شوقٍ الى إطلاع رفاقه أنه ممّن يتلقّون ، ويقبلون ، مثل تلك الدعوات !.. بصرف النظـر عن رفعـة مقـام الداعي ، أو المـدعو !

قال « شارل غوستاف » في غبطةٍ من اكتشف أن لأحدٍ أقربائه ، ثروة ، كان يخفيهـا عن النـاس ..

ــ إن « مكسيم» ، لغـز" يظـن الإنسان أنه يعرفه .. الى أن يكتشف أمراً ، مثل معرفتكما ببعض .. فيعود ، في محاولة حلّه ، الى حيث ابتدأ !

علّق « باولو أليبرتو » .. في لهجةٍ من يُشير الى آفاقٍ بعيدة ..

ــ أما أنه لغز" .. فهذا أمر" أعرفه ، منذ أمدٍ بعيد !

وحـدّق في وجـه فراس .. قائلا ..

ــ منـذ متى ، بالضبط .. « دون ماكسيمليانو » ؟!.. هلاّ زلت تذكر ذلـك ؟!.. إن ذاكرتك لأفضل من ذاكرتي ، في مثـل هـذا الوقت !.. متى تعـارفنا ؟!

تبسّم فراس لسؤال رفيقـه المبطّن .. وأجاب ، يرتجـل مخرجاً من السؤال ..

ــ « مدريد » ؟!.. نعـم .. أيـام مدريد ..

ثم نظـر الى « شارل غوستاف » و « باتريس » ، مفسراً .. جاهـداً أن يبـدو كلامه أمامهما عفويّاً ، بسيطاً ..

ــ أيام الأمير مـراد .. واللهـو .. والرحـلة الى جبل طارق !

تذكّر« شارل غوستاف » ما كان لصديقه في الماضي ، مع أمراء الشرق ! رفع رأسه ، يستعرض في لخياله صوراً سريعة لأحداث مثيرة ، مخيفة ، عاشها في الماضي* مع فراس ، وكان على يقين أنها قد تودي بحياته !

---

* ورد ذكر هذه الاحداث في رواية « السقوط الى أعلى » للمؤلف .

انطلت عليــه إجابةُ فراس ، لذلك ، لم يشأ أن يستزيد صديقــه ، أو « باولو أليبرتو » ، حول تعارفهما ، خوفاً من اضطرار أحدهما لذكر أســماءٍ شرقية ، جــديدة على مسمعٍ من « ليزا » !.. لكــن صديقته لم تترك تلك المناسبة تفلت منها .. فسألت على الفور ..

ــ الأمير مــراد ؟!.. وهل تعرفانه ؟!.. يا الله !!.. لقــد شاهدته عن بعد في ملهى الـ 84 في روما .. عدة مــرات .. يا له من شــابٍ وسيم !!.. لكم أودّ أن ألقــاه ، عن قــرب .. أن أتعرّف الحيــاة الخاصة لذلك الشاب الوســيم !

ــ .. شابٌ .. وسيم ؟.. نعم إنه لكذلك !.. ويســرني ، أنا الآخــر ، أن نجتمع به من جديد !.. ما رأيك « دون ماكسيمليانو » .. هل من أمــلٍ في لقاء قريب ؟!.. نسمع فيه معاً صوت العود الشرقي ؟!.. كما في الماضي ؟!

لم يكن « باولو أليبرتو » بالطبع .. على أية معرفةٍ بالأمير مراد .. ولا سمع معه ، أو مع فراس ، أي عود شرقي !.. لقــد كان يشير الى ما تمنّاه في الليلة السابقة ، من لقــاءٍ رومانسيٍ ، مع شــابٍ شرقي .. « عطيــل » .. فارسٍ مغوار ، أسمر اللون !.. لكن الحوار بدا لبقية الجالسين كأنه يرمــز الى ما بين دون « ماكسيميليانو » والأمــير « فوسكاري » من عــوالم حميمة مشتركة .. حافلة بالأجواء الغريبة والمثيرة !

كان فراس طوال الوقت ، يتحاشى النظر الى « بالومــا » التي جلست صامتة .. تدرك من تجاهله لوجودها ، أنه يبيّت أمراً خفي عليها !!

لم تكن تجهل مدى تملـّكها لشهوته .. لكنها ، في سرها ، كانت تخشى برود تلك الشهوة .. لا تودّ فقدان ما بينهما من رباط ، ولا تعــرف مــدى وثاقــة عروتــه !

مالت نحو المائدة تبحث عن علبة لفائفها ، فلما لم تجــدها ، نظرت الى فراس ، تهتز جفونها ، عن غير عمــد ، وقالت ، في صوتها الواجف ..

ــ « دون ماكسيمليانو » .. هل لديك .. من لفائفي ؟!

ضحك « شارل غوستاف » متعجباً .. وسألها ..

ـ ولماذا تصرّين على الكلفة في الحديث معه ؟.. « بالوما » .. لماذا لا تدعينه « مكسيم » ، أو « ماكسيميليانو » مثل باقي الرفاق ؟

نظرت إليه ، بطرف عينيها ، وردّت كأنها تعنيه وحده بالإجابة ..

ـ إن الأمير « فوسكاري » الذي يعرفه منذ سنواتٍ طويلة ، لم يهمل الـ « دون » في الكلام معه .. فلماذا أبدأ أنا بذلك ؟.. وماذا بيننا ، بالضبط ، لرفع هذه الكلفة ؟!

لم يبدُ على فراس أنه انتبه الى ردّها .. ولا الى سؤال « شارل غوستاف » .. كانت ، حين مالت نحو المائدة ، قد كشفت لعينيه عن نصف ثديها العاري ، فبان تكوره ، وبياض بشرته ، وبرعم الحلمة الوردية التي غصّت حنجرته وهو يذكر ما كان له معها في الليلة السابقة !

أحسّ بوهنٍ مفاجىءٍ يسري في جميع أنحاء جسده !.. تمنّى لو يغيب وعيه ، وشفتاه ملتصقتان على ذلك النهد ، من جديد !.. شلّت إرادته ، أمام بحّة صوتها ، ووجل نظراتها .. فمال الى الوراء ، يخفي ما طرأ عليه ، يتنفّس في عمق ، وهو لا يدري ماذا يقول ، أو يفعل !

لعلّ شحوباً بدا على وجهه .. فتنبّه « باتريس » الى ذلك ، وتبادل النظر مع « شارل غوستاف » يسائله عما يكون سبب ذلك .. ثم بان « مارتشيللو » يتقدم منهم ، فما إن دنا ، ووقف إزاءهم ، حتى هزّ رأسه في تحيّة مهذبة للجميع ، وهمس لسيده ، في لهجةٍ منكسرة ..

ـ هل سأذهب الى روما .. حقاً .. يا سيدي ؟

تورّدت وجنتا « بالوما » .. وعلا الدم أذني « باتريس » ....

كذلك « ليزا » .. بدا على وجهها بعض الشحوب ، وقد خافت افتضاح

سـرّها مع « بالوما » !!

نهض فراس .. يبحث عن غرفة المياه .. يودّ أن يبلّل وجهه .. فلحق به « شارل غوستاف » .. يهمس في أذنه ..

ـ ماذا في الأمـر .. « مكسيم » .. ماذا تخفي عني ؟.. لمـاذا تـبعـد « مارتشيللو » ؟.. هل في الأمر من جديد ؟!

ما إن توارى الصديقان خلف باب غرفـة المياه ، حتى قـال فراس ، في سـخرية مـريرة ..

ـ « شـارل » .. لم ينـجُ من شلّتنا حتى الآن ، من شر أو سـحر « مارتشيللو » إلا أنت ، وأنا ..

ـ ماذا تعنـي ؟

ـ أقول لك ، لم ينجُ منه ، إلا أنت وأنـا .. فماذا تفهم .. بربّك ؟!

فغـر فاه « شارل غوستاف » ، وتمتم .. غير مصدّقٍ لما سمع ..

ـ أنت .. وأنا ؟.. أي أنه .. أي أنه .. مـع الجميـع ؟.. « بالومـا » « ليـزا » .. « باتريس » ؟.. ولم يمض على وصولنا الى « فينيزيا » سوى ليـلة واحـدة ؟!

فُتح باب الغرفـة فجأة .. وبان « باولو ألبيرتو » ، يبتسم في ثقـة ، وودّ .. وقـال ..

ـ إن في الأمر لسرّاً !.. هـذا أمرٌ لا شكّ فيه !!.. أمّا أن تطيـلا المكوث في هـذا المكان الكريه .. تتداولان في أمـرٍ ، فيه .. فهـذا أمـر لا يليق بكما !.. هلمّا بنا الى الردهة الجانبية ، نتباحث في الأمر !.. إن ردهة الـ « جندول » مكان مناسب لنا .. هيـا !

قال فراس ، وقد جلس ثلاثتهم في الردهـة المنعزلة ..

ـ إني أشكو من تعبٍ مفاجىء ، لعلّ مناخ « فينيتزيا » لا يناسبني ..

لذلك ، يحسن بي أن أعود الى روما ، في أسرع وقت !

حدّق « باولو أليبرتو » في عينيه طويلاً .. وقال ..

ــ « دون ماكسيمليانو » .. إن « دوق ألبا » لا يليق به حتى الكذب الأبيض !!.. ثم إن ذاكرتك قصيرة !.. هل نسيتَ أني على علمٍ بما تشكو منه ؟.. « والكونت دو بروفانس » هنا ، صديقك الودود .. فلماذا التجاهل والتغاضي ؟!

نظر إليه فراس ، كأنه يصحو من حلم ! تنبّه الى أنه كان فعلاً قد حدّثه ، في الليلة الماضية ، عما ينوء تحت ثقله من مشكلة عاطفية .. وإنه أسرّ له بما لا يعرف « شارل غوستاف » ، وبما كان يخجل ، حتى ذلك الحين ، من الإقرار به ، أمام نفسه ! لقد قام بذلك الاعتراف ، في الليلة الماضية .. بدافعٍ من غرابة اللقاء ، وسكون الليل .. وثقته أنه إنما يتكلم ، كأنه يردّد أسراره أمام عرّافٍ ، أو ، يفرغها في بئرٍ عميقة!..لم يتبادر الى ذهنه ، في حينه ، إن لقاءهما سوف يتكرّر ، أو أن ذلك الشاب الغريب ، سوف يكتشف جميع ما أخفاه عنه ، في غضون ساعات ، وقبل انقضاء اليوم التالي !!

تابع « باولو أليبرتو » قوله .. غير مكترثٍ لعجب « شارل غوستاف » وحيرته ..

ــ « دون ماكسيميليانو » إن الجواب عندي لمشكلتك هذه .. مع فتاتك الرائعة ! ليس من السهل أن يقع الإنسان ، في أيامنا هذه ، على فتاة في مثلِ رهافةِ إحساسها .. وجمالها ! فلا تزهق علاقتكما .. بل حبّكما .. بردودِ أفعالٍ نزقة !

نظر فراس إليه ، في تعجب ، وقال ..

ــ وماذا ترى ؟ وما الحل ، في نظرك ؟!

ــ أن تبتعد معها .. عن بقية رفاقكما .. وعن حمّى المدن !! أن

تعيشا معاً ، في عزلة تامة ، لبرهة .. طويلة كانت ، أم قصيرة !.. تكشّف الأمور بينكما .. تجبركما على مواجهة حقيقة مشاعركما .. فتصلان في نهايتها إلى حقيقة ماهيّة عاطفتكما .. وحينئذ .. سيّان عندكما أن تكون النتيجة سلباً .. أم إيجاباً !

صمت ثلاثتهم برهة طويلة .. صحا فراس بعدها من شروده ، وقال ، سادراً ..

ـ العزلة عن العالم !.. والانفراد بمن نحب .. من الأشخاص .. إنه لحلّ أنيق .. لوحة جميلة .. لا سبيل إلى تحقيقها .. ألا توافقني ؟!

ـ كيف أوافقك .. وأنا الذي ارتأيتها ؟

سأل « شارل غوستاف » على الفور ..

ـ لنفترض ، جدلاً ، ان « بالوما » على استعداد لمرافقة « مكسيم » في هذه العزلة .. فأين يذهبان ؟.. وهل من عزلة .. في حياة الفنادق ؟! أو في حياتيهما ، في روما ؟!

ردّ « باولو ألبيرتو » ، مفسراً ..

ـ بل إن علاقتهما في الأماكن العامة ، لن تزيد الأمور بينهما إلا سوءاً وتعقيداً ..

ثم توجّه نحو صديقه الجديد .. وما اكتشفه ذلك الصباح من عراقة نسبه الإسباني .. وقال ..

ـ إن لأختي وزوجها أرضاً زراعية ، في « الأبروتزي » ، في الجنوب !.. مزرعة قصيّة .. على سفح أحد الجبال .. فيها « فيلا » قديمة البناء ، جميلة ، جميع أثاثها من القرن الثامن عشر .. فما رأيك ؟!

صاح « شارل غوستاف » في دهشة ..

ـ « الأبروتزي » ؟! إنها منطقة تكاد تكون منعزلة تماما عن العالم !

علّق « باولو ألبيرتو » ، في شـرود ..

ــ ولعلهـا ، لذلك ، ما زالـت تحتفظ بأصالـةٍ قديمـة .. تخيـف بعض الناس !

ثم أردف على الفور .. مازحاً ..

ــ « ذون ماكسيميليانو » .. إن أجدادنا ، أنا وأنت ، لم يتحاربوا يوماً .. فلا تخش أن أكون قد جهّزتُ لك سفرة خفيّة ، الى منفى ! فلولا إنـي على يقينٍ من جمال ، وعزلة تلك المنطقة .. لما اقترحتها عليك .. هيّا .. لا تتردد !

ما إن بدأ فراس يأخذ عرض « باولو ألبيرتو » مأخذ الجدّ ، حتى غمره إحساس" غريب" سببه أن ذلك الشاب يهيل عليه من الألفـة والعطف ، أكثر ، بكثير ، مما يسمح به تعارفهما الحديث العهد .. وأنه ، ربما كان يحاول حـرق ما يفصل بينهما ، من حواجز ، في لحظاتٍ خاطفة ، عبـر سلسلةٍ من المبادرات الجريئة ! بزيارته في الفندق ، أولا .. ثم بالدخول الى حياته الخاصة ، من بابها العريض .. وأخيراً ، عبر مثل هذا العرض السخيّ الذي يـودّ رفضه ، على الفور .. فما أن يجول في ذهنه ، أنها فرصته الأخيرة لاختطاف « بالومـا » ، بعيداً عن عالم البشر ، والاستئثار بها ، في ذلك الموقع المعزول ، حتى يلـين .. وينظر الى « باولو ألبيرتو » في تـردّدٍ ، وحرجٍ ، لا يدري ماذا يقـول . ولا يعرف ،ماذاتسمح اللياقـة به ، وهي لم تبتكر بعـد قواعد للتصرف ، في مثل هذه الأحوال الشاذة .. ولا كيف يتحايل المرء على تردّده ، فيرفض ، أو يطلب ، أو يشترط !

لعل « باولو ألبيرتو » أدرك ما يحير فراساً ، فقال على الفور ..

ــ عزيزي « ذون ماكسيميليانو » إن علاقتي بأختي ، أوثق ممّا أستطيع شرحه لك الآن ، و « الفيلا » أصلاً ، لأختي ، وليس لزوجها .. ثم إنها خالية تماماً من الناس ، عدا من يقوم على خدمتها من القرويين .. لا يتخطّون عتبـة الباب ، إلاّ عند الطلب .. ورغم كل ما ذكرته لك ، فإذا كنـتَ تشعر بـأي

حرجٍ من قبـول ضيافة إنسانةٍ لا تعرفهـا . فاعتبـر نفسك في ضيافتي .. وسأتكفل أنا وأنت ، بعد ذلك ، بتقديم هدية لأختي ، تعبّر عن امتناننا لها !

كان فراس يحسّ بالحرج من قبول ضيافة صديقه الجديد .. فمـا إن سمع « باولو ألبيرتو » يشاركه حرجاً وهميّاً من أخته .. واضعاً نفسه معـه ، في كفـة ميزان واحدة ، تاركاً لأخته الكفة الأخرى .. حتى أيقـن أن مبادرة صديقه الجديد ، تنبـع من ودّ صادقٍ ، وإعجاب حقيقـي ، وثقـة إنسانٍ نبيـلٍ ، وهو إزاء إنسانٍ نبيل آخر .. وقناعة تامـة ، بـأن لا حاجـة من مقدّماتٍ ، في علاقة الأنداد ..

* * *

لعلّ « مارتشيللو » كان قد باح لكلٍ من « بالوما » ، و « وليـزا » ، و « باتريس » بأن سيـده بات على عـلمٍ ، أو بعض عـلمٍ ، بمـا ظنّـوه خافيـاً عليه !

عـاد فراس و « شارل غوستاف » ، و « باولو ألبيرتو » ، من ردهتهـم المنعزلة ، الى البهـو الكبير ، ليجدوا الفتاتـين ، واجمتين ، و « باتريس » ، يحاول إبعاد « مارتشيللو » عنهما ، بأي ثمن !

قال فراس ، يتعمد الصرامة ، والجفاء ..

ــ أنا عائد الى روما .. غداً صباحاً !.. فهل من خدمة .. أسديها لأحد ؟!

نظرت « ليزا » الى « شارل غوستاف » ، في تساؤلٍ .. فأجابها ، هذا ..

ــ وما الفائدة من بقائنا هنا ؟ وما أظن « باتريس » ، في مثل هذه الحال ، سيبقى ، والجو ممطر !.. والكآبة تخيّم على الجميع !

قال « باولو ألبيرتو » في بساطة ولا مبالاة ..

ــ هل تعلمون أن الأمطار ، متى ازدادت عن حدّ معين ، فأن مياه البحر تعلو ، حتى تغمـر معظم أرصفة المدينة ؟! وساحة « سان ماركو » بكاملها ؟! وقد يبلغ عمـق الماء فيها أحيانا عـدة أقدام ! إذا أمطرت طوال هذا اليوم ،

فقد يغمر الماء جزءاً من الساحة غداً ، ولقد أمطرت السماء هنا طوال الأسبوع الذي سبق قدومكم !

رفعت « بالوما » حاجبيها ، في دهشةٍ تقارب الهلع .. وقالت ..

ـ وكيف نخرج من الفندق .. في هذه الحال ؟ « ماكسيمليانو » هل أنتَ عائدٌ حقاً الى روما ؟

وراحت تنظر الى فراس ، باحثة عن عينيه ، لا تدري ، هي الأخرى ، كيف تتصرف في مثل تلك الأزمة المفاجئة التي وضعتها أمام نفسها ، في مرآة لا ترحم ..

لم تشأ التلفظ بقولٍ يربطها بـ « ماكسيمليانو » ! ولا أن تتركه ينزلق مبتعداً عن حياتها !.. لم تعد ترغب في البقاء في « فينيتزيا » ، المطرة !.. ولا كانت في شوقٍ للعودة الى « روما » ، وأجواء أختها « فرانشيسكا »، برتابة حفلاتها ، وغيرتها ، مؤخراً ، من محاولات « كلاوديو » للوصول إليها !

كانت تلك ، المرة الأولى التي نادت بها « ماكسيمليانو » ، تستنجده ، في مودّةٍ صادقة .. دون تكليف !.. لم يغب ذلك عن انتباه أحدٍ من الحاضرين .. فتفرقوا على مهل ، ينتحل كل منهم عذراً شخصياً باهتاً .. تاركين « ماكسيم » و « بالوما » في وحدتهما ، وجها الى وجه .. وقد علّق بقاؤهم في « فينيتزيا » ، أو عدمه ، على نتيجة تلك المواجهة ..

ما إن بقيا وحيدين ، في ركنهما الهادىء ، حتى جلست « بالوما » تشعل لفافة .. ولحظ فراس في عينيها شبه تصميمٍ على العودة الى ما ألفته ، تجاهه ، من صدّ ، وردّ .. وما كان في وسعه تحمّل المزيد من تردّدها ، وصدره ما زال يغلي من حرقة ما قامت به أمس !

قال لها على الفور ..

ـ « بالوما » .. لا حاجة بك لأوضاع الدفاع هذه .. أنا ما جئت أحاسبك ، أو أطلب أي تفسير لما تقومين به .. خفية عني !!

ـ « خفية » .. عنك ؟ تقول .. « خفية » ؟!

ـ صحيح !.. فأنت لا تتخفّين مني .. أو من غيري من الناس .. ولا من رابط يربطك بي ، أو بأي مخلوق كان !! إنما أطلعك الآن على أننا لن نلتقي بعد اليوم .. لا في « روما » ، ولا في غيرها من المدن !

صمتت برهة .. ثم سألت ، وقد تراجعت بعض الشيء عن تحفزها ..

ـ هل ستذهب .. هذه الليلة ؟!

أجاب ، في مرارة وهزء ..

ـ هذه الليلة ، أو غداً ، وما الفرق بينهما ؟!

تمهلت ، ثم قالت ..

ـ ألا تستطيع إرجاء سفرك ، الى الغد ؟.. على الأقل !!

سألها ، في نزق ..

ـ وما الفارق بين اليوم ، أو الغد ؟ ماذا سيتبدل ، أو سيجدّ بيننا ؟!

علا الدم الى وجهه فجأة .. وهو يقول ..

ـ أم هل إنك تطمعين لمزيد من الوقت ، مع غيري !! إذا كانت ، تلك ، هي رغبتك ، فأني أهديك إياه .. منذ الليلة ! سأتركه في رعايتك ، منذ الآن !! وأغادر الفندق ، حالاً !!

وصاح ينادي خادمه الذي وقف في آخر الردهة ، ينتظر إشارة من سيده .. فما إن اقترب منهما ، حتى طلب منه تجهيز الحقائب ، دون إبطاء ، ثم قال له ..

ـ وستبقى هنا ، لرعاية السيدة « بالوما » !.. وتأتمر بما يريده منك الكونت « دو بروفانس » ! اعتبر نفسك في خدمته منذ الساعة !

كتم « مارتشيللو » امتعاضه ، ثم قال ، وقد امتقع وجهه حنقاً ..

ـ سيّدي !.. إذا كانت ، تلك ، رغبتك .. فسوف أنفّذها ، دون تردّد .. لكن ، لو تُرك لي الخيار .. فأنا لا أرغب في البقاء هنا ! بينما نيافتك في « روما » ! ثم ، إني لا أرغب أن أكون في خدمة الكونت « دو بروفانس » أو غيره ! ولا أن أرعى السيدات !!

شحب وجه « بالوما » لكل ما سمعت ، لكنها بقيت على صمتها ..
أشار فراس لـ « مارتشيللو » بالانصراف .. وهو يقول له ..
ــ جهّز حقائبي ، فسوف أترك « فينيتزيا » في قطار الليل السريع !
وما ان ابتعد عنهما .. حتى قال لـ « بالوما » .. في هدوء ..
ــ هل من خدمة أؤديها لكِ .. قبل أن أرحل ؟ أو في « روما » ؟
ثم سكت ، ينتظر الجواب ..
مرّت برهة طويلة قبل أن ترفع « بالوما » وجهها نحوه .. تنظر في عينيه بنفسِ الوجل ، والقلقِ اللذين ملكا عليه قلبه !
قالت في لهجةٍ حزينةٍ ، حائرة ..

ــ « ماكسيميليانو » لماذا تجبرني على مواقف لا أطيقها ؟! لماذا تزجّ بي في أماكن ضيقة ، لا أستطيع البقاء فيها .. ولا أقوى فيها على الحراك ؟! ألا تدرك أنك على وشكِ أن تقذف بي في ماءٍ عميق ؟! هل هذا خير أسلوبٍ تراه لي ، كي أتعلّم العوم ؟! ولو أنك كنتَ تدفعني في بركةٍ صغيرة ، لما تردّدت ! لكنك لستَ بحيرةً هادئة يسهل الخروج منها .. « ماكسيميليانو » .. إنك بحر عميق !! وما يشدّك إليّ .. هو عاصفة هوجاء !! وإنك تعلم ، كل العلم ، أني لا أحسن العوم ولا أحسن التعامل مع العواطف الهائجة !!
كان فراس ينظر في عينيها .. ويغلق جفنيه بين الفينة والأخرى ، كأنما ليعبّ من نظراتها ، ويحتفظ بها في أعماق جسده ، ونفسه !
قال يسائلها ، وفي الوقت ذاته ، يسائل نفسه ..
ــ « بالوما » ألا تكنّين لي قيد ذرة ، من الحب ؟ ألا تشعرين بما يعصف في نفسي من زوابع ؟! يسري الصقيع في جسدي تارة .. وتارة أخرى ، أحترق بنار لا تبقي ، ولا تذر ؟!

أجابت ، تتساقط الكلمات من شفاهها ، كأوراق الخريف ..
ــ أحبك ، طبعا أحبك .. وإلا لماذا أهرب الى جسدك ، وأحتمي فيه بدفءٍ ما كنت أظن أني سأعرفه ، في يومٍ من الأيام ؟! لماذا أطلب منك ألا

تتركني تحت رحمة غيرك ! أو تحت رحمة أهوائي ؟! إنك ملجأي .. من أظافري ، هذه ، التي تجرح جسدي !! ألتجىء اليك ، منها .. ولا قدرة لي ، أو لغيري على تقليمها !! ألا تفهم أن عذابي ، يوازي عذابك ؟! إن لم يكن ، أكبر ، وأشد أيلاماً منه ؟!

ـ تعالي معي ، إذن ، نبتعد عن المدن والناس !! نعش بعيدين ، برهة ، في عالمٍ ليس فيه سوانا !! نواجه حقيقة ما نحن فيه .. أجابه أنا ، نفسي . وترين أنت ، في عمقِ مشاعركِ !! إني أحبك « بالوما » .. لكنني على مثلِ ضياعك ، حول حقيقة ما يعتصر قلبي تجاهك ! لِمَ لا تأتين معي .. فترة .. نهرب فيها من الكون ، ونسعى فيها نحو أنفسنا ؟!

ـ « ماكسيمليانو » هل تحلم ؟ أو تهرف ؟ أين نذهب ؟ أين مثل هذا المكان المعزول الذي تتكلم عنه ؟!

ـ .. « فيلاّ » تخصّ الأمير « فوسكاري » في « الأبروتزي » .. حيث الجبال والأشجار والبحر ، والشمس الساطعة ! نستقل الطائرة الى « نابولي » أولاً .. لا نتوقف في « روما » ، ولا نُعلم إنسانا عن وجهتنا .. نبقى في تلك « الفيلا » ما طاب لنا البقاء ، ونتركها ، معاً ، أو يتفرّد كل منا بكاملِ الحرية في التصرّف كما يشاء .. ما رأيكِ ؟!

بدا لفراس أن عينيها راحتا تنتقلان في أرجاء الردهة ، دون أن تبصر شيئاً ، وقد غطتهما غشاوة شفافة ! عادت ، وحطت بناظريها على عينيه ، تمدّ له يداً واجفة ، تطلب يده ، كأنما تستنجد بها ..

قالت ، كأنما تُكمل شرح صورةٍ بدأتها في خيالها ..

ـ ليكن .. على أن نذهب الى ذلك المكان .. كل منا بمفرده .. أودّ الذهاب إليه ، طواعية .. بمفردي ! إذا بات عليّ مواجهة نفسي .. إذا مضى زمان اللاوعي ، وانقضى زمن الجنون ، وصار عليّ معرفة من أنا ، ونحو

أي مصيرٍ أسـير .. فإني أريد التوجّه نحو ذلك القضاء ، بمفردي .. أذهب طائعة إليه ، لا تقودني أنت ، ولا أي إنسان غيرك !!

شحب وجهها فجأة ، وأردفت ..

ـ وقد أتركـ ذلك المكان بمفردي ، كما أتيت إليه .. أو قد نتركه معاً ، وهذا ما أتمناه .. وقد لا أتركه البتة ! فسيان عندي أن أموت إن لـم أجـد الحل .. فإن نفسي لم تعـد تُطيق هـذا الإبهـام الذي تتيـه حواسي فيه !! لكني أود الذهاب إليه ، وحيدة !! فابدأ رحلتك أنت ، هذه الليلة .. وسأبدؤها أنا ، غداً .. فما رأيك ؟!

* * *

الفصل الثالث عشر

بُنيت فيلاّ « الأرميتاج » بالقرب من « برِّيا » .. وهي قرية ، لصغرها ، لا إسم لها ، على خرائط إيطاليا .. تقع على أعلى قمة من سلسلة الجبالِ التي تتوسط البلاد ، والتي تفصل روما عن البحر الادرياتيكي ..

راودت فراس فكرة ركوبِ البحر الى مرفأ « بيسكارا » ، ومنها الى « برّيا » لكنه آثر أن يطير الى « روما » ، أولاً ، فيترك « مارتشيللو » في مسكنه ، ثم يكمل رحلته الى « الأرميتاج » ، في صباح اليوم التالي ..

ما إن ترك القطار في « سكانو » حتى ذُهل للتبدّل الذي طرأ على كل ما بات يراه ، من معالمِ الحياة ، في تلك البلاد .. وجد نفسه ، فجأة ، يسير في قرية كأنها إحدى قرى جبالِ بلاده .. بأزقتها الملتوية ، بقباب بيوتها ، بأقواس نوافذها الشرقية .. وببعض أسواقها المسقوفة بصفائح معدنية مقوسة ! كان الطابع الشرقي مسيطراً حتى على أزياء نسائها المحافظة ، المحتشمة .. تدثرت بعضهن بلباس أسود طويل .. يغطي الرأس ، ويكسو الجسد ، من الأكتاف حتى الأقدام !

فتنه قِدَم أشجار السنديان الباسقة .. أحاطت بالطريق الجبلية الضيّقة ، فشُغل بالتمتع برسمها في خياله ، كعادته ، حين ينوي ترجمة ما يراه ، في عمل تشكيلي فنّي ، متناسياً قلقه الذي بدأ يسيطر عليه

منذ أن استقل سيارة صغيرة كانت تنتظره قرب المحطة ِ الوحيدة ِ القطار الذي يمرّ في تلك المنطقة .. فرأى نفسه يلج في عزلة طبيعة قاسية الوحدة والجمال .. يتجه نحو مسكنٍ لا يعرفه .. يُبعد عن ذهنه التساؤل عما إذا كانت « بالوما » ستوافيه حقاً ، فيه ..

ما كانت ، تلك ، إيطاليا التي يعرفها السيّاح .. ولا تلك التي يرضى الاعتراف بها معظم سكان المدن !

كانت معالم الزلزال الكبير الذي أصاب أواسط البلاد ، ما تزال ظاهرة على الطريق الملتوية التي حُفرت في صخور السفوح الجبلية الشاقولية ، الشاهقة الارتفاع !

توقّع فراس من السائق ، المبادرة للإدلاء ببعض المعلومات عما يمرّ ان به من بيوتٍ حجرية متفرقة ، هُدمت سقوفها ، وما زالت معالم الخراب الحديث بادية على ما بقي من جدرانها .. لكن السائق كان شحيح الكلام .. لم يتلفّظ إلا ببضع كلمات .. رحّب بها بضيف الأمير « فوسكاري » ، الذي لم تطأ أقدامه تلك البلاد ، ولا زارت أخته مزرعتها ، منذ سنين طوال !

سأل فراس بعد صمتٍ مملّ طويل ..

ــ وماذا حلّ بسكان هذه البيوت المهدمة ؟.. أين ذهبوا ؟

أجاب السائق ، في لهجة واقعية ، باردة ..

ــ إنهم يسكنون الخيام .. أو العربات المقطورة .. على الشاطىء .. منذ سنين !.. هكذا تريد الحكومة !

تنبّه فراس الى ما لحق المنطقة من أضرار .. أخذ يراقبها عن قرب . وتذكر الخراب في قرية « سكانو » التي بارحها منذ حين .. لم ينتبه الى فداحته ، في حينه ، وقد ألِفت عيناه رؤية الآثار ، حيثما حلّ في إيطاليا .

ضلل ملاحظته ، مـرور سنواتٍ على خرابِ تلك البيوت ، وتساقط الأمطار بين جدرانها المتهدمة ، فنمت بينهـا الأعشاب ، والنباتات .. وبـدت كأنهـا أطلال مـدنٍ مهجورة ، تركها سكانها منذ عشرات السنين ..

كان فراس قد سمع عن شـدّة ذلك الزلزال ، في السنوات الماضيـة .. وتذكّر بعض مـا رآه عبـر وسائل الإعـلام ، من أجهـزةِ الإسعـاف ، والطائرات ، والحوّامات التي سارعت دول عديدة لتقديمها الى المنكوبين !

ما جال في خياله قط ، أن المصادفات ستقوده يوما الى ذلك المكـان .. ولا أنه سيؤمّ المسكن الوحيد الذي قاوم الخراب في بؤرة الزلزال !

قال في واقعية .. كأنه يعرف الإجابة على سؤاله ..

ــ .. وماذا حلّ بجميع تلك المساعدات .. وبمئات الأطنان من الأدويةِ والغذاء .. وأدوات البيوت الجاهزة ؟

سخر السائق ، وقال ..

ــ إنها في جيوب أولئك الذين تسلّموها .. إنها ما تزال دافئة في جيوب المسؤولين !

سرعان ما غابت آخر معالم الخراب ، بزوال أثر آخـر المساكن في تلك الجبال النائية .. لم يبق منها إلا ما اقتُلع من جذوره ، من أشجار السنديان ، تساقطت أوراقه عن أغصانٍ يابسة .. مدّت فروعهـا الى السماء ، كعظـامِ مَرَدَةٍ ، ماتت ، وأذرعها ، وأيديها في حالة تشنّج ، بقيت على حالتها تبحث أصابعها عن الهواء !

أما أشجار الحـور ، فلقد سقط بعضها وتمدّد على اليابسة .. لكـن جذورها الليّنـة ظلّت متمسّكة بالتـراب ، متشبثة بالأرض .. فلم تفارقها الحياة ، بل نمـت أغصانٌ جديدة لها .. تفرّعـت عن الجذوع الضخمـة ، المستقرة على الأرض .. فبدت ، كأنهـا مخلوقات صغيرة ، غضّة .. تعلقـت بفروع أمّ هرمـة ، تعطي الحياة لصغارها ولا تستطيع النهوض من مكانها .

سأل فراس ، في وجوم ..

ـ هل « باريّا » ما زالت بعيدة ؟ وهل أصابها من الخراب مثل ما أصاب « سكانو » ؟

ـ لقد أصابتها نفس المصيبة .. و « باريّا » ، التي هي أصغر من « سكانو » ، لم يبق منها إلا الكنيسة ، ودار البلدية وبعض البيوت المتينة البناء .. هنا ، وهناك !

ـ وفيلاّ الأمير « فوسكاري » ؟ هل لحقها الضرر ؟

ـ إنها ليست في « باريّا » ، تماماً .. إنها في « فيلّيتا باريّا » .. على مسافة قصيرة منها .. تتوسط عدداً من مساكن الفلاحين .. كانوا يصنّعون الجبنة في مزرعة الأمير ..

ـ قرية أخرى ؟! وهل « الأرميتاج » في قرية أخرى ؟

أجاب السائق في برودٍ مهذب ، وصوت مقتضب أجش ، يناقض شباب سنه ..

ـ يا صاحب السعادة .. إن مزرعة الأمير ، هي المركز لعدد من البيوت .. « كانت » ذلك المحور .. وكان اسمها جميعاً « فيلّيتا باريا » .. أما وقد تهدّم معظمها ، ونفقت الأبقار .. فلم يبق سالماً ، غير « الارميتاج » .. وعدد ضئيل من الفلاحين .. يقتاتون من أرض المزرعة ، دون مقابل ..

تردّد فراس ، وهو يقول ..

ـ وأنت ؟ هل تسكن بالقرب من « الأرميتاج » .. هل هذه السيارة ملكك ؟

ابتسم السائق .. ونظر عبر مرآته الى وجه ضيف الأمير ، يتحقق مما إذا كان يهزأ منه .. ولما اطمأنّ الى ما رأى ، أجاب في هدوء ..

ـ هذه سيارة رئيس البلدية .. لا يأتي الى المنطقة إلاّ في الربيع أو الصيف! ..إنها تبقى قرب دار البلدية،في خدمته أو في خدمة آل «فوسكاري». تقلّهم ، أو تقلّ ضيوفهم ، من المحطة .. وإليها !

ـــ إذن .. ستعــود السيـــارة الى دار البلديــة .. في « باريـا » .. متى وصلنــا ..

ـــ في « سكانو » .. وليس في « باريـا » ..

ـــ في « سكانو » ؟ وكيف أتصل بك ، إذا ما احتجتُ إليها ؟ هــل من هاتف عندك ؟

ـــ لقد تقطّعت جميع خطوط الهاتف .. منذ الزلزال ، ولم تُصلّح بعد !

كان فراس قد بــدأ يشعر بانقباض خفيٍّ ، منذ طالعتــه أولى مشاهد الخراب وازداد إحساسه ذاك ، بازدياد ما سمعه من أخبار الإهمال والفقر !.. فما إن سمع أن ما من هــاتف في المنطقة ، يصلــه بالعالم الخارجي .. ولا من وسيلةٍ يستوثق عبرها عن سفر «بالوما»،حتى كاد يعود أدراجه، من حيث أتى!

كان على وشك أن يطلب من السائق التوقّف حيث هــو ، ريثما يمعن التفكير فيما يفعل .. حين تبادر الى ذهنه ، أن « بالوما » قد تكون في طريقها إليه ! كيف يعود .. ويتركها ؟!

وقع في حيرة شلّت عليه تفكيره ، ولم يعد يدري ماذا يقول ، أو يفعل ؛

أخلد الى الصمت طويــلاً ، يراقــب الطبيعــة التي تفجّرت بالأشجار الباسقة ، والنباتات الوارفة .. أحاطت بجذوعها ، وتسلّقت عليهــا ، جميــع ما تنتجه الأرض من عفصٍ وعوسجٍ ، وطلح ، وصندل ، وصلصل .. تمواجت جميــع ظلال اللون الأخضر ، عبرها .. وتطــاير بينهــا الهدهــد ، والبلبل والشحرور .. الى جانب عشرات أجناس الطير .. تعــلو زقزقتهــا من حــين الى آخر .. في حوارٍ ، أو شجارٍ ، أو مناجــاة يسيطر سحرها فجــأة عــلى أجــواء المكــان !

شاهد سرباً من الغزلان ، يقــوده وعــلٌ ذو قرونٍ فارعــة الطول .. تلفّت يمنة ويسرة ، في كبريــاء وحذر ، باحثاً عــن مصدر صوت المحرك .. فما إن لمــح السيارة ، من بعيد ، حتى تسمّر في مكانه ، برهة .. قفــز بعدها

راكضاً ، يجري القطيع وراءه ، وتقفز صغار الغزال فوق الجذوع الغليظة كأنها تتطاير في الهواء .. حتى توارت جميعها عن الأنظار !

قال السائق ، وقد لاحظ دهشة فراس لما شاهده فجأة من مظاهر الطبيعة البكر ..

ـ سيدي .. إن هذه الطريق تحدّ ، من الشرق ، « محميّةً » ، مساحتها ألف هكتار .. مُنع فيها الصيد .. تحت طائلة السجن ! تعيش فيها الحيوانات البرية .. حرة ، طليقة .. كما في غابر الأزمان !

ولما لم يردّ عليه فراس .. بل بقي مأخوذاً بما يرى .. تابع قوله فخوراً بما يصف ..

ـ .. فيها الدب البني الكاسر .. والذئب .. والغزال الذي رأيت ، والأيل كذلك !

سأل فراس ، ذاهلاً .. حالماً ..

ـ ألا تخاف الناس هذه الحيوانات ؟.. ألا تؤذيها ؟!

ـ ليس غير مجنونٍ ، من يخاطر ويسير في هذه الغابات ! ها قد قاربنا الوصول .. إن « الأرميتاج » تُشرف على هذه المحمية .. إنها هناك .. على الطرف الآخر من الطريق ..

كان السائق يقود سيارته على طريقٍ تتلوّى كمسارِ الأفعى .. يكاد الإنسان يُحسّ ، لضيقها ، أنه يخترق الأشجار .. فما إن بلغ منعطفاً حاداً ، باشر الدرب بعده بالانحدار ، حتى تراءت لفراس جدران مسكنٍ ضخمٍ ، ورديّ اللون ، كُحّلت نوافذه بأطرٍ عريضة بيضاء ، تحميها قضبان متينة ، من الحديد الأسود ، الملفوف ، ويتوّج سقفه عددٌ من الأشكال الهرميّة ، والقمعية .. مكسوّة .. جميعها .. بالقرميد الداكن الحمرة ، نَمَتْ على بعضه طحالب خضراء ..

توقّف السائق قرب بابِ حديقةٍ ، عالية السور ، وترجّل .. ينادي من في الداخل ..

ــ « كارميليتا » !.. « جيوفانّي » !!

يكرر نداءه .. حتى فُتح بــاب الدار ، وهــرع « جيوفانّي » .. وراء ابنتــه « كارميليتا » ، يفتحان باب ســورِ الحديقــة ، في صمت .. يأخذان حقيبة فراس من السائق .. ينتظران إشارته ، في وجوم ..

سعل فراس ، قبل أن يبدأ بالكلام .. يُخفي إحساسه بالوحشة بين أناس لم يرَ ، بعدُ ، ابتسامة مجاملةٍ من أحدهم !.. قال للسائق ..

ــ قد تأتي خطيبتي ، غداً .. في مثل الموعد الذي وصلتُ أنا فيه ..

سعل ثانية .. يخفي تردّده ، وأردف ..

ــ فاذا حصل ما يؤخّر وصولها .. ولم تشاهدها في المحطة ، فأرجو أن تعــود إلي ، هنا .. إذ أني قد أود العــودة الى « سكانو » ، للّحاق بقطــار المساء ، العائد الى روما ..

هــزّ السائق رأسه ، عدداً من المــرات ، يُشعر فراساً أنه فهــم .. ثم استقل السيارة ، بعد أن ألقى التحية ، وعاد من حيث أتى ..

لم يشأ فراس طرح المزيد من الأسئلة على حارس الفيلاّ ، أو ابنته ، وقد أدرك ما تميــل إليه طبيعة سكّان تلك المنطقة ، من عــزلةٍ ووجوم .. ســار أمامهما ، مشــيرا للأب الكهل ، أن يلحق به .. وكــان هذا ، صلب البنيــة ، مقوّس الساقين ، ذا تقاطيع قائمــة الزوايا ، جامــدة ، إذا ما نظر أحدهــم اليــه ، أدار وجهــه بعض الشــيء في حــرجٍ متأنّفٍ .. يخفــي ما أصاب عينيــه ، من عــور !

دخل الدار ، يتفقّد غرفها ، وأثاثها .. وكان ما يزال في شرودٍ ، لا يهدأ عند حالةٍ نفسيةٍ معيّنة .. يتيــه بين ما تواتــر أمامه ، منــذ الصباح ، من مشاهد .. بعضها محزن ، كئيب ، وبعضها الآخر ، رائــع الجمال !.. جميعها ، تبعــث على الوحشة ، تُشعر الإنسان أنه في عالمٍ غريبٍ عن حضارة البلاد ، عامــةً .. بعيدٍ عما تعوّده من حياة سكانها ..

تنبّــه فجأة ، وهو يسير بين غرف الدار ، الى أنه انتقــل في الزمــان

الى قـرن مضى ، أو ما يزيد ! مـرّ ذلك الخاطر في ذهنه ، كومضٍ بارقٍ ، كنور ساطع أنـار الظلمـة التي كان يسير فيها !

تذكّر كآبـة اللحظة التي توقّف فيهـا القطار ، في محطـة « سكانو » وما شعر به من انقباض ، لِمَا طالعـه فيها ، من بناءِ المحطّة القديـم ، ذي الآجرّ الكالح اللون .. والهندسة الضائعة الطراز ، العتيقة .. صار إحساسه ، منذ ذلك الحين ، أقرب الى ذاك الذي ينتاب الإنسان إذا ما صحا من قيلولـة متأخرة ، فضاع ، إذ طالعته عتمـة الغروب ، ظنّاً منه أنه استفاق في الفجـر ، ولا يحسّ بما يبعثه الفجر في النفس ، من حيوية ونشاط !

أعادته غرف الدار الى حيّز من الزمان ، ليس من هذا العصر ! رجعـت به ، بأقمشة جدرانها الباهتة .. بأبوابها ذات الزجاج المحفور .. بأثاثها المخملي القديم .. بآنيتها الصينيّة الدقيقة الصنـع ، ومصابيح الغـاز المعلقـة على الجدران ، وثريّات « المورانو » التي لم ترفع شموعها عنهـا ! جميع هـذه الأشياء .. أعادت اليه موقعه الحقيقي من زمـان إيطاليا .. ففتح عينيه ، كأنه يصحو من جديد .. يضبط ساعته على الوقت الصحيح .. على قرنٍ مضى .. وتبسّم لما حوله ، وهو يلتفت نحو الحارس وابنته ، اللذين كانـا يتبعانه في صمت ، حيثما سار .. فتعرّفهما من جديد .. وكتم سروره ، وارتياحه ، لمـا لاحظه من حذائيهما الخشبيين، وجميع ما كانا يرتديانه، من ثياب سلفية الزي ..

عاد الى المسير من جديد ، يتقدمهما نحو السلّم الذي يقـود الى غرف النوم ، وصعد نحوها كأنـه ابن الدار ، على عـلمٍ بترتيب جميع غرفه !

أسرعت « كارميليتا » وراءه ، وقد أخذت حقيبته من والدها .. تقول ، وهي تصعد السلم خلفه ..

ــ هل تناولتَ الغداء .. يا صاحب السعادة .. أم أحضّر لك ما تأكله ؟

ــ لقد تناولتُ وجبةً سريعة .. في « سكانو » ..

ــ لقد أحضرنا .. جميع ما طلبه الأمير « فوسكاري » من مؤونة ..

سمع ضحكتها الخفيفة ، دون أن يلتفت إليها ، ثم صوتها ، يتابع القول بفخار ..

ـ لدينا من الطعام الآن ، ما يكفي عدة أشخاص ، لعدد من الأسابيع !

وكأنما أدركت « كارميليتا »، هي الأخرى، أن « الدون ماكسيميليانو » قد تمالك زمام الموقف ، وأنه لن يضيع في الغربة والحيرة التي تعودها سكان تلك الجبال ، من سكان المدن .. فأسرعت ، تؤدي واجباتها ، دون تعليمات منه .. تفتح حقيبته ، لتصفف ثيابه في الأماكن المعدة لها .. وعجل والدها بالخروج من الدار، يصيح لابنته ، يسألها أن تستعلم من « دون ماكسيميليانو » عما إذا كان عليه تجهيز العربة ، لليوم التالي ..

نظر فراس الى « كارميليتا » .. لا يفهم معنى لسؤالها ، ثم هز برأسه ، في إشارة ، يستوضحها ما تقول ، فأعادت قولها ، مفسرة ..

ـ إن والدي يسألك إذا كان عليه إعداد العربة ، والحصان ! فالحصان، يا سيدي ليس هنا .. بل في «بارتا» .. في إسطبل رئيس البلدية ..

تبسم فراس في سرور لما سمع لكنه كتم غبطته ، واكتفى بهزة من رأسه ، إشارة منه بالموافقة !

سمع صوت غناء بعيد ، يصله من نافذة غرفته .. فتقدم منها ، وفتح مصراعيها .. يتأمل الوادي السحيق الذي تطل عليه الدار ، وسفوح الجبال التي غطتها غابات السنديان بلونها الأخضر الداكن .. تتخللها أشجار السرو ، كالرماح المشرعة ، وأشجار الحور .. بدت كأن أوراقها الخضراء ، الفاتحة اللون ، هي التي تداعب النسيم ، فتهتز ، وتتمايل ، لتظهر ما خلفها من لون قطني البياض!..جميع تلك الأشجار ، كست سفوحاً ، متشعبة ، متداخلة.. تحدرت ، كلاً على ميل ، أو انبساط خاص به .. وتجمعت حول بحيرة ، في قعر الوادي .. سطعت بانعكاس نور الشفق ، فبدت كصفيحة نحاسية حمراء .. كرقعة نارية على وشك إضرام النار فيما حولها من غابات ..

أرض عذراء .. قد لا تكون أقـدام البشـر قد وطئت بعض أجزائهـا ، منذ آلاف السنين !

رأى مصدر الغناء عن بعدٍ .. أربع ، أو خمس فتيات ، تسـير الواحدة منهن ، وراء الأخرى ، على دربٍ شديدة الضيق ، تبدو كأنها مسـار جدولٍ يلتفّ ويتعرّج على سفح الجبل الذي تقـع عليـه الدار ، تمـرّ من أمـام سورها ، على مسقط نظـره ، تلتفّ حوله ، ثم تغيـب بين أشجار السفوح الأخـرى ..

كانـت حديقة الـدار ممتلئة بالأزهـار البيضاء ، والأوراد الحمراء .. والغاب من حولهـا ، من وراء السور ، كأنـه امتداد لهـا .. تغطّت أرضه بأكماتٍ تجلّلت بشقائق النعمان ، والنرجس والأقحوان !

التفت فراس الى « كارميليتا » فجأة .. وقال في لهفةٍ ، وعجلة ..

ـ أتعرفين هاتيك الفتيات ؟

ضحكت الفتـاة ، وأجابت .. في مرحٍ ..

ـ وكيف لا يتعارف أهـل القرية الواحدة !

ـ هل في وسعكِ أن تطلبي إليهن القيـام بعمل صغير .. لحسابي ؟!

تعجّبت الفتـاة ، وأجابت ..

ـ بالطبـع .. وما العمـل يا سيدي ؟!

ـ هل في الدار .. مِنْ سلال .. أو ما شابه ؟!

ولما هزّت الفتاة رأسـها بالإيجاب .. تابع قولـه ..

ـ إذن ، فاطلبي منهن القدوم ، الى الدار ، لأخـذ السلال منها .. ثـم العودة الى تلك البُقع المزهّرة ، في الغاب .. هناك عنـد أكمات النرجس .. واطلبي منهن أن يملأن السلال منها .. ويفرغنها في مدخلِ الدار .. في أرضِ الحـديقة ، والفنـاء الداخلي !

كان صوتُ الفتيات يقترب من الدار .. و « كارميليتا » تنظر إليـه في دهشة بالغة .. لا تصدّق ما تسمع .. فقال لها .. ينبّهها من جمودها ..

ـ أسرعي .. « كارميليتا » !.. أشيري إليهن بالتوقف !.. أريد أن تملأ الأزاهير أرض الردهة الداخلية .. من الدور الأسفل !.. أريد أن تكسوها ، كالبساط .. وأن تنثر على السلّم الذي يقود الى هذه الغرفة .. ويجلّلُ بها السرير !!

كانت « كارميليتا » قد بدأت تعي هدف « دون ماكسيميليانو » .. وقد تجاوز ، في نظرها ، خلال لحظة واحدة .. جميع ما كانت قد سمعته عن غرابة تصرفات الأمراء والفرسان .. وانسياقهم ، في الحياة ، وراء أحلامهم الجميلة !

صاحت من النافذة الى الفتيات .. في حماسة .. أن يتوقفن برهة .. ثم التفتت إليه وسألت ، متعجّبة ..

ـ وكيف تَنام ، هذه الليلة .. يا سيدي ؟.. وكيف نتمشى ، نحن ، في الدار .. إذا ما امتلأت أرضها بالأوراد ؟.. وكيف نُحضّر العشاء ؟!.. أو نخرج الى المطبخ ؟!

ضحك فراس مبتهجاً لسرورها بمشاركته فيما سيقوم به .. وقال ..

ـ لا عليكِ .. اطلبي منهن إيداع ، جميع الأوراد .. في احدى غرف الدور الأسفل ، الباردة .. حتى الصباح !.. سأنام هذه الليلة .. في الغرفة المجاورة لهذه .. أريدك ، منذ بزوغ الفجر .. أن تجلّلي هذا السرير بالنرجس .. حتى يتشرّب الغطاء عطره !.. ثم انثري فوقه النسرين .. وبعد ذلك .. مدّي بساطاً من النرجس .. منذ باب الحديقة ، والممر الذي فيها .. حتى السلّم الصاعد الى هذه الغرفة !.. وأكثري منه حول أقدام السرير !!.. لا أريد أن تطأ قدما « بالوما » شيئاً .. غير النرجس ، حين تصل الدار .. وتصعد الى هذه الغرفة لتستريح ..

ـ هل هذا هو اسم السيدة .. هل هو « بالوما » يا سيدي ؟.. يا له من اسم جميل .. ما أجمل حبّكَ لها ياسيدي .. يا له من حبٍّ جميل !.. آه !

قالت « كارميليتا » ذلك وقد تورّدت وجنتاها السمراوان من الخجل ، ثم انفلتت راكضة الى الدور الأسفل .. والى رفيقاتها .. تحمل لهن السلال ،

والمـال الذي نقدها إيـاه « ماكسيميليانو » مكافأة لهـن ، عـلى ما سيقمن بل من عمـلٍ طريف ٍ ، غريب !.. روايةٌ ، لن يمضى الليل حتى يكون معظم سكان القريـة قـد اطلعوا على تفاصيلها !

في الليل ، تمنى لو أنه يحمل حبوباً منوّمة .. تعينه على الخلاص مـن الأرق الذي لازمه !.. راح يتقلب في فراشه .. يحـاول إقصاء صورة جسد « بالومـا » عن ذهنـه .. فلم يستطع !

ما ظن أن يوماً مثل هـذا ، سوف يطالعه .. تأتي فيه « بالومـا » على كامل إرادته .. تنمو رغبته لفتاةٍ ، وتشتدّ .. حتى تزيح من وعيه جميع ما قد يحاربها !.. تسيطر ، في النهـاية ، على ذاته .. فتصبح الذات .. مجسدة .. شهوةً ، تتكلّم ، وتحيا .. لا تعرف الهدوء أو الراحة !

لجـأ في النهاية الى تشويق نفسه .. ما سيلاقيه غداً من لقاء الحبيبة .. يُقنع ذاته بأنـه في حاجـةٍ الى النوم ، كي يحسن التمتع بنهار الغـد !.. دون فائـدة !

أشعل عـود ثقاب ، أضاء به مصباحاً قديماً ، الى جانب فراشه .. ثـم نهض مـن فراشه .. يلفّ جسده برداء صوفي ، يتمشّى في الغرفـة ، جيئة وذهاباً .. لعلّ التعب يدبّ في جسده ، فيعجّل ذلك بمجيء النعاس !

تقدّم من النافذة ، وفتحها على مصراعيها .. فطالعه نور القمر ، وقـد أحـال البحيرة الى صفيحة فضّية ، صقيلة ، لامعة .. وبـدّل الغابات التي حولها ، الى دثـارٍ قاتمٍ .. تلفحت به الجبال .. زيّنـه ما بـان على رؤوس الأشجار من تيجانها الخضراء !

سمع عواء بعيداً كأنه أنينٌ طـويل .. فانتابته قشعريرة طفيفة ، أنكرها على نفسه ، ردّها الى البرد المفاجىء ، وتبادر الى ذهنه ، في الحال ، احتمال

نكوص « بالوما » عن وعــدها ، وتـَراجـُعها عما عاهدته عليــه من لقائهما في عــزلة تلك الجنـّة الرهيبة !

أدرك على الفور أن أفكاره على وشكٍ اتخاذ مسارٍ وعرٍ سيزيد مــن شقائه ، ويمنع النوم منعاً باتــاً عن جفونه !.. فعاد الى فراشه ، مسرعاً ، وقد أيقظ البــرد فيه حاجة ملحـّة ، الى الدفء والراحة ، ما هي إلا دقائق .. وإذا بالكرى يثقل جفنيه المتعبين !

أحسّ ببللٍ على خديه ، وبلمسِ شفاهٍ دافئة تداعب شفتيه ، وأنفــه ، وعينيه !.. ثم سمع صوتَ حبّه ، يهمس في أذنه .. بين قبلةٍ وأخرى ..

ـ يا أميري .. يا حبيبي .. يا فارسي ..

فتح عينيه .. رافعاً ذراعيه ليضمّ وجــه « بالوما » الى وجهه .. ليعانق جسدها .. قلبــه يكاد يتوقف عــن الضرب تارة ، وتارة أخــرى ، تتسارع ضرباته ، حتى ليكاد يتفجّر في صدره !!

ـ متى وصلتِ ؟.. حبيبتي .. متى ..

ـ منذ لحظات !.. وسرتُ على الأوراد التي رصفتها لي .. ماذا أقول.. لقــد طرتُ عليها .. إليك .. إليك أنت .. وليس الى سريري .. حيث تقــود الأزهار .. إليك أنت ، أنت .. « مكسيم » يا أمــيري .. كيف كنت ضائعــة عنك ؟.. كيف ؟.. كيف ؟

وعادت الى عناقــه وتقبيله ، تنهمر دموعها ، فتجري على خديه .. ثــم عنقه .. فيقشعرّ جسده لإحساسه بقطراتها ، تسري كأنها تسيل ، وتجــري ، باحثة في جسده ، عن طريقٍ الى عروقه ، ودمــه !

شــدّها الى داخل الفراش .. ودفء جسده .. لكنهــا تملـّصت ، في وداعةٍ وحنانٍ ، لم يعرفهما فيها ، من قبــل ..

قالت ، تكاد تـُغمض جفنيها المرتجفتين ..

ـ .. لا .. أغتسلُ أولا .. ثم أهــرع إليك ..

والتفتت تبحث عن غرفـة الاستحمام !

لم ينبس فراس بكلمـة !

سارع الى غسل أسنانه ، ووجهه ، في طشتٍ كانت « كارميليتا » قد ملأته بماءٍ فاترٍ منذ الصباح .. وعاد ، مسرعاً الى دفء فراشه .. ينصت الى خرير الماء الذي يسيل فوق الجسد الحبيب .. يترقّب عناقه !

توقّف صوت المـاء فجأة .. ثم سمع حفيفاً ناعماً ، تلاه صوت كحّةٍ ، عذبة أليفة .. أجرت الخدر في جسده .. ثم بانت « بالوما » ، من فتحة الباب ، بشعرها الرطب .. معقوصاً الى الخلف ، وثوبها الأحمر القاني ..

سارت ، تتقدم منه في بطء ، على أنامل قدميتها العاريتين .. ثـم فتحت لعينيه ، ثوبها .. عن الجسد الحبيب .. والنهدين الأبيضين .. المتورّدين ..

* * *

الفصل الرابع عشر

كان يوماً عاصفاً ، ممطــراً !

أمضى الحبيبان بقيــة نهارهما في الفراش ، لا ينهضان منه إلا لتنــاول ما كانت تأتيهما به « كارميليتا » من طعامٍ مقبّلٍ ، خفيف ..

أوشــكا يخرجان مــرة ، الى الغرفة المجاورة ، حيث نــام النرجس ، والسندس على غطاء السرير .. على الوضع الذي تركته فيه « كارميليتا » .. لكــن « بالوما » شدّت حبيبها إليهــا ، من ذراعــه ، قائلة في تمنٍّ ناعسٍ ، ســاحر ..

ــ لنبقَ حيث نحن ، هذه ، غرفتنا .. إنها الغرفة التي شاهدتُك فيهــا نائماً ، حين وصلت .. شاهدتُ جفنيك المقفلتين .. وشفتيك المفترتين ، تتمتمان اسمي .. إن جميع كلمات الحب ، ما كانت لها قــدرة النفاذ الى شغاف قلبي ، مثل تردادك لاسمي ، باللهفة التي سمعتُ ، وأنت نائــم !.. لا .. لــن أترك هــذه الغرفة ، لغرفة الورد .. لقــد امتزجت دموع فرحنا على هذا السرير .. وما زلتُ أتلقّى منه عبــق جسدك .. وعطر لقائنا الأول ..

ــ نعم ، لقد كان حقاً .. لقاءنا الأول !..« بالوما » حبيبتي .. هل كنتِ تعرفين أن لك تلك العذوبة الرائعة ؟.. هل كنتِ تخفينها عني ، وعن جميــع من عرفوك ؟.. هل كنتِ تحتفظين بهــا ، ليوم مثل هذا ؟.. لساعةٍ ، كساعة لقــائنا الأول ؟

وشدّها الى صدره ، يهزّها ، هزاً خفيفاً ، حزيناً .. ثم قال في نبرة يشوبها اليأس ، والحزن ..

ـ ما ليَ ، حبيبتي ، أتكلّم عن لقائنا الأول ، ولم تمضِ عليه إلا ساعات قلائل .. كأنه بات من ذكرياتِ ماضٍ بعيدٍ .. أسترجعُ حلاوته ؟

نهض من الفراش ، يشدّ من عزيمته ، ويشد « بالوما » معه ..

فتح النافذة ، مادّاً ذراعيه خارجها ، يقول في بهجة مفاجئة ..

ـ لقد توقّفت العاصفة ، ها هي ذي الغيوم تنجلي !.. « بالوما » ، بعد قليل ، سوف تشاهدين نور القمر يسطع على تلك الجبال ، وانعكاسَ ضوئه على سطح البحيرة ، لقد كانت البارحة ، إبّان الشفق ، كصفيحة النحاس المتوهّجة !.. وبعد قليل ، سترين كيف ينقلب النحاس الى فضّة صقيلة !.. إنه من أجمل ما رأيت من مناظر الغابات ، في حياتي ..

وقفت « بالوما » لصق حبيبها ، تحمي جسدها العاري من برد المساء ، بدفء جسده ، يلفّهما غطاء سرير مدلّى حتى لامس الأرض .. مدّت يديها تحت الغطاء ، تلفّ صدره في حنان وغبطة ، تتحسّس بشرته ، يكاد رأسها يختفي بين صدره ، وإبطه .. ضمّته الى نهديها بشدّة ، تتمتم كلماتٍ لم يفهمها ، ثم فتحت ذراعيها ، فجأة ، دافعة بالغطاء في الهواء ، فسقط بعيداً عنهما ، بحيث بقي الاثنان ، للحظاتٍ ، عاريين في ضوء القمر .. ثم أسرعت الى ثيابها ترتديها على عجل ، وتقول في حبور ..

ـ هيا !.. لنر من منا يسبق الآخر !.. لنخرج الى نزهة في الغاب .. ولنر أيّنا يصل الأول ، الى باب السور !

أسرع فراس في ارتداء ملابسه ، مبتهجاً بما دبّ في حياتهما فجأة ، من حركة ونشاط !

كانت « بالوما » في طريقها الى السلم ، فهرع وراءها ، يحاول الإمساك بثوبها ، وهي تطير أمامه ، تصرخ في سرورٍ مما روّع « كارميليتا » ،

فخفتّت إليهما ، هي الأخـرى ، من المطبخ ، تستكشف ما جرى .. وإذا بها تركض وراءهما ، لمّا أدركت دعابتهما ، وفرحهما ، كأنها تشترك معهما ، فيما بدآه من سباق ..

توقّف الجميع إزاء باب الحـديقة الخارجيّ ، يلهثون تعباً ، وتنبّهت « كارميليتا » فجـأة ، الى ما تسرّعت في الاشتراك به ، من فـرح الأسياد ، فتمتمت بعض عبارات الاعتذار ، وهمّت بالرجـوع ، تكـاد دموع الخجل والارتباك تطفـر من عينيها ..

استوقفتها « بالوما » في لهجتها العـذبة الجديدة ، وراحت تسامرها ، برهـة ، حتى هدّأت من روعهـا ..

تنبّه الجميع الى صوت العـواء الطويل ، الخافت ، الذي سمعه فراس في الليلة الماضية .. فنظر الى « بالومـا » في وجوم ، وحـذرٍ .. يتمنّى أن يكون الصوت قـد غاب عن انتباهها .. لكـن « كارميليتا » رسمت إشـارة الصليب على صدرها ، وهي تنفي الشؤم بكلمات دينيّة ، مما أثـار وجـل « بالوما » ، فنظرت الى حبيبها ، تستفسره ما سمعَتْ .. والتصقت به فجأة ، كأن كارثة على وشك الحلول !

تبسمت « كارميليتا » لذعرِ السيدة .. وقالت ..

ـ لا .. لا .. لن يصيبنا منه أذى !.. هذا ليس صوت حيوان .. إنـه أنين الطفل في البيت المجـاور !

سـارع فراس للسؤال ..

ـ أي طفل هذا ؟!.. « كارميليتا » !.. ماذا تقولين ؟.. إني أسمع هـذا الأنين ، منـذ البارحة !

ـ إنـه الغول* ، يا سيدي .. إن الغيلان تمتصّ روح الطفـل .. في البيت المجاور ، وليس من قـوة على الأرض تستطيع الوقوف في وجهها !

---

* وردت مثل حادثة « الغيلان » هذه ، في احدى روايات الكاتب الايطالي، «دانونزيو» ولقد استخدمها الكاتب هنا، حسب هدفه الروائي.

رسمت « بالوما » إشارة الصليب ، هي الأخرى ، على صدرها ..
ونظرت الى « كارميليتا » ، في دهشة يشوبها الفضول ..

ــ هل تريدين ، يا سيدتي ، رؤية الطفل ؟.. إنه في البيت المجاور .. هنالك ولا يفصله عنّا إلا أشجار الصنوبر ، هذه !

وأشارت الى الطرف الآخر من الطريق ، تومىء الى مكانٍ ، على مسافةٍ غير بعيدة من سور الحديقة ..

حدّقت « بالوما » في عيني « ماكسيمليانو » وفي نظراتها بريقٌ غريبٌ ، لم يشاهده من قبل ..

كان يجهل مدى صلتها بالأساطير ، وأمور الغيب .. لا يعرف كيف تنظر حبيبته الى تلك الأمور ، أو ماذا تفهم منها ..

قالت ، في حرارةٍ ، وحماسة ظاهرتين ..

ــ « مكسيم » أرجوك !.. لنذهب لزيارة ذلك المسكين .. الآن ، إنه أمرٌ مريع !.. لعلّ هنالك ما يمكننا القيام به ، لإنقاذه !.. لستُ أفهم كيف يصدر مثل هذا الأنين المروّع ، عن طفل !

وشدّت حبيبها من يده ، مشيرة لـ « كارميليتا » أن تتقدمهما بسرعة ، نحو البيت المسكون !.. فمشت هذه ، متجاوزة الطريق العام ، ثم ولجت غاب أشجار الصنوبر ، وقد رفعت إزارها الأسود الذي كان على كتفيها ، تغطّي به رأسها ، شرعت تردّد ، في صوت موسيقيّ ، نغماً ، كأنه ترتيلٌ دينيّ ، تنشده للأشجار التي حولها .. كأن ذلك سيفسح لها الطريق في عتمة الغاب الموحشة ..

ــ « لقد أتينا ، تحمينا السماء » .. « ارفعي طفلك التعيس ، ماريا » ..
« لقد أتينا ، تحمينا السماء » !

وراحت تكرّر تلك الجمل القصيرة في إيقاعٍ رتيب .. وصوتٍ يزداد

ارتفاعاً باللحن ذاته ، حتى أخذ فراس بما سمع ، وصار و « بالوما » ، يسيران خلفها ، كأنهــا تقودهما الى قــدر محتوم ..

لم يكن الغاب على العــزلة التي ظنّها فراس في البدء ، صادف مسيرتهم عدد من النسوة ، جالسات ، هنــا وهناك ، بين الأشجار ، أو قرب أكــواخٍ خشبيــة ، كنّ ، ما إن يلمحن نزيلي « الأرميتاج » في طريقهما الى الكــوخ المقصود ، حتى يشاركن « كارميليتا » في ترتيلهــا ، تنتظر إحداهنّ فتــرة السكون ، بين المقطع والآخر ، لتصيح ، مسترسلة في الإطالة عــلى الحروف الصوتية .. مكرّرة قول ..

ــ « لقــد أتى الأسياد ، لزيارة طفلك يا ماريــا » .. « افرحي ، لقــد أتى الأسياد » ..

كان الكوخ وسط فسحةٍ صغيرة بين أشجارٍ ، باسقةِ الطول ، غليظــة الجذوع .. تحلّقت حول بابه نسوة ، جلسن في نصف دائرة سوداء ، لا يُرى منهنّ غير ألبستهن القاتمة .. تهزجن ، أو ترتّلن عباراتٍ وصلواتٍ ما تكلّ الواحدة منهن من تردادها ، حتى تترك مكانها لغيرها ، مــن نسوةٍ أخريات ، جلسن على بعــدٍ مدروس ، تنتظــر ، كل منهن ، دورهــا ، لإتمام الحلقة ، مــن جــديد !

تبيّن فراس عبر أصوات النساء ، صوت الأنين .. وتعجّب كيف نفــذ مثل ذاك الأنين الخافت ، عبر الأشجار ، الى غرفته ، وبمثلِ الوضوح الــذي ســمعه أمس !

أحسّ كل من فراس و « بالوما » بامتعاضٍ شديد .. ووهنٍ مفــاجىء في أوصالهم لما وجــدا تفسيهما ، فجأة ، فيه !

ســمعت النساء صوت القــادمين .. فسرى بينهنّ همسٌ غــريبٌ .. تحرّكت إحداهن ، تفتح الحلقة ، وصاحت ، أخرى ، لمن في داخل الكوخ ..

ـ افرحي « ماريـا » .. افرحي ، لقـد أتى الأسياد لإنقـاذ طفلك ! سيأخذونه لزيارة عذراء دير « أفيزو » .. افرحي .. « ماريا » !

وصاحت ، أخرى ، لـ « بالومـا » ..

ـ انظـري الى الطفـل الذي تمتصّ روحه الغيلان .. وحاذري !.. ليحمي الله أطفالك .. ارسمي اشارة الصليب على صدرك .. وشاهدي بعينيك ماذا أبقت الغيلان من جسده ..

تقدّم فراس .. ومن ورائه تسير « بالوما » ، بينما توقفت « كارميليتا » خـارج الكـوخ ..

لم يكن في ظلمة الكوخ غير مصباحٍ زيتي واحد ، يضيء سريراً خشبياً صغيراً ، كأنـه تابوتٌ مفتوح ، قبع في داخله جسدُ طفلٍ عارٍ ، برز هيكله العظمى من خـلال ما تبقّى عليـه من جـلدٍ داكـن اللون ، تغطّيه بقعٌ متعفنة ، خضراء قاتمـة ..

كان الطفل يحرّك أطرافاً كأنها عيدان قصبٍ على وشك أن تتكسـر يُصدر ذلك الأنين الغريب عن عينين غائرتين عن الوجـود ، وشفتين تـورّق جلدهما ، وتسمرتا على شكل جؤاره المريع !!

لم يكن أمام الطفـل سوى والدتـه .. جلست القرفصاء على الأرض ، تحت سريره .. رأسها على ركبتيها .. كأن حملاً ثقيلاً يرزح على رقبتهـا .. تمـدّ يـداً جافـة .. غليظة المفاصل .. أحرقتها الشمس .. تمدها ، لتهـزّ بها سرير الطفل ، دون أن ترفع رأسها .. فيهتز السرير وجميع ما به وما عُلّقَ عليـه ، من أيقوناتٍ وصلبان ، وصورٍ دينيـة وتعاويذ .. فتُسمع لاهتزازه قرقعةٌ خفيفة ، يُنصت إليها الطفل ، من وقتٍ الى آخر ، فيُمسك عن الأنين !

صاحت إحداهن ، من خارج الكوخ ، في صوتٍ جبليٍّ عميق ..

ـ « ماريـا » .. لقد دخل الأسياد الى كوخك .. سوف يأخذون طفلك لزيارة كنيسة العذراء .. قرب ديـر « أفيزو » .. « ماريـا » .. لقد دخـل الأسياد .. أنظري .. تكلّمي ..

رفعت الأم رأسها عن عينين تخطّتا مرحلة الحزن ، والألم .. وصارتا في حيّز تائهٍ من عالم الخوف ، والفزع .. عالمِ الرعبِ من مخلوقاتٍ شريرة .. تمتصّ روح طفلها من جسده .. مخلوقات خفيّة ، سيطرت على جدران وحياة ذلك الكوخ ، وقد يحلو لها أن تنتقي من ساكنيه كائناً ما ، فيسقط فريسةً لها .. وفي تلك الحال .. ما من قوة على الأرض .. ما من سحرٍ أو صلاةٍ تستطيع إنقاذه من مصيره المشؤوم !

نادت امرأة من خارج الكوخ ..

ــ تكلّمي .. « ماريا » .. إن السيدة سوف تُنقذ طفلك .. تكلمي ! سوف تجعله يزور العذراء .. تكلّمي ..

بينما قالت .. أخرى لـ « بالوما » .. في صوتٍ جاف ..

ــ سوف تنقذينه.. أليس كذلك؟!قولي لـ « ماريا » أنك سوف تنقذينه.. لقد جنّت المسكينة .. إنها لا تتكلم منذ أيّام .. لقد نسيت النطق ..

ردّت « بالوما » على الفور ، في هلعٍ .. وقد علا أنين الطفل من جديد..

ــ نعم .. نعم .. سوف أجعله يزور كنيسة العذراء .. غداً !

ــ لا .. لا .. ليس غداً .. بل يوم السبت .. هو يوم الصلاة على الأرواح .. واشتري له شمعة كبيرة ، غداً .. بألفي « لير » !

ــ نعم .. نعم .. سوف أفعل ! بألفي لير .. وأكثر !!

ــ واطلبي أن يُصلّى لخلاص روحه ..

ــ نعم ، نعم .. سوف أفعل !!

كان أنين الطفل يرتفع ، بازدياد الجلبة التي تعالت حوله ..

ــ اسمعي يا سيدتي .. كيف يبكي الطفل ، إذا ما حلّ الليل ، والظلام !

ــ لعلّه يرى أحداً منهم !!

ــ نعم ! لعلّه يرى واحداً « منهم » !!

ــ ششش !! اصمتوا ، هل تسمعون ؟!

ــ أنا لا أسمع شيئاً !

ــ بل أنا ، أسمع ..

ــ ارسمي إشارة الصليب على صدرك ، يا سيدتي .. لعلّ واحداً « منهم » يقترب الآن ..

ــ أنا أسمعه !

ــ وأنا كذلك ..

ــ Ave Maria !! Ave Maria !!

وأطبق على جميع النساء ، صمت" مخيف" .. ورسمن إشارات الصليب على صدورهن !!

ركعت الأم على الأرض في رعبٍ ظاهر .. تبعتها في ذلك جميع من تزاحمن على باب الكوخ !

أشارت إحداهن الى ظلامِ فتحةِ بابٍ داخليّ ، في أحد الجدران ، وهمست ..

ــ هنا .. في فتحة الباب .. هذه !.. هل تَرين .. هناك ؟!

همست جارتها .. ترتعد من الخوف بشدة ..

ــ أين .. هناك ؟!

التفتَ فراس في يقظةٍ وحذر الى حيث أشارت المرأة !.. فرأى فتحة مظلمة ، تحرّكت على مصراع بابها ، بعض الظلال !

قالت المرأة في رعب ..

ــ هناك .. على الباب .. ألا ترين ؟

همست الأخرى ، في صوتٍ واجفٍ ، مخنوق ..

ــ نعم .. إني أرى !

ــ سألت إحداهن ، في صوتٍ خافتٍ ...

ــ ماذا ترين ؟ ماذا ؟

سخرت الأولى .. متعجبة ..

ــ ماذا ترى ؟!

رَدّت جارتهـا ..

ـ ماذا تـرى ؟

وفي لحظةٍ خاطفةٍ ، سيطرَ الفضولُ والرعبُ على جميع النساء اللواتي تجمهرن حول باب الكوخ ! وتمكّن منهن يقينٌ غريب !!

علا صوت الطفل ، في أنين مخيف ، فقامت أمـه تجلّل وجهـه برسوم دينية .. ونظرت ، هي الأخرى ، نحو الفتحة الشيطانية !!

تمالك فراس جأشه ، وقال في صوتٍ حازمٍ ، أجشّ ..

ـ ماذا هناك ؟ ماذا وراء فتحة الباب ؟!

وجَهِدَ في مقاومة خوفٍ كان قد بدأ يسري في أوصاله !

تَقدّم نحو الفتحة .. ووقف أمامها ، ثم أشعل عود ثقابٍ ، مدّه أمامه ، وولجَ في داخلها !

عصفت بأنفه رائحةٌ تشبهُ رائحة الجيف النَتِـنة ! فتراجع على الفور ، ورأت جميع النسوة ظلاً ، أو شكلاً معيّنا ، ما كُنّ في حاجة الى تسميته ..

قال فراس ، وهو يعود أدراجه الى جانب « بالوما » ..

ـ ليس في الداخل شيء .. ما عدا رائحة الموت !!

ردّدت إحدى النسوة قوله ، في برودٍ .. تنهض لتغادر باب الكوخ ..

ـ نعم ، ليس فيها إلا رائحة الموت ..

ـ نعم .. ليس في داخلها ، ما عدا الرائحة ..

نهضن ، جميعهن .. كل منهن تردّد بدورها ، القول نفسه ، في واقعيةٍ واجمةٍ ، وبرود .. الى أن قالت إحداهن ..

ـ « ماريا » لقد تقدّم الوقت .. ليحمِ ، يسوع ، طفلك ..

ردّدت النساء من ورائها ..

ـ لقد جُنّت المسكينة ..

ـ « ماريا » .. إني ذاهبة ..

ـ لقد توقّف الطفل عن البكاء ..

ـ يا للمسكين .. هل هجع الى النوم ؟ لعلّه نام .. أو مات ..

ـ إن من يراه هكذا ، يظن أنه قد مات ..

ـ لقد جُنّت المسكينة .. نسيَتْ النطق تماماً ..

ـ يا للجسدِ المعذّب .. أنقذه ، يا يسوع !

ـ أنقذ المسكين ، أيها الرب ..

ـ أنقذنا جميعا ، أيها الرب ..

ـ ليلة مقدسة .. للجميع ..

ـ ليلة مقدسة ..

ـ ليلة مقدسة ..

* * *

عاد الزائران ، في صمتٍ .. تسير « كارميليتا » وراءهما ، تردّد لحناً خافتاً ، يذكّر بما كانت ترتّله من قبل ..

قال فراس لـ « بالوما » ، في وجومٍ واشمئزاز ..

ـ هل تدرين ماذا كان في تلك الغرفة ؟! لقد شاهدتُ نصف جيفةٍ ، وراء الباب !! لعلّها جيفة كلبٍ ، أو قطةٍ .. تنبعث منها رائحة مفزعة !!

ردّدت « بالوما » ، في شرود ..

ـ من يدري .. لعلها كانت جيفة ، وحسب ..

تعجّب فراس من قولها .. يتمعّن في وجهها وهو يسأل ..

ـ ماذا تعنين ؟.. لقد رأيتُ الجيفة بـأم عيني ! ولقد أتى التآكل على نصفهـا ! وتذكّر الرائحة الكريهة التي طالعتـه ، وبشاعة منظـر الديدان في الجيفة ، فأضاف ، يقشعرّ جسده للصورة التي استرجع في ذهنه ..

ـ يا إلهي .. ما أبشعها !!

عاد الى الصمت .. ثم قال ..

ـ أتذكرين كيف أمسكَتْ بذراعك .. تلك العجوز ؟!

ارتعدت « بالوما » لذكرى يـدٍ جافةٍ أمسكَتْ بذراعها في الكوخ ..

لكنها لم تردّ على ما سمعت !

* * *

خرج « جيوفاني » لاستقبالهما ، يحمل سمكة كبيرة .. عرضها في فخار ، أمام الضيفين وقال ..

ــ ما رأيك سيدي بهــذا العشاء الطازج ؟ لقد أتانا بهـا حفيدي ، من البحيرة ، إنها من صيد « ستيفانو بالمي » !

هزّ فراس رأسه بالموافقة، بينما أخذت « كارميليتا » السمكة، واتّجهت نحو الدار .. تهمس لوالدها .. تنبئه بما رأى الضيفان ، في الكوخ ..

قال « جيوفاني » وهو يسير وراء الزائرين ، نحو المائدة المُعدّة ..

ــ نعـم .. إنه لشيء تعيس .. ألم تشاهده ، يا سيدي ؟! ألم تشاهد ، بنفسك ، كيف تُستَلّ منه الروح ؟! رغم جميع محاولات أبويه ، لإنقاذه ؟!

وروى « جيوفاني » لهمـا تفاصيل جميـع المحاولات التـي أُجريت وأخفقت ، لإنقاذ روح الطفل ، وجميـع ما تُلي أمامـه من صلواتٍ « طـرد الشياطين » ..

حدّثهم كيف أتى الكاهن بنفسه لإنقـاذه ، وكيف غطّى رأس الطفـل بطرف ثوبه الطاهر ، وهو يتلو قراءات من الإنجيل ، دون جدوى !

حدّثهم عما علّقته الأم ، من صليب الشمع ، الذي باركته آخـر مسيرة دينية .. وكيف رُشّت جميع زوايا الكوخ بالمـاء المقدّس ، بمـا في ذلك ، أطراف المائدة ، والأسرّة ، وهي تتلو صلوات « الكريدو » بصوتٍ جهير .. ثلاث مرّات ، متتاليات .. دون جدوى !!

أطلعهـم كيف وُضعت قبضة من الملح في طرف ثوبٍ ، ربطته الأم الى عنـق الطفل ، بينما أمضى والـده « الليالي السبـع » لخلال سبـع ليـالٍ متتاليات .. سهر خلالها في الظلام الدامس ، أمـام مصباحٍ مغطّى بقدْرٍ قديمة .. يُنصت لما حوله .. يترقّب أيّـة حركةٍ ، كي ينقضّ على الغـول الخفيّ ، ويقضي عليه !! وكانت غرّة واحدة من إبرة مقدّسة ، يحملها ، تكفي كي تتبدّى صورة الغـول ، للعيان !! ضـربة واحدة !! لكن الليالي السبع ،

انقضت ، دونما طائل !! والطفل يذوي .. وروحه تذوب .. يوماً بعـد يوم ! وفي النهاية ، لم يبق أمام الأب ، سـوى السِّحر .. فعمـل بنصيحة ساحرةٍ هرمـة ، اقتضت منه قَتْلَ كلبٍ ،وضِعت جثّته خلف بابِ الغرفة المظلمة ، مما يمنع الغول من عبور عتبة الدار ، إلاّ إذا أتمّ عدّ جميـع ما على جيفـة الكلب ، من شَعْر !!

ردّدت « بالوما » ، في عجبٍ ..

ــ هل تسمع ؟ « ماكسيميليانو » يا الله .. هل تسمع ؟!

كانت « كارميليتا » قد أقبلت ترفـع أمامها طبـق السمك ، في بهجـةٍ وفخـار ..

نظرت « بالوما » الى الطعام في فتورٍ .. وقالت ..

ــ لقد تبدّدت شهيّتي .. لا أظن أن في استطاعتي تناول الطعام .. بعـد ما مرّ بنا هذه الليلة !

تعجّب « جيوفاني » وقال ..

ــ كيف ؟ إن هذه السمكة من صيد « ستيفانو بالمي » ! انظروا ، إنـه يجلس هناك ، ليلاً ونهاراً ، ونادراً ما يقع في صنّارته مثل هذا الصيد الكبير !

علّقت « كارميليتا » في صوتٍ خافتٍ .. وكان والدها قد اتجه نحـو النافذة ، يفتحها ، ويشير الى البحيرة البعيدة .. قالت ، كأنها تهمس لنفسها .

ــ إن « استيفانو بالمي » غـرق في البحيرة منذ سنين .. كـان يصطاد ، وإذا بالزلزال ، يفاجئه .. فسقط في الماء ، وغاب فيه ..

ثم تابعت ، في بساطة وواقعية محيّرتين ..

ــ لكنه لم ينقطـع عن الصيد ، منـذ ذلك الحـين .. فما إن تقـع في صنّارته سمكة ، حتى يتركها .. على الشاطئ ، في المكان الذي سقط منه في البحيرة .. ويلتقطها ، من أهل القرية ، من كان في طريقه في تلك الجهات !

قـال « جيوفاني » وقـد وقف إزاء النافذة ، يشير الى مكانٍ بعينه ، على الشاطئ ..

ـ أظن اني أراه ، الآن .. هنـاك !

نهض فراس ، تتبعه « بالوما » ، وتقدّما من النافذة ، في حيرة وصمت !

لم يـرَ فراس حيث أشـار « جيوفاني » إلا بريق القمـر على صخور الشاطىء ، وانعكاس نوره على سطح ماء البحيرة الساكن !

تبسّمت « بالوما » ، وقالت ، في شرود ..

ـ من يدري ؟.. لعـل روحه تأتي فعلا الى المكان الذي فارقت فيـه الجسد !.. إن علاقة الأرواح ، بالأرض ، لأمر غريب ..

نظـر فراس إليها في وجوم ، مكتوم .. كأنه يراها عبر غلالة شفـّافـة ، لم يكن قد تنبّه الى وجودها ، بينهما ، من قبل !

لم يُدرك من معنى لذلك الشعور المفاجىء ، ولا سبباً مباشراً لمـا بعَثه في نفسه ، من غـربة وانقباض !

أحس بوطأة حمـلٍ خفيٍّ يجثم على نفسه ، سببه ومضٌ سريعٌ مـن إدراكٍ جديدٍ لما تكشـّف أمامه ، عمّا يختفي وراء تلك الطبيعة ، والأشياء ، من روابط أزليـّة ، بين الإنسان ، والأسطورة .. بين البشر ، والخرافـة !.. كان ينظـر الى ما يغطـّي الجبال من غاباتٍ مدهشةِ الجمال ، وفجأة ، تراءى له أن ما تملـّكه من شعور ، إنما هو إحساسُ إنسانٍ كان مفتوناً بتموّجاتِ وانسيابِ خصلاتِ شَعرٍ معطّرٍ ، رائع الجمال .. وإذا به ، يدرك فجـأة ، أن الأزيز الذي كان يدوّي في سمعه ، إنما يصدر عن ذلك الشَعْر !.. وإن لفي طيـّاته ، اختبأت وعشـّشت خليـة حشراتٍ ، وُلدت ، وستظلّ أبـداً متمركزة في ذلك الرأس الجميل !!

تراجع عن النافذة ، ومنظر الغابات ، ومشى واجماً نحو السلم ، فارتقاه في بطء ، ثم سار وحيداً ، عبر الممر الذي يقود نحو غرف النوم !

لحقت به « بالوما » ، تسير الى جانبه ، لا تدري ماذا ألمّ به ، فإذا بـه

يستوقفها ، ليفتح باب غرفة الورد ، فيتقدم من السرير ، ويضع المصباح الذي في يـده ، على المنضدة التي الى جانبه ..

كان هواء الغرفة مخضلاً ، مشبعاً بأريج النرجس ، ففتح فراس صدره له ، يتنشّق منه ، في نهمٍ ، حتى سمع طنيناً في أذنيه !
أغمض جفنيه ، وهو يردّد في كآبة ، هـادئة ..

ـ « لقد عاشت«وردة» ، كما تعيش الورود.. ردْح صباحٍ واحدٍ »*
ثم تبسّم في ألمٍ بعيد ، وسأل حبيبته في أسى ..
ـ هل تعرفين هذا الشعر ، لـ « ماليرب » ؟ « بالوما » .. هل تعرفينه ؟!
كتمت « بالوما » هلعاً داخلياً تسرّب الى نفسها ، وسألت ..
ـ ماذا ألمّ بك .. « ماكسيميليانو » .. قل !.. ماذا تخفي عني ؟!

ضمّها الى صدره ، يقبّلها من جبينها وأنفها ، وعينيها ، وشفتيها ، كمـا تعوّد أن يفعل ، فإذا بهـا تدفع كتفيه بيديها ، في لطفٍ ، تُباعدُ رأسها الى الوراء ، فجأة ، وهي تُمعن النظر في عينيه ، وقد سالت دموعها على وجنتيها ، دون أن تظهـر معالم البكاء على تقاطيع وجهها !
ـ « مكسيم » ، ماذا جرى لك ، كيف ابتعدت عني ؟.. والى أيـن ؟.. لماذا ؟!.. صرتُ أخاف ، فجأة ، تسميتك ، بما أشتهي !.. أخشى أن أقول لك « حبيبي » ، كما في الصباح !.. أين تتوارى ؟.. أين تتراجع ، بعيداً عنّي ؟!
ولمّا لم يردّ عليها .. راحت تهـزّ كتفيه بيديها ، هزاً عنيفاً ، ثم شدّته الى صدرها ، وأخفت وجهها على عنقـه !
جلسا على حافة الفراش ، فوق أزاهير النرجس التي بدأ الجفاف يـدبّ في أوراقها ، و « بالوما » بين ذراعيه .. مال بها على السرير ، في رفقٍ .. يسند ظهرها بيدٍ ، ويرفع خصلات شعرها الشقراء الطويلة ، باليـد الأخرى ، حتى

Et rose, elle a vécu ce que vivent les roses.. l'espace d'un matin..*

استقرت متمدّدة بين الورد ، يحيط شعرها برأسها ، كوسادة ، حيكت بخيوط من ذهب ..

أمعن التحديق في عينيها ، حتى أغلقت جفنيها ، في استسلام .. وراح يلتقط من النرجس الذي أحاط برأسها .. يصفّقه ، وردةً ، وردةً ، على جبينها ، ووجنتيها المخضلّتين بالدموع ، يجول بشفتيه على رأس أنفها ، ثم ذقنها ، ثم شفتيها .. يرفع رأسه ، ليعود الى التمعّن في تقاطيعها الرائعة الجمال ، يملي ناظريه في أهدابها الطويلة .. وأنفها الدقيق .. وشفتيها اليانعتين المكتنزتين .. لا يفهم ماذا يحسّ به .. لا يدري ماذا حلّ بحبّه ، ولا كيف طار ، وراح يحلّق فوق جسدٍ يذوب رغبة في امتلاكه ، وفي الوقت ذاته ، بات حبّاً ، عليلاً ، لا يعرف كيف تاهت ونأت روحه عنه !

قال لها ساخراً ، وقد تعاظمت شهوته لها ، حتى تغلّبت على جميع هواجسه ..

ـ « بالوما » ، ماذا تفعلين ، لو أن « الغيلان » راحت تمتصّ الروح ، من حبّي لك ؟!

تمتمت ، ترتجف لذّة ، تقبّل شفاهه ، وقد أحسّت برغبته العارمة .. فسَرَتْ الى جسدها ..

ـ أكتفي .. بالجسدِ من ذلك الحب .. أكتفي بالجسد !.. خذني .. هكذا .. بين الورد ..

* * *

فتح عينيه في الصباح التالي ، على صوت ترتيلٍ بعيدٍ ، بدا لسمعه وكأنه يصدر عن مئات الأصوات .. تجمّعت ، لتردّد أهازيج غريبة ، راحت تقترب من « الأرميتاج » ..

قرع جرساً يدويّاً صغيراً ، الى جانب السرير ، يطلب القهوة من « كارميليتا » ، ثم نظر الى « بالوما » النائمة ، الى جانبه .. مغمضة العينين ،

تغالب اليقظة .. وشذرات من خصلات شعرها قد ترامت وتهدّلت على وجهها ، فغطّت قسماً منه ..

مدّ يده ، يرفع لخصلة عن أنفها ، وشفتيها .. يقول في حنان ..

ـ « بالوما » .. هل تسمعين ؟.. إن شيئاً ما يلاحقنا .. حتى في هذه العزلة ..

هزّت هذه رأسها ، مبتسمة لتطيّره ، ثم تثاءبت .. تغطّي فمها بظهرِ يدها ..

ـ إنه اليوم .. الذي يسبق الصلاة .. على الأرواح .. هل نسيت ؟

كره ما ذكّرته به « بالوما » من أمرِ الأرواح والصلوات .. لم يشأ استرجاع حوادث الأمس ، خشية أن يعاوده ذلك الانقباض والوجوم الذي سبّبتهما له تلك المشاهدة التعسة !

كان الترتيل قد ازداد وضوحاً .. تردّدُ أصواتُ الذكور ، نغماتٍ متواصلةٍ ، طويلة .. ما تكاد تقترب من نهايتها ، حتى تشترك في ترديدها أصوات الإناث ، في طبقة أعلى .. فيصمت الذكور ، وتتابع الإناث الأهازيج نفسها ، في أصواتٍ حادة ، بطيئة الإيقاع ..

دخلت « كارميليتا » تحمل القهوة ، وقد تورّدت وجنتاها ، وهي تكتم ضحكة كادت تصدر عنها ، لِما رأته من جذع السيّد العاري ، ونهدي السيدة .. سترتهما « بالوما » بملاءة السرير !

تمتمت الفتاة ، فرِحة ، مبتهجة ..

ـ إن المسيرة ستمرّ بالدار بعد قليل .. ستمرّ من هنا ، في طريقها الى القرية ، ومن ثم الى الدير ، والكنيسة .. حيث يتجمّع الوافدون من جميع أنحاء المنطقة !

أجاب فراس في عدم اهتمام ..

ـ ظننت أن الدير مهجورٌ ، منذ ما قبل الحرب !

ـ بل .. منذ زمن طويل .. لكن « المسيح الجديد* » مرّ فيه ، سنة ١٨٨٥ .. والمسيرة ، ستتجمّع قرب الدير .. طالبة المعونة لجميع المساكين الذين هدم الزلزال بيوتهم !

وضعت الفتاة طبق القهوة ، وانصرفت على عجل ، ثم تمهّلت ، تسأل قبل إغلاق الباب ..

ـ ألن تذهبا للصلاة ، غداً .. في كنيسة عذراء « أفيزو » ؟! آه نسيت .. لقد مات الطفل ، ومرّ أبواه أمام الدار ، منذ الصباح الباكر ، يحملان جسده الجاف التعيس !.. سيدتي .. لم يعد هنالك من حاجة لشراء الشموع ، لإنقاذ روحه !.. شمعة" صغيرة" واحدة تكفي .. مسكين !.. انه لم يقترف ذنباً يستوجب طلب الغفران لروحه ..

وغادرت الغرفة ، قبل أن تتلقّى الجواب ..

قال فراس ، بعد صمتٍ طويل ، كأنه يحدّث نفسه ..

ـ « المسيح الجديد » .. يا لها من قصة !.. ما أغرب ما يستقر في نفوس هؤلاء البشر !

تبسّمت « بالوما » ، وقالت في هدوء ..

ـ ألم تسمع به ؟.. كان يُدعى « أوريست ديلا" كابيلا" » .. ولقد اعتقد به جميع أهالي الجبال !

ـ « بالوما » .. كيف تعرفين جميع هذه الروايات ؟ ظننتك إسبانية ؟!.. ما علاقتك بها ؟!

ـ وأنا كذلك !.. لكن أمي إيطالية ، ومن الجنوب ، من « نابولي » .. إن أهالي الجنوب لا يخفى عنهم شيء ، من هذه الأخبار !

---

* ان قصة « المسيح الجديد » ، حادثة تاريخية واقعية ، « أوريست دي آميسيس » رجل ولد في « كابيلا » عام ١٨٢٤ ، ولعب الدور الذي يرويه الكاتب بحذافيره . مات عام ١٨٨٩ ، ولقد جمع « انتونيو دي فينو » ، ونشر ، وثائق شيقة غريبة عن حياته ، ونحن نشير الى هذه المعلومات ، كي لا يساء فهم القصد من وراء الكتابة عنها .

ورَوتْ له قصة « أوريست ديلاّ كابيلا » ، الراهب الورع ، الذي تعلّم قراءة المستقبل في خطوطِ الشمسِ المشرقة ، والذي طاف العالم ، حسب ما قيل ، وكلّم البابا ، في روما ، وملوك بعض الدول ، وهي على عروشها !.. فما إن عاد الى قريته ، حتى عاش سبع سنين ، في مقبرة ، بصحبة الهياكل العظمية ، يجلد نفسه بانتظام ، ليلاً نهاراً ، حتى هذّبها !.. فانطلق الى الجبال ، حيث عاش سنين على قممها ، في وحدةٍ تامّة .. يسير ، عارياً ، على الثلوج ، وبعد ذلك ، عاد الى بلدته ليعظ الناس من جديد ، لكنه اضطُهد من قِبَل أعدائه ، فهرب الى جزيرة « كورسيكا » ، حيث أدرك أنه أحد « الرُسُل » .. فقرر أن يجوب إيطاليا ، يخطّ اسم العذراء ، بدمه الأحمر ، على جميع أبواب البيوت !.. فما إن عاد الى وطنه ، حتى رأى نجمة مخبأة في شجرة ، وسمع منها « الكلمة » وحينئذ ، أتاه الإلهام الإلهي ، فأدرك أنه المسيح الجديد !

تبسّم فراس وقال في دعابةٍ .. مستطرفاً ما سمع ..

ــ وهل تصدّقين هذه الأسطورة ؟!.. أنت الفتاة الأوربية .. المثقّفة ؟!

عجِبت « بالوما » لسؤاله .. وقالت ..

ــ وما علاقتي ، أنا ، بها ؟ إنها معجزة هذه الجبال .. ولقد صدّقتْها ألوف البشر !.. من أكون .. لأكذّبها !

أصرّ فراس على سؤاله .. متعجّباً .. كأنه لم يفهم ردّها ..

ــ أنت « بالوما » .. أنت !.. هل تعتقدين بصحتها ؟!

ــ كيف أصدّق شيئاً ، أو أنفيه ، وأنا بعيدة ، غريبة عنه ؟!.. لكن ، قل لي أنت ، كيف قام « أوريست » ، حسب ظنّك ، بالمعجزات التي قام بها ؟.. إذا لم يكن لهذه الرواية شيء من الصحة ؟!

سخر منها ، وأجاب ، يحاول السيطرة على نزقه ..

ــ وهل رأيتِ ، بأم عينيك تلك المعجزات ؟!.. حتى تقبلين بصحّتها ؟!

ــ ستراها ، غداً ، يا عزيزي .. بل سنراها معاً ، إذا ذهبنا لزيارة الدير ، وكنيسة العــذراء .. في « أفيزو » !

نظر إليها ، في دهشة واستغراب ، لا يدري ماذا يقول .. فأردفت ..

ــ « مكسيم » .. لمــاذا تنفر من هــذه الأمور ؟!.. إنمــا أُحِسّ .. أحياناً .. إنك من عالمٍ آخر !.. ما بكَ تستبعد حدوث ما لا يقبله العقل ؟.. أليس الإيمان ، بذاته ، أمراً لا يقبله العقل ؟.. هل فقدتَ إيمانك ؟!

نهض فراس من الفراش على عجل ، يتجنّب النقاش مع حبيبته !

دخل غرفة الحمام ، يغتسل ، ثم عاد يرتدي ثيابه في صمت .. كأنه أزمع الخــروج .. دون « بالومــا » !

ــ عجبت هــذه ، فسألت ، هــادئة ..

ــ « ماكسيميليانو » ماذا بك ؟!.. هل تنوي اللحاق بالمسيرة ؟!.. لقد كــدتَ تهرب مني .. مساء أمس .. وأدركتُك !.. فلا تهــرب مني ثانية ، اليوم !.. إن اللحاق بك ، لصعبٌ ، في وضح النهار !!

عاد إليها ، وتبسّم في رفق .. ضمّها الى صدره ، ثم قــال ..

ــ « بالومــا » .. حبيبتي .. ان ما أودّ أن أعرفــه منكِ ، هو مــدى ارتباطك ، أو مدى .. آه .. لم أعد أدري ماذا أودّ معرفته بالضبط !.. كــل ما هنالك ، هو أني لا أفهم ما يربطك بهذه الأساطير !.. أخشى أن يكون لهــا صلة بأمور أخرى .. في نفسك .. لا أفهمها !

صمتت « بالوما » طــويلاً ، ثم قامت تغتسل ، هي الأخرى ، وترتدي ثيابها .. فما إن أتمّت ذلك ، وكان فراس ، في جميع ما كانت تقوم به ، يراقب حركاتها ، ينتظر منهــا التفوّه بشيء يجيبه على ما ســأل ، حتى جلست على مقعدٍ ، قــرب النافــذة ، وقالت .. وهي ترجّل خصلات شــعرها بحركاتٍ شديدة ، تجذب رأسها الى الوراء ..

ــ « مكسيم » .. إنك لا بــدّ تظنّ أني أعيش في عالم وهمي ، أراك تترفّع عنه !.. دعني أُنبئك انك ، أنت ، هو الذي يعيش في الوهم ، وليس

أنـا !.. لقد كنتَ تظنّ ، بالأمس ، أن هذه الغابات خالية من الناس ، لمجرّد أنك لم تشاهد أحـداً فيها ، وأنت تمرّ بهـا ، في السيارة !.. ثـم اكتشفتَ البارحة أن فيها بشراً ، وبشراً من نوعٍ خاص ، لم تشاهد مثله من قبـل !.. دعني أقُلْ لك ، إنك تقترف نفس الخطأ ، مرتين .. تكتفي برؤيـة الناس من الخارج .. كأنما الإنسان بشرة وتقاطيع فحسب ، إنما الناس عقول ، ونفوس ! وأنت تتحاشى الاقتراب مما تتركّب منه هـذه النفوس .. ترفض أن تمعـن النظـر الى ما بداخلها !!

ـ ما لي .. ولأهـل الجبـال .. وما تتركّب منـه نفـوس سـكان « الأبروتزي » ؟!.. إن في الكون أمماً ، وشعوباً شتّى ، وهؤلاء ، منهـم .. إنما أريد معرفة ما بداخلكِ أنتِ !.. ومدى علاقتكِ أنت ، بهؤلاء !! أنت ، « بالوما » ، هي الفتاة التي أُحب .. وأجهل !.. وليس « كارميليتا » !

ـ هزّت « بالوما » رأسـها ، في شبه يأس .. وقالت ..

ـ كيف تقول ذلك ، وأنت ابن الكاثوليكية المدَلّل ؟.. وهل تظـن أن جوهر إيمان إنسانٍ ، على مثل رفعتك ، يختلف كثيراً عن إيمان إنسانة عاديّة مثل « كارميليتا » ؟.. إن المعجزة جزءٌ من الإيمان .. إيمان جميع الشعوب .. ومعجزات شعبٍ ، قد لا تشكّل إلاّ خرافات شعبٍ آخر !.. هـل تظن أن « رومـا » تختلف كثيرا عن « باريّا » ؟.. وهـل الصلاة على الأرواح ، في كنائس« روما » ، أكثر لياقة من الصلاة عليها ، في كنيسة عذراء « أفيزو » !.. « مكسيم » !.. إنك إنسان واهمٌ ، لخياليّ .. قد أعمتك ارستقراطيتك عما يجول حولك !.. هل الفارق كبير ، حقـاً ، بين رعشـة التوجّس التي تصيب « الماركيزا كولونـا » .. وبين خـوف هؤلاء المساكين ، من الغيلان ؟!.. إن هـؤلاء التعساء لا يعرفون آداب اللياقـة ، فيصرخون ، حين يخافون ! أو يتأوهون .. ومثل « الماركيزا كولونا » أو مثلي ، تعرف تمامـاً كيف تضبط

الرعشات البدائية ، فتخفيها وراء سعلة مهذبة ، وترسم على شفتيها ابتسامتها الجوفاء !

خرجا من غرفة نومهما التي تطل على الوادي .. يعبران الممر ، الى الطرف المقابل من الدار ، الى غرفة أخرى ، تطل نافذتها على الحديقة الخارجية ، والطريق العام ..

كانت حشود المؤمنين قد حاذت سور الحديقة .. تسير بخطى سريعة ، في تناقض تام مع بطء ما تردده من إيقاع التراتيل ، والأهازيج !.. مما أعطى لذلك المشهد صفة خيالية .. طابعاً أسطورياً ، كأن تلك الحشود تسير ، حسب إيقاع حياتها القصيرة المدى ، بينما الطبيعة تردد أنغاماً ، لها إيقاع نموها البطيء .. أنغاماً ، تمور فوقها .. تتوارثها الشعوب الأوربية ، والديانات ، فيها ، منذ آلاف السنين !

شاهدا من حيث وقفا ، خلف النافذة ، طقوساً وثنية لا تزال تمثل وتؤدى ، على الطريقة الرومانية !.. تقاليد ، اختلطت بطقوس الإيمان الإلهي.. حتى باتت مزيجاً عجيباً من التاريخ ، يشابه نفوس تلك البشر !

سارت صفوف الدواب ، محملة بسلال تطفح بالهدايا .. من قمح ، وحنطة ، وشعير .. والى جانبها ، صفوف من الصبايا ، على رؤوسهن سلال أخرى صغيرة .. معبأة بالقمح .. أعدت لتضحية الغد .. بينما مشت أمامهن ، حمارة مزينة ، على ظهرها سلة أخرى ، كبيرة ، فيها بقية ما أعد من حبوب ..

كان الرجال والأطفال يسيرون خلف النساء ، على رؤوسهم أكاليل مضفورة من النباتات والورود .. يحيطون بطفل ، يقود بقرة سمينة ، بيضاء .. جلل ظهرها بغطاء قرمزي عريض .. بقرة ، كأنها من العصور الأولى .. علفت على مدى العام ، بنصيبها من الموسم الخصب ، تتقدم الجموع بين البيارق المزخرفة ، والشموع المشرعة .. ما إن تتروث على

الأرض ، بين الفينة والأخرى ، حتى يهرع من حولها الى ما تتساقط منها .. يقتطع ، كلٌ ، جزءٍ من الروث ، والبخار يتصاعد منه ، يُحتفظ به ، كبركةٍ خصبٍ للموسم المقبل !

تذكّر فراس طقوس التغوّط في بلاط « لويس » الرابع عشر ، لكنه أحجم عن الكلام !

قالت « بالوما » مأخوذة بما ترى ..

ـ « مكسيم » .. ليتك ترى العذارى عند بزوغ الفجر ، يَغسلن أيديهن ، ووجوهن ، وأقدامهن بالندى ، تيمّناً .. يتمنّين في السرّ ، تحقيق أمنياتٍ دفينةٍ ! ليتك تشاهد كيف تستقبل هذه الجموع ، شمس أول الربيع ، من كل عام .. وكيف يهزجون .. ويرقصون .. ويصيحون لها ، وسط الجلبة والضوضاء التي يحدثونها ، وهم يقرقعون بأدواتٍ معدنية ! « مكسيم » ! إن جميع أبناء هذه المنطقة .. رجالاً ، ونساء ، وأطفالا . يبحثون عن أول ما يتحرّك من الأفاعي ، لدى خروجها من أوكارها ، بعد نوم الشتاء الطويل .. يلفّونها ، حيّة ، حول أرسغهم ، ورقابهم .. ويتقدّمون بها للصلاة .. كلٌ ، يتعبّد أمام قدّيسهِ المفضل ! علّه يحميه طول العام المقبل ، من سمّها الزعاف !

تذكر فراس تعدّد الآلهة ، وتماثيلها ، عند الرومان .. وتعدّد التضحيات لها .. لكنه أحجم عن الكلام !

كانت حشود المسيرة قد بدأت تبتعد عن الدار ، وصوتها يخفت ويتلاحم .. يختلط مع الصدى الذي يُحدِثه ، فيصبح صوت الذكور ، كأنه نداء حنجرةٍ عريضةٍ واحدة .. رجلٌ واحد ، تنمو ذكورته مع الأشجار .. وصوت النساء ، إمرأة واحدة .. أنثى واحدةٍ ، تنتظر الربيع ، لتُخصب بما تتلقّفه من لقاحٍ ، تهيّئه ، وتحتفظ به ، منذ تلك اللحظة .. الوثنية ..

التفتت « بالوما » الى حبيبها ، تحدّق في عينيه الشاردتين .. تتبسّم لما يجول في نفسه من إحساسٍ غريب ..

قالت ، وكأنها تتكلّم بلسانِ تلك الأنثى الأزلية ..

ــ إنهـا علاقة مترابطة متشابكة ، متضافرة ، بين الإنسان ، ولأرض ، لا تـرى لهـا مثيلاً ، إلا بين شعوب هذه القـارّة ! قارّتنـا نحن ، التـي لا تمـرّ فيها مناسبة احتفالٍ ، أو لعـبٍ أو عمـل ، أو ولادة .. سـواء في الحبّ ، أو في الزواجِ .. في الولادة ، كما في الـدفن ، إلا وتسمـع صوت الانسان يصدح بغناءٍ معيّن ، تمتـدّ جذوره الى الغنـاء « الجيورجي * » الذي يمجّد خصب الأرض ، ويجعل من كل محصول ، ولادة !! لذلك ، ترى كل ما يحيط بالانسان من أشياء ، تبـدو لنا كأنها مخلوقات حيّة ، ذات حياةٍ وروح نابضة .. مخلوقاتٍ ، أتت الى الوجود ، نتيجة للقـاحٍ أزلـيّ ، بين الأرض ، الأم ، وما حول الطبيعة ، من عناصر مُذكّرة تلقّحها ، وتلفّهـا .. تارة بالخير .. وتارة بالشرّ .. فأصبح اللّغز جـزءاً من كـل مخلوقٍ ، أو حركة .. يتعشّق ويتغلغل في وجود جميع المخلوقات ، حتى سيطر ، في النهاية ، على الحياة البسيطة والعادية ، وخلق فيها أشباحاً ، لا حصر لها ، ولا عـدد .. خيالات ، لا سبيل الى تحطيمها ! تغلغلت في الحقول .. وبين الجبال .. حتى عكّرت صفوَ المياه ، وسكنت جميـع البيوت ، فباتـت تـلازم الإنسان في مسكنه ، يعايشها ، دون أن يراها ، الى أن ارتبطت في الوعي ، أو في الخفاء ، بمعظم أسباب أفراحه ، وأتراحه !

كان فراس ، يستمع الى حديثهـا ، لا يصدّق أن تلك ، « بالومـا » ، التي تكلّمه !

نظر إليها في مزيدٍ من الدهشة والاستغراب ، وقال ..

---

* غناء كنائسي ، قديم ، وحيد اللحن ، ذو ايقاع لا وزن له .

ـ يالك من مخلوقة غريبـة ، صعبة الفهم ! لا أظنني سوف أصِل الى إدراك ما أريده عنك ، مهما حاولت !

قهقهت ، في عذوبة ، وقالت ، في صوتٍ رقيق ..

ـ ولِمَ تستغرب ذلك ؟.. ألستُ جزءاً من هذا اللّغز الذي أحدّثك عنه ؟! أليس أمراً طبيعياً أن يستعصي فهم الأنثى ، على الذكَر ؟! أنا الأرض .. وأنت الأثير ! ولكل منا حيّزه ، ومكانه ، في هذا الكـون الفسيح ! ما لَكَ ، ولملكتي ؟!.. دعنا نتواءم ، بدل هـذا التنافر الدائم !

* * *

الفصل الخامس عشر

* وقف « جيوفاني » في صباح اليوم التالي ، ينتظر وصول الزائرَين ، وقد أسرج الحصان ، وأحكم شدّ العربة القديمة إليه ، وكانت جماعات الحجيج قد بدأت تتوافد منذ البارحة .. تجدّ في المسير .. علّها تسبق غيرها الى فسحةٍ قرب محراب الكنيسة ، للصلاة فيها ، بعد أداء واجبها في الطواف حول الدير المهجور الذي بارك أطلاله « أوريست ديلاّ كابيلاّ » ، منذ ثمانين عاماً ..

لم يعد فراس في حاجةٍ الى تحريضٍ « بالوما » لزيارة الدير .. أسرع في ارتداء ملابسه .. يتوق لمواجهة المجهول .. يسعى لمعرفة المزيد عمّا يربط تلك الجماعات بعالم الغيب .. يكره ما تعوّده من نفسه ، من ترفّعٍ عن ذلك النوع من المعاناة .. يتعجّب للبرود ، واللامبالاة ، التي واجه فيهما ، طوال حياته ، تجارب مثل تلك .. عوالمّ ، أدرك مؤخراً أنها تكاد تكون هي الأصل

---

* لقد ذكر هيكل وقائع هذا الفصل ، مع تفاصيل الطقوس التي جرت فيه ، في صحيفة « ماتينو دي نابولي » في ١٢ شباط من سنة ١٨٩٣ ، كذلك ذكر مثلها في صحيفة « جيل بلاس » الفرنسية ، تحت عنوان « لورد » في ١٥ نيسان عام ١٨٩٤ .. فبات مادّة ، تناولها عدد من الكتاب ، كل يصفها في أسلوبه الخاص .. ونحن نذكر بهذا ، كي لا يساء فهم القصد من سرد تفاصيل قد تثير حساسية من يميلون الى كل ما هو غربيّ .. ظنّاً منهم ، أن الغرب رقيّ ، وحضارة .. كلّه ! علم ، ومنطق ، متحرر من الرواسب والطقوس !

في كل ما يحرّك شعوبا بأسرها !.. وأنها ، مهما تراجعت ، وتقلّصت في نفس الإنسان ، فلا بد لحدثٍ ما ، أن يحرّكها .. يبعثها من حيث توارت ، في عقلهِ الباطنيّ ، فيوقظ فيه روابط أزليّة ، تضافرت جميع الحضارات على صقلها ، وتهذيبها ، حتى بات يخيّل للانسان المعاصر أنه نجح في التغلّب عليها ، أو كاد .. وصار في وصلٍ ، مباشرٍ ، مع قوى الكون الخارجي .. في حريّة تامة من أي قيدٍ كان يربطه بأرضه .. وطبيعتها ..

* * *

جلس في العربة ، الى يمين « بالوما » ، يكاد يذكر عربات دمشق ، لولا ما سمعه من تراتيل ، وأهازيج الجموع .. زادَ توافدها ، وتكاثفها على الطريق الضيّقة ، حتى أوشك « جيوفاني » أن يوقف الحصان ، خوفاً من أن يجمح بهم ، وقد بدأ يجفل للصراخ ، والجلبة ، اللذين تصاعدا ، وازداد دويّهما في شكل مثير !

صاح « جيوفاني » يقول ، فوق أصواتِ الجموع ..

ــ سيدي .. إن هؤلاء .. لا يُعدّون بشيء .. بالنسبة لمن بدؤوا يتوافدون ، منذ الفجر ، في عربات القطار !! إن القطار لا يكفّ عن تفريغ الحمولة منهم ، تلو الأخرى ! ليتك ترى كيف ازدحموا في داخله ، حتى كادوا يتساقطون من أبوابه ، ونوافذه .. بل من فوق أسطحة عرباته !!

سأل فراس ، فتاته ..

ــ ألا ينتابكِ بعض الخوف .. مما تسمعين ؟!

ــ لا تخف .. إني متماسكة الأعصاب !.. ثم ، إن على الإنسان أن يقاسي بعض العناء .. ليستحق البركة !.. وأنت .. بمَ تشعر ؟

ــ جميع ما أعرفه عن « الأبروتزي » .. قرأته في كتابات « دانونزيو » ! لقد تكلّم عن « الغيلان » ولم أصدّق ما قرأته ، حتى رأيته بأم عيني .. البارحة !

ـ وهل قرأتَ ما كتبه عن الطقوس اللاتينية ؟
ـ نعم ، قرأت.. وأرجو ألا أُفاجأ يوماً بحقيقةٍ ، تؤكد لي ما قرأت !.. هل ستطلبين البركة ، وتتمنين تحقيق رغبةٍ ما ؟
ـ واحدة فقط ..
ـ لكننا لسنا طاهرين .. فهل يجوز ذلك لك ؟
ـ سأطلبها .. رغم ما تقول !

كانوا قد وصلوا قرية « باريّا » ، القريبة منهم .. فما إن شاهد « جيوفاني » الحشود المتوافدة ، تتسابق على أقرب دربٍ الى الدير ، حتى قرر سلوك دربٍ آخر ، .. أكثر صعوبة ، وأطول من الأول .. لكنه أسلم للزائرين ، في مثل تلك الرحلة ..

بدت « بالوما » كأنها تخفي انفعالها لما هي مقبلة عليه ، واذا بها تسأل .. كأن صبرها عيل ..

ـ « جيوفاني » .. هل الدير ما زال بعيداً .. متى نصله ؟
ـ بعد نصف ساعة ، يا سيدتي .. على أكثر تقدير ..
ـ هل الكنيسة قديمة ؟! تاريخية ؟

ـ لا .. إني لا أزال أذكر البناء القديم الذي كان في مكانها .. قبل حدوث المعجزة .. وأخرج ورقة مطبوعة من جيبه .. ناولها للزائرين ، خلف ظهره ، يقول ..

ـ اقرأها يا سيدي .. إن القصة مروية فيها .. بكاملها ..

كانت عجلات العربة تهتزّ فوق حجارة الطريق السيّئة التعبيد ، والحصان يجري مسرعاً ، يحاول « جيوفاني » تفادي بعض من لجؤوا الى الدرب نفسه ، من المارة ، وينهر البعض الآخر ، من صبيةٍ وشبابٍ ، حاولوا التعلّق بالعربة ..

قرأ فراس قصة ، خلاصتها ما يلي : « في عام ١٥٢٧ في العاشر من

حزيران ، أصاب المنطقة عاصفة هوجاء ، أتت على جميع محاصيلها ، فاقتلع الإعصار جميع أشجار الكرمة ، وقضى على القمح والزيتون .. وفي صباح اليوم التالي .. مشى شيخٌ ورعٌ ، في السبعين من عمره ، واسمه « ألكسندر موزيو » ليتفقّد أرضه .. وكان مؤمناً .. بل شديد الإيمان ، فراح يصلّي للعذراء ، وهو في طريقه الى أرضه ، يعتصر قلبه ما رآه من خراب .. فخرّ طالباً عدل السماء ، راكعاً على الأرض ، يُنصت لأجراس الكنيسة ، قرب شجرة زيتونٍ يابسةٍ .. وإذا به يُحاط بنور فاق وهجُه نور الشمس ، من فوقه .. ويرى العذراء ، في ثوبٍ أزرقٍ ، ثم يسمعها تقول له ، في صوتٍ عذب .. « اذهب واخبر غيرك ، بأن الندامة سوف تُكافأ ، وأن معبداً سيُبنى في هذه البقعة ، وأني سأطرح البركة فيه .. إذهب ، وتفقّد محصولك ، وسترى أنه قد سَلِمَ من الخراب » ..

« فما إن تفقّد الشيخ أرضه ، واستوثق من صحّة جميع ما سمع ، حتى توجّه الى كنيسة القرية ، وأطلع الكاهن على ما جرى له ، فمشى ، كلاهما ، وأهل القرية من ورائهما ، الى المكان المقدّس ، فرأوا بأعينهم جفاف الأرض التي ظهرت عليها العذراء ، وشاهدوا العشب الأخضر حول شجرة الزيتون اليابسة التي عادت إليها الحياة .. فبدأوا ، جميعاً ، في وضعِ أحجار الكنيسة التي جُمعت لها التبرّعات على أيدي السيدين « فونتانكلوني » و« جيرونيمو » ، وسرعان ما تمّ بناؤها ، ورُسم على حائطها ، فوق المحراب ، صورة للعذراء ، والشيخ الجاثي ، ووجهه الى الأرض ، تحت قدميها .. »

انقضت برهة صعبة طويلة .. شردت أفكار فراس خلالها عما حوله .. وفي النهاية ، صاح « جيوفاني » ، يتنفس الصعداء ..

ــ ها قد وصلنا !.. سيّدي .. لقد وصلنا !.. كنت أخاف طارئاً ما ، يعوقنا !.. لكننا سلِمنا ، ولله الشكر !

ما إن شدّ « جيوفاني » عنان الحصان ، يصيح له بالتوقف ، حتى نهض

فراس ، يستطلع ما بان أمامه فجأة من السهل الذي تحدّر عن الطريق ، بُنيت عليه كنيسة العذراء ، وبجانبها ، قبعت أطلال الدير القديم .. وحول هـذين الصرحين ، دبّت ألوفٌ مؤلّفة من جميع أنواع البشر !!

* * *

لم يجل في ذهن أيّ من الزائرين ، أنهما سيقفان يوماً ، وجهاً لوجه ، أمام مشهدٍ مثل ذاك ، فاقت فظاعته ، ورهبته ، جميع ما يمكن للخيال استقطابه من كوابيس ، مفزعة ، مرعبة !

تجمّعت أمامهما جميع بشاعاتالبشر .. بشهواتها المُخجلة ، ومخاوفها ، بتشنّجات أجسادها ، وتشويهها !.. واختلطت أمامهما دموع الندم ، بضحكات السخرية .. الغريبة .. الوقحة !

تمازجت أمامهما أعراض الجنون ، بمظاهر الخفّة .. والفزع ، بالبلاهة !

مرّ بهما المحتال ، والمعتوه .. وتعاقبت نظرات الحسرة على العيون الجامدة .. تراقبُ ، ساخرةً ، عذاب اليأس ، في الجسد المنحلّ !

سمعا الولولة ، والزعيق ، وأصوات الأبواق .. تضاهي أصوات الهزيج والبكاء !

اختلط نهيق الحمير ، بصهيل الخيل ، وأصوات الماشية .. وتحرّكت جميع الحيوانات ، بين البشر .. هذا يعرض للبيع ما لديه من الفواكه والطعام .. ذاك يعرض الأيقونات ، أو الحليّ ، أو الصلبان .. اختلط الحجيج بالمتكسّبين ، والمتسكّعين .. هؤلاء يرقصون ، في فحشٍ ، ومجونٍ .. وأولئك يتعبّدون في خوفٍ ، أمام مشاهد تشنّجات الصَرَع !

بدا الأمر كأن سيلاً ممن تقيّأته القرى المجاورة ، من لصوصٍ ، ومحتالين ، ومرتزقةٍ ، قد تحدّر على ذلك السهل الذي توافدت إليه حشود البسطاء .. أتوا يبغون بركةً أو شفاعة ، أو شفاءً من مرضٍ عضال ..

جميع هؤلاء ، تجمّعوا ، واختلطوا ، حول « بيت العذراء » ، وأحاطوا

بجدران « البيت المقدس » .. بسط الباعة منهم ، بضاعتهم على الأرض .. يشيرون الى الوافدين بالتقدّم منهم ، لشرائها .. يكلّمون ، كلّ ، بلغته .. يزعقون ، لمن يصيح !.. يرقصون ، لمن يرقص !.. يضاحكون ، من يضحك !.. يقلّدون حركات الصرع ، للمرضى ، أو العاجزين !!

جلست امرأة ، بالغة البدانة ، فارجة ساقيها المفرطتي التورّم ، كاشفة صدرها المفتوح ، تلعق شفتيها بلسانها الضخم المتشقّق .. مشيرة الى ما وراء ستارة حمراء ، خلفها .. تَعِدُ المارّين بغرائب الدنيا ، إذا ما هم دفعوا نقوداً ، ودخلوا ، ليتفرّجوا على ما تُخفيه !.. وقفت امرأة أخرى ، بجانبها .. مهرّجة عجوز ، كأنها وحشٌ لفظته الحياة ، إثر لقاحٍ قزمٍ ، بقردة ! راحت ، تُطعم سعداناً ، من فمها ، مباشرة !! وقد وقف الى جانبها ، مهرّجٌ آخر ، في ثيابٍ ملوّنة ، يقفز في جنون .. يقرع أجراساً يحملها بكلتي يديه !!

وأمام هؤلاء ، مرّت قافلة طويلة من الحجيج ، يتقدّمها حامل الصليب ، ومن ورائه عشرات النسوة تمسك الواحدة منهن الأخرى من ذيل ثوبها .. سرن ، محدّبات الظهور ، حفاة .. يحملن نعالهن على أكتافهن .. مغمضات العيون .. فاغرات الأفواه .. يسيل اللعاب على ذقونهن ، ومن فوق طيّات الورم ، على رقابهنّ المريضة .. كان النقرس قد أتى على أطراف معظمهن ، حتى بدت كجذوع نباتاتٍ بريّةٍ .. ومن تحت الورم المخيف ، بانت خواتم الذهب !.. والى جانب هذا وذاك ، ارتفعت أصوات الدعاء والضراعة ، وصاحت .. .. .. AVE MARIA *

كانت قوافل الحجيج تتناوب المرور حول الكنيسة .. وأطلال الدير . منها من حُملت جميع مرضاها ، على محفّاتٍ ، بعضها صُنعت من القشّ ، وبعضها الآخر ، من ألواح الخشب .. جلس المرضى عليها ، القرفصاء ،

---

* « تقبلي يا مريم »

يسيل البول من أعضائهم العقيمة ، بينما استلقى فوقها آخرون ، وقـد تراخت سيقانهم ، وتدلـّت أذرعتهم في الهواء ، تهتزّ ، وتتأرجح وِفق خطواتِ مـن يحملهم !.. منهم ، من سال لعابه !.. ومنهم ، من راح يمضغ أشياء لا يستطيع بلعهـا !.. وفـوق أجسادهم ، جميعاً ، تجمّع الذباب الأزرق ، والحشرات الطائرة ، كما تتجمّع فـوق الجثث !!

والى جانب هذا ، كله ، ارتفعت أصوات الدعاء ، والضراعة ، وصاحت..

AVE .. MARIA AVE .. MARIA..

كانت تلـك القوافـل تلفّ وتـدور ، حـول الكنيسة التي اكتظت بالمصلّين ، حتـى لـم يعـد في وسـع أي مخـلوق الدخـول اليهـا .. جميع ما يمكن المـرء تصوّره ، مـن لصوصٍ ، ومحتـالين ، ومتحذلقين ، ومخادعين ، ممـن احترفوا جميع مهن الحيـاة !.. جميع هؤلاء ، راحـوا يدورون ، ويطوفون ، حـول تلك القوافل .. يرافقون حـركتها .. يمشون معها ، يتوقـّفون معها .. يحاولون ، أبـداً لفتَ انتباه أفرادها الى سلعةٍ ، أو الى حيلةٍ ، أو تعويذة ، أو طلسمٍ ما !.. همّهم الأول والأخـير ، اقتناص ما حمل هؤلاء الحجيج من متاعٍ ، أو نقودٍ ، أو حليّ ، جاؤوا ليضحّوا بها داخـل الكنيسة !.. أسرابٌ من الذئابِ الكاسرة .. تدور حـول فريستها المنهكة القوى .. تنتظر الفرصة المواتية لتنقضّ عليهـا !

والى جانب هذا .. ارتفع صوت الضراعة والدعاء ..

AVE .. MARIA AVE .. MARIA

كانت حشود القوافل تزداد كثافـة ، مـع مرور الوقت ، كأن سـيلاً لا ينقطع من البشر قـد راح يتدفـّق على ذلك السهل .. مِمّا زاد في صـوت الهزيج ، حتى اجتمعت أصوات الألوف على إيقـاعٍ واحـدٍ .. يصيحون ، كلّ ، كما يحـلو له ، وفي النغم الذي يختار .. ولا يجتمعون إلا على شـيءٍ واحـدٍ ، هو الإيقـاع ..

AVE .. MARIA AVE .. MARIA AVE .. MARIA..

فما إن مرّت دقائق على الدويّ الجديد ، حتى نفذ أثره الى أعماق فراس و « بالوما » .. وبان أن الوهنَ ، والضياعَ ، قد نالا منهما كليهما .. زادَ من شدّة كربهما ، ما تصاعد من الروائح النتنة لتلك الحشود .. فتحوّل اشمئزازهما الى غثيان .. حتى باتا على قيد ثوانٍ من الجري ، هرباً ، من ذلك الخصمّ المخيف !

وإذا بـ « بالوما » تصيح ، فجأة .. وكأن قوّة لا إراديّة قد تمكّنت منها ..

ــ لنقترب من الكنيسة !.. لنقترب منها !

ردّ فراس ، لا يفهم ما يحرّكها ..

ــ ألم تتعبي ؟!.. بل لنذهب من هنا .. لنغادر المكان !

ــ لا .. لا !.. لم أتعب !.. لازلتُ متماسكة !.. أستطيع المقاومة !.. لنقترب من الكنيسة .. لنقترب منها .. ألا ترى غيرنا ؟!.. جميعهم على مثل حالنا .. ألا تسمع .. هذا الصراخ ؟!

بان العذاب مجسّداً على وجهها .. أصاب شفتيها بعض التشنّج ، وتقلّصت عضلات وجهها ، فراحت يدها تشدّ وترتخي في عصبية مرضيّة على ذراع فراس .. وهي تردّد ..

ــ ألا تسمع .. هذا الصراخ ؟!

ثم تراخى جسدها ، فجأة ..

كان الصراخ قد بلغ ذروةً ، بدا لهما فيها ، كأنه يصدر عن مذبحةٍ بشريةٍ .. كأن رجالاً ، ونساءً ، يقتتلون .. يذبّح بعضهم بعضاً ، ليشربوا من دماء ضحاياهم !!

قال « جيوفاني » ..

ــ إنهم يطلبون الشفاعة !

وكان يجاهد ، طوال الوقت ، لإبعاد المتطفّلين عن سيّديه .. يدفع هذا ، ويركل ذاك !.. الى أن قال ، في إلحاح وتصميم ..

ــ إمّا أن تتقدم وإما أن نعود !.. لا جدوى من الوقوف هنــا !!

ردّت « بالومــا » .. في وهــن ..

ــ .. لا أقوى على الحــركة .. أكاد أقــع ..

ــ .. الى الكنيسة ، إذن !!

وراح يــدفع المحتشدين أمامــه بعنف ، شاقاً ممراً لفراس .. قــاد « بالوما » كأنها إحدى المريضات اللواتي أتين يطلبن الشفاء !.. فاذا بمتسوّلة تتبعهما ، تتطلب حسنة منهما .. تجري وراءهما ، مادّة ذراعها ، خلف ظهــر فراس .. أمسكت بذراع « بالوما » ، وشدّت عليها !

ما إن رأت « بالوما » اليــد الصفراء التي أمسكت بها .. يد قــرد ، بمفاصلها المتورّمة ، وأظافرها البنفسجية ، والشقوق التي بين أصابعها ، حتى أطلقت صرخة مدوّية روّعت من حولها ، فسارع كل من « جيوفاني » وفراس الى حملهــا .. وشقّا معاً طريقهما ، في صعوبة زائدة ، الى أحــد أعمــدة الكنيسة ، قرب بابها المفتوح .. وقفوا ثلاثتهم يلهثون إعياءً .. « بالومــا » ، ملتصقة بصدر فراس .. يستمعون في تراخٍ مرضيٍّ الى أصواتٍ مدوّيــة ، تطلقها الجموع في إصرارٍ وتواترٍ متزايدين ....

AVE .. MARIA AVE .. MARIA AVE .. MARIA..

كانت جميع القوافل تتابع مسيرتها الدائرية ، حول الكنيسة ، تطــوف وتدور .. يقود كل قافلة منها ، أحدهم .. يحمل رمــزاً دينياً ما .. صليباً ، أو تمثالاً ، أو أيقونة أو غير ذلك .. يتبعه المؤمنون ، يجرّون أقدامهم جــرّاً ، وقد أُنهكت قواهم ، حتى كاد بعضهم يسقط على الأرض لفــرط الإعيــاء ، والتعب ! يلوّحون في الهواء بأذرعهم .. يصيحون.. ويزعقون .. ويولولون ، لدى مرورهم ببــاب الكنيسة ، ولدى سماعهم ما ازدادت حدّته من جؤّار أولئك الذين وقفوا داخلها ، قــرب الصخرة المقدسة ، فحظوا بنعمة الانبطاح عليهــا ، وطلب الشفاعة والبركة !!

AVE MARIA .. AVE MARIA .. AVE MARIA ..

راحوا يضربون صدورهم !! يمزّقون ثيابهم !! يلطمون وجوههم ! بجرّ البعض أقدامهم جراً ، وقد شخصت عيونهم في الفضاء ، كأنها لم تعـد ترى ما أمامهـا !!

سقط فريقٌ منهم على ركبهم.. فهرع إليهم أناسٌ ، من قادة القوافل ، لجـأوا الى لعْنهم ، وشتمهم ، لما تسبّب به سقوطهم ذاك ، من تأخـيرٍ في سير القافلة !.. فتنهض الأجساد المتهالكة .. وتعـود الى الزحف ، مرغمة .. يزداد زعيقها ، وصراخها ، وهي تعوذ الى سابق حالها في اللف ، والدوران .. تدور ، وتدور .. يزداد التصاق الناس ، وتداخُل القوافل بعضهـا ببعض .. فتزداد كثافة الحشود التي تحلّقت حولهم .. حشودٌ ، راحت تدور معهم ، حتى أصبحت ألوف الأجساد التي حول الكنيسة ، مـدّاً واحـداً .. جسدا واحداً ، يدور ويدور .. يعذّب نفسه .. يمزّق أعضاء جسده .. يمارس على نفسه جميع ما يمكن تصوّره من قسوةٍ وحشيةٍ .. حتى غابت جميع المعالم الإنسانية عن تلك الحشود !! لم تعدْ ، بشراً يمشي .. بـل كتلةً متماسكة ، صمّاء ، عمياء .. صنفاً غريباً من أحد أجناس الحياة .. يدور .. ويـدور .. يدبّ حول صرحٍ مقدّسٍ .. تقوده قوةٌ مُخيفةٌ ، مجهولة !!.. يصرخ .. ويصيح .. في نَفَسٍ واحدٍ ، صريح ..

AVE MARIA .. AVE MARIA .. AVE MARIA ..

كان الإعيـاء والشحوب قـد بلغا مبلغاً على وجـهِ « بالوما » حـدا بـ « جيوفاني » الى التدخّل .. فقال في حـزم ..

ــ إن الوقوف هنا لن يزيد الأمور إلا سوءاً .. يجب التحرّك .. الآن !

نظـر الى الأجساد التي اكتظت ، وتدافعت عـلى باب الكنيسة ، ومن فوقها ، بانت في الداخل ، أوشحة الأبخرة الزرقاء ، تبرق من خلالها أضـواء مئات الشموع ، فقـال في تصميم ..

ــ لن نستطيع الدخول الى الكنيسة .. من هذا الباب !.. إني أعـرف مدخلاً آخر ..

وأشار الى فراس بالتمسّك جيّداً بالفتاة ، واللحاق به .. ثم راح يدفع من كانوا أمامه ، بكتفيه .. تاركاً مكانه ، على باب الكنيسة ، لغيره ، متّجهاً نحو جدرانها الخلفية !.. فتبعه الزائران المُنهكان.. يستجمعان من أعصابهما ، بقايا قوةٍ ، تعِدهما بالخلاص !.. يسيران لا رغبة في الوصول الى هدف ما ، بل خوفاً من السقوط على الأرض .. نهبةً لنعالِ وأقدامِ تلك الكتلة البشرية ، المتحركة ، العمياء !!

فتح «جيوفاني» باباً قديماً صغيراً ، رُصِفَ الجدار المحيط به بمئاتٍ ، ومئاتٍ قطعِ الرخام التذكارية .. كلٌ منها تحمل اسم وتاريخ البركة التي تلقّاها أحدهم ..

تبعه الزائران ، على الفور ، دلفا الى شبه غرفةٍ ، أو ممرٍ حجريٍ عريض .. معقود السقف .. تبيّن لهم ، في آخره ، منفذٌ الى أوشحةِ الأبخرةِ الزرقاء ، وما راح يبرق عبرها من نورِ الشموعِ البرتقالي.. داخل الكنيسة..

كان سقف الممر مرصوفاً ، هو الآخر ، بنماذج واقعيّة ، لما تلقّى البركة ، أو الشفاء ، من أعضاءِ جسدِ الإنسان !.. عُلّقت عليه .. أو تدلّت منه .. نماذج عن الأيدي والأذرع ، والأرجل ، والأقدام .. نماذج عن الأفخاذ ، والركب .. والوجوه والأثداء .. معظمها من الشمع ، والباقي من الخشب أو الحجر ، رُسم عليها جميعها في دقّة مدهشة ، نوع العلّة التي كانت تقاسي منها .. فبانت عليها الندوب ، والجروح ، واضحة ، الى جانب التعفّنات والقروح !! بانت الأورام والالتهابات بألوانها الحقيقية .. فبدا ذلك السقف المخيف ، كأنه أرض مشرحة ، في مشفى .. صُفّت عليه قطع الجثث التي أصيبت بجميع أنواع الأمراض ، وجميع أسماء العلل !!

أما على أرض ذلك الممر ، فلقد تمدّدت، وتهالكت ، عشرات الأجساد. جميعها من الشيوخ ، أجسامُ أولئك العجزة الذين سقطوا أمام محراب الكنيسة ، مغشياً عليهم .. أزيحوا عن المذبح ، ليُفسَح المجال لغيرهم .

جيء بهم الى ذلك الملاذ ، فصُفّت أجسادهم ، جنباً الى جنب ، كما تصفّ الجثث أثناء وباء الطاعون !.. لا ترى منها إلا أكتافها المتهالكة ، ورؤوسها الشائبة .. أو الصلعاء .. يسيل اللّعاب والزبد من أفواهها ، وقد ارتخت أشداقها ، وتدلّت شفاهها !!

كان أحدهم قد وصل .. متهالكاً ، ينوء بحَمْله رجُلان .. يسيل الدم من أنفه ، ومن جروحٍ على وجهه !.. تدلّى رأسه ، فراح يترنّح أمامه ، مع إيقاع خطواتِ الرَجُلين .. يتأرجح ، تارةً الى اليمين ، وتارةً الى اليسار ، تتساقط قطرات دمه على ثيابه ، وشفتيه ، وذقنه !!

لم يكن ذلك الكهل قد نال البركة .. فتعالت الصيحات من خلفه !

ــ يا عذراء !!.. يا عذراء !!.. يا عذراء !

وكان صراخاً مريعاً ، مخيفاً .. أشد ضراوة من صراخ إنسان يُحرَق على النار !! جُؤار" أشدّ رهبة من عويلِ إنسانٍ يُلاقي حتفه خنقاً ، في بحرٍ من الظلمات !!

ــ يا عذراء !!.. يا عذراء !!.. يا عذراء !

امتدت ألوف الأذرع في ضراعة ، نحو المذبح .. في تشنّج وحشي !!

ركعتِ النسوة على ركبٍ يسيل منها الدم .. تبكي وتنتحب .. تشدّ شعرها .. تضرب أوراكها .. تلطم بجباهها الأرض ، وهي تتلوّى في تشنّجاتٍ شيطانية !!

كان عدد منهن قد انبطحن ، ووجوههن الى الأرض ، بلغ بهنّ التشنّج أن ارتفعن بأجسادهن المتصلّبة ، لا يرتكزن إلا على أكواعهن ورؤوس أصابع أقدامهن !! رحن يتقدّمن من المذبح ، خطوة ، خطوة ، يقمن أثناء ذلك بحركات أفعى جريحة .. تزحف في انتفاضاتٍ متتالية ! وكانت أيديهن ، خلال ذلك ، ترتجف أمام رؤوسهن ، دون أن تمسّ أفواههن المفتوحة عن

ألسنٍ مشققةٍ ، تدلّت ، وهي تقطر دماً .. ينزلن بها على الأرض المرة بعد المرة .. ليرسمن بها الصليب ، على ترابه ، بلعابهن الدامي ! بينما وقف رجل أمامهن ، وفي يده عصا ، راح يدقّ بها على الأرض ، يشير لهن من حيث لا ينفع السمع .. يُصَحّح اتجاههن ، كي لا يحدن عن وجهة المحراب !!

ـ يا عذراء !!.. يا عذراء !!.. يا عذراء !

كان قد ركع الى جنبي هؤلاء النسوة المتضرّعات ، عدد آخر من النساء ، رحن يراقبن العذاب ، ودموعهن تسيل على وجوههن ، تشددن من أزر الزاحفات .. تحثّهن على المضيّ في درب العذاب ! ما أن تبدي إحداهن علائم التراخي أو الإغماء ، حتى تسعف ، فترفع من إبطيها ، أو يمسح جبينها بخرقة مبللة ..

وكان بكاء هؤلاء يزداد لعذاب الأطفال ، والشباب ، والشيوخ ، ممن ينتظرون دورهم للتقدّم من المذبح .. لا يصبحون جديرين بالنظر الى اللوحة التي صوّرت معجزة الشيخ والعذراء .. إلا إذا مرّوا بدورهم ، بألسنتهم ، فوق الطريق ، نفسه .. ورسموا الصلبان فوق الأطلال التي رسمتها خيوط اللعاب ذاتها !.. يلطمون جباههم على الأرض الصخرية التي تناثرت فوقها أشلاء صغيرة ممزقة من اللحم البشري !!

جميع هؤلاء ، أخذوا يتشحّطون على الأرض .. يقومون بتلك الطقوس ، طلباً للبركة ، أو وفاء لنذرٍ ، أو أملاً بشفاءٍ من مرض عضال !!.. يصيحون ، ويزعقون ..

ـ يا عذراء !!.. يا عذراء !!.. يا عذراء !

* * *

تجمّعت حول المذبح أمّهات ، جفّ من صدورهن الحليب ، كشفن عن أثدائهن للعذراء ، يطلبن منها العون !.. والى جنبهن ، أزواجٌ ، رفعوا على

أذرعتهم أطفالاً ، رُضّعاً ، جفّت أجسادهم من نقص الغذاء ، ينـد عنهم عويل مروّع مشابه لعويل ذلك الطفل الذي امتصّت روحه الغيلان !! وإزاء هـؤلاء ، وقفت نساء" عاقرات .. ينظرن الى أجساد الأطفـال الضامرة ، في هلـعٍ .. يضربن على بطونهن .. يقدّمن ، كتضحية ، ثياب الزّفاف ، ومـا لديهـن من ذهب ..

ـ أيتها العذراء المقدسة ، باركيني ، باسم هذا الطفل الذي بين يديك !!

كنّ في البدء ، يخاطبن العذراء ، في صوتٍ خفيضٍ ، كأن له القـدرة على تجاوز الزعيق ، والعويل ، للوصول الى لوحتها .. وإجراء اتصال خـفيّ مع قدّراتها . لكن سرعان ما كنّ يرفعن أصواتهن،بالتدريج . بعدما يجِدن أن التوسّل ، بواسطة الإقناع ، لا طـائل من ورائه !.. فيبدأن صياحاً مُلِحّاً ، يزداد حـدّة" ، حتى يبلغ زعيقهن درجـة الجنون !.. كأن شدّة الصوت ، في ذاتهـا ، قـادرة على النّفـاذ الى قلب العذراء ، التي تنظـر إليهن مـن اللوحـة في سـكون !!

ـ باركيني !!.. باركيني !!

ثم يتوقفن ، فجـأة ، وقد انتفخت أوداجهن ، وكادت عروق أعناقهن أن تنفجر !!.. ينظرن ، في تمعّن ، الى تقاطيع وجـه العذراء ، في اللوحة ، علّهن يلحظن على معالمها تغيراً ، يشير الى أنها تقبّلت الدعـاء !!

كانت جموع الوافدين تمرّ أمام شِباكٍ حديديّةٍ ، تفصل المذبح عـن المصلّين .. ومن وراء تلك الشِباك ، وقف الكهنـة صفّاً واحـداً ، يتلقّون الهدايـا والهبـات ، من نقـودٍ ومجوهراتٍ ، تنهـال عليهـم ، فيسارعون لتسلّمها من أصحابها ، مستخدمين في ذلك أيديهم وأذرعهم ، فتهتز أجسادهم بموجب الحـركة السريعة للأخذ والتسليم ، فيبدون ، كمهرّجين ، يقـومون بـدورٍ هـزلي ، داخل أقفاص « سيرك » غـريب !

راحوا يدفعون بتلك الهبات الى من وراءهم ، فكان يُسمع لتراكمها ، على الأطباق الكبيرة ، وقع معدنيّ ، تنصت له آذان صف* آخر من الكهنة ، الكتبة ، جلسوا الى مائـدة مستطيلة ، كانت الأطباق توضع عليها ، فتُجرْد الهبات ، وتُفحص ، ثم تدوّن أسماؤها ، وقيمتها ، على السجّلات التي أمامهم !

وينهض أحـد الكهنة بين الفينة والأخـرى ، فيُسمع قـرع الأجراس الصغيرة ، وتهتـزّ المباخر العارمة ، فتختلط رائحـة القـذارة ، والمرض ، والصديد ، برائحـة العطـر المقدس ..

— * Ora Pro nobis sancta Dei Genitrix Ut digni efficiamur promissionibus Christi ..

وبين الفينة والأخرى .. يحـلّ صمتٌ مخيفٌ ، كأنه هـدوء ثوانٍ ، وسـط إعصارٍ هـائل مجنون .. كان يُسمع فيـه ، باللاتينية .. وبحروف واضحـةٍ ..

— * Concede nos famulos tuos !

* * *

تباعـد من كانوا يسدّون المدخل الرئيسي ، تحت القوس الكبـيرة ، وبان على العتبـة ، زوجان شابان ، يرافقهما رهطٌ كبيرٌ .. جميـع أفـراد أسرتهما .. تقدموا ، وسط طنين الذهب ، وحفحفة الحـرير ..

كان للزوجة مظهر ملكةٍ بربريةٍ ، عريضة الحاجبين ، معقودتهما ، قويّة البنية ، مشرقة الوجه .. جمعت شعرها الأسود اللامع ، في ضفـيرة عريضة ، ارتكزت على كتفيهـا .. زَمّت في البـدء فمها الدموي ، ثـم كشفت أسناناً توضّعت في غـير انتظـام ، تعلوها شـفة غليظة ، بان عليهـا وبر الرجولة ! سارت في وقـار ، مأخوذة بما هي فيه ، غير آبهة بما حولهـا ، تَجَلّى حول عنقها عقـدٌ من حبّاتِ الذهب ، لفّ جيدهـا ، ثلاث مرات .. ومن

---

* صلي لاجلنا يا ام الله القديسة لكي نستحق وعود المسيح ..

* منّ علينا بهباتك ..

أذنيها ، تدلّى قرطان كبيران من التبر المحلّى باللؤلؤ .. وحول أصابع يدها ، التي أحاطت بكتف زوجها ، برقت أنواع الخواتم ، جميعها مرصّعة بالحجارة الثمينة !

سار زوجها الى جنبها .. وكان يافعاً ، أمرد ، رقيق البنية ، شاحب الوجه .. تكسو ملامحه كآبة ظاهرة .. يسير إزاء زوجته ، كأنه يشترك معها في حمل سرٍّ رهيبٍ ، بدائيّ الجذور !

تباعد المحتشدون فجأة ، يفسحون الطريق لهما .. يسير رهطٌ من الأقارب من ورائهما ، يواكبهما ، في شكل حلقة كبيرة ، متماسكة .. ما إن اقتربت من الشباك المعدنية التي تفصلهم عن المذبح ، حتى وقفوا قبالتها ، جميعاً ، في صمتٍ كئيبٍ ، ورفع الزوجان أنظارهما الى العذراء ، يطلبان إعادة الرجولة المسلوبة .. إعادة ما سرقه السحر ، من الشاب ، من مقدرته على إزالة بكارة زوجته ! طالبا بذلك ، في دعاءٍ حبيّ صامتٍ .. توجّها به الى العذراء!.. لكن والدتيهما اللتين توسّطتا حلقة رهط الأقارب الذي أحاط بهما، تقدّمتا خطوتين منهما ، ووقفتا خلفهما، تلوّحان بأذرعٍ مشدودةٍ قاسية،تعبت ليلة الزفاف ، في رش القمح المخصب على الزوجين ، دون جدوى !

صاحتا بصوتين حادّين ، تعيسين ..

ــ يا عذراء !.. يا عذراء !.. يا عذراء !

وفي صمتٍ كئيبٍ ، راحت الزوجة الشابة تخلع خواتمها، خاتماً، خاتماً ! ثم فكّت عقدها العائلي ، والمتوارث منذ مئات السنين !.. تخلّصت من جميع ما تحلّت به .. جمعته في كفّيها ، وقدّمته ، صامتة ، شاخصة ، الى المذبح !!

ــ خذي ، أيتها العذراء المقدسة !!

وصاحت الوالدتان في صوتٍ بحّ من شدّة الصراخ !!

ــ خذي أيتها العذراء المقدسة !!.. خذي !!

كانت ، كلّ منهما ، تلحظ الأخـرى .. تراقب ما إذا كانت تضاهيها في شدة التوسّل ، وقـوة الدعـاء ..

ـ خـذي !.. خـذي !!

وراحتا تنظران في لهفٍ واجفٍ ، الى ما يتساقط مـن ذهبِ الأسرةِ ، في أيـدي الكهنة !.. ترقبان ، في لوعـةٍ ظاهرة ، ما جُمع ثمنه عبر أجيـالٍ طويلةٍ من الكدّ والعنـاء !!.. من شقاء فـلاحـة الأرض ، وجمع بذورها ، وثمارها !!.. حـليٌ ، حُفظت في ظلمة الخزائن الحديدية ، سنين طـويلة ، لا ترى النور إلا في مناسباتِ الزواج .. جيلاً بعـد جيل !

شاهدتا تلك الحـليّ البرّاقـة تتساقط .. وتتساقط .. تبتعد عنهمـا فجـأة ، لتختفي من حياتهما الى الأبـد !! وفجـأة ، أحسّتا بوقعِ الصدمة الفادحـةِ عـلى نفسيهما ، وأصابهما يأسٌ شـديدٌ تغلّب على شـكليّات الطقوس ، فاستسلمتا للعويل ، والنحيب !!

كانت عدوى المفاجـأة قـد سرَتْ بين الحشود التي كانت تشاركهما لوعتهما لفقـدان الذهب !.. فاشتركوا ، جميعـاً ، مع أفـراد الأسرة ، في نحيب مـدوٍّ .. يصيحون فيـه ..

ـ يا عـذراء !.. يا عـذراء !.. يا عـذراء !!

ما عدا الشاب الحزين !.. فقـد ظلّ صامتاً ، ينظـر الى صورة العذراء ، في حزنٍ ، ويسيل على خـدّيه جدولٌ من الدموع !

* * *

وقف فراس كما في الحلم ، ينظر الى ما يدور حوله .. يراه حيناً ، ويضيع عـن تمييز تفاصيل وقائعه ، أحيـانا .. تدفع به و بـ « بالومـا » ، جمـوع الحشود .. فيفيق الى وعيـه .. ينظـر حـوله ، من جـديد .. يراقب أدقّ التفاصيل ، لما يجري حوله !.. يدقّق في تقاطيع الوجوه ، ورائحة الأجساد !.. فيرى أناساً ، لا أسماء لهـا .. من عـالم ، لا اسم له !.. تقوم بطقوس غريبة عن روح جميع الفلسفات والأديان !.. كأن الجنون قد تملّك إنسانية غريبة ..

لا علاقة بهـا البتة !.. إنسانية تشكّلت من مـوادٍّ عضويةٍ غـير التي صنع هو منهـا !.. تقوم بحركاتٍ ، وإشاراتٍ ، وصيحات ، ما عرف ، حتى تلك اللحظة ، ان العواطف البشرية ، كمـا كان يفهمها ، قـادرة على تحريكها ، في تلك الأجساد والنفوس !!

كانت وفودٌ جديدةٌ قد حلّت محلّ تلك التي تركت المذبح !

إزداد الزحام في الكنيسة حتى تجاوز ، بعضُهم ، وغطّى ، فسحةَ مسرح التضحيات الصغير !.. فتقدمت امـرأة ، تشبه حيّة رقطـاء ، أزالت أمراضها الجلدية معـالم وجهها .. رفعهـا ذووها عـن الأرض ، فأمسكت بالشباكِ الحديديّةِ ، وراحت تهزّها ، هزّاً عنيفاً !! تصيح صيحات مخاضٍ ، مؤلمٍ ، لا يُفهم معنـاه !.. فتتجاوب الحشود مـع صراخها !.. وتصيح الجمـوع بصـوت واحـد !

ـــ يا عـذراء !.. يا عـذراء !.. يا عـذراء !!

* * *

نظـر فراس خلفه ، يبحث عن « جيوفاني » ، فتنبّه الى أن الرجل كان قـد أحاطه ، مع فتاته بذراعيه ، دون وعيٍ من أيّ منهما ، وأنه كان يشدّهما إليه بقوة ، فيقيهما ذلك من السقوط !.. ولعـل « جيوفاني » أدرك أنه بات عليه ، هو ، اتخاذ القرار ، فبادر الى سحبهما بشدّة .. يدفع الناس من ورائه ، بكتفيه ، وظهره .. يركل مَنْ حوله بقدميه ، ويتراجع ، خطوة ، خطوة ، وقد طوّق بذراعيه كلاًّ من فراس و « بالوما » التي طفقت تجـرّ قدميها ، وقـد استسلمت الى شبه غيبوبة صاحية ..

كانت جميع الأصوات قد تجمّعت واتّحدت ، كأن ذلك العويل الـذي يشقّ الصدور ، صـار عويلَ إنسانٍ معذّبٍ واحـد !! وبات ذلك الـدم المهروق ، ينزف من جراحِ جسدٍ واحدٍ .. وأرواح ألوف تلك المخلوقات ، أضحت روح مخلوقٍ واحـدٍ !! إنسان ، شقيّ ، متعـب ، مريض ، يُطلِق

صرخةً واحدةً !! يرتعش ، بانتفاضه واحدة !! ويتأجّج ، بغضبة واحدة !! تجمّعت ، جميع العلل والأمراض ، في علّة واحدة !! وتركّزت ، جميع المطالب ، في أملٍ واحد !! أملٍ ، كان على العذراء المسكينة أن تلبّيه !!

ـ امنحينا البركة .. يا عذراء !.. يا عــذراء !!

* * *

كان الخروج من ذلك الجحيم مؤلماً ، مروّعاً ، محرّقاً ، على مثل ما كان الدخول إليه .. وبان على « جيوفاني » أنه قد نال قسطه من العراك ، والتعب ، ولولا الأمل بالخلاص السريع من بؤرة الآلام تلك ، لما وجد فراس من نفسه بقيّة عزيمة دفعته لمشاركة « جيوفاني » في شــقّ الطريق لـ « بالومــا » ، المنهكة ، الخائرة القوى ، ولمساعدته على حملها ، من حين الى آخر !

كان اللصوص والمحتالون ، والمراوغون ، وجميع من لفّ حولهم ، ممن قدِموا الى السهل بغية الربح ، ينتظرون خروج أولئك الذين طلبوا البركــة من المذبح ، يعلمون ، سلفاً ، ما ستكون عليه حالتهم من الإعيــاء واليأس .. فيلاحقونهم ، رغــم علمهم بأن هــؤلاء المساكين قــد تركوا وراءهم معظــم ما معهم .. يتبعونهم ، بغية تجريدهم من القليل ، مماتبقّى لديهم من طعــامٍ أو ثياب !! وكان مظهــر « بالوما » يوحي بأنها ، هي الأخرى ، قــد حاولت نيل البركة ، ولم يبدُ عليها ما يشير الى أنها ضحّت بجميع ما تملك من حليّ !

كانت درباً شاقة ، كاد « جيوفاني » خلالها يلجأ الى المِدية الطــويلة التي استلّها ، تحسّباً للطوارىء !.. ولولا بريق شفرتها الحادة ، في يد رجلٍ على مثل تقاطيع وجهــه ، المتجعّدة الصارمة ، ولو لا ما يرتديه من ثيــابِ أهــل المنطقة ، مما دلّ على أنه ليس من عداد أولئك الذين أتوا الى كنيسة العذراء ، طلباً للبركة .. لكانت اللصوص تمكنت منه ، ومن صحبه .. ولكان لا بــدّ التقى ، بين أولئك اللصوص ، بمن يعرف كيف يحتــال على مِدية ، في يــد فــلاحٍ بسيط !

* * *

توقفوا برهــة ، يستريحون ، وكانوا قد اجتازوا معظـم المسافة التي تفصلهم عن العربة .. نظروا من حيث ارتفعوا فوق جزءٍ من السهل .. فـإذا الكنيسة ، وأطـلال الدير ، تبدو لهما من بعيد ، كبقايا صروح ينـداح حولها إعصار" أسود" ينبع سطحه من بطن الأرض .. يدور حولها ، في بطء .. يوشك أن يتسارع ويرتفع ، ليبتلع الجميـع !

أدار فراس وجهه ، بغتة ، بعيداً عن ذلك المشهد .. وكانت « بالومـا » غارقة في النظـر الى الجهـة الأخرى .. فقال ..

ـ .. لن أستطيع النظر الى مثل هذه المشاهد .. بعد اليوم !! لن أمرنّ بعد اليوم بمثل هذه التجربة ! أو بأية تجربة مشابهة !!

ردّت « بالومـا » في وهن شـديد ..

ـ أنا ، « مكسيم » أنا .. أخذت قسطي من حاجة عيني الى النظـر !.. « مكسيم » إني أحسّ الآن كأن عيناي ترفضان النظر الى أي إنسان .. كائناً من كان !!.. كأنهما أصيبتا بإشباعٍ غريب !!

هـزّ رأسه ، يرفض الانصياع لفكرة أن الذنب كان ذنبهـا ، وانها هي التي أرادت المضيّ في تلك التجربة ..

أدركت ما يجول في خاطره .. فهمست .. تختصر العتاب ..

ـ لا تلقِ بجميع اللوم ، على كاهلي وحـدي !.. لقد أدركتَ ، منـذ البـدء ، نوع السحر الـذي كان يجذبني الى هـذه العـوالم التي كانت مجهـولة لـديّ !

ورفعت يدها الى رأسها ، في إعياء .. كأن الكلام قد استنفذ منها آخـر قطرات الحياة .. شحب وجهها فجـأة .. فشدّ فراس على خصرها ، يمنعهـا من السقوط ، وتلفّتَ يبحث عـن « جيوفاني » الذي كان يشير إليهما مـن بعيد ، وقد عاذ بالعربة ، من حيث تركها ، في رعاية أحد الحراس ..

* * *

الفصل السادس عشر

جلسا في المساء يتناولان طعاماً خفيفاً .. بعد أن اغتسلا ، وأخلد كل منهما الى راحة طويلة ، هدأت خلالها « بالوما » الى النوم ، وظـل فراس ، شاردَ العينين ، لا يعرف السبيل الى تهـدئة أعصابه !

قالت « بالومـا » بعـد صمتٍ طويل .. في صوتٍ فاتر ، خفيض . تعرف الردّ على سؤالها ؟

ـ أظنّنا سنعود غـداً الى « روما » .. أليس كذلك ؟

ـ أظـن ذلك ..

تابعت تناول الطعام في مللٍ .. تنظر إليه ، بين الفينة والأخرى ، بطرف عينيها .. تتوقف عن المضغ ، برهة .. شاردة اللب .. ثـم تعـود الى ذلك .. كمن يعود الى عملٍ مملّ .. لا بد منه ..

قالت ، تخفي المرارة في نبرتها ..

ـ أين نحن الآن .. مما كنا عليه ، يوم وصلنـا !

نظر إليها فجأة ، يتأمّل قسَماتها التي طالما سحرته .. يلامس خصلات شعرها بأنظاره .. ثم قال ، في هـدوء ..

ـ أظننا حيث كنّا ، في الماضي .. دون الضياع الذي كنتُ تائهاً فيه !.. ضياعي أنا .. على الأقل !

أجابت ، وقـد امتقع وجههـا ..

ـ لقد فتر حبّكَ لي .. هـذا كل ما في الأمـر !
وتلفّتت حولها ، في عصبية .. ثم عادت تمعن النظر إليه ، وتقول ..

ـ « مكسيم » إنك تحمّلني أكثر مما أستحق ، عـن ذنبٍ لا أعـرف كنهه !.. ماذا تبدّل بيننا ؟.. لماذا أُحس بأنك تنزلق بعيدا عني .. بعيداً !.. وأني هـذه المرة ، لا أجرؤ على اللحـاق بك ؟!
سـألها ، متعجبـاً ..
ـ وهل تريدين حقاً ، اللحاق بي ؟!.. هل تريدين ذلك .. حقاً ؟!
صمتت برهـة .. قالت بعدهـا ..

ـ إن إرادتي لا تلعب دوراً فيما أقـول .. إن ما أشعر به ، الآن ، هـو مـدى قدرتي أنا ، على اللحاق بك ، أو عدمهـا ..
ـ وماذا وجـدتِ ؟!
ردّت ، في بطء شـديد ..
ـ لست أدري !.. لست أدري ما إذا كان في وسعي سؤال نفسي عـن حقيقة هـذا الجـواب !
ـ « بالوما » ألا ترين أنك تهملين ما هو أساسي في الموضوع .. تناقشين علاقتك بي ، من خـلال نقاط التماسّ بيننا ، وتهملين ما هو أهـمّ من ذلك بكثير !.. تهملين الأساس ، الذي هو أنتِ ، أو أنا !.. ومدى تأثير ما رأينـا اليوم ، على كلّ منا !.. فيما يتعلق بالحيّز الذي يمسّ جذور نفسينا ؟!

صمتت ، كأنها لا تودّ مشاركته اهتمامه فيما قال .. ثم سألت فجأة ، في لهجةِ من يحدّث الآخـر عن أمور لا تخصّه ، هو ..

ـ إذن .. لقد كان هذا هو ما غيّرك تجاهي .. كأن « بالوما » الأمس ، لم تعـدْ « بالومـا » اليوم ، في نظـرك ؟!
ـ بل أنتِ لا تزالين على ما كنتِ .. « بالوما » !.. وإذا كان لا بد لك من معرفة ما أحسّه .. فلا بأس في أن أقول لك ، الآتي .. إنكِ ما زلتِ ذلك الجسد الجميل ، والوجـه الساحر ، والنفس التي تخفي كنوزاً مـن الطيب

والعذوبة !.. لكني .. لعلّي كنتُ أحاول ، في الماضي ، أن أكتشف فيكِ غير كل هذا !.. كنتُ أبحث فيك عن أمورٍ أجهل كنهها !.. جـذورٍ ، أتشوّق لمعرفتها ، والآن ، وقد أدركتُ وحـدي ما يمكن أن يواجهه المرء من عـوالم غريبة ، إذا ما هو حاول المضيّ قدماً في اكتشاف الجذور ، فإني أتراجع عـن هذه المهمة ، وأنا راضٍ !!

ردّت « بالومـا » ، على الفـور ..

ــ ولماذا لم تقلها منذ البـدء ؟!.. إنك باختصار شديد ، تحمّلني شيئاً مما كرهتَ اليوم !.. إنك ، باختصار شديد .. تنسب ما بنفسي ، الى تلـك الجذور التي شاهدتَ أحد أشكالها المخيفة اليوم !

مـدّ فراس يده فوق المائدة ، يمسك بيدها المرتجفة ، وقال ، وابتسامة صادقة حنون على شفتيه ..

ــ « بالوما » ثقي إني لا أحمّلك ، أنت ، شخصياً ، أيّ لوم ، بخصوص أيـة تجربةٍ ، خضناها معاً ، هنـا .. وإنكِ رغم ما قلته البارحة ، من فهمك لما يحرّك هـذه الأرض ، وما تعرفينه عنها ، وتشاركين بالإحساس بـه مـن حرارتها ، أقول ، انني رغم هذا ، لا أنسب جميع جذورك إليها .. جذورك ، الواعية منها ، على الأقل !.. كل ما في الأمر ، هو أني أدركتُ بُعدي ، أنـا ، عن جميع ما يمور وينمو ، فوق هذه الأرض ، من شجرٍ ، وعشبٍ ، وهواء ! لم أقل : إني أدركتُ ما يبعدني عن أهلها .. وأهل غيرها ، من سـكان هـذه القارة !.. فهـذا أمر كنتُ قد أدركته من قبل !!.. أقول لك الآن ، ما هـو أهـمّ ، وأدهى .. لقد أدركتُ أني بعيدٌ ، غريبٌ ، في أعماقي ، حتى عـن طبيعتها .. طبيعتها التي كنت لا أرى فيهـا ، من قبل ، إلا روعـة جمالهـا ، وسـحرها ، الخارجيين !!

ــ يا إلهي !.. « مكسيم » ، ماذا تقـول ؟!.. ما هذه المبالغة ؟!.. هـل تَعْني ما تقول ؟.. هل صرتَ تكره حتى الأشجار ، والقمر ؟!

وقامت الى النافـذة ، تفتحها عـلى مصراعيها ، وتشدّ فراساً إليهـا ،

ليشاهد المنظر الخلاب الذي تشرف عليه .. وسألت في عصبيّة ، حائرة ..

ـ هل تكره هذا !.. هل بتّ تكره نور القمر ؟!.. نـوره الفضيّ على سطح هذه البحيرة الساطعة ؟!

لم يلتفت الى الوادي.. نظر فراس الى وجهها الجميل، وردّ في هدوء ..

ـ كنت أرى في هذا المنظر ، سطحه الخارجي ، الخلاّب !

وأمسك بوجهها بين يديه ، يطبع قبلة على شفتيها ، غير آبـهٍ لدهشتها لما يفعـل ، ثم تركهـا ، وأردف ..

ـ كما كنت أرى في وجهك الجميل ، بشرته الرائعة .. ثغرك الشهيّ ..

ـ والآن ؟.. والآن ؟.. هيّا .. قلْها !

ـ والآن صرت أنظر الى ما وراء الوجوه ، الى ما وراء البشرة الشابة ، أو المتجعّدة !.. أليس هـذا ما دفَعْتِني للبحث عنـه ، بالأمس ؟!.. صرت أنظـر الى ما تبرق به العيون ، وليس الى لونهـا ، وشكلها فقط !.. صرتُ أنظـر الى ما تودّ التفوّه به الشفاه ، وليس الى ارتجافة الشهوة فقط !!.. بل أقول لك أكثر من ذلك .. أنا لم أعـد أكتفي بما تتفوّه به الشفاه ، بـل صرتُ أنظر الى ما يحضّ هـذه الشفاه على الكلام !.. والى ما يختفي وراء القـدرة على الكلام ذاتها .. من قدراتٍ أخرى ، وهكذا دواليك !.. هـل تفهمين ما أعني ، هل يكفيك ما سمعت ؟.. أو أزيـد ؟!

كانت « بالومـا » تنظر إليه ، وقد ضاع ذهنها عن معظم ما قال ..

أدرك فراس ذلك ، لكنه لم يكترث لشرودها .. أدارها نحـو النافذة ، في رفقٍ ، وتابع قـوله ..

ـ « بالوما » إن الدين لشيء ، والطقوس لشيء آخر !.. ان أوروبا لم تخترع المسيحية ، بل اكتشفتها .. والتعاليم المسيحيّة التي أتت الى أوروبـا من الشرق ، عبر عبيد روما ، وغيرهم .. إن هي في الأصل إلا تعاليم شرقية ، رائعة .. موجودة في أناجيل طاهرة .. لا مجال للاختلاف عليها .. ولم تـدعُ للقيام بأي طقسٍ من مثل هذه الطقوس اليونانية ، والرومانية ، الجذور !..

إن نور فلسفة المحبّة الشرقية لم ينتشر ، في أوربا ، إلا بعد انعكاسه على مرآة رومانية وثنية .. وأخرى يونانية بحتة .. لذلك نراه اليوم قد تلوّن بطقوس آلهة روما ، وآلهة الاغريق .. لدرجة أن الشرق ذاته ، قد نسي النبع ، وبات اليوم لا يتوجّه في صلواته إلا الى تفاسير هاتين القبلتين الغريبتين !.. إن تعاليم الروح والمحبّة كانت ضد المعابد ، والمتاجرة فيها .. والمعابد في أوربا اليوم أصبح لها بنوكٌ وشركاتُ استثمار .. بل ، لقد كانت لها جيوشٌ ، حتى عهد قريب !.. إن الذي شاهدناه اليوم ، مما قام به الحجيج ، إنما كان طقوس هذه البلاد .. بلاد الغابات والجبال ، والأشباح .. والأرواح المتخفّية وراء كل شجرة ، وكل صخرة !.. بلاد الخوف من القدرات الطبيعية المجهولة .. يُعطيها الإنسان ما يملك ، في خوفٍ ، وهلعٍ .. كأنه يستسلم الى قاطع طريق !

إن الانسان ، في أوربا ، إن هو في الأساس إلا مخلوقٌ ذو تركيبٍ نفسي ضعيف .. إنسانٌ غبيٌ ، يميل الى الشعوذة .. ولعل ذلك مردّه الى ما اضطرته القرون الطويلة لمواجهته ، باستمرار ، من ظروفٍ حياتيةٍ طبيعية من أقسى ، وأشدّ ما وُجد على هذه الأرض !.. « بالوما » إن قوة الإنسان الأوربي ، جسديّة وظاهرية ، بناها وِفق ما اضطرته ظروفه القاسية لبنائه من وسائل دفاع .. فلئن كانت الشدّة والتقلّب ، تفيدان في بناء جسدٍ أقوى .. إلا أن مواجهة المجهول ، وبشكل مستمر ، متقلّب ، يُضعف التماسك والبناء النفسي .. خصوصاً ، حين يضطر الانسان ، كما هي الحال في أوربا ، الى إيجاد أجوبةٍ مؤقتة ، تتماشى مع سعة علمه المؤقتة .. أجوبة ، لا يلبث أن يضطر الى تحطيمها ، جيلاً بعد جيل .. يضطره المجهول لخلق آلهة على شكله وشاكلته ، تتوافق مع إدراكه ومقتضيات حياته اليومية .. آلهة تحمل نقصه ، وشهوته ، وتناقضاته .. ثم لا يلبث أن يحطمها ، ليتبع آلهة أخرى ، أنسب له من الأولى ، تتوافق مع ظروفه الجديدة !.. إن الإنسان الأوربي ، اليوم ، ما يزال في أعماقه إنسانَ غابات !.. غاباتٍ باردة ، مظلمة .. رغم

آلاته وحضارته الآليّة .. فهو ما يزال يرتعد من المجهول الذي قد ينقضّ عليه ، والذي يخافه ، منذ الأزل !.. وفي كل لحظة !.. فكيف يتخلّى عن وسائل دفاعه اليوم ، من مالٍ ، وجاهٍ ، ولباس ، ومظاهر قدرة ؟!.. لذلك تجدين أنه حتى المؤسسات الدينية هنا ، لا تقبل بالتخلّي عن مثل هذه الوسائل الدفاعية الخارجية !.. ألا ترين المعنى الحقيقي لأزياء رجال الدين ؟! لذلك ، لم تقبل أوربا ، منذ البدء ، تعاليم البساطة والتقشّف التي هي الأساس الواضح في تعاليم جميع الأناجيل !!.. إن أوربا أخذت من الشرق ، أسمى التعاليم، وألبستها هياكل الطقوس الوثنية التي لا يمكنها التخلّي عنها !! وجميع ما قلت ، إنما أسبابه كامنة في الوجه المخيف للغابات ، التي تكسو هذه الجبال !.. خَلَقَت أناساً لا يرهبون الغيلان فقط ، في « أبروتزي » إيطاليا ، بل جعلوا منها مخلوقات خفيّة ، لا يخشون « النيبيلونغ » في الغابة السوداء ، في ألمانيا ، بل أسكنوها مياه نهر « الراين » !.. فتّشي جيداً .. وستجدين أن لكلّ غابةٍ ، في أوربا ، شياطينها ، وعفاريتها الخفيّة !!

بدت « بالوما » مأخوذة بما تسمع ، وإذا بها تنظر إليه في تمعّن ، وتقول ساخرة .. متحدية ..

ــ دون « ماكسيميليانو » !.. هل لي بمعرفة كيف تترفّع أنت ، عن هذه النظرة الأوربية الغيبيّة للكون ؟!.. لئن كانت جذوري ، أنا ، تمتدّ الى هذه الأرض القاسية ، التي أنتجت هذه العفاريت ، وتلك الطقوس الغريبة .. فهل لي بمعرفة أية أرضٍ ينتسب إليها « دون ماكسيميليانو » ؟!

تشاغل فراس عن الإجابة برهة ، أشعل لفافة ، وهو يتيح لـ « بالوما » الوقت الكافي ليهدأ بالها ، لعلّها تفهم ما سيقول لها ..

ــ « بالوما » ، إن في أوربا بقعة ، كأنها من أرض الشرق الذي نبتت فيه جميع التعاليم المقدسة !.. فكيف تسألين مثل هذا السؤال ، وأنت ابنة إسبانيا ، والأندلس ؟!

سألت ، في دهشة بالغة ..

ـ ماذا تقول ؟!.. وهل أنت أندلسي ، لتقول هـذا ؟!.. وكيف يتكلّم مثلك عن الأندلس ، وأنتم لا تعترفون إلا بـ « إيبيريـا » القديمة ، وإسبانيا ، اليوم ؟!.. ثم هـل أفهم مما تقول أنك تستثني أهل الأندلس من ميل بقيـة الأوربيين للطقوس والخرافات ؟!.. وهل تظن أن أرضهم أنسب لخلق إنسان متماسك البنيـان النفسي ، من أرض إيطاليـا ؟!

ـ إن اسـم الأندلس لا ينطبق إلا عـلى الزمن الذي كانت فيـه ملكاً للعرب .. لذلك ، فأنا لا أتحدث عن الأندلسيين من الإسبان ، اليوم !.. أمـا عن الأرض ، فلا أظـن أن هنالك أرضاً كاملة .. والجهل ، يخلق الشياطين في وضح النهار !.. لكن ، لا شـك عندي كذلك أن الأرض التي يقـلّ فيهـا المجهول ، هي أنسب المسارح لبنـاء نفوسٍ صحيحة .. لا ترتعد خـوفاً في الظـلام !.. لذلك .. فلولا جوانب سلبيّة ، لا مجـال لذكرها الآن ، فـإنّ الشمس ، والصحراء ، لهما أنسب مسارح الدنيا ، في هـذا المجال ، لخلـقِ الانسان المتكامل !!

عجبت « بالوما » أيما عجبٍ للدرب البعيد الذي سـار فيه حديثهما ، لكنها لم تكرهه .. وسألت ، مستغربة ..

ـ « مكسيم » .. وما علاقتك أنت ، بمـا تتكلم عنـه ؟.. ما علاقتك بالأندلس ، وبالصحراء ؟!

ـ هذا سؤال قد أجيبك عنه ، في يومٍ من الأيام !.. حسبي أن أقـول لك ، الآن .. عليك بالعودة الى تاريخ بلادك ، جيداً .. فتدرسين ، لا تاريخها المسيحيّ ، فحسب ، بل تاريخها ، طول ثمانمائة العام التي كانت فيهـا تحت حكم العرب ، والإسلام !.. تدرسين علاقة الطبيعة ، والأرض فيها ، بالإنسان الشرقي ، الذي أتاهـا محمّلا بالمفاهيم الحضارية !!.. عنـدئذ ، ستدركين ما يمكن أن يوجـد من فوارق بـين إنسان ، وإنسان ، كلاهما قـد يحمل ، في آن ، الجنسية والدين نفسيهما !

ـ وحتى ذلك الحـين ؟!.. حتى أدرس تاريخ الأندلس القـديم ، ماذا

يحـلّ بيننا ؟!.. هـل تباعد ؟!.. هـل كانت هـذه المحاضرة الطـويلة ، محاضرة وداع ؟!

ضمّها الى صدره ، في حنان ، فيما رفعت رأسها إليه ، مغمضةً عينيها ، ذراعاها الى الوراء ، تشعر بشوقٍ الى عناقه ، ولا تود أن تضمه إليها ، فتقرّ أمامـه بذلك الشوق !

ـ أي وداع ، هذا .. تتكلمين عنه ؟

وراح ينشر القبلات على جميع أنحاء وجهها .. كعادته ، حين يحسّ أنه على شـفا مرحـلة الرغبة الجارفة التي لا يعرف لهـا من وسيلة تكبحهـا ، أو تردعهـا ..

قال في صوتٍ عميقٍ ، بـدأت تبدّله معـالم الشهوة ..

ـ سأظل أشتهيك « بالوما » .. سأظل أشتهي أصابع قدميك !!

وكاد أن يعود بهـا الى غرفـة النوم ..

تمنّعت .. تحـار في فهم ما طـرأ من تبدّلٍ ، لا يُذكر ، على طريقـة غَزَلِهِ !.. تستغرب أثر قسوةٍ جـديدة بدأت تحسّها في مداعبته لهـا .. في طريقـة ضمها إليه ، وفي تقبيلها !

تباعدت عنه ، قليلاً ، في لطفٍ ، لاتخفي تعجّبها ، وتمتمت، مستغربة..

ـ « مكسيم » ماذا طـرأ عليك ؟.. ماذا تفعـل ؟!

لم يُجبها ، بل ضمّها إليه ، ثانية .. وبدأ مداعبتها من جديد ، فأبعدت كتفيه عن صدرها ، في هـدوء ، وتصميم ، ثم تملّصت منه ، وراحت تنسّق خصلات شعرها بيدهـا المرتجفـة !

لم تستطع أن تتابع تجاهل قسوته الغريبة ، الجديدة ، فقالت ، في برودٍ مفـاجيء ..

ـ ماذا بك ؟.. هـل تقلّد أسلوب « مارتشيللو » ؟!

علا الدمُ وجهـه لما سمع ، لكنه أحس ، في الوقت ذاته ، ولأول مرة ،

منذ عرفها ، أن سهامها ، وإن كانت ما تزال قادرة على جرحه ، فقدت قدرتها على إصابته في الصميم ، وأصبحت عاجزة عن القتل !

هزّ رأسه تأسفاً ، لا يود ردّ الإساءة ، إليها ، لكنه وجد نفسه يقول رغماً عنه ..

ــ أنا لست «باتريس» !.. لكي أشترك مع « مارتشيللو » على أحد !.. فأراقبه ، وأتعلّم أسلوبه في المضاجعة !

كادت تَنتفِض لهجومه المفاجىء ، تدرك أنها البادئة بالإساءة .. لكنها لم تغفر له مواجهتها بحقائق من حياتها « الموازية » ، حياتها « الأخرى » ، التي كانت تمارسها كأنما تفعل ذلك باسم شخصيّة أخرى !

قالت ، تكتم انفعالاً ، زمّت شفتيها له ..

ــ لعلك لستَ « باتريس » الذي يشترك مع « مارتشيللو » ، في وضح النهار !.. لكنك إنسان غريب حقاً !.. تبيح لنفسك الاشتراك مع الأشباح ، بين الأشجار ، في ظلمة الليل الدامسة !.. وتلومني على ما أقوم به ، في وضح النهار ؟!.. أنا ، على الأقل ، أملك الجرأة على مواجهة واقعي !! وممارسته !!

أدركَ على الفور أنها إنما تشير الى تلك التجربة الغريبة التي مرّ بها في حديقة « الفيلا لوذوفيزي » فتبسّم ، إذ سرّه الوصول أخيراً الى إجابة شافية عن تساؤلاته ، دون أن يضطر الى طرح السؤال مباشرة ، فقال ، في سخرية ودعابة ..

ــ لقد كنتِ هناك ، إذن !.. وعرفتني ، قبل أن أصلَ إليك !!

أشاحت بوجهها عنه ، في نزقٍ ، ونهضت من مقعدها ، تتمشّى نحو النافذة ، تنظر الى ما ورائها ، وتقول ..

ــ ليس هذا ، المهم ، الآن !!.. المهم ، هو أنك كنتَ هناك ! ومارستَ ما مارست !.. ثم سمحت لنفسك ، الآن ، أن تستشهد بمثل تلك الواقعة ، لتجريحي !!

قال فراس في هدوء ، ودونما قصدٍ الى الغلوّ في الإساءة ..

ـ « بالوما » .. لئن كنتُ هنـاك ، فلأني كنتُ أبحث عنكِ ، أنت !.. وقادتني خطواتي ، مصادفة ، الى « كهفٍ » مظلم !!.. تُمارَسُ فيه الطقوس الوثنية التي شاهدنا جذورها الروحيّة اليوم !!

أخلد الى الصمتِ ، برهةً ، كأنما يُسائل نفسه خلالها ، عـن حقـائق جـذرية ، ثم قـال ..

ـ أنـا لم أسعَ يوماً الى مثل تلك التجربة .. واعيـاً .. أو ، عن غـير وعي !!.. لقـد كنتُ أسعى إليكِ ، أنتِ بالذات !.. ومثـل « أوليس » ، كنتُ قادراً على خوض أقسى التجارب ، وأغربها ، للفوز بك !!

ردّت على الفـور ، كأنما أدركت مغـزى كلامه ، وأن جميـع أصرحة هجومها ، قد دُكّت .. وأوشكت تنهـار ..

ـ لكنك..رغم ما تقول..بقيتَ ساكناً ، في الظلام ، وتقبّلتَ الدعابة ! ثم بلغتَ ذروة شهوتك ، رغم أنك لم تكن تعرف ما إذا كنتَ تمارس الجنس مع إنسان ، أو شيطان !!

ردّ عليهـا ، في مثل الهـدوء السابق ..

ـ وهل قلتُ لك يومـاً .. بأنني إنسانٌ ، من كوكبٍ آخـر ؟!.. إنّ عدوى السحر ، لسريعة الانتقال !.. وسحر التجارب الوثنيّة تلك ، قد تنال من أيّ مخلوقٍ كان !!.. ولعـلّ ذلك يعود الى جذورٍ مشتركة بين البشر أجمعين !.. جـذور ، ترجع أصولها الى إنسان الغاب ، والى أعمـاق حقب ما قبل التاريخ !.. إني أقرأ اليوم عن تجارب « الفودو » في أواسط أمريكا ، وتصيبني رعشة لمـا أقـرأ !!.. أقرأ عن أكَلَةِ لحوم البشر ، فأرتعد ، كأني قادر على خوض تلك التجربة الوحشية !!.. كنتُ أبحث عنك ، وصادفَتْني ظلمةٌ أُخذتُ بسحرها ، فقادتني غرابة التجربة الى المشاركة بها !.. وكانت ، تلك ، أول مرة !.. أما أن أسعى الى تلك التجارب، وأتقدّم نحوها ، مُدركاً ، واعياً ، لما أنـا فيه ، وما سأحصل عليـه من رعشةٍ ممتعةٍ ، فهذه أمور مـن

اختصاص هـذه القارة بالذات ، ممارسات تنبع مـن صخورها الوثنيّة .. وأنـا من كل ذلك براء !!

لم تبدِ « بالومـا » جواباً على ما سمعت !.. أطلقت نفخـة امتعاض هازئة ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، تنظر الى الغاب البعيد ، وتقول ..

ــ إذن ، ليس غيري ، من إحدى كاهنات المعابد الوثنيّة في الشمال !.. كاهنة « أيبريّة » ، « أبروتزيّة » ، يحضّها عقلها الباطن على العودة لممارسة الطقوس الجنسيّة التي عرفهـا أسلافها من الوثنيين !.. كممارسة الجنس في المعـابد !.. كالممارسات الجنسية التي كانت تَتْبع الطقوس الدينية الليلية ، في ضوء القمر !.. أنا ، إذن ، وريثة تلك الطقوس !.. وأنت ، ابن الأندلس !.. سليل جميع حضارات الشرق ، ودياناتها الحضارية ، التي تكره التشخيص ، ولا تقبل للقدرة الإلهية من صورة إنسانية ، وثنية !.. حضارة جرّدَتْه مـن جميع الصور .. ولم تقبل عنـه إلا الفكرة السامية ، المجرّدة !.. أنت إذن ، كنتَ مجرّد عـابر سبيل !.. مسافر ، مـرّ في ليلة دهماء ، في معبـدي !.. واشترك ، عن غير ما قصد ، عن غير ما وعي ، بالطقوس الوثنية لرعيّتي !!

تبسّم فراس منها ، وقال في دعابةٍ .. مسروراً مما سمع .. مرحاً ..

ــ إنك لتحسنين الوصف ، والتشبيه !!

وجمت برهـة ، ثم قالت حـزينة ، واجمة ..

ــ لعل هذا « فِراق النفوس » بيننا ، إذن ؟!.. إن الدين يسمح « بفراق الجسد » .. فهل ستبتدع أنت ، فراق النفوس ؟.. فراق الروح ؟!

ــ تذكّري ما سوف أقوله لك ، « بالومـا » ، لقـد علّمك الدين في حداثتك ، أن الجنس خطيئة ، وأن ممارسته لأمر مكروه ، وأن اللذة الجنسية خطأ!..إن جميع ما تقاسي منه اليوم،يرجع سببه الى صراع في نفسك الأوربيّة، بـين جذورك الوثنية ، التي ما زالت حيّة في أعماقك ، وعقيدتك الدينيـة ، المعقّدة البناء ، التي تكره الجنس !.. إن جميع عللك منشؤها ، واحـد !.. هو هـذا الصراع المستمر بين ماضي وميثولوجيا إباحيـة ، وحاضر دينيّ ،

ذي قيم أخلاقية موتورة ، مترمّتة !!.. لكن هذا أمـر لن تستوعبيه الآن !.. سيأتي اليوم الذي ستفهمين ما أقول .. جلّ ما أرجوه الآن ، هو أن أكـون في حيـاتك ، آنـذاك !

أقبل عليها في مودّة صادقة ، يضمّها إليه من جديد ، وقد هدأت ، واحتل الحزن والأسى مكان الغضب المكبوت ، على وجهها !.. راح يلثم وجنتيها ، في أقصى ما يستطيع من عذوبة ، يَعْنُفُ في ضمها الى صدره ، ثم يعود الى اللثم والتقبيل .. حتى تـداعى تحفّزها ، ثـم استسلمت لقبلاتـه ، فتوقّف لحظات ، ينظر إليها في إمعـان .. وقال ..

ـ « بالوما » .. « بالوما » .. إن للجسد حاجات ماسّة لا ترتبط دوماً بحاجات النفس ، والروح .. حسبنا هذه ، اليوم !.. وغـداً ، إذا استقرّت روحك في قرارها الحقيقي ، فسوف تجدين أنك ستكتفين بي ، وحدي .. أو بغيري وحـده .. وستذكرين الماضي ، وتجاربه .. كأنما كان نزوات طفولةٍ مضت ، وغابت آثارها عن نفسك الى الأبـد !

* * *

القسم الثاني

الفصل الأول

جلس في الطائرة ، في طريقه الى دمشق ، يتفجّر صدره حنيناً اليها .. تبسّم لنفسه ، يتعجّب من قراره المفاجىء ، يحسّ كأنه سَمك السَلْمون ، يلبّي نداءٍ غريزيّاً ، يحضّه على الرجوع ، آلاف الأميال ، سابحاً ضدّ مجرى مياهٍ مرتفعةٍ ، مرتقياً صخورها ، مجابهاً مخاطرها .. للعودة الى مسقط رأسه ..

كانت جبال « الأبروتزي » ، الرائعة الجمال ، قد بدت له ، منذ اليوم التالي لتجربته الوثنيّة فيها ، كسجنٍ مروّعٍ الهمجية ، من سجون القرون الوسطى !.. سرعان ما غادرها ، مع « بالوما » ، الى « روما » .. وإذا بـ « روما » ، ذاتها ، روما التي كان يبهره طابعها التاريخيّ والفنيّ ، تبدو له ، فجأة ، كصورة تذكاريّة من عصرٍ مضى .. صورة مزوّرة ، عن الحاضر ، والماضي .. مدينة طبقةٍ وسطى ، كالحة الأخلاق .. مُعْبرّة الثقافة والتقاليد !.. طبقة تائهة ، بين ماضيها ، من جهة ، وبين صورةٍ عصريّة شكّلتها أفلام السينما ، في ذهنها ، عن الحياة الرغيدة في أمريكا !.. طبقة ، تعيش في أجواءٍ خلقها نبلاؤها ، من العصر الوسيط ، تمشي بين جدرانٍ

عريقة الماضي ، والتقاليد .. تنفيا بظلال قشور شيّدتها طبقة بادت ودرست .. حتى الفقراء .. يحاولون تقليد عادات هؤلاء النبلاء .. طبقة ، لا تترك الماضي يموت .. فتعيش ، في سقمٍ ، كأنها تتغذّى على رفاته ..

تساءل عن سبب ذلك الحنين المفاجىء ، لبلده !.. ما الذي أشعل الفتيل في نفسه ، حتى وجد أفكاره تتوجّه إليها .. يتغنّى في اختراع الأسباب لزيارتها .. ويبتكر الأعذار التي ، جميعها ، تصبّ في بوتقة العودة الى وطنه !.. لعلّه كان يحضن حنينه ذاك ، منذ أن سار في دروب البندقية الضيّقة ، لأول مرة ، منذ سنين .. فتذكّر دروب مدينته القديمة ، وأصابه الأسى لما رآه من عناية أهل البندقية بقديمهم ، وتذكّر الإهمال المجرم الذي ترك فيه تاريخ دمشق ، ليتردّى !

كان قد عهد بمنزله « لشارل غوستاف » ، طالباً منه ، استدعاءه الى « روما » ، إذا ما اقتضت حاجة عملهما مع عثمان ، الى ذلك .. فترك « روما » ، قرير البال ، يسرّه انه لم يعد أسير شهوته لـ « بالوما » .. وأن هذه ، قد تجاوزت مرحلة ممارسة الضياع ، في خفّةٍ وعفويةِ الماضي .. وانها ، منذ تجربتهما في جبال «الأبروتزي»، لم يعد في وسعها ممارسة ماتعوّدته من جنسٍ مجنونٍ ، دون أن تذكر ما دار بينهما من حديثٍ ، في الليلة التي سبقت سفرهما من « الأرميتاج » !

قرّر ردّ دعوة « باولو ألبيرتو » .. يستضيفه ، يوماً ، في دمشق .. تحمّس للفكرة في البدء ، ثم ما لبث أن أصيب بكمدٍ لما تذكّره في هويّته الجديدة ، ومن حالة دمشق القديمة !.. ولو أن الأمر كان يتعلّق بانسانٍ غير « باولو ألبيرتو » ، لهان الأمر ، بعض الشيء .. فلعلّ ابن باريس ، أو « لندن » كان يظنّ ركام بعض بيوت المدينة القديمة ، أطلالاً تاريخيّة .. وقذارة شوارعها ، والنفايات المبعثرة فيها ، نماذج ، متشابهة للتصوّرات التشكيليّة التي يبتكرها مشاهير فنّاني أوربا ، التجريديين .. أما « باولو ألبيرتو » .. فكيف لا يُسقط الإهمال والتردّي على المستوى الحضاري

للعاصمة والدولة ، وهو ابن المدينة التي عرفت كيف تجعل من كل فجوةٍ ، في جدارٍ عتيقٍ ، مكاناً للزهور .. والتي عرفت كيف تُحيل دكاكين صغار حرفيّي العصر الوسيط ، من حدادين ، وحذّائين ، وخيّاطين .. وغيرهم .. تُحيلها الى أنظف وأجمل المحلات التجاريّة العصرية .. تُعرض فيها أجمل وأرقى البضائع الحديثة .. فتستقطب من البشر ، من إذا ساروا في تلك الطرقات العتيقة ، أعادوا الحياة إليها .. وذكّروا بماضيها المجيد ..

ومضت في ذهنه فكرة طارئة ، طالما داعبها في خياله .. لا يعرف كيف يعالجها بشكلٍ واقعي ، ولا يقوى في الوقت نفسه على إهمالها ، أو تناسيها .. لماذا لا يبحث عن دار جدّه القديمة .. يدرس ، صلاحيتها للسكن ، يسترجعها من مالكيها الجدد .. يعيد ترميمها ، وترميقها ، وتزيينها .. فيحقّق بذلك حلم جدّه ، وحلمه هو ، في العودة الأصيلة الى جزء مما هو حيّ حتى الآن ، من التاريخ الأصيل ؟!

عراه فرح" ، وزهو" ، داخليان ، تسارعت لهما ضربات قلبه .. فابتعد في خياله عن الطائرة .. ومن فيها .. وحلّق في ذهنه ، فوق دمشق ، وذكريات طفولته البعيدة ، فرأى الى جدّته ، وحديقتها .. وسمع صدى أحاديثها عن الماضي .. ذكرياتها التي طبعت في ذهنه أثراً لا يُمحى ، والتي عاش فيها حوادث حقيقية من تاريخ أسرته ، يرجع زمنها الى أول القرن التاسع عشر ..

راح يعيد ترتيب ما يذكره من أقوال أم تاج العارفين ، عن بيتها القديم .. يُعيد في ذهنه ، ترتيب وبناء ذكرياتها ، فيرى ، رأي العين ، بيت جدّه الذي سوف يبحث عنه ، وسيجده .. يرى الدار التي كانت تستصرخه منذ أعوام ، فلا يسمع استغاثتها أحد !

سيهرع الى بيت أجداده ، كما يهرع الفارس لإنقاذ حبيبته !.. سيُخرج منها أولئك الذين احتلّوها ، وأحالوها الى مستودعٍ للبضائع .. مهما كلّفه ذلك من ثمن !.. سيُسفح الماء ، من جديد ، على رخام حديقتها .. يُعيد زرع ما يذكره ، من ترتيب أزهارها .. يعيد الأثاث القديم الى مكانه ،

والكتب القديمة الى خزائنها .. لن يترك الدار في الوضع الأثري ، المتهالك ، الذي آلت إليه .. سيُدخل عليها جميع وسائل الراحة ، والنظافة ، دون أيّ مساسٍ أو تبديلٍ في هندستها أو زينتها العريقة !.. لن يدَعَ مستحضرات الراحة الآليّة تطغى على طابعها الأصيل .. بل ، على العكس ، سيسخّر هذه المستحضرات الحديثة للمحافظة على روحها ، وعراقتها القديمتين .. فتعود الحياة إليها ، كما كانت .. وتسمع أولى نبضات قلبها من جديد ..

شغله حلمه المفاجىء عن جميع المفارقات القبيحة التي تعوّدها في مطار بلده الحبيب .. مشاهد ، كانت تتكرر في جميع دوائره السلطوية !

تناسى نظرات المخبرين ، الوقحة ، كانوا يتعمّدون إظهار أورام أسلحةٍ ، أخفوها تحت ثيابهم .. يُظهرونها ، وإلا ضاعت هويّتهم الحديثة ، في زحمة البشر ، وضاع زهوّهم ، وفخارهم ، بنعمتهم الجديدة .. نعمة الانتقام لماضيهم التعيس ، ولما لا قوة من ذلّ وحرمان ، عبر أجيالٍ طويلةٍ من الفقر ، والاستعباد ..

تجاهل نظرات الاستخفاف ، وحركات التماهل .. التي برع في أدائها هؤلاء المعقّدون .. تعلّموا الامعان في التباطؤ ، حتى ينفذ صبر المواطن ، فيفهم أن لا سبيل لخلاصه منهم إلاّ بالرشوة .. وان قطعة نقدية صغيرة ، تفي بالغرض .. وقطعة أكبر ، قادرة على فكّ جميع العقد ، في بعض الأحيان !

كانت مثل تلك المفاوضات المحزنة ، المخزية لتعتصر فؤاده في الماضي ، فهي ، وان كانت ظواهر سهلة التفسير ، إلا أنها عاجزة عن إيجاد مجالٍ تذوب فيه ، أو تسوّغ ذاتها ! ولا يجد لها ، من مَصْرفٍ ، أو لوطنه ، من مجالٍ فعّالٍ إيجابي ، قادر على جرفها في تياره ، لطمسها أو إزالتها ! مثل تلك المفارقات ، قذارات نفسية قد تعترض الانسان في جميع بلدان العالم ، لكنك تجد في معظم بلدان العالم المتطورة ، مجالات إيجابية موازية ، بارزة .. سياسية كانت ، أم اقتصادية ، أم فنية أم أدبية .. أنهاراً ، عريضة تجرف معها

تلك القاذورات ، بصرف النظر عما يصيب النهر من تلوّث بسببها .. وكان ، في الماضي ، دائـم البحث عن دليـلٍ حتّي لمثل هذا الدفع الإيجابي ، الذي يغفـر ، أو يـكفّر ، عن أخطاء وجـرائم أمثال هؤلاء ، من أبنـاء الوطـن الموتورين .. فلا يجد !.... لكنه ، في تلك الرحلة الى دمشق ، لم يكن في حاجة الى مثل ذلك الدليل للتغاضي عن تلك الصور القبيحة .. كان عائداً الى وطنه ولمّا تمضِ سنتان بعد ، على حرب تشرين .. كان عائداً ، وذهنه ما زال مليئاً بما رآه ، وسمعه ، وقرأه ، في جميع لغـات أوربا ، عـن تلك الحرب ، عـبر وسائل الإعلام الصديقة والمعادية .. معظمها اتّفقت على أنها كانت حرباً نالت من ثقـة وكبرياء العـدو ، وهي بذلك قد زعزعت أهـمّ ما لديه من حصنٍ منيـعٍ ! حربٌ .. لم تجعل العدوّ يخرّ على الأرض ، ليتلوّى من البكاء والألـم ، ويطلب العفـو والرحمة ، كمـا تمنّى المتفائلون ، وسَخِرِ بعض المتشائمين ! ! ولم تكن حرباً ، قاضية ، ساحقة .. كما قال بعض المتجنّين على قوى الوطن الفتيّ .. يطالبونه دوما بأكثر من طاقتـه على الحركة في عالـمٍ بات التحرّك فيه مرتبطاً بقوى لا مجال لزحزتها !.. لقد كانت معركة أصابت العدو في أعزّ ما يملك .. اصابته في ثقته بذكائه ! وبذلك ، هزّت ثقته بقدرته المتجدّدة على بناء الثقة .. وهذا نصر لم يكن يتوقّعه للعـرب أكثر الأصدقاء تفاؤلاً بقدراتهم .. الظاهرة منها ، أو الكامنة !

لذلك ، عاد الى وطنه ، هذه المرة ، يحـاول النظر عـبر أيـة مفارقـةٍ سلبيّة ، الى إمكانات وطنه الايجابية الكامنة .. يغفر لأي ضابطٍ متغطرس ، أو أي جنـديّ بسيط ، يتسكع في الصالحية ، وهـو في زيّـه العسكري ، كاشفاً عن شعر صدره العاري ، فيراهما على أرض المعركة .. ويـرى فيهمـا الرمز للجنديّ المجهول ، الذي أدّى واجبه الوطني ، في حرب تشرين ، خـير تأديةٍ .. بصرفِ النظر عن عدم معرفته بآخر أسـرار الحرب ، أو تقاعسه في تأديته لواجباته الانسانية والحضارية !

عاد الى داره الحديثة الوثيرة ، في دمشق .. يُحصي ساعات الليـل .. يتعجّل حلول الصباح ، كي يجدّ في البحث عن بيت أجداده !

كيف كان له أن يعلم ، أن بيت أجداده لم يبق مستودعاً للبضائع ، كما كان يظنّ .. بل ، تحوّل ، عبر السنين ، الى شبه نزلٍ .. وأن الرجل يديره ، وهو أخ لمدير معارفٍ سابق ، أصبح قوّاداً ، أو كـان كذلك ، في الأصل ، وحوّل الدار الى شبه ماخور !

كانت تلك ، ضربة لفراس ، على صدره ، لم يسترجع أنفاسه ، منهـا ، لوقتٍ طويل !!

أنِف من زيارة الدار ، في البدء ، تحسّباً مما قد يطالعه فيها من أجـواء المواخير الرخيصة ..

أمضى ليالي تعيسة .. يحرّقه ما يعتمل في نفسه من إحساسٍ بالقهـر ، لعجزه عن الإتيـان بأي خطوة حاسمة تضع حـداً لاستباحة ذلك القـواد ، لجزءٍ عزيز من ذكريات أسرته !!

لم يشـأ أن يلقي بسلاحه ، دون حرب ، أو محاولة حرب .. فاستخدم ما توافر له من الوسائل ، لإجلاء الرجل عن الدار .. لكن الوغد لـم يستمع إليه ، ولم يكترث لا الى الإقناع ولا الى التهديد ! الى أن سعى إنسان غريب ، يوماً ، لمقابلة فراس. طلب ذلك ، على الهاتف ، مشيراً الى أن هدفه يتعلق بأمر الدار .. فظن فراس أن الخلاص قد بـات على الأبواب ، واستقبل الغريب في داره .. وإذا بالرجل يهدّده ، في أسلوبٍ باردٍ ، صارم .. ينذره بالكفّ عن مضايقة القوّاد ، وإلاّ تدخلت شخصيّة مهمـة في البلد ، لمصلحة خصمه . وألحقت بفراس ، من بطشها ، ما لا يشتهيه أحد !!

كان له ، في تلك الليلة ، لقاء مع طبيبة من معارف أصدقاء الأسـرة .. امرأة بدينة ، شقراء ، متمسّكة بأذيال الصبا .. تضحك ، في نعومةٍ ، ضحك المراهقات .. تحب الحياة في نهـمٍ سوقي .. تشترك في العديـد من الهيئات الاجتماعية ، وتخالط نماذج مختلفة ، عديدة ، من صغار وكبار رجالات البلد..

استقبله زوجها ، في لطفٍ مهذّب ، ثم ، ما لبث أن قام الى عمل ما ، تاركاً لهما مجال التحدّث على انفراد .. فتعجّب فراس لتشاغله ، وكان يسعى الى نصحهما معاً ، وليس الى لقاءٍ منفرد مع زوجته ، كأنه على موعدٍ معها لجلسة عمل ..

ضحكت السيدة المتصابية .. ثم ضربت بيديها في أسلوب عمليّ ، ضربة خفيفة ، على طرفي مقعدها .. وقالت ..

ــ هيه .. يا فراس .. إننا لا نراك إلا مرة واحدة ، كل عدّة سنوات .. سقى الله أيام الزوجية ! كنتَ تزور بلدك ، آنذاك .. من حين الى حين .. لكن، قل لي .. واشرح لي .. ما قضية داركم هذه .. بالضبط ؟!

تعجّب فراس لأسلوبها..قصّ عليها ما كان له مع القوّاد..وذهنه يحاول استباق الأمور ، للكشف عما دفع الزوج لترك الغرفة .. وليس في تفاصيل قصّته ، من أسرار ..

قالت السيدة ، دونما تساؤلٍ كبير ..

ــ ولماذا لم تلجأ الى القضاء ؟

ــ لأن عليّ إثبات « الوضع الحاضر » أولاً .. أُثبت ، عبر دوائر الأمن ، في مداهمةٍ غير منتظرة ، أن الدعارة تجري في الدار !!

ــ وهل هذا أمر .. صعب التحقيق ؟!

ــ كيف أنجح في مفاجأته ، وله في مخفر الحيّ ، عدد من الأعوان ؟! ناهيك عمن يقفون ، دوما ، للحراسة خارج الدار ، على بعدٍ مناسبٍ منه.. يراقبون حصول مداهمة ، غير متوقعة !.. هذا ، من جهة .. ومن جهة أخرى.. وهذا هو الأهم بالنسبة إلي ، فأنا لا أريد تثبيت مثل هذه السمعة على دار أجدادي .. خصوصاً ، وإني أريد سكناها !

ضحكت السيدة ، متسلّية لما سمعت .. وقالت ..

ــ .. لا .. لا تقل لي إنك تريد سكنى دارٍ مهلهلة عتيقة ، مثل تلك ! لا بد أن لك هدفا آخر .. من وراء محاولة استرجاعها .. وهذا أمرٌ طبيعي ..

فالدار داركم ، ولك الحق في استغلالها ، كما تشاء .. وهنا بيت القصيد ! فأنا أعرف عدداً من أصحاب النفوذ ، ممـن في وسعهم مساعدتك .. لكن هـذه الأمور لا تتم إلا بالثمن المناسب ..

ولم تنتظر منه الإجابة على قولها ، بل أردفـت على الفور .. في واقعية متعاليـة ..

ــ ولا ينفـع في مثل هذه الأحـوال .. أن نستخفّ بالناس .. نطلب مساعدتهم .. ونتهرّب من دفع جزء يسير من الربح الذي ستجنيه من ورائها !

تعجّب فراس ، وأجاب ، كمن يردّ تهمة باطلة ، عنه ..

ــ لكنني .. لا أنوي استثمار هذه الدار .. ولا غيرها ! ثم كيف أفعـل ذلك ؟ ولأي هـدفٍ استثماريّ تصلح ؟ وهـي في دربٍ ضيّق .. لا تصل سيارة إليها ؟!

ــ .. تحيلها الى مطعم شرقي .. أو معرض للتحف الشرقية .. أو ما الى ذلك ! لا تتوقع مني ، أنا ، أن أبتكر لمثلك الأفكار المفيدة !

صمتت برهة ، تراقب حيرة فراس ، ووجومه .. ثم قالت ، فجأة ..

ــ دعنا من هذا ، الآن !.. فسواء قررت استثمار الدار ، أم لا .. فإنها تساوي ، وهي خالية .. مبلغاً معيناً .. وأظن أنـه محترم .. نظـراً لمساحتها الواسعة .. فراس .. اسمع .. اذا كنت تـودّ مني طلب مساعدة من أعرفهم ، فعليك دفع ما يقارب العشرين بالمائة ، من ربحك .. وما أظن أن طريق القضاء كان سيكلّفك أقل من هذا !

* * *

لم تمضِ أيام على ذلك اللقاء حتى رنّ جرس الهاتف في بيت فراس .. ما إن رفع السماعة ، حتى تعرّف صوت الـرجل الذي توعّده في الماضـي .. يذكّره بنفسه ، ويتوعّده من جديـد .. مضيفاً الى وعيده الأول ، سيلاً من الشتائم النابيـة ، وتهديداً جديداً أكيدا ضد سلامته الشخصية !

أسرع يتصل بالسيدة التي وعـدت بمساعدته .. يقصّ عليهـا جميـع ما جرى له .. فضحكت هذه في مرحٍ وحماسة .. وقالت ..

ــ ألم أخبركَ أن المبلغ الـذي ستدفعه ، ليس بكثير ؟! إن خصومك ، يا فراس ، لهم اتصالاتهم الواسعة ! إنك تظـن أن القوّاد إنسان حقـير .. تسهل هزيمته ..! صحّح ظنونك ، يا عزيزي ! إذ ليس أقـوى من القوّاد ، في أيامنا هذه !! هل جال في خاطرك ما يمكن لامرأة جميلة أن تفعـله في بلدٍ مثل هـذا ؟! فما رأيك ، أن للقـواد عـدداً من النساء ، وراءه ؟! لا امـرأة واحدة ؟! ثم .. أظن أني أعرف الجهة التي يلجـأ إليها خصمك .. ولا شـك عندي أنه يجزل لها العطاء !.. لذلك .. فإني سأتصل ، حالاً ، بجهة أعـلى .. فلا تقلق ! سنصل الى ما تريـد .. إن شاء الله .. لأنك تـدرك أن المساعدة تحتاج الى مكافأةٍ .. أنت قادر عـلى دفعها ! إن قضيتك عـادلة .. لذلك ، لا شك إنك ستربح في النهاية ..

لم تمضِ أيام أخرى ، إلا وقد باتت قضية هذه الدار على ألسنة عـدد من الجهات المتنفّذة .. تناوشت ، على ساحتها ، بعض الزعامات ، ثم تصادمت ! مما اضطر القواد ، إزاء الضغط المتزايـد ، لتعطيل تجارته .. فأقصى مومساته عن الدار .. وأجبر ، مؤقتاً ، على تحويلها الى نزلٍ شعبي عادي .. تزايد عدد الوافدين عليه ، منذ أن صارت له تلك الحماية المفاجئة !

ولـم يسلم فـراس من الإقـلاق المتواصل ، ومن سيـلِ التهديدات المتنوّعة !.. اضطرته قضيته ، تلك ، لاستضافة عدد ممن آزروه .. فظـن ، في البدء ، أن الأمر سيقتصر على أصول اللياقة والضيافة .. وإذا بهؤلاء يرون فيـه بقـرة حلوباً ، يكثرون من التردّد عليه ، في داره ، يبالغون في تعـاطي الشراب ، فتزلّ ألسنتهم بما لا يشتهي سماعه ، من قـدحٍ وذمٍ ، بما لا حصر له من أناسٍ ، لا يعرفهم .. حتى كبر عليه الأمـر !.. وخاف تطوّر الأمور ، وحصول ما لا يحمـد عقبـاه ، فآثر التملّص منهم ، ولو كلّفه ذلك التنازل ، كلّيـة ، عن فكرة استعادة دار ذويـه ..

* * *

كان قد ألف زيارة المدينة القديمة « ضمن السور » كما لقّبها البعض .. يتمشّى بين دروبها الضيّقة ، المُعتمة .. يكتشف معالم التاريخ القديم .. يتغاضى ، أثناء ذلك ، عن المناظر المؤذية .. يتجاهل رؤية الأقذار ، والمشاهد القبيحة .. يتمنّى لو أن باستطاعته القيام بتنظيفها بنفسه .. لا يقوى على ذلك ، فيلجأ الى شطبها من ذهنه ، بعملية إرادية ! يحذفها من الصورة المرئية التي تنطبع على شبكيّة عينيه .. كما تعوّد أن يفعل حين ينظر الى لوحةٍ من رسمه ، لم يتمّها ، بعد !.. يعبّد الأرض في ذهنه بأحجار حوران البركانية ، السوداء .. يرمّم الجدران المتآكلة ، ثم يكسوها بالطلاء الكلسي ، الأبيض .. يزرع النباتات الخضراء الحولية لتتسلّق عليها .. يجعل في تلك الجدران ، مئات الثقوب المتينة ، تتعلّق عليها حلقات حديدية سوداء .. فينثر عليها مئات ، ومئات من أصص الأزهار !.. كما رأى على جدران الطرقات الدمشقية القديمة ، في كل من غرناطة ، وإشبيلية ..

أما الأسلاك الكهربائية البالية ، المتدلّية ، التي تشوّه زرقة السماء في النهار .. وتلك المصابيح الرثّة التي استُبدل بعضها بمصابيح زئبقية حديثة الشكل والتنوير ، فقد أزاحها ، في ذهنه ، بضربةِ ريشةٍ قاضية ، كشفت زرقة السماء ، صافيةً ، في وضح النهار .. وعلّق بين الجدران ، على مسافات منتظمة .. أقواساً ، عربيّة الزخرف ، من الحديد الأسود الملفوف ، تدلّت منها مصابيح شرقيّة ، على شكل نباريس الجوامع .. كافية التنوير ، ولا تنسى أن للنور عذوبة ، ومناخاً !

لكم تساءل ، وأعاد طرح السؤال ، على نفسه ، دون أن يجد الجواب الشافي لسؤاله .. لماذا لا يوكل الحِفاظ على المدن لأناسٍ يعرفون ، ويحبّون ، المحافظة عليها ؟ بدل أن يجعل الحكّام ، من تلك ، مناصب سياسية ؟! لماذا توكل شؤون السياحة لأناس ما قاموا بسياحةٍ ما ، في حياتهم ، إلا بتلك التي قادتهم نحو العاصمة !

ليست دمشق إحدى مئات عواصم العالم الحديث فحسب .. لقد كانت

عاصمة الدنيـا بأكملها ، خلال مائتي عـام ! امتد نفوذها ، في ذلك الزمان ، من الصين ، حتى الأندلس .. فنالت مكانـة في التاريخ ، لم تنلهـا عاصمة من قبلهـا .. ولا من بعـدها !!

كيف تَذْكر كتب التاريخ هذا ، لدمشق ، وينساه أهلها ؟! إن عواصم التاريخ الكبرى قد درست ، وزالت معالمها ! هذه « رومـا » .. لم يبقَ من تاريخها القديم إلا مجموعة آثارٍ ، يوجد ما هـو على نمطهـا المعماري ، في بعلبك ، أكثر مما يوجد منه في « رومـا » !.. أما في دمشق .. فهناك دمشق القديمة ، صامدة على الأجيال ، تكاد تنـوء اليوم بحمـل من يخرّبونها !! أفلا تجد لها من مُنقذ ؟! وهل في استطاعة إنسان واحد إنقاذ مدينة بكاملها ؟

* * *

نمت في ذهنه ، بالتدريج ، فكرة استبدال دار ذويه ، بـدارٍ دمشقيّة أخرى .. دارٍ لا على التعيين .. يعيـد ترميمها ، وتزيينها .. ويحقّق فيهـا ما استحال عليه تنفيذه في دار جدّه !

لقد هجر جيل الأبناء دمشق القديمـة ، وجيل الأحفـاد ، لا رغبة له في العـودة إليها ! سيعود هـو .. ليرمّم ما يستطيع ترميمـه ! سيقف بين تلك الجدران القديمة ، ويسندها ، بما له من قوةٍ ومثابرة !

مثابرة ؟.. على ماذا ؟! وليس في الأفق من بارقة أملٍ تبشّر بأن لهـذا الكابوس من آخر ! سيثابر ، إذن ، بهدف المثابـرة فقط ! سيـدفع من ماله الخاص ، لإطالة حياة أحد تلك القصور التي تستصرخ ذويها ، وما من مجيبٍ لاستغاثتها !

لقـد فقَدَ عـزيزه ، هو .. فقَدَ دار الجدود .. فلا بأس أن يُنقـذ ضحيّة لا تربطه بهـا من قرابة ! ولو كان في ذلك ، إهراق لمعظم ما ادّخره من مال .. في زمنٍ بات المال فيه إله الجميع !

تبسّم فراس لخاطر طرأ له .. أما كان يقـوم بـدور « دون كيشوته » الإسباني الذي دفعه افتقاده للجمال ، والكمال فيما حوله ، الى أن يـرى

في مومسٍ قبيحة ، فتاة أحلامٍ ، يناجيها ؟! يوهم النفس أنها إنسانة نبيلة ، فيلثم يدها في هيام ووجلٍ .. ويلقي أمامها بقصائد الحب والغزل ؟! هل كانت فكرته تلك ، محاولة « دونكيشوتية » حقاً ؟!

هل كان ، في صميمه ، إنساناً « طوباويّا » ، يعيش في برجه العاجي .. لا يرى من الأمور إلا تلك ، المتعلّقة بالجمال والرفاه ؟!

سمع انتقادات المزاودين في ذهنه ..

« إن بناء مدرسةٍ ، لخيرٌ من إنقاذ قصر بورجوازي » ! ..

« إن لفي بناء مشفى ، من الخير للانسانيّة ، ما يفوق ، إنقاذ أثرٍ فني » !

أين لهؤلاء بمن يذكّرهم بأن أمثال تلك المقولات ، لو كانت صحيحة ، لما جاز لبني الأحمر بناء قصر الحمراء ، في غرناطة !! وأنه لولا صمود ذلك الصرح ، على النوائب ، والأيام ، لما كان للعرب والمسلمين اليوم ، من أثرٍ محسوسٍ ، يشير الى الرفعة في الذوق ، والسموّ في أسلوب الحياة ، التي وصلت إليهما حضارتهم منذ عشرة قرون !

ما الذي حضّه على الإقدام على مثل تلك الخطوة ؟ وما الذي سيجنيه من وراء تحقيقها .. وما من رهانٍ على ما سيقوم به .. وما من شاهدٍ ، وما من طائلٍ عمليّ وراء ذلك .. كأن يقتدي غيره بما سيقوم به ، فيعود الرفاه الى تلك الأزقّة ، الهرمة .. وتدبّ الحياة ، من جديد ، في ذلك الجسد المسجى !

* * *

أمضى أسابيع طويلة ، لا شاغل له خلالها ، إلا البحث والتنقيب عن بيتٍ مناسبٍ ، تجتمع فيه مواصفاتٌ معيّنة كان قد رتّبها في ذهنه !

أرادها داراً متينة البناء .. ذات حديقة شاسعة .. فكان يصطدم إمّا ببيوتٍ دُعمت جدرانها بالاسمنت ، ومواد البناء الحديثة ، القبيحة .. أو بأخرى ، تُركت على حالها عمداً .. كي تتهدّم كليّا .. علّه يُسمح لأصحابها

باستثمار أرضهم في أهداف تجارية ، فيهـا الكسب لهم .. والقبح والتشويه لشكل .. وتاريخ المدينة العريق !

استام عددا من البيوت ، تلهّف أصحابها لبيعهـا .. وقف في وجوههم أحـد أفراد الأسرة ، أو عدد منهم ، كانـوا شيوخا ، أو عجائز .. لا مكان لإيوائهم غير تلك الدور ، فكان أقرباؤهم ينتظرون موتهم ، للخلاص منهـم ، ومن حياة الجماعة التي كرهوا !

كان أحدهم ، شيخاً متداعياً ، جمّع كل ما في البيت من أثاث قديـم . صفّه في حديقة داره .. بينما جلس ، يستقبل الشارين .. يسوم الأثاث ، كأنه مُقبل على ترك بيته ، في غضون أيام ..

تمشّى فراس برفقة صاحب الدار ، يتفحّص الدور الأرضي .. وإذا هو ، في عتمة إحدى الغرف الخاوية ، أمام سرير ، يصدر عنه شخير خفيف !

أصابته رعدة حين تبيّن أنه أمام جسد امرأة في التسعين من عمـرها .. متروكة ، في وضع استلقاء على سريرها .. بينما انتصب رأسـها ، في وضع شاقولي ، كأن رقبتها قد دُقّت ، ووضع في ذلك الشكل ، ليبدو كأنه ينظـر إلى الأمام !

قال صاحب البيت ، دون اكتراث ..

ــ لا تلتفت إليها ، إنها أختـي .. وهي في هذا الوضع .. منذ زمـن طويل .. لكن رحيلها بات على الأبواب ، ستعطيك عمرها .. خلال أيام ..

ــ وهل لها حصّة في البيت ؟

ــ لها الربع .. والربع الآخـر ، لأختي الأخرى .. وهي تحتضر .. في الدور العلوي .. ولا حصة لغيرنا ..

ثم أشار الى أعلى ، وقال ..

ــ تلك .. قد تموت الليلة ، أو غدا .. ونبرم صفقة البيـع يوم تموت هذه .. خلال أيام ..

* * *

لم يعثر خلال بحثه الطويل ، واستعراضه لعشرات البيوت القديمة ، على مالكٍ واحدٍ ، لـه الحصة الكاملة في دار هو قـادر" على بيعها ، أو تقرير مصـيرها !

كانت معظم البيوت الكبيرة ، العريقة البناء والهندسة ، والزينة ، مُلكاً لعشرات الورثة ، لا أحـد منهم قادر" على إخلاء غـيره ، أو شراء حصّته .. ولا هم ، مجتمعين ، يجـدون من يشتري الدار منهم ، ويعيـدها الى سـابق رونقها وبهائها !

هل بسبب ذلك تداعت ، وتساقطت تلك البيوت العامرة ؟! كيف لا .. وما إن يمت رأس أسرة ما ، حتى يتقاسم ملكيّة داره ، عشرات الأشخاص ، من ورثته .. وقد لا يملك هؤلاء ما يكفيهم للاستقلال بسكن خارجي ! فيقتسمون دار الأسرة .. كلّ" ، يضع يـده على غرفةٍ ، أو غرفتين ، من غرفها العديدة .. يحاولون فصلها عن بقيـة أجزاء الـدار .. يعزلونها بجدارٍ ، أو بجدران ، تشوهها .. تتحوّل القاعات الفسيحة الى أوكـارٍ للنـوم ، تفصلها ، بعضها عن بعض ، ستائر ، أو جدران ، تحشر فيها فسحات للطبخ المستقلّ" .. فتعلو الأبخرة والدخـان ، الى السقوف الخشبية ، الرائعـة النحـت والـرقش ، فتشوّهها .. ويتسرب اليها الماء من غرف النوم العلويّة ، التي أحالهـا ، بقية من استقلّ" من الورثة ، الى غرفٍ ، تحوّلت بدورها الى شبه دورٍ صغيرة ، مستقلة ، فيها تغسل الأواني والثياب .. تجري المياه على أرضها التي لم تُهيأ بالمجاري اللازمة لمثل ذاك الغرض .. لا ينظر ساكنوها الى أبعد من أنوفهم .. ولا يكترثون لما ينجم عن عملهم الشخصي" من تصديعٍ لبناء الدار ..

* * *

طرَقَ" في أحد الأيام باباً صغيراً لدارٍ ، ترسب في ذاكرته خيالات عـن رونقها ، بقيت في ذهنه منذ أيام الطفولة .. قيل له .. إن جميع أصحابها ، وهم من أسرة دمشقية محترمة ، قد نزحوا عنها ، مزمعين بيعها لأول من يبتغيها ..

لم يرد أحد" على الطرق المُلح .. فانبرى جار" ، كبـير السن ، يسكن لصق الدار ، يسأله عما يريد ..

تردّد فراس في الإفصاح عن رغبته في شراء الدار ، فقال ..

ـ أين أهل البيت .. ألم يبق منهم أحد ؟! كنت في سفر .. أين أهل الدار ؟

نظر الجار إليه طويلاً .. ثم تبسّم ، يهز رأسه ، كأنه تعرّف الى فراس .. وقال ، معاتباً ..

ـ .. لقد تأخرتَ يا بني .. تأخّرت كثيراً .. لقد رحلوا ! إن جميع أولاد أبي شفيق وبناته قد رحلوا ..

تردّد فراس ، ثم قال ..

ـ وكيف أرى الدار .. أريد شراءها ؟ هل مفتاحها مع سمسار ؟!

نادى الشيخ أحد أحفاده .. يطلب منه أن يقود فراساً الى متجرِ أحد أقارب الأسرة .. أو يسرع إليه ، بنفسه ، لعلّ مفتاح الدار معه .. ثم ردّ على صوت امرأةٍ داخل داره .. تسأله عمن يكون الغريب .. فسمع فراس الشيخ ، يردّ عليها .. وهو يحجب صوته بيده عن فراس ..

ـ إنه أحد أقربائهم .. شدّه الحنين الى بيت جده ! جاء لزيارته ، مدّعياً أنه غريب .. يودّ شراءه ..

سرعان ما عاد الطفل بالمفتاح .. أعطاه فراساً ، وهو يقول له ..

ـ إن الرجل سيوافيك هنا .. بعد نصف ساعة .. قال ، إن لديه الآن ما يشغله .. تفضّل .. واسترح فيها .. ريثما يأتي ..

* * *

دفع فراس مصراع الباب .. فانشق عن دهليزٍ ضيّقٍ معتم .. تراءى له طرف حديقة ، في آخره ..

أحسّ بشيء من الانقباض ، لضيق وظلمة الدهليز الذي طالعه ، وكان يتوقع مدخلاً رحباً ، فسيحاً .. شأن بعض البيوت الكبيرة التي تترك بعضها ، في مدخلها ، مكانا فسيحا يتّسع لوقوف عربة ، مع خيلها !

ما إن تخطّى الدهليز ، ونظر الى ما تكشّف أمامه ، حتى توقّف مبهوراً ، وتسمر في مكانه .. لا يصدّق ما يرى !

لعلَّ أي إنسان آخر ، غيره ، يقف مكانه ، ما كان ليرى ، فيما طالعه ، إلا حديقة مستطيلة فسيحة .. تتوسّطها بركة ماء ، بيضاوية الشكل .. تحيط بها القاعات ، والغرف العديدة ، من جوانبها الثلاثة .. ومن الجانب الرابع ، يطلّ عليها الإيوان المعهود ، بقوسه المكسورة ، وسقفه الشاهق .. بزينته ورقشه الملوّنين ! وليس مثل هذا الوصف خاصّاً بذلك البيت ، وحده .. بل إن جميع بيوت الشام القديمة قامت على تلك الهندسة .. كما أن جميع نساء الأرض لهنّ أنف ، يحيط به حاجبان ، وعينان ، وفم ! لكن ما رآه فراس في ذلك البيت ، كانما يراه الانسان الذوّاقة ، في الوجه الرائع الجمال والفتنة .. وهذا أمر قد لا يراه بعض الناس ، وهم ينظرون الى الوجه نفسه !

رأى عالماً من النِسَبِ الرائعة التناسق ، في مقاييس تلك الحديقة .. بيحرتها .. وأحواضها .. ورهافة أعمدة الايوان المشرف عليها .. وانساق مع سحْرِ ووقار الهندسة والزينة ، في عشرات النوافذ المقوّسة ، المطلّة من دوريْ الدار .. جميع هذه ، تحيط بحديقةٍ مشجّرةٍ ، رُصفت أرضها بألواح الرخام الملوّن المعشّق .. قُطعت أجزاؤه ، حسب أشكال هندسية رائعة الأناقة .. تناغمت مع أشكالِ الحفرِ والزينة التي كَست جميع أُطر النوافذ الخارجية ، المطلّة على تلك الحديقة ..

كان الجوّ بارداً .. وبعض أغصان الأشجار ما تزال تحمل أوراقها الخضراء .. لكن أوراق بقية النباتات الصيفية كانت قد اصفرّت ، وتساقطت على الأرض .. تجمّعت ، في أماكن معيّنة .. لا يكاد بعضها يتساقط من جديد ، حتى يدفع بها الهواء الى حيث تجمّعت ، وتراكمت ، كتلاً ذهبية ، وحمراء ..

انتاب فراساً إحساس غريب تمازج فيه الحنين بالرهبة !

مشى ، في البدء .. وئيد الخطا متردّداً ، نحو البركة الفارغة .. ثم

جلس على حافتها ، وكانت قد نمت في أرضها بعض الأزهار والنباتات ..

عصفت في صدره إحساسات غريبة .. كالريح ، تسفو فجأة ما تراكم على الماضي السحيقِ من غبارِ الأجيال المتعاقبة !

تلاشت عن وعيه غشاوات كان يجهل وجودها .. ولم تكن ، تلك ، المرة الأولى التي يعيده فيها مكان ما ، أو رائحة ما ، الى ماضٍ بعيد .. فيغيب عن حاضره .. ويحوّم إحساسه فوق حيّزٍ غريبٍ .. أحد أبعاد الزمان .. مدىً مجهول ، لا مقاييس ، ولا هوية له !

لكنه ما أحسّ قط ، مثل ذلك اليوم ، ببوصلة الزمان تضطرب في نفسه .. فينوس سهمها ، في تجاذبٍ مستمرٍّ مسعورٍ .. بين الماضي ، والحاضر ! يعتصر صدره ألمُ الضياع ، والترقّب .. تروّعه لهفة لا يفهمها .. كأنه مقبل على شيءٍ ، يخافه .. وهو في شوقٍ إليه .. أو كأنه يترك عالماً يحبّه ، ويتمنى الخلاص منه !

تملّكه يقين بأنه ليس وحيداً في تلك الدار .. فجال بناظريه في بطءٍ على الجدران المديدة التي تحيط بالحديقة ، يتفحّصها .. فرأى وراء اثنين منها ، قاعتين فسيحتين .. تكاد العتمة تطغى على ما بان من زينتهما ، عبر النوافذ المفتوحة .. ثم رأى جداراً ثالثاً ، يخفي عدداً من الغرف المتّصلة بعضها ببعض .. لها ، جميعها ، نمط النوافذ ، ذاته ..

نظر الى الأعلى .. فرأى العتمة تكاد تطغى على جميع غرف النوم .. كم كان عددها ؟ عشر ؟ خمس عشرة ؟

نهض .. يتمشى في أرجاء الحديقة .. يبحث عن سلّم يقود الى تلك الغرف .. في الدور الأول .. ما إن وجده ، وكان حجرياً أسود ، حتى صعد إليها .. وسار في الرواق الذي يطلّ على الحديقة ، متمهلاً .. مرتاحاً لما ابتعد عنه من عتمة الدور الأرضي ..

تساءل عما تخفيه أسطحة الدور الدمشقية ، التي قلّ أن يرقاها أحد ،

تحسّباً من إطلالة الرجال من فوقها ، على حدائق الدور الأخرى ، التي تتمشّى فيها النساء ! لكن الوقت كان متأخرا ، ووهج الشفق البنفسجي يكاد يتلاشى من السماء .. فلم يكترث لتلك القاعدة ، وراح يبحث من جديد ، عن سلّمٍ آخرٍ ، يقود الى سطح البناء .. ما إن وجده ، وكان خشبياً متآكلا ، ضيّقاً ، حتى صعده في صعوبة ، ودفع باباً صغيراً خشبياً في أعلاه .. خرج منها الى سطح يندّ منه عبقُ ترابٍ بلّله الندى ..

نظر الى السماء ، ثم تلفّت حوله مفتوناً .. لا يصدق ، للمرة الثانية ، ما رأت عيناه !

بدت .. قبة السماء العالية ، زرقاء داكنة .. يوشّح أطرافها ، التي تهدّلت على آفاق دمشق ، شريطٌ من ذهبِ الشفق .. غطّى بعضه سفحَ قاسيون الذي تلألأ بأنوار خفيفة ، تحدّرت ، حتى تمازجت مع عتمةِ وسطِ المدينة .. ثم غابت في متاهات رسمٍ ، منبسطٍ .. حيك من ألوف الأسطحة الدمشقية المستوية ! أشكالٌ هندسيّة ، متشابكة .. معشّقة بنور الشفق ، مكحّلة ، بما يفصلها ، بعضها عن بعض ، من فسحٍ ضيّقةٍ مظلمة .. وفي وسط ذلك البساط المزركش ، المديد ، الذي يعجّ بهمسِ الحياة ودبيبها الأزلي .. شمخت مآذن الجامع الأموي الكبير ! ثلاثة صروحٍ جليلةٍ ، مهيبة .. فارعات الطول !.. مشرقات الوجوه ! مجلّلات بإضاءة نحاسيّة ، عذبة .. بدت ، من حيث وقف فراس ، على أقدامها .. شاهقاتِ الارتفاع ! تجاور قبة السماء !.. تهيمن على قاسيون ، وجميع ما تحلّق حولها من حياة المدينة ! صروحٌ ثلاثة .. شواهدُ ثلاثة .. تلهج للإسلام بالعزّة .. ولأميّة بالفخار .. تُذكّر بما نبض به قلبُ هذه المدينة يوماً .. فتردّدت أصداؤه من الصين ، حتى بلاد الأندلس !!

لم يدرِ ، كم أمضى من الزمان ، وهو مسحور بما رأى ..

.. تعوّد في الماضي ، رؤية قلب مدينته ، عن بعدٍ .. من سفح قاسيون ..

أو من فــوق أسطحة العمارات .. يُدرك أنها التاريخ ، لكنه يــراها ، كمــا التاريخ .. نائيةً عن عالمــه .. منفصلةً عنه !.. لا يستطيع الاقتراب منها ، إلا بما تسمح به الطرقات والدروب الضيقة ، وزحمــة المساكن .. فلا يــرى قلب المدينة إلا مقترنا بالإهمال ، وضوضاء البشر ..

في تلك الليلة .. جلس ، حيث كان ، وقد انتابه الخشوع ، أمام ما تراءى له من عوالم كانت خافية عليه !

كان تاريخ بلــده ، حتى تلك اللحظــة مبعثراً في ذهنــه .. وأحداثه ، محطّات ، متباعدة ، على طريقٍ طويل .. يبدؤه الإنسان متى ازداد وعيــه ، ويتناساه مع مــرور الزمن .. لا هو قــادر على إيقافــه ، لدراسته ، جمــلة واحدة .. ولا سبيل للتوقّف أمامه ، فيستوعب منه لحظة واحدة ، كما يحبّ .. دون احتمال النسبيّة ، أو الخطأ !

وإذا به ، في ذلك المكان المرتفع ، المعلّق ، فوق أسطحة دمشق ، كأنه في كرة كونيّة للزمان .. ينساب معها ، وهو يتربّع على مركزها ! جلس ، كأنــه على بساط الريح .. يحوّم بين مآذن الجامع الأمــوي ، يــرى التاريخ رأي العين .. يتحلّقُ ويتزاحمُ حولهــا !!

كم من النوائب أصابت تلك المدينة .. كم من ملايين البشر ، تعاقبت على أرضها .. ماتت فيها .. وتبدّدت أجسادها في كل ذرةٍ من ذراتِ ترابها !

ليس تَذكّر المرء لموقعةٍ تاريخيّةٍ ما ، مثل وقوفه على بقعــة الأرض التي دارت عليها تلك الموقعة .. يسترجع التاريخ في ذهنه .. حتى ليكاد يسمع صوت السلاح ، ويرى جثث الموتى بأم عينه !

تاريخ دمشق ، تجسّد أمامه في تلك البيوت القديمة المتشابكة .. تلك الصروح المتجدّدة ، التي ما انفكّ يهدمها الغزاة ، وما تفتأ تعود الى الحياة .. تهبّ من جسد الأرض ، تمتدّ ، وترتفع في الهــواء .. أغصانٌ ، تنــبت من الجذوع المقصوصة .. من السوق المبتــورة .. مما تبقّى من جذور الشجرة الأم المختفية تحت التراب !! تعود .. مرّة بعــد مرّة ! موقعة .. أثر موقعة ! كارثة .. عقب كارثة ! مذبحة .. تلو مذبحة ! ألف مرة .. بعد ألف مرة !!

كم من ملايين الغــزاة حاصروا تلك الأسوار .. وكم من مئات المــرّات دكّوا قواعــدها .. بعثروا حجارتها .. ومزّقوا أجساد حُماتها !!.. تقتحم جحافلهم بيوتهــا .. تسبي نساءها ، تقتلع أشجارها .. وتردم آبارها .. ثــم تتركها .. خراباً ، يباباً .. ليس فيها حجراً فوق حجــر .. وما من أثرٍ من كل ما بنى الآباء ، وعمّر الجــدود !

وكم من مئات المــرّات .. عــاد أهل دمشق الى البناء من جــديد !.. ينكبّون على تشييد الجنائن ، والقصور .. يعودون الى حفر الآبار .. وزرع الأشجار .. يخافون الإسراف في زينــة قصورهم ، في البدء ، فما أن يهنأون الى الحيــاة ، ويُعيدون تجميل مساكنهم ببدائع الفن ، من رخامٍ وفسيفساء ، ورقشٍ وحفر ، حتى يذيع صيت مدينتهم .. فيعود الغزاة إليهــا من جديد .. يدكّون حصونها .. ويهدمون بيوتها !.. يقتلعون جميع ما تقع أعينهم عليه !.. يسرقون الكنوز ، والرخــام .. ثم يتركون المدينة .. هباباً يبابــاً .. تسرح الأطفال على ركام بيوتها .. يبكون ويصرخون .. ولا مجيب !

وتعود الحيــاة ، من حيث التجأت في الضواحي .. فتقترب من المدينــة والخرائب .. في بطءٍ ، ووجلٍ .. يرجع من احتمى من ســكان دمشق ، في قراهــا المجاورة ، الى مدينتهم .. يعودون للبناء .. مستخدمين الحجــارة ، كأسلافهم ، حتى نفدت الحجارة .. الكبيرة منها ، ثم الصغيرة !.. يبحثون عن آثار بيوتهم ، بين الركام ، حتى ضاعت .. أو يعثر البعض على قواعد الجدران الحجرية ، فيهتدون بهــا .. ويرفعون الأبنية عليها ، بالتّبْن والطين .. عــلى أسلوب الآباء والأجداد .. ويبذلون ماتبقّى معهم .. الغالي منه ، والرخيص.. للحفاظ على روح المــدينة ، لإعادتها الى الحيــاة ، على سابق ما كان لهــا من رونقٍ وبهــاء !

نظرةٌ خاطفةٌ الى ما حوله ، كانت كافية لتُظهر لفراس فلسفةً خاصةً في العمران المتجدّد ، المتكرّر ، عبر الأجيال ، في ذلك الجسد المتماسك !.. فما من دارٍ تستطيع إزاحــة غيرها من مكانها .. وما من مالكٍ يستطيع إزاحــة

جدارٍ من مكانه ، دون هدم الدار المجاورة لها ، على أصحابها .. وهكذا دواليك !.. كأن عشرات الألوف من تلك الدور ، بدأت ترتفع عن الأرض ، في يومٍ واحد ، وحسب إرادة واحدة ، وتقسيمٍ متكافىء ، واحد !

وكانت الطرق الضيّقة تجري بين كتل تلك البيوت المتماسكة ، كالعروق والشرايين ، بين مختلف أعضاء الجسد الواحد !.. قد لا يعرف العضو الواحد ، إلا ذاته .. وقد لا يعرف صاحب الدار ، إلا سماء داره .. لكن ساكن الدار الدمشقية ، لا يعيش في العزلة الممضّة التي يعرفها غيره من البشر .. لا يقاسي من ظنٍّ واهمٍ بأنه وُلد ، ذا حريةٍ لا متناهية ، في كونٍ ، لا حدود له !.. فهو يعرف أن « حدود حريته ، تنتهي ، بابتداء حرية جاره! » .. لقد علّمته تلك الحكمة ، فلسفة طراز البناء الذي يعيش فيه .. وهو بذلك لم ينتظر فلسفة أوربا ، في القرن العشرين ، كي يُحسن معاملة الجار .. أو يُدرك ، كحال الإنسان الغربي اليوم .. أهميّة غيره من البشر ، عن طريق حكمةٍ أو فلسفة يذكّرهم بها مفكروهم .. في حين يرفضها نظام معيشتهم !

إنسانُ دمشق القديمة ، إنسانٌ متكامل النفس .. متوازنٌ في إنسانيته وعقيدته .. بصرف النظر عن مستوى علمه ، أو ثقافته !.. ينشأ مع واقعٍ حياتيّ صارم ، يفرض على الفرد ، إدراك حدوده .. يَفرض عليه ، ويُنمّي فيه ، إحساسه بأنه جزء من كلٍّ متماسك البنيان ، وان خراب جدار الجار ، خرابٌ لجداره !! وان قلّةَ مناعةِ دار جاره ضد اللصوص ، أو الغزاة ، أو عوامل الطبيعة ، ستجلب الكوارث والضرر ، على داره ، وذويه !

* * *

سمع صوت طفلٍ يناديه ، من حديقة الدور الأرضي ، فلما ردّ عليه ، من السطح .. صاح الطفل يقول ..

ـــ .. يا عمّ .. إن الرجل بعث بمن يقول .. إنه لن يستطيع موافاتك ، هنا .. اليوم !.. يسألك العودة غداً ، في الصباح .. أو بعد الظهر .. فهل تستطيع ذلك ؟

صـاح فراس ، يسألـه ..

ــ وهل يريـد مفاتيح الدار .. الآن ؟

ــ لا !.. يقول إن باستطاعتك تفحّص الدار .. كما تريد .. عـلى أن تترك المفاتيح في دارنا ، عنـد جـدي !

سمع فراس وقع خطى الطفل .. يخـرج راكضاً من الدار .. هربـاً من ظـلام الليل ، في تلك الحديقة المهجورة ، وعتمة القاعات ، والغرف العديدة ، المحيطـة بهـا !

زادت عتمـة الظـلام حيث جلس ..

تلاشى نـور الشفق الوردي ، الذي كان يوشّح الأفـق .. وأضحت السماء ، قبّة صلبة ، داكنة .. تتلألأ النجوم فيها ، كأنها شررٌ يتطاير من المآذن الأموية .. ارتفعت ، كأسهمٍ نارية ، غابت رؤوسها في جوف السماء ..

خيّل إليه أنـه رأى شبحاً تحرّك ، ثم اختفى ، في رواق الدور الأول ، المطـلّ على الحديقة !.. فأحس برعشة ، نهض على أثرها يستجمع جـرأته ، وتقـدّم من حافـة السطح .. يُمعن النظـر بجميع الخيالات التي انتشرت أمامه .. وتحته ، في الظـلام .. وكانت ظلالُ عشرات الأعمدة التي استندت حافـة السطح عليها ، كافية ، في ذاتها ، لإثارة الريبة في نفسه .. لِما ظهر له من ازدواج ظلالها الداكنة على جـدار الرواق !

سمع نقـراً خفيفاً ، صدر عن أحد تلك الأعمدة الخشبية التي تقع تحت المكان الذي وقف عليـه !.. وما كان في وسـعه أن ينحني ، ليرى مصـدر الصوت ، خشية السقوط .. فصاح ، على عجل ، يهمّ بالنزول عـن السطح ، للتحقّق من الأمـر ..

ــ من هنـاك ؟.. من هنـاك ؟!

وإذا به يسمع صوتاً نسائياً عـذباً ، يقول له ..

ــ أسعد الله مساءك.. لم أكن أبغي إزعاجك.. هل لك بكوبٍ من الشاي ؟!

لم يحر جواباً في البدء .. بل لم يدرِ ماذا يقول !! ثم ما لبث أن سأل ، حائراً ، من حيث وقف على السطح ، فوق مصدر الصوت ..

ــ من أنتِ ؟! هل أنتِ الجارة ؟.. أو .. من بيت الجيران ؟.. كيف دخلتِ ؟!..

سمع قهقة لطيفة .. تصله من مصدرٍ مظلم .. ثم الصوت ، يقول ..

ــ بل أنا .. صاحبة الدار!

تمهّل الصوت ، ثم أردف في نبرةٍ غنائية ..

ــ كنتُ صاحبة الدار .. كل الدار !.. والآن .. أنا صاحبة جزء منها .. وجارة الباقي !

تلاشى الصوت .. ثم عاد الى الكلام ، يقول ..

ــ .. لم تجبني ، يا ابن الحلال .. هل تريد كوباً من الشاي ؟

سيطر العجب والحيرة على نفس فراس !.. لكن عذوبة الصوت هدّأت من روعه .. تردّدَ ، برهة ، يبحث في ذهنه عما يقول ، أو يفعل !.. ثم أجاب ، في قبول ..

ــ مع الشكر .. هل أنزل ، من أجله ؟

ــ .. لا .. ليس في الدار نور .. سأعود بالشاي ، خلال لحظات .. وأوافيك على السطح ، بعد قليل ..

وتلاشى صدى الصوت ، دون أن يسمع وقعاً لأقدامِ صاحبته !

سرعان ما رأى فراس شكلاً إنسانياً متلفّحاً بغطاء قاتم السواد.. يخرج من الفتحة التي تصل السلم الخشبيّ بالسطح ، وبين يديه .. طبقٌ ، عليه إبريقٌ عتيق ..

تقدّم الشكل منه ، في خطواتٍ نسائية ، وجلة .. ثم جلس أمامه ، متربّعاً على أرض السطح .. وراح يصبّ الشاي .. يحرّك السكر في أحد

الأكواب .. وقد توضّح ، لدى اقترابه ، شيء من بياضِ معصميه .. صدرت عنهما حفحفة أساور ذهبية !

كانت المرأة المتربعة أمام فراس ، تقوم بعملها بيدٍ ، وباليد الأخرى ، ترفع حجابها عن وجهها ، بما يتيح لها رؤية الأكواب ، دون أن يرى الناظر إليها ، شيئاً من وجهها ..

رفعت الطبق نحو فراس ، تقول ..

ــ تفضّل ..

وبعد تردّد قصير ، تابعت ..

ــ هل جئتَ تزور الدار .. أم إنك تنوي .. حقاً .. شراؤها ؟

تعجّب فراس .. وسأل ، يسامرها ..

ــ وكيف علمتِ بالأمر ؟!.. وأنا لم أحدّث إلاّ الشيخ ؟! هل أنتِ من بيت الجار .. الذي ساعدني ؟!

ــ قلتُ لك .. إني صاحبة الدار !.. لقد سمعتُ حديثكما .. إنك لستَ حقاً أحد أحفاد أبي شفيق !

ــ لا .. ولكن جدتي رحمها الله ، كانت من صديقات أم شفيق ، زوجته ..

ــ ومَنْ .. جدتك ؟!

ــ أم تاج العارفين .. ولئن كنتِ حقاً إحدى صاحبات الدار .. فلا بدّ أن تعرفيها !

ــ ولِمَ ؟..

ــ .. لأنها كانت تتبادل الزيارات ، مع أم شفيق .. ولقد أتت بي الى هذه الدار مراراً ، وأنا طفل ..

سمع سعلة امتعاضٍ من المرأة .. ثم صوتها ، يقول في مرارة ..

ــ أم شفيق .. وبناتها .. وصديقاتها .. كنّ ، جميعهن .. يكرهنني !.. كنّ عجائز !!.. أم شفيق ، وصديقاتها ، كنّ على حافة قبورهن !!.. أما بناتها .. فأصغرهن .. كانت تكبرني بعشرة أعوام !!

صمتت المرأة برهة .. ثم قالت ، وقد عاد صوتها الى سابق عذوبته ..

ـ صحيح .. كنتُ أعرف جـدتك .. ولعلي رأيتكَ معها ، في هـذه الدار .. وأنت طفـل .. من يدري ؟.. فأنا الأخـرى ، كنت يانعـة الصبا .. لا ألتفت إلا الى نفسي ، والى داري ..

قهقهت في مـرحٍ ، وعقّبت ..

ـ إني أذكر جدتك ، جيداً .. هل تدري أن جدتك كانت ممّن يستلطفن وجـوه الحسان ؟!

ضحك فراس لقولها .. وأجاب ، متجاهلاً قصدها ..

ـ وهل هنـاك من لا يستلطف ذلك ؟!.. لكنكِ لـم تخبريني .. كيف تكونين صاحبة الدار .. وجميع بنات أم شفيق ، وأولادها ، قـد تركوا هـذا البيت ، منـذ سنين ؟!

ـ إن من أنبأك بهذا ، أخفى عنك وجودي .. كي يسهّل أمامك طـريق شراء الدار !.. إن جميع من تكلمتَ عنهم .. من ورثـة أبي شفيق .. إنمـا يملكون ثلاثة أرباع هذا البيت .. وأنا .. أملك ربعه !.. أملكه وحـدي .. فأنا كنت زوجته !.. ورغم الفارق الكبير في السن ، بيننا .. فلد قبلتُ الزواج بـه ، وعاش معي ، أسعد سنيّ حياته .. قبل وفاته !.. كنتُ سريّته ، قبـل موت أم شفيق .. فما إن رحلَتْ عن الدنيا .. حتى تزوجني ..

ـ أليست الدار مهجورة .. مغلقـة ؟!.. كيف تعيشين هنا ؟.. وهـل تعيشين هنا ؟!.. ومن أين أتيت الآن ؟!

ضحكت المـرأة من حـيرةِ وأسئلةِ فـراس .. أشـارت الى ركـنٍ بعيـدٍ ، قـائلة ..

ـ إن لكل بيت عربي .. أربعة أركان ، كما تعلم .. أما هـذا البيت .. فله خمسة !.. لقـد ابتاع ، أبو شفيق ، رحمه الله .. أحد أركان البيت المجاور لنـا .. وضمّه الى هـذه الدار .. انظر .. هناك ..

وأشارت الى بابٍ كاد يغيب في عتمة رواق الدور الأول .. بـدا كأنـه يسدّ فتحةً قد يقفز المـرء منها الى الطريق العام ، وأكملت ..

ــ إن ذلك الباب قد يبدو كأنه يفضي الى الطريق .. وفي الحقيقة .. إنه يفضي الى مخدعي .. تعال ، أريك إيــاه ..

ونهضت ، ترفع الطبق معهــا .. تنفض غبار الأرض عن مقعد ثوبهــا ، فيعلو صوت خشخشة أساورها الذهبية .. تقدّمت فراســاً ، نحــو سـلم السطح .. تستنير بانعكاس أضواء المآذن .. فنزلته ، ثم سارت ، وهو خلفها ، بين غرف الدوْر الأوّل .. متجهةً نحــو الرواق .. وما إن تجاوزته ، وفتحت الباب الذي كانت قد أشارت إليه .. حتى بان أمامهما سلّم آخــر .. يضيء درجاته فانوسٌ بعيــد .. نزلاه في بطءٍ ، وحــذرٍ ، حتى صارا في مستوى الدور الأرضي ..

مدّت المرأة يدها اليمنى ، تفتح باباً آخــر ، وكانت قد تناولت الفانوس بيدها اليسرى .. وقالت ، مشيرة الى أعلى ..

ــ علينا أن نصعد ، من جديد !.. كان أبو شفيق يسمّي هــذا الركــن « برج السعادة » ، فيه كما ترى .. هنا .. مطبخٌ ، وحمّام صغير .. أمــا في الأعلى .. فلقــد زيّن لي غرفة جلوسٍ ، ونوم .. كانت ، في أوج عــزّها ، تضاهي مخدع شهرزاد !.. تعال أُرِكَ ..

صعدت المرأة السلم في تثاقلٍ ، تشدّ باليد التي أمسكت بها الفانوس ، ثوبهــا الأسود الطويل ، لترفع ذيله المنساب على قدميها .. وتتمسك بالسلّم الخشبي ، باليــد الأخــرى ..

ســألها ، وهو يصعد درجات السلم ، خلفها ..

ــ ولماذا تعيشين هنا ؟!.. تصعدين ، وتنزلين ، هذه السلالم الخطرة ؟!

ــ أنا وحيدة ، يا ابن الخــلال !.. والوحــدة أمر صعب .. لم أُرزق بولدٍ من أبي شفيق .. وليس لي إلا قريبتان .. لو سكنتُ معهما ، لدسّتا لي السمّ .. لترثا مني حصّتي ، في هــذا البيت !

ــ ألا تريدين .. بيع حصتك ؟

ــ .. وأين أذهب .. لو فعلت ؟.. وهــل في ثمن ربع حصتي هــذه ..

ما يكفي لشراء شقةٍ مستقلّة .. خارج المدينة القديمة ؟!

كانت المرأة قد وصلت مخدعها .. فتقدّمت داخل الغرفة تضع الفانوس على خوانٍ ، مثمّن الأضلاع .. بينما أكمل فراس ارتقاء آخر درجات السلم ، وراح ينظر حوله ، فاغر الفم ، الى غرفة عجيبة الهندسة .. ذات سقفٍ خشبيّ متعدّد المستويات .. بدت كأنها مجموعة غرفٍ ، مجتمعة في غرفة كبيرة ، واحدة !.. كانت جميع جدرانها ، وسطوح سقوفها ، مكسوّة بالخشب الملوّن ، المزركش .. المطعّم بنجومٍ صغيرة من المرايا الدقيقة اللامعة .. يسطع عليها انعكاس بريقِ نور الفانوس النحاسيّ .. حتى ليظن الناظر إليها ، أنه بات وسط غرفة سحريّة .. تنيرها مئات الشموع ، وقِطَع النار والجمر .. رتّبت وعلّقت ، على جدرانها ، وسقفها ، بما يمنع امتداد لهيبها .. واحتراق الدار !

ضحكت المرأة لدهشة فراس ، وقالت ..

ــ إن المرء لا يرى ، ما تراه .. من مئات الانعكاسات .. إلا وهو يقف حيث أنت .. على مدخل الغرفة !.. بل .. ويجب أن يكون الفانوس ههنا .. حيث تركته ، على الخوان .. وإلاّ ..

وتقدمت ترفع الفانوس من مكانه .. وإذا بفراس يرى جميع الشموع تنطفىء ، دفعة واحدة !.. ولا يبقى من بريقِ الإضاءةِ الأولى ، إلا نور الفانوس الشاحب .. ينير وسط الغرفة ، ووجه المرأة .. وكانت قد رفعت غطاء رأسها ، بما كشف عن وجهها ، حتى الجبين .. فبدت محتفظة بنضارة وجهها ، رغم تقدمها في السن .. تحوّم فوق سني يأسها .. بيضاء ، ممتلئة الخدود .. طلت وجهها بمساحيق زينةٍ قديمةٍ ، ساعدت على إبراز كلّ من حمرةِ شفاهها القانية ، وخالٍ أسود على خدّها ، ومادةٍ لامعة بين جفنيها وحاجبيها الدقيقين ، السوداوين ..

لم يكن من عادة النساء المتحجّبات ، الكشف عن وجوههن ، في مثل

تلك السرعة .. لعلّ فراساً كان يوهم نفسه أن المـرأة ما قادته الى مخدعها إلا بقصد اطلاعه على ميّزات بيتٍ ينظر في أمـر شرائه ..

ضحكت المرأة ، ثانية ، لدهشته .. وقالت ، متفحّصة وجهة ..

ــ .. نعم .. ربما في وجهك معالم وجه ذلك الطفل ، الذي كان يرافـق أمّ تاج العارفين الى هـذه الدار .. أو ، لعلّي أرى ملامح وجهها الصارم في تقاطيعك !.. ما لنا ، وللماضي .. ما رأيك في مخدعي هذا ؟.. بربّك .. وهل في وسعي العثور على مثله .. هـذه الأيام .. ولو درت ، ونقّبت ، في جميع أنحـاء دمشق .. عـدداً من المرات !

صمت فراس ، يعيد النظر في زينة الغرفة العجيبة .. ينظر الى المرأة التي ظلّت واقفـة ، تراقب حركاته .. تنتظر جلوسه لتعيـد الفانوس الى مكانٍ مناسب ، يعيد بريق النجوم الى الغرفة الأسطورية !.. ما إن جلس ، وأعادت المـرأة ، فانوسها الى مكانه السحري .. حتى نظـر إليها متعجّباً ، وقـال ، لا يفهـم معنىً لسؤاله ..

ــ وهـل أنت حقيقـة .. أم لخيـال ؟!

قهقهت المـرأة ، عالياً .. وأجابت في طربٍ .

ــ يا ابن الحلال .. إنك لتذكّرني بأقوال أبي شفيق !.. رحم الله ترابه.. لقد كان يسألني دوماً .. ما إذا كنتُ حقيقة ، أم خيالاً !

ــ لكنه مات .. ورحل الجميع عن هذه الدار ، وأنتِ فيهـا وحيدة .. على ما يبدو ! فلماذا لا تخرجين منها ، الى سكنٍ مـريحٍ ؟! ولـو افتقدتِ سحر هذه الغرفة ! إن لفي صعود سلمّك المتداعي ، هذا ، عدداً من المـرات ، كل يوم ، لسبب كافٍ لتركها !.. إنك ، لا سمح الله ، قد تسقطين عنه في أحد الأيام ! فماذا ستنفعك هذه النجوم ، آنئذ ؟!

نظرت المرأة إليه ، في صمت ، وقالت متفحّصة ، متمهّلة ..

ــ وهل أعجبتك الدار .. فتودّ أن تبتاعها .. مع حصتي ؟!

ـ إنّ حصتكِ جزء منها .. بل لعلّها تزيد على هذا البرج ، فكيف ابتاع الدار .. دونها ؟!

ردّت المرأة على الفور ..

ـ ولماذا لا تشتري حصص بقيّة الورثة .. أولاً ؟.. وأبقى أنا ، في برجي هذا !.. وإذا كان لي من أسهم في بقية الدار ، فلن أطالبك بها ! تنقدني مبلغاً بسيطاً ، كل سنة .. أقبله ، كتعويض عنها .. فأتركها لك !

ضحك فراس ، في تردّد ، لدى سماع عرضها .. أدرك على الفور ، ولأول مرة ، أنه كان قد أزمع فعلاً شراء الدار .. منذ أن وطئت قدماه حديقتها ! وإن الوقت الذي أمضاه فيها .. منذ تلك اللحظة ، كان بمثابة لحظاتٍ من حياته المقبلة .. يمضيها في داره ، هو !

كيف يترك ذاك البرج العجيب .. يتخلّى عنه ، بعد أن رأى ، وذاق سحره ؟! ولم تكن قضية طمعٍ ، أو عدم اكتراث لمصيبة تلك المرأة ، إذا ما اضطرتها الظروف لبيع حصتها ! لقد كان يبحث عن دارٍ يسكنها ، بنفسه .. دار ، مستقلة ، يأنس فيها لوحدته ، أو لنمط الحياة الاجتماعية التي اختارها .. دونما شريكة مسبقة له ، فيها ، أو شريك ! فكيف يناقض عرض تلك المرأة ؟ وما العمل للحصول على تلك الدار ، إذا ما رفضت بيع حصّتها ، فيها ؟!

لعلها رأت في صمته ميلاً لقبولِ فكرتها ، فرفعت الغطاء الأسود الذي كان يجلّل كتفيها ، وقالت ، في خفّة ، وذلال ..

ـ ولا تظن أن حياتي وحيدة كئيبة كما ترى .. أو أنني أقضي الليالي وحيدة ، في برجي هذا .. إن لي صحباً ، يفهمون أسرار ملذات الحياة ! بعضهم ، من القدامى .. من معارف أبي شفيق .. والبعض الآخر .. كواعب ، ومردان .. وأن لفي مجرّد النظر إليهم ، بهجة ومسرة ، لا تضاهيان !

نهض فراس من مكانه .. يخفي حيرته من جرأة صاحبة البرج !

تبادر الى ذهنه أن يقول لها أشياء كثيرة .. مستغرباً ما وصل إليه

حديثهما ، من حيث لا يدري ! فقال ..

ــ لكني لا أعرف اسمك.. ولا أعرف عنك شيئاً.. وها أنت.. ها أنت..

بادرته ، في لهجة أنثوية لم يسمع مثلها من قبل ..

ــ يا ابن الحلال .. مهلك .. صلِّ على الرسول .. وهل أنا أعرف عنك أكثر مما تعرف عني ؟! ثم .. ما أهميّة الأسماء .. فيما نحن بصدده ..

بان على فراس أنه ، فعلاً ، ينوي الذهاب .. فقالت .. كأنها تستمهله ..

ــ هل ستأتي غداً .. لتفحص بقية أنحاء الدار ؟!

تردد برهة ، ثم قال ..

ــ أظن ذلك .. سآتي بُعيد الظهيرة .. أو في المساء ..

ــ تعال .. قبل حلول الظلام.. لترى زينة القاعات.. على وضح النهار..

تلفّت حوله .. يعيد النظر في الطريق التي سلكها لدخول البرج .. ثم قال ، في حيرة ..

ــ .. وهل أذكرُ للرجل أني شاهدتك .. وأني على علمٍ بما تملكين من الدار ؟

ــ اذكر له ما شئت .. دون الخوض في التفاصيل ..

وتقدمت تحمل الفانوس أمامه .. بما يضيء السلّم النازل الى الدور الأرضي .. وقالت ..

ــ ستتعرف الى طريقك ، في الظلام .. خذْ هذه الشمعة .. من الأفضل لك أن تستنير بها ..

* * *

الفصل الثاني

استيقظ في اليوم التالي .. يتذكر حوادث أمس ، كأنهـا شذرات حلمٍ يكاد يتبدّد في ذاكرته ..

أجرى مع « شارل غوستاف » حديثاً على الهـاتف .. طمأنه الى سلامة داره ، في رومـا ، والى أن الأمور ، هناك ، تسير في مجراها الطبيعي ، فيمـا يتعلق بالعمل مع عثمـان .. ثم سـأل صديقه .. يستحضر صوراً من حيـاة « رومـا » ، في مخيّلته ..

ـ وماذا عن « بالومـا » .. هل تراهـا ؟!

ـ لقد ذهبتْ ، في عمـلٍ .. الى مصر ..

ـ عمـل ؟!.. مصر ؟.. وماذا تعمل هناك ؟!

ـ تجمع تحفاً شرقية .. على ما أظن .. تبيعها هنـا .. أو في باريس .. أما كنتَ تعلم ذلك عنها ؟

ـ ظننتها تهتم بالمخطوطات ، فقط .. شأن أختها ..

ـ وتهتم بتلك .. أظـن أن « الدوق داوستي » هـو الذي أوفدها ، هذه المرة ..

ـ هل عنوانها ، في مصر ، معك ؟.. هل هي في القاهرة ؟

ـ هذا كل ما أعلمه عنها .. إنها في القاهرة ... وسأجهد في الحصول على كامل عنوانها .. وأطلعك عليه ، إذا كنت تودّ ذلك ..

ـ « شارل » .. أريد عنوانها .. دون أن يتبرّع أحـد باطلاعها على أني حصلتُ عليه ! فأنا .. قد أفاجئها ، هناك !.. وكيف « ليزا » ؟ هل تراها ؟!

ـ ما لك ول « ليزا » ! إنها بخير ، وأنا أراها .. من حـين الى آخـر .. لكنها اليـوم في سفرٍ .. لا أعـرف أين !.. إن « باولو ألبيرتو » .. يريـد عنوانك ، في .. عنوانك ، في الشرق ..

ـ وهل يعـلم أني هنا .. في دمشق ؟

ـ لا .. لا ، بالطبع .. إنه يعلم أنك في رحلة استجمام في « الشرق » ، ليس إلا ! ويريد أن يلقاك .. يفاجئك حيث أنت .. يقول إنه يود قضاء سهرة رأس السنة معك ، في الشرق !

ـ حذار أن يعرف عنواني .. أو أن يعرفه أحـدٌ غيره .. « شارل » .. إنك تدرك ما وراء ذلك !

ـ بالطبـع .. بالطبع .. ومتى تنوي العـودة ؟.. هل ستستقبل السنة الجديدة ، وأنت في دمشق ؟

ـ لن أعود .. قبل أن تدعوني الحاجة الى ذلك .. لقد ابتعـتُ بعض الهدايا ل « باولو ألبيرتو » .. أريـد ارسالهـا ، عن طريقك .. كذلك ، لخالة « باتريس ».. ال « ماركيزا كولونا ».. فهل من مانع ؟ أتمنى لك سنة سعيدة.. « شارل » .. عن بعد غد ..

وأنهى المكالمة مع صديقه .. منشرح الصدر الى أن كل شيء على ما يرام ، فيما يتعلّق بأخبـار « رومـا » .. وأن ليس ما يعـوق التفاته الى البيـت الدمشقي الذي استقطب اهتمامه ، كأنه على ارتباطٍ قديم به .. فبات ، كلما اقتربت ساعة زيارته .. يتصاعد في نفسه الشوق إليه ، وكأنه على موعد مـع عالمٍ علقت جذوره به ، بعد طول ترحال .. أو منذ زمنٍ بعيد !

* * *

وقف أمام باب الدار القديم ، ينتظر عودة الشيخ ، بالمفتاح ، بينما ركض

الطفل يستدعي الرجل الذي فاتته مقابلته أمس .. قال للرجل العجوز وهو يتسلم المفتاح منه ..

ــ أليس غريبا أن باب داركم يكاد يلاصق باب بيت أبي شفيق ؟

هزّ الشيخ رأسه .. يبتسم لحوادث الأمس المعقدّة التي طواها الزمان .. وقال ، يشير الى البيتين معاً ..

ــ إن داري هذه ، كانت من قبل ، جزءاً من بيت أبي شفيق .. هذا الرواق الضيق ، الذي يشكّل مدخل داره اليوم ، ليس إلا نصف مدخله الأصلي .. كنتَ تمرّ الى حديقة دار أبي شفيق ، من رواقينا ، مجتمعين .. وكانت داري ، هذه ، مخصّصة للحريم .. والدار الأخرى ، داره اليوم .. للرجال فقط !

دخل فراس الدار ، للمرة الثانية ، يحسّ فعلاً كأنه يعود الى دار ذويه ..

تجوّل برهة في الحديقة ، يتفحّص الأشكال الهندسية التي حُفرت على قطع من الرخام ، تتوّج أطر النوافذ العديدة .. ثم عاد الى وسط الحديقة ، الى البركة ، بنباتاتها ، المتفرّقة ، العديدة ، التي نمت داخلها .. وراح يتأمّل الإيوان الفارغ من الأثاث .. ويتصوّر في ذهنه ما يمكنه ترتيبه ، إزاء جدرانه الثلاثة ، من مقاعدَ عربية طويلة ، مصدّفة .. يُجلّها بالسجاد العجمي .. ويحيطها بالأرائك المزركشة ، والوسائد المحشوّة بريش النعام !

سرعان ما أقبل شابٌ ، حسن الطلعة ، دمث الأخلاق .. تقدّم منه ، يعتذر عن تأخيره في الليلة الماضية .. تقدّم من إحدى القاعات يدير مفتاحاً في قفلها .. ويقول ..

ــ لا بد أن زيارة القاعتين قد تعذّرت عليك ، أمس .. فأنا أحتفظ بمفتاحيهما معي .. خوفاً من لعب الأولاد .. أو من محاولة أحدهم العبث بخشبهما المنقوش .. إن زينة الدار في رعاية إدارة الآثار ، كما تعلم ..

وهـم حريصون على ألا يمسّ هذه النقوش أحد ! هذه ، القاعة الصيفية .. وتلك .. هناك ، قاعة أخرى ، شتويّة .. سأطلعك عليها ، بعد أن ترى هذه ..

تبـع فراس ، الشاب الى داخل القاعة .. ووقف ، للمرة الثالثة ، مبهوراً بما رأى ..

لم يشأ إظهار حقيقة إعجابه .. فجلس على حافة بركة مثمّنة الأضلاع ، تتوسّط القاعة .. وراح ينظـر في صمتٍ الى أرضهـا الرخامية ، الفسيحة الأرجاء ، ثم الى سقفها ، وجدرانها .. اكتست جميع أنحائها بالخشب المزخرف المرقوش ، شأن البرج الذي رآه في الليلة الماضية .. عدا نجومه الزجاجية ..

سأل فراس ، في بساطة ..

ــ هل الورثة .. هم أولاد ، وبنات أبي شفيق ؟.. أليس لغيرهم حصّة ، في هذا البيت ؟

التفت الشاب فجأة الى برج سيدة ليلة أمس ، وقال في عدم مبالاة ..

ــ كانت هنالك امرأة .. « سريّة » ، تزوّجها جدّي ، أبو شفيق ، في أواخر سنيّ حياته .. لست أدري ما إذا كانـت على قيـد الحيـاة !.. إذا صادفتها يوماً ، فلا تكترث لما تقول .. إنها نصف مجنونة !

ــ ألم تكن تعيش مع أولاده .. في هذه الدار ؟!

ــ لا ، بالطبع ! كانت بمثابة محظيّة له .. قسرناها ، بعـد مماته ، على لزوم ذاك القسم من الدار .. بحيث لم يعد يراها أحد !

وأشار الى حيث البرج ، ثم أردف قائلا ..

ــ إنـه قسم مستقلّ بـذاته .. له مدخل خـاصّ به .. لا صلةَ لـه بهذا البيت ..

عاد فراس الى تفحّص زينة السقف ، والجدران .. يحاول قراءة ما كُتب على أعلاها من شعرٍ قديم .. وكان الشاب على عجلةٍ من أمره .. يـودّ فتح باب القاعة الشتوية له .. فتململ ، ثم قال ، في حياء ..

ــ لقد تركتُ دكّاني في السوق .. وليس فيها إلا طفلٌ صغير .. أتعذرني ، إذا تركتك وحيداً ، مرة ثانية ؟! هذه ، جميع المفاتيح .. بما فيها مفتاح القاعة الشتوية التي هناك .. وهي أهم القاعات .. أما غيرها ، من الغرف ، فهي غرف بسيطة ، مثل غيرها من جميع غرف البيوت العربية .. مهملة .. متروكة على الحال الرث الذي كانت عليه ، يوم تركها أصحاب الدار!

ومدّ يده الى فراس بحزمة المفاتيح .. يقول مبتسماً ..

ــ إن سيماء الناس على وجوهها .. البيت بيتك .. تجوّل في ربوعه ما طاب لك ذلك ! كل ما أطلبه منك ، هو إعادتها لي .. في دكاني .. سيقودك طفل جارنا إلينا ، متى انتهيت ..

ظلّ فراس حيث كان .. رأى الشاب يخرج من القاعة .. يمر في الحديقة ، أمام نوافذ القاعة ، العديدة .. ثم سمع وقع خطواته يبتعد في عمق الرواق ، ويغيب ، بعد وقع إغلاق باب الدار ..

كان للقاعة الصيفية مصطبتان ، مرتفعتان ، تقع الواحدة منهما قبالة الأخرى .. تتوسّط كل منهما بركة صغيرة ، غير التي جلس على حافتها فراس .. في الوسط .. وعلى الجدران ، بانت رفوف عديدة ، تغطّيها مصاريعُ من الخشب المحفور ، المزركش ، لعلّها أُعدّت لحفظ الكتب ، أو الآنية الثمينة ..

نهض نحو تلك الخزائن .. يفتح أبوابها .. يعجب لثخانة الجدار الذي استتر وراءها .. تنبّه الى أن إحداها كانت خالية من الرفوف .. فما إن فتح مصراعيها ، حتى فوجىء بقاعدتها الفارغة ، وبرائحة رطوبةٍ تنبعث من فتحةٍ عريضة مظلمة ، بدت وكأنها تهبط في عمق الجدار ! بُوغت بصوتٍ يقول له ..

ــ إن في هذه الفتحة سلّماً .. يقود الى دورٍ سفليّ آخر ! دور « القبو » .. تحت الدار .. حيث توجد المطابخ .. وغرف المؤونة ، والحمّام ..

ذُعر للمفاجأة .. ثم التفت الى صوت المرأة .. يبحث عنها .. يكاد يؤنبها ، وإذا بها تضحك ، وتهدّىء من روعه ، قائلة ..

ــ إن أمثال هذه البيوت تخفي ما لا يحصى من المفاجآت ! وعلى من يودّ سكناها ، أن يكون على قدر المقام ! من يدريك .. لعل الجان تسكن فيها كذلك ؟!

ــ من الخير أنك لم تكلميني من داخل هذه الفجوة !

ــ إنها ليست فجوة .. لقد كنّا نصعد بالطعام ، من المطبخ ، الى هذه القاعة ، عبر هذا الممر ..

عادت الى الضحك ، ثم قالت ..

ــ .. ولقد كانت تفيد في الهرب من الدار .. إذا ما داهمتنا السلطة .. وكان المطلوبون داخل هذه القاعة !

تبسّم فراس لقولها .. ثم قال ..

ــ وهل تدخلين القاعة ، عبر هذا السلم .. فيما لو مُنِعَتْ عنك ؟

ــ ولماذا أدخلها ، سراً ؟!

ــ .. هذا ، ما عليك الإجابة عنه ، أنت ! وإلا ، فماذا تفعلين هنا ؟ تروحين وتجيئين في دارٍ ممنوعة عليك ؟! وتوهمين الجميع أنك غائبة عن الوجود !

امتقع وجه المرأة .. وأشاحت بناظريها عنه .. تكاد تسدل الغطاء على وجهها .. ثم قالت ، في صوتٍ حازمٍ ..

ــ لا تتعب نفسك .. في التجوال في هذه الدار ! فأنا لن أبيع حصّتي منها !.. مهما دُفع لي ، من ثمن !!

دهش لـما قالت .. وسأل ..

ــ .. إن القضية ، إذن .. ليست عدم استطاعتك إيجاد سكنٍ مناسب لك .. إذا ما تركتِ بُرجك ذاك ! إن لك هدفاً ، معيّناً ، في البقاء هنا ! ولستُ أعني برجك البرّاق ، فحسب ! أليس كذلك ؟!

ــ ماذا تقول ؟! هدفاً ؟.. معيّناً ؟

ــ من الواضح أنك إنما تتمسّكين ببرجك ذاك ، كي يسهل عليك

التجوّل في أرجاء هذه الدار.. وليس لأنك تؤثرين السكن في غرفةٍ لا تحسنين الصعود على سلـّمها المتداعي !
ردّت المرأة ، في نزق ، وارتباك ..
ــ ولماذا أتجول في هذه الدار ؟ في هذه الخربة ؟! لقد أصبحَت مسكناً للجرذ !! ماذا لي فيها .. ماذا يمكن أن أجد فيها ؟!
نظر فراس إليها طويلاً .. يناقش عشرات الاحتمالات التي تواردت الى ذهنه .. وكان على وشك طرح إحداها .. لكنه قـرر التريّث برهـة ، وقال يصطنع الخبث ..
ــ ولماذا لا نسأل الورثة .. هذا السؤال ؟! إني على معرفـة بهـم .. ما رأيك ، في اطلاعهم على ما يجري لخلف ظهورهم ؟!
ردّت ، على الفور ..
ــ لا .. أرجوك !
ثم تمالكت جأشها .. وأردفت ..
ــ .. وماذا تنفعك الوشايـة بي ؟! صحيح .. قد يكون لي عذري فيما أفعـل .. لكن هـذا شـأني .. إني أستعيد ذكرياتي من الماضي .. ذكريات زواجي.. ذكريات أيام.. آه لو تعود !.. إن للناس أسرارها ، يا ابن الحلال.. وأنت ابن أسرة كريمة ، شريفة .. كفّ عنّي بلاءك .. يرحمك الله !
سمع طرقاً على الباب الخارجي .. فبان ذعر مفاجىء على وجه المرأة.. أسرعت ، تهمّ الى العـودة من حيث أتت ! لكن فراساً طمأنها الى أن جميـع مفاتيح الدار معه .. وخرج ليردّ على الطارق ..

عاد الى القاعة بعد قليل ، وكان قد صرف أحدهم،فلم يجد للمرأة من أثر.. فتلفّت ، برهة ، يبحث عنهـا .. ثم أهمـل الأمر .. وتوجه ليتفحص بقيـة معالم الدار ..

كانت القاعة الشتوية ، أصغر من الأولى ، وسقفها أقل ارتفاعاً .. لكن زينتها كانت على مثل روعة زينة القاعة الصيفية .. يزيد من دفئها ، ألوانها الداكنة .. واعتماد الفنان على الأشكال الهندسية المتشابكة ، الوقور ، في الحفر ، بدل صخَبِ الأزهار ، الزاهية الألوان ، التي طغت على زينة القاعة الأولى ..

لم يكن حتى ذلك اليوم قد تنبّه الى المعنى التحليلي النفسي الذي تتضمّنه خطوط هيكليّة الفن العربي الاسلامي .. مال الى الوراء ، مسنداً رأسه الى الحائط .. وأطلق لنظره وفكره العنان .. يتأمل تفاصيل ما طالعه من زينة السقف ، الرائعة ..

تبدّى لذهنه أمرٌ لم يكن قد أدركه من قبل .. تجلّت لحواسّه معانٍ خفيّة ، تمور وراء الرسوم .. ينظر إليها الكثيرون ، ولا يصغي الى همسها أحد !.. إن تلك التشكيلات الدائرية ، والهندسية المتشابكة .. والزينة المتعددة الأطراف ، والجوانب .. تلك الكتابات المنمّقة ، ضمن ما لا حصر له من أفكارٍ جمالية .. هذا الفن السامي الرفيع الذي عجز « إلي فور » * عن التطاول على كماله .. في حين أن أهله وأصحابه ، تعوّدوه ، وألفوه ، حتى باتوا لا يرون فيه اليوم إلا خطوطاً هندسية صمّاء !.. هذا الفن الحضاري المجرّد .. إنما ينبعث عن خيالٍ مبهمٍ مرهف .. يجمع في بنائه الهيكلي النشوة والشك ، والبهاء ، والحزن .. يُظهِر هذه الإحساسات ، من خلال الإنحناءاتِ ، والاستقاماتِ ، والإلتواءاتِ ، والمتعرّجات ، والأفقيّات .. وجميع ما تقوى الخطوط على انتهاجه من مسالك تعكس ذهنيةً جمالية تتوافق مع ما يتجمّع ويتراكم في النفس الانسانية من عواطف غامضة ، معقدة !.. عواطف تتخذ عبر الشكل المرئي ، صور المربعات ، والدوائر

---

* كاتب وناقد فني فرنسي ، اشتهر بأسلوبه الادبي في النقد .

المتواصلة .. المتدافعة .. أشـكالٌ متعشقة .. تنساب خطوطها عبر بعضها بعضاً ، دون جهـدٍ مرئيّ .. كانسيابِ الروح بين النشوة ، والبؤس .. بين الحلم ، والمنطـق .. بـين قسوة الزوايـا ، ودلال الأقواس .. بـين نزوات حرّية الخطوط المُلتفّة المُنحنية .. والصرامة المطلقة التي هي مـن خواصّ الشكل الهندسي ..

.. أين غـاب وعيه ، هـذه السنين الطويلة عن فهم فـنّ تاريخ أمتـه ، وجذورها ..

تنفس في عمق .. ثـم استوى يرزح إحساسه تحت وطـأة حسرةٍ لـم يتسعْ الى ملاحقـة أسبابها ..

ما إن تجاوز دهشته لتلك المفاجأة الرائعـة .. الثانية في ذلك اليوم .. حتى جلس ، مرة أخرى ، على حافة المصطبة المقابلة .. يتأمل ما كتب على أعلى الجدران ، من أشعارٍ .. يحاول فهـم معناها ..

أحسّ بضيقٍ لما تعذّر عليه تفهّمه مما قرأ .. وكانت بعض أبيات الشعر قـد غابت عنها كلمات بكاملها .. وبعض الكلمات قد غابت عنهـا أحرف !.. أمضّه استعصاء أمرٍ من أمور تلك الدار ، على فهمه .. كأن يقف أمام إحدى غرفه المُغلقة ، ويُقال له : هذه محرمة عليك .. لن تستطيع رؤية ما بداخلها ! فتناول قلماً من جيبه ، وراح ينسخ ما رآه من أشعارٍ مفكّكة .. علّه يعـود إليهـا في المساء ..

ما كاد يفرغ مما كتبه ، مضيفاً إليه ما كان على جدران القاعة الصيفيّة ، من شعر ، حتى سمع وقع خطى المرأة يقترب من حيث جلس على حافة البركة .. بانت من حيث لا يدري .. تحمل طبق البارحة ، عليه إبريق الشاي ... تتبسّم له ، في مودّةٍ من كان بينهما عتابٌ ، تغلّبت عليه صداقتهما الوطيدة !

قال لهـا ، يستغرب انشراحه لرؤيتها ..

ــ ظننتكِ شبحاً .. أو جنيّة ، رأيتُ خيالها البارحة ، في هـذا البيت ، ولـن يعـود !

ــ .. باسم الله .. وأعوذ به ، ممّا تقول !.. أنا امرأة .. بلحمي ودمي ! واسمي أم ربيع ، زيادة في التأكيد !.. وما اسمك أنت ، يا ابن الحلال ؟!

ــ فراس ، اسمي فراس .. لكن هل لكِ ولد اسمه ربيع ؟!

ــ عاشت الأسماء .. لا .. إن أم ربيع ، لقبي .. وقـد أطلقه عليّ أبو شفيق ، ولعلّه كان يتمنّى ولداً مني ، يسمّيه ربيعاً !

جلسَت أم ربيع في ذلـك اليوم ، تقصّ على فراس حكايـةً دمشقيّة ، قـديمة ..

حدّثته مطوّلاً ، عن حياة أبي شفيق ، عن كَرَمه ودماثته ، وشجاعته ، ومواقفه الوطنية التي لا تحصى .. في وجـه الأتراك ، أولاً .. ثم في وجـه الفرنسيين !.. روت له حـزنه ، وأسفه ، لما سلكه بنوه من طـرقٍ متباينة في الحياة .. جميعها ، مخالفة لما أراده هو ، لهم .. إلا طريق ابنه البكر .. الـذي قرض الشعر ، وأحب الأدب .. لكنـه مات مبكّراً ، تاركاً والده بين زوجـةٍ قبيحةٍ ، عجوز .. وثلاث بناتٍ عانسات .. ملأن الدار عليه بالمهاترات ، بدل البهجة .. وبالدسائس ، والمكائد ، بدل الأُنس ، والصفاء !

كانت أم ربيع تداعب هرّة سوداء ، لم تفارق جانبها ، منـذ أن شاهدها فراس ذلك الصباح .. راحت تروي قصتها ، وهي تنظر الى هرّتها في عطفٍ ، وحنوّ .. كأنها تحدّثها .. أو تحدث نفسها ، عبر ما ترويه لفراس ، وتستشهد على صـدق حديثها ، تلك القاعة الخاليـة من كل أثاث ، والتي عرفت عـزّ أبي شفيق ، وامتلأت يوماً ، برياشه ، وبسجاده العجمي ، بأرائكه ، وبطنافسه .. بضيوفه ، من سادة القوم ، وكبارهم في السن .. تدور القهوة والشاي بينهم .. صيفاً شتاء .. يتسامرون .. يناقشون جميع أمور الدنيا .. يتسابقون إليـه ، يجلسون في ضيافته .. لا ينغّص حياتهم إلا ما يسمعون عنه ، من أنباء موت

المجاهدين .. هنا وهناك ، في بلاد العرب ، وعلى أرض الإسلام الواسعة .. يتمنّون لو أنهم في سنّ تخوّلهم العودة الى القتال .. الى الجهاد .. يتأسّفون على ما زلّ به رأيهم ، ذلك اليوم التعيس الذي قرّر فيه معظمهم تسفير أولادهم لمتابعة العلم ، في الغرب .. فعادوا ، والى جانبهم زوجاتٌ أجنبيات ، كرهن العيش في البيوت الدمشقيّة ، الأصيلة .. فقُدن أزواجهم الى غيرها ، الى بيوتٍ حديثة ، في أحياء الصالحية ، والروضة ، وبستان الرئيس .. حيث بدأوا حياةً هجينةً ، لا عراقة دمشقيّة فيها .. حياة ، لا تعرف من الغرب إلا اللغة الفرنسية ، أو الانكليزية ، الركيكة .. راحوا يتداولونها في حفلاتهم وسهراتهم .. يطعّموا بها أحاديثهم ، في جميع المناسبات !

قال فراس ، مستمرئاً حديث أم ربيع .. يحضّها على متابعة الكلام ..

ــ لا بد أنك تبالغين .. فهل يعقل أن يكون جميع من ذهب لمتابعة علمه ، في الغرب ، من ذلك الجيل .. قد عاد بزوجة أجنبية ؟!

ــ جميعهم ؟.. لا !.. قادتهم .. أو البارزون منهم .. نعم !.. خذ مثلاً رشيد ، ابن أبي شفيق .. الذي وضع أبوه المسكين جميع آماله فيه ، بعد موت ابنه البكر .. لقد كان مهيئاً لدورٍ سياسي بارز ! ماذا فعل في لندن ؟.. درس ، ما درس .. ثم عاد بزوجة انكليزية متبرّمة ، متزمّتة .. تكبره بالسنّ .. أشبه بكرمةٍ جفّت ضلوعها .. لا يدري أحد عن أهلها شيئاً .. لعلها كانت نادلة في مطعم .. أو بائعة هوى !.. من يدري ؟.. وإذا بها ، هنا ، تتصرّف وكأنها من نبيلات بلادها !

ثم ضحكت لفكرة طرأت على ذهنها .. وسألت ..

ــ أصحيح أن النساء يعمَلن في المطاعم ، والأماكن العامة ، في أوربا ؟!.. وأن الرجال يقبّلونهن في الشوارع .. وعلى مرأى من الجميع ؟!.. هكذا .. وكأن شيئاً لم يكن ؟!

هزّ فراس رأسه بالإيجاب .. فقالت ، تكبت ضحكة عصبيّة ..

ــ ويحهم .. أصحيح .. أنهم .. كذلك !.. أنهم .. يقومون بكل

شيء ؟!.. بكل شيء .. على مرأى من المـارة ؟!.. في الحدائق العـامة ؟!.. يرى بعضهم بعضاً .. في غير حيـاء ؟!

- تابع فراس هـزّ رأسه .. يتبسم لتعجّب محدّثته .. وإذا بهـا تفاجئه بسؤال بسيط .. مفحمْ ..

ــ وهل يأكلون في الشوارع ، كذلك ؟.. أو يتغوّطون ؟!

ــ لا .. بالطبع !.. هذه حاجات ، لها أماكنها الخاصّة بهـا !

ــ عجيب أمرهم .. هل الجنس لديهم أقل حرمة من الطعام ؟.. أو أبسط شـأناً من خروج المرء الى حاجته ؟!.. عجيب !! لكم كان ، رحم الله ترابـه ، على حق حين قال ، إن الحضارة شيء .. والمال والعلم .. شيء آخر !!

وعادت ، تكمل ما بدأته عن رشيد ، ابن أبي شفيق ، فقالت ..

ــ لقد قبِلت زوجته المكوث معنا ، هنا .. شريطة أن يجد لهـا مسكناً مستقلاً ، خلال أيام !.. ويالها من أيام غريبة ، تعيسة .. عشناها بصحبتها ، في هذه الدار!.. لقد كان يحمل طعامها الى غرفتها .. يلبّي أصغر طلباتها ، بنفسه!.. يُسمعها موسيقى الأسطوانات الغربيّة .. يضع الحاكي ، في أول الإيوان !.. وينهـر كل من ارتدت منا غير الثياب الغربيـة القصيرة !.. كانوا يسمّونها ثياب « الموضة » !.. لا يكادون يخيطون منها عدداً ، حتى يعودوا الى خياطة غيرها .. لا تخالف الأولى إلا في الطول ، أو العرض !.. يالها من أيام تعيسة !.. لقد أصاب أبا شفيق خلالها ، من الغـمّ ما جعله يعزف عن الحياة الاجتماعية فلا يفارق البرج ، عندي ، إلا على مضض !.. كنتُ آتيه بالطعام ، فلا يتناول منه إلا القليل .. ويقول لي ، والغمّ والكرب في عينيه ..

ــ « لم يبقَ لي سواكِ ، يا أم ربيـع .. سوف يخربون هـذه الدار بعدي .. سوف يبيعونها ، ويتقاسمون ثمنها .. وسيذهب جهـد العمـر كلّـه .. أدراج الرياح !.. حـذار أن تبيعي حصّتك يا بهيرة .. هل تسمعين ؟.. حذار !.. حتى بناتي .. خذلنني !.. هـل ترين ما أقبح مظهرهن ، في تلك الثياب ؟!.. يقلّدن تلـك

المرأة .. وكأنها ملكة بريطانيا !.. هل لاحظتِ كيف يخاف ولدي انتقاداتها .. ويهرع لتنفيذ إشاراتها !.. لقد رفعوا معظم حوائجنا القديمة ، من القاعة !.. وأراد ابني أن يرفع منها حتى الكتب ، والمخطوطات العربية !.. إنهم يتعجّلون موتي ، لتَرْكها .. »

تنفّست أم ربيع بعمق ، وهي تذكر حزن سيد الدار .. وتابعت ..

ـ .. وكانت أتعس الأيام .. تلك التي كان صحب رشيد يأتون فيها لزيارته .. يتوافدون ، ومعهم زوجاتهم .. هذه « هنغارية » .. أو ألمانية ، يبدو الفحش في عينيها ، وتلك « فرنسية » .. وأخرى شاميّة متفرنسة .. تحاول تقليد الأجنبيات !!.. ويْلي ، من ذكرى تلك السهرات !! وأبو شفيق ، صابر على مضض .. يكاد يبكي لشدة كربه !.. لا يقاوم ولده .. وحيده خشية أن يدفعه ذلك لترك الدار ، إثر خصام !.. فتهنأ زوجته اللعينة ، بإقصائه عن دار ذويه ، وتضع الشوك بين دارها الحديثة ، وبين أسرة زوجها !

صمتت برهة تستدعي شتات ذكرياتها .. تسترجع ضغينتها ضدّ عالم رَفَضها ، وأذاقها الذلّ ، بعد موت زوجها ..

قالت ، وجذعها يتمايل مع هزّات رأسها ..

ـ وما كنتَ تجد أسرة عريقة إلا وفيها شابٌ تزوّج أجنبية .. أو بات يحسد من قاموا بذلك !.. حتى صارت السهرة الراقية ، هي التي تضم أحداً ، أو عدداً من هؤلاء الذين رجعوا الى أهلهم بخادمة ، أو بنت هوى ، من أوربا !.. يطلبون من ذويهم مغادرة دورهم .. كي يهنأ لهم الجوّ ، فيتعاقرون الرقص ، والشراب ، دون رقيب !!.. لقد درجت تلك الأجواء .. حتى بات أول ما يُطلب من العروس الشامية المتمدّنة ، هو أن تجيد لغة أجنبيّة .. وتحسن الرقص ، على أنغام الحاكي !!

ضحك فراس لما بان على وجهها من امتعاض ، وقال ..

ـ إن الرقص ، أو الشراب ، لم يكن مقتصراً على أجواء الشباب ، والموسيقى الغربيّة ، الراقصة !.. أو الزوجات الأجنبيات ، على ما فهمتُ

منكِ !.. بالله عليك أما كنتِ تهيئين لأبي شـفيق ما يسرّ شيخوخته ، في برجكِ ؟!.. ألم يكن يهوى بعض الشراب ، مثلاً أو مشاهدة الرقص ، منك ، أو من غـيرك ، من الكواعب ؟!

أطلقت بهيرة ضحكة عذبة .. ومالت الى الوراء ، طـرباً .. تستر فمهـا بظهر يدها ، حيـاءً .. فيه الكثير من ذكريات خفر الصبا .. ثـم استوت .. وقـالت ..

ــ إيه .. إيه !.. إنها أيام مضت .. وهل في الدنيا من لا يهوى جميـع أنواع الطـرب .. واللـذة ؟!.. إلا المجانين ؟!.. لكنك ، يا ابن الحـلال . لا تفهم الفرق بين معاقرة أبي شفيق ، للذّة أو الشراب .. ومعاقرة ولـده .. لهـا !.. إنما اللذّة ، ذوقٌ ، وفن !.. وليس مجرّد انغماسٍ فيها !.. أليس للموائد آدابها ؟!.. وهل تستوي مثل هذه الأمور ، لدى الجميع ؟!

والتفتت إليه ، تلحظه بنظرة مليئة بالمعاني .. ثم أردفت ..

ــ لو كان لك من العمر عشرون عاماً ، فوق سنّك .. لعلّمتك في هـذا المضمار ، ما لا تعـلم !

ضحك فراس ، مرتاحاً ، لإدراكها فارق السن بينهما ، وقال ..

ــ إذن .. إن أبا شفيق ، وولده ، إنما كانـا يعاقران اللذات ذاتهـا .. كلٌّ ، عـلى طريقته !

ــ ويحـك .. يا ابن الحلال !.. ماذا تقول ؟!.. نعم .. لقد كانت لنـا مجالس طربٍ ، ولذة .. نلتفّ فيها على سمرٍ ، ورقص ، وغنـاء !.. يجلس صاحب الدار فيها ، كالمَلِكِ ، على عرشه .. يُعجب برقصة هذه ، أو بصوت تلك !.. ولا ينال أحد الحاضرين مِنْ عِرض أحد !!.. أين ذاك ، من سهرات رشيد ، ورفاقـه ؟!.. لقـد كنتُ أراقب جميع ما يقومون بـه ، من نافـذة مخدعي !.. فمـا كان الشراب يـدور برؤوس بعضهم ، حتى كنتَ تراهـم يتحيّنون الفرص للرقص مع زوجات غيرهم !.. ويسرقون قبلة خفيّة ، مـن هذه .. أو مداعبة مستترةً ، من تلك !!.. غـير آبهين بمن يداعب زوجاتهم ،

هـم !.. كأنهم قوّادون محترفون .. ما أتـوا بنسائهم الى تلك السهرة إلا ليتسنّى لهـم النيل من أعراض أصدقائهم !!

صمتت برهـة ثم قـالت ..

ــ كان ذلك فحش" سوقي" .. لا علاقة له بالغـزل !

ــ وهـل طالت بكم تلك الحـال ؟

ــ لا .. لكن صحّة أبي شفيق تداعت بعد ذلك بقليل .. ما إن غـادر رشيد ، وزوجته ، الدار .. حتى لزم الرجل فراشه .. وبدأت مكائـد بناتـه تنهال على رأسي أنا !.. لإبعادي عنه ، وعن سريره !..

صمتت ، كأنها تغص ّ بدمعـة ، منعتها عن مآقيها .. ثم تابعت ..

ــ لقـد حرّم عليّ كل شيء ، حتى الجلوس في صحن الـدار .. أو دخول غرفة الطعـام ، أو المطبخ !.. وإذا استثنيت الوقت الذي كنت أقضيه الى جانب أبي شفيق ، حين كان يدعونني إليه .. فقد كنتُ مجبرة على ملازمة مخدعي .. لا أتركه .. كأني سجينة فيه !.. يرسلن لي طعامي ، مع الخدم !.. لا يردّ أحد عليّ الكلام .. ولا السلام !.. ماذا أقول لك ؟!.. لقد توفـّي .. وتركني وحيدة ، ليس لي سـوى برجي ذاك ، أحتمي به !.. ولولا حصـّتي المشتركة هذه ، لباعوا البيت ، فور وفـاة والدهم !.. لكني وقفتُ في وجـه بيعه .. مرّات ، ومرّات !.. حتى لم يعد لي من حيلة على المقاومة !.. وغـدا السطح نخـراً من سقوط الأمطـار .. وباتت معظم سقوف الغرف العليـا ، على وشـك الانهيـار ..

أخلد فراس الى الصمت .. مشاركة منه لما يحزنها ، من ذكريات .. ثـم قـال مواسياً ..

ــ وهل ترك أبو شفيق ، من ثروة ٍ ، غير هـذه الدار ؟!

تبسـّمت في مـرارة .. وقـالت ..

ــ كان قـد أنفق الجانب الأكبر مما معه على ترميم وإعادة تزيين ما بليَ من هذه الدار .. أما الباقي ، فلقد أنفقه على تعليم أولاده ، في أوربا .. وعلى

بذخه ، وعلى حليّ بناته .. علّ ذلك يغري أحد الشباب بأن يتزوج واحـدة منهـن !

ــ ألم يكن في الدار من أوانٍ ثمينة ، أو كتبٍ ؟.. ألم تذكري لي أنـه كان له الكثير منها ؟.. ومن المخطوطات ، كذلك ؟!

ردّت باقتضـاب ..

ــ لقد أخذن جميع أواني الفضة ، والزجاج الثمين .. على ما أعلم ..

ــ وماذا حـلّ بكتبه .. هـل أخذها رشيد ؟!

سخرت من قولـه ..

ــ .. وهل رشيد يهتمّ بالكتب العـربية ..

ــ ماذا حـلّ بها .. إذن ؟!.. هل بيعت ، إثر وفاتـه ؟!

قطّبت ، تفكّر فيما تقول .. ثم ردّت متعجّبة ، حـائرة ..

ــ .. لقد اختفت !.. حقاً !!.. ترى ماذا حلّ بكتبه ؟!.. لا بد أنهـم باعوها .. دون أن ينقدوني حصتي منـها !!

نظـر فراس الى وجهها .. يحـدّق في عينيها .. ثم قـال ، في لهجـة متسائلة ، سـاخرة ..

ــ إنك .. إذن .. لا تبحثين عن شيء ما .. في هذه الدار ؟!

ــ .. أنا ، أبحث .. وعمّ .. أبحث ؟!

ــ .. ولا تريدين بيع حصتك منهـا ؟!

ــ لا .. لا .. أظـن ذلك !

بادرها في تصميمٍ مفـاجئ ..

ــ حسن !.. أظن اني سأبتاع الحصص الباقية .. وأسدّ ما بين برجك ، وهذه الدار ، نهائياً .. واذا كنتُ أطلعك على ما انتويت القيام به ، فلأن لك حصّة الربع ، في هذه الدار ، ويحقّ لك أن تطّلعي على نواياي !

سـألت المـرأة ، في لهفـة ..

ــ وهل تباحثتَ في الأمـر .. مع الورثـة ؟!

ـ أقول لكِ .. سنبدأ معاملات الشراء ، في غضون أيام .. وتسأليني ، عما إذا كنتُ قد تكلّمت مع الورثـة ؟!

ـ لكن المُلكَ ، مُشاعٌ .. حتى الآن !

ـ هذا لا يهم .. هنالك وصفٌ بالحـالة الراهنـة ، في دور القضاء .. يُثبت انكِ تقطنين برجك ، فقط !.. وإن ما تبقّى من الدار ، في حوزة بقيـة الورثـة .. وهم أحرار في تسليمه لمن يشاؤون ، من مشترين ، أو غـيرهم .. سواء كان لك حصّة فيه ، أم لا !

صمتت برهة ، ثم أردف ، متحدّياً ..

ـ ألا زلتِ على عنادك .. وتصميمك ؟!

صاحت المـرأة في قهـر ، مكتوم ..

ـ عنادي ؟.. على ماذا ؟!.. ماذا تريد مني ، يا ابن الحلال ؟!.. أهـذا جـزاء الملاطفة .. والضيافة ؟!

ـ إنهـا ليست المرة الأولى التي تُفزعين فيها مَن يتقدّم لشراء هـذه الدار .. تتفنّني في إثنائه عن عزمه !.. كيف تدّعين حبك لهـا .. وتساعدين على فنائها .. بِتَرْكها مهملةً ، على هذه الحال ؟!.. اسمعي .. أنا لا أسـعى وراء ما تسعين .. ولا يحـقّ لي مُشاركتك فيما تبحين عنـه .. مما أخفـاه زوجك !.. إذا كنتِ تتمسّكين بالدار ، سعياً وراء ما خبّأه زوجك فيهـا .. فهذا شأنك !.. حسبي القول ، انك إذا أطلعتني على الأمر .. فاني سأساعدك على العثور عليه .. فتهنئين به .. وتتخلّين عـن التمسك ببرجك المتداعي .. فأكون قد أرحتك .. وأرحت نفسي !.. فما رأيك ؟!

داعبت أم ربيع هرّتها .. تتحاشى النظر الى عيني فراس ، ثـم مالت ، ملتفتة نحـو النافذة .. تتفحّص ضوء النهـار .. وقالت .. في لهجة حياديّة هادئة .. كأنه لم يَدُر بينهما شيء مما كان ..

ـ ياه !.. لقد تأخرتُ .. عليّ أن أصلّي المغرب .. ألا تصلّي ، يا حفيد أم تاج العارفين ؟!

ثم تهيّأت لاسدال غطاء وجهها ، وقالت .. دون أن تنتظر إجابته ..

ــ لم لا تأتي هذه الليلة .. وتسهر عندي ، في البرج ؟! سأدعو نفـراً ، ممن ستعجبك صحبتهم .. ماذا قلت ؟!

ضحك فراس ، متعجباً بطراوة أسلوبها ، في معامـلة الرجـال .. فقال متـردداً ..

ــ ومتى تبدأ سهرتك ؟!

ــ في التاسعة .. سأهيء مائدة بسيطة .. لا تأكل ، قبل مجيئك !

فطن فراس الى زيارةٍ يتوجب عليه تأديتها ذلك المساء .. ولعلّه أراد في الوقت ذاته ، أن يتمهّل برهة ، قبل توثيق عرى معرفته بتلك المرأة .. فسألها معتـذراً ..

ــ وهل ما يمنع إرجاء هذه السهرة ، الى بعد غدٍ ؟ لا ! إن بعـد الغد ، هو رأس السنة الجديدة ، فإلى بعد ثلاثة أيام ، إذن ..

تعجّبت ، وقالت ، رافعة حاجبها الدقيق ..

ــ ظننتك على عجلةٍ من أمرك .. لشراء الدار ..

ــ وما علاقة سهرتكِ بما تقولين ؟ سأشتريها ، على أية حال ..

ــ لا شيء .. لا شيء .. حسن .. ليكن ، موعدنا بعد ثلاثة أيام ..

* * *

الفصل الثالث

خرج من دار أبي شفيق ، من داره المنتظرة ، يحلم بما سيُجري عليها من إصلاحٍ ، وترميم .. سار في الدروب الضيقة ، إزاء مئات الأبواب القديمة المهترئة ، يرسم في مخيلته ، ما تخفي تلك الجدران والأبواب ، وراءها ، من مجدٍ قديم !.. من غرف ، وقاعاتٍ ، مكسوة بالخشب المحفور ، الملوّن !.. من حدائق ، رُصفت أرضها بالرخام المعشّق ، أو بالحجر الوردي ، والأسود !.. لا شك أن عدداً لا بأس به ، ممن يسكنون تلك البيوت ، باتوا أناساً يجهلون حقيقة تاريخها العريق .. قرويين .. من جنودٍ ، وطلاّب .. لا يجدون سكناً لهم في دمشق ، غير غرفة من إحدى الغرف العديدة التي في تلك القصور .. عرَضها أصحابها للإيجار ، حين لم تسمح لهم ظروفهم بهجرها ، كليّا ، أو بتسليمها ، كمستودعٍ للبضائع .. كمعملٍ للحلوى ، أو للنسيج !.. ترى ، هل سيأتي اليوم الذي سيهبّ فيه بعضهم ، لنجدة تلك الصروح ؟!.. ويح نفسه !.. هل فات الزمان على ذلك ؟.. وما الذي دفعه ، هو ، لسلوك تلك الطريق ؟.. أين كان ، طوال حياته .. خصوصاً ، منذ أسابيع !.. من كل هذا ؟!.. أكان حقّاً يغيث داراً استنجدته ؟.. أم أغاثته ، هي ، فهيّأت له المادة اللازمة لتحقيق أحلامه ؟!

* * *

ذلف في السوق الطويلة ، يستعرض ، في طريقه ، مئات الدكاكين الملوّنة ، التي أوشكت أن تغلق أبوابها .. لا بد أن معظم أصحابها من سكّان دمشق القديمة .. أناس سيعيش في عالمهم ، عما قريب ..

راح يتمعّن في وجـوه الباعـة ، يدقّق في أزيائهم .. في دماثتهم .. في تقاليد جلوسهم ، متربّعين ، عـلى مصطبةٍ عاليةٍ ، تشرف على الطـريق .. كيف ينتظر ، من دكان لا تبيع إلا عباءة ، أو عباءتين في اليوم ، تأمين الدخـل الكافي لأسرة بكاملها ؟!.. أو ترميم دارٍ ، تأكل الأمطـار أجزاء من سطحها ، كل شتاء ؟!.. كانت تلك الأسواق ، عَصَب التجارة في يومٍ من الأيـام .. يكفي مورد دكان صغير منها ، لإعالة الأسرة ولحماية ما ورثته ، من سـكنٍ عريقٍ ، كبير المساحة ، كان ، أم صغيرها !.. أين التجّار ، والتجارة اليوم ، من تلك الأسواق الناعسة ؟!.. أين تلك العربات الصغيرة التي تنقل البضائع.. من أجهـزة « التلكس » .. تفتح الاعتمادات بمئات الملايين ، وتشحن أساطيل البضائع ، عبـر السماء ، والبحـار !.. ولمـاذا لا يعود أصحاب الملايين الى بيوت آبائهم ، وأجدادهم ، فينجدونها ، بدل البقاء في أوكارهم الحـديثة .. أو في بيروت المتصدّعة .. يتشدقون ، خلال السهرات ، بما كان لأسـلافهم من مجـدٍ تليـد ؟!

دمشق، هذه،التي أوشك فراس على مغادرة آخر دروبها الأصيلة،أُقيمت قواعدها في زمنٍ كانت فيه ، محور التجارة والمال ، في العالم المتمدّن كله !.. كانت جيوشها ، وقوانينها تحكم الدنيـا ، بجميع ما حوَت تلك الدنيا مـن فضة ، وذهب !.. وإن دكّت الظروف ، والعصبيّات ، حكمها ، بعـد قرنين مـن السؤدد ، فإن النظـام الذي ابتدعته انتقل ، برمّته ، مع أهلهـا ، الى الأندلس ، بلغتِهِ ، ودينه ، وتقاليد حياته ، من طعـامٍ ولباس ، ونبـاتٍ ، وأنسٍ ، وطـرب !

دمشق القـديمة .. ذلك الحصن الحضاري المنيـع .. ذلـك الهيكل الاجتماعي المتماسك ، فقَدَ السلطة والمال ، حين زالت خلافته عـن المسلمين والعـالم .. لكنه لم يفقـد هيكليّة بنـائه الاجتماعي السلطوي ، الأبي ، الشامخ !.. ولم يفقد أبناؤه إحساسهم بالعـز والفخار .. شعور بالرفعةِ ، ثابرت مدينتهم على بثّه في عروقهم ، على مـدى القرون ، بصرفِ النظر عن

أفـول دولتهم .. ناهيك عمّا تناوب عليهم ، وعلى مدينتهم ، من كـوارث ونوائب ، ومحـقٍ وتدمـير !

دمشق القديمة التي غـادرها فراس بمغادرته لبـاب الجابية ، وجـامع السليمانية ، واظبت عبـر القرون ، على مدّ أمثال أبي شفيق ، بخُضاب الدم العريق ، الذي جرى في عروقه !.. كانت لهم بمثابة النقيّ ، الـذي يُنتـج دم الإنسان في عظامه ، هل كان جيل أبي شفيق آخر جيلٍ أمويٍّ ، عريق ؟!.. ماذا حـل بكيان أبناء ذلك الجيل ، ممّن تخلّوا عن مدينتهم .. عن حصنهم المنيع .. عن تربة جذورهم تلك ، التي ثابرت على تغذيتهم بهويّتهم الرائعـة ، حتى ظنّوا أنهـم باتوا في غنى عنهـا ، وعن غذائها ؟!.. لقـد توهموا أن في استطاعتهم العيش في أوكارهم الإسمنتية الجـديدة .. دون أن يتلـوثوا !.. دون أن تُسقِطَ عليهم ، تلـك الأوكار الحديثة الباهتـة ، ما تحمـله ، في تشكيلها ، من هيكليّة ضحلة ، سوقية !

كانت دمشق ، في الماضي ، تمتـدّ خـارج سورها القديم ، وتحافظ في توسّعها ، على طابعهـا الحضاري العريق .. ما كان أهلها من المتقوقعين بـين أسوار قلعتهم ، بـل كان شعراؤها ينادون بالتوسع .. ألم يقـل البحتري :

عجب الناس لاعتزالي ، وفي الأطـــرافِ تلقى منازل الأشراف

لكنهم كانوا ينأون عن القلب ، وفي نفوسهم حنينٌ إليه .. تجـري دمـاؤه في عروقهم ، فيوسّعون ، ويُبدعون ، ويَتفنّنون .. محافظين دومـاً ، عـلى أسلوب البناء العريق ، ذاته !.. فيمتدّ الكِبار مع توسّع مدينتهم !

أية نائبة تلك ، أتت لدمشق بمهندسٍ فرنسي ، يخطّط لعمرانها ؟!.. دكّ صروحها ، باسم الحداثة .. فبدل المحافظة على ما هو عريق فيهـا ، كما تعلّم مهندسو الغـرب أن يفعلوا في مُدنهـم .. قسّمها الى قسمين ، أحـدهما ، « داخل السور » ، منع فيه البناء الحديث .. والثاني ، وهـو بقيّة المدينـة بكاملها .. أجـرى فيه مبضع الجراح !.. جزّأ جسده المرهف كما أراد !.. تركه للتجار ، يقطّعونه إرباً ، إربا ، وهو ما زال على قيد الحيـاة .. ولا أحد

يسمع استغاثته !.. هــدم منه القصور .. ليشقّ في أوصاله الطرقات .. باسم الحــداثة !.. ولا أحد يلتفت الى ما سيُخرّب من بيوتٍ مزيّنة بالحفــر ، والرقش .. ولا أحــد يبالي بحــدائقها الساحرة المرصوفة بالرخــام .. ولا بحمّاماتها الرائعــة الهندسة ، والزينة ، تشهد على النظافــة والحضارة التي تتناقلها دمشق ، منــذ ألف وثلاثمائة عــام !

فابه غمّ شديدٌ مما تدافع في رأسه من هواجس.. وأحسّ بثقلٍ جَثَمَ على صدره لما تَحسّسه من بليّة دمشق .. وما في وسعه أن يزحزح حجــراً ، لإنقــاذها !

كره العودة الى داره ، على الفــور .. قال ، يعرّج على سيدة يعرفها : ورثت عن أبيها داراً صغيرة ، في « باب توما » .. لعلّها تشاركه همومه ..

* * *

قالت السيدة ، ترحّب به ، في شقتها الصغيرة ، الباهتة الطراز والأثاث.

ــ إنك مدعو لقضاء حفل رأس السنة عندي .. ولا تقل إنك ستتركنا ، الى أوربا ، قبل ذلك الحين !.. هذا عذر تعوّدتُه منك !

ضحك فراس .. وقال ..

ــ بل سأقوم ، هذه المرة ، بما لم أقم به منذ زمــن بعيد .. سأمرّ على عدد من بيوت الأصدقاء .. وأنتِ بالطبع ، على رأس القائمة !

ضحكت ماري روز ضحكة لا معنى لها ، وكانت تكبره بعشرة أعــوام أو يزيد .. وقالت ، في فرنسية ، تحاول أن تصطنع اللهجة الباريسية ..

ــ أما زلت تجــدّ في البحــث عن بيــتٍ قديم ؟.. يا الله ما أطــرفك يا « فيغاس » .. لكنك ، إنما تتسلّى بهذه الفكرة .. دون شــك !.. فما إن تحصل عليها .. حتى تندم على ما فعلت ! وستقذف بلعبتك الجديدة .. بعيداً عنك .. تماماً كما يفعل الولد المدلّل !

تبسّم للطريقة الفرنسية التي تلفّظت بها ، باسمه ! ثم هـزّ رأسـه ، يتجنّب الاجابة على تعليقها .. وسأل ..

ــ ماذا حلّ ببيتكِ القديم .. هل وُفّقتِ الى بيعه ؟

ــ بالضبط .. بالضبط .. فأنا عندي بيت ، لا أجـد من يشتريه مني ؟ لا أستطيع هدمه وبناء دارٍ حديثة في مكانه !.. وإن أجرته لأحدهم ، تمسّك به .. بحكمِ القانون .. الى الأبـد !

ــ ولماذا لا تعيدين ترميمـه ؟ إن « المحافظة » تسمح بالترميم .. على الأسلوب القديم ..

ضحكت في عصبية .. وتبرّم .. وأجابت ..

ــ لأن فيه بعض النقش على جدران الحديقة ، يا عزيزي ! نقشٌ عتيق .. لا يستحق الالتفات اليه .. لذلك ، إذا بإدارة الآثار تتدخّل ، وتمنعنـي من التصرّف بترميم داري ، كما أشاء !! تودّ أن تحتفظ به ، كمتحفٍ .. لا هـو ملكي ، أفعل به ما أشاء .. ولا تستملكه ، هي .. وتعوّضني عن خسارتي !

ــ وماذا ستفعلين ، إذن ؟

هزئت ماري روز .. وقالت ..

ــ لقد وجهّتُ مزاريب السطح ، على ذلك الجدار .. ستنهال جميـع أمطار الشتاء عليه ! بذلك ، تنمحي الزينـة عـن الجدار .. أو يسقط الجدار بكامله .. ثم أرشو من يتوجّب عليّ رشوته ، فأقيم مكان الدار القديمة ، بناء صغيراً حديثاً !

كان يعـلم أنها لا تطيق السكن ، أو حتى التجوال ، في منطقـة دارها القديمة ، ورغم ذلك ، وجد نفسه يسألها ، متستّراً على أسفه ..

ــ ولماذا ، لا تسكنين فيها .. أنت؟.. إنها أوسع من شقتك هذه.. وأليق! وفيها حديقة صغيرة ، تجنّبك الحرّ ، والاختناق هنا ، أثناء الصيف .. بـين هذه الجدران !

ردّت على الفور ، بفرنسيتها التي كانت لكنتها الباريسية تزول عنهـا

باضطراد ، ليحلّ محلها لكنة هزيلة ، تعيسة .. ضائعة بين اللهجة الشامية ، والبيروتيـة !

ــ ألتيق ؟.. يا عزيزي .. لا !.. هذا كثير ؟! أتراني حقاً ، هناك .. في ذلك الجو ؟! هل تتخيّلني ، أنـا ، في ذلك الوسط العـامي ؟! بين الفئران ، والجـرذ ودون « شوفاج » .. أستحم على الحطب ؟!.. فـراس .. لا بـد أنك تكرهني !!

ضحك فراس لنبرة الهلع التي أدخلتها على كلامها .. وقال ، في فروسيّة مُستَهلكة ..

ــ وهل في وسع إنسان أن يكره امرأة جميلة ، مثلك ؟

لم تكن من السذاجة بحيث ينطلي عليها مثل ذلك الإطراء .. لكنهـا ، أجابت ، وقد تورّدت وجنتاها ، كأنها ، فعلاً ، تلك السيدة الجميلة ..

ــ « فيغاس » .. يا شيطان .. ألن تكفّ عن خبثك ؟!

تنهّدت ماري روز ، وهي تكاد تستلقي على مقعـد عريض ، في غرفـة جلوسها ، التي حوَت ، جميع ما تراكم لديها من ذكرياتٍ ، جمّعتها عبر سنين طويلة من وحدةٍ قاسية، هائمة، ذَوَتْ، في البحث عن الرجل المناسب! كانت من أصل حائر بين سوريا ، ولبنان ، تتنقّل جذورها بين أرضِ هذه البقعـة ، أو تلك ، تبعاً للظروف السياسية الراهنة .. يزداد ولاؤها الظاهري لهذه الطائفة من الناس، أو لتلك، بحسب انتماء من تكلّمهم ، أو ، وفقاً لِمن تعرف منهم، من أشخاصٍ ، تظنّ أنها مرتبطة معهم بأواصر الصداقة !

قالت ، متحسّرة ، حزينة ..

ــ .. ما كنتُ لآتي لهذا البلد الكريه ، لولا القتل والذبح الذي يجري في بيروت !! « فيغاس » ! لقـد نسفوا المشفى ، حيـث كنـتُ ! تصوّر ، « فيغاس » .. لقـد قذفونا بوابل من القنابـل .. أو الصواريخ .. لا أعرف الفارق بين هذه ، أو تلك .. فتهدّمت الأبنية على رؤوس من فيها ! يا إلهي !.. كان عليك رؤية أولئك المرضى ، المساكين .. جميعهم ، من مُرهفي الأعصاب..

المنهارين نفسياً .. ساروا هائمين في الغاب المحيط بالمشفى .. لا يخف إليهم أحد ، كي يعود بهم الى المشفى .. لا بد أن معظمهم ضاع في تلك البراري !.. أو أكلته الوحوش !!

تبسّم فراس رغماً عنه .. وقال ..

ـ لم أكن أدري أن غابات الفيّاضيّة فيها النمور ، والسباع !

تبسّمت بدورها ، في عصبية ، وأجابت ، بنزق ..

ـ وماذا يهمك أنت ! إنك بعيد عن كل هذا .. تتنقّل من مكان الى آخر ، في أرجاء أوربا !! آه !.. ليتني أستطيع السفر ، مثلك .. سأفعل ذلك، حالما أبيع هذه الدار .. سألحق بابني ، في باريس !

ـ وهل يقيم هناك ؟

ـ عزيزي .. لقد تزوّج فتاة إفرنسية ، منذ عشر سنوات .. وله منها طفلان .. فرنسيان ! أظنه أصبح فرنسياً ! لقد نجح في الهروب من هذا البلد الخبيث !

أشرق وجهها ببهجةٍ مَرَضِيّةٍ .. وقالت ، تحرّك أصابعها ، كما يفعل الأطفال ..

ـ « فيغاس » ليتك ترى جمال وجهيهما ، وشعرهما الأشقر !.. إنهما أوربيّان !.. أوربيّان !

تجاهل فراس قولها ، وسأل ..

ـ وماذا يفعل ولدك الثاني ؟.. وأين يقيم ؟

ـ إنه في أميركا .. في « نيويورك » .. طبيب مهم ! ولقد تزوج أميركية كذلك .. وسيحصل على الجنسية الأميركية ، عما قريب !

ـ إذن .. لم يبق من أسرتك أحد ، في لبنان ؟!

هزئت من قوله .. وردّت متعجّبة ..

ـ « فيغاس » .. هل جننت ؟ لم يبق في بيروت ، إلا المُعدمون ، ممن ليس في وسعهم السفر ! إن كل الأكابر ، سافروا ! وأي عاقلٍ يبقى في بلادنا ..

هذه الأيـام ؟! ثم ، كيف أقول بـلادنا ؟! وماذا تركوا لنا فيها ؟! ماذا تركوا لأمثالك ، وأمثالي ؟!

ردّ عليها ، في بساطة ..

ــ ماري .. وما الذي أخذوه منّا ، بالضبط ؟.. أنا ، لم يأخذ أحـد مني شيئاً .. على ما أعلم !

لم تكن ماري روز من اللواتي يمكن مناقشتهن في أمـور السياسة ، أو في أي أمرٍ آخر ! كانت ، جمـلة أعصابٍ .. ومفاهيم ، وتقاليـد متوارثة ! تنفعـل ، فتتكلم !.. تكاد لا تعرف الإصغاء لأحد ! لعلها ، في يومٍ من الأيام ، كانت ، امرأة جميلة ، ذات طبيعة ميّالة للفنون .. وكان لها من الذكاء الفطري، ما يؤهلها للنهوض بحـوارٍ متوسّط الثقافـة ! أما وقـد فقـدت زوجها ، وعشّاقها ، الواحد تـلو الآخر .. وآثر ولداها البقـاء في الغـرب ، بحسب ما لقّنتهم ، هي ، من أن ، تلك ، هي البلاد السعيدة ! بلاد الحضارة ، والخير ، والدين الصحيح.. فلقد تحوّلت المسكينة الى كيـانٍ يشابه كيـان بيتهـا القديم ، لا يجـد من يسكنه ، ولا من يقوم بهدمـه ! يكـاد المرء لا يأسف ، إذا ما تداعى ، إلا على ما فيه من بقايـا زينـة ، لم تكن في الأصل ، إلا زينة متوسّطة الحال !

عادت ماري روز بالقهوة .. تفتح الباب في طريقها لزائرٍ جديد ، لقيَـه فراس في دارها ، منذ سنين .. قالت لفراس ، وهي تقدّم القهوة ..

ــ لعلهم لم يأخذوا منّي أو منك ، مباشرة ، مثلاً ، أو مالاً .. لكنهم .. أخذوا كل شيء ، ما عدا الذي في جيوبنا .. سَل صديقي ، مالك ، هنـا !.. إنه موظف كبير في الدولة .. وهو يعرف كل شيء ..

ضحك الضيف ، في تواضعٍ مصطنع .. وقال ..

ــ موظف كبير .. لفترة قصيرة جداً ! قطعة تبديـل .. ريثمـا يجدون واحداً منهم ، يضعونه في مكاني !

وقطّب قليلاً ، يتعمّد الاهتمام ، والوقار .. ثم تابع ..

ـــ إنها حالة سيئة .. إننا مشرفون على الافلاس .. لم يعــد في الخزينة ما يكفي لسد الرواتب !

تذكّر فراس الزمــن الذي كانــت فيه ماري روز ، ومالك ، يلهجــان بالثناء على الأوضاع ذاتها ، يوم ظنّا أن بعض الأمور تســير وفــق أهوائهما في لبنــان .. وكيف باتت الأمور ذاتها تشرف على الخراب ، حين تبيّن لهمــا أن مسارها على عكس ما يشتهيان !

لم يشأ دخول حوارٍ عقيمٍ معهما .. كانا يتكلّمان بالفرنسية ، ولهجــة صاحبة الدار ، كانت قد تخلّت ، كليّةً ، عن لكنتها الباريسية ، منذ أن أدخل مالك اللهجة الفرنسية الشامية ، الى جوّ الحوار !

فاجأه أن قالت ماري روز لضيفها الجديد ..

ـــ إن « فيغاس » لا يميل الى التحدث بالفرنسية .. إلا مع الافرنسيين .. أو حين يضطرّ الى ذلك .. لا بد أنه ينتقدنا الآن ، في سرّه !

تعجّب مالك .. قائلاً ..

ـــ لكني أسمعه ، مراراً ، يتكلم بها ! فلمَ هذا التعــالي ، المفاجىء ؟.. على أمثالنا من مخضرمي الثقافة ؟ ومعرفتي به تعود الى أكثر من عشر سنين !

تبسّم فراس في مجاملة فاترة .. وعلّق قائلاً ..

ـــ قد تضطرني الظروف أحياناً للّجوء الى الفرنسية في الحديث .. أفعل ذلك ، رُغماً عني .. وذلك أبغض الحلال ، في نظري ! أما أن يتداول الناس ، هنا ، لغة يسمّونها إفرنسية .. هي أقرب ما تكون في التركيب ، واللكنــة ، الى ما يُستعمل في بعض المستعمرات الافريقيــة ، السابقــة .. فهــذا أمــر مُحزن ، وقبيح !

ردّت ماري روز على الفور ، غير مستاءة مما سمعت ..

ـــ صحيح ! إن على المــرء أن يتكلم أيــة لغــة ، بشكلها ، ولهجتهــا الصحيحين .. أو لا يفعل !

قالت ذلك في لكنة جهدت فجأة أن تبـدو « باريسية » ، صـرفة ! مما سلّط الانتباه على لهجة مالك ، التي تعلّمهـا ، وألِفهـا ، في مدارس دمشق الأجنبية .. فاستاء لذلك ، وقال على الفور ..

ـ إن أي لهجةٍ يستعملها الإنسان ، وهو ينطق بالفرنسية ، أجمـل من أفضل لهجاتِ اللغة العربية !!

وطفق يهيل من شفتيه سيلاً من الحروف القاسية .. يردّد ..

ـ ق .. ق .. ق ! ض .. ض ! ظ .. ظ .. ظ ! ح .. ح .. !!

الى أن قال ..

ـ يا لها من حروفٍ قبيحةِ الوطأة على اللفظ ، والسمع !!

كانت ماري روز تنظر إليه في دهشةٍ بالغة ، تستغرب منه تلك الجرأة في مهاجمته اللغـة العربية ، أمام إنسان عربـي .. وما تعـوّدت ، وضيفهـا ، المجاهرة بآرائهما تلك ، إلا في أوساطٍ خاصة .. حيث كان يحلو لها الانتساب الى أصل فرنسي بعيد .. يعود الى أيام الصليبيين !

ولعل مالكـاً تنبّـه الى حرَجها .. فسارع الى دعـم رأيـه بنظريّة علميّة ، فقال ..

ـ .. ولقد كـان أستاذنا في « اللاييك » يفسّر لنا ذلك بقوله : « إن العرب إنما كانت تقلّد ، في نطقها ، حيوانهـا المفضل ، « الجمـل » ! ذي الحنجرة التي لا يصدر عنهـا إلا صوت الحـاء ، وذي الشفتين المشتورتين ، المتهدلتين ، اللتين تشوّهان الأصوات !! حتى الحاء منها !! »

وراح يقلّد صوت الجَمل في أسلوبٍ أثار ضَحِك ماري روز ، ممـا أثار حفيظة فراس .. فوجم ، حتى غاب الدم عن وجهه !! راح يحدّق في وجه المهرّج حتى خفَتَ ما كان يتلفّظ به .. وتحوّل بالتدرج الى تمتمةٍ خافتة .. ما لبثت أن تبدّدت ، ثم أعقبها صمت ممض ، طويل !!

نهض فراس ينظر الى مالك شزراً .. وقال ..

ـ أمّا أن يُعلّمكم أستاذكم ، ما علّمكم من مثل هذه الدُرر العلمية،

فهذا شأنه .. وهو المستعمر المتخفّي ! وأمّا أن تصدّقوا ، أنتم ، في بلاهة المتخلّفين ، نظريةً تقول إن الإنسان تعلّم النطق ، من الحيوان .. فهذا شأنكم أيضاً .. جيل ، أولاد ، أذناب المستعمرين !! لكن المضحك ، حقاً ، في الأمر .. هو أن يقف إنسان مثلك ، أنت يا مالك .. ليقول أمامي .أنا العربي .. هذا القول .. وكأنك أوربي .. أو ، كأنك فُطرتَ على النطق بالأحرف اللاتينية !! فمن أنتَ ، يا مالك ؟!.. أما سألتَ نفسك هذا السؤال ؟!.. إنك ابن بلدةٍ جبليّةٍ بالقرب من دمشق ، وأجدادك منها !! وماذا تتكلّمون في بلدتكم ، غير العربية ، أو السريانية ، أو الآرامية ؟! فلَئِن كنتَ تكره اللغة العربية ، لأنك تكره كل ما هو عربي ، فإلامَ تستند في هجومك هذا ، عليها ؟! هل تستند .. الى أصلك الآرامي ؟ وهل تدخّلت أصوات الجمال في تشكيل الآرامية ، والسريانية ، كذلك ؟! أليس فيها .. نفس الأحرف ؟! وما الفرق بين العربيّة والآرامية ، في النطق ، والحروف ؟ وبين اللغتين أواصر قربى ، متينة ! إنهما أختان !!.. ألا ترى المهزلة المُبكية فيما تقول ؟! إن ما علّمكم إياه أستاذكم ، لم يكن كره العروبة فحسب ، بل علّمكم احتقار أنفسكم ، ذاتها ! وأبلعكم ذلك الاحتقار لأنفسكم ، عن طريق برشانة دواء ، أسماها « كراهية العرب » !! كأن في وسعكم التحوّل الى غير عرب !! ليس ، في ظني ، ما هو أتعس من أن يحتقر الإنسان ذاته .. دون أن يدري !!

انطبعت نظرة جوفاء ، بلهاء ، على وجهي كل من ماري روز ، ومالك .. أفاقت منهما ماري ، الأولى ، وكان فراس قد تمشى ، يبغي إنهاء زيارته .. فقالت ، متجاهلةً كل ما سمعت ..

ــ سأتوقع زيارتك ، في رأس السنة .. « فيغاس » .. لا تنس ! ولن تتكلّم خلال تلك السهرة إلا الإنكليزية .. أو .. ما رأيكما ؟ هل تتكلم الروسية ؟ وتتنكّر .. في زيٍّ روسيٍّ ؟!

ردّ فراس ، متبسّما ..

ــ .. ألا يكفي ما نحن عليه من تنكّر .. ألا يكفينا ما نراه ، من أزياء ؟! أما عن اللغة .. فأنا موافق .. سنتكلّم جميع لغات الأرض ، ما عدا العربية !

بل ، يجب أن يُحرَّم النطق بالعربية ، على كل من هم ليسوا عرباً .. فخورين بعروبتهـم !

خرج فراس من دار مـاري روز .. يأسـف .. للمـرة الألف ، عـلى ما يصدمه في بلده ، من مثل تلك المطالعات ، المحزنة !.. ولم يكن مبعث ذلك الإحساس كرهه للنقد ، أو غيرة عمياء على انتماءاته ، ومعتقداته ! لقد تعـوّد ممارسة ، وتقبّل ، أقسى وأمرّ أنواع النقد ، في حداثته .. في باريس .. بل تعـوّد تجـاوز التجريح الشخصي ، الذي ألِف سماعه من أنـاسٍ ضعفاء النفوس ، لا حجج لديهم !

إنه ليفخر أن تلك الصِدامات الفكرية الأولى ، لم تفتح ذهنـه ، لكلّ جديدٍ ، فحسب .. بل كسـرت القالب الانطوائي الذي يحمـله الكثيرون ، والذي يمتلىء ، إن عاجلا أو آجلا ، بمفاهيم معيّنة ، تتلاءم مع بيئةٍ وظروفِ الشخص .. فإذا به يشعر بالكِفاية والامتلاء الذهني ، فيَنْغلق القالب عـلى ذاته ، مُعطياً لما فيه ، شكله النهائـي ، وللذاتية الذهنية ، طابعها الخاص .. المُلقّبِ بالشخصية ..

ذلك القالب الأول .. وتلك الهيكليّة النفسية التي يبنيها المجتمع فـوق متحوّلاتٍ وراثيّة ، معقّدة .. تأثّرت أيما تأثرٍ ، عند فراس ، عبر صِداماته العديدة ، ومعاناته الفكريّة الأولى ، منذ حداثته ، وعبـر عـراكاته الفكرية المستديمة ، المتجدّدة ، في باريس .. في خضمٍّ وَسَطٍ وجـودي ، لا يعرف الراحة ، ولا الاستقرار ! لا كرهاً بهما ، بل لأنهما يناقضان ذاتهما ، بالتعريف .. فالفكرُ ، حركةٌ .. والاستقرار على أمـر ، سكون ! لذلك ، ألِفَ الشكّ ، وتعوّد النقد .. و « نقدَ النقد » ، ونقدَ ، « نقدِ النقد » ! يمـرّ فوق تلك الحالات ، تباعاً ، دون تبنّي إحداها .. بل يتعمّد الإمعان في هـذا السبيل .. حتى يُعييه التفكير !!

لكن تلك ، لم تكن سفسطائية جوفـاء ، لا آخـر ، ولا هدف لهـا ! ولا سلسلة تفكير ، معقودة الذيل ، لا هدف لهـا ، سوى تحقيق ذاتهـا ! بل كانت ، سعياً مُمِضاً ، مُجهداً ، قد لا يكون له من آخـر ، إلا مـع نهايـة

الإنسان .. وتوقّف فكره عن الحركة .. سعيٌ ، هدفه ، هو سعادة الإنسان، أو على الأقل ، محــاولة إسعاده ! سعيٌ ، غايته ، حركة ايجابيـــة ، إضافــة ايجابية ، ما ، الى وضع الانسان العبثي ، في هذا الوجود !.. لذلك ، لم يكن هنالك من موضوع لا يَقبل مناقشته في حماسة ، مهمـــا كان ، إلا موضوعاً واحداً ! موضوعٌ إنساني وعر .. لم يستطع التغلّب على مقتــه له .. هـــو موضوع السلبيّة الفكريّة عنـــد الفــرد ، أو الجماعة .. تلك السلبية التي يسبّبها ضعفُ البنية النفسية ! ضعفٌ ، من نــوع خــاص .. تهــالكٌ ، لا يشابه ذلك الضعف الذي تقــع على نقيضه القــوة .. بمعنى ، أنه يكفي المــرء المُصاب به أن يُحقــن بما يقوّيــه ، كي ينهض جالساً .. تعــود اليه ثقتــه بنفسه .. فيُحسّ بالقوة ، من جديد !.. بــل ضعفٌ ، مــرضيّ .. فتّاك .. يقــع على نقيض جنون العظمة .. فلا الضعيف ، إذا ما أُصيب به ، قادر على التخلّص منه .. ولا المصاب بجنون العظمة قــادر على إدراك حالةِ شبهِ الانفصام الذي يعيش فيها !.. إنها سلبيّةٌ ، بغيضة ، مريضة ، سوداء.. تتجلّى ، مثلاً ، عند المصاب بعلّةٍ دائمة ، أو المشرف على الموت .. تطالــع الانسان لدى الجماعات ، متجليّة عنــد الأقليّات التي تعيش في « غيتّو* » نفسيّ ، منذ طفولتهـــا .. لا أمــل لها في شــيء .. تُدرك حــدودَ إمكاناتها الحياتيّة .. تقبل بها كارهة ، مُرغمــة .. فينقلب ذلك التناحر في نفسها الى كرهٍ للذات ، وحقدٍ أعمى لما حولها !! كرهٍ ، أسود ، مقيت ، لمن تعيش معهم في قارب واحدٍ كبير .. وقد يكون في عاصفةٍ ، فتساعد على إغراق القارب ، ظنّاً منها أن عدوّ عدوّها ، هو صديقها !

لقد عَرفَتْ جميع الأمم هذا البلاء .. عرفَتْه أوربا ، في أناسٍ ساعدوا جيوش الأعداء على احتلال بلادهم .. عرفته ، في أناس سخّروا أنفسهم طابوراً خامساً عليها ، في جميع أزماتها .. عرفتهم ، في أناسٍ رفضوا ثقافة البلاد ، أو

---

* « غيتّو » :منطقة في المدينة ، تسكنها الأقليات ، منعزلة عن بقية السكان.. شأن مناطق اليهود ، في الماضي ، في معظم المدن الاوربية .

لغتها أو مذهب الأكثرية فيها .. دون مغادرتها الى أممهم ، بالتبنّي !!
وهل من أمة عرفت مثل هذه التكتلات ، كالأمة العربية !!

كان يسير في الطرقات الضيّقة ، ساهماً عمّا حوله .. سمع وقع لخطى يتسارع خلفه ، فنظر الى الوراء وإذا بمالك ، يجدّ وراءه ، متبسّماً ، في ودٍّ مصطنع ، ويقول ..

ــ لم أستطع البقاء عند تلك المعتوهة .. فآثرتُ الخروج ، فوراً ، علّي ألحق بك !.. الى أين تذهب ؟!.. هل تتمشّى معا ؟!.. هنالك أمور كثيرة أودّ التحدّث بها ، مع إنسانٍ .. مثلك .. ولا أجد !

لم يخفَ على فراس التغيّر الطارىء الذي بان على وجهِ وتصرفاتِ مالك !.. فبدا لهُ ، وهو يخفّ في السير الى جانبه .. وحيداً متبرّماً .. يكره وحدته ، وتبرّمه !.. يعرف انهما السبب في نأيه عن الكثيرين من أصدقائه .. ولا يدري كيف يتخلّص منهما !

أجابه فراس ، لا يدري ماذا بودّه أن يقول ..
ــ لئن كنتَ في إحدى حالاتك المعهودة .. فأرجوك إعفائي ، منها ..

تبسّم مالك ، متعجبّاً ، وسأله في خبثٍ مكتوم ..
ــ أية حالةٍ .. تعني ؟
ردّ فراس ، في لا مبالاة ..
ــ حاجتك الى البوح والاعتراف .. في قالبٍ سوداويٍّ ممضّ !

ثم نظر الى مالك ، في تصبّر ، ومودّة فاترة .. مصدرهما تعارفهما القديم ، وقال ..
ــ مالك !.. إن الموضوع لا يتعلق بك أنت ، أو بما تحسّ أنك في حاجة الى قوله لأحد .. إنه يتعلق بي أنا .. فأنا أكره بوح الآخرين .. لما يفرض ذلك عليّ من التزامات نفسية تجاههم .. أجدُني في غنى عنها !
هزّ مالك رأسه عجباً ، وقال ، كأنه قد أمسك برأسِ خيطٍ جديد ، يقوده عبر متاهاتِ نفسيّةِ مُحدّثِهِ !

ــ إن هذا.. بالضبط.. هو ما أفتقرُ إليه ، أنا ! هذه المقدرة التي لديك، ولدى أمثالك ، في الوقوف في وجـه الآخـرين .. في الرفض ، متى تشاؤون ذلك ! بصرفِ النظر عما يُحدِثه رفضكم هذا ، من أثرٍ سلبيّ لدى الغير !

كان للطريق العـام أثر منعش في تفكير مالك ، وفي أسلوب تعامله مـع الناس .. فيه ، يستطيع ، لو شاء .. أو ، لو كانت له المقدرة على ذلك ، رمْيَ غـيره بأكبر الإهانات !.. يدير ظهـره لمن يحدّث ، إثر ذلك .. ثم يمضي في سبيله !.. كانت بيوت الناس ، بما فيها من أثاثٍ ، ورياشٍ ، وما يحيطون به أنفسهم من أدواتِ الراحةِ والتسليةِ الشخصية تقيّده ، وتحدّ من قـدرته على الإفصاح عن آرائه أمامهم ، وهو في داخلهـا !.. خصوصاً ، تلك الآراء التي تناقض ما يسمعه من الآخرين .. كان يكره دمشق ، لأن معظـم أهاليها لا يَلقى بعضهم بعضاً ، إلا في بيوتهم !.. قلاعهم ، تلـك ، التي يعرفون كيف يشنّون الهجوم منهـا ، وكيف يلجأون الى الدفاع عن أنفسهم فيهـا .. ولم يكن له فيها من قلعةٍ ، مثل غيره من الناس .. لذلك ، كان في حنينٍ دائم الى باريس ، الى المكان الوحيد في هذا الكون الذي اقترب فيه من حريّة الكلام ! وكان يملك حرية التصرف ، في مدينة يعيش الناس في طرُقاتها العـامّة ، وفي مقاهيها .. يحدّث بقيّة من يعرفهم ، من الطلاب العـرب ، وهو على قـدم مساواةٍ ، معهم !.. غـير مكترثٍ بأوضاعهم الاجتماعية ، أو المالية .. فما ان عاد الى بلاده التي يكره العيش فيها ، حتى وجـد نفسه مُجبراً على مواجهةِ الناس ، من خلال ظروفه الشخصية والمعيشية .. ظروفٍ ، جُملتها ، كونـه قرويّاً متقّفاً .. يعيش في مدينة لم يلقَ فيهـا من متقّفين ، أو غير متقّفين ، من هم في حـاجة إليه ، أو الى صحبته !

كاناقد سارا ردحاً من الزمان دون أن يحدّث أحدهما ، الآخـر .. وإذا بمالك يقـول ..

ــ كان لي في باريس صديق أثير .. طبـاعه ، مثل طبـاعك بالضبط !.. وكنّا على خصامٍ ، ونزاعٍ دائمين .. لكننا كنّا لا نفترق .. لا يمضي يـوم دون أن يسعى واحدنا ، للقاء الآخر !

رد فراس ، متعجّباً لتقييم مالك لصداقةٍ قـد تكون واهمة ..
ــ مثلي .. بالضبط ؟.. ومن يكون صديقك هـذا ؟!

ــ أقول « مثلك » .. بمعنى انه ابن أسرة معروفـة ، ومن الأشراف .. كما يحلو لأنفسكم أن تنتسبوا !.. لقد تزوّج امرأة فرنسية .. وهو يدرّس العلـوم الفيزيائية الآن ، هناك ، في جامعـة باريس .. وله في هـذا العـلم نظريات ، لُقّبت باسمه !

نظر إليه فراس مستغرباً دأبـه على مهاجمته .. وقال ..
ــ وماذا تعني بقولك « كما يحلو لنا » أن ننتسب ؟! أتظنّ أننا ننتحـل النسب الشريف ؟!.. كأن لنا فائدة من وراء ذلك ؟!

ضحك مالك مسروراً ، لما فتّح أمامه من فجوةٍ ، قـد ينـال عبرها ، من درع فراس .. وقال ..
ــ عزيزي .. إن معظم أسر دمشق التي من ملّتكم ، تدّعي لنفسها السبب نفسه !.. وتنفيه عن غيرها !.. فأيهم تُصدّق ؟!.. إنك لتَجد شجرة أسـرة لدى كلّ منها ، تعـود بنسبها الى آدم !

هزىء فراس بدوره مما سمع .. وأجـاب ..
ــ .. إنك لـن تصدّق .. حتى الصادق منهم !.. فلماذا تُتعب نفسك بالسؤال ؟.. ولماذا تهتم بمثل هذه الأمور ؟

ردّ مالك في حيويّة ، جَهِد أن تبدو صادقة .. حياديّة ..
ــ فراس .. دعك من رأيي الشخصي في مثل هـذه الموضوعات ، التي لا تهمّني إطـلاقاً .. فأنا أسألك .. ما قيمتها ، بالنسبة إليك .. أنت ؟.. وما مدى ما تستند إليه من برهان ، في مثل هـذا الاعتقاد ؟!
ــ عزيزي .. ليس من نسبٍ ، مهما بلغت ثقـة الناس فيه ، يُعرف عن غير طريق التواتر ، والشهرة .. وليس من نسبٍ عربي يُعرف عن غـير هـذا الطريـق .. أما عنا نحـن .. فمـا عليـك إلاّ قـراءة بعض ما كُتب ، في هـذا القبيـل ..

ـ مثلاً ؟!

ـ خذ كتاب « منتخبات التواريخ » ، للشيخ الحصني .. أو ، « خلاصة الأثر » ، للمحبّي .. فتقرأ فيهما عن أنساب الأسر الشاميّة !.. أو اذهب الى وزارة الأوقاف .. واسأل أولي الأمر فيها ! أو تعال الى داري .. وأطلعك على وثائق النفوس ، العثمانية .. أو ، اذهب الى المدافن .. واقرأ ما كُتب على شواهدها مما يرجع تاريخ بعضه الى سبع مائة عام !

ضحك مالك مسروراً ، لما سرده فراس من حججٍ سوف يقضي عليها بضربة واحدة .. فقال ..

ـ كل هذا جميل .. والحق يقال .. إن صديقي الذي حدّثتك عنه ، أطلعني على الحجج نفسها ! لكن .. كيف توفّق جميع ما تقول من تواريخ ، وأحداثٍ فروسيّة ، مع فكرك « الماركسي » العلمي ؟! أم هل تخلّيت عنه .. مؤخراً .. للحفاظ على النسب ؟!

تبسّم فراس ، وقال ..

ـ ما كنت أعلم أن قاموس الآرامية قد أهمل كلمة « لياقة » من مفرداته !.. لكن ، لا بأس .. ولنعد الى سؤالك .. لأنني لن أقبل منك مفاتحتي به ، بعد اليوم !.. لا بد أنك تعلم أن هنالك ، في الاتحاد السوفياتي ، من هاجم تاريخ وتراث روسيا القيصرية ، قبل الثورة أو تخلّى عنه .. بجميع ما حوى تاريخهم من أسماء ملوك ، ومفكرين ، وفنانين .. بدعوى ، مناهضة ذلك التاريخ لواقعهم الجديد .. فما إن هدأت عصبيّتهم ، حتى أدركوا أن تاريخ أمتهم ، وِحدةٌ ، لا تتجزّأ !.. وان وجود كل من « إيفان الرهيب » و « اسكندر الأكبر » و « نيقولا الثاني » كان شرطاً لوجود « لينين » .. ومن لحق به !.. إن الفكر الديالكتيكي ، الذي يستند الى التطور ، لا ينفي وجود الشروط التي أدّت إليه ! إن كل نتيجة تراها اليوم متطوّرة ، إيجابية ، ستكون بالضرورة متخلّفة ، سلبيّة ، بالنسبة للقفزة التي ستليها .. إن هذا ، منطق التاريخ !.. أنا عربي .. وكل عربي يعتز بنسبه .. مهما كان ذلك النسب .. فما بالك إذا كان نسبي يعود الى أعظم

إنسانٍ في تاريخ الأمــة العربية ؟! أم هل في نيّتك أن تسقط أحقاد اليــوم ، على قادة الأمس ؟! إن مثل هذا النسب ، على المستوى العلمي ، قد لا يزيــد اليوم من ثِقــل وزني .. ولا من ذكائي ، أو ثقافتي ! أضف الى ذلك أنــه ، على المستوى الإنساني الحديث ، قد لا يزيدني قــدراً ، ولا جاهاً .. لكــن النَسَب يبقى ، مهما قيل فيه ، مسألة قرابةٍ .. والقرابةُ ، وراثة .. والوراثةُ قضيّة علميّة ، لا يتجاهلها إلا الأميون ! أما حين تتباعــد هذه القرابة ، لتصل الى ما وصلت إليه في حالة الأنساب الشريفة ، فإنهــا تصبح مسألة عاطفية .. أساسها علمي ! فأي حفيد لا يحب جدّته ، أو لا يُكبر جدّه الطيّب ؟! فكيف تريدني ألا أتعلّق بحبّ أجدادي ، لا سيما حين يكــون لي بينهم ، من كانوا في قطري ، وفي قطر الملايين .. أشرف الناس !

أخلد مالك الى الصمت ، وهو يسير الى جانب فراس .. يتعجّب للفارق الشاسع الذي بين ظروف كل منهما ، وتربيته .. ثم تنبّه الى أن لهجــة فراس ، التي بدأت ساخرة ، متحدّية ، كانت قد هدأت ، في منتصف حديثه ، لتشوبها مرارة دفينة ، قبيل توقّفه عن الكلام ..

سمع صوت فراس ، يأتيه ، كأنه مرغم على الكلام ..

ـ أتظن أن مثل هذا النَسَب ، قضيّة ، يسهل حملها ؟!

ردّ مالك ، على الفور ..

ـ أنا ، لو كنت مكانك .. لتسلّيتُ به ، لا أكثر ، ولا أقل !

ـ ذلك ، لأن انتماءاتك الذهنيّة والعاطفيّة فصلتك عن تاريخ هــذه الأمة ، منذ أربعة عشر قرناً !

ـ بل ، لأنه لم يبق اليوم من يكترث لمثل هذه الأمور !

ـ إلا صاحبها !! أتظن أنــه من السهل عــلى إنسانٍ من سلالــة بني الأحمر ، أن يعيش في غرناطة ، اليــوم ، بين الإسبان ؟! إنسان ، مهما كــان بسيطاً ، أو ذا حالة متواضعة ! أتظن أنــه من السهل على مثل ذلك الإنسان ، أن ينسى أهــله .. وأجداده ؟! ثم يأتيــه ، من الإسبان ، أناسٌ ساخرون ..

يسائلونه عن نسبه ، مثلما تفعـل أنت معي ؟! أي البلائيّيْن أشد إيلاماً .. في ظلرك ؟ أن يتناسى الإنسان من هو .. فيقتل ذاته ؟! أم يذكر ذلك .. فيحرّك غيرة وحسد الناس .. ويصبح عرضة لتجريح الآخرين ، وسخرية بعضهم ؟!

نظر إليه مالك ، مستغرباً .. وقال ..

ـ مهلك .. يا فراس !.. أتـودّ أن تجعـل من قضيتك ، مأسـاة .. إغريقيـة ؟!

ـ إنها مأساة كل من يحمل قضيـّة .. في غير زمانها ؟!

تبسّم مالك ، وقال .. مداعباً ، في مَكْر ..

ـ إذاً .. فأنت ، كمثلك من الكثيرين ، ممن يعيشون .. في الوهم !

ـ إذا كنـتَ تسمّي جميـع مواضيع القيـم ، مواضيع وهميّـة .. فلا بأس ، مع الفارق الكبير بين حالة واهمٍ واحدٍ ، و « واهمين » .. فقـد يجتمع عدد من الأشخاص على قضيّة واحدة ، مهما كانت جذورها « واهمة »، فيسهل عليهم النهوض بها .. أما قضيتي هذه ، فهي قضيـة فرديّة بحتـة ! لا سبيل لأن يشاركني في حملها أحد .. مهما كثر عـدد الذين يرجـع نسبهم الى الأصل نفسه !! نحـن متباعدون مختلفون .. يشعر بعضنا بغربـة حقيقية عن بعض .. كيف يشاركني الغريب بالنهوض بحملي .. وهو قد حمل مثله .. أو نـاء به !

ـ بل تتجمّعون ، وتتداولون .. وتحيون في نفوسكم الذكرى !

ضحك منه فراس ، في سخرية .. وقال ..

ـ أية ذكرى هذه ؟! عاشوراء .. الطقوسية ؟! أم تحيي الماضي .. على الطريقة الماسونية ؟! أم نرتدي العمائم الخضر ، كما فعل أجدادنا .. فنستهدف تجريح أمثالكم !.. إنك تهرف .. إنك لم تفهم كلمة مما قلتُ لك ! إن ما أنـا فيه ، يكاد يكون قضية انتمـاء علمي ، وحسب ! لا طائل يُرجى من ورائـه ، ولا نفـع ! إنه إحساس بالهويّة ، كالإحساس بالأنا !

أطرق مالك برهة يُمعن التفكير في غرابة ما سمع .. وفي بُعد ذلك النوع

من المعانـاة عن كل ما يعرفـه من مشاكـل الفـرد النفسية .. ثم ضحك ، فجأة ، وقال ..

ــ لقد بدأنا حديثنا برَفضك الإصغاء لاعترافاتي .. وإذا بك لا تكتفي بذلك .. بل تقلب الأمور لصالحك ، تجعلني عرّافاً لك.. وتهيل عليّ بوحك.. الفريد من نوعه !!

وتوقّف عن السير فجأة ، ممسكاً بذراع فراس ، يحضّه على التوقف ، ثم قـال ..

ــ كيف تلومني ، إذن ؟!

ــ ألومك ؟!.. وفيم اللّوم ؟!

لم يردّ مالك على سؤال فراس ، بل تابع قائلا ..

ــ إن جميع اعترافاتك هذه .. إن هي ، إلا اعترفاتي أنا !.. لقد ذكرتَها في أسلوبك المتعالي ، وكأنها مُشكلتك أنت ! وحدك ! لكن في وسعي تبنّي جميع ما قلتَ ، والتوقيع ، باسمي ، على كل كلمـةٍ تفوّهتَ بهـا ! كيف تلومني على تمسكي بهويّةٍ آراميةٍ ، يرجـع تاريخها الى نسبك بالضبط ! وهل يحقّ نسبك العربي ، لك ، أكثر مما تحـقّ لي هويّتي .. الآرامية ؟! هلاّ فكّرت قليلاً فيما تسمع ؟!

سخر منه فراس ، وقال ..

ــ بل .. لقد فكّرتُ ملياً في ذلك .. قبل اليوم !.. قد يكـون ألمنـا واحداً ، ومن الوهمِ ما يسبّب آلاماً أشـدّ أذى من ألـم القروح ! لكـن النَسب القرشي الذي أتمسّك بـه ، تحدّر لي ، أباً ، عن جـدّ !!.. إنـه نسبٌ عائليّ معروف .. وأنا أمـلك فيه الوثائق ، والحجج ! ثم إنـه ما زال يعيش في جسدٍ عربيّ ، لأمـة عربيّة ، تنبض بالحياة .. أمـّة فيهـا المئات غيري ممن ينتسبون الى الأصل ذاتـه .. سواء عرفوا ذلك ، أم جهـلوه .. سواء تمسّكوا بـه ، أم تجاهلوه ! وغيرهم من العرب .. ينتمون الى أنساب أخرى ، يفاخرون بهـا !! في حـين أنك ، أنت ، تحـاول استحضار أرواحٍ ، لا تعرفها ! في أرض ، تظنّها ما زالت مقبرة لأجدادك .. ولا ترى أنها باتـت

حقولاً خصبة لك ولغيرك .. يُبذَر ، ويُحصد القمح فيها ، منذ أربعة عشر قرناً !! ويحك .. ألا يستطيع ذهنك الموازنة بين القضيّتين ؟ إنما نسبي من لحمٍ ودم .. في حين أنك إنما تتمسك بآلهة دكّت أصنامها منذ أربعة عشر قرناً ؟!

توقف فراس عندمفترق طرقٍ ، يسائل نفسه ، من حيث لا يدري ، ما إذا كان ينوي متابعة المسير برفقة محدّثه !.. فنظر إليه مالك ، في وجوم ، ثم قال ، في مرارةٍ ظاهرة ..

ـ حسنٌ !.. لقد فهمت.. سوف أمضي في سبيلي ! لكن لي قول أخير.. لا شك أنك سوف تستغربه .. قد لا تكون آخر أصحاب النسب الشريف ، كما تقول .. لكنكَ قطعاً ، في نظري ، آخر الأمويين .. نعم آخرهم .. بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من هوسٍ عصبيّ ، أدّى الى عزّة الأمويين ، ثم الى فناء دولتهم !

* * *

لم تغب كلمة مالك ، عن سمع فراس ، دون أن تترك في نفسه ، أثراً !

لعل نفسه ما كانت لتجرؤ على التنفيس بالقليل مما يعذّبها ، لولا أنه كان يحدّث مالكاً بالذات .. إنساناً ، يعاني من أشد أنواع الهامشية والاغتراب .. إنسان ، تهون عند مصيبته الشجون.. ويتضاءل أمام بليته الألم!

كان فراس يكتم انفعالته تلك ، عن أقرب الناس إليه .. خوفاً من أن تختلط عصبيته ، عند فهم السامع ، بالتعصّب الأعمى ! كان يدرك ، بوعي باطنيّ غريزي ، أنه ، كسَمَك « السلمون » .. قد تاه آلاف الأميال عن موقع نشأته .. وأنه يعود الآن الى ذلك الموقع .. يجابه الأخطار ، يقتحم التيارات المضادة .. يترك البحار الواسعة ، المالحة .. سعياً وراء المصدر الضيّق للمياه الصافية .. مصدر النبع .. فيرتقي الأنهار ، والشلاّلات المرتفعة .. سابحاً ، عكس اتجاه الماء .. لا شيء يدفعه ، سوى وعيه

الغريزي .. ولا من هدف يبغيه لدى بلوغه أصل النبع ، سوى العودة إليه .. والفناء فيه !

لطالما اقشعرّ بدنه لمأساة سمك السلمون .. ولطالما ردّد في نفسه سؤالاً ملحاً .. هل تشفع مأساة السلمون ، لعمى بصيرته ؟! هل يزيد دأب سمك السلمون ، وهو في طريق العودة الى موقع نشأته ، من المعنى المأسويّ لتلك العودة ؟! وهل كان لتلك السمكة التعيسة أن تعاني ، ما تعانيه .. في العودة الى مكانٍ ما ، بذاته .. لولا أنها فتحت عينيها على الحياة فيه .. فتصوّرت ، أو طبّع في جهاز غريزتها ، أن ذلك المكان هو المصدر الوحيد لكلّ حياة ! وأنها البقعة الوحيدة ، الصالحة ، لإعادة التلقيح .. وتكرار الحياة ؟!

هل غريزة العودة تلك ، دفينة في ثنايا السلاسل الغريزية لجميع المخلوقات ؟! فترى ، حتى الانسان الحضاريّ ، الواعي ، يتمسك بما ألِفه ، أو تعلّمه ، خلال نشأته الأولى .. كأنها أمور مُنزَلة ، لا محيد له عنها ! بل ، يصل تعلّقه بتلك الأصول ، لدرجة ، تصبح عندها في ذهنه حقائق بديهيّة ، ليس للعلم ، وللمحاكمة ، وللذكاء ، من مهمّةٍ في الحياة ، سوى إعادة اكتشافها .. وتجديد البرهنة عليها ! وتكرار التأكيد بأن لا حقائق في الكون جديرة بالحياة، سوى ما طبّعت عليه البصيرة، وهي في طورِ النشوء!!

ألهذا السبب تبقى جميع الأمم على أُسس طبائعها الأولى ؟! تستميت من أجل عقائدها البيئية ؟ تسجد أكبر العقول للدين الذي نشأت عليه ، كأن لا دين سواه ! وتبقى أكثر الأذهان تفتّحاً ، مُغلقة على ما ينافيه ؟! لا هم لها سوى دراسة تعاليم « العدوّ » .. وتفنيد حججه « الشيطانية » !!

أليس غريباً أن تضرب عقول جهابذةٍ ، أمثال سقراط ، وفيثاغورث ، وأرسطوطاليس ، وأفلاطون ، في طول الكون الفكريّ وعرضه .. حينما تناقش العلوم ، والفلسفة .. وتبقى ، فيما يتعلّق بالأمور الغيبيّة الإلهية ، رهينة لمفاهيم بيئتها الأولى .. أسيرة ، لطقوسٍ هزيلةٍ تثير الضحك ،

والسخرية ، في النفوس ، اليوم ؟! فإذا كان سقراط قد ضحّى « لأبولّو » !.. فهل من الغريب على « غاندي » أن يضحّي لـ « كريشنا » ؟! وأين العجب في بقـاء كبار عقول الديانات السماوية الثلاث ، اليوم ، كل على « معجزاتها »، وطقوسها .. يتمسّك كـل عالِمٍ من علمائها ، بحذافير أقاويل دينـه .. أو طائفته .. فلا يـرى الصواب ، والحقّ إلا في المعتقدات التي حُفرت في بنائه النفسيّ ، أثناء نشوء وتبلور ذلك البناء ، زمن طفولته المبكّرة الأولى !

* * *

وجد نفسه ، مـرة أخرى ، وحيداً ، في شوارع دمشق ، لا يميـل الى إنهاء الليل في خلوة داره .. داره الفسيحة الأنيقة .. داره التي توفّر له فيهـا جميع ما تعوّدته نفسه من أدبٍ ، وفنّ ، وموسيقى .. تلك الدار الأوربية ، « البروستية* » ، التي باتت تمثّل كيانه في دمشق، على مدى سنوات طوال.. أصبحت فجأة ، غريبة ، على نفسه .. نائية عن عاطفته !

ما إن رأى الجمال الدمشقي العريق ، في تلك الدار القديمة ، في دمشق التاريخ ، حتى بات يـرى داره ، كامرأة ، مخضرمة الثقافة ، هجينة الذوق .. أحبّها يوماً ، وأخلص لها .. لكنه أضحى يعاف حبّها ، والرجـوع إليهـا ! يحار كيف يُمضي الوقت ، بعيداً عنها .. يـودّ لو يتشاغل عنها ، ريثما ينجز جميـع إجراءات الهجـر ، ويعقد الروابط اللازمة مع حبّه الجديد .. حبـه الدمشقي القديم .. حبـه الأول ، والأخـير ! وقـف متردداً لا يعرف في أي الاتجاهات يسير !.. طرأت له فكـرة الذهاب الى حمـام السوق .. وتمنّى لو أن « باولو أليبرتو » معـه .. لزارا ، معاً ، مؤسسة النظافة ، تلك .. التي كان لرومـا مثلها ، في يوم من الأيام .. ثم حرمتها منها الكاثوليكية ، طـوال

---

* نسبة الى « مارسيل بروست » كاتب افرنسي ولد في القـرن التاسع عشر ، اشتهر بمؤلفه « في البحث عن الزمن المفقود » .

ألف عـام ، أو يزيـد !

كـره زيارة الحمام ، وحيداً .. وما كان هدفـه الاغتسال ، وهو الذي يستحمّ في داره كل يـوم .. جُلّ ما كـان يتمنّى من وراء تلك الزيارة .. هو مزاولة طقوس النظافة، في أجواء معابدها القديمة .. وانتحال سبب جديد، للعودة الى الحارات العتيقة ..

توقف عند أول هاتفٍ في السوق ، ودعـا أحد معارفه القدامى ، وكان شاباً دمشقياً ، من أسرة عريقة ، أنهـى دراسته في أوربا ، وجـاء يزور والدته التي فقدت زوجها في ظروف قاسية ، وما كان لوحيدها من العمـر ، آنذاك ، إلا سنوات قلائل ..

تلقى « جمال » الدعوة ، ضاحكاً ، مسروراً .. وهو الدمشقي الأصيل ، وقـال ..

ـ كدتُ أنسى أن الدعوة الى الحمام ، عادة دمشقية ، قديمة .. هـل تتصوّرنا ، في باريس ، ندعـو أحدهم الى « دوش » عمومي !.. إنه ليظنّها إهانة .. يُقصد منها التجريح !.. أين نذهب ؟ أي الحمّامات اخترت ؟!

ـ سيان عندي ، فأنا لست خبيراً بهـا .. أعرف عن حماماتٍ اشتهرت بروعة هندستها ، وزينتها ، مثل حمام الملكة ، وحمام الجوزة ، لكن الهدم .. الملقّب بالتنظيم .. أصابها ! وأتى عليها !.. ما رأيك بحمّام السلسلة ؟

ـ هيا بنا .. الى حمام السلسلة ، إذن !

* * *

دلف الصديقان في عتمـة سوق الحميدية ، الذي بدا في الليل مُقفراً ، قصيراً .. ثم اتّجها نحو المكتبة الظاهرية ، يُعجبان بمداخل الأبنية ، والدور القديمة ، في طريقهما .. فمـا إن طالعهما باب الحمّام الصغير ، حتى دفعـاه ، يتلقّفان عبـق الرطوبة ،والصابون ، كأنه غطاء دافىء لفّهما ، ليقيهما من برد الشتاء القارس ..

لم يكن في القاعة الخارجية إلا عددٌ قليلٌ من الذين أنهوا اغتسالهم .. جلسوا ، متلفّحين بالمناشف التقليديّة .. تلفّ رؤوسهم ، وكأنها أغطية رأس « فرعونية » الأصل ..

نظر جمال الى المناشف المنشورة على حبالٍ عالية ، قريبةٍ من السقف ، وكان شاب نشيط يُحكم طيّها ، والإمساك بها .. يقذفها ، مسافة بعيدة ، الى أعلى ، فتعلق بالحبال ، كيفما اتّفق ، ثم يستلّ عصى طويلة دقيقة ، ويستخدمها بحركة سريعة ، متمرّسة ، لنشر المناشف .. حتى لتبدو مهمّته ، كدور لاعب « سيرك » ، يقوم بحركاتٍ بهلوانية متوازنة ، هدفها تسلية الجمهور !

تقدم منهما عامل ، فرّدَ أمام فراس فوطةً سمراء ، ليستر جسده بها ، أثناء خلعه لثيابه ، فقال جمال « بالفرنسية » ..

ـ لقد غاب عنا الاستعداد لهذا الأمر !.. أكره إحاطة جسدي بفوطةٍ سبق لغيري استعمالها !

ـ أظن أن لديهم ما هوأفضل ..

وأشار الى صاحب الحمام بذلك .. فصاح على الفور ..

ـ هات طقمين ، للبكوات ، يا ولد .. عجّل !

أسرع العامل بإحضار صرّتين كبيرتين .. في كل منهما ، العدد اللازم من فُوَطِ التنشيف النظيفة ، والأغطية اللامعة .. وكان لرائحة صابون الغار التي ندّت عن تلك المناشف ، الأثر الطيّب على نفسيهما .. أدخلهما جوّاً قديماً ، كانا يتحسّبان له ، في سرهما .. يخشيان ما يمكن أن يطالعهما فيه ، من أثر التقادم ، والإهمال !

سارت طقوس الاغتسال على شكلها الطبيعي .. دخلا قاعة فسيحة ، يتوسّط أرضها سقف بيت النار ، في شكل مصطبة ، معتدلة الارتفاع ، جلسا عليها ، تسري حرارتها في جسديهما ، فيتفصدان عرقاً يخلّص الجسم من نفاياته الملحية ..

قال فراس ، يدلّك صدره بيديه ، أسوة بما كان يقوم به غيره ..

ـ هل زرتَ حمامات استنبول ؟

ـ لا ..

ـ إن فيها لحمامات رائعة .. أرضها ، وجدرانها مرصوفة بالرخام ، تزيّن قاعاتها أعمدة ، وأقواس ، ولا أجمل !.. والخدمة فيها عصريّة ، مدهشة !

ـ .. « الحمامات التركية » !

ـ بل الحمامات العربيّة ، الإسلامية !.. انتقلت من دمشق ، مع جميع فنون وعادات الدولة الأموية ، الى الأندلس ، وبغداد ، ثم الى القاهرة الفاطمية ، واستنبول العثمانية !.. أليس غريباً أن نحارب ما هو عثماني ، اليوم ، على أنه تركي .. ونهمل انه ، في الأصل .. عربيّ ، مسلم ؟!

سأل جمال ، فجأة ..

ـ هل صحيح أنك تنوي شراء بيت عربي قديم ؟!

هزّ فراس رأسه بالإيجاب ، فأردف جمال ، مستغرباً ، متعجّباً ..

ـ إنها لفكرة رائعة حقاً .. لكنها خطرة ، وعرة .. فيها من المغامرة الشيء الكثير !.. لطالما حلِمتُ بأني سأقوم بمثل هذه الخطوة ، في يوم من الأيام !.. هيّا ، ابدأها أنت .. وسنرى كيف ستتبلور على يديك ..

نظر فراس إليه ، في عطف .. واستغرب تخوّف ابن الأسرة الدمشقية العريقة من العودة الى بيتٍ نشأ والداه في مثله .. بل ، وربما زُفّا فيه ، بعضهما الى بعض !

قال جمال ساهماً ، كأنه يردّ على سؤالٍ طُرح عليه ..

ـ أنا .. لقد أفهمني خالي ، المَعنى الحقيقيّ للحياة الدمشقية .. أتدري ، يا فراس ما معنى أن « يتدمشق » الإنسان ؟!.. إن ذلك يعني ، في بلاد الشام ، أن يصبح الإنسان دَمِثاً ، مهذّباً ، لطيفاً !.. أن « يتدمشق » الإنسان ، معناه أن يتبنّى صفات ، وتقاليد مسلكيّة ، نمت وتبلورت في هذا البلد ، عبر قرونٍ طويلةٍ ، من الحضارة المتوارثة !.. إن مثل هذه الصفة لا تطلَق في العالم الغربيّ اليوم ، إلا على أهل باريس .. حين يقال بالفرنسية

عن المرء ، انه أصبح « باريزيا » .. ألا ترى معي البُعد الفلسفي والحضاري لهـذا المفهوم ؟.. إنها البرهان التطبيقي لآخر أقوال « سارتر » في أن الانسان الاجتماعي إنما هو بوتقة تنقل عادات مجتمعه من جيـلٍ الى جيل .. يا الله .. ما أغنى موضوع دمشق ، هذا ، وما أفسحه !

قـال فراس ، واجمـاً ..

ــ لكن الكارثة التي تصيب دمشق ، اليوم ، كبيرة ، مروّعة ..

ــ ماذا تعني .. وهل من جـديد ؟!

ــ لقد كانت تصاب بالكوارث ، في الماضي .. فلا يلبث أهلها الحقيقيون أن يرجعوا إليهـا ، فيُعيدون تعمير ما خرب منها ، ويبثّون فيها الحيـاة من جديد !.. أما اليوم ، فإن معظم أهلها نزحوا عنهـا ، الى غير رجعة !.. صحيح أنها لم تخـلُ من السكان .. بل إن نسبة الازدحام قد زادت فيهـا .. لكن أهلها ، بما معهم من تجارةٍ ومالٍ ، نزحوا عنهـا ، الى غير رجعة ، آخـذين مالهم ، وخبرتهم ، وحضارتهم ، معهم !.. فإذا أُعيـد بناؤها يوماً ، فسيكون لهـا طابعٌ قرويٌ ، مماثل لذوق وأسلوب معيشة سكانها الجدد ..

كان شـابٌ ، في مقتبل العمـر ، يجلس على عتبة حجريّة ، قبالتهما ، ينظر إليهما في حيرة وإعجاب .. وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة ، متسائلة .. تقدّم منهما ، متردّداً ، يشدّ فوطته على خصره .. وقال .. في خليط ركيك مـن الإنكليزية ، والفرنسية ..

ــ هل أنتما فرنسيان ؟!.. أرجو المعذرة .. فأنا لا أودّ إزعاجكما !

تنبّها الى أنهما كانا ما يزالان يتكلّمان بالفرنسية .. منْعاً لغيرهما مـن فهم ما دار بينهما !.. فأجاب جمال ، بالعربية .. ضاحكاً ..

ــ بل عربيان .. من وسط دمشق !

ردّ الشاب ، مرتاحاً للعودة الى لغة يحسن التكلّم بها ..

ــ أنا ، اسمي غـزوان .. هـل أنتما مغتربان ؟.. إن شكلكما لا يوحي بأنكما من أهـالي دمشق !

التفت كلٌ من فراس وجمال ، أحدهما الى الآخر ، في تساؤلٍ مبطّن ، وحيرة هادفة !.. ثم أشار فراس الى جمال بيده ، أن يتفضّل ، ويجيب الشاب عن سؤاله .. فتبسّم جمال ، مشيراً الى فراس ، وقال ..

ــ إن الأستاذ ، نصف مغترب .. وسيعود الى الوطن ، عما قريب !

سـأل الشاب جمالاً ، في براءة محبّبة ..

ــ وأنت ؟!

تكدّرت بسمة جمال ، وقـال ..

ــ أنا مصاب بالاغتراب الطبقي .. أنتمي لطبقة لا وجود لها .. وهـذا مرضٌ شديد الفتك !.. لكنني سأشفى منه ، إن شاء الله ، عما قريب !

لم يفارقهما غزوان ، منـذ أن وقعت عيناه عليهما ، وابتدأ معهما ذلـك الحديث .. كان سعيداً بالتحدث الى من بدت عليهما ملامح الأجانب ، مـن السياح ، ومن كان يخفّ عمّال الحمام ، لخدمتهما !.. تبرّع لهما بالقيـام بعليمّة « التفريك » ، فشكراه في لطف ، مؤثرين خبرة المفرّك العجوز ، فمـا إن أتمّا اغتسالهما ، حتى أسرع الشاب يهيل الماء على رأسه ، ويخفّ في طلب مناشفه .. أسوة برفيقيه الجـديدين !

أسرع العمال الى تنشيف الثلاثة ، يقومون بفضّ المناشف ، وإحـاطة الأجساد بها ، في أداءٍ متقنٍ ، أثار دهشة وإعجاب فراس .. ثم خفّ عامـل آخر نحوهما ، بكؤوس الشاي .. تلتها كؤوس عصير الفاكهة .. وكان جمال قـد تنبّه الى أن الشاب يغمـز بعينيه للعمال ، في كل مرة .. يأمرهما بالمزيـد فعـاد الى الكلام بالفرنسية .. يقول لفراس ..

ــ أظن اننا في ضيافة صديقنا الجـديد !

ــ يجب ألا نثقل عليه .. فكيف نفعـل ؟

ــ سأهتم أنا بتسديد أجرة الحمام ، عنا جميعـاً ..

ــ حسناً تفعل ، وسأُشاغله أنا ، ريثما تنتهي من ذلك !

سرعان ما عاد جمال ، وقد سدّد الحساب .. قام مع فراس ، لارتـداء

ملابسهما ، فما إن تنبّه غزوان الى ما حدث ، حتى بدت على وجهه خيبة مريرة .. تلعثم لها ، كأن النطق قد استعصى عليه ..

كان الثلاثة قد بلغوا ، باب الحمام ، وشرعوا في مغادرته ، فعلا صوت الشاب فجأة ، وقد عادت إليه مبادرته ..

ـ .. والله .. والله .. لو حدّثت والدي بما جرى ، لطردني من البيت على الفور !.. كيف تفعلان ذلك ، وأنتما في ضيافتنا ؟.. إن والدي يعرف صاحب الحمام !

واحمرّت وجنتاه ، لا يدري ماذا يقول ..

وقفا ، لا يعرفان كيف يودّعانه .. فإذا به يعود الى الكلام فيقول ، في لهجة مؤثرة ..

ـ بالله عليكما !.. هلاّ قبلتما زيارتي .. في دارنا ؟.. إنها هناك .. بالقرب من ذلك الباب .. والبرد قارس !.. ربع ساعة ، لا غير .. أرجوكما ..

ما كان في وسع أحدهما رفض مثل ذلك الطلب المُحبّب المُلِحّ !

أسرع الشاب ، يحضّهما على الجري .. درءاً للبرد .. يتضاحكون لذلك .. لحظات ، وكان يقرع باباً ضيّقاً .. فتحها طفل صغير .. ثم تركهم ، وأسرع راكضاً الى دفء إحدى الغرف البعيدة ..

* * *

دخل الجميع رواقاً طويلاً ، مماثلا لمعظم أروقة البيوت القديمة .. خرجوا منه الى حديقةٍ فسيحة بلّل أرضها المطر .. فتبسّم فراس لعِظَم الفارق بين الباب الرثّ ، وداخل الدار الوثير .. وراح يجول بناظريه فوق معالم مشتركة بين البيوت الدمشقية .. معالم ، باتت مألوفة لديه .. أشعرته بالإلفة ، فكاد يبادر الى دخول إحدى القاعات ، كأنه على معرفة بالدار وبأصحابها .. لولا بقية من تحسّبٍ وحذر ، منعاه من التقدم !

كان غزوان قد اختفى برهة .. خرج إثرها برفقة كهلٍ جليلٍ ، يرتدي ثياباً عربية طويلة .. رحّب بالضيفين أيما ترحيب ، ثم قادهما الى قاعة شتويّة

باردة ، سرعان ما أوقدت فيها نار مدفأة قديمة ، سرى دفؤها في جميع أنحاء المكان ، فعاد للضيوف إحساسهما برونق أثاثها العربي ، وسجادها ، وطنافسها العجميّة ..

تمّ التعارف بين الحاضرين ، في عفوية تقليديّة مألوفة .. ثم جلس الجميع على أرض القاعة ، فوق مساند مريحة ، مجلّلة بالسجاد ، مصفوفة لصق جدرانها .. يحدّث أبو غزوان ضيفيه ، ويسامرهما .. بينما راح غزوان ، يسعى بين يديه ، ينظر الى والده في سرورٍ وامتنانٍ ، والى ضيفيه ، في إعجاب وبهجة ..

ما كان في وسعهما ، أمام الترحيب الصادق لصاحب البيت ، أن يتركاه على عجل .. كانا قد تناولا القهوة .. ينتظران مرور الوقت الكافي للنهوض ، والانصراف .. غزوان قد غاب عن القاعة ، منذ أن قدّم لهما الشراب .. لحظات ، وإذا بالباب يُفتح من جديد .. ويدلف منه الشاب ، حاملاً طبقاً كبيراً ، يتبعه أخوه ، وعلى يديه أدوات الطعام .. فيضعان ما معهما على الأرض ، ثم يعودان الى الباب ، من جديد ، ليتناولا من امرأة تقف وراءه ، الطبق ، تلو الطبق .. حتى صُفّت أمام الضيفين مائدة عامرة ، وكأن نساء الدار كنّ في انتظارهما ، لدعوة عشاءٍ مسبقة !

تغلبت المفاجأة على خجلٍ وتحفّظٍ كل من فراس وجمال .. وما كان في وسعهما الوقوف مبهوتين أمام حُسن ضيافة أهل البيت ، ونظرات اللطف والترحيب التي كانت تطالعهما على وجه كل من الشاب وأبيه .. فبادرا الى مبادلة مضيفهما ، لطفاً بلطف ، ومحبة بمحبّة .. فما إن أقبلا على تناول الطعام ، حتى كان كل منهما يحسّ تجاه الآخر بألفةٍ ومودّةٍ حقيقيتين ، ما عرف فراس ، أو جمال مثلهما ، طوال إقامتهما في أوربا !

جال الحديث حول أمورٍ شتّى ، الى أن تطرّق الى المكتبة الظاهريّة المجاورة لهم .. لتاريخها ، ولما حوته من بعض المخطوطات النادرة .. فبادر أبو غزوان الى القول ، في استحياء ..

ــ إن لي خزانة كتبٍ .. لا بأس بها ..

تلفّت الضيفان حولهما ، ولمّا لم يجدا أثراً لكتابٍ .. صمتا ، خوفاً من إحراج صاحب الدار ، لكن هذا نهض ، وقال ..

ـ إنها في غرفة أخرى ، منيعة .. بعيدة عن أيدي المتطفّلين .. وعندي مصحفٌ شريف نادر الخط ، والزينة .. سأطلعكما عليه ، بعد قليل ..

ثم توجّه خارجاً من القاعة .. يتبعه ولده ، حاملاً بعض الأطباق ، مشيراً لأخيه بالإسراع في إجلاء ما بقي من الصحون ..

تنهّد جمال ، وهو يميل الى الوراء .. يمعن النظر فيما كُتب على الجدران من أشعار ، دون قراءتها .. وقال ..

ـ سأذكر هذه الليلة .. طوال حياتي .. ولن أنسى قطّ ما تحمله هذه اللحظة من معنى ، بين هذه الجدران الحميمة .. وهؤلاء الناس الطيّبين !

لعلّ جمالاً كان مأخوذاً بالعنصر المفاجيء لتلك اللحظة المضيافة ، الرائعة السجيّة ، والجمال .. لكن فراساً كان مشدوهاً بها ، يمارس وجداً فريداً مع أبعادها النفسية .. وإذا به يردّ على جمال قائلا ..

ـ .. وأُحسّ باللوعة .. في مثل هذه اللحظة الهانئة .. وخزٌ .. يطرح الشك في أصالتها .. ينبّهني الى أننا لسنا أهنأ حالاً من سمكِ السلمون ، الذي وصل الى منبع المياه الصافية !

ـ وماذا يضيرك ، فيما تقول ؟!.. هبنا كسمك السلمون .. إلا أننا بشر !.. وهناءُ هذه اللحظة ، هناءٌ إنساني .. بعيد المعنى .. عميق الجذور !

ـ أعلمُ .. أعلم !.. ولست أبخس هذه اللحظة مقدار ذرة من أصالتها.. حتى ولو كانت لحظةَ سمك السلمون !.. لكن إنساناً صينياً ، قد يكون الآن ، في إحدى مدن الصين القديمة ، يتناول عشاءه في بيت أصيلٍ ، مضيافٍ .. ويشعر بما نشعر به نحن الآن ، تماماً !.. وآخر ، ألماني .. في ألمانيا ! ألا ترى ، إلامَ أهدف ؟! ألا يؤرّقك تجانس ، وتساوي ، مدى الإحساس الإنساني بمثل هذه اللحظات التي يظنّها حقيقية ، صافية فريدة ؟! بصرف النظر عن اختلاف أرضها ، وظروفها .. وحقيقة ارتباطه بها ؟! إني أرفض

أن أكـون سـمكـة سـلـمونٍ أخـرى ! أرفـض انعـدام الهويّـة والذاتية .. وأرفض هذا التساوي العدميّ في الأجناس والإحساس .. أريد أن يكون لهذه اللحظة معنى فريداً بذاته .. قد يتساوى فيه ، الجنس الواحد ، في البيئة ذاتها .. ولا أريد لهـا أن تتحقّق على أيـدي ، أيّ بيئة .. بصرف النظر عن أصالتها .. وزمانها .. ومكانها !!

ثم أخلد الى الصمت ، وإذا بأبي غـزوان يدخل القاعة عـلى مهـل .. يحمل مصحفاً مفتوحاً ، ويتمتم لفراس ، في اعتذار ..

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله .. لقد كنتُ بالباب .. وما كنتَ قد أتممتَ حديثَكَ ، بعد .. فسمعتُ بعضه .. دون قصد استراق السمع !

تبسم فراس .. وما بارحه تأثّره بما كان يقوله لجمال .. فأجاب ..

ـ لا عليك .. ليس فيما كنا نتكلم عنه .. أموراً خاصة ..

ضحك أبو غزوان .. وقال في لهجة العارف بالأمور ، الواسع الاطلاع ..

ـ بل إن لفيه من الخصوصيّة ما يعود ، بدوره ، ليتخطّى الفـرد .. فيشمل النوع بكامله !.. إن لذاتيّته نكهة إنسانية فريدة !..

تعجّب الضيفان لقولِ الرجل ، وللغته !.. وتمعّنا في تقاطيع وجهه في سـكون ، كأنهما في تعرفهما المفاجىء الى صفاتـه الذهنيّة ، التقيا إنسانـاً جديداً .. ذا صفاتٍ لم يتوقّعا مصادفتها في ذلك المكان !

ناولهما المصحف ، مشيراً الى زينته ، وقال ..

ـ إنه من المصاحف الشريفة ، النادرة الوجود .. من الخط الذي سبق التنوين .. لكن في خزائني كتباً أخرى ، قيّمة ، ثمينة .. مخطوطات قديمـة لمؤلفاتِ ابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد .. وابن عربي ، وغيرهم !

زادت دهشة الضيفين لمـا سمعا .. وكأن الرجل أحسّ بما يجـول في خاطريهما .. فتبسّم لهما في طيبةٍ ظاهرة ، وقال ..

ـ وهل المعرفة والثقافة حكرٌ على البيوت الحديثة ؟!.. أم هل الفكـر يتناقض مع الضيافة ، وحسن المعشر ؟!

ضحكا لمبادرته .. فمضى ، يتابع كلامه ، قائلاً ..

ـ لا أكتم عنكما .. أن استضافة الأغراب ، صارت أمراً غير مألوف في أيامنا هذه !.. لكنني ، بحكم سكني في داري هذه .. بين الجامع الأموي ، والمكتبة الظاهرية ، والحمامات .. فأنا ألتقي، مراراً ، بأناس مولعين بالتراث.. يؤمّون هذه الحارات ، بحثاً عن أمور تتعلّق به .. ولكم صادفتُ في المكتبة الظاهرية طلبة علمٍ ، أجانب .. بعضهم ، من المستشرقين .. يجدّون في البحث عن هذا الأثر ، أو ذاك ، فكنتُ أساعدهم ، وأدعو بعضهم الى داري ..

ثم نظر الى فسحةٍ واسعةٍ فارغةٍ في الجدار .. وقال ، يكتم أسفاً ، بانَ في ابتسامته ، وإقفالهِ جفنيه ..

ـ كنت أضع خزانتي ، ها هنا .. في ذلك المكان .. ولكم أمضيتُ مع أمثال أولئك الضيوف ، لا سيّما المستشرقين منهم ، ساعاتٍ .. ندقّق في هذه الكلمة ، أو تلك !

صمت برهة ، قال بعدها ، في شجن ..

ـ مالي ، ولهذه الحكاية .. قد أقصّها عليكما ، في يوم من الأيام .. أما عن حديثكما الذي تساقط بعضه الى سمعي ، قبل أن أدخل القاعة ، فهل لي بإبداء رأيٍ مختصرٍ فيه ؟!

فتح فراس كفّيه في صمت ، يُبدي إشارة الطلب ، وفي عينيه نظرة التساؤل ، والفضول ..

قال أبو غزوان ، في هدوء ..

ـ لا بد أن في متعةٍ ، أو لذّةٍ ، كل إنسان ، من الذاتيّة والخصوصيّة ما يميّزها عن تلك التي لإنسانٍ آخر .. لكن جملة اللذات ، والإحساسات الجماليّة ، التي لجماعةٍ ما ، في مكانٍ ما ، تتّحد بدورها .. رغم اختلافاتِ جزئياتها .. فتشكّل وحدة جديدة ، في دائرة أكبر .. وحدة ، تتباين مع جملة الإحساسات ، لأية دائرة كبيرة مماثلة .. هي من خواصّ جماعةٍ إنسانيّة أخرى .. وهكذا ، دواليك .. لكلّ قومٍ ما يجمعهم بأبناء

ملّتهم .. ولكل قومٍ ما يفرّقهم عن بقية الأقوام .. وجميع هؤلاء ، أفراداً وجماعاتٍ ، يزاولون العادات واللذات ذاتها .. لكن .. ترى هل تستوي اللذات في كل زمان ومكان ؟! هل تستوي لذّة لقاء الحبيب .. لدى السارق ، والشاعر ؟! وهل تستوي لذة الثأر .. لدى المؤمن ، والكافر ؟! بل هل تستوي لذّة الجماع ، لدى المومس ، والعذراء ؟! لدى العفيف الطاهر .. والفاسق ، الفاجر ؟!

أطرق برهة .. قال بعدها ..

ـ أنا من جهتي .. لا أظن ذلك .. إذ أن لكل إحساسٍ ظرفه ، ومكانه .. وبما أن العالم متباينُ الأبعادِ والظروفِ .. متأرجحُ العاداتِ والتقاليدِ .. متقلّب القيمِ والمفاهيمِ .. فلا بد فيه من مكان ما ، يُمكن للإنسان أن يقف فيه ، ولو نسبيّا ، فيضع ، أو يراقب شعرةَ ميزانٍ وهميّة .. تشير الى ما يمكن للأضداد أن تصل اليه ، إذا ما هي تفاعلت .. وتنبّه الى ما في استطاعة المتناقضات أن تستوي عليه ، إذا ما هي اتّحدت !

هذه النقطة المتوسّطة .. هذه الشعرة الدقيقة لميزانِ العالمِ المتقلّب الأهواء .. بين روحانية آسيا ، وماديّة الغرب .. هي بلاد الشام !.. ولقد كانت كذلك .. منذ الأزل ! وكانت دمشق ، بالذات ، منذ حروب الفرس والإغريق ، النقطة الوسط .. محصّلة الحلول ، بين البذخ المادي والروحي للهندِ وفارس .. وبين التقشف الفكريّ والنفسيّ ، الضنْك ، للإغريق ، ومن عاش الى غربهم ، وشمالهم في أوربا ، من الشعوبِ الهمجيّة التي لم تكن تعرف غير البرد والجوع !!

لذلك ، اعتنقت بلاد الشام الإسلام ، وتمسّكت به .. لأنه الدين الوحيد الذي طبّق التوافق ، وشرّع للتسامح .. وأقول « شرّع » للتسامح .. وليس « أوصى » به ، فقط .. انه دين الحلول الانسانية المتوازنة الحقّة ، لمشاكل الانسان .. دين الحلول السمحة الوسط !.. وأنا أقول ذلك ، حتى على مستوى علم النفس الحديث .. فلا حكماء ، ولا « براهمانات » في

الإسلام ، يجلسون على الأرض ، في حالاتٍ ذهولٍ ، وتأمّلٍ ، الى أن تنمو وتتسلّق على أجسادهم الحشراتُ والنباتات ! ولا رهبان يعذبون أنفسهم، أو يخلدون الى الصمت ، طوال حياتهم ، أو تعاليم تكرّه الانسان بجميع حواسه ! تفسّر له الحياة ، على أنها كفّارة لخطيئة أولى ، عليه متابعة دفع ثمنها ، الى أبد الآبدين !! إن الإسلام يوفّق بين تناقضات الطبيعة الإنسانية ، سعياً وراء تكامل النفس وتوازنها .. ولا يشطر الإنسان الى نصفين ، أحدهما شرّ ، والآخر خير ! أحدهما نور ، والآخر ظلام ! أحدهما نارٌ ، والآخر أثيرٌ ! لا شكّ أن كلّ دينٍ أو عقيدةٍ ، بالنسبة الى البيئة التي يعيش فيها ، إن هو إلا الدين الصحيح ، في المكان الصحيح .. لكن العالم ليس وحدات اجتماعية عقائدية متفكّكة .. لا شيء يربط بعضها ببعض ! بل إنه مدّ وجزر .. شئنا أم أبينا .. بين أقصى الشرق ، في آسيا .. وأقصى الغرب ، في أوربا ! إنه تجاذب أزليّ ، أبديّ .. بين أقصى طرفي المعمورة ! وأيّ مكانٍ أنسب للتوازن الروحي ، والفلسفي ، من بلاد الشام .. التي تقع على محور الدنيا ؟! وأي مدينةٍ من مدن الشام الحيّة ، أقدم من دمشق .. التي تعي هذا التجاذب ، وتعيش محصّلته المتوازنة ؟! انظر الى خارطة الدنيا المأهولة منذ الأزل .. من الصين الى الأندلس .. وضعْ إصبعك على منتصفها ، شرقاً غرباً ، شمالاً جنوباً .. تجد أنك إنما تضعها على بلاد الشام ! وماذا تبقّى للشام من عريقها ، غير دمشق القديمة ؟!

كان فراس وجمال ينصتان إليه كأنه يتكلم بصوتٍ يجسّد ضميريهما ووجدانيهما !.. فنظر الرجل حوله الى زخرف القاعة ، ثم أشار الى مجمل الدار وحديقتها ، وقال ..

ــ إن هذا الطراز من البيوت ، بما فيها من فلسفة البناء ، تنازعته الهند ، وفارس ، في الشرق .. ثم بلاد الإغريق وروما ، في الغرب !.. فأين

تبلـور ، واستقرَّ .. إن لم يكن في دمشق ؟! وأين تجـد له من أثرٍ بـاقٍ حقيقي ، اليـوم .. إن لم يكن في بلاد الشام .. وفي دمشق بالذات ؟!

صمت أبو غزوان ، برهة .. كان ينظر خلالها الى فراس ، ثم قال ..

ـ إن اللحظة التي كنتَ تتكلّم عنها يا بنيّ ، لهي حقيقة واقعة !.. ذات هويّة فريدة ، لا خوف عـلى خصوصيتها من الترادف والتكرار ! ودمشق ، ليست مجرّد موردِ الماءِ الصافي ، لأبنائها فقط .. أبنائها التائهين ، في طـول الأرض وعرضها .. إن لفيها المعادلة الأصليّة لتركيب الماء الصافي .. بذاته !.. بصرف النظر عما يعكّر هذا النبـع ، عبر الأجيال ، من غزاةٍ ، وظلّام !

* * *

لم يجد أي من الضيفين ما يقوله ، ردّاً أو تعقيباً ، عـلى ما سمعاه من صاحب البيت .. ولعل الرجل أدرك ذلك .. فأخلـد الى الصمت ، ثم طلب من ابنـه أن يحضـّر الشاي .. وقام ، في هدوء ، الى خزانة الحائط .. فتحها ، وأخرج منها عوداً فكّ غلافه عنه ، ثم جلس يشدّ أوتاره ، في شرودٍ ، كأنـه مشغول بما سيُقبل عليه ، من عزف ..

لحظات ، صدحت بعدهـا أوتار العـود بتقاسيمَ تمازج فيها حنـوّ النغـم ، مع الطبقة المنخفضة للأوتار العميقة .. فأغـلق فراس جفنيه .. وعاد عشرات السنين الى الوراء ، الى زمـن كان فيه طفلاً .. ما إن يسمع أنغـام عـود أمه ، حتى يهرع إليها ، فيجلس على الأرض أمامهـا ، كي يتسنّى لـه التحديق في أصابعها التي تتحرك على الأوتار كأجنحة الفراش ..

لم تَطَلْ تلـك الأنغـام العطوف حسّه الموسيقي المتطوّر .. علِمه الموسيقي الغربي ، الذي لا ينظر في الموسيقى الى اللحن ، مهما كـان ، بل الى البنـاء المركّب الـراقي الذي يطوّره الموسيقيّ ، عبـر اللحـن البسيط ، أو المركّب .. لكن نفسه تدفّقت بإحساس لا تعرف الموسيقى الغربيّة إليـه سـبيلا !

أحسّ بشيء اسمه الطرب ! والطرب ، كلمـة ، لا مرادف لهـا ، في أية

من اللغات الأجنبية الخمس ، التي يعرفها !.. ولم يلقَ ، قط ، إنساناً في أوربا أو غيرها ، تكلّم عن هذا الاحساس .. أو أبدى أنه على علمٍ بوجوده ، في سلّم الإحساسات البشرية ! هذا الإحساس الفريد ، الذي لا يعرفه إلا الإنسان الشرقي .. لطالما تدفّقت به نفسه ، وهو يصغي الى الموسيقى التي وراء ترتيل القرآن .. فيصيبه حنينٌ مأساوي ، صوفي .. يجاور الألم ، في عمق نفاذه في النفس !

عادت به الذكرى الى مرّات عديدةٍ حاول شرح تلك الناحية لأساتذته في باريس ، وكان يقع في كل مرة في نفس العقدة الألسنيّة التي لا خلاص منها ، « كيف يعبّر الإنسان عن إحساسٍ ، في لغة ، لا مرادف لغويٌ دقيق لديها ، لذلك الإحساس ؟! »

نظر الى جمال .. وكان أبو غزوان قد كفّ عن العزف ، فقال ..

ــ هل حاولت مرة أن تجد مرادفاً لاتينيّاً .. لكلمةِ « طرب » ؟!

أطرق جمال برهة .. ثم أجاب في حيرة ..

ــ إن جميع المرادفات الفرنسية ، أو الإنكليزية ، تتراوح بين معانٍ ، مثل ، نشوة ، سرور ، لذّة ، غبطة ، وفرح ! أليس هذا أمراً عجيباً ؟! إن هذه الفكرة لم تخطر على بال ، من قبل ! وما أظن أنها خطرت على بال أحد !!

ــ أليس عجيباً أن يفتقر إحساس الإنسان الغربي الى هامشٍ كاملٍ من الشعور ؟! ولا يتساءل أحد ، في الغرب ، عن سبب هذا النقص ؟! ولا عن نتائجه ؟!

ضحك جمال ، وردّ على الفور ..

ــ إنك تتطرّق الى موضوع خطير .. خطير جداً !! على أيّة حال ، إني أرى على الفور إحدى نتائجه الإيجابية على الاقتصاد الأوربي ! فليس في أوربا من يُصغي الى أم كلثوم !.. ولا من يقضي الساعات في طربٍ لا طائل من ورائه ، في نظرهم ! لعله تصلّب في جانبٍ معيّنٍ من جوانب الشعور .. لكنه تصلّبٌ أفادهم ، ولا شكّ .. على المستوى العمليّ ، في الحياة !!

ـ تعني .. المستوى المادي .. الاستهلاكي ، البحت !

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل .. فنهض الضيفان يشكران صاحب الدار ، في مودةٍ صادقةٍ ، ما كانت بحاجة للإكثار من عبارات اللياقة .. وكان الرجل يعيد عوده الى خزانة الحائط .. فتبادر لفراس أن يسأل ، دونما قصدٍ معيّن ..

ـ ألن تروي لنا قصّة الخزانة التي نقلتها الى داخل الدار ؟!

هزّ أبو غزوان رأسه ، يختصر اللوعة والأسف .. وقال ..

ـ ماذا أقول لكما ؟! إنها رواية طويلة ، يحتاج سردها الى سهرة طويلة ! مجمل القول ، هو أن أحدهم دخل داري ، بصفته مستشرقاً إيطالياً .. وأبدى من الإعجاب والدهشة لما عندي من مخطوطات ، كُتبت بخطّ مؤلفيها، ما جعلني أترك بين يديه ، لدراستها ، مخطوطين نادرين .. ذهب بهما الى فندقه ، على أن يعيدهما لي ، في اليوم التالي .. لكنه ، في اليوم التالي ، لم يعد إليّ .. بل عاد الى بلاده ، حاملا المخطوطين معه !

ونظر الى مكان الخزانة الفارغ ، يسترجع الماضي .. ثم قال ..

ـ لكن هذه قصّة قديمة .. جرت لي بعد الحرب مباشرة .. ولم تكن هي السبب الذي حدا بي لرفع الخزانة من مكانها .. إن سبب إخفاء كُتبي ، كان ما حدث لي يوم زارني رجل دبلوماسيّ معروف .. بصحبة مرافق له .. يحمل حقيبة في يده .. وكنتُ قد تركتهما هنا ، وحيدين ، برهةً تحضيرِ لوازم الضيافة ! فلما غادرا الدار ، إثر انتهاء الزيارة ، عدت الى إغلاق الخزانة التي كنّا نطالع بعض كتبها ، فلم أجد فيها مصحفاً نادراً كنتُ أعتزّ بحيازته ، أيّما اعتزاز ! أكاد أقسم اليوم ، أني انتبهت ، آنذاك .. الى أن حقيبة المرافق، كانت قد انتفخت بقدرِ حجمِ المصحف الكبير ، وهو يغادر الدار !! لكني لم أفطن الى ما يمكن أن يضعه فيها ! وما كان لي أن أحلم أن رجلاً ، على مثل مكانته ، قادر على السرقة !

قال فراس ، وهو يغادر دار مضيفه ..

ــ عندي بعض أبيات الشعر ، لا أعرف صاحبها .. بل إني لم أوفّق الى فهم معناها حتى الآن .. هل تسمح لي بزيارتك غداً .. برهة قصيرة ، أُطلعك على تلك الأبيات ؟!

ــ إن بيتي مفتوح على الدوام ، لأمثالكما من الدمشقيين .. تفضّل ، متى شئت ..

وفي الطريق ، وهما في سبيلهما ، كل إلى بيته ، قال جمال ..

ــ هل تدري أنك ستسبّب لي أرقاً هذه الليلة ؟ مبعثه ، ما ذكرتَه عن الطرب .. وانعدام هذا المفهوم ، في أوربا ؟!

ضحك منه فراس ، وقال ..

ــ هوّن عليك ! إن هذا بحث يطول .. فنحن أيضا لا نملك المرادف الذي يعبّر بدقّة عن إحساس الـ « Melancholie » * تلك الكآبة الناعمة .. التي اختصّت بالعصر الرومانسي ! وإذا وُجِد المرادف لها ، في أحد المعاجم القديمة ، فلقد غاب عندنا عن لغة ، وإحساسِ الناس ، اليوم ! رغم أنه شعور ، واضح المعالم ، ليس في الغرب من لا يفهمه .. أو من لا يعرفه!

ــ كيف يمكن هذا ؟! وبوتقة الإحساس واحدة ، لدى الجنس البشري! أم هل هي حقاً كذلك ؟!

ــ لقد بدأتَ أشكّ في أنها واحدة ، لدى الجميع ؟!

فتح جمال عينيه ، دهشة .. وقال ..

ــ لقد بدأتَ تبالغ في التصنيف ، والتعريف ! إن مثل هذا النوع من التفكير ، ليس إلا على بعد خطوتين ، من التفكير العرقي !

ــ لا .. لا ! فأنا لم أقل ، إن هذه الصفات تنتقل هنا ، أو في الغرب ،

---

* ان أقرب ما يمكن تفسير هذا الاحساس به ، هو الحزن العاطفي أو الكآبة الدافئة .. الخ ، من المعاني الرومانسية .

بالوراثة .. إنها مسألة ثقافة، وبيئة اجتماعية، وحسب! إن أيّ طفـل عربيّ يعيش ويترعرع في الغرب، سيفقد بالضرورة كلّ إحساسٍ لما نسميّه بالطرب! وسيُدرك مرض العصر، الغربي.. الذي بدأ منذ أيامِ رومانسيةِ «شيلّلي» و«كيتس» .. و«ريكله»! واكتمل بأمراض العصر الحديث! إن بوتقـة الإحساس هذه، التي كنتَ تتكلم عنها، قـد تكون واحدة، عـلى السلم الفيزيولوجي، للعوامل المسبّبة للشعور .. لكن ثقافـات الشعوب، لديهـا مدرّجات متباينة في هذا الصدد ..

ــ .. متباينة؟ كيف؟

ــ الأمر بسيط .. إنـك تستعمل ساعـة تعيّن لك الساعات والدقائق والثواني .. لذلك ليس لديك أي إحساس واضح عـن جزيئات الثانيـة!.. أليس ممكناً أن توجد أقـوام تقيس إحساساتها بالدقائق .. وأخرى، تقيسها بأجزاء الثواني؟! كذلك، ان النهـار واحد، لـدى الجميع .. ونحن نقيس الساعة، على أنها جزء من اثني عشر جزءاً .. بين شـروق الشمس وغروبها .. فلنفترض أن هنالك قوماً يقسمون النهار الى ستة عشر جزءاً، أفـلا يختلف حينئذٍ الشعور بمرور الوقت .. بين هذا النظام وذاك؟! أفـلا يكون مفهوم الساعة الكاملة من النظام الواحد، أكبر، أو أصغر مدى، من نفس مفهـوم الساعة، في النظام الثاني؟!

ــ اسمع!.. لقد أتعبني هذا الحديث .. بما فيه الكفاية! دعـه لوقت آخر .. ماذا عن ليلة رأس السنة .. أم هل نسيت؟! إنـي أنتظرك بعـد غـد في داري!

ــ لماذا تقيم الحفل، في بيتك؟

ــ .. لا عليك .. قد نخرج الى عـدد من أماكن اللهـو العامة .. بعـد العشاء .. تعال قبل العاشرة .. تتناول العشاء، في داري، مع بعض الأصدقاء، ثم نخرج الى ما يسلّينا ..

صمتَ جمال برهـة، قـال بعدها مشـيراً الى حديثهما السابق .. في إصرار يائس ..

ــ إنها مشكلة «سيمانتيكية» عويصة .. أليس كذلك؟!

ضحك فراس طويلا لعودة صديقه الى ما يؤرقه .. وقال ..

ــ تماما .. إن الموضوع هو كما تقول ، إذا تناولناه من جانبه البسيط ، ولندع جانبه المعقد ، الى حديث آخر ..

ــ هل لي بسؤالٍ آخر ، بسيط ؟ ما تقول في قضية لغتنا ، الفصحى منها .. والعامية ؟! لقد عالجتَ هذا الموضوع مرة ، ولا شك عندي أن الأمة العربية قاطبة ، تتّجه نحو الفصحى ، في خطى حثيثة .. ألا تحبّذ ذلك ؟!

ــ وكيف لا حبذ ذلك .. والفصحى، في نظري، هي محصّلة حضارتنا .. شأنها ، شأن قصر الحمراء في غرناطة ؟! إذا تعثّر الفكر العامي ، اليوم ، في استعمال الفصحى ، فذلك شأن الإنسان الأميّ البسيط .. وحالُه ، كحالِه إذا ما تجوّل في أرجاء قصر الحمراء ، وقصّر عن فهم فنّه .. وغابت عنه ، روعة أسلوب بنائه !! إن كل ما تشكو منه أمتنا العربية اليوم ، يرجع سببه الى تلك العاميّة في أسلوب المعالجة ، والتفكير ! إن شعباً يتكلّم العامية، لا بدّ أن يكون فكره على مستوى لغته !! إن موسيقانا اليوم عاميّة ، وفنّنا عامي ، وجَدلُنا عاميّ ، وآمالنا عاميّة ! بل إن حروبنا عامية ، وأساليب ثأرنا مرتجلة ، عاميّة ، كذلك !

ــ وكيف تتوافق الحداثة ، والفصحى ؟ وجذور الفصحى ترجع الى آلاف السنين ؟!

ضحك فراس ، في سخرية ظاهرة .. وقال ..

ــ وهل تتوافق الحداثة مع العامية ؟.. عجباً !! واستمع جيداً لما سأقول !.. كيف لم يقل مثل هذا القول ، أعداؤنا من الصهاينة ، ولغتهم على مثل قِدَم لغتنا الفصحى ، إن لم تكن أقدم ؟!.. هل من يُنكر على الصهيونية حداثتها .. وتقدمها العلميّ ؟!.. أفلم يدُرْ في خاطرك يوماً أن هؤلاء أقوام ، تركوا لغاتهم الأوربية الحديثة ، طائعين .. وعادوا الى العِبْريّة الجامدة .. التي لا تُقارن ، بغنى اللغة العرَبيّة ومرونتها ؟! وأن ذلك لم يقف حجر عثرة في وجه حداثتهم ، وتطورهم ؟! ما لكَ يا جمال ؟!

أعداؤنا يتمسّكون بلغـة أجدادهم .. العبريّة .. التي لم تحتكّ بالعلـوم والفكر ، منذ آلاف السنين ! يلتفّون حولها كحجرِ الكعبة !.. لا يجـدون أنها تقف حاجزاً بينهم وبين التقدم ! ونحن نجرّح لغتنا .. كمـن ينتقص من شأن قصرِ الحمراء ، لمجـرّد أننا لم نصله بالتيار الكهربائي !! ولم نعـدّه بنظام تدفئة مركزية ؟! لا يا جمال !! إن الذين يرفضون الفصحى اليوم ، إنما يفعلون ذلك لأنهم يسعون الى انتماءات محلّية ، غير عربيّة ! وأهدافهم هذه، باتت لا تخفى على أحد !! ولن تجد من يؤازرهم ، إلا إذا كان على عقيدتهم ، وانتمائهم !! لقد شدّنا الإسلام الى القرآن .. وشدّنا القرآن الى لغتنـا .. وسوف تشدّنا لغتنا الرائعة ، إن عاجلاً أو آجلاً ، الى ما نبتغيه !

* * *

الفصل الرابع

مرة أخرى ، راح فراس يعيد قراءة ما نسخه ، من أبياتِ الشعر التي وجدها على جدرانِ قاعة البيت الدمشقي الذي صمّم على شرائه .. لعلّ معناها يستقيم في ذهنه ..

تهافتَ فيها طامعٌ بعد طامعٍ
وقد ران في عين المحبّ اختيارها

فهل أنت يا مغبونُ مستيقظٌ فقد
تبيّن مَنْ سَرّ الخطوبِ وقارها

توافتْ وُلاة الملكِ وانشتّ شملها
وعاد إلى ذي مُلكةٍ إستعارها

ومَظْلمَةٍ ، قد نالها متسلّطٌ
مُشدٍ لهُ بأيْدٍ عند ذي المُلك ثارها

يقرؤها وكلّما وجّه الكلمات ، في ذهنه ، الى معنى معيّن ، تماسك في في شطرٍ ، وتداعى في الشطر الآخر !

تساءل عمن يستطيع مساعدته ، بين أصدقائه ، للتعرّف الى صاحب تلك الأبيات ، علّه يفهم القصد منها .. وما هدفه ، إلا الإحاطة بجميع ما يخصّ داراً أزمع شراءها ..

لم يجد في النهاية من سبيلٍ سوى العودة لزيارة أبي غزوان ، الذي

يقطن قرب المكتبة الظاهرية .. إما أن يتعرّف إليها ، أو يتركها بين يديه ، علّ الرجل يهتدي الى من يعرف اسم الشاعر ..

جال في خاطره .. أثناء ذلك .. بُعْد العالم الذي يعيش فيه اليـوم .. عن ذاك الذي يعيشه في روما ! أي سحرٍ ينقل الإنسان ، من عالم الى عالم ، بمجرد أن يعبر المسافات ؟!

تناول سماعة الهاتف ، وأدار القرص على الرقم الآلي لمسكنه في روما .. متبسّما ، في سره ، لما سيكون لصوته من أثر مفاجيء عـلى « مارتشيللو » !

أعاد طلب الـرقم ، مرّات ، حتى سـمع الرنين المألوف .. لحظـات وإذا بأحدهم يرفع السماعة على الطرف الآخـر ، في داره ، وبصوتٍ نسائيّ يجيب ، في لغـة إيطالية ذات لكنة إنكليزية ..

— .. PRONTO .. « برونتـو » .. من يتكلم ؟

أعـاد السماعة الى مكانها .. يقطع المكالمة على صوت « ليـزا » التي لا بدّ كانت في فراشه ، تردّ عليه عبر جهاز الهاتف الوحيد ، في غرفة نومه !!

ترى من كان شريكها ، في السرير ؟! « شـارل غوستاف » ؟ ولمـاذا سريره ، هو ؟!.. أم تراه ، « مارتشيللو » ؟!

أطـرق برهة ، وقد طـار خياله الى سكنه في روما ، الى الغاب المحيط به .. الى قاعـة داره الشاهقة الارتفـاع .. ذات الأستار الخمرية اللـون ، والتمثال الرخـامي ، الأبيض .. وأحسّ بوخـزِ حنـينٍ الى عـالمٍ أمسى كأنه بدأ يحتضر ، في عاطفته !

أدار قرص الهاتف ، من جديد ، يطلب روما ، ودار «شارل غوستاف».. لحظات ، وإذا صوتُ صديقه يردّ عليه ، في كسلٍ ..

— مَن .. « مكسيم » ؟.. لا ، لم توقظني من النوم .. أنا لـم أهجـع بعـد !

— وأين أمضيتَ الليـل ؟.. هـل مـع « ليـزا » ؟

— وهل أطلعَتْك ، هي ، على ذلك ؟.. لا .. لا أظـن .. على أية حال ،

كنّا في دارك الليلة الفائتة .. للسهرِ فقط .. مع شلّة من أصدقاءِ « ليـزا » لكن المسكينة بالغـت في تعـاطي « وسائل الانشراح » ، فاضطرت للنـوم ، عنـدك !

ردّ فراس ، بعد برهة صمت .. يقول .. جاهداً في إخفاء امتعاضه ..

ـ أصدقاء ليزا ؟!.. عندي ؟!.. ألا ترى أن في ذلـك مدعاة للصداع ؟! هل غاب عن بالك صديقنا ؟

فهم شارل إشـارة فراس ، لاهتمامات عثمان .. فقال ..

ـ إن « ليـزا » تهتـمّ بأمورٍ كثـيرةٍ ، لا أفهمها .. آخرها ، قضيـّة صديقنـا !

ضحـك ، ثـم أردف ..

ـ لقد انقلبت الأمور .. بعض الشيء .. منذ سفرك .. وأصبحتُ أنا ، من يتتبّع اهتماماتها !!

ـ أنت ؟.. وعن طريق مَن ؟.. وأنت لا تعرف أحداً في وسطها ؟

ـ عن طريق أصدقائي .. الذين تبدي « ليزا » اهتماماً زائداً للتعرّف إليهم .. وتسعى حثيثاً لزيارتهم ، جميعاً ، في بيوتهم !!

ـ وهل بان لك من سعيها أمر جديد ؟

ـ لقد أطلعتني « بالوما » قبل سفرها ، على ان « ليزا » تـودّ لقاءها ، خـارج روما .. وهي في طـريق عودتهـا من القاهـرة .. في صقليـّة ، أو « نابولي » .. إذا أمـكن .. وعرضت عليها شراء ما كلّفها باحضاره « الدوقا داوستي » من كتبٍ ، ومخطوطاتٍ .. كانـت السفـارة في القاهـرة قـد هيأتهـا لـه ..

سـأل فراس ، في دهشة زائـدة ..

ـ وهل وافقت « بالومـا » على ذلـك ؟!

ـ وكيف توافق ؟.. وتلك الكتب أمانة لديها .. لا مـلكها !.. على أيـّة حال ، يظهر أن عرض « ليزا » كان على درجة كبيرة من الإغراء الماديّ !

أحسّ فراس أن الحلقة بدأت في الانغلاق حول « ليـزا » .. لا سيّما بعد الذي رآه « مارتشيللو » منها ، في داره هو .. يوم زارته مع « شـارل غوستاف » ونسخت ما نسخته ، من أسـماء الكتب التي كانت في صنـدوق « يان فراتيشيك » ! ترى .. هل كانت وراء ذلك الهدف ، منـذ البداية ؟!.. وهل كان لقاؤهـا بـه ، مدبّراً .. للوصول الـى « شـارل غوستاف » ، وأصدقائه ، ممّن يهتمون بالمخطوطات ؟!.. في حين ظنّ ، أنها إنما تسعى الى عثمان .. واهتماماته ؟!.. لئن صحّ ذلك .. فلقد وصلت « ليزا » الى جميـع من تسعى للتعرّف بهم .. ما عدا « الدوقا داوستي » !.. ومن يدري .. لعلّها في طريقها الى الكاردينال « باتفيـلي » ، ذاتـه !!

جـاءه صوت « شارل غوستاف » ، عـلى الهـاتف ..

ــ « مكسيم » .. أما تزال على الخط ؟ « مكسيم » ! « برونتـو » !

ــ « شارل » .. ما زلتُ على الخط .. أسمع ..

جـال في ذهنـه خاطـر ، فقال فجـأة ..

ــ « شارل » هلاّ أتيتَني بعنوان « بالوما » .. في القاهرة ؟ يجـب أن أصـل إليهـا ، قبل « ليـزا » !

ولمّا دوّن عنوان الفندق الذي تنزل فيـه ، قـال فراس ..

ــ « شارل » .. أرجوك .. جُهدك ألا تصل « ليـزا » ، الى « الدوقا داوسـتي » .. وسأُطلعك على الأسباب ، لدى عودتي ..

ــ ومتى تعـود ؟.. إن عملية صديقنا .. قاربت نهايتها !.. وما أخـاله إلا على وشـكِ مباشرة عمليةٍ أخرى ..

ــ إني أدرس قضية شراء بيتٍ جديد ، في دمشق ، ما إن تتـمّ خطواتها الأولى ، حتى آتيك .. بأسـرع وقت ..

* * *

أعاده حديث« شارل غوستاف » الى ما تركه في روما من قضيّة الكتب ،

والفهرس المسروق .. قضيّة ، كان ينظـر إليها من الخارج ، يُدرك أهميتها البالغة ، لكنه يراها عن بعـد ، يراقب أولئك الذين لهـم علاقة بها .. كمـن لا يحقّ له التدخّل بما يجري أمامه ، من مشاهد مثيرة !

لعله كان يشعر ، وهو في روما .. وعبر شخصية « دون ماكسيميليانو » ، التي فُرضت عليه بهدفِ تسهيلِ عمله مع عثمان ، أنه لا يحق له التدخّل في غير اهتمامات عثمان ، وإلا عرّض نجاح أهدافهما للخطر !.. ثـم ، إن هويّة « دون ماكسيميليانو » تلك ، كانت مُلكَ عثمان .. فهل يحق له استغلالهـا في قضيّة أخرى ، دون الرجوع الى صديقه ؟.. لكنه الآن ، بات في دمشق ، وهو اليوم ، فراس ، يسمع أن هنالك فتاة إسبانية ، في القاهرة ، وقـد أوكلت إليها مهمة نقل كتب ثمينة ، ستُخرّج من مصر عن طريق غير شرعي ! ولعلّها سُرقت من أصحابها !.. ثم أن هنالك فتاة أخرى ، تعمل في سفارة إسرائيلية ، تبذل الغـالي والرخيص للوصول الى تلك الكتب ، قبل أن تغيب في غياهب كهوف « الفاتيكان » فتدفن ، هناك !.. ولمـاذا تسعى « ليـزا » وراء كتبٍ عربية ؟.. وهي الصهيونية التبعيّة ، إذا لم يكن هدفها أشد فتكاً من هـدف « الكاردينال » !.. أضف الى ذلـك ، ما رواه له الرجـل الـذي استضافه بالأمس ، فاستعرض في ذهنه ما سُرق من خزانة أبي غزوان ، وما هو في طريقه الى السرقة ، عبر تلك الحلقة المسعورة التي فطنت الى ما هو أشدّ فتكاً مـن قتل البشر !.. فراحت تقتل التاريخ ذاته ، عبر سلسلة متواصلة من استنزاف دمـه .. ولا ينتبه ، أو يكترث أحدٌ لما يقومون بـه !

تذكّر الماضي البعيد ، أيام كان في إسبانيا ، وهو في طريقه الى الفرقـة الأجنبية ، في الجـزائر .. وكيف دخـل مكتبة « الأسكوريال »* .. يـودّ استطلاع ما فيهـا من كتب عربيّة .. تذكّر كيف أن جميع ما كان في تلـك المكتبة من مخطوطات ، كان مفتوحاً أمـام جميع الزائرين ، ما عـدا قسمهـا

---

* دير شهير قرب طليطلة في اسبانيا .. ورد ذكره في روايـة « مسـافـر بلا حقائب » للمؤلف .

العربي .. وقف من دونه حاجز" خشبي ، وراهب" ، يطلب ما يدلي بجنسية الزائر ، فإذا ما رأى أن الزائر من أصلٍ عربي ، تحايل على منعه من الدخول ، في أدب وتهذيب ، أو ، أدخله الى قسم منها ، ومنع عنه القسم الأكبر !

ظن ، وهو في دمشق ، أنه صار بعيداً عن أنباء تلك العصابة .. وإذا بخططها تصله الى عقر داره !

نهض عجلان ، يرتدي ملابسه ، وليس في ذهنه سوى زيارة أبي غزوان ، في داره ، للاطلاع منه على المزيد من أخبار ذلك السارق الإيطالي .. وللاستدلال على الهويّة الكاملة للدبلوماسي الذي اصطحب مرافقاً معه لسرقة المصحف الشريف !

* * *

تلقّاه غزوان ، بالبشاشة والترحاب ، وتقدّمه الى قاعة الجلوس ، يرجوه الانتظار فيها ، ريثما ينبىء أباه بوصوله .. فجلس فراس ينظر الى الزاوية التي يحلو لصاحب الدار الجلوس إليها .. ليتسنى له ، وهو في ركن تلك القاعة ، مشاهدة جميع ما فيها ، خصوصاً جدارها الطويل ، ذا النوافذ الثماني ، التي تطلّ على الحديقة .. بما فيها من بركة ماء .. ونباتات ، وأشجار ..

أقبل الرجل يحمل بين يديه مخطوطاً آخر ، من تلك التي يعتز بحيازتها .. وقال لفراس بعد الترحيب به ..

ــ لقد عثرتُ على خبرٍ في هذا المخطوط ، يختصّ بأسرتك ..

فما إن جلسا كل في مكانه ، وأقبل الشاب بالشاي ، وبابتسامته الودود ، حتى تابع أبوه قوله ..

ــ .. إن الخبر يقول إن تيمورلنك ، حين حاصر دمشق ، وأتاه وفد" من سكانها ، يطلب الرفق ، والمُصالحة .. طلب من ذلك الوفد حضور أشراف المدينة ، حاملين إليه مفتاحها .. فيصفح عنهم ، وعن مدينتهم ! .. فقبِل كبار

الأشراف ذلك الشرط ، ما عـدا أحدهم ، وكان من أجدادك .. وهـذا اسمه أمامي .. رفض ذلّ تسليم تيمورلنك مفتاح المدينة ، ولو كان في ذلك موته !

ضحـك فراس ، وقـال ..

ــ .. ودخل تيمور المدينة ، وقتله مع غيره من السكان !.. ثم هدم بيته !

ــ لا .. عـلى العكس من ذلك !.. يقـول الخبر أن تيمور .. دخـل المدينـة ، واستباح أهلها .. وأملاكهم ، كما هو معروف .. لكنه أبقى عـلى جـدّك ، ذاك ، وعلى بيتـه .. الى أن توفّاه الله .. وبـاع أولاده البيتَ ، لآل أرسـلان !

فتـح فراس عينيه دهشة .. وعلت ضربات قلبـه لما سمع !.. فانتبـه الرجـل الى ما ناب ضيفه ، من شحوبٍ .. سأله ، والقلق بادٍ على وجهه .. ماذا بوسعه القيام بـه ، لراحته ..

تنهّد فـراس ، وقـال ..

ــ لا .. لا .. إنهـا المفاجأة .. لا أكثر ..

ثم تمالك نفسه وعاد الى السؤال ..

ــ أرجوك .. أخبرني .. هل تعرف موقع دار أرسلان هذه .. هـل هي الدار الملقّبة بـدار أبي شفيق ؟

تعجّب أبو غـزوان .. وقـال ..

ــ أحسنت يا ولـدي !.. ما كنتُ أتوقع منـك ، وأنت المسافر على الدوام ، أن تعرف تاريخ الدور الدمشقية القـديمة !.. إن أبا شفيق اشتراها من أحفـاد آل أرسلان ، بعد أن اختاروا النزوح عـن دمشق ، وحلب ، الى جبال لبنان .. لكن .. لماذا اعتراك هذا التغير عند سماعك الخبر ؟

قال فراس ، متغلّباً على أثـر المفاجـأة ..

ــ كنتُ .. أشكّ في هذا الأمر .. والآن .. سأذهب لزيارة تلك الدار ، لعـلّ في نيّة أصحابها الحاليين بيعهـا !

ثم مدّ يده الى جيبه ، يُخرج ورقة صغيرة ، وقـال ..

ـ سألتك في المرة الماضية ، عن صاحبِ أبيات شعرٍ .. ضاع اسمه عني .. فهلاّ ساعدتني في معرفته ؟

وقرأ الأبيات في صوتٍ جهور .. ثم نهض ، وناول الرجل الورقة التي قرأها بدوره ، في لهجةٍ متسائلةٍ ، يجاهد في ربط ما غاب عنه من معناها .. فقال ..

ـ « تهافت فيها طامعٌ بعد طامعٍ » ؟! لا بد أن الشاعر يقصد الدنيا بهذا الشطر .. أما عن الشطر الثاني .. « وقد ران في عين المحبّ اختيارها » .. فهذا ما لا أستطيع إسقاطه على الدنيا ؟!.. ثم عاد لقراءة الأبيات من جديد ..

تهافت فيها طامعٌ بعد طامعٍ
وقد ران في عين المحبّ اختيارها

فهل أنت يا مغبون مستيقظ فقد
تبيّن مَنْ سرُّ الخطوب وقارها

توافت وُلاة الملك وانْشتّ شملُها
وعاد الى ذي مُلكَةٍ استعارها

ومَظْلمةٍ قد نالها مُتسلّطٌ
مُدِلٌّ بأيدٍ عند ذي الملك ثارها

ثم أخلد الى الصمت ، يفرك جبهته بأصابعه .. الى أن قال ..
ـ إن هذه الأبيات تذكّرني بقصيدةٍ مغمورةٍ لابن حزم الأندلسي ، لستُ أقول إنها له .. لست ادري .. دعنا نرى ..

ونهض أبو غزوان ، يستأذن فراساً ، وغاب عن القاعة ، تاركاً ضيفه في صحبة ابنه .. وكان هذا لا ينفكّ ينظر إليه ، في سرورٍ وإعجاب ..
قال غزوان مبتسماً بما يشهد من امتحانٍ لسعَةِ اطلاع أبيه ..
ـ إن والدي يحفظ آلاف الأبيات.. ويتلوها من الذاكرة !.. صدّقني !

ولقد وُضع عند الامتحان، مرة.. مع عدد من حَفَظَةِ الشعر.. فغلبهم.. دون جهد!.. وطفق يلقي الشعر، من الذاكرة، طوال الليل، حتى ساعات البكور!

عاد الرجل يحمل كتيّباً صغيراً.. وقال، مبتهجاً..

ـ أحمد الله أن ذاكرتي ما تزال على ما هي، وإلا لكان أصابني الغمّ! إن ما أقرأتني إيّاه، أُحجية.. وليس أبيات شعر فقط!.. انظر!! إنها أُحجية"، مبنيّة على عددٍ من أبياتِ قصيدةٍ، لابن حزم.. أبيات".. بدّل أحدهم من بعض مفرداتها!.. أبيات اختيرت، لا حسب التسلسل الصحيح لمعناها.. بل بموجبِ قصدٍ مبيّتٍ في ذهنِ من بنى الأُحجية!

وقرأ الرجل في حماسة ظاهرة الأبيات الصحيحة، الآتية.. مشدداً في اللفظ على الكلمات التي بُدّلت فيها..

تهافتَ فيها طامعٌ بعد طامعٍ
وقد بان للشبِّ الذكيِّ اختبارها

فهل أنت يا مغبونُ مستيقظٌ فقد
تبيّن من سرِّ الخطوبِ استتارُها

توافتْ ببطنِ الأرضِ وانشتّ شملُها
وعاد الى ذي مُلْكَةٍ إستعارها

ومَظْلَمةٍ، قد نالها متسلّطٌ
مُدِلٌّ بأيْدٍ عند ذي العرْشِ ثارها

ثم قال..

ـ هذه هي الأبيات الصحيحة.. ولا أقول أن تسلسلها في القصيدة الأصلية يوافق هذا التسلسل..

أخذ فراس كتاب طوق الحمامة ، لابن حـزم ، الذي فيه تلك الأبيات ، وراح يقارن بين الأبيات ، في الكتاب ، وبين ما معه من نصّ ..

فإذا به يكتشف ، على الفـور ، أن بعض الكلمات تختلف عـن الأصل في شطرٍ واحدٍ ، من كل بيت شعر ..

قرأ في البيت الأول الكلمات التي حُوِّرت ، فإذا هي ، في الشطر الثاني :

« وقد بان للبِّ الذكي »

ثم انتقل الى البيت الثاني ، فرأى أن الكلمة الأخـيرة الصحيحة هي ..

« استِتارهـا »

والشطر الأول ، من البيت الثالث .. تبدّلت فيه كلمتا ..

« ببطـن الأرض » ..

ثم البيت الأخير ، في شطره الثاني .. تبدّلت كلمات ..

« عنـد ذي العـرش »

ما إن جمـع العبارات التي كان صاحب الأحجيـة قد بدّلهـا ، حتـى راح قلبـه يضرب بشدة ، من جديد .. ثم سمع مضيفه يقـول ، وقد وصل الى النتيجة نفسها ..

ـ إن صاحب الأحجية ، يريـد لقارئها الوصول الى أشيـاء مخفيّة في مكان ما ، بل يقـول له « وقـد بـان للبّ الذكيّ » .. « استتارهـا » .. « ببطـن الأرض » .. « عنـد العرش » فـأيّ عرشٍ ، تراه يقصد ؟!

* * *

لم يسع فراس ، أمام تلك المفاجأة ، إلا اختصار زيارته .. متناسياً ما قدم من أجـله ! أرجـأ الحديث عن المخطوطات المسروقة ، الى زيـارة أخرى ، وأسرع خارجاً من بيت أبي غزوان .. يكتم انفعاله لاكتشاف سرّ كنزين ثمينين !

كان الوقت مساء ، من ليلـة رأس السنة ، فحـار بـين الرجـوع الى داره ، للتهيؤ لدعوة صديقه ، جمـال .. وبـين زيارة أم ربيـع في البيـت

الدمشقي ، الذي بـات لا يكتفي باعتباره داره للمستقبل ، بـل أصبحت ، منـذ اللحظة التي روى الرجـل أمامه ما روى ، دار أسلافه ، كذلك !

لم يشـأ العودة الى داره دون المـرور ، ولو لبرهـة وجيـزة ، عـلى أم ربيـع .. يستطلع ما إذا كانت أمـور الدار ما تزال على حالها .. فمـرّ بدكـان الرجل الذي في حيازتـه مفتـاح الدار .. ولما لم يجـده ، عـرّج على البيت ذاتـه ، يبحث عن مدخـل بـرج أم ربيـع ، المنفصل عن مدخـل الـدار ..

فاجـأه مظهر البرج الخارجي المتآكل .. فسار حوله ، يستطلع نـوراً بـان من داخـله ، وإذ بـه أمام بابٍ جانبي ، كأنـه المدخل لبقيّة أجـزاء الدار اقتُطع منها البرج ، وكتب عليها « حمّام » ! فلما شـرع بالدخـول ، ينـوي سؤال أحدهم عن صاحبة البرج ، سمع صـراخاً حاداً .. وزعيقـاً ، نسائيين .. ينبعثان من داخل الحمّام ، فعاد أدراجه .. على الفـور ، مُرجئاً زيارة أم ربيع ، الى الغـد !

سمع صوتاً نسائيّاً يناديه ، ومـا كان قـد ابتعد خطواتٍ عن مدخـل الحمّام ..

ــ صلّي عـلى رسول الله .. يا ابـن الحلال ! ماذا جئتَ تفعـل هنا ؟ أتـود هتكَ ستري .. وستِر حريم الحيّ ؟!

تلفّت حوله ، يبحث عن صاحبة الصوت ، وقد أدرك أنها أم ربيـع .. فسمعها من جديد ، تقول ..

ــ إني خلف هذه النافذة .. اقتـرب مني ، هنـا ، قـرب الخصّ .. وتشاغل بالنظر الى الطرف الآخر !.. ماذا تريد ؟

اقتربَ فـراس من النافـذة ، وقد سحرته المفاجأة .. وأعادته قرونـا الى الوراء ..

قال ، بصوتٍ خفيض ..

ــ جئتُ أخبركِ بأني سأزوركِ الليلة .. وإن لديّ مفاجأة لكِ !

سمع ضحكة صبيانية ، طروباً .. ثم صوتها يقول ..

ـ حسن ، يا ابن آل البيت ! مفاجأة .. بمفاجأة !! والآن عجّل بالمضيّ عنّا .. قبل أن يداهمك زوج واحدةٍ من هؤلاء الصبايا ، هنا !

وعاد صوتها الى الضحك .. ثم غابت عنه قهقهتها ، وهو يبتعد عن الحمام ، سعيداً .. يتّجه نحو بيته .. يتهيأ لقضاء سهرةٍ ممتعة ، في دار صديقه ، ثم في ضيافة أم ربيع ، في دار أجداده !

* * *

دخل بيت جمال ساهماً .. ذهنه مليء بأحداث اليوم المبهجة السعيدة .. لن يذكر ما اكتشفه من أمر تاريخ بيت أسلافه ، لإنسان .. فلا أحد يكترث لمثل تلك الأمور ، إلاّ هو .. ولن يرى ، حتى جمال ، في مثل ذاك الخبر ، إلا محاولة منه ، لا نتحال ما لغيره .. وإشارةً ، في غير محلّها ، للمفاخرة بعراقةِ نسبه !

وقف في بيت جمال ، يسترجع في ذهنه تفاصيل مقابلة أم ربيع .. وسماع صوتها من وراء قضبان نافذة الحمّام الحديدية السوداء .. لخلف الخص والأستار الشّافّة ، وكأنه يستعرض تفاصيل لوحةٍ فنيّةٍ قديمة ! فلقد كان يقرأ عن لقاءات مماثلةٍ في كتب أقاصيصِ الحياة ، في بغداد ، ودمشق .. أثناء الخلافة .. أو في حكايات الناس ، في قرطبة .. وما كان يحلم أنه سيعيش مثلها ، يوماً ! ولا يُضير جمالَ الصورةِ ، أو الحَدَثِ ، في نفسه ، أفول شمس صبا أمّ ربيع .. بل ، على العكس .. فليس مثلها قادرة على المبادرات الجريئة .. ولا ، عبر غيرها ، يتناقل التاريخ عاداتٍ ، ولفتات اجتماعية ، قد يرجع تاريخها الى قرون بعيدة !

كان قد تبادل التحيّة .. الحار منها ، والفاتر ، مع معظم المدعوين .. ينقّل ناظريه بين تقاطيع وجوههم الجامدة ، وابتساماتهم المطبوعة !.. يذكر

طفولة وحداثة معظمهم من شبابٍ ، وفتياتٍ .. ويتساءل ، في وجومٍ وأسى .. هل بدّل الزمان في ملامحه ، وطباعه ، على مثل ما تجبّر ، وعتا ، في تقاطيعهم المترهّلة ، ونفوسهم السقيمة الجافة ! فأحال الأجسام المفتولة ، أكياساً منفوخة بالشحم .. وصيّر الوجوه المُشرقة ، الباسمة ، أطباقاً منفوخة ، تكاد تقطر سماجة ، ودهناً !

وما روّعه ، ممّا تبدّل لدى معارفه القدامى .. قضيّة الشكلِ ، والشيخوخةِ المبكرة .. بل ما سيطر عليهم من سلوكٍ اجتماعيٍّ رتيبٍ سقيم ، واحد ! كأنما الجميع كانوا قد اتفقوا عليه .. فتحرّكوا ، وتكلّموا ، وتبسّموا ، وضحكوا بموجبه .. يتبادلون الآراء ، والنكات ، والابتسامات ذاتها .. يستنكرون الأمور ذاتها .. بالمفردات ذاتها !!.. وكأن عقولهم قد توقّفت عن النمو ، في زمنٍ من أزمان الشباب المبكّر ، الخالي من هموم الفكر .. فراحت تكبر في السن ، وتشيخ .. دون أن تنجح في اكتساب مصدرٍ جديد للغذاءِ والحياة النفسّية ، خارج دائرة حياتهم الراتبة ! عقول صبيانية هرمة .. تتغذّى من أسنمتها .. تحرق ذخيرتها من حيويّة الصبا .. فتشحب ، وتتجعّد ، في تآكل داخليّ .. وكأنما أصابها ذلك البلاء ، الذي يضرب وجه طفلٍ في العاشرة من عمره .. فتجفّ بشرته ، وتتجعّد .. وتتحوّل طفولته الى شيخوخة رجلٍ في الثمانين من العمر !

لم يكن قد رأى جمالاً ، بعد .. كان صديقه مشغولاً بأمور الضيافة .. يقف بين جمهرة من مدعويه .. تحلّقوا في إحدى زوايا قاعة الاستقبال .. ولا كان حتى ذلك اليوم ، قد انتبه الى تصرّفات صديقه الاجتماعية ، وتلك كانت أول مناسبةٍ يلقاه فيها وسط حشدٍ من أناسٍ يستضيفهم في داره ..

لم يصدّق ما رآه منه !

كان جمال ، صورة مذكّرة عن تصرّفات أمّه الاجتماعية .. وقفت الى الجانب الآخر من القاعة ، تتبسّم لضيوفها ، دون أن تراهم .. ترحّب بالجميع

في فتــور ضمن حدود اللياقة المفتعلة .. تهـزّ رأسها لذاك ، من بعيــد .. ولهذه ، من قريب ، وما من إشارةٍ صادقةٍ تبودلت بين جميــع من في الدار .. أو من ملاحظةٍ حميمةٍ ، بين من جلسوا يتهامسون .. ومعظمهم ، فُرضـت عليهم مجالسهم ، حسب وصولهم الى الحفل ، وحسب توافــر المقاعد الشاغرة ساعة وصلوا !

كيف تبدّدت عفوية جمــال ، الدمشقيّ الذي يعــرف ، خــارج ذلك الجمع ؟! بل أيــن جمال ، الطالب العربيّ ، في باريس .. الممتلىء حيويّة .. الفخــور بما لقّنــه إيّاه خاله من تاريخٍ وعادات أهــل بلــده ؟! من الذي شــوّه عادات هؤلاء .. وجميع أهاليهم مِن خـيرة القوم ، ومِن أحرصهم، مجاهرة ، على التمسّك بصدق التقاليد الحميمة ؟!

رحّب به جمال بحركاتٍ ، وكلماتٍ مفتعلة ، كأنما حضّرها في ذهنــه للمناسبات العامــة ، ثم انصرف عنــه ، برهــة ، عــاد بعدها ، يدعو الجميع الى مائدة الطعام .. في برودٍ ، وأدبٍ مدروسين .. يقــوم بذلك كأنه يؤدّي مهمّةً لن تلبث أن تنقضي ، ويستريح منها !

نهض المدعوون ، بدورهم ، يؤدّون واجب الطعام ، وما مــن حديثٍ ، أو حــوارٍ متبادلٍ بينهم .. ما عدا تمتماتِ اللياقة .. يتلفّظ بهــا بعضهم ، كلّما اضطروا للمرور إزاء بعضهم .. يُطرون هذا الصنف من الطعــام ، أو ذاك ، لمــن اتّفق ووقف بجانبهم .. كأنمــا جارهم سينقل الاطراء الى صاحبة الدعــوة .. فيكونون بذلك قــد أدّوا واجبهم في شكرها عــلى مشقتها ، وضيافتهــا !

لا شكّ أن جمال كان يظــنّ أنــه يُحسن القيــام بالضيافة ، أحسن قيــام ! يبتكر أسلوباً هجيناً ، حائراً بين صدق العــادات الدمشقية ، وتصنّع وريــاء العــادات الاجتماعية الغربيــة ! يتلمسّ طريقه في ظلمــة العــادات الاجتماعية السائدة ، وقد بُترت جذوره عن تربــة بيئته الدمشقية الأصيلة !

طار خيال فراس الى درب المكتبة الظاهرية ، والحمّام ، ولهفــة الشاب

الذي دعاهم الى داره .. ثم الى أبي غزوان ، وما حملته نسوة الدار اليهم من طعام ، أقبلوا على تناوله .. كأنه ممزوج بصدق عاطفة صاحب الدعوة ! فأشفق على صديقه .. وعلى معارف طفولته .. وعلى ما زجّ هو نفسه فيه ، من قبول تلك الدعـوة التي أعادته الى عالمٍ متكلّف ، ممسوخ ، طالما عافتـه نفسه .. وعافت صحبة جميع من فيـه !

أشار الى جمال ، من بعيـد ، يستميحه عـذراً لاضطراره الى مغـادرة بيتـه .. فودّعه صديقه ، على عجـلٍ ، والتفت الى بقية المدعوين ..
لحظات ، وكان فراس في طريقه الى دمشق القديمة ..

* * *

قرع جرساً قديماً ، ووقف أمام بـاب البرج ، ينتظر الجواب .. يتعجب لصوتِ عـودٍ ، وطربٍ ، وغنـاء ، ينبعث من مكان ما في الجوار القريب !

سمع وقـع خطواتٍ يقترب منه .. ثم فُتح البـاب ، وبـدت خلفـه صبيّة في مقتبل العمر .. ترتدي ثوباً طويلاً ، مشدود الخصر .. أشارت إليه بالدخول ، على عجل ، ثم أقفلت الباب ، وهرعت نحـو السلّم المؤدّي الى مخـدع أمّ ربيـع ..

كان صوت الموسيقى قد توقّف .. فما إن أغلقت الفتاة الباب ، حتى سمع همساً يأتيـه من مدخل المخدع وصوت أوتارِ عـودٍ يصدح من جديـد .. ترافقه ضربات خفيفة على دفّ غجري .. كأنها تُعلن وصول قافلـة محمّلة ، من بعيـد !

صعدت الفتاة السلم في خفّة وحبور .. ثم دلفت الى مخدع صاحبته .. يسير فراس خلفها ، نحو المركز الذي تألّقت فيـه مئات انعكاسات الضوء .. تساقطت على النجوم الزجاجية التي عُشّقت بهـا زينـة جدران الغرفـة ، وسقفها الخشبي !

توقف برهـة ، وسط سَقْط النـور الحميم .. ينظـر عبـر غـلالةٍ

شفافةٍ ترقرقت بين جفنيه .. فرأى أمّ ربيع ، من خلالها ، في ثوبٍ من القطيفة الوردية والسوداء ، وقد جلست على منصّة منخفضة الارتفاع .. يحيط بها ، وإلى جانبيها ، عدد من الصبايا ، والفتيان .. جميعهم في ثياب عربيّة .. جلسوا على وسائد وأرائك فاخرة ، كانت مغطّاة ، يوم زار المخدع للمرة الأولى .. ينظرون الى ركنِ المخدع البعيد ، حيث تربّع ضريران ، أحدهما يضرب أوتار عوده ، في حين شخَصَ الآخر ، في الفضاء، لا يرى شيئاً مما حوله .. ينقر على الدفّ نقراً خفيفاً ، كأنما ينتظر أن يبدأ أحدهم الرقص أو الغناء !

وإذا بأم ربيع ، تمسك بدفٍ آخرٍ ، كان الى جانبها .. تداعب صدره بأصابعها ، ثم تصدح بصوتٍ رخيمٍ ، متمرّسٍ في الغناء .. يجيد التلفظ بمخارج الحروف .. يُحسن النطق ، فلا يضيع معنى الكلام ، على السامع .. ولا مغزاه ..

أنشدت موشّحاً ، في مقامٍ حنونٍ شجيّ ..

« إن الذي عذّبَتْ قلبي محبّتُه
حاكت حروف اسمه في الحسن صورته »

ف « الفاء » مبسمه .. و « الراء » مُقلته ..
و « الآي » عارضه .. و« السين » طرّته »

بهت فراس لإشارتها الشعرية الى أحرف اسمه .. واذا أربعة من الفتيان.. يرددون وراءها ، في صوت واحد ..

« وقد زاد فيه انتحالي
وليس يدري بحالي »

ثم أبطأوا .. وتوقفوا عن الغناء ، لترفع أم ربيع عقيرتها ، مرة ثانية :
« مولّد .. بين حسن الترك ، والعرب ،
قد فاق أمثاله في الظرف والآدب »

«وأتقن المزْج بيـن الجـد ّ واللعب
وقسّم الثغـر بـين الخمرِ والطَرَب»

فما أن تلاشى صوتها المتماوج ، حتى أطلقت الفتيات أصواتهن وراءها قائلات ..

« أحسنتُ فيـه مقـالـي
فَـرد" ، عـديـم المثـال »

كان سحر المكان ، والمفاجأة ، قد نالا من فراس ، وأخذا بلبّه ، وبمجامع قلبه .. منذ اللحظة الاولى !! فما إن بدأت أم ربيع الغناء ، على أنغام وإيقاع الضريرين ، وردّد الأدوار بعدها ، الفتية تارة ، والفتيات تارة أخرى .. حتى غصت مآقيه بالدمع ، لفرط ماجاش في صدره من حبّه لعالمٍ تاه عنه طويلاً . خلاياه تسري في دمه !!

ما كانت تلك هي المرة الأولى التي جلس فيها الى الغناء والطرب العربيين .. وما كان صوت أم ربيع ، أجمل صوتٍ سمعه ، أو تلك الوجوه ، أجمل ما رآها من وجوه .. لكن شيئاً ما ، في تلك اللحظة ، طغى على إحساسه .. وتمكن منه ! إحساس ، لا يعرف اسماً له .. يتوق الى التبدّي ، والتمكّن من أبعاد هو ّيته ! تدفّق في عاطفته ، وعي" ، هو من عنصرِ وطبيعةِ ما نابه ، وهو في ضيافة والد الشاب الذي لقيه في الحمّام ..

ذلك التوافق الكامل ، بين جميع عناصر ما يجري حوله .. تلك العفوية ، والأصالة ، في كل ما يتحرّك أو ما ُيقال في ذلك المخدع ، تلك الإيماءات والملاحظات التي تداولها الجميع ، وكأنها أسرار حضارة عريقة تنتقل من جيل الى جيل في مظروف مختوم .. وذاك اليقين ، من أن تلك اللحظة ، وإن كانت الصورة المرئية المتجسّدة ، لتناسخٍ مستمرٍ ، مستديم .. تمتد جذوره في غياهب الزمان .. إلا أن زمان اللحظة تلك ، كان حقيقياً ، ومكانها كان هناك ، حيث وقفَ من بيوتِ دمشق القديمة ، في إحدى مخادعها المزخرفة .. في إحدى محاربها ، فتبـّدى له جلياً ، واضحاً .. مدرَكاً ، لا يقبل التقليد ، أو التحوير !

نهضت أم ربيع عن أريكتها .. تدعو فراساً للجلوس مكانهـــا ، قائلة ..
ــ إنه مكانك .. كان في الماضي ، مكان صاحب الدار .. وإنما أنا أخليه ، الآن ، لمن سيكون صاحبه ، عما قريب !

لم يكن فراس قد رأى في الماضي من معالم مضيفته ، إلا ثوبها الأسود ، وملاءتها ، وبعضاً من ملامح وجهها .. فراح يدقق النظر في تقاطيعها ، وزينتها ، وقد أدهشه ما طرأ عليها من تبدّلٍ ، وما دبّ في جسدها من حيويةٍ وشباب !

تقدّم منها ، وجلس حيث أشارت ، على الأريكة المرتفعة .. ثم نظر إليها ، وكانت ما تزال تجمــع أطراف ثوبها .. وساءلها ، بالنظــر ، عمّن يكون مَن حولهم ، من فتيةٍ ، وصبايا ..

قالت مبتهجة ، لنظرةِ الإعجابِ على وجهه ..

ــ إنهم أطفالي .. من الميتم الذي أعمل فيه .. أدعوهم من وقت لآخر .. فأحيي وإياهــم ذكرى الليالي التي كنا نقضيها مــع أبي شفيق .. في طربٍ ، ورقصٍ وغناء ، ثم استدركت قائلة ..

ــ لا .. ليس هؤلاء هم الذين كنتُ أدعوهم في الماضي .. إنما هؤلاء ، هم أطفالي الجدد ، أما أولئك الذين عرفوا عزّ أبي شفيق ، وكرمه ، فلقد بلغوا سني الرشد ، منذ أمدٍ بعيــد ! بعضهم تزوّج .. وبعضهم الآخر ، تفرّق في دروب الحياة ، وغابت عني أخباره !

داعبت وجنة فتاةٍ الى جانبها .. في حنــانٍ ، تَكَبْتُ لوعة الذكريات ، وقالــت ..

ــ هؤلاء .. أزهــاري الجدد .. ولقــد جمعتُهم ، زهــرة ، زهــرة!! هــؤلاء الأشبــال ، سيكبرون ، ويصبحون رجــالا أشدّاء ، عمــا قريب .. نعيش ليالينــا هــذه ، لا رقيــب ولا حسيب ! وأقسم ، بتــرابِ المرحوم ، أنــك أول مــن دخــل مخدعي ، وأنــا في هــذه الزينــة ، وبــين هــؤلاء الصحب ، منذ وفاة المرحوم ! والله ، يا ابن الحلال .. ما من مخلوقٍ يعرف عنا ، سوى من يظن ، من أهل الحيّ ، أنهم أقربائي ، وأنسباء أحفادٍ لزوجي ، ولولا

أنك ستصبح صاحب هـذه الدار ، عما قريب ، لما دخلتَ مخدعي ، إلا فوق جثتي !

ضحك فراس لما جهدت أم ربيع في تبرئة نفسها منه .. وقال ..

ــ إن مفاجأتكِ هذه .. أشدّ جمالا وروعـة مما توقعت ! والله ، إنك لدرّة نادرة ، يا أم ربيع ! ومن يدري .. قد تبقين في هذه الدار حتى بعـد أن أقدم على شرائها ! وإن عندي لك مفاجأة لهذه الليلة لا تقل روعة عن ضيافتك هذه .. أما الآن .. فهل لي بكأس من الشاي ؟!

تنبّهت إلى ما سهت عنه ، من واجبات الضيافة المألوفة .. فسألت .. في لهفـة صادقة ..

ــ وهل تناولت عشاءك ؟

تبسّم فراس ، وقال ، متردداً ..

ــ نصف عشاء .. ولقد تناولته على مضض !..

* * *

ما كانت أم ربيع في حاجةٍ لإصدار أوامرها لأحد .. إذ هبّت على الفور بعض الفتيات الى واجبهن .. لحق بهن بعض الفتيـة ، غابوا عن المخدع ، عبر السلّم الضيّق .. يختفي واحدهم إثر الآخر ، وكأنهم يقفزون الى بئر عميقة ..

عادوا بعد قليل ، يحملون الطعـام على طبق مستدير كبير ، وُضع أمام فراس .. بينما استأنف الضريران العزف ، وقد أبدل ضارب الدف آلته ، بنايٍ حنون .. فآل الى أم ربيـع ، ضرب الدفّ ، وضبط الإيقاع ، فطفقت تقـوم بذلك ، في خفّةٍ ورشاقةٍ ، بعثتا السرور والميل الى الرقص ، في نفوس الجميع ..

نهضت إحدى الفتيات ، في دلالٍ ، إثر إشارة من صاحبـة الدار ، التي تربّعت الى يمين فراس ، وراحت تتثنى على أنغـام العود وإيقاع الدف ، في رشاقةٍ وخفرٍ .. تخفض البصـر ، إذا ما التقت عيناها بعيني فراس ، تتلهّف لكلمات الاستحسانِ من أم ربيع .. لاتنسى تبديل أسلوب أدائها ، وخطواتها ، وفق إشاراتٍ نخفيةٍ كانت ترمقها بها صاحبة الدار ، وأستاذة الجميع !

دنت الفتاة في خفّةٍ وإغراءٍ ، من أحدِ الفتيان الأربعة..وكانوا متربّعين

في صف واحد ، الى يسار فراس .. يصفّقون على وزن إيقاع مرهف ، رقيق ، بأكف عالية .. يتمايلون معه في طرب .. يمنة ويسارا .. ومدّت يدها لأحدهم فنهض ، وكان أمــرد ، حييّاً .. ذا بُنية متناسقة ، تزدان بمنكبين عريضين، وأعضاء بالغة الرجولة .. تابـع الفتى ضربَ الإيقــاع بكفيّــه المرتفعين في الهــواء ، بينما وقف الى جانب الفتاة ، يبتسم لها ، ويهــزّ ردفيه ، فيتجاوب لذلك ثوبه الأبيض الطويل ، ذو الحزام العريض المحلّى بالزينة الكشميرية ..

لم يكن المكان يتسع لرقص أكثر من شخصين .. وإلا ، لأوعزت أم ربيع للجميع باستعراض أجسامهم الرائعة الفتوّة ، والتناسق .. لذلك ، راحت كل فتاة تستدعي ، الى الحلبة ، بديــلة لها .. وتتالى الفتية ، ينادي كل بدوره ، شريكاً له ، لا يلبث أن يترك له الساحة ..

مالت أم ربيع الى فراس ، تسأله ، في تردّد ، وحياء ..

ــ غاب عني أن أسأل ، ما إذا كنتَ تحــبّ الشراب ..

تبسّم فــراس لهــا .. وأجــاب ..

ــ ومن يرفض ، كأساً .. في مثل هذه الصحبة الممتعــة ؟

أشرقت أســاريرها .. وصفّقت قائلــة ..

ــ عندي شراب معتّق .. والله إن هــذه الليــلة لليلته ..

وقامت الى خزانة في الجــدار ، فأخرجت منها زجاجة قديمة ، ناولتهــا الى فتى ، أشقر الشعر ، كان يصغي الى ما قالته لفراس .. فأسرع وراءهــا .. ثم هيّــأ بعض الكؤوس في طبق ، نخفّ به الى الضيف ، يصبّ له الراح ، وينظــر مليّاً في عينيــه ..

تبسّم فراس له ، ثم استوضح عيني أم ربيع ، عنه ، فإذا بوجهها يُشرق بابتسامة راضية ، وتضرب على دفّها إيقاعاً جديداً ، وتنشد موشحاً من نغمة «الرّسْت» ، ضَرْبُه مُحَجّر، فتقول، مجيبة سؤاله .. مشيرة الى الفتى ..

طَرَزْتَ تلــك الخــدودَ بالذهــبِ   والــورود ، والآســِ
وشِبــتَ خمــر الرضــاب بالضَرَبِ   وطَفْــتَ بالكــاس

والصبّ ، ما بين ثغرك الشنَبِ   وقلبك القاسي
حيران ، يدعوه للمنى الوطرُ   وأنتَ تأباه

صفّق فراس ، ومن حوله ، طرباً لما سمعوا !

لم يغب عن ملاحظته ، ربطُ الذهب ، بشعر الفتى الأشقر .. لكنه تعجّب لسلاسة نطق أم ربيع ، ولسرعة بديهتها .. فسألها ، في إعجاب ، وكانت قد عادت الى مكانها ، على يمينه ..

ــ لمن ، هذه الموشحات ؟.. ما كنتُ أظنّكِ ضالعة بالشعر .. والقوافي !

هزّ رأسها ، تتبسّم في مرارة ..

ــ لقد لقّنني إيّاها أبو شفيق ، رحمه الله .. سطراً ، سطراً !.. ووزناً ، وزناً !.. وإني لأذكر المئات منها ، حتى الآن .. بعضها ، من قرض أبي شفيق والبقية ، من مخطوطاتٍ كانت في خزانته .. أو نقلاً مما حفظه عن جواري أبيه .. أسفي على تلك المخطوطات .. لست أدري أين اختفت !!

ــ وهل يفهم الجميع ، هنا ، هذه الموشحات ؟

ــ بل ينشدونها بأنفسهم .. لقد لقّنتهم إيّاها بنفسي ، وغيرها ، كذلك !

ازداد فراس حيرة على حيرة .. وقال كمن لا يجرؤ على طلب المزيد ..

ــ وأيّهم أحسن إنشاداً ؟

أشارت أم ربيع الى أحدهم وكان ، من الفتية ، أول من انبرى الى الرقص .. فأصلح الفتى خصلات شعره الأسود ، واستوى في جلسته ، متناسياً جميع من حوله ، إلا الضيف .. أخذ يرمقه في مودّة ظاهرة ، ينتظر دخول العوّاد على اللحن الأندلسي ، الذي بدأت ضرب إيقاعه ، أم ربيع .. فما إن استوى له الايقاع ، حتى أطلق صوتاً عذباً ، رخيماً .. يقول ، يكلّم فراساً ..

يا فريد الحسن ، يا باهي السنا
يا أميري ، وأمير المجلسِ

شنعّف الكأس ، وجُدْ لي بالمنا
وتفضّل بحياة الأنفسِ

صفّقت أم ربيع طرباً ، لإنشاد الفتى ، وفِطنته .. لكنها لم تمهله .. فأنشدت في وصفه على الفور .. وعلى نفس الإيقاع ..

لربّ شادٍ ساحرٍ سلَبَ النهى
وغداً يحنّ لِلَحْنِهِ الجلمود

فإذا بدا فكأنما هو يوسف
وإذا شدا فكأنه داوودُ

صاح فراس ، بدوره .. وقد غلب عليه الطرب ..

ــ لله درّك يا أم ربيع .. بالله أعيدي !

فقام الفتى ، الموصوف ، يملأ كأس فراس .. بينما تضاحكت الفتيات .. وكنّ يتناولن شراباً خفيفاً .. فأجلسه فراس الى يساره .. وأصغى لأم ربيع ، تعيد إنشاد أبياتها .. يُعجب لتمكّنها من فنّ الغناء ، ولتمكّن ذلك الفن من نفوس أهل دمشق ، فليس فيها بيتٌ دخله ، أو عرفه ، منذ صباه ، إلاّ وفيه آلة موسيقية ، أو إنسان يجيد الغناء ، أو يحبّ الطرب ..

تذكّر هديّته لها .. وتعجّب لامتناعها عن الإشارة إليها ، من قريب أو بعيد ، بل إنها بدت كأنها نسيتها ، أو كأن الأمر قد غاب تماماً عن خاطرها !

جال في ذهنه أن جميع من عرفهن من نساء ، لو أنهن كنّ في مكانها ، لأبدين بعض الفضول ، أو ما ينبىء عن ترقّبهن للمجهول !.. إلا أم ربيع .. ما إن أنهت أبياتها ، حتى التفتت الى فراس وقالت له ، وكأنها تجلس الى يمين أبي شفيق ..

ــ لكم حلمتُ بالجلوس مع أبي شفيق .. الى مثل هؤلاء الأوراد .. ونحن في الإيوان .. في صدر الدار ، نشرف على الحديقة ، والماء يتدفق من

نافورة البركة .. تتنشّق عطر الياسمين ، والفل ، والريحان !.. لكم تمنّيتُ لو أنـه لم يكن في هذه الدار .. سوانا !

وضحـك فـراس ، وقـال ..

ــ وردة .. بين الورد !.. ستجلسين يا أم ربيع ، مثل هـذه الجلسة ، إن شـاء الله .. عما قـريب !

تورّدت وجنتاها ، غبطـة ، لمـا سمعت .. وبدا عليها أنها تودّ لو كان في حوزتها شـيء ثمين تهبـه لفراس الذي أتـى من الغيب ، وكأن ما مـن مهمة لـه ، سوى تحقيق ما عجز أبو شفيق عن إتمام تحقيقه من آمالها !

مالت نحـوه ، تكاد تهمس في أذنـه ، لا تـودّ للعـازفين الضريرين سـماع ما تقـول ..

ــ لديّ سرّ دفين .. سأطلعك عليـه ، بعد حين !

نظر إليها ، يستوضحها قصدها .. فتبسّمت في استحياء ، وقالت ..

ــ كان في ودّي أن أرافقك إليـه .. لكني سأقف منك ، منـذ اليوم ، موقف أختك الكبرى .. إن ذلك ، يا ابن الحلال ، سيريحني .. ويريحك !

أشارت الى الفتى ، ذي الصـوت الشـجي ، وقالت ..

ــ .. لا يعـرف سرّي .. سوى ذلك الأمرد .. في الوقت الحاضر .. لذلك .. سيقودك ، هـو ، إليه .. في حين نبقى نحـن ، هنا ، في انتظارك .. فقم الآن .. وكأنك تسعى لقضاء حاجـة .. وسيقودك الفتى ، كما لو كنتَ لا تعـرف الـدار ..

نهض فراس ، يحس بأنه سها عن مفعول الشراب على جسده !.. تنبّـه الى ذلك في تثاقل حركته إثر خدرٍ سرى فجأة في ساقيه .. فخفّ الفتى إليه ، يزيح المائدة من طريقه ، ويسير أمامه .. يقوده الى حيث أرادت أم ربيع ..

نزلا السلم في بطء وحذر .. وبدل أن يتجه الفتى الى الباب الذي يصل البرج بالـدار الأصلية ، لفّ حـول السلم ، وفتح بابـاً خشبياً صغـيراً في

الجـدار ، وراءه .. ثم أشـار الى فراس بأن يتبعـه إليه .. وانحنى ، يـده تمسك بالمصباح ، أمامه ، ثم غاب في ظـلام فتحة الباب ..

دلف فراس خلفه ، بعد أن أحنى ظهره ، على غرار ما فعـل الفتى ، ثـم استوى ، ليجد نفسه في شبه سرداب ٍ مظلم ، ضيّق .. لا نافذة ولا فتحة له.. يطغى على هوائه الدافىء ، رائحة رطوبة أسيرة قديمة !! ما إن تفحّص جدران المكان ، حتى أدرك أن لا سبيل للخروج منه ، الا بالرجوع عبر الباب الـذي بات وراء ظهره .. فأسرع الفتى الى ذلك الباب .. يُحكم إغلاقه ، في هدوء .. ثـم همس لفـراس ..

ــ سيدي .. سـوف أضطر لإطفـاء نور المصباح كذلك ، لأن عليّ أن أكشف فتحة أخرى .. فلا تعجب .. يجب أن نبقى في الظلام ..

همس فراس بدوره ، في ترقّب وتحسّب ملأا عليه نفسه ..

ــ ونبقى في الظـلام ؟! لمـاذا ؟.. وكيف نخرج من الفتحـة !

عاد الغلام الى الهمس ، وهو ينفخ على فتيل المصباح ، فيطفىء نوره ..

ــ نحن لـن نخرج من هنا .. عبر هذه الفتحة .. سنكتفي بالنظـر الى ما ورائها !.. تعال أرِكَ !!

ثم سمع فراس حركة يدي الغلام على الحائط ، فتبيّن أنه أزاح شـيئاً وضعه عـلى الأرض .. لحظات ، وإذا بالفتى يزيح دفّاً ، ما إن رفعه ، مـن مكانـه ، على الحائط ، حتى تدفّق على وجهيهما سيلٌ من الهواء الحـار .. المشبع ببخار المـاء ، والرطوبـة ..

همس فراس للفتى ، للوهلة الأولى ، في حيرة ووجل .. يمعن النظر فيما تكشّف أمامه .. ثم التفت يحدّق في وجهه يسأله في حـزم ؟

ــ ماذا وراء هـذه الفتحـة ؟!

لم يستطع أن يتبيّن معالم وجه رفيقه ، رغـم النور الباهت الذي تسلل الى السرداب ، من وراء الفتحـة .. جـلّ ما رآه ، هو أصبـع الفتى عـلى

شفتيه .. وسمع صوته الحييّ ، يقول .. في ترقّب ..

ــ انظــر .. فتَرَ !

نظر فراس فإذا بــه أمام شِباكٍ حديديّةٍ ، ضيّقة المسام .. مربّعــة الشكل .. تعلوها طبقة شفّافة مما يشبه خيوط العنكبوت .. كان عمق الجدار قــد أخفاها عن ناظريه .. تكشف للمــرء ما يــدور خلفها ، دون أن يُرى ، لِما يختفي فيه الناظر من ظــلام !! والى الطرف الآخر ، رأى غرفة صغــيرة ، سقفها عقد" مزيّن" بالنقوش .. فيها جرن" يتدفّق إليه الماء ، دون انقطــاع .. وعلى أرض الغرفة ، وفي ركنهــا البعيد .. وحيثما سمحت لــه تلك الفتحــة باستراق النظر .. جلست نساء" ، وفتيات" ، وصبايا .. جميعهن ، عاريــاتٍ تمامــاً ، يكشفن لقنديل الغرفة البرتقالي اللون ، أجساداً رطبة ، أو مبلّلة .. منها الشابة .. الرائعة الجمال ، والتكوين .. ومنها الكهلة .. المائلة للبدانة .. جلسن .. بينهــنّ المتربّعات ، وبينهن المستلقيات ، معظمهن مشغولات ، في صمت ، بضم وعناق بعضهن البعض ، وبمداعبة النهوذ الفتية البضّة .. ومــن تبقّى منهن ، ركــنّ الى أنفسهن .. يراقبن ما يجــري في سكون .. يمشطن خصل شــعر مبلّل طــويل .. أو يضفرن جدائل مخضّلة .. يطلقنهــا ، متى انتهت ، ثــم يُعِدن ضفرها من جــديد !

كان قلب فراس يضرب بشدة !! وما رأى ، يومــاً ، أو حــلم برؤية مثل ذلك المشهد !.. لوحة « آنغر » ذاتها .. كأن الروح قد دبّت فيها .. وأضافت الحركة ، الى جانبِ ما تردّد الفنان في شرحه من تفاصيل !

همس فراس ، في صــوتٍ أجش ..

ــ هل هــذا .. حمّام ؟!.. حمام السوق ؟!

ردّ الفتى ، يقترب من فراس ، ليشاركه متعــة استراق النظر ..

ــ نعم .. إنهــا مقصورة خاصة .. لا يُفتح بابها .. إلا للبعض !

ــ مــاذا تعنــي ؟!

ــ تقول أم ربيع ، إن هذه المقصورة مُغلقة على الدوام !.. لا تفتح إلا

لتلك المرأة الشقراء الشعر .. التي تجلس هناك !.. تلك التي تداعب الفتـاة ذات الضفائر السود !.. إنهـا من ذوات الشـأن .. تأتي ، من حين لآخـر ، خصوصاً في مناسبات الأعياد ، ومعهـا صحبها .. وتختار لهـا البلاّنة مـن الفتيات ، مـن يرقن لهـا ، من زبـائن الحمـام ، وممن يقبلـن مشاركتها ، في كـل هـذا !

ــ هل الحمام مخصّص لخدمة النساء ؟

ــ لا ، بالطبـع .. إن النساء والرجال يتناوبون على الاغتسال فيـه .. ويوم النساء ، ينتهي بعـد ساعة من الزمـان .. فيُقبل الرجال عليه .. منـذ فجـر الغـد ..

أخلد فراس ، الى الصمت ، واستغرق في مراقبة ما يجري حتى كاد يظن فعـلاً أنه يعيش حـالة وهم !.. نظر ، وإذا الغلام ما زال قربه ، ينقل ناظريه بين المقصورة وبينه .. يتوقّع منه مبادرة ما ..

همس فـراس ..

ــ ومتى شاهدتَ كل هـذا ، لأول مـرة ؟

تردّد الغـلام .. وأجـاب ..

ــ منذ سنة ، حين أدركتُ البلوغ .. أتت بي أم ربيع الى هذه الفتحة ، تطلعني عـلى أمـور الدنيـا !

ــ وهـل أعجبَك ما رأيت منهـن ؟

ــ أعجبني .. كيف لا .. ولقـد أطلعتني على ما يجري بين الرجـال ، أول مرة .. لترى ما إذا كنتُ أستحسن ذلك !

فوجىء فـراس بما سـمع .. لكنه تابع همسه ، سـائلاً ..

ــ وهـل أحببت .. ما رأيت منهم ؟

كتـم الغـلام ضحكة ماكرة .. وهمس ..

ــ ان منظرهم لقبيح •• إن النساء ، يا سيدي أكثر لطفاً ، ورقـة .. في هـذه الأمـور !

تردّد فراس ، ثم سأله ..

ـ وهل مارست شيئاً من هذا القبيل ، مع أحد ؟

ـ مع زميلي .. على الدوام .. زميلي الأشقر الشعر ، الذي هام بك منذ رآك !.. فنحن نفهم ما يبعث السرور في نفسينا .. أما هؤلاء .. فأنا أحب رفقتهن ، لكني ، لا أدرك حقيقة شعورهن .. ولا كيف يبلغن لذتهن !

ـ وهل أخبرت أم ربيع بذلك ؟.. برأيك هذا ؟

ـ بالطبع !

ـ وماذا قالت ؟

ـ سَخِرَتْ مني .. في البدء ! ثم قالت ، إن ذلك لأمر طبيعي ، لمن كانوا في حداثة سنّي .. ومن ثم ، فإن الطبيعة سوف تتكفل بتقويمي .. وتعلّمني ما لا أعلمه الآن !

ضحك فراس مما سمع .. ثم تراجع خطوة ، وقال للغلام ..

ـ والآن .. أعد الغطاء الى الفتحة .. واذهب لأم ربيع .. وقل لها ، إني أنتظرها على مدخل الحديقة .. ولتوافيني ، بمفردها ، هناك ..

* * *

ضحكت أم ربيع ، وهي تتقدّم من حيث وقف فراس ، ينظر الى إيوان الدار ، وقالت ، مشيرة في اتجاه نافذتها السرية ..

ـ هل أعجبك ما رأيت ؟.. أليس في هذه الدار .. كنوز لا تفنى ؟!

ـ سأطلعك على رأيي في ذلك ، فيما بعد .. أما الآن فلقد جاء دور هديتي أنا ، لك .. لكني أودّ منك ، أولاً ، أن تتذكري أمراً مهمّاً ..

ـ تفضل .. سل ما تريد !

لقد ذكرتِ لي أن أبا شفيق ، إذا جلس الى المنادمة في مخدعك ، كان يجلس إليها .. كأنه على عرش .. فهل اتفقتما على تسمية مكان جلوسه ، في مخدعك ، « عرشاً » ؟

رفعت أصبعها، مُصحّحة، وقالت..

ــ كان إذا جلس في مخدعي.. يبدو.. كأنه على عرش !.. أما العرش الحقيقي.. المكان الملقّب بالعرش.. فها هو ذا، هناك.. في صدر الأيوان ! حيث تجمعت، وتراكمت أوراق الشجر !

قال فراس، في حماسة وسرور..

ــ تعالي.. يا أم ربيع.. تعالي، لقد وجدت لك كنزك !

سرعان ما أزاحا حطام مقعدٍ خشبيٍّ طويل، هو كل ما تبقّى من أثاث الإيوان المهجور.. أزاحاه عن الحائط الذي يتصدّر الإيوان.. وراح فراس يتفحّص قِطع رخام فسحةِ الأرض التي تحته، حيث احتفظت برونقها عبر أجيال من حماية العرش، الذي تربّع فوقها..

طرق الرخام بكعب حذائه.. ثم، تناول قطعة معدنيّة، وطفق ينقر على قطع الرخام، نقراً خفيفاً، ينتقل من واحدة الى أخرى.. الى أن تهيّأ له أنه سمع صوتاً أجوفَ يصدر عن قطعة منها ! سرعان ما أزاحها، بطرف سكّين عتيقة.. أحضرتها له أم ربيع.. فإذا بحلقةٍ تحتها، تنبىء بأنها جزء صغير من غطاءِ صندوقٍ كبير، امتد طوله وعرضه، تحت عددٍ كبير من قطع الرخام المعتق !!

لم تجد أم ربيع مخرجاً للوصول الى رفع جميع قطع الرخام قبل حلول الصباح، إلا باستدعاء فتيتها، وفتياتها ! صعدت الى مخدعها، تحار كيف تربط ألسنتهم عن الإفصاح بما سيطّلعون عليه.. وفي النهاية، حملت إليهم مصحفاً شريفاً، فرضت على كلٍ منهم، أن يقسم على الكتمان.. وألا يبوح لإنسان بما سيراه في إيوانها !!.. ثم نزلوا، جميعاً، طربين.. فرحين. يعيشون أسطورة طالما سمعوا عنها في حكايات أهاليهم.. قصصاً، تروي الأعاجيب عما يوجد في معظم بيوتِ دمشق من أمثالِ تلك المخابىء السرية، في حدائقها.. وفي عمق جدرانها..

ما إن رفـع الفتيـة آخر قطعة رخاميّة عن ظهـر الصندوق ، وأزاحت الفتيات التراب الذي غطّى سطحه ، حتى أشار فراس لأشـدّ الفتيـة ساعداً برفـع الغطاء الخشبيّ العتيق عما بداخله .. فتكشّف أمامهم صفوفٌ مـن الكتب المرصوصة ، جنباً الى جنب .. تمـلأ نصف الصندوق ، أو ما يزيده ، وفي القسم الباقي ، تراكمت أكياسٌ وصررٌ مغلقة .. امتـلأ معظمها بآنيـة فضيّـة ثمينة .. أما بقيتها ، فحوت قطعاً نقدية عثمانية ، لم يكن بينهـا من الذهب إلا مقدارٌ بسيط ..

كانت بهجـة أم ربيـع ، بالعثور على ما افتقدته من آنية أبي شفيـق الفضيّة ، أكبر من أن توصف !

سالت دموعها على خدّيها ، فطفقت تقبّل جميـع من حولها ، في فرحٍ صبياني .. ثم أكبّت على يدي فراس ، فقبّلتهما ، عنـوة !.. وعادت تقلّب آنيـة زوجها .. وتنظر إليها .. وقـد استرجعت رمزَ عـزةِ الدار .. رمـز جـاه زوجها ، الذي حرمت منه طوال فترة مرضه !

راحت تفرّق من القطع النقدية على من حولها .. ثم تنبّهـت الى أنهـا قطـع أثريّـة ، لا تصلح للتداول .. فتوقّفت ، مذهولة ، لا تعـرف مـاذا تقول ، أو تفعـل ! فأخذ فراس بيدها ، يشـدّ عليها .. وناب عنها في الطلب من الجميع بالتعاون على نقـل محتويات الصندوق الى مخـدع أم ربيـع .. ومن ثم ، بإعادة قطـع الرخام الى مواضعها فوق الصندوق الفـارغ الـذي ترك في مكانه ..

انقضت بقيـة الليل ، والجمع في شاغلٍ عن الطرب والغناء .. مأخـوذ بما ناله من كنـز أبي شفيق ! يكاد لا يسمع ضـرب العـود والدف ، غـير الضريرين .. تلكّآ في العزف ، ثم توقّفا عنه ، قبيل الفجر .. قاما في تثاقلٍ ، لا عـلم لهما بما جرى حولهما في تلك الليلة .. قاما ، يجمعان حوائجهما ، على مهل .. ثم استودعا صاحبة الدار كعادتهما ، وقد أدّيا عمـلاً ألِفا مزاولتـه في الأعيـاد ..

الفصل الخامس

كانت أم ربيع قد أقسمت أغلظ الايمان .. تستحلف فراساً ألا يتـرك الدار إلا ومعه نصف الكتب والمخطوطات التي عثرا عليها .. وهَبتـه إياها ، اعترافاً منها له بجميله ! فقضى الليل في مخدعها يصنّف لها كنزها من الكتب .. يتصفّح ما أمامه من مخطوطات ، جميعها ، نُسخت عـن أصول معروفـة .. معظمها ذوات توائم ، أو عدد من الأشباه ، تفرّقت هنا أو هناك ، في مكتبات بقـاع الأرض الخصبة .. إلا مخطوطاً صغير الحجم ، لم يكن قـد استرعى انتباهه في البدء ، لما احتوى من عديـد العناوين الغريبة ، لكتبٍ ، ما كـان قد سمع عن معظمها من قبل ! كتيّب ، اختُصرت محتوياته واقتصرت عـلى العناوين فقط .. ذكّره بما عـثر عليه ، من وريقـاتٍ مبعثرة ، في صندوق داره في روما .. كاد ينسى محتوياتها ! فمـا إن وصل الى صفحاته الأخـيرة ، حتى بـدا له أن بعض تلك العناوين مألوفة لديـه وأنه قد سمع ، أو رأى ، شيئاً مشابهاً لها في مكان ما !

راح يقدح الذاكرة ، يستجمع ما في ذهنه عـن عناوين غريبة ، مـرّت أمامه من مكتبة « الأسكوريال » .. وفي المكتبة الوطنية ، في باريس .. دون جـدوى ! حتى كاد يهمل الكتيّب ، ويبدأ تصفّح غـيره .. فمـا إن غـاب عن ناظريه ما كُتب فيه بالخط المغربيّ ، حتى تبـدّت لذهنه فجـأة ، صورة صفحات الفهرس القديم الذي عثر عليها في صندوق « يـان فراتيشيك » .. ضمن كتبه ومخطوطاته الأثرية !

جلس في فراشه ، يتصفّح ذلك الفهرس من جديد ، لا ينفكّ يقلّب صفحاته .. يعيد قراءة العناوين المجهولة ، لمعظم مشاهير الكتّاب العرب والمسلمين .. يخمّن ما يمكن أن يحتويه هذا ، أو ذاك المخطوط ، من معلومات قيمة ، أو تاريخية ! أمضى فترة على تلك الحال ، فإذا بتعدّد ، وسِعة مواضيع تلك العناوين ، يترسّب في مخيّلته .. فيزداد إحساسه بالجهل ، لما قد غاب عنه من التراث ، وهو المُحبّ ، الباحث ، عن كل كتابِ علمٍ أو معرفة ..

سرعان ما تلاشت بهجته الأولى بالعثور على ذلك الكتيّب ، وحل محلّ السرور ، إحساسٌ بالوحشة والانقباض ، لِما أدرك من جهلِه حتى بوجود تلك المئات من المخطوطات .. لم يكن قد درى عن أمرها شيئاً ! ولا قرأ عن أخبارها في أي مصدر أدبيّ ، أو فلسفيّ !

هل كان ذلك المخطوط حقاً ، نسخة عن الفهرس الذي سُرق من مكتبة الفاتيكان ؟ أم انه فهرس آخر لمحتويات خزانة ما .. خصوصاً وأن فيه أسماء بعض المؤلفات المعروفة ؟! وإذا صحّ وكان فهرساً لخزانة من خزائن الكتب .. فما صلة « يان فراتيشيك » بتلك الخزانة ؟! ولماذا يملك نسخةً لفهرسها تماثل هذه النسخة ؟! ولماذا توجد مثل هذه النسخة ، في مكتبة أبي شفيق ؟!

كان قد هيأ لنفسه أن هنالك رابطاً بين الوريقات التي في حوزته في روما .. وبين فهرس الفاتيكان .. بل ، تجرّأ وذكر أمام « أماديو ، دوقا داوستي » .. أنه يملك نسخة عن الفهرس المسروق ! وكانت تلك ، مقامرة منه ، هدفها تثبيت دعائم ثقة ذلك الرجل ، فيه ! لكنه ، آنذاك ، كان يقامر بشيء لا يملكه ، وكل ما يظن انه يملك منه ، هو بضع صفحات .. لا علم له بقيمتها الحقيقية !! أما وإنه الآن أمام فهرسٍ كاملٍ !! أما وإن الفهرس الذي بين يديه ، هو التتمّة للوريقات التي في داره في روما !! أما وإنه فراس ، في دمشق ، وليس « دون ماكسيميليانو » في روما .. فإن الأمر اتخذ في نفسه

أبعاداً بالغــة الأهمية ! وأحسّ أنّ عليه أن يبادر ، على الفور الى التحقــق من وجود مخطوطاتٍ تحمل تلك العناوين المجهولة ، وتعقّب سرّ اختفائها !

تبسّم وهو يذكر قولاً قديماً حفرته جدتــه في ذاكرة طفولته ، قــولاً كان يطفو الى وعيــه ، كلّما واجــه مجهولاً يرتبط بالعروبــة والإسلام : « أنتــم ، أحفاد أهل البيت ، لكم حق الشفاعة ، يــوم الدين .. لكن عليكم فرض ، واجب .. لا تكتمل آخرتكم دون تحقيقه .. هو إظهار ما اختفى مــن القول الحق .. رأب الصدع بــين المسلمين .. وإحياء ما استشهد في سبيــله الصالحون ! » ضحك في سره من صوت النفير هذا .. يستصرخ حماسته كلّما اعترضه أمر يمسّ تاريخ أمته .. وتعجّب لمدى قدرته على تحريك حماسته !

عادت الى ذهنه علاقة سمك السلمون العمياء ، بمــورد الميــاه العذبة .. في موقع ولادته .. يقــارن بــين الدافعين .. يكرّر عــلى نفســه ، تفــرّد وخصوصيّة ذلك الرباط الذي يشده الى جذوره ! فحاله ، في تلك اللحظة لم يكــن كحال أي إنسانٍ ألماني الأصل ، تثــيره ردود أفعالٍ منعكسة ربّتهــا تعاليم جرمانيــة ، أو نازيــة ! ولا كمثل إنسانٍ يابــاني ، ينقــاد لتعاليــم الساموراي ، التــي نقشت في ذهنــه ، حتى بــات لا يميزهــا عــن ردود أفعاله الشخصيّة ! إذا كانت هنالك كتــبٌ مفقودة .. تحمل تلــك الأسماء المجهولة .. فتلك قضيةٌ حيّةٌ ، وليست وهماً في خاطــره ! والبحث عنهــا ، واجبٌ ثقافيّ ، حضاريّ ! فما بالك إذا كان جميــع ما سمعه صحيحاً ، من أن هنالك من يتلاعبون بالتراث .. يزوّرون المعرفة والتاريخ .. وأنهم يقومون بذلك في جدّ ، ودأب ، منذ عدة قرون ! ويواصلون جهدهم ، بوعيٍ جهنمي ، في سرّية تامــة ، حتى تلك الساعة !! في حــين أن أصحاب التراث ساهون ، غافلون .. يجرّح بعضهم بعضاً ، يحرّضهم على ذلــك ما يدسّ لهــم أولئك الأغراب من سمٍّ في ثقافتهم الناقصة !

مال في فراشه ، يجذب آلــة الهاتف إليــه ، يبغــي الشروع بمكالمــةٍ

أشخاصٍ على علمٍ واسعٍ في ذلك الخصوص .. وإذا بالمخطوط يسقط من يده ، فيرتطم على الأرض ، على حدّه .. مما كاد يمزّق الغلاف القديم ، ويبعثر لوحاته ، التي جُمعت بخيوطٍ بالية .. أوشكت تتفتّت ..

رفعه ، في حرصٍ شديد .. يحاول شدّ الغلاف .. يعيده الى ما كان عليه .. وإذا بطرَفِ ورقةٍ مخفيّةٍ ، مطويّةٍ .. يبدو من تحت حافّة الغلاف .. كان الصمغ قد أخفاها عن النظر ! سحبها في بطء ، خوفاً من تمزّقها .. فإذا بها لفافة ورقٍ طويلة ، أُخفيت ضمن الغلاف .. فتحها ، في حذر شديد ، ليقرأ عليها النص التالي :

« إعلم يا أخي ، أني عبدٌ مأمور .. لا حول له ولا قوة ، وإني ما عُدتُ الى طليطلة ، من فاس ، إلا بأمرٍ من الملك « فيليب » .. نحمل إليه كتباً من خزانة السلطان .. إن القادر الذي لا يُعجزه شيء ، قد شاء أن ينكشف أمر صاحبي وخليلي ، فأذاقه « فيليب » من السم الفاتك ، الذي أتيناه به من فاس حسب طلبه ! وإني ، لا محال ، هالك بالسمّ نفسه .. إن عاجلاً ، أو آجلاً ! ولن أُترك حراً طليقاً ، لأذيع خبر النسّاخ المائة والخمسين ، الذين أنا منهم ، نعمل ، ليلا ، نهارا .. في إعادة كتابة ما لدينا من مخطوطات عربيّة ! ولعل السلطان .. أدام الله عزّه ، هو الذي أمر بالقضاء علينا ، بعد أن علِمنا من أمر ما أجراه النسّاخ من تعديلٍ على مخطوطات كتاب « العِبَر »، الذي حملناه معنا من خزانته ! والذي لا يحمل ، في الأصل ، كلمة « بربر » في عنوانه ! إعلم ، يا أخي ، أن هذه شهادتي قبل أن أموت .. وإني أُقسم بالله العظيم ، وبالقرآن الكريم ، أني رأيت النسّاخ « الموريسكاس » يعيدون نسخ كتاب « العِبَر » ، وغيره ، فيبدّلون كل ذكرٍ لكلمة « أعرابي » بكلمة « عربي » ، في كتابِ ابن خلدون ، ويضيفون إليه فصولاً بكاملها ، في مدح البربر ، حسب مشيئة السلطان ، وبذمّ العرب ، حسب ما بنفوس أصحاب الدير .. ويحذفون فصولاً بكاملها ، في ذكر مآثر العرب .. مما كتبه ابن خلدون ! إعلم يا أخي ، إن السم الذي أتينا به ، من

الذي انباه من قانون [illegible]
للحقيقة الى الابد [illegible]
قاطبة واعلم [illegible]
هو شعا [illegible]
وامجد القد [illegible]
[illegible]

[illegible]
والجسين
يعلى في السر
العادة كتابة
[illegible]حات عربية
[illegible] الله عزه
القضاء علينا بجد
مشيئته في جدول
[illegible] الحبر الذي
[illegible]
الجليل كلمة
[illegible]

فاس ، سيستر هذه الحقيقة الى الأبـد ، عن أهـل الدنيا قاطبة ! واعـلم أن هذه الورقة ، هي شهادتي أمام ربّي ، يوم الحشر .. وأن هذا الفهرس الذي أدفـن شهادتي فيه ، هو واحدٌ من أربعـة فهارس ، تضمّ أسماء ما جـرى التعديل والتبديل عليه ، من كتب ! وإن جميع ما يظن المسلمون إنها أصول ، مخطوطة في خزاناتهم ، إنما هي نسـخ زُوّرت بخطٍّ يماثل خط وتواقيـع أصحابها !.. وأنا ، ومَن معي من « الموريسكاس » الإسبان ، أنا الذي أكتم إسلامي ، وعروبتي .. قد ساعدتُ في هـذا العمـل الكريه ، أسـوة بمـن حولي ، من مسلمين ، غلبوا على أمرهم ! نعمل سوية ، مع مولّدين ويهود ، جميعنا في خدمـة « الأسكوريال » والملك « فيليب » المأفون ، الذي قـرّر طردنا جميعاً من الأندلس ! ربي اجعل من لدنك قـوة تخرج هذا الفهرس من هذا الدير ! سأقذف به من الفتحة هذه ، علّه يبقـى سليما حتى أصل اليه .. أو ينقذه أحدٌ من المؤمنين .. ربي هذه شهادتي ، يوم الدين .. والآن أشـهد أنّ لا إله إلا الله .. وأنّ محمداً عبده ووليّه ورسوله »

ضجّ رأس فراس بما قرأ !!

أعاد قراءة النص ، مرات ، بعد مراتٍ .. حتـى كاد يستظهره .. وفي كل مـرة .. يضيف الى الصورة التي تشكّلت في ذهنـه ، بعض التفاصيل التي فاتته .. حتى اكتملت في مخيّلته صورة لما حدث !

إن الأمر يتعلق بمقدمة ابن خلدون .. هذا أحـد السلاطين ، أو أمـراء البربر .. منذ قرون .. ممن عاصروا « فيليب » الثالث ، أو الرابع ، من ملوك إسبانيا .. يستعرض ما في خزانة الملك من مخطوطاتٍ .. فيجيء على قـراءة « كتاب العِبَر » ، الذي ذاع صيته يوما ، ثم أفـل مجده ، ونسـي التاريخ اسم صاحبه ، وقد مضى على وفاته زمن طويل .. ذالت دولة العلوم ، خلاله ، في جميع أنحاء الأمة العربية والاسلامية ، حتى لم تعـد تجـد فيها من يحسن قراءة القرآن ! ناهيك عمـن يذكر « كتاب العِبَر » ، أو صاحبه .. وكانـت

إسبانيا ، قد أضحت في ذلك الزمان ، سيدة أوروبا ، وحاكمتها .. تتوافد رُسلها على بلاد المسلمين ، تَغْرف مما تبقّى من خيراتهم وهي التي تذكر ما تركوه في الأندلس .. يخافها الجميع .. لا يهبّ أحدٌ لنجدة ما يسرقون .. وليس بين العامة أو الخاصة إلا القلائل ، القلائل ، ممن يقيمون شأناً ، للعلم ، أو المعرفة ! فلماذا لا يزيد ذلك الحاكم البربري الأصل ، فصلاً ، أو فصولاً ، على « كتاب العِبَر » .. في مدح قومه ، من البربر ؟! وهل أسهل من تقليد خط وتوقيع إنسان ، مات منذ قرون .. وما من شاهدٍ على ما كتب ؟! لا ! لن يطلب من ناسخٍ عربي القيام بتلك المهمة ، كي لا يذيع خبرها ، فيبطل أثرها ! ماذا يفعل ؟! يبعث الى ملك « قستالة » الإسباني ، رسولاً بهذا الأمر .. فيردُّ الملك عليه برسولين ، من رعاياه الإسبان « الموريسكاس » .. يحسنون قراءة وكتابة العربية .. فيعودون الى إسبانيا ، لا بكتاب العبر فحسب ، بل بصناديق مرصوصة من ثمين ما تحتويه الخزانة الملكية المغربية ، تُنقل الى إسبانيا ، بقصد الاستعارة ، وما من هدفٍ ظاهرٍ لذلك ، سوى نسخ تلك المخطوطات ، وإعادتها ، سالمة ، الى خزانتها ، وصاحبها !

لكن الذي عاد الى أوطانه ، من تلك الكنوز ، ليس نفس الذي بارحها ، منها ! لقد بُدّل العنوان !! « كتاب العِبَر » أصبح : « كتاب العبر ، في أيام العرب والعجم والبربر » .. ثم إن مخطوط « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » .. الذي عاد الى فاس ، ليس مخطوط « كتاب العبر » نفسه الذي ذهب منها ! إن ابن خلدون ، الفخور بأصله العربي ، لم يكتب العبر لتمجيد العجم والبربر ، أو للحطّ من أصله العربي ، كما تعلّم القبول بهذا التفسير ، جميع فقهاء اللغة العربية اليوم .. في جمود أذهانهم .. وبلاهتهم المعهودة !

هكذا تحول « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » بمسحة قلم .. وأصبح ما نعرفه اليوم بـ « مقدمة ابن خلدون » .. التي تحتوي صفحاتٍ في هجاء العرب !

لقد زُوِّرَت أربع نسخ عن كتاب العبر ! إحداها ، عـادت الى مكتبـة البلاط ، في فاس .. والثانية وُجّهـت الى جامـع القرويين ، في تونس .. أما النسختان الأخيرتان ، فلقد دُسّتا في دار الكتب في القاهرة ! أفلا يتساءل المرء لماذا لم تنشر « المقدمة » في باريس ، إلا عام ١٨٤١ ؟ وفي بيروت ، عام ١٨٧٩؟ وأخيرا في مصر ، عام ١٨٦٨ ؟ أي بعـد أن أُتيحت لمستشرقي نابليون ، خلال احتلاله لمصر فرصة دَسّ نسختين مزورتين عنها ، في دار الكتب في القاهرة ؟!

هـل هنالك من يتساءل عن أصل نسخة جامع القرويين ؟! إذن ، فليعلم السائل أن واضـع الفهرس لمكتبة ذلـك الجـامع .. ليس عربيّاً ، بل هـو « ألفرد بل » ، وأن من ساعده وأيّده في جردِ محتوياتِ تلك المكتبة لم يكن إلا رجل يُدعى « ليفي بروفونساك » .. وهو يهودي الأصل !

جاءت تلك الرسالة المخفيّة تؤكد لفراس جميع ظنونه ، وتدمغ بالدليل القاطع ، كل ما سمعه بأذنيه عن عمليات السرقة والتزوير هـذه ، من « يـان فراتيشيك » .. وما رآه بعينيه من الكتب العربية المحفوظة في «الأسكوريال» يوم مُنعَ ، كعـربي ، من الاقتراب منهـا !

عاد الى الصفحات الأخيرة من الكتيّب الذي بين يديـه ، وقرأ ، مـرة ثانية ، ما أثار أولى شعلات فضوله .. يوم رأى وريقات الفهرس في صندوق داره في روما ، وقـرأ فيه ذلك العنوان الذي ألهب خياله ..

« خلاصـة النظـر ، في فلسـفة العبـر »

أيكون لابن خلدون مثل هـذا الكتاب ، في الفلسفة ، ولا يعرف إنسان عن أمـره شيئاً ؟! .. هـل عرفـه الخاصة يوماً ، ثم نسي الأميّون خبره ؟! .. أيكون قـد كتبه ابن خلدون ، وامتنع عـن نشره بين الناس ، لمـا كان بينه وبينهم مـن تباعـد في التفكير .. ولِمَ لا يكـون لابن خلـدون كتابٌ في الفلسفة .. وهو الـذي لخّص كتب الفلسفة لابن رشـد .. وأتقن دراسة المنطـق ؟!

أحس بقلبـه يطـرق بشدة على دقّات صـدره !

هل يُقدرّ له يوما أن يُعيد مثل هذا المؤلف الى الوجود .. إذا صحّ ظنّـه وكان موجودا ؟!.. ولماذا لا يكون هذا الكتاب مخفياً في سراديب « الأسكوريال » وهي التي لديها النسخة الاصلية لكتاب ابن خلدون « لُباب المحصّل » التي لا بد قد عبثت بها يد المزورين ، والمُحوّرين ، ما عبثت !

يا لعار من يدّعون العلم ، ويكتبون التاريخ ، في هذا القرن .. من مسلمين ، وعرب !! لقد مُسخت عقولهم بما نقلوه من دراساتٍ غربيّة حول تاريخ أمّتهم .. حتى باتوا أطوع من الغربيين أنفسهم ، في ترديد ما يُبتكر في أوروبا ، وأمريكا ، من مقولاتٍ مُشينة عن تاريخهم !.. ينقلون آراء أمثال « سيلفستر دوساسي » و « ليفي بروفونساك » عن الإسلام والعرب .. والأول أكبر حاقد على الإسلام ، والثاني من أصل يهودي !!.. لا يرفضون نظرية قالها مستشرقٍ ما ، عن الشرق ، إلا بعد أن يرفضها مستشرق غربي آخر !.. لا ترى دراسةً حول فيلسوفٍ إسلامي ، إلا مذيلة بعشرات التوقيعات ، والمصادر الأجنبية !!

انتظمت في رأسه الصورة الرهيبة لشبكة أقنيةٍ وشرايينِ السم الزعاف ، التي يسيّر فيها التاريخ المزوّر الى أجهزة ، وعقول الشرق ، ومن ثم ، الى طلبة العلم الأبرياء .. وعقول وأساتذة المستقبل !! كيف لا ، وقد نُقل نخاع هذه الأمة الشوكيّ الى مكتبات ومتاحف وأديرة الغرب !.. ولحقت بها زجاجات مصل الدم كذلك .. والكل جالس هنا ، على قفاه ، لا يحرّك ساكناً .. سوى استعراض ما كتبه الآخرون عن هذا الوطن !.. وضرب هذه المقولة بتلك .. مما تفنّن في تزويره المحرضون !.. وهل يستخرج الماء ، من قرع الحصى ، بعضه ببعض !!

* * *

نهض من فراشه يغلي الحقد والقهر في صدره !

رفع الكتيّب الى مكان أمين ، وأعاد إغلاق الرسالة التي فيه ، يحار

فيما يفعل ، أو يقول .. وآخر رجل مسؤولٍ فاتحه بشأن مكتبة « الأسكوريال » ، ضحك منه ، وقال .. « كيف تقول مثل هذا القول في مكتبةٍ محترمة .. مثل هذه ؟! إن جميع ما فيها من مخطوطات ، تحت تصرّف أي طالبٍ للعلم .. في صورة أفلام مصغّرة .. يبيعونها لمن يشاء !! فماذا تتوقّع منهم من مساعدة ، أكثر من ذلك » ؟!

جميع ما فيها ؟.. حقاً ؟.. يا سيادة المسؤول ؟!

* * *

كلمة واحدة ، بقيت عالقة في ذهنه ، إثر قراءته لتلك الرسالة ، لم يفهم مغزاها .. ماذا أراد كاتبها ، بقوله .. « إن السمّ الذي أتينا به من فاس ، سوف يستر الحقيقة ، الى الأبد » ؟.. قد يقضي السم على جميع من نسخوا تلك المخطوطات .. لكن ، كيف يقضي السمّ على الحقيقة ذاتها ؟! حقيقة ، ما زالت تنبض بالحياة ، في صورة أصول تلك المخطوطات ، التي لا بدّ قد دُفنت في مكان ما ، في أوروبا !

أحسّ فجأة بعقمٍ وجوده في دمشق !.. وماذا يفعل فيها ، والكتب التي يجب العثور عليها موجودة في أوربا .. بل ربما ، في روما !!

هل يعود الى روما مباشرة ؟.. أم يعرّج على القاهرة ، يرجع الى وكر المتآمرين في صحبة مبعوثتهم ، « بالوما » ، التي ذهبت إليها تنفيذاً لمهمّة أخرى !

ماذا يفعل ؟

من أين يبدأ ؟

* * *

كان ذهنه قد شرد في متاهاتٍ لا أوّل ولا آخر لها ، حين رنّ جرس الهاتف ، فرفع السماعة ليصغي الى صوتٍ مرهفٍ واجفٍ ، بعيد .. توقفت لوقعه فجأة ، ضربات قلبه !

ـ ألـو .. فـراس .. ؟

همسَ كلمتينِ .. صَمَتَتَ لهما الكـون ، في نفسه .. ثم توقّف عـن الحركة !! ماذا .. هل يعقل ألا يكون الهوى قد خبـا أواره في النفس ، بعـد مضيّ هـذه السنين ؟! هـل يكْمن جمـر الحب في ثنايا الضلوع ، أبدا .. ما أن يمس الحبيب فوقـه ، كلمتين .. حتى تسفو أنفاسه رماد الزمـان .. فيسري دفؤه في الأوصال ، وكأنها نار قديمة .. بل النور ، يطـلّ مع الفجر ، في إشراقةِ عينينِ أثيرتين ، أفاقتا من النوم ، بعد سبات عميق ؟

ـ هدبـــاء ؟!

ـ .. وتعرّفتَ صوتي .. بعد هذا الزمان ؟.. هذي السنين الطويلة ؟

ـ هدبـاء* .. يا إلهي ..

ـ .. صوتكَ ، فـراس .. لم يتغيّر ..

ـ صوتكِ ماثل في ذهني .. كأنما تحادثنا أمس ..

ـ .. مضى على ذلك سبعة عشر عاما ..

ـ .. هـدباء .. إنهـا سبع عشرة ساعة .. لقد عدْتِ !

ـ أنا لـم أغادركَ ، لكي أعـود .. لكني الآن خلف أسـوار غليظة ، أكلّمك من وراء بحـارٍ .. ومحيطاتٍ .. سحيقة الغور ..

ـ لكنكِ اخترقتِها .. رغم كل شيء .. وها أنـا ذا أسمع صوتكِ .. إن في وسعك المَضي قدُماً في هـذا السبيل ..

ـ فـراس .. حبّي .. أنا لـم أكلّمك كي أسمع منك هـذا .. دعني أسمع صوتك ، وتسمع صوتي ..

ـ أهي رسالة .. إذن ؟ تسطرينها لي .. على الهـاتف ؟

صمتت هدباء .. غاب صوت حب شبابه الأول .. هنيهة .. قال بعدها ..

ـ يا إلهي .. ها أنتَ ذا .. تعـود الى ما كنتَ عليـه .. ها أنت ذا ..

---

* فتاة أحبها فراس قبل مغادرة بـلاده الى الغرب ، وردت رسـائلهـا في رواية « مسـافر بلا حقائب » للمؤلف .

تفزعني .. وتطلب مني ، ما هو فوق طاقتي .. كأننا بالأمس .. ليلة سفرك الى باريس !

ـ إني أحبكِ ، هدباء .. وتحبينني .. فماذا بعد ؟.. ألا يكفي فراق سبعة عشر عاما ؟.. ماذا بعد ؟

ـ لا قبل .. ولا بعد .. أحبّكَ ، وتحبني .. وبيننا هذا الغور السحيق ..

لم تعد هدباء الى عالمه ، فقط .. لم يهبط حبه عليه ، وكأنه ما برح يحوّم فرق رأسه ، دون أن يراه ، طوال تلك السنين .. لم يكتف حبه بالاستفاقة من غفوةٍ طالت سبعة عشر عاماً .. مرّت ، كأنها ساعات من النوم العميق .. لكن ذلك كله ، تدفّق على حياته ، بغتة .. كأنه مفعول سحرٍ خفيّ قد زال عن نفسه فجأة ، فتلاشت غمامة كانت قد غلّفت قلبه ؛ فأدرك ، على الفور ، أنه ما تظر ، أو أحبّ ، أو عاشر امرأة ، منذ افتراق دربي حياتهما ، إلا وطيف هدباء يقف رقيباً على عاطفته .. يستأثر بالعزيز منها .. يحجبها عن بقية النساء .. فيغامر ، هو ، ما طابت له المغامرة .. يُنفق مما تبقّى له من عاطفة .. فيعشق ما طاب له العشق .. لا هو قانع بما يفعل ، أوهانىء بصحبةٍ من يعايشهن .. ولا في نفسه الحماسة الكافية لتركهن ، الى غيرهن .. علّه يجد عندهن الجواب الشافي لظمئه المستديم !

ألذلك ما أحب امرأة غير هدباء ، إلا قسا عليها ؟.. ألذلك ، ما هجر امرأة ، إلا كاد يهلّل لخلاصه من قيود حبٍّ مبتورٍ ناقص ، يربطه بها ؟.. لماذا طُبع الحب في نفسه على صورة هدباء ، وتوقّف عند ذلك الشكل ، والمضمون ؟!.. هل لأن حبها كان أول حب حقيقي في شبابه ؟.. هل هي قضية السلمون .. والمورد الأول للماء العذب ؟!

تنبّه فجأة الى صمته الطويل .. فقال والحنان يطفر من عينيه وصوته ..

ـ هدباء .. هــدباء !.. هل أنا أقسو عليك إذا ما طلبت منك لقاء ؟

عادت الى صمتها .. فصبر على ذلك برهة طويلة .. ثم قال ..

ـ هدبــاء .. ألا تسمعينني ؟

ـ بلى .. بلى .. أسمعكَ .. لكنك تطلب مني المستحيل .. ولا أجــد في نفسي الشجاعة على رفضــه ..

ـ .. ستقبلين .. إذن ؟.. ستأتين ؟

أجابت ، في ضراعــة ، وحــزن ..

ـ كيف أقبل ؟ وولدي الشاب الذي يعلم ما كان بيننا .. ولدي ، الذي يمــلأ مكان والــده المتوفّى .. يقف في ضميري رقيباً عليّ .. كيف أخــون ثقتــه .. بوفائي القــديم لوالده ؟ كيف .. كيف ؟

ـ هدبــاء .. ألا تحبينني .. ألم أسمع منك هــذا القول ؟

ـ أحبكَ فراس .. وحبّك ، هو عــزائي .. وبلائي ..

ـ وحبي لك ؟! حبّي الذي عاش مدفوناً تحت التراب ، طــوال هــذه السنين ؟.. هل أعود الى وأده ؟.. ماذا يمنع لقاءنا ، خفية ؟.. هدباء .. أبَعْدَ كل هذه السنين من الفراق .. ترفضين ؟

ـ .. يمنع لقاءنا .. يمنعه .. الذي حــال دون مثل هــذا اللقاء نفسه ، أيــام الشباب الأول .. هــل تذكــر لقاءنا الأول ؟! زيارتي الأولى لك .. في غرفتــك ؟

ـ كيف لا أذكر ذلك .. وأنا مُقعد القلب ، الذي تركتِ ، منــذ ذلك الحــين !

ـ وتذكر خوفي ، من لقــاءٍ حميمٍ .. وارتعادي لقُبلاتِـك العطشى ؟!

ـ كيف لا أذكــر ؟!.. كيفَ لا أنقــم ؟!

ـ .. فــراس .. أنا ما زالت تلك الهــدباء .. وما زال بيننا ، ما يمنــع تلــك القبــل !

كاد يثور عليها من جديد .. كادت إحدى ثورات الشباب الأول تتملّك

نفسه ، لِما سمع .. عاودته نقمة الماضي على ما تفتّحت نفسه عليه ، من حبّ مبتور ، ما تعدّى مرحلة البوح ، والرسائل !.. لم يبدّل الزمان من نفس هدباء ، شيئاً .. ها هو ذا .. يسمع صوتها المرتعش الواجف ، فيخفق قلبه له ، لا حول له أمام تمنّعها ، ولا قوة !

لكن .. ما له يلوم هدباء ؟!.. وهل بدّل الزمان من نفسه ، هو ، شيئاً ؟ ولو فعل ، هل كان لحبّهما ، بعضهما بعضاً ، أن يستمرّ .. وما كأن الزمان قد زاده ، إلا تألّقاً وصفاء ؟!

ــ فراس .. أما تزال تعيش وحيداً .. في دارك الفسيحة ؟..

ــ ليتكِ تملئينها ، عليّ ..

ــ ولو فعلتُ ذلك .. هل كان لحبّنا أن يدوم ؟!

أحسّ بلوعةٍ مفاجئة ..

ــ هدباء .. كنتُ قانعاً في عزلة داري .. بتّ أحسها الآن .. فارغة .. فارغة !

همسَتْ ، مازحة ..

ــ هل آتيك .. لأشرب معك فنجان قهوة ؟!

طار فؤاده الى الماضي .. الى نظراتها الدافئة ، الحنون .. تسبح في أعماقه !.. عاد قلبه يخفق من جديد ، لِما هاج في نفسه من ذكرى ابتساماتها العذبة ، الوادعة !.. أي سحرٍ لها .. ذاك الذي ملكت به نفسه ؟

ــ ليتكِ تفعلين !.. ليتكِ تأتين !

ــ ونجلس .. كما في الماضي ؟.. وتحدّثني عن أسفارك ؟

ــ وتعشق عيناي ، عينيكِ .. ويذوب فؤادي ، لضربات قلبكِ ..

تملّك الحزن نبرة صوتها ، فجأة .. وهمست ..

ــ ما أقسى الزمان !.. هل كثيراً أن أتوق الى زيارة ؟.. كيف السبيل للقاءٍ .. لا أخون فيه ، أحداً !

ـ هـدباء .. تعالي !.. وأغادرُ الدار !.. تعالي .. واتركي من عبقـك في داري .. أثراً ! لقـد أصبحَتْ فجـأة ، فارغة .. موحشة !

سمع ضحكتها الرقيقة .. العذبة ، ورأى في عينيها تلك الدهشة المحبّبة التي طالما حرّضته على السعي لمفاجأتها .. فقالت ..

ـ آتي لزيارتكَ .. وأنتَ ، لست في دارك ؟! ومن يفتح لي الباب ؟

ـ .. لا عليكِ ، حبّي .. تعالي .. حسبك أن تأتي .. حسبي ، علمي ، أنك تمشّيتِ ، هنـا .. وجلستِ ، هنـاك .. سأنثر على دربك الأزهار .. وسأترك لـكِ ، على كلّ مقعـدٍ ، رسـالة !.. هـلاّ أتيت .. هـدباء .. يا حبيبتي .. يا هـدبائي ..

* * *

وفيما بعـد .. صاغت هدباء ، بعضاً من الحوار الذي كان يدور بينهما على الهـاتف ، قصائـد ، تصف معاناتهما من استحالة اللقـاء .. تعبّر عـن مشاعرها وعن الهواجس التي تؤرقها ، وهي ترى الزمن يمضي ، وتجيب عـن تساؤلات فـراس وهواجسـه ..

كتَبَتْ ، معبّرة عن رجـاء فراس المُلـحّ في زيـارة بيته ..

« يا ليتهـا تـوافـي
في موعـدٍ أثـيرِ ..
يُزهـر بالأمـانـي
يضـوع بالعبـيرِ ..
فـأفـرش الـدروب
رسـائل شـوقْ ..
عطـراً .. وزهـراً ..

لهفـــة ، وتـــوق ..

أقــول .. يا حبيبتي ..

حبيبتـــي الأثـــيرة ..

لـــو تمكثين دهــرا

عســـــاي أســـتطيع

أن أوقـــفَ الـــزمـــن ..

وأمحـــوَ الشـــجـــن ..

أعيـــدَ للعيـــــون

نضـــارة الســـنين ..

وومضـــة الحنـــــين

عســـــاي أســـتطيع ! »

ــ تسألني ، هل غبتَ عن قــلبي يومــاً ؟ فــراس ؟ أقــول ..

« دائمــاً .. كنتَ هنـــاك ،

في متـــاهـــاتِ الضمـــير ،

مـــاثـــلاً .. لمّـــــا تغِــب

عن وجودي .. عن حضوري

كنتُ أقصيكَ .. بعيداً ..

خلــف حُجْبٍ .. وستورِ

كنـــتُ أخشـــى أن يفيض

القـــلب يومـــاً ، بالشعور ..

أن تمـلّ القيدَ .. تسلوه

منكـراً عيش الأسـير .. »

ـ تسائلني .. فراس ، أين أنـا في حياتك .. من عالمك ، دنيـاك ؟

« لستَ بعضـاً يا حبيبـي

أنـتَ كـلّ ..

أنت فيءٌ في حياتـي

أنـتَ ظِـلّ ..

ليـس ظلمـاً .. أن تكون ،

هـوَ عـدْل ..

تهَـبُ النُعمى لدُنيـاي ،

تُرجِـع قلبـي

قلـبَ طفـلْ ..

كندىً حـانٍ على العشب ،

كطـلّ ..

كغمـامٍ واعـداً غيثـاً

يَهـلّ ..

كرفيف النـور مـن فجـرٍ

يُطـل ..

أهـو إثـم أن تكـون ؟!

هـو عـدل !..

ـ فـــراس ..

« هــل الى اللقيــا ســبيل

يا مُحِبــاً مبعـــدا ..

تعبَ القلب ، وأعيــاه الرجــا

لســبيلٍ .. ما اهتـــدى ..

ظمــأ الحـــب هجـــيرٌ

لا يوافيــه النـــدى ..

يلفـــح العشـــب النضــير ،

يُذهــب العمـــر ســدى »

« برغيــدِ العيشِ أفــدي

موعــداً .. لو يفتـــدى ..

بسُــلافِ الخمــر أروي

مُنقــذي من ذا الصـــدى ..

أبَــدَ الدهــر تظـــلّ

مَنْ أنــادي .. أَقصُدا ..

أبَــدَ الدهــر .. تظـــلّ

مَنْ أغنّي .. أُنشِــدا »

ـ .. كنتُ أحــلم فراس .. كنتُ أحــلم ..

« يغصّ القلب ، يا حبّي ،
بهمّ .. كاد يذبله ..
بخوفٍ .. من غدٍ ، آتٍ ،
خيوطُ الدمعِ تغزله ..
بحزنٍ .. ما له شطآن ..
سائبة جدائلُه »

« أترحلُ يا صديقَ العمر
همّ القلبِ يثقلُه ..
أترحل ، آمناً دهراً
خؤوناً .. كيف تغفله ؟
أترحل ، مُغفِلاً زمناً
أراه ليس .. يمهله
أترحل ، والهوى يَقِظٌ ،
وشوقُ الروح .. أوّلُه ؟.. »
ـ فراس ..
« تمرّ السنون .. ويمضي الزمنْ
ويرتاع قلبي .. يَفيض حزَنْ ..
تُراه سيمضي الزمان ضنينا ..
ودون اللقاء .. دروب مِحَن ؟

تـُـراها ستمضي السنون عجافـا
ودون السحاب .. تراب" أصَمّ ؟
ويبقـى اللقـاء .. سـراباً
خلـوباً ..
مُحـالاً ..
عصيّـاً ..
كـرؤيـا الوسـن ؟..
يمـزّق شـوقي إليه
كيـاني ..
يؤجّـج فيـه
سـعير الشـجن ؟! »

وكما السلمون يمرح ويلهو ، إذ يبلـغ مورد المـاء العذب .. غير آبـه بما تجشم من مصاعب وأخطار ، في طريق عودته الى مسقط رأسه .. كذلـك فراس .. راح يعبّ من ماء حبّه البكر ، في فـرحٍ مجنون .. يمـلأ خلاياه من صفائه ، وطهـره .. غير آبهٍ بما لحق بفؤاده من ندوبٍ وجـراحٍ ، وهو في طريقه الى حبٍّ ما كان له أن يصمدَ أمام عاتياتِ الدهر ، لولا أنـه نما في تربةٍ دمشقيةٍ ، شـاميةٍ .. وشرب من قيـمٍ وتقاليد تحوّلت الى مفاهيم أسطورية ، في بقية أنحـاء بلاد الله الواسعة .. قيم ، بات يرفضها أنـاس من بلاده .. ليس لهم ما يفاخرون به سوى أنهم في موقـع الذنب ، من عـالمٍ ، وحضارةِ الآلـة ، في الغـرب ..

* * *

الفصل السادس

طـار الى قبرص أولاً .. ومن ثم حط في مطار القاهرة .. مؤثراً دخول أرض الكنانة بصفته « دون ماكسيميليانو » .. وقد قرر لقاء « بالوما » فيها.. ومن يدري .. لعل « ليـزا » هناك ، كذلك .. وفي تلك الحـال ، لا بـد من الحرص .. نظراً لما لتلك الأخيرة من أعوانٍ ، في كل مكانٍ ، وزمان !

ابتاع طريقـه الى الراحة ، كعادته ، منذ أن وطئت قدماه أرض مطـار القاهرة .. وإذا كان في الماضي يلجأ الى ذلك مختاراً ، هرباً من مماطلة ومماحكة موظّفي الأمن ، والجمارك ، فإنه في تلك الزيارة وجـد نفسه مضطراً وصفاقة القائمين على استقبال الزوّار ، باتت أصـولاً ، متّبعـة .. إذا ما رفضتَ الانصياع لطقوسها ، أو إذا ما ساورتك فكرة التظلّم والتشكّي ، فقد تجـد نفسك أمـام موظّف ، أعلى شـأناً من الأول ، عليك تبرئة نفسك أمامه من تهمة اختُلقت ضدك ، قد تضطرّك للجوء الى أول طائرة تغادر البلاد !

ركب سيارة أجرة ، متوجّها نحو عنوان « بالوما » ، في فندقٍ ، عـلى شاطىء النيل .. يعيده هـواء الصحراء ، ومنظر البيوت المتطايرة أمام نافـذة السيارة ، الى آخر زيارة قام بهـا الى المدينة الأثيرة .. حيث ما مـن مـرّة فتـح عينيه أمام قسوة مشاهد الحيـاة فيها ، وطـرق معالجة البشر لبلائهم المستديم ، إلا تقزّزت نفسه للذهنيّة الفرديـة الرخيصة التي تناقش فيهـا الأمور .. وفي الوقت ذاته ، ما من مـرّة أغمض عينيه فيها ، يذكـر جماعات

بكاملها ، يتذكّر أحياءَ برمّتهـا ، يستخلص انطباعات جماعيّة ، إلا انتصرت الرحمـة ، على القسوة ، وطفا النبل ، فـوق السوقيّة .. وتغلّبت الحكمة الجماعية على جنون وانتهازية الأفـراد !

كان ، كعادته ، يتفرّس في جميع الوجـوه التي تطالعـه .. ما إن تطـأ قدماه بلداً جـديداً .. يحلو له التعرّف الى الجذور « الأنثروبولوجية » لهذا الأنف الدقيق .. أو لتلك الذقن البارزة .. لهاتين الشفتين الغليظتين ، أو لتلك الوجنتين العاليتين .. يستغرب رواج المقولات التي تغذّيهـا دومـاً أقـلام الأقليّات الحاقدة ، التي استفاقت وأسفرت عن نواياها ، منذ حملة نابليون .. راحت تعبث بتاريخ مصر ، لا تجـد منفذ ضعفٍ الى عقيدة أهلها ، فتخترع التسميات لحضارتها القديمة ، مستندة دومـاً ، وأبـداً ، الى ما يقوله هـذا الافرنسي ، أو ذاك الانكليزي ، من لصوص الآثار المتخفّين تحت أسـماء ، وألقاب ، جامعيّة !.. فتلقّب حقبات تاريخية بأسرها ، باسـم ملـكٍ ما ، مات منـذ آلاف السنين !.. وتجمع سـلالات ملكية بأسـرها ، تحت لقب اعتباطي أُطلق على أحـد أولئك الملوك .. فيحوّل اللقب الملكي الاعتباطي ، الى نعتٍ تاريخي لأسلوب الفـن والكتابة .. ثم يسمّى جميع من عـاش ، ومات ، في ذلك الزمان ، باسـم ذلك اللقب .. تسقط التسميات والألقـاب البائدة على التاريخ القديم ، ثم تعكس على شعب مصر اليوم ، علّـه يبحث عن هويـة جديدة ، علّه يبتعد ، وينأى ، عن تاريخه العربي ، الأصيل ، أملاً بأن يفتّ في عضد هذه الأمة .. يحرّضها على الابتعـاد عن الجسد العربـي الذي تحلّق حول جامع وجامعة الأزهر ، منذ نيف وألف عـام !

جلس في شرفة فندقه ، ينتظر وصول « بالوما » يملي النظـر من مشهد القاهرة .. مدينة الألف مأذنة .. تبرق أضواء الليل ، فوق عتمة زرقة النيـل ، تتهادى فوق مويجاته الفضية ، قوارب شراعية أثيرة ، يحملها المـاء ، ويدفـع أشرعتها الهـواء .. تتهادى في اتجاهات متعاكسة ، دونما آلات محـرّكة ..

كأنهـا إحدى تناقضات الحياة ، تتابع رحلاتها ، في مهمّة متواصلة ، تؤديهـا منـذ آلاف السنين ..

كيف يتناسى الانسان قِصر مدى حركة حياته الفرديّة ، وهـو يتأمّل حركة النيل ، وما لهـا من امتداد في غياهب الزمان .. أو كيف يغفل .. وهو أمام الهـرم الكبير .. عن أن وعيه للتاريخ ، لا يتجاوز ما قرأه في كتبٍ ، هي ، في الأصـل ، ليست إلاّ ذكرياتٍ ، أو معلوماتٍ ، قـرأها إنسان آخـر ، في كتبٍ أخـرى !

لم تعد « بالوما » الى غرفتها في الفندق تلك الليلـة !.. نزل فـراس ، في صباح اليـوم التالي ، يتمشّى في البهـو الكبير ، يتردد ، بـين انتظارها ، أو زيـارة سوق الخليلي ، ريثما تعـود ..

تنبّه الى سيارة « رولس رويس » ، فضية اللون ، تتوقف أمام مدخـل الفندق ، البعيد .. ترجّلت منهـا أربع نساء ، جميلات ، أقبلن نحو المدخل ، ضاحكات جذلات .. يتراكضن ، في مـرحٍ صبياني .. بينما خـفّ وراءهن رجـل قصير القامة ، مائل للبدانة ، كان يقـود السيارة ، أسرع وراءهن ، في حركةٍ مماثلة لحركتهن ، تتوثّب سلاسل ذهبية تجمّعت على صدره .. أمسك بطرفي وشاحٍ حريري ، ورديّ .. لفّه ، حول عنقه .. راح يهزّه ، في الهواء ، في إيقـاعٍ مماثلٍ لإيقاعِ من تقدمنه من نساء !

كانت « بالومـا » بين أفراد تلك الثلّة المتضاحكة ، التي باتت داخـل البهو ! تقـدم فراس نحوها .. وإذا بـ « ليزا » كذلك ، بينهم .. وكانت قد تنبّهت الى وجوده .. فاختفت وراء إحدى النسوة ، لتخرج فجأة ، فتباغته !

قفزت « بالـوما » عن الأرض ، عـدداً من المرات ، فرحةً بلقـائه .. تـابع أسلوب التصرّف الصبياني، الذي كانت قـد اختارته لحركاتها لذلك النهـار !.. وصاحت ، تمزج سرورها ، بعفوية مفتعلة .. وتقول ..

ـ « دون ماكسيمليانو » .. الكبـير .. « مكسيم » أنـت هنـا ؟ في القاهـرة ؟.. ولم تنبئني بوجودك ؟!

ضمّها فراس الى صدره ، يقبّل وجنتيها ، على عـادة الأصدقاء .. ثـم قبّل « ليـزا » ، وقـال ..

ـ وصلتُ البارحة مساء .. أين أمضيتما ليلتكما ؟ كاد ينتابني القلق !

أشارت « بالوما » على الفور الى رفيقهن ، ذي الثياب الكثيرة الألوان ، وقـد وقف بينهن ، مرتكزاً على ساقٍ واحـدة ، يحرّك الأخرى .. ليلمس قطع رخـام الأرض ، بطرف حذائه المشدود على قدمه المنتفخة .. قالت ، في حركـة مسرحية لطيفـة ..

ـ كنّا في ضيافة غـالي بك .. أو باشـا .. لست أدري ! « مكسيم » إن لِغالي قصراً خرافياً .. يجب أن تراه .. أليس كذلك يا « ليزا » ؟.. أليس القصر قطعـة من ألف ليـلة ؟

ثم أشارت ، في اقتضابٍ مقصودٍ ، الـى الفتاتـين السمراوين اللتـين اكتملت بهما الثلّة ..

ـ وهـذه « سوزي » !.. وهـذه « نـانـا » !

ثم نظرت الى « ليـزا » ، على الفور ، تستطلعها رأيها فيما ذكرته عـن البيت الذي أمضتا ليلتهما فيـه .. فوافقت « ليـزا » في مـرحٍ بينما تبسّم غالي ، في تواضعٍ مدروسٍ ، وقال لـ« بالومـا » في دلالٍ ظاهـرٍ ، يبـالغ في تحريك وزمّ شفتيه ، أثنـاء الكلام ..

ـ « بوبـا » .. إنك تبالغين .. إنه مجرّد بيت بسيط .. لقد سحرتِـهِ بوجـودك .. وبوجـود رفيقتك !

ثم نظـر الى فراس ، مخفضاً جبينه .. وتـابع ، في صوتـه الموسيقي ، يتكلّم الفرنسية ، في لكنة مصريّة مقيتة ..

ـ إن « الدون ماكسيميليانو » مدعوّ لزيارته .. في أية لحظة .. ما رأيكم

في الإسراع الى الهـرم ، بعـد تبديل ثيابكم .. ثم نعود بسرعة .. بسرعة ، لتناول الغـداء .. في بيتي !.. هـا ؟

وضع أصبعـه في فمـه ، يبلّلهـا ، ورفعها الـى الأعلى ، في جـديّة ووجـوم !.. يقلّد حـركة من يستكشف مصدر واتجـاه الهواء ، داخـل القاعة المغلقـة ! وقال ..

ــ إنه نهـار دافىء ، مشرق .. سنحضّر « الباربيكيو » أو ، « الشيش كبـاب » في الحديقة الرومانية .. ما رأيكم ؟!

قهقـه الجميع لحركته .. وأسرعت « بالومـا » و « ليـزا » ، كـل ، الى غرفتهـا ، تبدّلان ثيابهما .. بينما وقف غالي ، يتابع الحديث ، مشيراً الى إحدى الفتاتين السمراوين .. وكانت ذات عينين خضراوين ، رائعتي الجمال.. فقال ، يعرّف « دون ماكسيميليانو » بالفتاتين المصريتين ..

ــ إن « سوزي » ، هو مختصر « صافيناز » .. وهي من أسرةٍ محترمة جـداً .. معروفة عندنا .. لقد كان جدّها رئيس وزراء ، أثناء العهد الملكي.. كذلـك ، « نـانـا » !

ثـم قهقـه ضاحكاً ، وراح يُصلح من وضع وشاحِه ، على عنقـه ، وهـو يقـول ..

ــ لقد كان جـدّ « نيمَت » .. أو نعمت ، بالعربية .. رئيس وزراء ، كذلـك .. وكان ألـدّ أعـداء جـدّ « سوزي » ، لكن ، تصوّر ! عـدو عدوّي ، هو صديقي !.. لذلك ، فهما اليوم ، صديقـان .. والبرهان عـلى ذلـك ، صحبة « سوزي » .. و « نـانـا » ..

تبسّمت «صافيناز» في إكبارٍ ، وسرور .. ترمق «دون ماكسيميليانو» ، تحـاول استشفاف حقيقة ما تركته لديـه من انطباع ..

قالت لغـالي ، في صوت طفوليّ خـافت ، لا تعـرف إلا نساء مصر ، افتعـاله ..

ــ « لولو » .. كفّ عن مثل هـذا الكلام .. وإلا .. فـان « الدون

ماكسيميليانو » سيظن أننا أناس .. مدّعون !

ردّ غالي عليها ، في سرعة خاطفة ، وسخرية مبطّنة ، تنمّ على وعيٍ مقنّع ..

ـ ليت « دون ماكسيمليانو » يقتصر ، في الظن بنا .. عند هذا الحد !

ثم ضحك فجأة ، كمن يودّ إضفاء صبغة المزاح على جميع ما يبدر منه .. وسأل في ودّ ، ولا مبالاة ..

ـ هل هذه زيارتك الأولى .. للقاهرة ..

حرّك فراس رأسه ، مبتسماً .. وقال مازحاً ..

ـ بل الواحدة .. بعد الألف !

سُرّ غالي بما سمع ، كأنه فهم معنى خفيّاً ، في تلك الإجابة .. وقال ، في حماسة ..

ـ .. إذن .. فلقد سَلِمت عنق شهرزاد من القطع !.. إنك تحبّ ، حقاً ، هذه المدينة .. بالرغم من جميع تناقضاتها !

ـ وأيّ فخر لي ، في ذلك ؟! إنها لمدينة رائعة الجمال ..

علّقت « صافيناز » ، قائلة ..

ـ يقال إن « مدريد » .. مدينة جميلة جداً .. هل تقيم فيها على الدوام ..

تدخّل غالي ، مستغرباً سخف سؤال « سوزي » .. يتمنّى لو أن النساء يلزمن الصمت ..

قال في لهجة لاذعة ..

ـ كيف يقيم فيها على الدوام .. وهو الآن .. في القاهرة ؟! قادماً .. من « روما » ؟!

تورّدت وجنتا « صافيناز » السمراوان لسخرية غالي .. فزاد ذلك من جمال بشرتها الناعمة ، النقيّة ..

قالت ، مبتسمة ، تخفي امتعاضها الشديد ..

ــ « لولو » .. إذا كنتَ ستبدأ ضرب مسلاّتك المعهودة ، من جديد ..
فأنا أفضّل العودة الى بيتي ، على الفــور ..

بانت « بالومــا » .. و « ليــزا » في تلك اللحظة .. مقبلتين من بعيد ، وقد أبدلتا ثياب ليلة البارحة ، بأخرى صوفيّة ، رياضية ..

ســأل غالي ، فجــأة .. متجاهلاً قول « سوزي » ..

ــ « دون ماكسيميليانو » .. هل جئت ، في سياحة .. أم تقصد العمل ؟

كانت « بالومــا » قــد سمعت آخر كلمات سؤاله ، فقهقهت .. وردّت في عجــب ..

ــ « دون » .. « ماكسيميليانو » .. يعمــل ؟! « لولــو » !.. إنــك لا تعــرف ماذا تقــول !

تورّدت وجنتا غالي .. مما أثلج صدر «سوزي » !.. لكن فراس بادر بالــرد ، على الفــور ..

ــ جميعنا يعمل ، بطريقة أو بأخــرى .. فلماذا لا أعمل أنا ؟ خصوصاً ، إذا كان الأمــر يستحق الاهتمام .. مثل عملك !

ثم ســأل « بالومــا » .. في عفوية ، وبساطة .. يحاول ألا تفلت مــن انتباهــه ردود أفعال الجميع ، لسؤاله ..

ــ وهل أنهيتِ .. عملك .. هنــا ؟!

كان غــالي ، أول من بادر الى الإجــابة .. فقال ، كأن لسانه قــد سبق حيطته ، وتفكــيره !

ــ أيام قلائل .. إنها مسألة أيامٍ فقط .. ويتم إعــداد كل شيء !

تجاهلت « بالوما » كلاً من السؤال ، والرد ! بينما أخفت ، « ليــزا » ، تنبّهها لمــا سَمِعت ! ثم قالت ، مترددة .. تنظــر الى « بالومــا » ..

ــ هل تَجمعون الآثار ؟!.. أم مــاذا ؟

أدرك غالي أن لسانه تفوّه بأكثر مما يقتضيه الحرص !.. وفهِمَ فراس

أن « ليزا » .. ما تزال خارج الحلقة .. بعيدة عن هدفها ! ولحظت « بالوما »، في عيني « دون ماكسيمليانو » أنه مطّلع على أمورٍ كثيرة لم تخطر لهـا على بال .. فحدجته بطرفهـا ، كأنها تريـد منه أن يكف عـن الاستفاضة في ذلك الحديث .. ولم تفت نظراتها ، تلك ، انتباه غـالي !.. ففهم منهـا بدوره ، أن صديقها الإسباني النبيل ، على علم بتجارتها .. لكنها لا تود له أن يعقد علاقةً معـه ، قد يكون له فيهـا منفعة !.. فما إن سنحت له فرصة الهمس لـ « دون ماكسيميليانو » دون انتباه أيـة من الفتـاتين ، الأجنبيتين ، حتى مال عـلى أذنـه ، وقـال ..

ــ إذا كان الأمر يهمّك ، أنت كذلك .. فسأكلّمك على انفراد ، اليوم.. أثنـاء الغداء .. ولا حاجة لغيرنا بمعرفة ذلك ..

* * *

زاروا الأهـرام العظيمة .. وأبا الهول ، الصامد على مـدى الزمان .. وامتطوا جيـاداً تعيسة .. تتحلّق حولهم ، أنّى ذهبوا ، وكيفما تحـركوا ، جمهرةٌ مـن المراهقين .. يُعجبون بجمال الفتيـات ، وجرأتهن .. يخصّون بالنظرات « بالومـا » ، و « ليـزا » .. اللتـين ما كانتا في حاجـةٍ لتصنّع الحركات الأجنبيـة ، كي تطفو فـوق رتابـةِ تلك البحيرة البشرية الراكدة السطح ، التي تعـجّ بملايين الوجوه السمر المتشابهة .. شبابٌ ، علّمهـم الفقـر أن يروا في لـون بشرتهم ، وتشابه تقاطيعهم ، رخصـاً ، وسوقيّة .. لا يعرفون مـن سبيل للخروج منهما ، إلا عـن طـريق الاحتكاك بالزائرين ، والسياح الأجانب ، عـلّ شيئاً من بياض بشرة هؤلاء ، أو صفرة شـعرهم ، يلصق بهـم ، عبر ذلك الاحتكاك .. فيميّزهم عن بقية زملائهم !.. ولو دروا أن في معظـم تلك التقاطيع السمر ، الواضحـة الخطوط ، النقيـة البشرة ، مِنَ الجمال ، أضعاف ، أضعاف ، ما لدى شبابٍ مثلهم ، في شمال أوربـا ،

اكتست أجسادهم بطبقـة رخْصة من دَهـن الخنزير ، حتى باتت وجوههم المستديرة كأنها دُمى تُصنّع في شكلٍ آلي ، في معمل للمواد المطّاطية !

كان فراس يتمشّى برفقة « بالومـا » ، بينما لجـأ البقية الى امتطـاء الجياد ، فغابوا بهـا ، بين الآثار ، برفقة الدليل .. إلا غـالي ، كانت ترافقه في كل مـرةٍ ثلّة من الشباب ، تجـري خلف جواده ، حتى تختفي معـه وراء الكثبان .. يغيب الجميع برهة ، ليعود غالي ، بعدها بجواده ، وحيداً ، فيخرج الى الآثار ، مرة أخرى ، برفقة ثلّة أخرى ، جديدة .. وهكذا دواليك !

أبدى فراس دهشته لذلك ، فضحكت « بالومـا » ، وقالت ..

ـ إنـه يغطس معهم في قبور الفراعنة .. أو هكذا حدّثني عـن نفسه ! يقضي الجميع حاجتهم منـه ، ثم يعـود لغيرهم ، قبل أن يتسنى الوقت للثلّة الأولى ، لستر عوراتهم !

فغـر فراس عينيه دهشة لمـا سمع !! فعقّبت « بالومـا » .. مسرورة للأثر الذي بـدا على وجهـه ..

ـ إنه يلقّبها .. مجموعة الهـرم !.. ويبدو أن لديه عـدداً من هـذه المجموعات .. في جميع أنحاء القاهرة !.. بل وفي جميع أنحاء مصر !!

ردّ فـراس ، مذهـولاً ..

ـ لكنه يذهب في كل مـرة بصحبة سبعة ، أو ثمانية منهم !!

قهقهت « بالومـا » في سـرور .. وقالـت ..

ـ يقول .. إنه لا يشعر بالارتواء ، إلا حين يأتي على الثلاثين !

ثم نظرت إليـه في تَشـَفٍّ .. وأردفت ..

ـ « مكسيم » ها أنت ذا تـرى بأم عينيك أن هـذه الأمور .. هـذه الرغبات المعقّدة .. ليست مقتصرة على سكان بلاد الجبال ، والغابات فقط !! بل إنهـا تجري على مسرحٍ ينعم بأكثر الخلفيات توازناً ، في العالم !.. النيل

الهادىء .. والأرض المستوية .. والطبيعة الدافئة .. حيث لا أشباح، ولا عفاريت تختفي وراء أشكال الضباب !

كان فراس على وشك أن يردّ عليها .. لولا أن غالي أقبل عليهم، وقد ترك جواده .. مشيراً الى سائقه بالتقدم بالسيارة من حيث وقفوا، يبغي الاستراحة في داخلها ..

قالت « بالوما »، على الفور .. تخاطب غالي .. وتلحظ خصمها، وعشيقها، بنظرات التحدي !

ــ غالي .. لقدرويتُ لـ « دون ماكسيميليانو » ما وصفتَه لي، عما يجري في الحمّامات القديمة .. ولم يصدّق، كلمة واحدة، مما قلتُه له !.. فما رأيك .. لو تقلّه معك أنت .. هذه الليلة، أو غداً !.. علّه يتحقّق من ذلك، بنفسه ؟!

نظر فراس إليها مستغرباً ما نسبته إليه من تكذيبِ روايةٍ لم يسمعها ! وإذا بغالي يردّ على الفور ..

ــ « بوبا » ! بكل سرور !! بكل سرور !! بل وتنتظرانا، أنت و « ليزا »، في السيارة، على الباب .. علّنا نخرج لكما .. بصيد ثمين !

تلفّت حوله، يبحث عن بقية الفتيات .. يبدو على وجهه التعب، والملل، من الانتظار، وقد أنهى ما جاء لأجله من مقابلة « مجموعة الهرم »

قال، في تبرّم ظاهر .. يخاطب « بالوما » .. يمسح جبينه بكفٍّ ذات أصابع تعيسة الشكل، تحاول افتعال الأناقة ..

ــ أين « ليزا » ؟! « بوبا » !.. إن صديقتك هذه، عجيبة الطباع .. لا أكاد أعرّفها بإنسانٍ، حتى تختفي معه .. أو تبدأ معه حواراتٍ، وأسئلة غريبة ! ما كنت أعرف أن الفتيات الانكليزيات على هذه الدرجة من الفضول !

ترجّلت « بالوما » عن مقعد السيارة، في تكاسل .. وقالت، على مضض ..

ــ يالك من متقلب الأهواء !.. كانَتْ، حتى البارحة محطّ اهتمامك..

حين ظننتُ أنها تهتم بالآثار ! لا عليك .. سأذهب لاستدعائها .. ولا تستغلّ غيـابي ، لمغازلة « مكسيم » !

ما إن ابتعدت « بالوما » عنهما حتى توجّه غالي نحو فراس ، في جدّية مفاجئـة .. وقال في اهتمـام مستور ..

ــ « دون ما كسيميليانو » .. لئن كنتَ تهتـم بالمخطوطات القـديمة ، أنت كذلك ، فان باستطاعتي تأمين ما تريده منها .. أقوم بذلك ، مباشـرة !.. دونما حاجـة للّجوء الى مساعدة السفارة !.. ولـن تعرف « بالومـا » .. أو أية جماعة أخرى شيئاً ، عن أيّ اتفاق يتمّ بيننا !

ردّ فراس كأنه لا ينتظر إلا هذا الاقتراح ، كي يوقّع الاتفـاق ..

ــ بالطبع .. بالطبع !.. وذلك سيختصر التكاليف على الجميع !.. ثـم ، إن السرية الكاملة .. هي أهـم ما في الموضوع !

تبسّم غـالي ، وهو يحـرّك خاتماً حـول أصبعه ، وأضاف في لهجـة عمليّـة ..

ــ .. فلا مانع في هـذه الحـال ، من إضافـة نسبـة بسيطة .. عـلى أرباحـك ، وأربـاحي !

تريّث برهـة .. ثم أضاف .. كمـن يبرر الأمـر لنفسه ..

ــ لمّا كانت الجهة الشارية،مقتدرة على الدفع!.. فما المانع من الاستفادة؟

عـاد الى التريّث ، من جـديد .. ثم سـأل ..

ــ .. وهل من طلبٍ خاصٍ ، في ذهنك .. أو في ذهن مكتبتكم ؟!

راح قلبُ فراس يطرق بشدة ، لما وجـد نفسه وسطه ، فجأة ، من لبّ اللغـز الذي كان يسعى لحله !! فتنفّس في عمق ، وهو يتمطّى .. متظاهـراً أنـه يبحث عن « بالومـا » ، بناظريه .. وقال ، في تمهّـلٍ ..

ــ .. أريد مخطوطات فلسفية .. في الوقت الحاضر !

أطلق غالي صوت تعجّب .. وقال ..

ــ إنك تسعى وراء صيدٍ كبير ! حسن" ، جداً .. هـذا يعجبني !..
والآن .. هل تَسْتَبْدل .. أم تبتاع ؟!

تستبدل ؟!.. تستبدل ، أم تبتاع ؟!.. أسقط في يد فراس لما سمع !
لم يدْرِ بماذا يردّ على محدثه ، ولم يشـأ أن تفلت المبادرة من يـده ، فقال ، يصطنع التفكير ..

ــ الاثنان معاً .. ذلك ، يتوقف على أهمية الموجود !

شاهد غالي الفتيات ، يأتين من بعيد .. فتباطأ في الحديث ، يقول ..

ــ اذا كنت حقاً ، جادّاً ، في البحث عمّا هو نـادر ، ومهـم .. فعندي مصدر سيقودني ، في القريـب العاجل ، الى مخطوط مجهول ، لابـن طفيل ! وإنك تدرك ولا شك أهمية مثل هذا المخطوط .. إذا ما وجد ! فهـو سيخرج من مكتبة خاصة وما من أحد قـام بتصويره بعـد ! أمّا بشأن الاستبدال .. فعلينا التريّث ، في الوقـت الحاضر ! إذ أن الناسخ الذي أعرف ، غائب عـن القاهـرة .. لكن ، ماذا تريـد استبداله من مخطوطات ؟.. وهل هو موجود" في « دار الكتب » ، أم في الأزهر ؟!

قال فراس ، في نزقٍ ، وقد رأى موكب الفتيات يتقـدم منهما ، قبل أن يفهم كيف تتم عملية استبدال مخطوط أصليّ ، بآخر ، مزوّر ..

ــ ألا يمكن استعاضة الناسخ ، بناسخٍ غيره ؟

ظر غالي إليه ، في استغرابٍ ، وبرودٍ ..

ــ ممكن ، جداً ! إذا أردنا تعريض الشخصية التي يؤذن لهـا باستعارة المخطوطات ، للخطر !!

تريّث قليلاً .. وأضاف في لهجة تضع حداً لمتابعة الحديث ..

ــ أنا لا أعرف إلا ناسخاً واحداً ، يستطيـع إيجـاد البديـل للنسخـة المستعارة ، خلال أيام !.. ناهيك عـن الوقـت الذي يضيع في إعـادة لصق وخياطة الغلاف ذاتـه ، على النسخة الجديدة !.. كـلّ ذلك ، ريثما تعـودُ

أنت ، بالمخطوط المستبدل ! فإذا كان لديك من حل آخر ، فأنا على استعداد لسماعه !

ثم التفت الى الفتيات ، الوافدات .. ومال ، يحضهن على الإسراع ، ضاحكاً .. مبتهجاً ، بما أظهره من حزمٍ ، أمام عميله الارستقراطي الجديد ، الذي يُبشر العمل معه بدخلٍ وافرٍ ، مضمون ..

ـ إنني أموت جوعاً .. هيا .. هيا !.. يا فتيات !.. إن « الشيش كباب »، على النار .. في انتظاركن !

* * *

جلسوا ، بعد الغداء ، في حديقة قصر غالي ، في المعادي ، وقد استلقى معظمهم على مقاعد عريضة .. أو أراجيح علقت بين أشجار النخيل .. يسعى الخدم النوبيون بينهم ، في ثيابهم الطويلة الملونة والمطرزة .. ينظر غالي ، في إعجاب ، الى خصلات شعر « بالوما » الطويلة ، الشقراء ، وقد تهدّلت على طرف الأرجوحة ، تتماوج يمنة ، ويسرة ، تكاد ذؤاباتها ، تمس عشب الأرض ..

سألها ، في صوت ناعس .. حالم ..

ـ « بوبا » .. لماذا لا تأتين الى مصر ، لتعيشي فيها .. هنا ، في القاهرة ، أو معي ، إذا شئتِ .. إنك ترين كيف يَنظر إليك ، كل من يراك ! وكأنك ملكة غير متوجة !.. يا إلهي ، إنك لتبدين الآن كلوحة « فتاة الأرجوحة » لـ « كورو » ..

قهقهت « بالوما » ، في دلالٍ .. وقالت ..

ـ أعرف ذلك .. بل إن جميع طباعي لتتبدّل ، حين أطأ أرض هذه المدينة .. أصبح فتاة أخرى .. إنسانة أخرى ..

علّق فراس .. قائلاً ..

ـ يفارقك نزقك .. وشرودك ..

ـ أعلم ذلك .. بـل أُصبحُ سهلة القياد .. وأفقد الكثير من تحفّزي لمهاجمة الآخرين ..

علّقت « ليـزا » ، متعجّبة ، مؤيدة ..

ـ صحيح .. ولقد لاحظتُ هذا التبدل ، عليك .. لكن ، لماذا لا أُحس أنا ، بنفس هذا الإحساس ؟!

كتم غالي ضحكة ساخرة ، إثر تعليق « ليزا ».. وقال لها .. يغمـز الى انتمائها الذي لم يَخْفَ عليه .. ولم يشأ كشفه أمام الفتاتين المصريتين ..

ـ « ليزا » .. حبيبتي .. إنك من عالم لا يشعر بالارتياح ، في أي مكانٍ وجد فيه .. حتى في بلادك !.. وتعلمين ماذا أقصد !

تجاهلت « ليزا » إشارته ، وعلّقت « بالوما » ، على الفور ..

ـ إن الانسان هنا .. لا يكترث للشيخوخة .. فالمرأة البيضاء مطلوبة .. مرغوبة .. مهما بلغت بها السن !.. والشباب .. آه ، الشباب !! يا إلهي .. هل أحصيتم عدد الشباب .. في القاهرة ؟!

أجاب غالي ، في سرور .. تبـرق عيناه كأنـه يُحصي قِطـع الذهب ..

ـ إذا كان عدد سكان القاهرة ثمانية ملايين ، نصفهم على الأقـل ، من الذكور .. فمعنى ذلك أن هنالك أربعة ملايين رجل فيها ! تقول الإحصاءات .. إن سبعين في المائة ، منهم ، تتـراوح أعمـارهم بين الرابعة عشـر ، والأربعة والعشـرين !

قالت « بالوما » في شـرود ..

ـ ثلاثة ملايين شـاب تقريبـا !! جـاهزين للحب !.. يبذلـون الغالي والرخيص .. في سـبيل قبلة !! وجميعهم .. ذوو أجسامٍ .. ولا أشـهى !.. وشبقٍ عجيب !!

قال فراس ، وقد كره أن يُحصى شباب القاهرة ، كما تحصى الخراف ..

ـ .. وقد يلتقون على أشياء أخرى ، غير الحب .. وطلب الجنس !

ردّ غالي على الفور .. يدرك ما يرمي إليه ..

ــ لا تُدخل السياسة في الموضوع .. أرجوك .. إن لجميع البلاد ، مشاكلها !

ــ وهل تسمّي طلب الخبز .. سياسة ؟!

ــ « دون ماكسيمليانو » إني أسمّي كل شيء سياسة .. بل أسمّي الجنس ، سياسة !

ــ وما اسم السياسة التي تتبنّاها اليوم ، في هذه الحال ؟!

ضحك غالي ، وقال ..

ــ سياسة الانفتاح .. الانفتاح على كل شيء .. سياسة المزاحمة ، والمضاربة .. فلا يقف على قدميه إلا كل جدير بالحياة !

سخر فراس ، وقال ..

ــ لو أنّ الفرص متكافئة ، لدى الجميع ، لصحّ كلامك ! لكن الأمر ، هنا ، سيصبح سباقاً على المال ، بين القريبين من السلطة .. والبعيدين عنها ! شأنكم ، شأن أي بلدٍ رأسمالي ! هذا ، ضمن نطاق الشعب الواحد ! أما ضمن نطاق مجموعة الشعوب « المنفتحة » .. كما تقول .. فإن حالكم سيكون ، « أقربكم الى أمريكا أقواكم » ! وفي هذه الحال .. لا أظنك تخالفني الرأي ، إذا قلت .. إن بلادك ، لهي بين الأواخر ، في صفّ المتزاحمين على نيل رضا أمريكا !

كانت « ليزا » تحاول التشاغل عن ذاك الحوار .. فلما اقترب الحديث من حدود انتماءاتها ، ومصالحها .. وجدت نفسها تقول ، رغم حذرها ..

ــ خير لهم أن يكونوا حيث يستطيعون ، في ركبٍ ، على رأسه أمريكا .. من أن يكونوا في نفس الصفوف المتأخرة ، من ركب ، تقوده دولة لا تكفي نفسها مؤونة العيش !

قالت « صافيناز » .. وكانت حتى ذلك الحين على تمتمةٍ متواصلةٍ مع « نعمة » ..

ــ نحن إذن ، على الحالين ، في نظركم ، محكوم علينا بالفقر ، والذلّ !

تدخلت « نعمــة » ، في استحياء ، وكانت ذات فــمٍ صغير ، وعينــين مثل عيني « صافيناز » جمالاً ..

قالت في هــدوء ..

ــ إن والدي يقول .. ما من دولة عربية يمكنها حل مشاكلها الاقتصادية والوطنية بنفسها ، أو في عزلــةٍ عن بقيــة الجسد العربــي .. أو المسلم ، إذا لزم الأمــر ! إن الحلّ ، لن يأتي ، إلا إذا اتّحدت شعوب الدول العربيــة .. وجابهــت ..

انتفض غالي لقولها ، فجأة .. وكان يكره كــل ما هو عربــيّ ، ومسلم وقال ، يقطع كلامها ..

ــ « نانا » .. أرجوك ! دعي آراء أبيك ، في بيته ! لقد سئمنا هذه النغمة!

تخاذلت الفتــاة ، أمام هجــوم صاحب الــدار ، المفاجىء .. وتورّدت وجنتاها .. فتال فراس ، متصنّعا الحياد ..

ــ لكنها « نغمة » يشهد بصوابها كبار رجال الاقتصاد والسياسة عندنا، في أوروبا ! لكن المؤسف في الأمــر .. أن جــودة اللحن لا تظهــر إلا بجودة عزفــه ، وأدائه .. وخــير وسيلة لتكريه إنسان بلحنٍ عــذب ، هي إســاءة أدائه ، وتكرير العزف الرديء ، حتى يمــلّه الانسان ، ثم يكرهــه !! كيف تلــوم مبدأً يتلهّى أصحابه عنــه ، بالجري وراء منافعهــم .. من مــالٍ ، وسلطة ؟! قــد تكون أنــت مللتَه ، ولك كامل الحرية في ذلــك .. إنمــا ، هل تظن أن هذا الشعب الــذي يلجــأ الى الطرقات العامــة ، بألوفه المؤلفة ، حين تزدحم به الجوامــع ، فيؤدّي صلاة الجمعة ، في الشوارع ! هل تظــن أنه قد مــلّ العروبة ، والإسلام ؟! ما كنتُ أظنك غافلاً ، لهذا الحد !! كنتَ تقول إنك تسمّي كل شــيء سياسة .. فكيف تفصل ، إذن ، بــين إيمــان ، ولغــة ، هذا الشعب .. وبــين سياسته ؟!

أجاب غالي في نزقٍ ، وثقةٍ ، تدعمهما ثروة كبــيرة .. وإحساس بالنصر على مجتمعٍ نجح في مناوأته .. بل ، إنه يعمل ، حثيثاً ، على تقويض ماضيه ..

ـ وماذاأفعل أنا ؟! ها ؟! إني ابن هذه الأرض.. أنا كذلك ! ولا أنتمي الى عقيدة ، أو آمال غالبيّة سكانها اليوم !! فهل يُهـدر حقّي في الحيـاة ؟! أليس لي الحـق ، كامل الحـق ، في بناء عالم يقـوم على آمـالي الخاصة ؟! والسعي الى تحقيقها ؟! أم هل ، يتوجّب عليّ انتظار اليوم الذي سأُطرد فيه من بلادي ، كما حصل « للموريسكاس » في بلادكم ؟! بعـد أن كانوا سـادة الدنيـا .. زمـن الأندلس ؟!

تبسّم « دون ماكسيمليانو » .. كما يُتوقع أن يتبسّم آخـر أحفـاد « الدوقا دي ألبا » إذا ما وجّـه الى أمّته النقـد .. وقال ، وهو يذكـر في سـره غُربة ، وهامشية « مالك » في دمشق ..

ـ لقد كان للعرب دولة غرناطة ، حتى آخر يـوم من حكمهم للأندلس ! وما طُردوا من إسبانيا ، إلا لأن أملهم لم يفـنَ ، في محاولة إحياء تلك الدولة ! فما أَمَلك أنت ، بالضبط ؟! وإلامَ يهدف هذا العالم الخاص من الآمال الذي « لك كل الحق » .. كما تقول ، في بنائه ؟! هل ترمي الى تقويض هذه الدولة؟ أم تهدف الى اقتطاع جـزءٍ منها ؟! غالي ! إنـي لا أسخر من أحـد .. إنمـا أتساءل عما يمكن لإنسانٍ واسـع الاطلاع ، مثلك ، أن يأمـل في تحقيقه ، ضمن هذه المعادلة الصعبة التي تعيش فيها !

تردّد غالي في الإجابة عن سؤال « دون ماكسيمليانو » .. نظر حوله .. يتمعّن في وجوه ضيوفه .. ثم تلعثم ، وقال ..

ـ إن آمالي الخاصة .. هي ملكي وحدي .. ولا أرى من حاجة لمشاركة أحـد فيهـا !

ـ حسنٌ .. كلمة أخيرة ، أقولها لك .. لئن كنتَ لا تحلم باقتطاع جزء من هذه البلاد .. لتبني عليها دولة أخرى .. شـأن اسرائيل .. فانك ستظلّ ، كالجسم الطفيلي ، الذي يعيش على امتصاص دم مخلوق أكبر منه .. ولا يحلم بأن يصفّق يوماً ، ويطير ، بعيداً عنه ! إن حياتك متّصلة بحياته .. إذا هلكَ ، هو .. هلكتَ أنت !

ضحك غالي ، فجأة ، كعادته ، حين يقرر الخروج من مأزق ما .. وقال .
ــ أنا .. لقـد بدأت استقلالي .. في تطبيق ما أهـواه ! بدءاً بحيـاتي الخاصـة !

كانت « نعمـة » قد ادعت سببا لترك الحديقة ، ودخول « الفيللا » .. هربا من حرجها الذي أوقعتها فيه ، إجابة صاحب البيت ، الحادة اللهجة ، لها .. فقالت « صافيناز » لغالي ، وهي تنهض في تثاقل ..

ــ لقد أغضبْتَهَا .. كعادتك ! ولا أظن أن الأزهار سوف تكفي هـذه المـرة لنَيْل صفحها .. سأذهب ، لأرى ماذا تفعل ..

ما إن توارت « صافيناز » عن الأنظار ، تبحث عن صديقتها ، حتى توجّه غالـي نحو « دون ماكسيميليانو » ، وقال ، في انفعالٍ ظاهر ..

ــ إني والله لم أعـد أدري ماذا يحرّككم أيها الأوربيون !!.. تأتـون الى هذه البلاد ، ناسين همومنا ، فيها ! وتضعون مصالح الجميع ، على مستوى واحد ! ناسين ما قاسينا ، نحـن ، من أجل إعـلاء كلمـة أوربـا فيها !! كيف تسألني مثل هـذه الأسئلة المُحرجة ، أمام فتاتـين مصريتين .. أنبأتك سلفاً ، ومنذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها ، عن وضعهما البـارز في المجتمع ، وعن صلات أسرتيهما بعالم السياسة ؟! إن آمـالي بـارزة ، واضحة ! طبعـاً .. أنا أتمنى لو يُقتطَع جزء" من هذه البلاد .. نعيش فيه عقيدتنا وحريّتنا الكاملة !! ولا أظنك تجهـل أن هـذا الأمـر قيـد البحث هنـا ، ولدى عـددٍ مـن الجهات العالمية !! و « ليـزا » هنا .. على علم بذلك .. وتعمل على مساعدتنا ! لكن هـذه أمـور لا تُبحـث أمـام الجميـع ! « دون ماكسيميليانو » .. أرجوك !! لقد كنتَ تتجاهل وجـود الفتاتين ، كأنهما ليستا إلا غجريتين ، من بلادك ! أو « موريسكتين » .. من أصل أندلسي .. لم يعـد لهما ، في البلاد ، حول" ولا قـوة !!

هـزّ « دون ماكسيميليانو » رأسه ، يصطنع الفهم المفاجىء والأسف .. وقـال ..

ـ صحيح .. صحيح !.. لقـد نسيتُ .. لكن الأمر ليس على هـذه الخطورة التي تُبدي .. أو هـذه السرية التي تدّعي !.. فلا أظـنّ إلا وأن « جميع » من في هذه البلاد ، على علـمٍ بـ « جميع » ما يدور في « جميـع » الرؤوس !! « وجميعكم » .. في سرّكم ، إنما تضحكون واحدكم من الآخر .. ويهـزأ بعضكم من بعض !!

ضحكت « ليـزا » .. وقـالت موافقـة ..

ـ وفي هـذه الأثنـاء .. الموج يعـلو .. والمركب يغـرق !!

* * *

ما إن عـادوا الى الفندق بعد الغداء ، يبغون الراحة ، ودخلت « ليزا » الى غرفتهـا .. حتى أسرعت « بالومـا » تلحـق بـ « مكسيم » تدركـه ، قبل أن يدخـل غرفته .. وتقـول ..

ـ إننا لم نجلس الى بعض ، بمفردنا ، ثانية واحدة ، منذ وصولك !

سـخر من قولها بحركةٍ من شفتيه .. فأردفت ..

ـ وهـل الذنب ذنبي ، إذا لحقتَ بي « ليزا » الى القاهرة .. ثـم .. إنك لم تُشر الى أن في نيّتك أن نلتقي .. هنـا !

ردّ فـراس في لهجـة مبطّنـة ..

ـ ولا أشرتِ أنت إليّ ، بأنك ستأتين الى القاهرة ، في عمـل !

تلفّت حـوله .. ينظر الى طـرفي الرواق المظلم ، الطويل .. ثم قال .. مشيراً إليهـا بالدخـول ..

ـ يحسن بنـا .. أن ندخـل ..

وولجا غرفته .. يجهـد فراس ألا يدنو منها ، بما يبعث النار في رغبتـه المستعرة لجسدها .. فتشاغل عنهـا هنيهة ، ثم قـال في بساطةٍ من هو على علـمٍ بجميع ما يجـري حولـه ..

ـ بالمناسبة .. هل أنهيتِ عملك ؟!

هزّت رأسها بالإيجاب ، ثم قالت ، تتعجّب لمفاتحته لها بهذا الأمر ...

ـ تقريباً ..

تنظر ملياً في عينيه .. لا تعرف مدى اطلاعه بالضبط على نوعية عملها .. عاد الى السؤال ، في نفس اللهجة .. الحياديّة ، العالمة ِ بكل شيء ..

ـ هل تبتاعين .. أم تستبدلين ؟!

بدا لها أنه سأل ذلك في بساطة تامة ، أدركت من خلالها ، أن لا مجال للتخفّي أمامه ، وقد بيّن لها أنه على علم بتفاصيل خطيرة !

ـ لا .. أنا ، إنما أبتاع ، فقط .. وأحياناً .. لا أقوم إلا بدور الرسول ، بين معارف غالي ، أو السفارة ..

ـ وماذا تنتظرون ؟.. ماذا تبقّى أمامك لإنهاء العمل ؟

ـ وصول المسؤول ، في جمارك المطار .. الذي سيسمح بشحن الصندوق ، دون تفتيش .. هذا كل ما في الأمر ..

تريّثت .. ثم قالت ، كأنما آل إليها دور طرح الأسئلة ..

ـ وأنتَ ؟! قل لي كيف عرفت أنني في القاهرة .. ثم ، من الذي أطلعك على تفاصيل مهمّتي هذه .. هنا ؟!

أجابها في بساطة .... ووضوح ..

ـ وهل « آماديو » لا يكنّ الصداقة ، إلا لكِ ؟ ثم .. هل تظنين ، أن حلقة « الكاردينال » هي الوحيدة ، التي تهتمّ بهذه الأمور !

كادت تصيح ، فجأة ، لفرط دهشتها .. وقالت ..

ـ لقد وجدتها !! هذا هو السر ، إذن !! إنه تضارب مصالح بين « الأسكوريال » و « الفاتيكان » !! ولقد جئتَ تُشرف على أعمال مكتبتكم ، بنفسك ! يا لأختي ، مِن امرأة سخيفة !.. لقد تصوّرت عنك أشياء ، وأشياء !! والمضحك في الأمر .. أنها وضعت نفسها ، هي ، محوراً ، لجميع تلك التصورات !

سُر فراس للمنعطف الذي اتخذه الحديث .. وما كان يميل للتباسط

مع « بالومـا » في أمورٍ قـد تضطره لابتكار المزيـد من التفاسير الكاذبـة التي قـد تنقلب عليه في يـوم من الأيـام ..

أمعن النظـر إليها ، تداعب خياله ذكريات دافئة من الفيللا « أرميتاج » في جبال « الأبروتزي » .. لكنه أمسك عن الانزلاق وراء شهوته المتربّصة .. فقال لهـا ، في بـرود ..

ـ هـلاّ استرحنـا ؟.. يظهـر أن أمامنـا ليـلة ليـلاء ، في صحبـة صديقـك ، غـالي !

* * *

خـرج غالي في المساء بضيوفه الأجانب الثلاثـة ، الى ليـل القاهـرة البـديع ، يـودّ لهـم أن يعبّوا من جميـع ما في تلك المدينة من مصـادر اللهـو ، والمتعـة ..

قـال ، في لهجـة عمليّـة ، معترضـة ..

ـ اسمعوا .. إن سهرتي لـن تتـم على خيرٍ ، إذا لم أبدأها بالخطـوة المناسبة !.. لن أغيب مع « دون ماكسيمليانو » .. إلا برهة قصيرة !

وأشـار الى سائقه بالتوقف في مكـانٍ معيّن ، على شـاطىء النيل .. فترجّل مع ضيفه ، واتجهـا نحو قاربٍ مشدود الى الشاطىء .. تغطّي ظهره خيمة كالهودج .. يُدخل إليهـا عبر جسرٍ ضيّق ، خشبيّ .. كان يتمايل في رفقٍ ، وفقَ اهتزازات القارب .. يحرّكه موجٌ خفيف ..

كان عدد من الأشخاص ، قد توزّعوا داخل الهودج .. يكادون يملأون مقعدين ، منخفضين ، طويلين ، صفّا على جنبيّ القارب .. يتنقّل خرطـوم نارجيلة ، كبـيرة ، بينهم .. تعالت منها أبخرة الحشيش النافـذة العبـق .. أُسدلت الأستار فوق جميع منافذ الهودج ، لمنع تسرّبها الى الخارج !

كادت تعشى عينا فراس لكثافة تلك الأبخـرة !.. ولم يكـن يجهـل مفعولها .. فنبّه مضيفه الى أنه لا يميل الى تعاطيها .. وانه يؤثر العـودة الى السيارة ، وانتظـاره فيهـا ..

أدرك مَنْ حوله سبب تهـرّبه ، رغم اللغـة الفرنسية التي كان يتكلم

بهـا على الدوام ، مـع مضيفه .. وسَمِع بالعـربية تعليقاتٍ مُضحكة .. تجاهَلها .. جميعهـا ، تسخر من ضعف شـكيمة أمثاله ، مـن الأجانب .. لا يتحمّلون عادات الرجال !.. وان ما من رجـلٍ ، يستحق ذلك اللقب ، إذا صعب عليـه الصمود أمـام عـدد من « الأنفاس » من تلـك النارجيلة .. كـل مسـاء !!

جلس « دون ماكسيمليانو » في السيارة ، يصف للفتاتين جـو القارب ، داخـل الهودج ..فضحكت « بالومـا » متعجّبة .. لا تفهـم سبب إيثـار غالي تناول ما يتناوله ، داخل مركبٍ عام ، على شاطئ النيل .. حين يستطيع القيـام بذلك داخل بيته ، آمناً ، وادعاً .. وكان غالي قـد عـاد إليهم ، تلمعُ عيناه انشراحاً لما تذوّق .. أسرع يقول لها مفسراً ، قبل أن يدركه الخدر ..

ـ « بوبا » ان اللطيف في ذاك المركب .. هو جو المشاركة الذي فيه .. خصوصيّة عذبة .. إنهـا إلفـة طقوسيّة ، من نوع خـاص .. تشابه تجمّع الانكليز في الـ « PUB » ، على كـأسٌ مـن الجـعة ..بالطبع .. على مستوى أرقى بكثـير ..

ثم أشعل لفافة عادية ، عبّ منهـا نفساً عميقاً .. وأضاف ..

ـ .. ثـم .. إنني ألتقي في ذاك المركب بأناسٍ لحظْتهم فيـه ، لأول مرة ، منذ زمن بعيد .. خمسة عشر عاماً .. أو أكثر ..

تبـاطأ كلام غـالي .. وكفّ منـذ تلك اللحظة عن الردود للاذعـة ، المحرجة .. تحوّل فجـأة الى إنسانٍ دمثِ الطباع ، شاعري النظـرات .. أخذ يتخلّى بالتدريج عن حليّه .. يرفع عن عنقه سلاسله الذهبية .. الواحدة ، تلو الأخرى .. يناولها ، في صمتٍ ، لسائقه ، الذي تعوّد ذلك .. وكان قـد فتح صندوق السيارة ، استعداداً لتقبّلها .. فما إن تخلّى عن آخـر خـاتمٍ يحيط بأصابع يديه ، المتنفخة ، القصيرة .. حتى استرخى .. فأسند رأسه الى الوراء .. وقـال ، في صوتٍ حـالمٍ .. واعٍ ..

ـ « دون ماكسيمليانو » .. هل نمضي الآن لزيارة ما وعَدتُك بـه ..

« بالوما » ؟.. « بوبا » .. إن الوقت المناسب هو ، إمّا .. الآن .. قبل العشاء .. أو في أولى ساعات الصباح ..

خشيت « بالوما » أن يبتكر غالي فكرةً مفاجئة ، تثنيه عن اطلاع « مكسيم » على برهانها القاطع ، الذي سيثبت له أن الطقوس الجنسيّة الغربيّة تكاد تكون واحدة ، في جميع البلاد !.. فقالت ، على الفور ..

ــ بل اذهبا الى الحمام .. الآن .. ثم نمضي الى العشاء .. هيا .. إني أحس بالجوع منذ الآن !

ردّ غالي عليها ، في صوته الناعس ، موجّهاً كلامه لسائقه ..

ــ .. اذهب ، الى « سيدنا الحسين » .. وتوقف في مكان مأمون الجانب ..

* * *

سرعان ما توقفت السيارة الفخمة في ركنٍ هادىءٍ ، منعزلٍ .. يكاد يكون مظلماً .. لولا نور مصباح كهربائي عتيقٍ ، تدلى من سلكٍ تلاعب به الهواء ، فراح يحرك أمواج نوره البرتقالي الباهت ، على جدرانٍ طينيّة متآكلة .. تحدّ طرقات ضيقة ، ما كان فراس ليجرؤ على السير فيها ، لولا أنه في صحبة إنسان لا يخافها ، رغم ضعف بنيته الظاهر .. يعرف بالضبط الوجهة التي يقصد !

لم تكن تلك ، دروب دمشق القديمة .. كانت ، الى وقتٍ قريب ، آهلة بخيرة سكانها .. لا تزال تصارع الزمان ، آملة أن يعود إليها من يُنقذها من الإهمال والدمار ! تلك الحارات القاهرية ، القديمة ، باتت عظاماً متآكلة ، لجسدٍ فارقته الحياة ، منذ أمدٍ طويل .. منذ قرر ملوك مصر الألبان وطبقاتها الحاكمة المتفرنسة .. التخلّي عن تراثها العريق .. واللحاق بالتطوّر ، عن طريق الجري وراء كل ما هو أوربي !! فتخلّت ،بذلك ، عن أروع القصور العربية ، الإسلامية .. متاحف ، بذاتها .. ينخلع قلب الإنسان أسفاً ، ولوعة ،

على ما كان فيهـا من بديع الزينة ، والفـن !! يشهد على ذلـك ، حتى الآن ، ما رسمه فنانون أوربيون ، تجوّلوا في تلك المدينة ، في بداية القرن الماضي !!

ضحك غـالي ، رغم حالة الخدر التي كان هاتئاً إليهـا .. وقال .. وهو يجدّ في السير ، عبر حارة ، كاد الظلام يخيّم تماماً عليهـا ..

ــ لست أدري ما الذي حدثتْك عنه « بالوما » .. بالضبط !.. هـل أنذرتْك برثاثـة المكان .. مثـلاً ؟!

ــ لا .. أظـن ذلك ..

ــ إذن .. يجب عليّ إنذارك ، وتحذيرك من هذه الأمور .. منذ الآن!.. فلا تُفاجأ .. أو تصرخ ، هلعاً .. لقِدَم المكان ، وتهالكِ أثاثـه ..

عاد الى الضحك المكتوم .. ثـم أردف قائـلاً ..

ــ أما عن القذارة ، والإهمال .. فحدّث ، ولا حـرج !

تعجّب فراس ، وقال فجـأة ، مستنكراً مكْر محدّثه ..

ــ فلماذا نذهب إليـه .. إذن ؟!

ردّ عليه غـالي ، في بـرود ..

ــ عزيزي .. أنا ، لم أقترح هـذه الزيارة على أحد ! إنها « بالوما » .. أم ، هل نسيت ؟! ولقد أرادت أن تُثبت لك أمراً .. فاتني سؤالكما عنه !

كانا قـد قاربا ما قصدا إليـه .. أثار مدخله نور" خافت" .. بـدا لهما من بعيد .. فقال غالي ، كأنه وصل الى تلك النتيجة بعد محاكمة طويلة ..

ــ على أية حال .. لن تندم على هذه الزيارة .. قد تندم عليهـا ، وأنت داخـل الحمام !.. بل .. قد تعتريك حاجة ماسّة للصراخ .. فلا تفعـل !.. إذ ما مِنْ أذى يمكـن أن يلحـق بأي إنسان ، مـن هـذا الشعب المسالم ، اللطيف !.. جلّ ما عليك القيام بـه ، هو تجاهل القذارة .. والتنبّه لعـدم الجلوس ، إذا كنـت راغباً في مجانبـة الحشرات التي تعلـق في ثيـابك .. وأعضـاء جسدك !!

تبسم فراس لما سمع ، وأدرك أن غالي إنسا يقوم بإثارته .. يتعمد ذلك .. يحركه دافع خفي للتحدي .. كأنه يرمي الى أن يُظهر ا « دون ماكسيميليانو » عجز الإنسان الأوربي عن تحمّل ما ألِفته تجربته الخصبة ، الواسعة !

دلف الإثنان عبر بقايا بابٍ نخرٍ مفتوحٍ على انحدارٍ بسيط .. فكاد فراس يتعثّر فوق درجاتٍ تنأت حجارتها من طينتها المهترئة .. كأنها أسنان متآكلة ، كشف عنها مخلوق عجيب ، مفتوح الشدقين على الدوام !

نزلا السلم الى باحةٍ مكشوفة .. تحيط بجوانبها غرف صغيرة من الخشب النخر .. والى يسارها ، باب حديدي صدئ .. علق بجدارٍ من طين .. يخرج منه بعض الناس ، ويدخل إليه مِنَ الوافدين ، مَنْ نخلع ثيابه ، وتركها في عهدة أشخاصٍ أشدّاء ، أقوياء البنية ، صارمي الوجوه .. يرتدون أثواباً طويلة ، عمائمهم على رؤوسهم .. يتجوّلون في أنحاء الباحة .. يرتّبون صرر الثياب الرثة ، بعضها فوق بعض ، في صمتٍ ، ووجوم !

ما إن رأى رئيسهم ، غالي وضيفه ، على الباب .. حتى خفّ للقائهما .. يساعدهما على نزول الدرجات الوعرة .. يكاد يحمل غالي ، على ذراعيه ، الى إحدى الغرف الخشبية التي يحتفظ بها لأمثاله من الزائرين ، ذوي المقامات العالية !

أعاد ذلك غالي الى الضحك ، وهو يراقب دهشة« دون ماكسيميليانو » ، وقال لصاحب الحمام .. بالعربية .. في لهجة متعالية ، آمرة ..

— معي ضيف .. يهمّني أن يخرج من هنا ، بانطباع حسن !.. كم من الشباب ، لديكم ، في الداخل ؟!

— .. خيرٌ .. وبركة .. يا سعادة الباشا .. لدينا العشرات منهم !! سيكفونكما حاجتكما .. ويؤدون واجبهم خير تأدية !

— لا .. لا .. إنما ضيفي هنا ، زائر أجنبي .. قد أتى معي ، للتفرّج

فقط !.. أخفض النور .. في المقاصير ، منذ الآن ! ولا تبقي إلا على مصباحِ القاعة الوسطى .. هكذا ، تضيع معالم « النظافة » التي قد تخيفه !

كان الاثنان قد أوشكا يفرغان من خلع ملابسهما..فوقف فراس ، يتلفّت حائراً ، لا يدري أين يضع ، أو يعلّق حوائجه .. وليس حوله غير القذارة ، والجدران الترابية المتآكلة .. المليئة بالفجوات والغبار ..

مدّ الرجل لهما منشفة عريضة ، قذرة ، فألقيا عليها ثيابهما على مضض.. وما إن لفّ غالي مئزراً رثاً على كرشه .. وحذا فراس حذوه .. حتى أسرع خارجاً من الغرفة .. يتبعه ضيفه .. فتجاوزا الباحة .. وناول غالي البخشيش لرجلٍ آخر ، وقف إزاء الباب الحديديّ ، فتحه للضيفين .. ساحباً المئزرين ، فجأة ، عن وسطيهما ..

قهقه غالي لمعالم الرعب التي بدت على وجه « دون ماكسيميليانو » وهو يسمع دويّ الباب الحديدي ، يُغلق خلفه .. ويجد نفسه عارياً ، تماماً ، في ممرٍ مظلمٍ .. يقود الى نورٍ خافتٍ ، بعيد !!

تبيّن لفراس أن إحدى فردتي القبقاب الذي انتعله كانت أعلى من الأخرى ، فكاد أن يخلعه .. مؤثراً الاستغناء عنه .. يسأل رأي غالي في ذلك.. فعاد هذا الى الضحك .. وقال ..

ـ حاول .. وتر !

فما إن وضع فراس قدمه العارية ، على الأرض ، حتى أحس بقشعريرة تسري في جسده ، لما لامسته قدمه من مادة لزجة مخاطية ، كانت قد كست أرض المر .. كادت قدمه تنزلق فوقها ! فعاد ، ينتعل قبقابه على الفور ، يتبع غالي الى الضوء الخافت ، الذي تدلّى من سقف قبّةِ القاعة الوسطى .. تفرّع عن جدرانها عدد من الأقواس ، تقود الى مقصوراتٍ اختفت في العتمة التي خيّمت عليها ، منذ أن أطفأ صاحب الحمام النور عن معظمها ، استجابة لرغبة الزائر الجليل !

كانت القاعة زاخرة بأناس عراة .. معظمهم ، في سن المراهقة ، والشباب .. يتمشون في صمتٍ .. جيئة ، وذهابا .. لا يكترثون لعريهم ، أو لما بان للجميع من حالة هياجهم .. يغيبون في المقصورات المظلمة ، ثم يخرجون منها ، ليعاودوا الدخول الى غيرها .. كأنهم يؤدّون مهمة نخفيّة مدروسة .. مخلوقات عجيبة بريّة ، أسيرة .. تتحرك ساهمة بدافع غريزيّ بين جدران أقفاصها !

قال غالي ، في إعجابٍ ظاهر ..

ــ إن معظم الأجانب الذين يرون هذا المشهد .. يتعجّبون للبساطة التي يتقبّل فيها هؤلاء الشباب حالة العري الطبيعية ، هذه !.. يظنون أن الجميع يمارسون الجنس في مكان ما .. والواقع هو عكس ذلك تماما !.. إنهم لا يمارسون شيئاً من هذا القبيل ، على الاطلاق .. بعد ! وهذا ، من حسن حظي !! كل ما في الأمر ، هو أنك الآن ، في افريقيا !.. ويتوجّب عليك تفهّم ما سوف تشاهده على انه ممارسات طبيعية .. تعود أصولها في الزمان، الى آلاف السنين!..ومن يدري، لعلّها كانت طقوساً فرعونية قديمة !

كان فراس قد تسمّر مكانه ، وقد بردت أوصاله لما رأى .. رغم حرارة المكان .. لا يجرؤ على التحرّك .. يشاهد حركة أسراب الشباب .. يمرّون عراة ، أمامه .. كأنهم لم يسمعوا أو يدروا بمعنى كلمة .. حياء !

أردف غالي ، قائلاً ، في إعجاب ..

ــ ألا تلاحظ جمال أجسام جميع من ترى ؟! أليست ، هذه ، في حدّ ذاتها ، ظاهرة فريدة ؟! وهل تعرف سبب ذلك ؟! إنه الفقر .. يا عزيزي !! العوَزُ .. الذي يُجبِر جميع هؤلاء على الأعمال اليومية المتعبة .. وعلى الاكتفاء بالقليل من الطعام !

عاد الى الضحك ، وهو يقول ..

ــ إنك ، لو تراهم في ثيابهم اليومية .. في خرقهم البالية التي يستترون

بها أجسادهم ، أثناء النهار ، لأفزعك مظهرهم ! أما وهم كما خلقهم ربّهم .. أفلا ترى كيف تزول الفوارق الاجتماعية ، والمادية ، بين الجميع !.. ويصبح الفقير ، المعذّب ، أجمل شكلاً ، وأرقى مظهراً ، من المُترف ، المترهّل، الشبق .. مثلي أنا !! أليس في هذا .. حكمة ؟ !

قال ذلك ، وابتعد عنه .. يسير كمن يتمشّى في حلم ، يلفت بياض بشرة جسده ، النظر .. ويبدو ، بقامته القصيرة ، البدينة ، الملساء ، كأوزّة بيضاء ، مسمّنة ، تتنقّل أثناء الليل ، في غابة تعجّ بالعيون الخفية .. تنتظر منها حركة ، كي تنقضّ عليها ، وتفترسها !!

* * *

طال غياب غالي في إحدى المقصورات المعتمة .. وكان بعضهم قد بدأ التحلّق حول فراس ، مما اضطره لإبداء امتعاضة .. فسار يبحث عن مضيفه ليخبره بأنه يؤثر مغادرة المكان ، وقد نال كفايته من المشاهد الأثرية !

توقّف أمام باب المقصورة المعتمة التي غيّبت غالي ، وقد نابه الذهول لما تبدّى أمامه من مشهد تفوق غرابته الوصف !

كان غالي مستلقياً على الأرض .. وجهه إليها .. لايبدو منه إلا أطراف جسده .. وقد تجمهر في الغرفة ، عشرات الشباب .. تحلّقوا حوله .. يقفز بعضهم من خلف بعض .. يستعينون بأكتاف من أمامهم للقفز .. لمشاهدة ما يجري وسط المقصورة !!

كان فراس قد وقف مبهوتاً .. كأنه في حلمٍ مريعٍ .. يراقب ما يجري لغالي .. داخل مقصورةٍ معتمةٍ ينهمر ماء ساخن من أحد أركانها .. تسري أسراب الصراصير ، على جدرانها اللزجة !! فأحسّ فجأة بدوارٍ نبهه الى حرارة ، ورطوبة ، وخطورة المكان !.. فتراجع خطوات في هدوءٍ وحذرٍ .. ثم دار على عقبيه .. وأسرع ، عبر القاعة ، والممر .. يقرع الباب الحديدي ..

في إلحاحٍ ، وعنفٍ .. يطلب ما يستر بـه جسده ، ليخرج من الحمام !!

* * *

ضحكت كل من « بالوما » ، و « ليـزا » منـه ، لِما طالعهما من شعره الأشعث ، ووجهه المحتقـن ، وهو يدخل الى السيارة ، لا يصدّق أنه قـد نجا من القذارة والرائحة العفنـة ، الرطبة .. ناهيك عما يجري في ذلك المكان !

قالت « بالوما ».. مسرورة ، لفرصة التحدّث اليه ، قبل وصول غالي ..

ــ « دون ماكسيميليانو » .. هل صحيح .. ما رواه غالي ، عن الحمام ؟! قل .. بربّك ! هل كل ما ذكره صحيح ؟!!

ثم تنبهت الى أن « مكسيم » لم يسمع روايـة غالي منهـا ! فأضافت ..

ــ .. هل صحيح .. أنك تعـود ، وأنت في داخله ، الى أيّام الفراعنة ؟!

كان فراس يشعل لفافـة .. يحاول استجماع شتات أفكاره .. فأردفت « بالوما » إزاء صمته ، قائلة ..

ــ لقد كنتُ على حـق ، إذن ! وها هو تأثير الطقوس ، ما يزال باديـاً على وجهك !

سخر فراس من قولها ، في نزقٍ .. وقال ..

ــ أية طقوس ، هذه ؟! وأية أزمنة فرعونية ، تلـك ؟! أنا لـم أشاهـد طقوساً .. ولا معالـم تاريخ !! جـلّ ما شاهدته ، هو شباب في حالة جـوعٍ شديد ! يتقاسمون ذبيحة مطروحة ، أمامهم !

تعجّبت « بالومـا » ! وسألـت ، تستوضح « دون ماكسيميليانو » .. لا تخفـي مرارتها من محاولته إنكـار أي تشابهٍ بـين ما رآه في الحمـام ، وما جرى له في حديقة الفيللا « لودوفيزي » ، في روما !.. فأخلد هذا هنيهـة للصمت ، قال بعدها ..

ــ لا أنكر أنـه كان مشهداً مـروّعاً ! يذكّرني بما قرأتـه في كتـب « البوكاتشيو » * !.. لكن ، شتّان ما بـين ما رأيت اليـوم ، وما تقصدين !

---

* Bocaccio كاتـب ايطـالي ، مـن القـرن الرابـع عشـر ، مؤلـف IL Decameron ، الذي يروي غرائب الحياة في ايطاليا في ذلك الزمان .

« بالوما ».. إن ما شاهدته ، رغم فظاعته .. لم يتجاوز في أبعاده النفسية ، منظر جيفة هامدة .. يتنازع أطرافها سرب" من الطيور الكاسرة الجائعة ! ردّت « بالوما » ، في حنقٍ مكتوم ..

ـ وهل جوع هؤلاء يختلف عن جوع أولئك الذين تستّروا في ظلام الخميلة ؟! في الـ « فيللا لودوفيزي » .. وفي الـ « كولوسيو » ؟!

ـ إن ما بينهما ، لَبُعْدُ الثرى عن الثريا !! فجوع هؤلاء الشباب ، كمّي ، بحت ! فهم لم يسعوا ، مختارين ، الى تلك التجربة ، دون غيرها !.. ولم يفضّلوا الظلام .. وأجواءه الإباحية المثيرة !

ـ ألستَ تبالغ في تبرئتهم من أية ميولٍ منحرفة ؟!

ـ أنا لا أُبرىء أحداً .. من مثل هذه الميول .. خصوصاً أمام حالة الجوع الجماعي الذي يقاسي أمثالهم ، منه ! فهم لا يختلفون في ذلك عن وضع الشباب ، في السجون ، أو البحريّة .. أو ما الى ذلك من أماكن تُمنع فيه عنهم ، النساء ! فأين هذا ، من تجربةِ « فيللا لودوفيزي » أو مما يجري بين جدران الـ « كولوسيو » ، في بلدٍ لا يُمنع فيه الاختلاط بين الجنسين.. وحيث يسعى الجميع ، ذكوراً ، وإناثاً ، لخلقِ حالة توتّرٍ مقصودةٍ في أنفسهم ! يجدونها في أمكنة ، مثل تلك .. حيث تقف الجريمة ، للجميع ، بالمرصاد ! لا يا عزيزتي إن أي شابٍ من الذين رأيت ، يعاف ، شاكراً ، أية تجربة مماثلة ، في الحمام ، في سبيل ممارسةٍ طبيعيةٍ ، مع أبسط النساء.. في حين أن أولئك الذين يسعون الى ظلمةِ ،وإثارةِ سراديب الـ « كولوسيو »، لَيتركون أجمل الأزواج والزوجات ، سعياً وراء تلك اللذّة ، المقرونة برعشة الظلام ، والخوف !

أطرق الى الصمت ، طويلاً ، لا يودّ أن يضيف الى الحديث ما ينبّه « ليزا » الى اشتراك « بالوما » في مثل تلك التجارب ، وإذا بهذه تضحك فجأة .. وتقول ..

ـ إن ما يقوله « دون ماكسيميليانو » لصدقٍ ، كلّه ! ولقد شاهدتُ بأم

عيني أكبر شخصيات المجتمع ، في روما .. في حالاتٍ غريبـة ، لا توصف !! وفي أماكن لا يخطر على بال أحد ، أنهم يتنازلون لزيارتها !!

سألت « بالوما » ، تبتسم في خبثٍ نسائي ، أليف ..

ــ .. أحدٌ ، ممن نعرف ؟!.. هيا .. اعترفي ..

ضحكت « ليـزا » .. وأردفت ..

ــ ولِمَ لا أقول ؟! وهو صديق لكما .. ولا يعـدو كونه بالنسبة لي ، إنساناً ، أسعى للتعرّف إليه !.. إنه الـ « دوقا داوستي » يا عزيزيّ !.. بلحمه ، ودمـه !! ولقـد شاهدته ، هـذا الصيف ، في الـ « بوكّو » عـلى شـاطئ « أوستيا » .. يتنزّه بـين العراة .. يتمشّى في دلالٍ مضحكٍ .. متناسيـاً جسده المترهّل ، المتهدّل .. يظن أنـه آدم .. في ريعـان شبابه !! فمـا إن أقبـل الليل ، وشاهَدَنا ، وكنت إذ ذاك أتبعـه ، مـع رهطٍ من الشباب ، العـراة .. حتى دلف ، في خفّة ، بين الشجيرات الكثيفة ، وانقلب الى حوّاء شبقة .. قامت بجميـع حركاتها السحريّة لاستثارة انتباههم !! رغـم ما حاق به من خطرٍ ، لكونه وحيداً ، في تلك البقعة المنعزلة عـن الأمـن ، والناس .. بـين شباب لا يتوانون عن الضرب ، أو اقتراف أيـة فعلة شرسة أو وحشية ، في سبيل الحصول على ورقة ألف لير !! ثم ، ماذا سبّب مـوت « بازوليني » ، إن لم يكن مثل هذه الممارسات ؟!

ما لبث غالي أن بان من بعيـد .. يخـرج من ظلام الحـارة الضيّقة .. يتمايل ، في مشيته ، لا ينفكّ يمسح جبينه المتعرّق ، والتعب بادٍ على وجهه !

* * *

عبثاً حاول فراس ، تجاهل ما انبعث في نفسه من تقزّز واشمئزاز ، وهو يسترجع ذكرى ما شاهده ، منذ وقـت قصير .. من نظرات غالي الشاخصة ، الضائعة .. وهو يطلب المزيد ، والمزيد ، من الشباب .. حتى أتـى على جميع

من كانوا حوله ، في المقصورة ، وراح بعضهم يُعيد معه الكرة ، من جديد !!

لم يستطع فهم مثل تلك الدوافع النفسية ، الكامنة ، التي يمكن أن تربض في أعماق الانسان . تدفعه للمضيّ قُدماً في مثل تلك الدروب التي لا بد ستقوده يوما الى التهلكة ! أم إنها دوافع لا شعورية .. تحضّ الكائن على الاقتراب حثيثاً ، من حتفه ؟!

لكم قرأ عن مثل تلك الدوافع الانتحارية ، لدى بعض أجناس الحياة .. فتوقف ذهنه ، مذهولاً ، أمام ظاهرةٍ ، مثل انتحار حيوان الـ «ليمينغ» .. لا يفهم كيف تتبدّد غريزة حب الحياة عنده ، لتحل محلها ، محرّضات مجنونة ، تحضّ تلك المخلوقات على الاندفاع في سبيل هلاكها ، في القفز من فوق صخورٍ شاهقة ، ليس تحتها إلا أعماق المحيط ، والصخر الجارح الأصم !

لا شك أنه ، فيما شاهده من تصرفاتِ غالي ، كان أمام ظاهرة أخرى ، من تلك الظواهر الغريبة التي استعصى فهمها على ذهنه .. ولم يقتصر الأمر ، عنده ، على الناحية الفكرية .. بل تعدّاها الى موقفٍ إنساني ، حضاري .. جعله يضغط على نفسه ، أشد الضغط ، كي يُخفي ما بات يحسّ به من تقزز ، كلما نظر الى ذلك الانسان العجيب ، وتذكّر الأشخاص العديدين ممن مرّوا فوقه .. وما يحتمل أن يكون قد اختزنه جسده من جراثيم الأمراض الجنسية .. سوف يوزّعها على غيرهم من المساكين .. غير مكترث الى أنه ليس بين أولئك الفقراء شاباً واحداً ، يعرف الطريق الى علاج نفسه .. وإن وُجد ، فليس بينهم فردٌ واحدٌ يملك ثمن العلاج !

* * *

توجّهوا الى أماكن الطعام واللهو ، دون أن ينوّه أحدهم الى ما جرى ..

تنقّلوا بعد العشاء ، بين عددٍ من الملاهي .. فراس ، ذاهلٌ ، واجمٌ .. لا حيلة له في تناسي ما رأى .. ولا هو قادر على تجاهل ما يدفع إنساناً هامشيّاً ، مثل غالي ، لا الى القيام بفعلته ، فقط ، بل ، الى تأدية ذلك المشهد المريع ، أمام ناظري من يظنه « دون ماكسيميليانو » .. النبيل الإسباني ، الذي يخشى انتقاده ، ولا يكترث لمديحٍ ، إلا إذا أتاه من أمثاله !

تنبّه الى أن للأمر زاوية قطر أخرى .. لعل غرض غالي الدفين من تأدية ذلك المشهد ، إنما كان عكس ما تبادر له للوهلة الأولى .. لعله كان يحقق ، عن طريقه ، رغبته في الانتقام مما يُمثّله « دون ماكسيميليانو » من فوقية أوربية نبيلة ، لا سبيل له لمقارعتها .. ولو أنه كان رجلاً سويّ الميول الجنسية ، لكان ، لا بدّ ، جمع عشرات النساء ، من الطبقة العاملة ذاتها ، وسخّرها للذّته .. يذيقها من الهوان ما يشفي حقداً يولّده احساسه بالعزلة والهامشية !

مهما يكن من أمر .. فلقد قرر فراس ، أن خير وسيلةٍ ، لكيل الصاع صاعين لذلك الإنسان ، البالغ العقد النفسية ، هي المضي في تجاهل ما قام به ، والتصرف نحوه كأن شيئاً ، لم يكن !

ما إن باتوا في طريقهم الى الفندق ، وما إن أحسّ غالي ببعض الراحة إثر ما قام به من رقصٍ عنيف .. وكفّ عن تجفيف عرق رأسه الأصلع .. حتى التفت الى الوراء ، يبحث عن « دون ماكسيميليانو » الذي جلس على المقعد الخلفي ، بين الفتاتين ، وبادره ، في سرور ، وتحدٍّ ..

ـــ هيه .. يا عزيزي .. أنا لم أسمع رأيك بعد !.. ألم يُدهشك ما رأيت .. في « سيدنا الحسين » ؟!

قلب فراس شفتيه ، في عدمِ اكتراث .. وقال ..

ـــ لقد ذهبتَ بي .. تلك المسافة الطويلة ، لأشاهد عشرات الشباب العراة .. في حمامٍ قذرٍ .. لا هندسة فيه .. ولا عراقة !.. إن ما يدهشني في الأمر .. يا غالي .. هو مستوى ذوقك !

امتقع وجه غالي ، وبان العجب في عينيه ، فقال في تردّد ، يستبعد أيّ احتمال للمزاح ، فيما سمع ..

ـــ .. أنا لا أعني ذلك فقط ، بالطبع !.. وإنما .. ماحصل داخل المقصورة! هيه .. ما رأيك في كل ما شاهدت ؟!

ردّ فراس ، على الفور ..

ـ أية مقصورة تلك ؟! إني لم أتزحزح من مكاني ، في بهـو ذلك الحمام الكريه .. خشية الانزلاق على أوساخ الأرض !! ثم .. ألم تلاحظ أني غادرت المكان ، بما فيه من حاشيتك ، فور ابتعادك عني ؟!

فغر غالي شفتيه العريضتين ، دهشة ، وغيظاً ! وعاد ينظـر الى الطريق أمامه ، لا يدري ماذا يقول !!

ربتت « بالوما » خفية على ساق « دون ماكسيمليانو » ، اعجابا بما قـام به !.. وهمست في أذنه قائلة ..

ـ هل كنـتَ تمـارس معي ، كذلك ، مثل هـذه الطـرق الفوقيّة ؟ يا لكَ من إنسان خطير !.. بالرغم من كل شيء .. فأنا لا ألومك ، حتى لو كان الأمر يتعلّق بي !

كانت الساعة قد قاربـت الثالثة صباحاً .. والسائق يقـود الضيوف الى فندقهم .. وإذا بِغالي يأمره فجأة ، في عصبية .. وعلى مسمعٍ من الجميـع ..

ـ عدْ .. الى « الست زينب » !.. الآن !.. فوراً !

والتفت غالي خلفه ، يحدّق في عيني « دون ماكسيمليانو ».. يقول ، في برودٍ مهذّبٍ ، وإصرار ..

ـ لقد غاب عن بالي اطلاعكم على مشهد يستحقّ الانتبـاه ! مشهد .. قد لا تسنح الفرصة لي ، غداً ، أو في الأيام المُقبلة ، أن أقودكم إليـه ، أو الى مثله ! فهلاّ أعرتموني نصف ساعة أخرى ، من وقتكم ؟!

تجاهلت « ليـزا » إصراره المهذّب .. وقالت ، ناعسـة ، مستنكرة .. تدرك ما يهدف إليه ..

ـ أفي مثل هذه الساعة .. المتأخرة من الليل ؟!

ردّ عليها غالي في صوتٍ حازمٍ ، أجشّ .. أسكتها على الفور ..

ـ نعم .. في هذا الوقت المتأخر ! إذا سمحتِ !!

* * *

راح غالي يشير لسائقه ، باتّباع الطريق ، نحو الوجهة المقصودة .. يدلّ

عليهـا بحركاتٍ عصبيةٍ ، صامتةٍ ، مـن يديه وأصابعه .. تعوّد سـترها ، بعضـها ببعض ، نظراً لقبْحها .. وما كان ليهمـل إخفاءها ، لولا ما سـيطر عليه من إحساسٍ بالتحدّي ، لا يتماشى زخمه وصلابته مع قامتـه القصيرة ، وجسده البدين المترهّل !!

تقدمت السيارة الفضيّة ، الفخمة ، في إصرار ، عبر طرقاتٍ غريبـة على مثيلاتها !.. دروبٌ وعرةٌ ، ضيّقة .. مهجورة ، كثيرة المنعطفات .. تجبـر السائق على القيام بعددٍ من الحركات الصعبة لتجاوزها بسلام !.. تهبط فجأة في حفرٍ كالفخاخ ، يستر الماء والطين حقيقة عمقها ، فيتطاير الوحـل في جميع الاتجاهات .. ويلتصق عـلى جدران متثاقلة كادت مراراً أن تمـزّق جوانبها الصقيـلة ..

حملق السائق مراراً في عيني سيّده .. يستشفّهما حقيقة ما في ذهنـه .. لا يفهـم سبباً يبرّر مخاطرته بسيارةٍ لطالمـا أحسّ صاحبها أن في أناقتهـا ، وانسيابِ خطوطها ، جميع ما ينقصُ أعضاءه من تكاملٍ .. وما تفتقـر إليـه حياته ، من وزنٍ ، أو أيّة قيمةٍ جماليّة !! كاد يُحجم عـن التقدم ، في بعض الأحيان .. يلتفت الى سيده .. فيزيـد هذا من تقطيب حاجبيـه ، ويحضّه في صمتٍ ، وإصرارٍ ، على المتابعـة في التقـدم .. ضارباً بقبضتـه المجعّدة في الهواء .. يأمره بتجاوز ما على الطريق من أحجارٍ ، أو مهملاتٍ ، كان لقرقعتها، أو صوت تحطّمها ، أثرٌ زاد من جوّ التوتر الذي طغى على الحاضرين ، دون أن يفقه أحدهم سبباً مقنعاً ، شافياً ، لذلك !

فتح غالي كفّيه فجأة في الهواء .. آمـراً سائقه بالتوقف !! وترجّل على الفور ، من المقعد الأمامي .. ثم دلف في بابٍ متآكل .. ينيره مصباح عتيـق ، خافت .. اختنق نـوره من وطـأة ما تراكم عليه من غبـارٍ وأقذار !

جلّ ما بـان من غالي ، وهو يخـرج من سيارتـه ، ويدلف في الحمام

العتيق ، جنبُ وجهه المغبرّ ، وأكتافه المقوسة .. لكن ، ما عاد منه ، مبتسماً ، متشفّياً ، مزموم الشفاه ، كان مفاجأة للجميع !!

نظروا جميعاً إليــه .. متسائلين ، في ترقّبٍ .. لا يفهمون سبباً للتحوّل الذي طرأ عليه .. فقال ، يكلّم « دون ماكسيميليانو » وينظر ، في الوقت ذاته الى الفتاتين بطرف عينيه .. يبتسم لهما ، في دماثة ، وبرود !!

ــ « دون ماكسيميليانو » .. لقــد فاتــك قصدي ، منــذ حــين .. في « سيدنا الحسين» .. تعال إذن ، أُرِكَ منظراً لن تنساه .. في «السّت زينب» .. منظراً ، من معالم القاهرة ، التي تحبّ .. بملايينها الشابــة الثلاثة .. التــي سوف تتحرّك يوماً ، عــلى حد قولك ، مجتمعة عــلى هدفٍ واحد .. غــير الجنس .. تعال !

وفتح باب السيارة الخلفــي ، يفســح الطريق لـ « دون ماكسيميليانو » بالترجّل .. يقول للفتاتين ، في أسفٍ ظاهر ..

ــ آه .. لو أن في استطاعتكما الدخول .. لمشاهدة ما سوف أقوم به !! على أية حال .. لا عليكما .. فلن يطول بنا الغياب !

ثم أغلق الباب ، وترك الفتاتين في حراسة السائق ، على دربٍ مظلمــةٍ مهجورة ، من دروب « الستّ زينــب » .. يصعب حتى على أبنــاء المنطقة ، الوصول إليها !

دخل فراس في ممرّ ترابيٍّ ، مظلمٍ ، منخفض السقف .. بــان نــورٌ شاحبٌ خافتٌ مرتجف ، في آخره .. وسار وراء غالي .. تقدمه ، يدفع ببعض خيوط العنكبوت ، عن وجهه .. يقول ..

ــ إن الوقت قد تأخّر .. ولقد لجأ معظم المستحمّين الى النوم ..

ــ وهل ينامون .. هنا ؟.. ظننت انه حمام ، فقط !

ــ .. إن ظنّك في محلّه .. لكن الفقراء عندنا .. يستحمّون ، وينامون .. في الحمّام !.. ماذا تريد .. إنه حلٌّ عمليّ .. من اختراعات الحاجة ! بضعــة

قروش .. يستحمّ الفقير ، مقابلها .. وينعم بمهجعٍ دافىءٍ .. يقيه برد الشتاء :

كان صاحب الحمّام قد خفّ للقائهما .. لا يصدق أن النعمة قد هبطت عليه..من حيث لا يدري..في تلك الساعة المتأخرة !.. يأسف لنوم عمّاله،ونوم من يُحسن استقبال « الخواجات » ، في آخر الليل !!

أدرك على الفور أن « دون ماكسيميليانو » أجنبيّ .. فتوجّه الى الخواجة المصري ، في تساؤلٍ ولهفةٍ .. يستزيده بالإشارات من الأجرة المتّفق عليها .. ثم قال ، مسوّغاً طلبه ..

ـ ولِمَ لا ؟ ألا يريد .. هو الآخر .. عدداً منهم ؟!

ردّ غالي على الفور ، في تبرّم ، وتعالٍ مسرحيّيْن .. لا يجرؤ على استعمالهما ، في أسلوبه المتمادي .. إلا مع الفقراء ، والخدم ..

ـ لا .. لا .. قلت لك .. أنا ، وحدي .. فقط !! أفٍّ منك !!

ندم صاحب الحمّام على قوله الذي أقصى الزبون الأجنبي عن المشاركة .. ولو انه أخلد الى الصمت ، فلعلّ الأجنبي كان قد أقدم على مبادرة ما ، ناله منها الربح ..

قال ، متأسفاً على ما بدر منه ..

ـ أنا لا أقصد شيئاً..يا بيه !..فالمكان ملككما ، تفعلان فيه ما تشاءان!

كانوا قد خرجوا من الممر الترابي ، وولجوا قاعةً مستطيلة الشكل ، مترامية الأطراف .. أرضها حجريّة ، يتصاعد البخار من ماءٍ يسيل على ميلٍ بسيطٍ في مقدمتها .. يسيطر عليها نورٌ شاحب ، خفيّ المصدر ..

نظر فراس ، وإذا بلونِ أرضها الترابيّ ، الذي تلاعب برؤيته شحوب الإضاءة المصْفرّة ، المعشّقة بالرطوبة ، ووشاح البخار الشافّ .. يتبدّى عن مئات الأجساد العارية ، المتفاوتة السمرة .. استلقت جميعها على الأرض ، في أوضاعٍ جامدة ، ساكنة .. جثثٌ ملقاةٌ في مشرحةٍ .. بعضها انكمش على جنبه .. في اتجاه واحد .. شيوخٌ ، تهدّلت طبقات جلدهم المتجعّد ، فباتت

أقفاصهم الصدرية ، وعظام أطرافهم كالعيدان الجافة .. تقاربت الأجساد ، بعضها من بعض .. تسعى في عريها الى تبادل الدفء ، وقد فتَرت حرارة الأرض الحجريّة تحتها ، ومال الماء الذي يتخللها ، للبرود ! وبعضها الآخر ، أجساد" لفتيةٍ مفتولة العضلات ، اتخذت ، في سباتها ، جميع الأوضاع المُمكنة ، بدت ، هي الأخرى ، جثثاً هامدة ، قد فارقتها الحياة .. إلاّ أغربها ، وهي التي تمدّدت على ظهورها ، منفرجة الأفخاذ ، والسوق .. وقد تدلّت أعضاؤها .. بعضها ، تنبض بحركة دفق الدم ، وبعضها الآخر ، ارتفعت في الهواء ، ليس سواها من ذليل على أن أصحابها ما زالوا ، على قيد الحياة !

وقف فراس ، مشدوهاً لغرابة المفاجأة ! يظنّ أنه في أحد بيوت الموتى ، في الصين .. أو أنه يعيش لحظة سحيقة البعد ، من تاريخ مصر القديم ، ينظر الى جثث معدّة للدفن ، أو التحنيط !!

لعلّ وحشة وغرابة المكان ، كانتا قد نالتا حتى من برود غالي ، وتجربته الواسعة .. فوقف ، هو الآخر ، حائراً ، مرتبكاً ، في البدء .. يسعى إدراكه لاستيعاب ما انبسط أمامه من مئات الأجساد الساكنة ! ثم ما لبث أن أبدى بعض التبرّم ، وقال للرجل ، في صوتٍ نزقٍ ، خفيضٍ ، يُخفي بعض الوجل ..

ـ لكنهم نيام ! جميعهم !! ما هذا ؟! ما كنّا قد اتفقنا على هذا !! أفٍّ .. ماذا نفعل ؟!

نظر الرجل إليه ، يتعجّب لما سمع .. وقال ..

ـ اختر ما شئت منهم ، يا « خواجة » .. اختر العدد الذي تشاء ! والباقي عليّ ، أنا !!

برقت عينا غالي لما سمع .. والتفت يُراقب وقع قولِ الرجل على مسامع « دون ماكسيميليانو » .. ثم تجاهَلَهُ ، فجأة .. وعاد يُمعن النظر فيما اندثر أمامه من ضحايا .. رافعاً ذراعه ، مادّاً سبابته ، يهزّها .. مشيراً الى بعض من راقت له أجسادهم ، وأعضاؤهم .. فقال ..

ـ هذا .. وذاك !.. وهذا !.. وهؤلاء الثلاثة هناك !!

اندفع يشير الى عـدد كبير منهم .. ضاع ترتيبه ، على صاحب الحمّام.. فما كان من هذا إلا أن التفت الى جانبه ، وأخذ وعاءً كبيراً ، غطّسه في برميل ماءٍ قرّبه ، حتى امتلأ .. ثم رفعه ، وبدفعةٍ واحدةٍ ، عريضةٍ ، قذف بما فيه ، على النائمين .. سافحاً الماء البارد على أجسادهم !! ثم أعاد الكرّة ، عدداً من المرات !! في كلّ مرة ، يهيل الماء على أجسادٍ لا تزال تغطّ في سباتٍ عميق !! يصيح للنائمين ، بصوت غريبٍ مرتفع .. ينهرهم ، يحضّهم على النهوض !! صوتُ القدرِ ، يصرخ على الأجساد .. يأمرها بالنهوض ، من قبورها .. لتواجه قدرها المحتوم !!

كان فريقٌ منهم قد تناهضوا على أكواعهم ، وعيونهم ما زالت مغمضة ، لا يفهمون من معنى لما حل عليهم فجأة من بلاء .. وفريقٌ آخر ، رفعوا أذرعتهم، يحتمون بها من قذف الماء البارد .. وقد بدأوا تأوّهاً عميقاً ، مصدوماً ، ما لبث أن تجمّع ، وارتفعت نبرته المبحوحة ، فتحول الى جؤارٍ أجشٍّ .. محموم !!

صاح بهم صاحب الحمام في شراسة ، وتهديد .. يأمرهم بالصمت .. ثم أشار الى بعض من استفاقوا ممن كان الخواجة قد أشار إليهم .. وفي الوقت ذاته ، استلّ عصى طويلة ، دقيقة ، كانت غير بعيدة عنه ، راح يلوّح بها في الهواء ، منذراً من قد تسوّل له نفسه عصيان أوامره ..

ـ أنت .. تعال !.. وأنت ، هناك !.. وأنت !.. وأنتم .. قوموا !.. تعالوا !.. جميعكم .. هيا !

فتناهض هؤلاء .. في كسلٍ وخضوعٍ .. بينما عاد الباقون ، ممن أدركوا أن الأمر لم يعد يعنيهم .. فاستلقوا على الأرض ثانية .. وغطّوا في النوم من جديد !

لم ينتظر فراس بقية الكابوس ! استدار على عقبيه ، واتجه فوراً يقصد الرواق المظلم .. وباب الحمام !!

كاد يصطدم في طريقه ، بشخصين ، أخفت ظلمة الممر ، وعتمة الباب ، وجودهما .. واذا هو أما « بالوما » و « ليزا » .. تسلّلتا الى مدخل الحمام خفية !! كانتا قد وقفتا ، في آخر الرواق .. تسترقان النظر !!

* * *

قالت « بالوما » ويدها ترتعد ، وهي تغلق باب السيارة ..

ــ لو أني قرأت ما شاهدته الآن ، في كتب الاساطير .. لظننته إسفافاً في المبالغة !.. يا إلهي !.. يا إلهي !.. « مكسيم » كيف يحصل هذا ؟! كيف يصل الانسان ، الى هذا الدرك ؟! في هذا العصر !

شدّ فراس على أسنانه ، يكتم غيظه ، في سكون .. وقال ، يغالب حاجة ملحّة للبكاء ..

ــ إن الدرك يقع في فعلة أولئك الذين يستغلّون فقر ، وعمى الآخرين .. لتحقيق نزواتهم !

ــ وتلك الأجساد النتية ؟.. كيف تُسيّر بهذا الشكل ؟ كيف تؤمر بهذا الصلف ؟! كيف ؟!.. ألا عقول لها .. أليس لها إرادة ؟! « ماكسيمليانو » أين نحن ؟! أي العصور هذه ؟!

ــ بلى .. بلى .. إن لها إرادة .. لكن الفقر قد خدّرها أو سحقها !.. أين تتّجه الإرادة ، في عقول لا تقرأ ؟! عقول .. جُرّدت من تاريخها ؟! إن كرامة الشعوب ، في تاريخها !.. وهؤلاء ، مساكين .. جُرّدوا من تاريخهم الحقيقي !.. « بالوما » إنما هي مسألة وقت .. وستعرف هذه الأجساد يوماً ، كيف تأكل لحم ظلاّمها .. وترمي بعظامهم للكلاب !!

* * *

القسم الثالث

الفصل الأول

كانت فكرة اللقاء بين كلّ من الكاردينال « فيليتشي بانفيلي » .. والدوق « ماكسيميليانو دون كارلوس هيريديا دالبا » قد اختمرت ، في ذهن الطرفين .. ولم يبق من عقبة ، دون تحقيقها ، إلا اختيار الوقت المناسب لها .. وانتهاز أول فرصة ، تسمح فيها صحة الكاردينال ، المتداعية ، بذلك ..

ما إن عاد فراس الى روما ، وزار من أزمع توثيق علاقته بهم ، من المعارف والأصدقاء ، حاملاً لهم الهدايا من الشرق ، حتى انتهز أول مناسبة ، خلال زيارة قام بها ل « أماديو » ،دوقا « داوستي ».. نوّه له فيها برغبته في مقابلة الكاردينال ..

ردّ « أماديو » ، على الفور ..

ــ « دون ماكسيميليانو » .. عزيزي ! إن « فيليتشي » ينتظر هذه البادرة منك ، منذ أمد طويل .. ألا ترى أنك .. تأخرت ؟!

ــ إنها مشاغلي .. منعتني عن ذلك ، قبل الآن ..

ــ آه !.. إذا كنت تنوي ربط عرى الصداقة معه .. فلقد كان عليك لقاءه .. قبل سفرك الى الشرق ! حين كان يتساءل عن سبب تمنّعك عن مقابلته ! إن الكاردينالات يا عزيزي .. لشخصيات صعبة .. كما تعلم ! وحسّاسة جداً !

ــ وهل فات وقت ذلك ؟.. على أية حال .. إن الصداقة ليست شـرطاً ، لعقـد مثل هذا اللقـاء .. فأنا ، إنما أودّ التحدّث إليه ، فيما يتعلق بقضيـة هامـة ، تشغله .. بل ، وتشغلنا جميعاً ..

فرك « أماديو » كفّيه ، غبطةً .. وقال ، في تسارع ..

ــ كنت واثقاً !.. لقد كنت متأكداً أنك ستقوم بمثل هذه المبادرة الهامة ، من تلقاء نفسك !.. فلا أحـد يستطيع طلبها منك .. نظراً لأن ما من أحدٍ على علم ، أو على ثقة من أنك تملك نسخة أصلية عن الفهرس !

لحظ فراس « أماديو » بطرف عينيه .. وسأل ..

ــ وهل الكاردينال .. على علمٍ بذلك أيضا ؟.. هل هنالك .. من أطلعه على ذلك ؟!

تبسّم « أماديو » ، كطفلٍ ، ضُبط وهو يسرق الحلوى ..

ــ « ماكسيميليانو » !.. واعذرني اذا ناديتـك باسمـك الأول ، دون تكليف .. هل تظنّ ان من العدل ، حجب مثل هذا الخبر عنه ؟! إن « فيليتشي » على حافة قبره !

أخلد فراس الى الصمت ، يعيـد ترتيب الأمور في ذهنـه .. ثم قـال ، في هـدوء ..

ــ أفهمُ قلق الجميع ، لسرقة الفهرس .. أو لاختفائه لسببٍ مجهـول ، إذ أن الخطوة التي قد تلي ذلك ، هي سرقة المخطوطات نفسها .. لكن .. لماذا كل هذا الاهتمام بوجود نسخة أخرى عنه ؟! طالما أن المخطوطات ما زالـت في أقبيـة « الفاتيكان » .. وفي حرز أمين ؟!

رفع « أماديو » أصبعه .. كما كان يحلو له أن يفعل ، حين يملك الجواب على ما يحيّر غيره .. وقال ..

ــ آهاً .. هنا تكمـن العقـدة الكبرى .. أو الطامـة الكبرى !.. إن المخطوطات ، يا عزيزي « ماكسيميليانو » ، ليسـت في الـ « فاتيكان » ! أو في أقبيته ، على الأقـل .. أو بمعنـى آخر .. إنها لم تبـق هنـاك .. لأنها لـم

تَعد الى أقبية المكتبة ، أصلاً ، بعد الحرب .. كما كان مقرراً لها !!

نظر فراس إليه ، في استغراب شديد .. وقال ..

ــ لست أفهم ! لقد علمتُ من مصدرٍ موثوقٍ أنهـا في المكتبـة .. في الأقبيـة ، بالذات .. بل ، في حرز أمين .. وإلا .. فأين تكون ، إذن .. إذا لم تكن في الفاتيكان ؟!

سخر « أماديو » ، وقال ..

ــ أي حـرزٍ أمين ، ذاك ! ما دام الفهرس قد سُرق منه ؟! هـل تفهـم ما أعني ؟! انها فكرة « فيليتشي » .. ولقد كانت فكرة صائبة ، كما برهنت على ذلك ، الأيام !.. قال .. يحتفظُ بالمخطوطات ، في أحـدِ الأديـرة البعيدة ، الآمنة .. بين غيرها من المخطوطات التي لا يقترب منها ، أحد .. بينما يُشـيع أنها في المكتبة .. ووجود فهرسها ، مع القيّم ، يشهد على ذلك !

أكمل فراس قول « أماديو » ، وقد عادت ، في ذهنه ، آخر قطع الأحجية الى مكانها ..

ــ ولا أحد يعرف مكانها الحقيقي ! نظراً لأنه ما من إنسانٍ لـه الحق في طلب مراجعتها ! أو حتى مجرّد مشاهدتها !

تابـع « أماديو » كلامه ، كمن لم يسمع قول محدثه ..

ــ .. من يدري ما الذي جال في ذهـن « فيليتشي » .. مؤخراً .. حتى طلب الفهرس ! لعلّه أراد تحريكها من مكانها .. أو ، إعادتها ، الى المكتبة .. أو .. من يدري ؟! المهم .. هو أنه طلـب الفهرس من القيّم الحاليّ .. فـلم يجده ! عندئذٍ ، اكتشف أمر سرقته !

راح « أماديو » يحدّق في عيني فراس ، في صمت .. ثم قال ..

ــ هل تفهم .. الآن ، أهمية نسخة عـن الفهرس ؟! « ماكسيمليانو » !.. إنه الطريق الوحيد للتعرف الى تلك المخطوطات ، وإعادة حصرها ! إن مجهود مئات السنين .. مجهود قرون طويلة .. موجود في مكان ما .. بين آلاف الكتب

المماثلة ، ولا سبيل للتعرف إليه ، دون عناوينه !

هزّ « دون ماكسيمليانو » رأسه ، موافقاً، لا يعرف كيف يُخفي ما انتابه من إحساس بالقـوة ، والتشفّي .. نظراً لما أدركه من الأهمية البالغة لوجود فهرسه ، هو .. وقال ..

ـ .. لا أظن أن في استطاعتي إطالة البقاء ، في روما .. أرجو إعلامي في أقرب وقـت ، أين ، وكيف ألتقي بالكاردينال !.. هـذا ، إذا كـان ما يزال نيافته ، مصراً على مقابلتي !

لم تمض أيام على ذلك الحوار ، حتى حُدّد موعدٌ للقائهما ..

تقدّم عدد من رجال الأمن ، في ثيابهم المدنيّة ، حيث كـاد فراس يوقف سيارته .. يسائلونه ، في لطفٍ حذرٍ ، عن الوجهـة التي يقصدها في تلـك المنطقة السكنيّة الأثيرة ، الخالية من المـارة .. فما إن عرفوا وُجهتـه ، حتى أشار أحدهم الى حارس آخر .. يقف خارج بابٍ حديديٍّ أسود ، مزخرف ، أن يفسح الطريق .. فدلفت سيارة فراس ، في باحة قصـرٍ حَجبت رؤيته ، عن الطريق العـام ، أشجار السرو ، والسنديان ، وسور عريض مرتفـع ، مـن الآجرّ الأحمر .. زُيّنَ بِكُراتٍ كبـيرة الحجم ، من الرخـام الأبيض .. صفّت على أعلاه !

خفّ لاستقبال « دون ماكسيمليانو » شابٌ ، طويل القامـة ، وسيـم الوجه .. زاد من بياض وشحوب بشرته ، لون ثيابه السوداء .. وشعرٌ أملس كثيف .. غطّى جبينه وأذنيه ..

تبسّم الشاب للضيف ، في لطفٍ مدروس ، وقال في أدبٍ جمّ .. في إيطالية تشوبها لكنة شمالية ..

ـ هل تسمح ، نيافتك ، بأن تتبعني .. لقد آثر ، نيافتـه ، استقبالك في

جناحه الخاص .. إنه متْعَب .. بعض الشيء منذ هذا الصباح .. متوعّك الصحة ..

سار « دون ماكسيمليانو » في صمتٍ ، وراء الشاب .. عبر قاعة دائريةٍ ، فسيحة .. أرضها من الرخام الملون ، المعشّق بالزخرف .. تحيط بها أعمدة من المرمر الأخضر والورديّ .. وصعدا سلّماً ، عريضاً ، مفروشاً بالسجاد الأحمر ، يقود الى الدور الأول .. حيث تابعا سيرهما عبر عددٍ من الممرّات والسلالم الداخلية .. أوصلتهما ،في النهاية الى بابٍ خشبيّ منحوتٍ .. طَرق الشاب عليه ، طرقاً خفيفاً ، ثم فتحه .. مشيراً الى الزائر بالتقدّم .. مسْرعاً وراءه .. معْلناً لسيّده وصول الضيف ..

جلس الكاردينال « فيليتشي بانفيلي » في ثيابٍ بيتيّة من القطيفة السوداء ، والحرير الأبيض .. إزاء نافذةٍ عريضة ، ذات أستارٍ مخمليةٍ ، عاليةٍ ، خضراء .. داكنة اللون .. حجبت نور النهار .. تسرّبت منها أشعّة شمسٍ شتائيّة ، سقطت خلف الكاردينال على جدارٍ خشبيٍ .. كُسي قسمه الأعلى ، بالحرير الدمشقي ، اللامع .. وعلّق عليه عدد كبير من اللوحات .. معْظمها ، لأسلافه ، من نبلاءٍ ، يرجع تسلسلهم التاريخيّ ، الى قدّيسٍ عاش قبل سبعة قرون ..

كان لصوت الكاردينال ، وللطريقة التي جاهد فيها للنهوض لاستقباله ، أثر" طيب" على نفس « دون ماكسيمليانو » .. أكّده له ، ما بان من ملامح الكاردينال الشافّة .. وابتسامته الرقيقة ، المهذّبة ، التي تحاول عبثاً تَجاهُل آلام مرضٍ عضال ..

قال الكاردينال ، لضيفه ، في عطفٍ صادق ..

ـ اجلس يا بني .. اجلس .. هنا ، قربي !.. تعال .. أَنظُرُ الى ملامحك .. آه .. إنك لكما تصوَرتُ .. وسيم" ، صارم ، متعالٍ !.. حتى يداك ، القويتان ، الجميلتا الخطوط .. تشيران الى أصلك النبيل !

تورّدت وجنتا « دون ماكسيمليانو » ، وهو يجلس على المقعد العالي الظهر ، الذي أُعِدّ قبالة الكاردينال ، استعداداً لذلك اللقاء ..

تابع الكاردينال كلامه ، في لهجةٍ رقيقة ، حميمة ..

ـ لا تلمني ، يا بنيّ ، إذا ما أبديتُ اهتماماً زائداً ، في النظر إليك .. والى تقاطيعك .. فالسبب ، هو تقاليد أسرتكم المحافظة ، المُتَسَتِّرة .. التي لا تسمح بتصوير أحدكم .. بل ، وتمنعكم من السفر خارج بلادكم ! لم يكن ذلك هو شأن أسلافك ، الأوائل .. إذ ان ، أولئك .. تركوا لوحاتٍ لهم .. يعرفها الجميع .. جدك الأول ، مثلاً .. ترى ، ما سبب هذا التحفظ الزائد الذي لجأتم إليه ، فيما بعد ، فجأة .. منذ قرنين من الزمان ؟! لكن .. من يدري .. لعل هنالك سبباً بعيداً ، وراءه .. حرية التصرّف ، مثلاً !.. أو حرية التنقّل ، اذا ما دعت الى ذلك الحاجة ، دون أن يشير ذلك انتباه مخلوق !.. نعم .. نعم .. هذا سبب منطقي .. وجيه .. الى جانب أمر هام ، آخر .. إنكم خلاصة الاستقراطية .. لا تكترث لثناء ، أو احترام الغير .. نعم .. نعم .. هذا هو السبب !

أطرق برهة .. ثم تابع ..

ـ نعم .. نعم .. إن في ذلك لحكمة كبيرة !.. كان علينا نحن اتباعها ، هنا .. في روما !.. لكن ، ماذا أقول .. إن أمراء الكنيسة أناس عاديون .. أناس عاديون !

ثم رفع رأسه ، فجأة ، وعاد يتمعّن في تقاطيع فراس ، في صمت .. وكأنه يدرس لوحة ، لا حياة أو وعي لها .. صورة ، تجهلُ أن إنساناً ينظر إليها ..

تقدّم الشاب منهما في احترام وصمت .. ثم قال في لهجة مهذبة أشعرَت « دون ماكسيمليانو » أن صاحبها يُخفي ، من خلالها ، شيئاً من التوتّر ، والنزق ..

ـ هل أُحضر الشاي .. لنيافتيكما ؟!

تبسّم الكاردينال للشاب ، وهو يهز رأسه بالموافقة ، وانتظر أن يبتعد عنهما .. قبل أن يلتفت الى ضيفه من جديد .. يسائله ، بابتسامة ودود ..

ــ « دون ماكسيميليانو » .. إنك تبتسم .. كمن يحجم عن قول شيء طريف .. بالله عليك ، ما هو ؟!

ضحك « دون ماكسيميليانو » بدوره ، لبراءة السؤال .. وقال في أدبٍ ، وحيرة ..

ــ إننا لمّا نكد نتعارف !.. وها نحن ..

ثم قطع كلامه فجأة .. وتابع مستدركاً ، في لهجةٍ ، وقور ..

ــ اعذرني ، يا صاحب النيافة .. لم أكن أقصد ..

مال الكاردينال بجذعه ، الى الأمام ، مادّاً ذراعه ، يربت بيده على ركبة ضيفه ، في مودّة صادقة ، وقال ..

ــ لن أعذرك .. طالما تمسّكتَ أمامي بهذا الوقار المتحفّظ ! بالله عليك ، عدْ الى ما كنتَ عليه ! ولا تضيعنّ وقتاً ثميناً بالتصرفات الحذرة.. المتكلّفة !.. قل .. ما الذي حضّك على تلك الابتسامة ؟!

زمّ « ماكسيميليانو » شفتيه .. يمنع ابتسامة مماثلة ، مشيراً الى حيث اختفى الشاب .. كمن أذعن لطلب ، لا هروب منه .. ثم قال ..

ــ إنه « جوليان سوريل »* .. يا صاحب النيافة .. مرافقك الوسيم ، ذاك .. إن لفي نظراته ما يشعرني بأنه قد يدسّ لي السمّ في الشاي ، إذا ما تابعتم اهتمامكم بي .. أو بتقاطيع وجهي !

مال الكاردينال الى الوراء ، فاتحاً كفّيه .. ثم أطلق ضحكة خفيفة ، أحس « ماكسيميليانو » أنها صدرت من صميم قلبه ..

ثم نظر الى ضيفه ، في محبّة ، وقال ..

ــ ما أشد ملاحظتك يا بني !.. وما أدقّها !.. وفوق كل شيء ،

---

* « جوليان سوريل » بطل رواية « الأحمر والأسود » ، لـ « ستاندال » ..

ما ألطفها ! لقد أعادتني ملاحظتك هذه ، الى أيـام شبابي .. أيام كنتُ أقـرأ « ستندال » .. في الخفاء !

ثم عاد يمعن النظر في وجه « ماكسيميليانو » وقال ..

ــ أليس عجيبا أن تنشأ المودّة الصادقة بين غريبين .. مـن لا شـيء ، فجأة ؟ هكذا !.. ألا تشعر أننا على وشك أن نصبح صديقين ؟!

تضاربت في نفس فراس مئات الإحساسات ، والدوافع الخفيـة ! كـان يمعـن النظر ، هو الآخـر في عيني محدّثه الطيّبتين .. متناسياً ما جـاء من أجـله ، الى تلك الدار ! فوجد نفسه ، رغم كل شـيء ، يُتمتـم في صدقٍ ، ولا يودّ للشاب الذي عاد الى الغرفة ، في تلك اللحظة ، سماع قوله ..

ــ بل أكثر من صديقين .. ولستُ ممن يوزّعون محبتهم بين الناس .. يمنة ، ويسرة !

شـدّ الكاردينال عـلى يـد « دون ماكسيميليانو » ، بيـدٍ أذابهـا الوهـن ، دون التفوّه بكلمة !

ما إن صبّ الشاب الشايَ للضيف ، وللكاردينال .. وغادر الغرفة ، من جديد ، حتى حدّق « فيلتشي باتفيلي » في عيني « ماكسيميليانو » ، وقال ..

ــ ما كنت أنوي إحاطتك بجميـع هواجسي ، حـول هذا الموضوع .. لكـن الزمـن يُدركني .. وإذا لم يكـن مثلك جديـراً بثقتي .. فَمَـنْ يكون ؟! « ماكسيميليانو » !.. يا بنيّ .. لقد أطلعك « أماديو » ، على ما أظن، على معظـم جوانـب قصّة اختفـاء الفهرس .. وظنّي أنك على علم بأمـر المخطوطات ، كذلك .. ومدى أهمّيتها ، لنا ، ولجميع من يناصرون الحضارة الغربية والأوربية بالذات .. ومن لا يريدون لأمر هذه الفضيحة ، الذيوع !

هزّ فراس رأسه ، موافقاً .. فتابع الكاردينال ، قوله .. وقد بانت حيرة مفاجئة على وجهه ، تخفي شيئاً من القهر المكبوت ..

ـ إن الأمر الجديد الذي يحيّرني .. هو عدم تحريك قيّم المكتبة ، الجديد ، ساكناً ، للعثور على الفهرس ! ناهيك عن عدم اتصاله بي ، أو مباحثتي بهذه الخصوص !

ثم مال الى الوراء ، رافعاً يده ، يحركها ، بما يعبّر عن اليأس ، والضياع .. وقال ، في صوتٍ حادٍ ، متهالكٍ ..

ـ أعلمْ .. أعلمْ !.. أنه ليس هنالك من شيء يستطيع القيام به ، للعثور على كتيّبٍ صغير !.. فُقِدَ ، أو سُرق من مكتبتنا !.. لكن ما يقلقني ، هو ، أنه قد يكون وراء فقدان ذاك الفهرس أمر مبيّت ! مصدره ، ليس من خارج الفاتيكان .. بل من داخله ! من داخل الفاتيكان !

رفع « دون ماكسيميليانو » حاجبيه ، عجباً ، وقال ، متسائلاً ..

ـ لم أفهم !

ـ أخاف أن تكون وراء هذا الأمر .. جهات معيّنة .. تودّ إقصائي عن تلك المخطوطات ! ثم .. تصبح لها الحريّة الكاملة ، لا بحَجْبها عن الأنظار فقط ، كما كانت هي مهمّتي .. بل .. بالتصرف بها .. من جديد !!

ـ بالتصرف بها ؟!

ـ طبعا ! لقد حوّر وبدّل فيها مرّة .. لمصلحتنا .. لمصلحة العالم الغربي .. ولقد أخفينا أمر كتبٍ فلسفيّة ، بكاملها .. واستعرنا مضمونها لمصلحة العقيدة ، والإيمان .. فلماذا لا تقوم جهة جديدة اليوم ، وتحاول لعب الدور ذاته ، لمصلحتها ؟!

ـ أرجوك ، اعذرني ، إني لم أفهم !

أدرك الكاردينال ، أن محدثّه ليس على علم بتفاصيل ما يتحدث عنه .. فأطرق برهة .. ثم عاد يمعن النظر في وجهه ، كمن قرّر في النهاية اطلاع أحد أحفاده على سر طال كتمانه له ، يرى في ذلك الحفيد وريثاً جديراً بالثقة ، وأن الوقت قد حان كي يسلّمه أسراراً عائلية متوارثة .. فقال ..

ـ « ماكسيميليانو » هب أننا كنا قد أخفينا كتاباً فلسفياً ، عربياً ،

في زمن بعيـد .. ونشرنا محتوياته تحت اسم مؤلف فرنسي ، أو إيطالي ! فإن أول ما يجب عليّ خشيته الآن ، هو محاولة إنسان عربيّ اليوم ، كشْفَ أمر هذا المخطوط ، ثم إعلانه على الملأ .. وفضح عمليّة « الاستعارة » هـذه !.. صحيـح ؟!

ــ صحيـح !

ــ لكني لا أخشى هذا الأمر ، بتاتاً !.. صدّق ذلك ، أو لا تصدّق !.. فالعرب اليوم ، هم آخر من يبحث عـن حقيقـة تاريخهم .. وهذه حقيقـة ، باتت واقعاً علمياً بحتاً .. منذ أن أصبحوا لا يعترفون عـلى علمٍ ، أو تاريخٍ ، أو فلسفةٍ ، إلا إذا كان مصدره ممهوراً بأختامنا الأوروبية !.. أليس عجيبـاً أن نكون قد نجحنا تماماً في غسـل أدمغتهم ؟! لدرجةٍ أنهـم إذا ما خُيّـل لهم أنهم أدركوا ذلك ، عادوا إلينا نحـن ، يطلبون ، منا نحـن ، العـلاج !! تصوّر ! أليس هذا ، مذهلاً ؟! إن أوسعهم علماً ، اليـوم ، إذا ما أدركوا أن هنالك من زوّر تاريخهم ، أو بدّل فيه .. يعودون إلينا نحن !! يطلبون منـا نحن ! ومن مصادرنا المزوّرة ، إرشادهم الى اكتشاف الحقيقة !! نعم.. نعم.. لا شك أننا نجحنا في إخفـاء تاريخ المسلمين الحقيقي .. الى غير رجعة .. لقد كانت مهمّة شاقة .. طويلة .. لكننا قمنا بواجبنا خير قيام ..

ضحك فراس ، ساخراً ، موافقاً .. دون التعليق على ما سمع .. فتابـع الكاردينال ..

ــ لا .. لا !.. إن ما أخشاه .. هـو ، الجهـة الأخـرى .. أخشى أن تكتشف حقيقة ما فعلناه ، في الماضي ! تَعثر على تلـك المخطوطات ، فتُعيـد تحويرها ، لمصلحتها ، ثم تكشفها على الملأ !

ــ أية جهـة تعني ؟.. كيف ؟! ومن الذي في استطاعته المطالبة بنصوصٍ عربية ، إسلامية .. غير أصحابها .. غير العرب .. والمسلمين ؟!

ــ اليهود !! ليس كل اليهود بالطبع .. بل جماعة صهيون .. الدائبـة ، العاملة .. التي تحاول إعادة كتابـة التاريـخ من جديد !! وجميـع اليهـود

وراءها ، كما تعلم ! وهم يملكون أشـــد الأسلحة مضاءاً ، وفتكـــاً .. وسائل الإعلام .. في العالم كلّه !!

أخلـد الكاردينال الى الصمت ، وهو ما زال رافعـاً حاجبيه .. فاتحـاً شفتيه .. في وضـعٍ من يتابع الكلام .. كأن الزمان قد توقف ، فجـأة !.. وانقضت ثوان ، وهو على ذلك الوضع .. ثم عاد الى الحركة ، والكلام ، كأن الحياة دبّت في أوصاله وتقاطيع وجهه من جديد ..

ــ أقول لك ، إنني ما كنتُ لأهاب هذا الأمر ، لو أن الخوف اقتصر على العرب ، وحدهم !.. فالفهرس ، إذا أرشدهم الى أن هنالك كتباً فلسفية عربيّة، يجهلون وجودها ، فما من قـوة على الأرض تستطيع أن تقودهم الى حيـث أُخفيت هذه المخطوطات ! ناهيك عن استحالة محاولة إخراجهـا ، من حيـث هي الآن ! « ماكسيميليانو » .. لولا أنك أحد القلائل في العالم الذي لا أشكّ في عقيدته .. نظراً لثقتي المطلقة بعقيدة أسرتك وإيمانها ، لما أطلعتك على مخاوفي هذه !! إن جماعة صهيون .. قد تسرّبت الى قواعدنا نحن ! وما عدنا نـدري الى أيّ حدٍ ، بالضبط ، نما هـذا السرطان الخبيث في جسدنا ، وانتشر !! إني بِتُّ أخاف أن يكون هذا الفهرس في حوزة أحدٍ من جماعـة صهيون ، الآن .. ممن هم اليوم ، داخل جهازنا الكنسّي !.. ولقد نجحوا في الخطـوة الأولى ، وهي إقصائي عن المكتبة .. وعن الفهرس !! أما الخطوة التالية ، فقد تكون ، نسبة بعض تلك المخطوطات الى ابن ميمون ، مثلا ! بدل ، ابن رشد .. أو ، ابن خلدون ! ثم تُنشر نصوصها ، على المـلأ .. فاضحين بذلك ما قمْنـا به .. متفاخرين بها ، على أنها من تراثهم اليهودي !! إن مثل هذا الأمر ، لـو حدث ، لكان كارثة علينا ، وعلى العالم الغربي ، بأسره !! خصوصاً ، وأن جميع وسائل الإعلام اليوم ، في أيديهم .. ولعلّهم ، لا ينتظرون إلا مثل هذه القضية ليمسكوا بزمام القيادة الثقافية ، والروحية ، للعالم الغربي ، الى الأبد !!

تساءل « ماكسيميليانو » .. في حيرة .. وتمتم ..

ــ ابن ميمـون ؟!

ـ بالطبع !.. فلقد كان يهودي الأصل ، كما تعلم !.. ولقد أقاموا له التماثيل في إسبانيا اليوم ، على هـذا الأساس .. « ماكسيميليانو » ! عزيزي ! إن الدولة ، في بلادك ، تساعدهم من حيث لا تدري !.. فهي لا تشدّد ، من مُجمل تاريخ العرب ، في الأندلس ، إلا على ذِكْرِ ما كان من أصلٍ يهودي ! وسيأتي قريباً .. اليوم الذي سينسبون فيه جميع حضارة العَرَبِ ، في الأندلس ، الى تأثير عقيدتهم !.. تماماً كما فعلوا بنا ، حين دمجوا العهد القديم ، اليهودي ، بالأناجيل الطاهرة المسيحية .. التي لا تكفّ عن لعنهم !! ألا ترى أن عقيدتنا لا تُذكر اليوم ، في المحافل الفلسفية ، إلا مقرونة بعقيدتهم ؟! لا يتكلمون عن الحضارة الأوربية ، إلا ذكروا جذورها « اليهودية المسيحية » ، فما بالك إذا كان ذلك الفهرس في أيديهم الآن ؟! وتحت إمرتهم ، مئات المخطوطات الأصلية التي يجهل العالم وجودها ؟! إن ما يروّعني الآن ، هو ، أن جماعتهم هذه ، قد تكون بيننا ، دون أن ندري !! إنهم قد يكونون في هذه اللحظة ، بالذات ، منهمكين في إعادة نسخ وتحرير تلك المخطوطات .. التي ظننتُ أني قد أخفيتها الى الأبد !! آه .. لو دمّرتُها !! آه لو أحرقتُها !! أو لو أحرقها من كان قبلي ، قيّماً على المكتبة !! إن جدّك الأول، « ماكسيمليانو » .. كان السبب !! جدّك ، كان رأس الهرم الذي ابتدع فكرة التحوير ، في سبيل العقيدة ! لكن حبّ الخير والصدق ، يبقى راسخاً في الإنسان .. مهما نزع الى الكذب ، والشر .. لذلك ، أبقى جدّك على الأصول .. ولم يدمّرها !.. وتعاقب بعده عدد مِمّن هم على شاكلته.. أناس، آثروا في النهاية ، على الدوام ، ألا يقوموا بإفناء تلك المخطوطات !!

كان الكاردينال « بامفيلي » يتكلّم ، مأخوذاً بما يُحرقه ، مفتوناً بما كان في وسع أصابعه شدّه من خيوط معقّدة ، تسيطر على مقدرات الفكر في العالم .. فما إن أخلد الى الصمت ، وراح يُمعن النظر في « ماكسيمليانو »، من جديد ، حتى تنبّه الى أن وشاحاً من القنوط ، قد جلّل وجه ضيفه .. فتبسّم له ، في رفق .. وقال ..

ـ أعلمْ .. أعلمْ .. يا بني ، أن ما أُحدّثك عنه ، ليس خيراً ، كلّه !.. لكن على الإنسان أن يُضحّي ، في كثير من الأحيان ، في سبيل قضيةٍ عادلة ! وقد يُقترف الشر ، في سبيل الخير .. « Todos Modos » .. إنه شعار اليسوعيين ، كما تعلم .. « جميع الأساليب » ! ألا يُحارب الإنسان ، في سبيل عقيدته ؟! ألا يقترف القتل ، في الحرب ، لإحلال السلام ؟! إنها غنائم الحرب ، يا بني .. ليس إلا !.. لقد انتصرنا في الحرب ، على الإسلام ، في الأندلس .. فحقّ لنا جَمْع الغنائم ! ولسنا أول من قام بهذه الفعلة ، في التاريخ !

ضحك لفكرةٍ طرأت على ذهنه .. وقال ..

ـ لعله حب المغامرة .. أو القرصنة ، عندنا .. أم لعله حب الصيد ، عند إنسانٍ تعوّد الحياة في الغابات .. على أية حال ، فإن انتحال الثقافة ليس بالأمر الجديد على الحضارة الأوربية ، وليست هي عادة مقصورة على رجال الدين ، والإيمان .. كما تعلم !!

نظر إليه « ماكسيميليانو » ، يستوضحه ، فأردف قائلاً ..

ـ هل تدري مَنْ أول من قام بمثل هذه الفعِلة في التاريخ ؟ ناهيك عن أن ، تلك ، كانت عمليــة سطوٍ رهيبةِ التدبير ، والتنفيذ !! أين منها .. ما قمنا به نحن ؟!

سأل فراس ، في دهشة وعجب ..

ـ ومن كان ذلك ؟!

ـ إنه اسكندر المقدوني ، بالطبع !.. وبالاتفاق مع أستاذه العظيم ، أرسطو !! إنها أول ، وأكبر عمليّة سطوٍ منظّم في التاريخ .. على العلوم والفلسفة ! وليس من سببٍ يمنع المؤرخين عن ذكر تفاصيلها ، إلا لأننا نحن ، اليوم ، في الغرب ، أساتذة التاريخ ! وليس في مصلحتنا تقويض دعائم حضارتنا القائمة على ما نسمّيه بالحضارة والفلسفة ، الإغريقية ! التي هي في الأصل ، حصيلة ما جمّعه الاسكندر ، وبعث به ، لأستاذه ، أرسطو ، من جميع

ما عجّت به الخزائن الشرقية من كتبٍ وألواح الفلسفة ، والعلـوم القديمة ، التي وُجدت على طريقه ، وهو ماضٍ لاحتلال السند !

نظر إليه « ماكسيمليانو » ، يستوضحه ، فأردف قائلا ..

أطرق الكاردينال برهة ، كأنـه عاد بأفكاره كليّةً الى ذلـك الزمان . ثم قـال ..

ـ لكن الاسكندر اقترف خطأً ، مريعاً ! خطأ سمح لجماعـة صهيون ، فيما بعـد ، بالتسرّب الى بنائنـا الروحي ، والثقافي !.. وليس ما نستطيـع القيام به اليوم ، للحؤول دون إتمام سيطرتهم الكليّة علينا .. الشيء الذي بات على الأبواب !!

ـ وكيف يقوم الاسكندر بذلك..قبل ثلاثة قرونٍ ونصف من الميلاد ؟!

ـ لقد شاء الاسكندر توحيد الآلهة ، تحت زعامـةٍ إغريقية موحّدة ، على غـرار ما فعل بشأن توحيد الثقافة !.. هدفه في ذلـك بالطبع ، تثبيـت سيطرة مقدونيا على العالم الحضاري .. فهـو لم يكتف بـأن نسب جميـع الفلسفات القديمة ، الى أسماء إغريقية ، بل حطّم معابـد جميع آلهـة الشرق القديم .. المتغنيّة في تعاليمها بحب السلام .. ليرفع الصروح ، لآلهة الإغريق ، الداعية الى الحرب ! وأعطى بقية الآلهة التي رضـي عنها ، أسماء إغريقيـة !! هكذا .. نفى الإله « أيل » الكنعاني ، من الوجود .. وهو آنذاك أبو الآلهة ، الذي اتّصف بالمحبّة والرحمة ، وحبّه للسلام !! وأحلّ محله « زويـس » الإغريقي ، الذي أصبح فيما بعد ، « جوبيتر » ، الروماني !.. وكلاهما ميـال الى البطش ، والحرب ، مثل « يهوه » تماماً .. الذي ما كان له من الأهمية في سلّم الآلهة الكنعانية ، إلا دور ثانوي ، نظرا لقسوته ولميوله الحربية !ولحبّه للبطش والانتقام !.. ماذا قال المسيح وهو على الصليب ؟ ومن نادى ؟!.. لقد نادى « إيل » .. حين قال « إيلي .. إيلي .. لِمَ سبقتني ؟ » لقـد نادى إلـه كنعـان .. ولم ينادِ « يهـوه » .. إله اليهود ! لكن تدنّي الثقافة الأوربيـة في العصور الوسطى ساعد على طمس هـذه الحقيقة .. حتى نجح اليهـود في إشاعة الظن بأن تعدّد أسماء الآلهة ، في العهد القديم ، أمر لا أهميـة له ، وان

جميع هذه ، أسماء تشير الى الله .. في حين أن الحقيقة التاريخية مخالفة لذلك تماماً .. وان اليهود حين ضلّوا ، تبعوا « يهوه » ، إلـه الحرب .. وأعرضوا عن « إيل » .. أي الله .. وهو ربّ ابراهيم .. إلـه الرحمة والحكمة والمحبة !

ــ وما علاقة هذا ، بجماعة صهيون ؟!

تبسّم الكاردينال « بامفيلي » .. وقال ، في هدوء ..

ــ إن جميع الكتابات اليهودية ، عن تاريخهم قبل الميلاد ، لم تكن ، قبل القرن الخامس عشر ، إلا قطعاً وشذرات ، منفصلة ، بعضها عن بعض ، لا علاقة لها بالتوراة اليوم !.. لقد كان لهم في العالم ، آلاف المخطوطات المتناقضة ! جميعها ، لها أسماء دينية مقدسة ، ومعظمها ينافي التعاليم المسيحيّة الحقيقية !.. إن النسخة الموحّدة الرسمية للتوراة، كتبها «يعقوب بن حاييم»، باللغة العبرية في عام ١٥٢٥ .. ولقد وحّدها من أصلٍ ثمانية آلاف مخطوطٍ ديني ! جميعها متباين .. متناقض ! معظمها ، كُتب باللغة الآرامية ! بالآرامية.. وليس بالعِبْرية .. تصوّر ! فهل تتصوّر مدى التحوير والتصرّف الذي تضمّنته مثل تلك المهمّة ؟! ولقد وُحِّدَت تلك النسخة في زمنِ سيادةِ عقيدتنا ، نحن ، في أوروبا ! لذلك ، جاءت بما يناسب روح هذه السيادة : وكأنها القاعدة الأساسية التي نشأت عنها عقيدتنا !.. ولم يتقرّبوا منا ، حبّاً بنا .. أو رهبة من سطوتنا ! بل فعلوا ذلك ، وفي أذهانهم قصدُ الالتصاق بعقيدتنا ، وذلك ، بهدف التسرّب إليها ، ثم محاولة القضاء عليها ، من الداخل ، ولا شك عندي أن « مارتن لوثر » منهم .. وقد حقق أكبر نجاحاتهم ! وهل تريد برهاناً ، أكبر من نجاحهم ، مؤخّراً ، في محوِ اللعنة التي أحلّتها الأناجيل ذاتها على شعبهم ؟!

أطرق صامتاً ، يهز رأسه أسفاً .. ثم عاد الى الكلام ، فقال ..

ــ إن تلك النسخة من التوراة ، لصقت بالأناجيل الأربعة ، حتى أصبحت كمقدمة لها ، بل أصبحت جزءاً منها !.. وما إن انتشرت البروتستانتية ، في

أمريكا .. بفضل مؤازرة هذه الجماعة .. حتى وجدت جماعة صهيون ، أن خير حرب كاسحة يشنّونها علينا، هي حرب مناصرة تلك المذاهب الأمريكية ! جميعها لا تروّج إلاّ للعهد القديم .. في الكتاب المقدس .. الذي بات الجميع يتقبلّونه على أنه تاريخ اليهودية الأصلي ! فصار لا يذكر اسم عقيدتنا ، إلا مقرونا باسم عقيدتهم ، كأنهم هم الأصل ، ونحن الفرع ! وهكذا يا عزيزي « دون ماكسيميليانو » نكون قد تذوّقنا السم الذي حضّرناه للآخرين ! وحلّت علينا ذات اللعنة التي سبّبناها للعرب .. والمسلمين !

ــ أية لعنة هذه ، يا صاحب النيافة ؟!

ردّ الكاردينال ، والمرارة بادية على معالم وجهه ..

ــ .. كما أن العرب لم يعد في وسعهم ، اليوم ، البحث عن تاريخهم ، إلا بالرجوع الى مصادرنا الغربية ! كذلك ، نحن ، لم يعد في وسعنا البحث عن جذورنا الأوربية ، الحقيقية ، إلا بالرجوع الى مصادر جماعة صهيون !.. ومن المنتصر في كل هذا ؟!.. إنهم يملكون جميع وسائل الإعلام ، في العالم اليوم !! وإن أي إنسان يتصدّى لهم ، بما يخيفهم ، تراه يرزح في اليوم التالي ، تحت وطأة فضيحة سياسية ، أو اخلاقية ، لا أصل لها ! تحطّم سمعته ، وتنسف من الأصل جميع ما قاله ضدهم !!

كان حب العلم والمعرفة لدى الكاردينال « بامفيلي » قد تغلّب على حذره المعهود ، حين يكلّم الغرباء .. لكن « فيليتشي بامفيلي » ، الذي جلس يحدث « ماكسيميليانو » ، لم يكن في تلك اللحظة ذلك الكاردينال المتزمّت ، الذي تُقيّد عقيدته مقدّراته الذهنيّة الواسعة .. بل إنساناً عظيم الاطلاع .. عميق جذور المعرفة ، سَبَرَ التاريخ .. فهو ، وإن كان قد اتّخذ موقفاً معيّناً منه ، إلا أن ذلك لم يمنعه من فهم مقدّرات خصمه .. ولم يعمِهِ حبّه وولاؤه لعقيدته ، عمّا كان لغيرها ، من مزايا ..

كان « دون ماكسيميليانو » ينظر الى عيني الكاردينال ، في حيرة ، وعجب .. لا يدري ماذا يقول .. ولعل الكاردينال أحب ذلك الانطباع الذي

تركه كلامه على مسامع ، ومعالم ، ضيفه النبيل ، فتابع قائلاً ..

ــ ولِمَ تستغرب ذلك ؟ لقد كانت خطوة حضاريّة ، خطاها الاسكندر في زمنٍ كان الفاتحون فيه لا يكترثون بغير المال ، والمتعة !.. فهو ، بَدَلَ أن يكتفي بسلب ضحاياه ، مالها ، وذهبها .. زاد في ذلك خطوةً هامة .. علّمه إياها أستاذه ، أرسطو !.. وهي ، أن في الشرق كنوزاً أثمن من الذهب والفضة .. وهي كنوز الفلسفة ، والحكمة ، والعلوم ! فطلب منه جمعها في طريقه ، وإرسالها إليه ، مع البريد المنتظم ، أولاً ، بأوّل ! فقام الاسكندر بتلك المهمة خير قيام ، ولم يكتف ، بذلك ، بل ، دمّر جميع المدن القديمة ، التي تحمل ذكريات تلك الفلسفة ، وبنى مدناً جديدة مكانها تحمل اسمه .. كأنه يريد أن يجتثّ جميع الجذور التي تربط تلك الفلسفات ، بأصولها !! نعم .. نعم .. لقد بنت أوربا القديمة صروح ثقافتها ، بعد معركتين حاسمتين .. وعلى أنقاض ما حطمته واختزلته إثر هاتين المعركتين !.. الأولى ، حرب الاسكندر على الشرق وسرقته لتراثه .. مما أسس حضارة اليونان !.. والثانية حرب روما على قرطاجة .. وسرقتها لحضارة صور .. مما كرّس موت الشرق القديم .. شرقه .. وغربه !!

تبسّم فراس ، وقال ..

ــ إن جميع ما تقوله صحيح .. لكن ذلك لا ينفي أنه كان في اليونان ، جميع ما نعرفهم اليوم من أسماء إغريقية ، عريقة ، لامعة .. من فلاسفة ، وشعراء ، ومؤرخين .. في زمن ، لا نذكر فيه ، لبقية الأقوام ، أسماء لها مثل ما لأعلام اليونان من ألقٍ وشهرةٍ !!

ضحك الكاردينال ، ملء صدره الكليل ، وقال ، يدحض رأي ضيفه النبيل ، بطرحه لسؤال واحد ! قال ، يسأل « دون ماكسيميليانو » ..

ــ وهل تعرف ، يا صاحب النيافة ، ما هو « قانون الإسكندرية » ؟!

هزّ « ماكسيميليانو » رأسه ، نافياً .. مُقِرّاً بجهله .. فأردف الكاردينال على الفور ..

ـ إنـه ، يا عزيزي ، المثل الـذي حذونا حذوه نحن .. حين جمّعنا الأناجيل ! فألغينا ما ألغينا منها ، وأقررنا ما أحببناه ! لقـد كان في العالـم ، مئات الأناجيل ، قبل القرن الرابع .. فحظّرنا استعمالها ، جميعها .. ما عـدا أربعـة ، أي ، الأناجيل الأربعـة المعترف بها ، والتي يكاد العـالم لا يعرف غيرهـا ، اليـوم !

ـ تقول إنكم حذوتم حذو « قانون الاسكندرية » .. فما هذا القانون ؟!

أجاب الكاردينال ضيفه ، على الفور ، قائلا ..

ـ إسمع جيـداً .. إذ ان ما سأقوله لك ، يكـاد لا يتحدث بـه ، إلاّ قلائلُ في العالم اليوم ! رغم أهميّته القصوى !!.. إن « قانون الاسكندرية » هو اللقب الذي أعطي للقائمـة الرسميّة التـي وُضعت في « الاسكندرية » في القرن الثاني ، قبـل الميلاد !.. من قبـل « أريستارك » ، و « أريستوفان البيزنطي » ، لأسمـاء الشعـراء والفلاسفـة !! والتـي تحـرّى فيهـا ، واضعاها ، السير في خطى الاسكندر ، وأرسطو !! فوحّدا العلوم ، والشعر ، والتاريخ ، والفلسفة .. جميعها .. وأقول جميعها .. تحت أسماء .. يونانية .. بحتة !! هي جميـع ما نعرفه اليوم ، من أسماء إغريقية بارزة !! مهملين ذكـر غيرها من الأسماء الشرقية .. التي أُهملت ، حتى اختفى ذكرهـا ، مـع مرور الزمن .. تماماً ، كما أُهمل ذكر بقيّة الأناجيل التي لم تعترف الكنيسة بهـا ، في القـرن الرابع للميلاد .. هل أكرر ما قلت ؟! لقد وحّـد « أريستارك » و « أريستوفان البيزنطي » ، أسمـاء جميـع الشعراء والفلاسفة الشرقيين .. تحت أسماء إغريقية .. حتى نُسب إليهم جميع الشعر والفلسفة القديمين ! هكذا .. وبكل بساطة !! والغريب في الأمر ، هو أن التاريخ ، ما يزال يذكـر هذه الواقعة لهم ! رغـم أنه نسي أسماء الفلاسفة ، والمؤرخين ، الذين حُذفت أسماؤهم من الوجود !! فما رأيك ؟! هل ترى يا عزيزي كم هي سهلة عمليـة تزوير التاريخ ؟! حين يقـوم القويّ الحاكم ، بذلك ؟! إذا كـان من السهل ، اليوم، سرقة أثر أدبي، أو فلسفي. .فهل جال في ذهنك كم كان الأمر سهلاً على

سلطةٍ مثل سلطة الاسكندر ، أن تقوم بما قامت به من نقل اللوائح الفلسفية القديمة ، من الشرق ، الى اليونان ، والى المكتبة التي أنشأها باسمه ، في مدينته « الاسكندرية »!.. ثم نسب هذه الفلسفة الى أسماء يونانية ، قديمة ؟!

قال فراس ، وقد عظم فجأة على ذهنه وقع أمورٍ ، كان يجهلها !! أمور ، من صلب الثقافة .. لاحدود لأهميتها !

ـ كيف لم أطّلع على هذه الأمور ؟! كيف تغيب هذه الأمور عن معرفة الناس ؟! إنها لجريمة ، ما بعدها جريمة !! ثم .. نحن ، اذن ، نعيش في جهل ، ما بعده جهل !!

تبسّم الكاردينال لما تفهّمه من ثورة ضيفه على جهله .. مواسياً ..

ـ لكن جدك ، يا « دون مكسميليانو » ، لم يكن يجهل تلك الامور!.. إن من يجهل هذه الأمور هو « الشعب » المثقف ! وليس « النخبة » من مثقفي العالم ، اليوم !! الذين يشدّون خيوط الثقافة بحسب ما يريدون .. تماماً كما هي حال من يشدون خيوط السياسة !!

ولقد قام جدّك الأكبر بمثل هذه العملية ، على نطاق كتب المعرفة الإسلامية ، في الأندلس .. نقلها الى هولندا .. وهناك ، حوّر بعضها ، بما يقتضيه الإيمان .. ونسب بعضها الآخر الى مؤلفين غربيين ! فهل ترى أروع من ذلك ؟! ثم كيف أنسى فضل « ليو أفريكانوس » ، « ليو الأفريقي » .. وهو الاسم الذي اتخذه الحسن بن محمد الوزّان ، بعد أن اعتنق عقيدتنا ، في القرن الخامس عشر ؟! لقد حمل إلينا المخطوطات ، بالمراكب ! سفن ، محمّلة بكاملها !! ولقد كانت آخر عملية منظمة حصلت في هذا المجال .. ما قام به رجالنا ، أثناء حملة « نابليون » .. فنحنُ ، لم نغنِ متاحفنا بآثار مصر الحجرية فحسب ! وانظر الى ما في متحف « اللوفر » ، من آثار مصرية!.. بل أغنينا جميع مكتبات أوربا بالمخطوطات التي حوتها مكتبات مصر ، وهي التي كانت مركزاً للعلم ، في العالم الاسلامي في ذلك الحين !

ضحك « فيليتشي بامفيلي » هازئاً ، مستغرباً فداحة ما حصل ، وقال ..

ـ إن رجالنا .. لم يكتفوا بإخلاء مكتبات العرب من كنوزها العلمية والتاريخية ، فحسب ! بل ، وهذا هو الطريف في الأمر ! لقد أبدلوا معظمها ، بنسخ كتبت هنا في أوربا ، نسخ .. لا فارق بينها وبين المخطوطات الأصلية ، إلا في المحتوى .. والنصوص !! بل إني أستطيع أن أؤكد لك ، أن ما من مخطوط عربي هام ، في حوزة العرب اليوم ، إلا جرت عليه رقابة صارمة .. زادت هنا ، أو حوّرت هناك .. بما كانت تقتضيه مصلحة حضارتنا ، وعقيدتنا ! ولا تستغرب هذا القول .. أفلم نحكم البلدان العربية .. جمعاء ؟! وكانت جميع مكتباتها ، تحت إمرتنا .. ورهن تصرفنا ؟! في زمن كان معظم زعمائها يكادون لا يحسنون قراءة لغتهم ؟! المغرب ! القيروان ، القاهرة ، دمشق ، بغداد .. طهران ، الهند ، السند ! جميع مكتباتها ، وذخائرها ، كانت تحت رحمة نَسَخَتِنا .. طوال عشرات السنين ! لعل البلد الوحيد الذي لم نُخْلِه من مخطوطاته بعد .. هو اليمن !!

قال « دون ماكسيميليانو » ، في عجبٍ وذهول ، صادقين ..

ـ يا صاحب النيافة .. إنك لتذهلني حقاً بسعة معلوماتك !!

هزّ الكاردينال رأسه ، يأسف لزمن المعرفة الموسوعية الذي بدّدته الحضارة الآلية الغربية .. حضارة الاختصاص .. وقال ..

ـ كيف لا أعرف ذلك .. وجدّي الأكبر ، القديس « بامفيلي » ، كان أول من حوّر في التاريخ اليوناني ، لمصلحة العقيدة ، والدين ! لقد كان قيّماً على مكتبة « أوريجين » وحوكم ، بسبب ما أصلحه من كتابات « هيكسابيليس » ! فقطع رأسه ، في القرن الرابع ! نعم ، يا عزيزي .. أنت ، وأنا .. ورثة هؤلاء .. انما نحن نسير في خطٍ رسمه لنا أجدادنا .. منذ القدم !.. انها مهمتنا التاريخية .. لخدمة حضارتنا ! فهل تستغرب لقاءنا الحميم اليوم ، بعد كل الذي سمعتَه مما يوحّد سبيلنا في الحياة ؟! لئن كنتُ آسف على شيء اليوم .. فهو أنني لم ألقك قبل الآن ! لم ألقك .. إلا وأنا على وشك

فراق هـذه الحياة .. آه .. يا « دون ماكسميليانو » .. ليتنا التقينـا .. قبل اليوم ! لكن .. ما لكَ تبتسم ؟!

ـ يجـول في خاطري ما يمكن أن تترك هذه المعلومات ، مـن أثر على مثقف عـربي ، لا قدر الله .. اذا ما وقع عليهـا .. ولا سبيل أمامه للتحقـق من صحتها !

قهقه الكاردينال ، في مرحٍ ، وقال ..

ـ لا تقلق ، يا عزيزي .. فالجواب بسيط .. لن يهتم بمثل هذه المعلومات إلا مثقف حقيقي .. وإذا وُجد ، فإما أنه يموت من القهر ، والكـدر .. أو .. يُعلنها على غيره من أبناء أمته .. وفي تلك الحال .. فسوف يسخرون منه .. أو تقف في وجهه رقابة حاقدة ، جاهلة .. حتى يدفعه ذلك للجنون ، أو يمـوت حسرة وحزناً على درجة جهلهم !!

ـ ألا يمكن لمثل هـذه القضية أن تلاقي من صـدى لديهم .. أو لدى بعضـهم ؟!

ـ وكيف يتم ذلك ، وجميـع مثقفيهم ، لايجرؤون على التحدث عـن تاريخهم ، وقضاياهم الروحية ، أو الثقافيـة ، إلا بعد الرجوع إلينـا مباشرة أو الى هذه المخطوطات المحورة نفسها ؟! ثم ، لقد أضفنا بحوثاً لا آخر لها ، في صالح الاقليات .. حتى بات المسلمون اليوم لا يجرؤون على مناقشتها ، علناً ، خوفاً مـن ثورة هؤلاء عليهم !! نعم .. نعم .. إن مَن سوف يكتشف هـذه الحقيقة من العرب ، في يوم من الأيام .. سوف يُقضى على اكتشافه .. وربما عليه .. على يد أبناء امته بالذات ..

دخل المرافق الشاحب ، الوسيم ، يذكّر الكاردينال ، في هدوء ، باقتراب موعدٍ آخر ، مهمّ ، كان قد رتبه لذلك الصباح .. فتبرم الكاردينال ، وقال ..

ـ أرجئه ! إن كان ذلك ممكناً ، وإلا .. فلننتظر في البهـو ، في الدور

الأرضي ، اذا ماجاء .. ولا تقاطعني ،أو تدع أحداً يدخل هذه الغرفة ، إلا إذا ناديتـــه !

ما كان من الشاب إلا أن نظر ملياً ، يتمعن فيما حوله ، يتجنّب النظر إلى « دون ماكسميليانو » ، ثم خرج في صـــمتٍ ، لا يفهم سبباً لاحتقان وجـه الكاردينال !

تناول « فيليتشي بامفيلي » الحديث مـــن جديد .. في لهفةِ مـــن أدركه الوقت .. وقال ..

ــ إن الفهرس معك .. على ما علمت .. أليس كذلك ؟!

ــ إنه معي ، هنا في روما .. في صندوق أماناتي .. في المصرف..

ــ الفهرس الكامل ؟!

هزّ « ماكسميليانو » رأسه ، بالإيجاب ..

تبسم الكاردينال غبطة .. وسأل..

ــ وماذا تنوي أن تفعل ؟!

أجاب « ماكسميليانو » ، في بساطة ، ووضوح ..

ــ يخيل لي أن أول ما يتوجب علينا القيام به ، هو التحقق من ســـلامة وجود المخطوطات .. حسب ورود عناوينها في الفهرس .. وبعـــد ذلك تتخـــذ الإجراءات اللازمة ، للحيلولة دون تحريفها ، أو التصرف بها .. من جديد .. أليس كذلك ؟!..

ــ عظيم .. عظيم ! وهل أنت مستعد للمؤازرة في ذلك ؟!

راح قلب فراس يطرق جنبات صدره ، فجأة !.. فتحايل ، كعادته ، على عدم إظهار أثر ذلك .. وقال ..

ــ أنا .. رهن تصرفك !

صمت الكاردينال برهة .. بانت خلالها حيرة شديدة على وجهـــه .. الى أن قـــال ..

ـ تعترضني مشكلة أخرى .. لا أجد الطريق لحلها ! « مسكميليانو » .. إني لا أثق بإنسان ، ممن هم حولي ، بما فيه الكفاية ، لاطلاعه على مكان المخطوطات ! وفي الوقت ذاته .. لا يُعقل أن تذهب الى المكان ، بمفردك ! فهو مكان بعيد .. ويلزمك اليه رفيق أمين ، من طرفي ، يعرّف بك .. فما رأيك ؟ وكيف نخرج من هذه العقدة ؟!

ـ وأين المكان .. بالضبط ؟!

ـ في أحد الأديرة ، في الشمال .. قرب « فيرونا » .. دير ، لا يزوره إنسان ، إلا ممن تربطه علاقة بعمله .. عمل ذلك الدير ..

ـ عمل ؟!.. في الدير ؟!

ـ إن فيه لدائرة كاملة للنسخ ! سوف ترى ذلك بنفسك .. نسخ المخطوطات القديمة بحسب ما تطلبه مكتبات العالم أجمع !!

ـ أذهبُ ، مبعوثاً من طرفكم .. بهدف الحصول على نسخة خطّية ، لمخطوط ما !.. لا بد أن إنجاز مثل هذه النسخة ، أمر يلزمه أيام .. أكون ، خلال ذلك الوقت ، قد تحقّقت من وجود بقية المخطوطات .. حسب الفهرس الذي معي ..

ـ أما بشأن الشخص الذي سيرافقك .. فالامر محصور بين إنسانين .. هذا اذا استثنينا « يان فراتيشيك » ، الثرثار .. فإما أن يصاحبك « أماديو » الكهل .. بثقل حركته ، ووزنه الاجتماعي .. أو « جوليان سوريل » .. ها !.. ما رأيك ؟!

وأشار الى ما خلف باب الغرفة ، يعني بالذكر ، مرافقه الشاب .. مبتسماً يضحك لتلك التسمية التي أطلقها « ماكسميليانو » عليه ، وأردف قائلا ..

ـ إن اسمه الحقيقي هو « فولف فون فورتبرغ » .. وهو سليل أسرة نمساوية ، نبيلة .. إن ولاءه لي ، ممزوج بولائه لنفسه ! فهو أحرص على حياتي ، مني .. نظراً لأنه ما زال يأمل أن أُنتخب يوماً للكرسي الرسولي .. لقبل أن يوافيني الموت !

ـ هل يعرفه من في ذلك الدير ؟!

ـ إن رئيس الدير ، أحد أصدقائي القدامى .. ربطتنا في الماضي هواية جمع الكتب النادرة .. ولقد زارني مرارا .. ويعرف « فولف » حق المعرفة .. المشكلة ، هي أنه يتبع ، في التسلسل الإداري ، قيّم المكتبة الجديد ، هنا ! وهو الشخص الذي أشكّ في ولائه ، لي .. وللقضية ذاتها !

ـ هل نذهب الى الدير ، إذن ، موفدين منك ، مباشرة ، دون اللجوء الى تصريح من قيّم المكتبة ؟!

هزّ الكاردينال رأسه ، يُمعن التفكير .. ثم قال ..

ـ لست أجد من حل آخر .. هذا .. إذا أردنا تجنّب عرقلة الجهات المشبوهة ، لمهمتنا .. أو إثارة انتباهها الى الدير وما يحتويه .. ولا أحد غيري يعرف أن المخطوطات قابعة فيه !

عاد قلب فراس الى الضرب بشدة .. فسأل ، يكتم لهفته ..

ـ ومتى نذهب ؟!

تبسّم الكاردينال لحماسة ضيفه النبيل .. وصديقه الجديد .. وسأل ..

ـ « دون ماكسيميليانو » .. هل لي أن أسألك عن سنّك ؟ سبعة وثلاثون .. ثمانية وثلاثون ؟! إنك تبدو لي أحيانا .. كأنك لم تتجاوز الثلاثين عاما !

تورّدت وجنتا « ماكسيميليانو » .. ولما لم يردّ على سؤال الكاردينال .. بل اكتفى بالموافقة على قوله .. أردف الكاردينال قائلاً ، في حرارة ، وتمعّن ..

ـ إن « فولف » ، مرافقي .. لكنني أعتبره ربيبي .. فأرجو أن ترعاه .. ومن يدري ؟.. فلعلّك تحتفظ برفقته .. بعد مفارقتي للحياة !

تأثّر « ماكسيميليانو » لقول الكاردينال .. وأجاب ..

ـ لئن انسجمَتْ طباعنا .. خلال هذه الرحلة .. فلن أخيّب أملك .. هل تظنه سيفاجأ بنبأ رحلتنا ؟!

تبسّم الكاردينال ، في ثقة ، وقال ..

ـ إنه على علم بها ! ولقد تمّ ترتيب جميع التفاصيل ، منذ الصباح .. لذلك ، فإن باستطاعتكما السفر ، اعتباراً من بعد غد !

صمت الكاردينال ، يتسلّى لنظرة الدهشة التي ارتسمت على عيني « دون ماكسيميليانو » .. ثم قال ، في تردّد ..

ـ بقي عندي طلب واحد منك ، فقط !

ـ تفضل !

ـ هل لي بمشاهدة ، وتصفّح الفهرس .. مرة واحدة ، على الأقل ؟!

ضحك « دون ماكسيمليانو » ، مدركاً مدى الثقة التي منحه إياها الكاردينال ، قبل رؤية دليلٍ ماديٍّ يثبت اطّلاعه على تلك القضية ، واشتراكه فيها ..

فردّ على الفور ..

ـ فليمرّ « فولف » على مسكني .. مساء غدٍ .. بعد أن أكون قد أخرجتُ الفهرس من صندوق الأمانات ، وتعيدونه لي ، متى شئتم ذلك !

ـ ثقة .. بثقة ؟!

ـ محبة .. بمحبة !! لكن لديّ ما يشغلني ، في روما .. فلن أفرغ للتوجّه الى الدير ، قبل مضيّ شهر من الزمان ..

* * *

الفصل الثاني

لم يشأ فراس الذهاب الى شمال إيطاليا ، دون عذرٍ منطقيّ ، واضح .. لذلك قرر إقامــة معرض للوحاته ، في البندقية ، تحت إشراف فــرعٍ للدارِ الفنيــة التي كان يعرض فيها في باريس .. نقــل إليها عدداً من لوحاته التــي تفرقت بين لندن وجنيف .. وعكف ، في مرسمه ، يعمــل جاداً على إنهاء العدد المناسب لإقامة معرضه ..

لعلّه كــان يحضّر لمفاجــأة « باولو ألبيرتو » ، الذي استضافــه في « الأرميتاج ».. لذلك ، قرر الاعتماد، في معرضه ، على اللوحات الشخصيّة.. يرسمها ، كعادتــه بأسلوبِ المدرســة الهولنديــة الكلاسيكي ، العريــق .. فجمع ، من لوحاته ، ما رسمه بذاك الأسلوب .. وخفّ الى رسومٍ ، وصورٍ شمسية ، مما كان لدى أصدقائه .. فجمّع عدداً منها ، يكفي لنقــل معالم وجه كلٍّ من « الكاردينال بامفيلي » المريض ، والأمير « فوسكاري » الغائــب .. يفاجئهما ، بلوحتين ، لهما ! أما ، عن « أماديو ، دوقا داوستي » ، « والماركيزا كولونا » .. و « بالوما » ، فلقد عكف على رسمِ وجوه هؤلاء ، في سكنه .. يتناوبون على زيارته ، فيه .. كــلّ ، حسب فراغــه ، أو مقتضيات تتابــعِ العمــل .. حتى باتت داره في « الفيللا بورغيزي » خلال أسبوعين من الزمان ، ملتقىً لنخبةٍ أثيرةٍ من شخصياتِ مجتمع روما ، وأبنائها المدللين !

* * *

كانت رزمــة البريد الثانية ، التــي توقّع وصولها ، من عثمان ، قــد

صارت في حوزتــه .. وأجرى « شارل غوستاف » الاتصالات اللازمة ، لبثّ الطلب ، بموجبها ، عبـر الأقنيــة التجارية المعنيّــة .. فجلس « شارل » ، في دار فراس ، يراقبه ، وهو يرسم .. يُطلعه عما تمّ له مع عملائه .. يحار كيف يحضّره لنبـأ بلغــه من أكثر وكلائه ثقةً .. خبرٌ ، لا يعــرف كيف يقيّــم مــدى صحّته ، وخطورته !

قال « شارل غوستاف » .. كمن يُطلق سرّاً كان محتفظاً به ..

ــ .. يقول وكيلنا .. إنه كان في الماضي على اتّصالٍ بشخصٍ ، تُشابه أوصافه ، صديقك .. عثمان .. وإنــه ، كــان يُجري مثل هــذه الصفقات ، لحسابه .. لكنه حُذّر من قبل جهاتٍ مسؤولة .. وأخرى خطرة .. بالكف عن التعامل معه !! لقد أضحكني ، حــين قــال لي إننا نطلب مواد تشابــه ما كان يطلبه ، ذاك !.. وكان يلقّبه بـ « عميله الشرقي » .. لكن ما لفــت نظري ، في كل ما ذكر ، قوله أن « عميله الشرقي » ذاك .. في خطرٍ أكيد !.. فما رأيــك في كلّ هذا ؟!

التفت اليه فراس ، متعجّباً .. وسأل ..

ــ ومن تعني ؟ عثمان ؟!

ــ أنا لا أعني أحداً .. إنما ، وكيلنا ، ذكر هذا الأمر أمامي .. فلم أجــد بداً من اطلاعك عليه .. إذ .. من يدري ؟! لعل الأمــر يتعلق بصديقك ، حقاً .. وإذا كان ذلك صحيحاً .. ففي إمكانك إنذاره ، قبل فوات الوقت ..

ثم صمت « شارل » فترة .. قال بعدها ، متردداً ..

ــ ولا تنس .. أن الأمر .. إذا ما كان ، حقاً ، يتعلق بعثمان .. فإن الخطر يحدق بنا ، نحن كذلك .. أم هل نسيت ذلك ؟!

كانت « بالوما » قد وصلت في تلك اللحظة .. فهرعت الى المطبخ ، ترشف قهــوة سريعة .. وعادت ، تجلس مكانها في خفّــة وطرب .. تتّخــذ الوضع المناسب الذي يرسمها فيه « مكسيم » .. في اللوحة ..

التفت « شارل غوستاف » إليها يسائلها ، عاتباً ..

ـــ هل أمضيت السهرة مع « ليزا » .. البارحة ، كذلك ؟!

تبسّمت « بالوما » ، تشير اليه بإصبعها بالكفّ عن مساءلتها ، نظراً لانشغال « دون ماكسيميليانو » برسمها ..

زاد تجاهلها من عتبه .. فقال ، في شيء من الحنق .. غريب على طبيعته ، وتصرفاته ..

ـــ ولقد أمضيتما الليل معا ، كذلك .. على ما أظن !

لحظه فراس ، بطرف عينيه ، لا يفهم ما رمى اليه ، من المجاهرة بأمورٍ ، جرت العادة ،في وسَطِهِم ، على تجاهلها .. وكان وجه « بالوما » قد احتقن لسؤاله ..

فهم « شارل غوستاف » عجب صديقه ، فردّ عليه ، على الفور ، قائلا ..

ـــ ولِمَ العجب ؟! و « ليزا » كلّ ما أملك ! في حين أن « بالوما »، لها الخيار ، بين جميع من تميل إليهم من رجالٍ ، أو نساء !

تبسّم فراس في برودٍ ، قائلاً .. يتجاهل مقصد صديقه ..

ـــ إنها لنزوة عابرة .. لا بد أن تمرّ في سلام ..

ردّ « شارل غوستاف » ، يستغرب جهل صديقه بما يجري وراءه من أمور ..

ـــ « مكسيم » .. ماذا تقول ؟! ألستَ على علمٍ بأنهما لا تفترقان ؟! لقد آثرت « بالوما » الحياة في شقة « ليزا » الصغيرة ، على البقاء عند أختها .. ثم ، إنهما على تلك الحال ، من قبل سفرهما الى القاهرة !

حدجها فراس بنظرةٍ متسائلة ، مستغربة .. فتململت ، وقالت ..

ـــ ولِمَ العجب .. « مكسيم » ؟ ولِمَ المواربة ؟! ألستَ أول من حاربَ تمزقي .. ونصحني بسلوك طريق التوازن النفسي ؟! حسنٌ ! فها أنا ذي قد فعلت ذلك .. وتوازنتُ !

توقفت عن الكلام ، برهة .. ثم تابعت بعدها ، تقول ..

ـــ لست أدري ما سبب إحساسي بالراحة ، وأنا في صحبة « ليزا » .. أو

أية فتاة مثلها .. لكن هذا بات بالنسبة لي ، أمراً ، لا يقبل الجدال ، أو التمحك !.. لقد وجدتُ ، في صحبتها ، ما منعني من التمزق بين روّاد الـ « كولوسيو »، وأشباه والدي ، من الرجال !.. وإذا كان لا بد لي من أحد الشرّين ، فأيهما أختار في نظركما ؟!

سأل « شارل غوستاف » في نزقٍ مكتوم ..
ـ .. وما رأي « ليزا » في كل هذا ؟! إني لا أناقشكِ ميولكِ .. لكن.. هل هي، حقاً، تؤثر بقاءها معك، على كونها على علاقة، طبيعية، مع شاب تحبّه؟!

ردّت « بالوما » ، في سخرية ..
ـ وهل أنت هو ذلك الشاب المعنيّ بالأمر ؟! « شارل » .. إني لم أسمع بعد ، عن رجل في الثامنة والثلاثين من عمره ، يدّعي أنه الشاب المناسب لفتاة في الثالثة والعشرين ! أم أن الأخلاق ، والعرْف ، لا يبرزان الى وعي بعض الناس .. إلا حين تسير الأمور ، على عكس ما يشتهون !!

تنفّست « بالوما » بعمقٍ .. ثم تابعت ، تقول ..
ـ « شارل »..إن « ليزا » ما كانت لتقبل أن أشاركها شقّتها ، لولا أنها ترتاح لما بيننا .. وإنها لقانعة" به .. كل القناعة !

ردّ « شارل غوستاف » يكاد يغصّ ، وهو يخفي تراجعه ، وانكساره..

ـ لكنها .. كانت معي .. على أحسن حال .. ولقد عرفنا لحظات سعادة، ولا أروع !.. كيف تدّعين أنها تؤثر صحبتك ؟!

تبسّمت « بالوما » ، في سخرية .. وقالت في مرارة واضحة ..
ـ لقد كانت تبيع نفسها ، معك !.. نعم .. « معك » .. وليس لك !

صرخ « شارل غوستاف » في وجهها .. وعاد للهجوم ..

ـ « ليزا »؟!.. تبيع نفسها ؟.. معي أنا ؟! ما معنى هذا ؟ هل تدركين فداحة ما تقولين ؟! « بالوما » .. إنك تحقّرين فتاة ، تدّعين حبّها .. لقاء ماذا ؟! وما الذي كانت تتقاضاه منّي ، بربّك ؟!

هزّت « بالوما » رأسها ، في أسف وصمتٍ .. تمنع نفسها عن الكلام .. ثم أطرقت برهة ، قالت بعدها .. كأنما أتى دورها للبوح ، والانكسار ..

ــ .. إن « ليزا » فتاة مسكينة .. وليست هي التي تقرّر مسار علاقاتها الشخصية .. يقال لها .. « حاولي هذا » .. « واسبري أغوار ذاك » .. فتطيع !.. لقد سعت° ، في علاقتها مع « ماكسيمليانو » وراء شيء لا أعرفه !.. ثم وُجِّهت نحوك ، والآن ..

وأطرقت « بالوما » .. كأنها ترفض الاعتراف بذلك .. ثم تابعت ..

ــ والآن .. ما أظنّها على علاقة معي .. إلا لأنها تسعى وراء « أماديو » ! كي تصل عن طريقه الى الكاردينال « بامفيلي » !

فغَر « شارل غوستاف » فاه ، دهشةً لما سمع ..

ــ تقولين « الكاردينال بامفيلي » ؟ وماذا تبغي ، من وراء ذلك .. وإلامَ يهدف أولئك الذين يقفون وراءها ؟!

سأل فراس ، دونما عجبٍ زائد ..

ــ وهل خصّت ذكر الكاردينال .. بالاسم ؟!

ردّت « بالوما » في وجوم ..

ــ عدداً ، من المرات !

تبدّدت آخر ومضات الشك في ذهن فراس .. وأيقن أن جماعة « ليزا » تجدّ في البحث هي الأخرى ، عن المخطوطات ! فهي ، إما عارفة بأمر الفهرس المسروق ، أو أنه الآن في حوزتها !.. وفي كلا الحالين .. فلقد ثبت لفراس أمر أكيد ، وهو أن هنالك جهةً خارجية .. تعمل بالتعاون مع قيّم المكتبة الذي يحاول عزل الكاردينال ، عن كنزه الأثير ! وإن شكوك « فيليتشي بامفيلي » كانت في محلها ، حول هويّة تلك الجهة !

دخلت في ذلك الأثناء .. « الماركيزا كولونا » .. تحمل كلبها

« الكانيش » ، الرمادي ، ذي الطوق المحلّى بالأحجار الكريمة الاصطناعية ..
يفوح منه عبقُ عطرِ حمامٍ جديد ..

وقفت تحاول استراق النظر الى لوحة « بالوما » .. فسارع « دون ماكسيمليانو » الى سترها .. ثم جلست في مكانها .. تنتظر عودته بلوحتها .. تُصلح من زينتها .. تتساءل عمن سيغلب جمالها ، منهما ! هل لوحتها هي ، في ثوبها الأنيق ، المُحافظ .. وكلبها عند قدميها ، على طريقة المدارس القديمة في الفن ؟ أم لوحة « بالوما » .. بنظراتها الشاردة ، وقيثارها المشرع أمامها ، كأنه سلاح تحمله ، في عالم عدائيّ .. يذَكّر ضياعه بأبعاد عوالم « سالفادور دالي » ..

سألت « الماركيزا » في فضول ..

ــ « دون ماكسيمليانو » .. لماذا لا تمهر لوحاتك .. باسمك الحقيقي ؟! لماذا تختار دوماً ، ذلك الاسم الأجنبي الغريب ، الذي لا يعرفه أحد ؟

تبسّم فراس ، وقال ..

ــ .. لأسباب عائلية .. ثم .. ماذا يزيد الاسم أو يُنقص ، من قيمة اللوحة ؟!

ــ « دون ماكسيمليانو » .. إنك تمزح ! وهل أن لوحةً تحمل توقيع « بونابرت » ، لها نفس القيمة ، إذا ما حملت توقيع ممثّلة .. من الدرجة الثالثة ؟! إن « بيكاسو » يرسم على ورقة عادية .. صورة قطعة نقود .. مهما كان رقمها .. وتُباع تلك الورقة ، بما يزيد عن قيمة قطعة النقود المرسومة ! وبعد هذا ، تقول لي ، إن الاسم ، لا أهمية له ؟!

ضحك « شارل غوستاف » من صديقه .. وقال ..

ــ لقد أخذَتْك « الماركيزا » ، على حين غرة !

ثم التفت الى « الماركيزا » قائلاً ..

ــ إن « مكسيم » يعرف ذلك ، ولطالما شكا منه .. لكنه ما زال متمسّكاً بأهداب مثاليّةٍ في الفن ، لا وجود لها .. يرفض الاعتراف بأن الفنّ

هو سلعة تبـاع وتشترى .. تسيِّرها قوانـين العرض والطلب ، مثلها ، مثل أية سلعة استهلاكية أخرى !

لعل « شارل غوستاف » كان يعكس نقمـةً داخلية ، ترسّبت في نفسه إثر حديث «بالوما» عن «ليزا»..وأدرك من حوله ذلك..ما عدا «الماركيزا».. كانت على وشك طرح المزيـد من الجهد ، للدفاع عن الفن ، المسكين .. حين تذكّرت غياب كلبها ، فتلفّتت تبحث عنه .. لا تفهم سبباً لا ختفائه .. وراحت تنادي ، بصوتها الناعم ، الأنيق ..

ــ «نـيرو » .. « نـيرو » .. أين أنت ؟

إذا بصوت نبـاحٍ مكتومٍ يصدر من خلف الستائر المسدلة على جدران القاعـة .. تقدّم منه فراس ، ليجد كلب « الماركيزا » يشدّ على سلكٍ باهتٍ دقيقٍ .. ما كان لينتبه الى وجوده أحد .. يحاول إخراجه من حيـث استتر ، تحت السجادة .. بين الجدار ، والأرض !! حمل الكلب الى صاحبته ، معتذراً من ضيوفه ، برهة ، ريثما تتمّ له ملاحقة ما اكتشفه من أمر السلك !

لم يطل به البحث !!

كان السلك يمتـد إزاء الجدار ، وقـد أخفته عن الأنظار يـدٌ تتقـن عملها !.. يسير من غرفة النوم الى مكان خفـيّ في الحديقة ، خارج الدار .. يتّصل ، داخل غرفة النوم ، بكوّة في الجدار ، أُعيـد سترها ، بنفس نـوع الورق ، عـدا دائرة صغيرة ، خفيّـة .. أُحدثت في الورق .. ما إن أدخـل إصبعه فيها ، وجذبها ، حتى تمزقت .. لتكشف له عن عدسة آلـةٍ سينمائية ، غاية في الصغر..موجهة نحو السرير ! والى جانبهـا ، جهـاز لاقط للصّوت ، من النوع المتطوّر .. يماثل بعض ما تضمنته طلبات شراء عثمان !! باختصار .. وجد فراس شبكـة تجسّسٍ سينمائيةٍ صوتيـة ، متطوّرة ، مسلّطة على سريره .. ترصد جميـع ما يحدث أو يقال في غرفة نومه !!

ما كان في وسعه العودة الى الرسم الجاد ، إثر ما اكتشفه !

عاد يصطنع العمل ، على لوحة « الماركيزا » .. يعـالج جوانب ثانويـة

الأهمية ، فيها .. يغتنمها فرصة ، لتهدئة ما كان يغـلي في نفسه من شكوكٍ ، وغضبٍ ، على من تآمروا ضدّه ، في عقـر داره ! لكنه سرعان ما ذكّر نفسه بأنه حديث العهد بمثل تلك الأمور .. فاسترجع ما كان من هدوء عثمان ، وهو يُطلعه على مُلاحقة « ليزا » له .. كيف أفهمه أن هذه أمـوز ، على الانسان توقّعهـا ، ومجابهتها .. لا بالغضب ، والطـرق المرتجلة .. بـل بالدرايـة ، والهـدوء .. كي يُحسن التغلّب عليها .. بل ، ومن يدري .. لعل الظروف قد تسنح له ، فيستغلّها لمصلحته ، هو .. بدل أن تعمل ضدّه !

قالت « الماركيزا » .. وهي تستريح من عنـاء وقفةٍ طويلة ، في الوضع الذي أراده فراس ..

ــ .. « ماكسيمليانو » .. ألـم تَعِـدْنا بحفـلٍ تنكريٍ ، في مرسمك هذا ؟! يا له من مكان مناسب .. خصوصاً ، واننا سنكون في هذا الغـاب ، في معزلٍ عن الناس .. نمـرح ، ونصيح ، ما نشاء .. وتصدح الموسيقى ، وما من رقيبٍ ، أو ناقد ، يعترض أجواء « الكارنفال » !..

أجاب « ماكسيمليانو » .. ساهماً .. مشغول بما اكتشفه ..

ــ بل إني أرتّب لما سوف يكون أشدّ متعة ، من جـوّ مرسمي هنا .. سوف أقيم هذا الحفل ، في «فينتزيه» بالتعاون مع «باولو ألبيرتو فوسكاري»!

تهلّلت معالم الماركيزا لسماع اسم البندقية .. وبان التساؤل على وجهي « بالوما » و « شارل » ، فسألت « الماركيزا » ، في لهفة ظاهرة ..

ــ وأين ستقيمان الحفل ؟! في قصر ذويه ؟.. لكنه مُلك الدولة ، اليوم .. أو في حوزتها ..

ــ إن القصر .. مركزٌ للدراسات الأدبية ، والفنّية ، وغير ذلك .. لكن الدور العلويّ منه ، ما زال بعيداً عن الحياة العامة .. وللأمير « فوسكاري » الحق في إقامـة مثل هذا الحفل فيه .. يدّعي بالطبع ، عذراً أدبيـاً ، أو حفلاً فنياً .. أو ما الى ذلك ..

كان فراس يجاذب ضيوفه أطراف الحديث ، كمن يقوم بدورٍ مسرحيٍّ متقن .. وذهنه مأخوذ بما اكتشفه من أدوات التجسّس ، في غرفة نومه ! من الذي وضع تلك الأجهزة ؟! « ليزا » بالطبع .. ومن غيرها ؟.. أو غير جماعتها ؟! ومتى تمّ لهم ذلك ؟!

راح ذهنه يطرح جميع الاحتمالات..لا شك أنها وُضعت أثناء سفره، في دمشق ! ألم تكن « ليزا » في فراشه يوماً ، حين طلب « مارتشيللو » على الهاتف ؟! سيسأل « مارتشيللو » عن ذلك .. لكن .. لا !.. لماذا ينبّهه الى مثل هذه الأمور ؟! هذا ، إذا كان خادمه بريئاً ، لا ضلع له فيما حدث ! أما إذا كان على اشتراكٍ بذلك .. أفليس من الأفضل له ، ترك الأمور على ماهي ؟! مع الاحتياط لها ! بل واستغلالها ، لمصلحته .. إذا أمكنه ذلك ؟!

ما إن غادر ضيوفه داره ، حتى هرع الى الهاتف الوحيد ، في غرفة النوم .. يدير قرص الجهاز على رقم مشترك ، بينه وبين عثمان !

أدار ظهره للحائط ، يحمي قرص الهاتف ، من عين جهاز المراقبة .. وهيّأ العبارة المتّفق عليها ، مع صديقه ، ليشعره نخلالها ، أن هنالك من يسترق السمع !.. طال انتظاره أمام رنّات الهاتف البعيدة .. استغرب صمت الرقم المطلوب ، وما كان الاختيار قد وقع عليه في الماضي بينهما ، إلا لوجود من يردّ فيه ، على السائل .. بصورة دائمة ..

أعاد الكرة مرّات .. دون جواب !.. فتشاغل برهة .. طلب الرقم بعدها، من جديد .. دون طائل ! لم يجد ، في النهاية ، بدّاً من طلب رقم عثمان ، الخاص !!

خرج من داره ، يقوم بذلك عبر هاتفٍ عام .. تحسّباً لأية مراقبة !.. فما إن تلقّفه الصمت ، على الهاتف ، حتى سيطر عليه قلق ، ممضّ ، مفاجىء .. فتح في ذهنه ثغرات جديدة ، راح يتساءل من خلالها عن جميع ما يُحتمل كونه قد غاب عن ملاحظته ، من أقوالٍ ، أو محادثاتٍ ، على

الهاتف .. جرت بينه وبين أصدقائه في غرفة نومـه ، تحت مراقبة تلك العـين الساهرة ، وسمع ذلك الجهـاز اللاقط !! ألـم يسائل « شارل غوستاف » ، مراراً ، عن تطورات عمليات الشراء ؟! هل ذكر نوعها ؟! هل أتى سهواً على ذكر اسم عثمان ؟! أم هل اكتفى بكلمة .. « صديقنا » ؟ هل نـوّه يوماً عن تخوفه من « ليزا » ..أو من انتماءاتها ؟! شكر قدره مرات ، إذ تذكـر أنـه لم يطلب وطنه ، قط ، على الهاتف .. ولم يكلّم أحداً عبره ، بلغته ، العربيّة !

هرع الى « شارل غوستاف » ، يخبره ، باختفاء عثمـان ، دون الاشارة الى ما اكتشفه من أجهزة مخفيّة في جدار غرفته !.. لماذا يخيف صديقـه .. ويضع العراقيل أمام انجاز طلبات عثمان ؟ كان يعلم أن « شارل » لن يفيـده سوى في بعث الراحة في نفسه ، لما يتيحـه له حوارهما من مناقشة الأمـور ، ووضعها في نصابها الصحيح !

لم يصلا في النهاية إلا الى نتيجة واحدة .. يُعيد فراس الاتصال بعثمان، عبر الأرقام المتفق عليها ، بينهما .. فإذا لم يسفر ذلك عن نتيجةٍ ، يتجاهل غياب صديقه ، الى أن تبـدر من عثمان ، إشارة جديدة ، تـدل على مكانه .. قال ذلك ، والقلق يختلط في نفسه بالخوف من المجهول .. وأنياب رعـبٍ دفـين بدأت تنهش أحشاءه ! ثم ماذا عن أجهـزة التجسس التي في داره ؟.. أمـر واحد ، بات واضحاً في ذهنه .. أو يكاد .. إن الجهة التي دسّت له الأجهزة ، في غرفته ، لم تكن تسعى وراء ما يربطه بعثمان..بل لعلّها ، أصلاً ، لا تشكّ بوجود مايربطهما بعضهما ببعض !.. إن تلك الجهة التي بثّـت « ليـزا » ، كرأس حربةٍ لها .. لربما كانت وراء هدف واحدٍ ، منـذ البداية .. هدف ، لم يكن فراس على رأسه .. كما ظنّ سابقا .. بـل هو أول درجـات السلّم الذي يقـود إليه .. فلماذا يقلقـه غموض غياب عثمان ؟!

أدرك فجأة ، أن عليـه قلب الأمور في ذهنه ، رأساً على عقـب ! وطرح

تفسير جديد لكل ما جرى له مع تلك الفتاة ، على أنه كان الخطوة الاولى التي أرادت « ليــزا » من ورائهــا الوصول الى « شارل غوستاف » وليس الــى عثمان .. ومن ثم الى « أماديو ، دوقا داوستي » ، وأخــيرا الى « الكاردينال بامفيلي » .. والمخطوطات ! وفي هذه الحال ، ما شأن غياب عثمان ، بكل هذا ؟! لا ! يجب أن يضع حداً لهذا التطيّر والوسواس !

لا شكّ أن هنالك من خَطّط بدأبٍ وجهدٍ ، لبلوغ ذلك الهدف !! جهة ما ، يعرفها الكاردينال .. ويخشى بأسها ! جهة ، عاجزة عن الحركة ، ما دامت تجهــل مكان المخطوطات.. ولم تكتشف وجودها، إلا بعد اكتشافها للفهرس!!

ذهب فراس ، يزور الكاردينال ، مرة ثانيــة .. يُنبئه بمــا اكتشفه في غرفته .. يستطلعه رأيــه فيما عليه التحسّب له خلال رحلتــه ، الآن ، وقــد ثبتت لهما شكوكهما حول هويّة الجهة المتربصة لهما !

كان « فيلتشي بامفيلي » مضطجعاً في فراشــه ، ذي الأعمــدة الخشبية الأربعة ، في ثيــاب نومــه البيضاء .. وعلى رأسه قبعــة نومٍ سلفيّة الزيّ، تدلّت من طرفها طرّة ارتكزت على كتفه ، زادت من الطابع التاريخي للغرفة ..
قال ، وشفته السفلى ترتجف ، حنقاً لما سمع ..

ــ يا إلهي !! إنهــم زادوا عــلى فــن الدسّ والمكيدة ، وسائل العصر الحديثة .. ونحن ما زلنا في عصر النسخ باليــد !.. من يدري ؟! لعــل لهــم مثل هذه العيون في معظم دورنا ، وأماكن تباحثنا بالأمــور الهامــة !.. لقــد كانــوا يلجؤون الــى نظــام الاعتــراف .. لنقــلِ أسرار الشعب ، الــى رؤسائهم ! أما الآن.. فما حاجتهم إليه.. وفي حوزتهم مثل هذه الآلات الرهيبة، التي لا يقف ســرٌ دونها !!
سأل « ماكسيميليانو » مستغرباً ..
ــ أي نظام اعتراف تعنون .. وما كنــت أدري أنهم يقومون بالاعتراف مثلنــا !

ـ لا .. لا .. لستُ أعني نظامهم ، هم .. بل نظامنا نحن !
ثم أطلق ضحكة مرحة .. ساخرة ، خفيفة ، قال بعدها ..

ـ كنّا نُتّهم بأننا نستغل نظام الاعتراف الصارم عندنا ، لمصالح العقيدة !.. يُلقبّون نظامنا هذا ، بأنجح نظام للاستخبارات ، في العالم ! نعرفُ عبره جميع ما يدور في نفوس الناس .. وما يقومون به ، في الخفاء ! بل..ولم لا؟! لقد كنّا أشدّ بأساً ، عبر هذا النظام ، من القانون نفسه ! نعرف معظم أسماء مرتكبي جميع أنواع الجرائم ! خصوصا ، الاخلاقية والاجرامية، منها !.. في حين أن أجهزة الأمن تعجز أحيانا .. حتى اليوم ، عن اكتشاف سرقاتٍ بسيطة !!

تنفسّ « الكاردينال » ، في عمقٍ ، ثم أردف قائلا ..

ـ .. كل هذا .. كان يدور في فلك واحد .. ولمصلحة واحدة .. فلكنا نحن .. ومصلحتنا ، نحن ! الى أن اندسّت جماعة صهيون ، بيننا .. وسَبَقتْها الماسونية ، من قبل ، الى ذلك !.. ولعلهما ، في النهاية ليسا إلا جهازاً ، واحداً !.. فباتوا بذلك ، لا يكتفون بالشرب من رأس الينبوع ، فقط .. بل أصبحوا يمنعون عنا الماء .. إذ يقفون في وجهنا ليمنعوا وصول المعلومات إلينا !

عاد « فيليتشي بامفيلي » الى السكوت ، برهة .. قال بعدها ..

ـ إني بالطبع..لا أتّهم الثقة التامة بكتمان العرّاف المطلق ! وهو الذي أقسم أغلظ الايمان ، أن يحافظ على صمته !.. لكن .. ماذا تريد ؟! إن النفس أمّارة بالخير .. كما هي أمارة بالشر !.. فاذا ما تناهى الى سمعِ عرّاف ما ، سرّ .. قد يُستفاد منه لتدعيم ركائز الايمان .. أو ، لإعلاء صرحِ العقيدة .. أفلا يُصبح منعه ، عنا ، أمراً مخالفاً لروح الايمان ؟! ويصبح الاعتراف به ، واجباً على من يحمل السر ؟!

ـ إذن ، فهم يلبسون مسوح الدين .. بيننا ، ولا سبيل لمعرفة ذلك ! ذئابٌ .. تدثرت بمسوح الرعاة !!

ـ بل يلبسون مسوح جميع الأديان..جميعها !! يعتنقونها ، في الظاهر..

وينخرون في جذورها ، كلها .. لا بهجومٍ ، يشنّونه عليها ، من الخارج !.. بل بابتكار المذاهب ، والتفاسير.. لهذا القول ، أو ذاك !.. لهذه الرؤى ، أو تلك ! فيفرقون جميع أصحاب الأديان ، الى فرقٍ ، ومذاهب .. ظاهرها ، بحثٌ جاد عن تفاسير جديدة ، صحيحة ! وباطنها ، سعيٌ ممضّ ، أكيد .. نحو هدم صروح جميع الأديان .. ما عدا دينهم !.. هذه هي المعضلة الكبرى التي نواجهها اليوم ، ولا نجد لها من حل ! فنحنُ ، نضطر للضغط على الرعيّة، ثبسّط التفاسير ، ونوحّدها ، لجمع الشمل ، إزاء هذه الأخطار التي تحضّ الناس على التفرقة !.. فيتصدّون لنا ، من الداخل ، والخارج معا .. يقفون بيننا .. مؤمنين مثلنا .. يتهموننا بالتزمّت والسلفية .. يشهرون في وجوهنا سيف إيقاف التطور !.. إنه لممّا يُضحك ، بل لممّا يُبكي أصحاب العقيدة الجامعة ، الحقّة .. أن نرى أعضاء جماعة صهيون ، يتبارون في تطعيم العقائد .. جميع العقائد .. بتفاسير ، نحن أول من يرى مصادرها البوذية ، أو التاوية ، أو المانوية !.. الى ما هنالك من جميع مصادر الأديان التي عرفها الانسان ، على مَرِّ التاريخ !.. بل نحن نملك الكتب والمستندات التي تبرهن على كل ذلك .. لكن ، كيف نُفهم البسطاء من المؤمنين ، هذا ؟! كيف تفهم الانسان « البسيط » إنه يواجه مشكلة « روحية معقدة » ؟! وذهنه البسيط ، لا يدرك المعقّد ؟! « دون ماكسيمليانو » .. ألا ترى معي التناقض الكامن في التعريف ؟! كيف يُدرك الإنسان البسيط ، أمراً معقداً ؟! إن رَفْضَ التفاسير الجامعة المُبسّطة للأديان ، بابٌ تدخل هذه الجماعات ، عبره ، الى النفوس الساذجة .. فتفرّقها .. يدّعون انهم حماة التطور .. والحركة !.. فكيف ندخل ، نحن ؟ كيف نعود ، الى تلك النفوس ، لنُفهمها ما هو معقّد ؟! ونقنعها بالتخلّي ، طواعية ، عن حريةٍ ، واهمةٍ ، ظاهرية .. في سبيل جمع الشمل ، ووحدة الإيمان ؟!

ــ ولماذا لا تقومون أنتم بالتطوير .. والتجديد !.. بدل ترك هذه المهمة لأعداء العقيدة ؟!

ـ « ماكسيمليانو » .. يا عزيزي !.. إن الراعي يسوق أغنامه ، ولا يقودها !! إن الراعي الصالح يسير خلف القطيع ، وليس أمامه ! أما الثوري ، فانه يكلّم الجميع ، لكنه لا يشدّ خلفه إلا الأقوياء منهم!.. فيتفرّق القطيع ، ويترك المتخلفون ، وراءه ، ليموت الضعفاء منهم !.. إن للمصلحين المجددين في الدين ، ظاهرياً ، الدور المنفتح البنّاء .. لكنه في الواقع ذور" فوضوي .. لا ينجح في النهاية ، إلا في تشتيت الشمل !.. يسعى الى الخراب ، سواء أدرك ذلك ، أم لا ! أما نحن رجال الدين .. نحن الذين ورثنا دور جمْع الأكثرية ، على العقيدة الواحدة .. مهما اختلفت الأديان .. فلقد ترتّب علينا سياقة الرعية برفق ، ومن الخلف .. ثم التريّث معها ، للسير مع أضعفها بنية ، وأبسطها فهماً !.. ذلك ، لحمايته من الذئاب المتربّصة له !.. فاذا خسرنا القوي .. إذا طار ذلك القوي أمام الركب البطيء ، أثناء ذلك ، فلا بأس ! إذ أن للقوي أملاً ، في إيجاد سبيلٍ للخلاص ، بنفسه ! أما الضعفاء .. فاذا تركناهم لأنفسهم ، فقدوها .. وفقدناهم !.. وهذه نتيجة محتومة !!

ـ وماذا يفعل المخْلصون من أصحاب الثقافة ، والأذهان المنفتحة ؟! كيف يقبلون جمود الطقوس .. وسلفية التفاسير ؟! كيف يتفيؤون بمظلّة الدين .. والدين لا يظلّل إلا البسطاء !

تبسّم « فيليتشي » في عطفٍ ، وذكاء .. وقال ..

ـ وهل وُضعتْ الطقوس والتفاسير.. لهؤلاء ؟! أقولها .. لك.. وليس لغيرك !.. إن هؤلاء ، من الذين تجاوزت ثقافتهم حدود العلوم والطقوس الدينية المُبسّطة .. عليهم متابعة المسيرة مع الركب.. مدركين أن الركب ، أي ركبٍ كان ، كالهرم .. قاعدته ، أوسع بكثير من قمته ! وإن الركب ، لا يكون ركباً ، إلا إذا تقدم جميع من فيه ، في سرعةٍ متجانسة .. إن التفاسير ، في جميع الأديان ، إنما وُضعت لأولئك الذين لا يحسنون التفسير ! أما أصحاب العقول، والنفوس النيّرة .. فهم ليسوا في حاجة ، أصلا ، الى طقوس الخير ، كي يقوموا بفعل الخير !.. ولا في حاجة للخوف من نار جهنم ، كي يُقلعوا عن فعل الشر ! لذلك ، فان على المؤمن المثقّف ، تجاهل ما قد يبدو صارماً ،

ملقنّياً ، لطبيعته .. ولسعة اطلاعه .. والمضيّ قدماً مع الركب ، وإلا فقدَ الركب مقدمته ، وطليعته !

تنبّه « فيليتشي بامفيلي » الى شبح ابتسامة تراءت على شفتي « دون ماكسيميليانو » ! فتوقف ، سائلاً .. متبسماً بدوره ..

ــ .. ماذا ؟.. هل تراني أعظ..دون أن أدري ؟! لا تلمني .. إن وعظ النخبة المثقفة أمرٌ لا تتهيأ لي ظروفه دائماً ! لذلك ، أراني أتتهزها فرصة ، معك ، لسماع صدى أفكاري !

ضحك « ماكسيميليانو » ، وأجاب ..

ــ لا .. لا .. إنها مجرّد فكرة .. أو انطباع عام ! لست أدري..فما إن يتخذ الحديث في سمعي مجرى الكلام عن « القطيع » و « الرعاة » ، وما شابه ذلك .. حتى تراني أميل الى الهروب منه ، تفسّياً..إن لم أقل ، النفور منه !.. واعذرني ، يا صاحب النيافة .. فأنا أكلّم الصديق ، الآن .. وليس الراعي !

ــ بل هذا ما رأيته فيك ، منذ البداية .. فلا عليك !.. أما عن نفورك من هذه التشابيه ، فإليك رأيي .. لماذا تهرب منها ؟! هل لأنها تصوّر لك الشعب ، على أنه أغنام سهلة القياد ؟! أم لأنها تُعطي للراعي صفات فوقيّة ، ترفضها نفسك .. لتتّمسك بمبدأ مساواة البشر ؟!

تردّد « ماكسيميليانو » .. ثم قال ..

ــ لست أدري بالضبط .. لقد سبقني سؤالك ..

ــ لا عليك ! لكنني أطرح عليك السؤال التالي .. إذا كان صاحب الدين ينتمي الى القطيع ، أو الى جماعة الرعاة .. فإلامَ ينتمي من يخرج عليه .. من الثوريين المجدّدين ؟! ومن هو « نيتشه » ، في ظنّك، إن لم يكن، راعياً آخر.. لقطيعٍ من الأقوياء ؟! ومن هو « تروتسكي » .. إن لم يكن رئيس الرعاة ، لطبقات بأسرها ؟! إن كل متكلمٍ في الشعب ، راعٍ ! وكل مستمعٍ لغيره ، جزء من قطيعٍ ما !! فلماذا الهروب من حتمية هذا الواقع ؟!

نظر « دون ماكسيمليانو » طويلاً الى محدثه ، كأنما هو على وشك طرح سؤالٍ أخير ، يتردد في المجاهرة به .. ولعل الكاردينال أدرك ذلك .. فقال ، في عطف ..

ـ قل .. قل يا عزيزي !.. ولا تتوان .. إنما نحن أصدقاء الآن ..

قال « ماكسيمليانو » .. في تمهّل ..

ـ لست أدري .. نحن نكره ما تفعله جماعة صهيون ، من الدسّ ومحاولة تفكيك عقيدتنا ، وذلك باشتقاق الفِرَقِ ، والأحزاب منها .. من الداخل .. وماذا نحن فاعلون بتلك الكتب والمخطوطات ، التي آلت إلينا .. من تراث الآخرين ؟!

تبسم « فيلينشي » .. وقال ..

ـ آه .. إن الأمر معنا يختلف تماماً !.. نحن أصحاب حق !.. وعقيدتنا هي الصحيحة !! وكل ما يساعد على تنميتها ، أو تقويتها ، لهو صحيح ، بالضرورة !! TODOS MODOS * .. هل نسيت ؟!

هزّ فراس رأسه ، متسائلاً .. وقال ..

ـ أليست هذه المقولة ، قضية انتماء ؟!.. وأيّ صاحب عقيدة ، لا يظن أنه على حق .. وأن غيره على باطل ؟!

ـ إنها قضية إيمان !

ـ إيمان ؟.. أو ارتباط عضوي .. لا شعوري ، بالمنشأ ؟!

ـ لست أفهم بالضبط ، ما تشير إليه ..

تبسم فراس ، وقال ، سادراً .. ساهماً ..

ـ إنها قضية سمك السلمون .. لا تنفكّ ترجع الى ذهني ، كلّما حاولت إقصاءها .. إنها مشكلة عدَميّة قضايا الإيمان .. ووهنها .. في افتقارها الى أي مستندٍ آخر ، غير العاطفة !

---

* جميع الوسائل ..

التفت الكاردينال الى « دون ماكسيمليانو » .. يُمعن النظر في عينيه .. يحاول استشفاف ما قد يكون خفي عليه ، من صرامة إيمانه .. ثم قال ..

ــ ولِمَ لا .. لئن دفعت الطبيعة سمك السلمون للعودة الى منابع حياته .. فلا بد أن وراء ذلك سبباً يؤدي الى تقوية النوع !.. أين العدمية ، في ذلك ؟!

ــ إنها تقع في أن الأنواع تسعى ، جميعها ، الى تقوية ذاتها !.. ويصطدم، بعضها ببعض .. وهي على تلك الطريق .. فتأكل بعضها بعضاً !.. ولكل منها الحق ، في نظرها ، بالنهوض على جثث غيرها !.. لأن كلاً منها يظن أنه يملك الكلمة الحق !

عاد الكاردينال للتفرّس في تقاطيع وجه محدّثه .. ثم سأله ، في هدوء.. وهو يزمّ جفنيه في مكرٍ محبّب !

ــ وهل لديك شك .. في أننا نملك الكلمة الحق ؟! يا صاحب النيافة ؟!

ضحك « دون ماكسيميليانو » .. فجأة .. وقال ، كمن يغامر بجميع ما يملك .. يلقي به .. مرة واحدة .. في حلبة الرهان ..

ــ وأنت .. يا صاحب النيافة ؟! ألا تعترضكم مثل هذه الهواجس السوداء ؟! من حين .. الى آخر ؟! أم أن لديكم ذاك الايمان الفريد ، الحق .. الذي تزحزح ذرةٌ منه .. جبالاً ، بكاملها ؟!

تابع الكاردينال النظر الى محدثه .. برهة ، لا يُبدي ما يشير الى أنه سمع السؤال .. ثم رفع كفيه في الهواء فجأة ، وأطلق ضحكةً ، تنفّس لها فراس الصعداء !

ــ « دون ماكسيمليانو » عزيزي !.. لم يخطىء من قال لي إنكم من أشد الأسر بأساً..في أوروبا !! كل ما أرجوه منك..بعد العودة من مهمتك .. هو الاحتفاظ بتلك الآراء .. لنفسك ! خلال مقابلتك للحبر الأعظم !

لم يفهم فراس ، في البدء ، قصد الكاردينال ، من قوله هذا .. فلم يجبه بشيء .. ولعل الكاردينال أدرك حيرته .. فتابع ، مستفسراً .. حائراً ..

ـ .. إنك .. تنـوي طلب مقابلة خاصّة .. من الحبر الأعظم .. أليس كذلك ؟! وهل يُعقل ألا تفعـل هذا ؟! إنكم الأسـرة الوحيدة في أوربـا ، التي ، تحـق لها مقابلته .. على أساسٍ عائلي .. خصوصاً ، وإن آخر « دوقا دالبا » قام بزيارة روما ، كان قبل الحرب العالمية الأولى !

نهض « دون ماكسيمليانو » يتمشّى في صمت، قرب سرير الكاردينال.. ثم قـال ..

ـ لقد تركتُ مدريد ، سرّاً !.. إثر ما علِمْتُه من اختفاء الفهرس !.. لننهي هذه القضية ، أولا .. وبعد ذلك ، أعـود الى مدريد .. لأخرج منهـا ، على الملأ .. ثم أقوم حينئذ بجميع واجباتي ، بسرور !

تردّد برهة ، ثم تابع قوله ، سائلاً ..

ـ وهل الحبر الأعظم على علمٍ بوجودي ؟.. هنا ؟

ـ لا أستطيع الجزم بذلك .. لكـن العادة جـرت على إحاطته علمـاً بوجودِ من هم أقل رفعة ، بكثير ، من نيافتكم !

تجاذب الرجلان أطراف حديثٍ طويل .. شمـل أموراً عديدة ، حـوّم فوق الدقيق منها .. الى أن حطّ في النهاية فوق قضايا الجنس ، وكأنه ما من حديثٍ حميمٍ ، جديرٍ بربطِ أواصرِ الصداقة بين مخلوقين ، إذا لـم يُطرح بينهما ذاك الموضوع ! يخرجان منه ، في النهاية ، الى نتائج أنه لا طائـل وراء إمعـان التدقيق ، في تلك الأمور !.. لكن « دون ماكسيمليانو » ، لم يجـد بدأ ، من طرح سؤالٍ ، طالما حرّقه .. يعرف الأجوبة العلميّة عنه .. ويجهـل إجابـة إنسـانٍ مثل الكاردينال « بامفيلي » !.. فما إن فاجـأه بسـؤاله ، ضاحكاً .. عن سبب كره الدين في أوربا للمتعة الجنسية .. حتى بوغـت بردّ « فيليتشي بامفيلي » ..

ـ .. وكيف تريد لشعبٍ .. هانيء على الأرض .. أن يلتفت في جدّية

الى أمـور السماء ؟! أليس هذا عذراً كافياً لشحذ كراهيتنا للجنس .. ولكل ما يبعث على السعادة .. في هذه الحياة الدنيا ؟!

ضحك « ماكسيميليانو » لإجابة الكاردينال .. فتوقـّف عند ذلك الحد .. محجماً عن نقاشٍ يعلم سلفاً أنه لن يقـود إلا الى فتح ثغـرة في ما وصل إليه من وفاقٍ مع إنسانٍ علاّمة .. طيّب .. يعيش في عالمٍ غير عالمه هو .. يشرب من مورد ماءٍ ، لا علاقة له بالعصر الذي يعيشه ..

كان على وشك طرح سؤال يتعلـّق بسفره الى الدير .. حين أدرك مضيفه ذلك ، فاستدعى مرافقه وكلـّفه أن يحمـل له صندوقاً صغيراً خاصـّاً ، تنـاول مفتاحه من جيبه .. وقال ، مشيراً الى الفهرس ، بعد أن كشف الغطاء ..

ــ إني لم أدع إنسانا يمسـّه .. ولولا أنه مـُلك أسرتك .. وأنك ستحتاج إليه في مهمتك .. لطلبتُ منك تركه في حمايتي ! لكن..هل تعلم ما عدد النسخ الأصلية ، منه ؟!

تمهل « دون ماكسيميليانو » في الردّ .. ليزيد من وقـع إجابتـه ، على مسامع مضيفه ، ثم قال ..

ــ .. أربعة .. أليس كذلك ؟!

ــ يا إلهي .. وكيف عرفت ذلك ؟! إذن ، إن ما كـُتب عن هذا الموضوع ، لصحيح !!

عاد الى الصمت .. ثم قال ، يحدّث نفسه ..

ــ ترى هل باقي ما كـُتب ، صحيح .. كذلك ؟!

ــ ماذا كـُتب ، يا صاحب النيافة ؟!

ــ إني أعني..مكان النسخة الرابعة ! فهذه واحدة ، ولقد فقدنا الثانية في المكتبة ، أما الثالثة ، وهذا سرّ لا بأس باطلاعك عليه ، فان « يان فراتيشيك » حاول في الماضي الاحتفاظ بالفهرس الثالث مدّة ، سعى لإعادة نسخه ، خلالها .. لذلك عملتُ على إتلاف نسخته ، دون علمه..ثم أتلفت النسخة الثالثة بنفسي..

ـ بقيتْ .. الرابعة !.. فهل لديكم فكرة عن مكانها ؟!

ـ كنا نظن أنها في « الأسكوريال » .. لكن وجودك هنا ، ينفي ذلك !.. لذلك ، لا مناص من تصديق عميلنا ، في دمشق ..

بوغت فراس ، بما سمع !!

نهض ، يشعل لفافة ، بعيداً عن سرير الكاردينال .. يردّد ، في ذهنه ، ما سمعه !.. « دمشق » ؟! « عميلنا في دمشق » ؟! ينتظر المزيد مما بدأه مضيفه .. لكن « فيليتشي » عاد الى الصمت .. فلم يجد « دون ماكسيمليانو » بداً ، من السؤال ..

ـ .. وأين ، في دمشق ؟! إني أنوي السفر الى الشرق ، قريباً .. ولعلّي أستطيع الافادة من عميلكم .. أو ، إفادته ، في شيء .. فهل هو في سفارتكم ؟!

ـ لقد تعلّمنا ، يا عزيزي ، حيل جماعة صهيون !.. وعميلنا ، هذا .. كان من جماعتهم .. هم !! أي من اليهود المتخفّين منذ أجيالٍ عديدة ، في تلك البلاد .. ولعله ما يزال على ولائه لهم .. لكنه يقول اليوم .. إنه اعتنق عقيدتنا .. كل ذلك ، في السر ، طبعاً .. فمن يدري ؟! وهل يَحْسن تكذيب إنسان ، في مثل هذه الأمور ؟! .. رجلاً .. له مثل هذا الموقع الستراتيجي ؟!

ـ لست أفهم !

ـ الأمر بسيط .. إنه واحد من أولئك المزروعين في دمشق ، منذ أكثر من عشرة أجيال ! إنه من « جماعة صهيون »، العرب، الذين التحقوا بالاسلام، ظاهرياً ، منذ حكم آل عثمان .. يتناقلون إسلامهم ، وتعمّقهم بالفقه .. ظاهرياً .. ويخفون ولاءهم لعقيدتهم الأصلية ! وما يزال منهم في تلك البلاد الآلاف الكثيرة .. حتى الآن !

عاد « الكاردينال » الى الضحك .. وقال ..

ـ إنه مثل جماعة « الموريسكاس » .. التي بقيت في بلادكم ، إسبانيا .. بعد طرد المسلمين منها ! فأسرته مسلمة .. ظاهرياً .. بكل معنى الكلمة ..

ومنذ أجيال .. وليس في تلك البلاد من يشك في إسلامها !.. أما باطنه .. فمن يدري ؟! يقول إنه بات منا..لكنني أظن أنه ما زال على عقيدة أجداده .. على أية حال .. لقد أدّى لنا كثيراً من الخدمات .. بشأن المخطوطات ! فهو يجمعها لنا .. ثم نبعث من يأخذها ، من داره ..

ونادى الكاردينال مرافقه .. بأن يُحضر الصندوق من جديد .. وأخرج منه كتيباً صغيرا .. فلّى صفحاته ، برهة ، ثم قال ..

ــ .. هاك اسمه !.. أرى أن تدونه الآن عندك لاستظهاره .. ثم تمزّق الورقة فيما بعد ؟! إنه يُدعى « أبو غزوان » .. وهو يقيم في دارٍ عربية ، بين الجامع الأموي الكبير ، والمكتبة الظاهرية !.. يكاد لا يترك داره ، إلا للصلاة .. يجلس فيها ، ظاهرياً ، منقطعاً للدراسة ، والتعمق بشؤون الفقه ؛ واللغة .. فإذا احتجتَ يوماً لمساعدةٍ ما ، فما عليك إلا زيارته .. والتلفّظ أمامه بالعبارة السريّة ، المدوّنة على هذه الورقة ..

وناوله نسخة ، عن ورقةٍ محفوظةٍ لديه ، أعادها الى الصندوق ، ومن ثم ، الى مرافقه .. وطلب منه وضع الصندوق في خزانة سرية ، ضمن الجدار..

كان فراس يصغي الى ما يقوله الكاردينال .. ويعمل باشارته ، واجماً ، صامتاً .. وجزءٌ كبير من نفسه يرزح تحت وطأةٍ ما انتابه من شللٍ وانقباضٍ، منذ أن سمع اسم « بني غزوان » .. ودار في خلده أن ذلك الدمشقيّ العريق.. ذلك الانسان المُدرك لجميع أبعاد لحظات حياته ، في مدينته الأثيرة.. ذلك الطيّب ، المضياف ، الذي تشتهي النفس الجلوس اليه ، لسماع ما يفيض حديثه به ، من معرفة ، وطلاوة..ان هو ، إلا عدو ماكر !.. ينعم بحضارة تلك المدينة، يدرك أصالة جذورها ، بينما يقوّض في السر ، تاريخ أهلها ، وتراث أجدادهم!

سمع فراس نفسه ، يسأل الكاردينال ، كاتماً ما يجيش فيها من عواطف متضاربة ..

ــ وهل لكم غيره من المساعدين .. في تلك المدينة ؟!

تعجّب « فيليتشي » لسؤاله .. فلحظه ، مستغرباً .. وقال ..

ـ بالطبع !.. وأي سؤال هذا ؟!

استدرك فراس ، قائلاً ..

لا .. لا .. إنما عنيت المتخفّين منهم .. فهؤلاء ، أشد بأساً من غيرهم !

إن لجماعة صهيون المئات منهم .. بل الألوف ، في جميع أنحاء البلاد العربية .. أما نحن ، فلا حاجة لنا بأمثالهم من المتخفّين .. إلا فيما يتعلق بأمور المخطوطات .. والبحث عنها في الأماكن التي لا يدخلها إلا المسلمون !

* * *

عاد فراس الى داره .. يتعمّد حمل الفهرس إليه ، وأسرع ، فاستلقى على فراشه في مجال رؤيا العدسة المخفيّة .. وراح يتصفّحه .. على مرأى منها ! ويدير قرص الهاتف على رقم مسكن الكاردينال .. حسب خطة كان قد رتّبها معه .. فما إن سمع صوت « فولف » .. حتى حدّثه عن تفاصيلَ وهميّةٍ لما يزمع القيام به ، في روما ، قبل سفرهما الى الدير .. يسأله عن صحة الكاردينال ، ثم عن رأيه بالفهرس .. الى أن سأل ، في عفويةٍ تامة ..

ـ وهل الطقس شديد البرد .. في جبال الجنوب .. حيث يوجد الدير ؟!

ثم عاد الى ذكر الجنوب ، مراراً ، مدّعياً أن الدير الذي سيقصدانه موجود في « كالابريا » .. ذاكراً اسم قريةٍ ، قريبةٍ من ديرٍ معروف .. الى أن قال ..

ـ على أية حال .. لا أريد لهذا الفهرس مفارقة داري ، خلال الأيام القليلة المتبقّية على سفرنا .. سأتركه هنا ، في مكان أمين .. في عهدة « مارتشيللو » .. ريثما يحين موعد السفر ..

ثم ردّ على سؤالٍ وهمي .. يسأله عن مزيدٍ من التفاصيل .. فقال ..

ـ .. بعد أربعة أيام .. سأكون في البندقية لافتتاح معرضي .. نعم .. بعد غد .. ثم أركب الطائرة ، مباشرة ، ومنها الى « نابولي » .. ونلتقي

فيها ، قبل سفرنا الى الدير .. في « كالابريا » !.. حاذر من أن يـراك أحد .. وأنـت تركب الطائـرة الى الجنوب !.. الى اللقـاء .. سأتّصل بـك من « فينيتزيه » ، حسب المواعيد التي حدّدناها معا .. الى اللقاء !

ثم مال على جنبـه ، يُخفي قـرص الهاتف .. وعاد يطلـب عثمان ، من جديد .. فلا يتلقّى من رقمه جواباً .. غير الصمت !

لم يكن في نيته ، بالطبع ، إبقاء الفهرس في داره .. فنادى «مارتشيللو».. يخبره بأنه سيتغيب تلك الليلة في سهرة عند الماركيزا « كولونا » ..

وترك الغرفة ، يحمل الكتيّب ، كأنـه على وشـك إيداعه مكاناً أميناً ، في الـدار ..

* * *

خرج من داره ، يطلب « شارل غوستاف » ينوي مرافقته الى حيث أزمع إعادة الفهرس ، الى صندوق أماناته ..

لقيه صديقه ، شـاحبَ الوجـه .. شاخصاً في الفضاء .. جالساً الى مائدةٍ على رصيف مقهى « الكانوفا » .. كأنه قد تلقّى قبـل لحظات ، نبـأ موت إنسان عزيزٍ على نفسه !

صاح فراس ، ينبّه صديقه من شروده ..
ــ « شارل » .. ماذا بك .. قل !.. إنك تخيفني !!

كان « شارل » يـمسك بطرف صحيفة الصباح ، ناولها لصديقه .. يشير الى الخط العريض على الصفحة الاولى ..
قرأ فراس .. مذهولاً ..

« محاولة اختطاف شخصيّة عربيـة ، ثوريّة ، في صندوقٍ .. عثـر عليه بين حقائب المسافرين .. في قسم الشحن .. على طائرةٍ متجهةٍ الى شمال أفريقيـا !! »

وتحت العنوان العريض .. رأى صورةً لصندوقٍ كبير .. يشبه توابيت

المومياء .. كتب تحتها أن أحدهم اشتبه بما في داخل الصندوق ، فلما فتحته السلطات ، عثرت بداخله على جسد رجلٍ مخدرٍ .. ما زال على قيد الحياة !.. والى جانب ذلك الخبر ، نشرت صورة شمسيّة داكنة ، لوجهٍ مغمض العينين ، ما شكّ فراس لحظةً أنه وجه صديقه .. عثمان !!

* * *

لحظات .. وكان فراس ، في طريقه الى حيث صناديق الأمانات العامة التي كان قد اتفق مع عثمان على اللجوء إليها ، في حالةٍ مثل تلك .. علّ أحدهما يكون قد ترك للآخر فيها ، ما يفسّر طارئاً ، أو خطراً مفاجئاً ، لا سبيل لاطلاع صديقه عليه ، على الهاتف !

وجد الصناديق ، على الحالة التي اتفقا أن تكون عليه .. في كل منها مبلغ من المال ، مرصود للمفاجآت .. الى جانب عددٍ من تذاكر السفر بالطائرة ، الى جهاتٍ متعدّدة .. ثم رأى مظروفاً صغيراً ، فراح قلبه يضرب بشدة ، وهو يعيد إغلاق أحد الصناديق ، ويفتح المظروف ، ليقرأ ما يلي ..

الاخ الحبيب ، رفيق الجهاد .. فراس ،

قد تكون هذه آخر اشارة تصدر عني، وانا ما زلت حرا، معافى ! اذا غبت عنك ، فارجوك متابعة الصفقة .. فجميع التسهيلات قد اجريت مع البنك ، لفتح الاعتماد المطلوب .. اخي .. هل تذكر حديثنا القديم ، عن اولئك الذين تبتدىء مصالح الوطن ، عند انتهاء مصالحهم ؟! لقد صاروا على أبواب منظمتنا ، بل بدؤوا التغلغل فيها !.. هل وجب علينا مقاومتهم ، بل استئصالهم ، منذ زمن بعيد ؟! ولم نفعل ؟! لقد آثرت الجهاد من الخارج ، بعيدا عن المنازعات التي تحدث داخل الوطن ، علّي اتحاشاها .. لكنها لحقت بي ، الى روما .. وها انا ذا مطالب بالعودة ، لمصير اعرفه سلفا !.. لقد رفضت ذلك .. فالى متى انجح في تحاشي بطشهم ؟! لا اظنهم سيصلون اليك .. ماذا ستفعل اذا هم طلبوا منك التعاون معهم ؟.. مدعين اني قد خنت القضية ؟!

لقد تجاهلت الرد على أمثالهم من قبل ، واذا الحبل يصل الى عنقي ! هل ستحذو حذوي ؟! وفقك الله .. وداعا يا اخي ..

عثمان

كان فراس ، منذ أن رأى صورة عثمان على صحيفة الصباح ، يتحرّك كأنما لدغته أفعى .. جلّ ما يستطيع القيام به ، هو منع السم من الجريان في دمه ، ريثما يصل الطبيب !.. فما إن قرأ رسالة عثمان ، وسمع نبرات صوت صديقه ، في ذهنه ، ثم تخيّل تقاطيع وجهه الحبيب ، وهو يسطّر تلك الكلمات، ثم رآه ، مخدراً .. مسجّى في ذاك الصندوق .. يحرّكه الحمالون ، مع بقية حقائب المسافرين ! يقلّبونه .. عاليه ، سافله .. يهيلون بالصناديق فوقه !.. ما إن تخيّل صديقه، في تلك الأوضاع التعسة التي لا بد أنه مرّ بها،حتى انتابه إحساس باللوعة ، والمرارة ، تمنّى ، من خلاله ، لو أن السم يجري فعلاً في دمائه ، فينهي إحساسه بذلك الأسى المرير .. لا ينجح إلا أبناء وطنه ، في إثارته في نفسه !

أية قوى غاشمة سوداء ، تلك ، التي تحيل المجاهد المُخلص ، في نظر رفقاءٍ له ، الى عدوٍ لدود ؟! يلبسون مسوح الحق ، كما يرونه هم ، ويعيدون رسم الخطوط الوطنية الصادقة .. يعرّفونها .. ويصوغونها .. بما تسمح لهم ثقافتهم المحدودة .. تتلاعب بها القراءات ، والمحاكمات القاصرة !.. يتعاملون مع جميع ما يقف في وجوههم ، بحقدٍ ، يوازي أحقادهم الدفينة .. وبمرارة ، تنبع من نفوسهم المُرة .. المتآكلة !.. لا يدركون أن منطقهم المأفون لن يلبث أن يقلب الحاكم ، الى محكوم .. والقاضي ، الى مجرمٍ أثيم !! الى متى سيبقى العربيّ ألدّ أعداء إخوانه من العرب ، والمسلم ألدّ أعداء إخوانه من المسلمين ؟!

استغرق في التفكير .. راح يزيد من مساحة دائرة عاطفته التي استحوذ عليها عثمان ، في تلك اللحظة .. فشمل أشخاصاً آخرين ، مخلصين ، لاقوا مصيراً أسوأ من مصير صديقه ، وعلى أيدي رفاقٍ لهم ! ثم تذكّر جماعاتٍ بأسرها ، عُذّبت ، أو نُكّل بها ، باسم الوطنية ! والقضية الحقة !! طوائف بكاملها .. بعشرات ألوفها .. تقوم إليها طوائف أخرى ، كانت بالأمس جاراتٍ لها .. لا فارق بينها سوى معتقدٍ مُبهم ، لدى الجميع ، يحمل

طلاسمه ، رجلٌ يختلف في زيّ الكهانة عن زي كاهن آخر . جميعهم ، يدّعون الدماثة ! جميعهم ، يباهون بحمل مشاعل الحب ، والصفح ، ومبادىء الحضارة الحقة .. وأكثر هؤلاء إمعاناً في الحقد ، يدّعون انتماءات الى عقائد وديانات لا تعرف سوى الصفح ، والمحبة !! تكشّر هذه الطائفة ، فجأة ، عن أنيابها ، لتلك .. تشحذ أظافرها المغطّسة بالسم الزعاف .. تنقض على أجساد جيرانها .. تمزّق لحمها .. تفقأ عيونها ، تقطع خصاها ، تقتلع أحشاءها وأكبادها !! تقتل شيوخها ، وأطفالها .. ثم تتبارك بمسح وجوهها بدم ضحاياها !! تحمل منه الكؤوس لمعابدها ، تضحية على مذبح آلهتها ! آلهة الحب ، والصفح .. والحضارة الحقّة !!

ما معنى غليان الحقد الأسود ، هذا ، في نفوس الأفراد ، والجماعات ؟! أين يهرب الفرد الذي لا يستعر في أحشائه أتون الكراهية ، ذاك ؟! هل الى بلادٍ ، ظاهرها مسالم هانىء ؟!

وأين هي البلاد التي لم تعرف المذابح والتشويه ؟! أين هم هؤلاء الأفراد الذين لا يختبىء السم وراء بسماتهم الحضارية الدمثة ؟!

عاد الى داره يمضّه حزنٌ بعيد .. ويكبّله إحساس بالعجز أمام ما لقيه صديقه من مصير بشع !!

ترى أين هو عثمان الآن .. تساءل عما إذا كان في أحد المشافي .. كيف يستقي أخباره .. أو يهرع إليه .. فيفضح من علاقتهما ما حرصا أشد الحرص على كتمانه ؟! يقولون إنه ما زال على قيد الحياة .. فهل تراه رهن التحقيق؟! ولماذا يُحقّقُ معه ، وهو الضحيّة ؟! وأي السلطات تحقّق معه ، وجميعها مربوطة برحم جماعة صهيون ؟!

كيف ينجو مثل ذاك الجواد الأصيل .. الآن ، وقد سقط مخدّرا تحت رحمة أسراب الثعالب والذئاب ؟!

تذكّر موعد العشاء في دار الماركيزا « كولونا » .. وكانت الساعة قد قاربت السابعة مساء ، فأسرع الى داره ، يلج بسيارته باب السور الكبير ، وضربَ البوق ، ضرباتٍ خفيفة ، لدى اقترابه منها ، يُشعر « مارتشيللو » بوصوله ، كي يفتح له الباب ..

تعجّب لانشغال الشاب عن استقباله .. فأغلق باب سيارته في هدوء ، ودخل داره ، على مهلٍ .. يتوقع مفاجأة « مارتشيللو » مع إحداهنّ .. وكان قد شدّد في تنبيهه .. يحظّر عليه إدخال أحد .. كائناً من كان ، الى الدار ، أثناء غيابه !

لم يفهم سبباً لما وجده من الأنوار الساطعة ، في جميع أنحاء البيت .. ولا عذراً لكون الصندوق القديم ، مفتوحاً .. بعض ما فيه ، مبعثراً على الأرض !!

نادى « مارتشيللو » مراراً .. وما من مجيب ! فأسرع يتفقّد غرفة نومه ، ولمّا لم يجد فيها أحداً ، عاد الى القاعة ، ومنها الى المطبخ .. دفع بابه ، أمامه ، بعنف .. ثم وقف يستطلع ما بداخله !

كان « مارتشيللو » ممدداً على الأرض !! شاخص العينين !! يحرّك رأسه ، في هدوء ، يمنة ، ويسرة .. لا يبدو أنه يعاني من ألمٍ ما ، لكنه لا يُبدي أي اهتمامٍ لمفاجأة سيّده له ، وهو على تلك الحال !!

صاح فراس ، يناديه ، مرة ثانية .. والشاب ، كأنه في عالمٍ آخر .. لا يُلقي أية نظرةٍ الى سيده .. رداً على نداءاته المُلحّة !!

انحنى فراس فوقه مذعوراً ، لا يفهم سبباً لتجاهل « مارتشيللو » له .. وليس ما يُشير الى أنه مغمى عليه ! ولا الى مُعاناته من شدّةٍ ما ! واذا بالشاب يفتح فمه ، على أكثر ما يستطيع ذلك ، كأنه يحاول إخراج حاجة علقت في بلعومه .. ثم ندّ عنه صوتٌ عميق .. مخيف !.. أجفل له فراس ! وأصابته قشعريرة لسماعه !!

أسرع الى الهاتف يطلب « شارل غوستاف » .. يرجوه الحضور ، برفقة

طبيبٍ ما .. ثم عاد ، مسرعاً ، الى حيث تمدّد « مارتشيللو » يحاول جهده رفعه عن الأرض .. يحضّه على النهوض .. يفرك يديه !.. يضرب وجنتيه .. ضرباً خفيفاً .. علّ ذلك يحرّك فيه دافعاً يحضّه على الصحو مما هو فيه .. لا يتلقّى من إجابة على كل ذلك ، إلا ذاك الجؤار المخيف .. انبعث من أعماقِ صدر الشاب .. في كل مرة ، وكأنه يتلفّظ بحرفٍ غريبٍ من حروف الهجاء !

تنبّه فجأة ، الى أن « مارتشيللو » قد يكون عاجزاً عن الكلام ! وانه في نفس الوقت ، ربما يجاهد ليخبر سيّده بشيء ما !!

كانت الدموع قد بدأت تنهمر من عيني « مارتشيللو » .. لسببٍ لم يفهمه فراس .. يحرّك بؤبؤ عينيه .. مشيراً الى جنبه ! تنبّه الى أنها جهة ذراعه اليمنى. حيث راحت أصابع يده تتحرك، وكأنما تخط شيئاً على الأرض!
حدّق ، فيما راحت تكتبه سبابة « مارتشيللو » على الأرض .. وإذا بها تخطّ ما يشابه حرف اللام .. فسأله فوراً ..

ـ هل تكتب حرف اللام ؟! « مارتشيللو » .. هل أنت عاجز عن النطق ؟! انبئني بطريقة ما .. أغمض عينيك .. اذا كنتَ لا تستطيع الكلام !
أقفل « مارتشيللو » جفنيه ، عن عينين زاد تدفّق الدمع منهما .. ثم فتحهما ..
ـ هل تكتب ؟ حرف اللام ؟!
عاد الشاب الى إغلاق جفنيه ، إشارة منه ، بالموافقة ..
ـ هل تشير الى اسم إنسان ما ؟! رجل ؟ فتاة ؟!

كان فراس يهيل الأسئلة عليه ، كما يفعل في طرح الأحاجي ! حتى فهم أن « مارتشيللو » يشير الى فتاة .. أول حروف اسمها ، هو اللام .. « ليزا » ؟.. بالذات !! ثم فهم أنها غادرت الدار منذ حين .. وأنها مسؤولة عن حالته تلك !!

وصل الطبيب ، برفقة « شارل غوستاف » ، فرفع ثلاثتهم « مارتشيللو »

الى مقعد غرفة الجلوس .. وبعد متابعة طـرح الأسئلة عليه ، برهـة أخرى ، عرفوا منه أن الشاب قـد تنـاول حبـوبا مخدرة .. أحضرتها « ليـزا » .. يُظن أنها من نوع الـ « L.S.D. » وانه قد تناول منها جرعة كبيرة !!

مرّت ساعة قبل أن يفتح « مارتشيللو » عينيـه ، إثر حقنـة مسكّنة ، ويتلفّظ ببضع كلمـاتٍ ، مفادها ، أنه إنما تنـاول مقـداراً ضئيلاً من هذا المخـدّر ..

ضحك الطبيب ، كأنما أُزيح عن كاهله ثقـل هـمٍّ كبير ، لدى سماعه صوت الشاب .. وقال لفراس ..

ـ لا شك عندي أن ما تناوله من مخدر .. قادر على قتل حصان !!

خيّمت نظـرة الدهشة على عينـي « مارتشيللو » ، فأردف الطبيب ، يقـول لـه ..

ـ إن الـ « L.S.D. » لا طعـم لـه ولا رائحـة .. لعلـك تناولـتَ ذلك المقدار البسيط بنفسك .. لكن هنالك من دسّ لك مخدرا أكبر بكثير !! في طعام ، أو شراب !! هل تناولتَ شراباً ما ؟!

ولما هزّ « مارتشيللو » رأسـه بالإيجاب مشـيراً الى كأس بعيـدة .. تناولها الطبيب بيده ، وقال ..

ـ سنجري فحصاً مخبرياً على محتويات هـذه الكأس .. إني آسـف أشد الأسف ، لكن هذه أمـور قضائيـة ، لا يمكنني التعامي عن التدقيـق فيها .. فقد تكون هنالك محاولة متعمدة للقتل !!

فغر « شارل غوستاف » فاه ! ثم ردّد قول الطبيب ..

ـ محاولة للقتل ؟! « ليزا » .. تحاول قتل « مارتشيللو » ؟! لماذا ؟!

ردّ الطبيب في بساطة ..

ـ لعلهـا لم تتعمّد قتله .. لكنها ، لا شك ، أعطتـه كمّيـة قاتلة !.. لقد أصابه ، من ذلك المخدر ، ارتخـاء كليّ في عضلات البلعـوم والحنجرة ! ومثل هذا الارتخاء قد يُفضي لارتخاءٍ في النخاع الشوكي ذاته..فيسبب ذلك

تعطيل عمله .. والموت المؤكد !! هل ننقله الى مشفى عام .. أم لديكم مشفى خاص ، تفضلون نقله إليه ؟!

تساءل فراس ، كأنما لا يصدق ما سمع ..

ـ هل الأمر على هذه الدرجة من الخطورة ؟! مشفى. تحليل مخبري..

حدجه الطبيب بنظرةٍ صارمة .. وقال ..

ـ سيدي !.. إنها قضية حياة ، أو موت !.. هل أطلب رجال الأمن.. كي تفهمون مدى خطورة ما أنتم فيه ؟!

أدرك فراس إذ ذاك ، ولأول مـرة .. معنى ، ومدى ، محاولة « ليـزا » القاتلـة !

لقد جاءت تَطلُب الفهرس في داره، بعد أن أُنبئت جماعتُها عن وجوده، عبر العدسة المتجسسة ، فلم تجد من سبيل لإزاحة « مارتشيللو » من طريقها ، سوى إغوائه.. عن طريق « ليـزا » ودسّ المخدّر له ، في شرابه ! فهي، سواء درت بعواقب ما قامت به ، أم لا .. فانها كادت تزهـق حيـاة إنسان على مثل نضارة شبـاب « مارتشيللو » .. مشركـة « دون ماكسيمليانو » بمسؤولية جرمها ! متهمة إياه بالاشتراك بعملية قتل ، وتناول المخدرات ؟!

قام « شارل غوستاف » ينتفض غضباً .. يتصل بـ « ليزا » عبر الهاتف .. فلما لم يجدها في شقّتها ، طلب « بالوما » ، يسألها عنها ..

قالت « بالوما » .. تـمسك عـن كشف غصّتهـا .. تتكلم في صوتٍ واجفٍ ، جافٍ ..

ـ .. « شارل » !.. لقد تركتنا جميعاً !.. جمعـت حوائجها ، وسافرت على عجـل !.. تقول إنهـا ستعود الى اسرائيل .. لكني سمعتُ أنهـا قـد تتوقّف ، في طريقها ، في « نابولي » .. فماذا أفعـل ؟! ستعاودني هواجسي ، من جديد !! ماذا أفعل !!

* * *

الفصل الثالث

لا شك أن عوامل كثيرة تجمّعت ، وتضافرت ، لتجعل من معرض « دون ماكسيميليانو » ، في قصر « فوسكاري » ، أكثر المناسبات الفنيّة بهجةً ، في مدينة ألِفَتْ المعارض والاحتفالات ، والمناسبات الرسمية ، بجميع أشكالها حتى ملّتها .. وصار من الصعب على أيٍّ من هذه المناسبات ، نيل اهتمام سكانها ، الذين تعوّدوا الفن ، حتى بات جزءاً من حياتهم اليومية ..

لعلّ الأمير « باولو ألبيرتو فوسكاري » كان خجولاً ، متردداً ، في اللجوء الى اسمه ، ومركزه الاجتماعي ، للعمل على إذكاء سمعته الفنيّة .. يؤثر بيع رسومه ، في الخفاء .. عن طريق المكتبات ، والتجار .. على إقامة المعارض لنفسه .. لِما سيضطره ذلك من مواجهة نقدِ طبقةٍ ، يعرفها ، ويكرهها .. فما إن تولّى أمر الترتيب لمعرضِ « دون ماكسيميليانو » .. حتى انبرى للعمل على إنجاحه ، في جرأةٍ وثِقة .. يدعو إليه جميع معارفه .. يُرتّب مع النخبة منهم ، لحضور الحفل التنكّري الذي سيلي افتتاح المعرض .. يقترح الأزياء ، والألوان ، والأسماء ، على بعض الناس .. يّشجّعهم على اللجوء لأشدّها غرابة .. يَشْعر أنه ، في تعامله مع الآخرين ، بات فجأةً ، الأمير « فوسكاري » .. من عصرٍ مضى ، يدعو أصدقاء له ، الى قصره .. على الطريقة التي ألِفها أسلافه في مدينته .. لا همّ له سوى استقبال ضيفه النبيل .. « دون ماكسيميليانو » بالشكل اللائق .. وإحياء حفلٍ تنكريٍّ من المستوى البراق الرفيع ، الذي درج عليه أسلافه ، من نبلاء البندقية !

كانت بعض غرف الدور الثالث ، من القصر ، مزيّنة بعدد من

اللوحات التاريخية من القرنين السادس عشر ، والسابع عشر ، علاوة على قطع الأثاث القديم ، الدقيقة الصنع .. تفرّقت ، هنا ، وهناك .. فلم يشأ « باولو أليبرتو » رفع تلك اللوحات أو القطع الأثرية ، من أماكنها .. كارهاً أجواء صالات العرض الباردة ، المفرّغة من أي طابع حميم .. بل وَزّع لوحات « دون ماكسيميليانو » بين تلك اللوحات القديمة ، وضمن أجواء وزينة وأثاث القصر .. مكتفياً بالأضواء الخاصة التي رُكّزت فوقها ، كإشارة لكونها لا علاقة لها ببقية تحفٍ ، وممتلكات القصر ..

* * *

وقف « شارل غوستاف » بين بقية المدعوين .. يتأمل أعمال « دون ماكسيميليانو » الكلاسيكية .. يُبدي إعجابه بما يرى .. الى أن قال للأمير « فوسكاري » .. في لهجةٍ من يُقرّ لمحدّثه بِلَفْتةٍ ذكيّةٍ ، ما كان يتوقّعها منه ..

ـ إن هذا ليس فتحاً في أسلوب العرض ، فحسب .. يشهد على ذوقك.. بل إنها صفعة تحدٍّ، في وجه الفن المُحدث ، اليوم ! ثم ، إن مثل هذا الأسلوب في العرض ، قد يُسقط أعمال أي فنانٍ ، ليست لوحاته على المستوى الفني لأعمال « ماكسيميليانو » .. إذ ليس من العدل ، عرض عملٍ فنيٍّ الى جانب لوحاتٍ أثريّة ، جيّدة .. إذا لم يكن لذلك العمل مثل مستوى بقية موجودات المتحف !

كان الوافدون الى القصر ، من نخبة أهل الفن ، والمجتمع .. يتنقّلون بين قاعاته .. يكادون لا يميزون بين القديم من اللوحات المعروضة ، والجديد منها ! وكانت جميع أعمال « دون ماكسيميليانو » لوحاتِ شخصياتٍ اجتماعية لامعة .. وقفَ بعض أصحابها ، بالقرب منها .. يتلقّون المديح ، والتعليقات ، من أصحابهم ، وابتسامات الفخار ، والرضى ، على شفاههم !..

والبعض الآخر يصطنع التواضع ، أو عـدم الانتباه .. لكنه لا يبتعـد كثيراً عن لوحته ..

كذا ، جلست « الماركيزا كولونا » تحت لوحتها .. تتأسف ، في سرّها ، لكونها أغفلت إحضار كلبها « نيرو » معها .. ليشاركها تلقّي نظرات الإعجاب من الجميـع ! كمـا وقف « أماديـو » ، « دوقـا داوستي » ، بالقـرب من لوحتـه ، يصطنـع التواضع .. يتحدّث من حولـه عن مرضٍ صديقـه ، « الكاردينال بامفيلي » ، الذي علّقت لوحته على صدر الجدار المقابـل .. وهكذا ، دواليك !

سار بعض الزائرين يبحثون عن « بالوما » ، بـين الحضور ، إذ طالعهم جمالهـا الأخّاذ ، في لوحتهـا .. رُسمت بأسلوبٍ فريدٍ يحـاكي أسلوب « هولباين » .. وخصلاتها الشقر ، تستر صدراً ، يكـاد نهـداه ، البديعان ، ينفران منه ! وبعضهم الآخر، راح يبحث عن « الكونتيسة دي روكوموريل »* التي كان « مكسيم » قد رسمها ، قبـل وفاتها المبكّرة ، في باريـس ، منـذ زمـن طويـل !

قال « شارل غوستاف » لـ « باولو أليبرتو » الذي وقف إزاءه ، مبتهجاً لاهتمام الحاضرين بجميع ما كانوا يشاهدون ..

ــ .. لقد نجحت ، أيها الأمير ، في بعـث اهتمامٍ حقيقيّ لدى الناس ، بالفـن .. اهتمـام حقيقـي ، مخالف للنظرات البـاردة التـي تعوّدناها في المتاحف !.. لا أظن إلا أن هذه ، كانت أجـواء الفـن ، زمن عصر النهضة .. حين كانت اللوحة الواحدة حدثاً اجتماعياً ، شخصياً .. عـلاوة على كونهـا أثـراً فنيّـاً !

نظر إليه الأمير « فوسكاري » ، يستعدّ لمهاجمته ، فيما لـو خالفـه في رأيـه .. وقـال ..

---

* شخصية ارستقراطية فرنسيـة ، ورد ذكـرها في روايـة « مسافـر بلا حقائب » للمؤلف ..

ـ وهل من جو فني حقيقي آخر ؟! إن جميع أعمال عصر النهضة ، وما تلاها ، ما عدا الأعمال الدينيّة ، الإعلامية .. إنما ارتكزت على علاقة الفرد بالعمل الفني !.. وليس على علاقة المجتمع ، ككل ، باللوحة !! إنها علاقة تتراوح بين الإعجاب ، والعشق !.. بين الإنسان ، وما يحب رؤيته ، من أعمال فنيّة !.. وليست علاقة تلميذ ، بأستاذه !.. أو علاقة عضو ، في حزب سياسي ، بفلاسفة الحزب ، من المنظّرين ، الذين لا يفهمون ما يميّز أعمال « ليوناردو » ، عن أعمال « رافائيل » !!

نظر « شارل غوستاف » إليه ، متعجباً .. وقال ..

ـ عزيزي .. لا حاجة بك للانفعال .. فأنا على أتم وفاقٍ مع ما تقول !.. لكن المشكلة لم تعد محصورة في رأيك ، أو رأيي ! إن أنظمة اجتماعية ، بكاملها ، قائمة اليوم ، ونظرتها للفن ، هي على نقيض ما تقول ! إن جميع الأنظمة الاشتراكية ، تدعو لتجنيد الفن لخدمة المجتمع .. والطبقة العاملة !

قهقه « باولو ألبيرتو » .. وقال ..

ـ عزيزي « شارل » إن « النظام » لا يتكلّم !.. إنما الأشخاص ، الذين يتبعون النظام ، هم الذين يكتبون .. ويتكلّمون !!

ـ لم أفهم الفارق بين النظام ، والأشخاص !!

ـ إن الأنظمة ، مبادىء نظرية .. حبر على ورق ! يفهمها كلٌ ، كما يريد .. أو كما تتيح له ذلك ظروفه الاجتماعية ، والثقافية ! وإلا ، فكيف توفّق بين كون « بيكاسو » شيوعياً ، في حين أن « الحزب » كان يرفض أعماله ؟! فما إن تبدّلت بعض الزعامات داخله ، حتى قبّلت أعماله ، من جديد ؟!

ـ حسن !.. وأنت ، كيف تفهم ذلك ؟!

ـ أفهمه ، بموجب ما قلته لك !.. إن « الحزب » كلمة ، عامة .. لا مدلول محدّداً لها .. إنما هم « الأشخاص » الذين يتكلّمون ،

ضمنه ! لذلك ، ترى « الحزب » يرفع « ستالين » ، الى السماء ، ثم ترى الحزب نفسه يدكّ جميع أسس تعاليمه ، وتماثيله !! فإذا كان الحزبيّون ، السياسيون ، يخطؤون في تقييم رجال السياسة ، التي يقولون إنها من اختصاصهم .. فكيف تنتظر منهم ألاّ يخلطوا بين الفن ، وعلوم الفيزياء النوويّة !!

أقبل « دون ماكسيميليانو » عليهما ، يهمس في أذن « شارل غوستاف » متسائلاً ، متعجّباً ..

ــ « شارل » .. هل ذاك الرجل هو ، الأمير « نيقولا رومانوف » .. أم أنا مخطىء ؟!

ردّ « شارل » ، في بساطةٍ .. يُقصد منها المفاجأة ..

ــ .. لِمَ هذا السؤال ؟.. وهل وصل ؟.. أين هو ؟!

بان العجب الشديد على ملامح فراس .. وقال وهو ينظر من بعيد الى الأمير « نيقولا » ..

ــ يا الله !.. كم تُبدّل السنون ، في وجه الانسان !.. « شارل » .. لقد شاب شعره .. وتجعّدت بشرة وجهه .. و..

ــ وماذا كنت تنتظر من إنسانٍ ، لا يترك الخمر ؟!

سأل الأمير « فوسكاري » ، في لهجة مستغربة ..

ــ عمّن تتهامسان ؟!.. الأمير « نقولا » ؟.. أي أمير « نقولا » هذا ؟.. « نيقولا رومانوف » ؟! ابن أخ قيصر روسيا ؟! وهل هو بيننا ؟.. وتلفّت .. يتمعّنُ في وجوه الحاضرين ..

كان الأمير « نيقولا » قد حضر الى « البندقية »، بناء على دعوة من « شارل غوستاف » .. يحمل معه لوحة كل من الكونتيس « ماتيلد دو روكموريل » ، والأمير « فيليكس يوسوبوف » .. قريب قيصر روسيا ، وقاتل « راسبوتين » .. وكان « مكسيم » قد قام برسم اللوحتين ، في

لمـح الأمير « شارل غوستاف » عن بُعـد .. فتقدم منه .. يمشي على طريقته الأنيقة ، المتهادية .. يسـير برفقة شـاب وسيـم الطلعـة ، بـدا في السابع عشرة من العمـر .. يراقب جميع ما حوله ، في تشامخٍ ظاهر !

صاح الأمير « نيقولا » ، حينما رأى « ماكسيمليانو » عن بعـد ..

ـ « ميشكا » .. يا إلهـي !.. لكم أصبحتَ رسّاماً ماهراً !.. بـل ، ورَجلاً ، وسيماً ، فوق كل ذلك !..

صمتَ .. يمعـن النظر في « مكسيم » .. يذكر الشاب ، الذي كـان ، في باريس ! والذي ذاعـت قصـة حـبّ ابنـة قيصر روسيـا « الدوقـة انستاسيا » ، له ..

ـ لقد أُصبحتَ أكثر وسامة ممّا مضى..آه لو أن «الدوقة انستاسيا» ترى حبها القديم .. الآن !.. ومن يدري .. لعلهـا ما تزال على حبهـا لك ، حتـى اليـوم !

تسارعت الأخبار المثيرة على مسامع الأمـير « فوسكاري » .. وكـان « أماديـو » قد أقبـل من بعيـد ، يكـره أن يلمـع الحديث في حلقـةٍ ، لا يتوسطهـا هـو ! فلمـا فهـم علاقـة « دون ماكسيمليانو » بالدوقـة « أناستاسيا » ، زاد اعجاباً بكل ما يجري حوله .. وازدادت قناعته بأن الكون ما زال متماسكاً مترابطاً رغـم ما يبدو عليه من تصدّع من حين الى حين !!

نظـر الى لوحـة الأمير « يوسوبوف » ، التي كان « نيقـولا » قـد أحضرها معه ، من باريس ، وقال ، في لهجـة مأساويّة ، توخّى أن يسمعهـا الجميـع ..

ـ هذه ، نخبـة أوربا .. هذه روح أوربا ، مجتمعة هنـا ، في أجمـل قصر ! من أجمل مدينة فيها !! تشهد معرضاً ، للوحاتٍ ، بريشة أحـد كبـار نبلائها !.. فهل سيقول قائل" .. بعـد الآن .. إن نبـلاء أوربـا لا يصلحون

إلا لحمل القاجم .. وعاداتهم السلفيّة ؟! إن الاحتفال ، هذه الليلة ، يجب أن يكون ، من البهجة .. على درجة تُبْل الحاضرين !!

ثم قطّب فجأة ، يُمعن النظر في مرافق الأمير « نيقولا » وقال .. في صوت موسيقي ..

ـ « نيقولا » .. عزيزي .. إنك لم تعرّفنا الى مرافقك الوسيم !

تورّدت وجنتا الشاب ، وقطر شذراً الى « أماديو » الذي تراجعت نظراته عنه ، في استحياء ..

فردّ « نيقولا » ، على عجل ..

ـ .. إنه ليس مرافقي ، يا عزيزي الدوق ، أو مرافق أحد ! إنها هفوتي ، لقد فاتني أن أقدّم لكم « كزافييه ستيوارت » ، ربيب « الدوقة انستاسيا » ! وقريبها ، من زواجها الثاني ..

كان الشاب ينظر الى « دون ماكسيمليانو » ، في استغراب ، وعجب .. لما سَمِعه من الأمير « نيقولا » عن علاقته بأمّه!..فلما سمع «ماكسيمليانو» اسم الشاب .. وأمعن التفكير في موضوع القرابة التي تربطه بـ « أناستاسيا » العاقر .. راح قلبه يضرب بشدّة لذكريات الماضي وللاحتمالات الغريبة التي طرأت له !!

نظر الى « شارل غوستاف » ، مُستفسراً .. يطلب إجابة سريعة منه ، عمّا جال في ذهنه ! .. فأخذ « شارل » صديقه ، من ذراعه .. مبتعداً به عن الجميع .. وقال له ، في لهجة مداعبة ، مماطلة..مشيراً الى « كزافييه » ..

ـ ومن تظنّه يكون ؟.. ها ؟.. أليس الشبه بك بادياً على معالم وجهه ؟!

شدّ « مكسيم » ذراع صديقه .. يحضّه على المزيد من الكلام .. وأعصابه تزداد توتراً .. فأجاب « شارل غوستاف » ، في هدوء ..

ـ نعم .. يا صديقي .. إنه ابنك !.. ولدُكَ ، من « أوديل » الفرنسية !.. ولدُك .. حين كان لك عشرون عاماً ! لكنه لا يعرف شيئاً عن

كل هذا !.. لقد تبنّته « الدوقة أناستاسيا » منــذ ولادته .. حسب ما علمتْ من « نيقــولا » ، وترعرع في كنفها ورعايتها .. وأجوائها .. وهو لا يعــرف غيرها ، أمّاً له ! إنــه اليوم ولدهــا الحقيقي .. ووريــث ثروتها الهائلة !

* * *

مرّت بفراس جميــع أحداث تلك الليلة .. منذ أن سمع بنبــأ أُبوّته لذلك الشاب .. كأنها إعصار" ، في حلم !!

عــاد الى دار « باولو أليبرتــو » .. حيــث استضافه صاحبهــا .. مع « فولف » ، مرافق الكاردينال .. وصورة « كزافييــه » مطبوعة في ذهنــه ، ورأسه يُدوّي بما سمعه !

أهكذا ، يصبح الإنسان أباً .. إثر نبــأ عابرٍ ، ذكــره شخص ، كان في وسعه كتمانه عنه ؟!

ما أوهى علاقة الرجل ، بذرّيته ! إذا ما قيست بعلاقة الأنثى بها !! بل ، أيّة علاقة وهميّة ، تربط الرجل بولده ، حين تقاسُ بتلك التي تنتج عن حمل المرأة لجنينها ، في أحشائها ، تسعة أشهرٍ ، مستديمات ، تفرج بعدها ، ساقيها ، ليخرج الطفل من رحمها .. أمام ناظريها .. لحمــه ، من لحمها ! ودمــه ، من دمها !! ترافقه دمــوع فــرح ، مجبولة بآلامٍ ، ودَمِ المخاض ، والولادة !!

ما معنى كون الرجل أباً لشابٍ ، لا يعرفه ؟.. شاب افرنسي .. روسي .. أمــيركي !!

* * *

كان « دون ماكسيميليانو » قد تــرك رومــا بصحبــة « فولف فــون فيرتبورغ » مرافق الكاردينال ، بعــد أن زُوّد الاثنــان ، برسائل التعريف لرئيس الدير .. بالاضافة الى المعلومات ، اللازمة ، حول المخطوطات الموجودة فيــه !.. نــزلا في ضيافة الأمير « فوسكاري » ، الذي ترك مرسمه ، وكــان « فولف » قد تفرّغ ، منــذ أن بارحا رومــا ، لحراســة الفهرس .. وما كان

باستطاعة « دون ماكسيمليانو » التجوّل ، وهو في حوزته .. ولا تركـه في مكـان ما ، دون حراسـةِ شخصٍ متيقّظٍ .. وحادثـةُ « مارتشيللو » ، ما زالـت ماثلة في ذهنـه !

لعلّ « دون ماكسيمليانو » كان يُخفي توجّساً..من صمت « فولف »، يزيـد من وقعـه ، ما لاحظه من نظراته الصارمة ، حين زار الكاردينال ! لكنه سرعان ما أدرك خطـأه .. فمـا كـاد يتـرك « فولف فون فيرتبورغ » دار الكاردينال .. ويصحب « دون ماكسيمليانو » ، حتى تبدّلت جميع تصرفاته ، إزاءه ! فأصبح « دون ماكسيمليانو » ، فجـأة ، بالنسبة الى « فولف » ، كأنه « الكاردينال » ذاتـه !.. وبـات « فولف » ، يُلقـي بنظراتـه الصارمة ، تلـك ، على جميع من يحاولون الدنوّ منه !

* * *

قرع فراس بـاب دار « باولو ألبيرتو » إثر عودته من معرضه .. ففتح له « فولف » ، عن وجهٍ شاحبٍ ، مكفهرّ .. وأعـاد إغـلاق الباب ، ويداه ترتجفان ،لشدة توتّـر أعصابه !!

تبادرت لفراس جميـع الأفكار السوداء ، فصاح على الفور ..

ــ ماذا بك « فولف » ؟!.. قل .. هل أصابك مكروه ؟!

جلس « فولف » على مقعدٍ ، بالقرب منه ، وقال في عصبية ، ووجوم ..

ــ .. « دون ماكسيمليانو » .. لا تخـف .. إن الكتيّب في أمـان !.. لكن هنالك من حاول سرقته مني !!

وروى له ما تنبه له ، من محاولةِ سطوٍ ، أحسّ بهـا ، وما كاد « دون ماكسيمليانو » يترك المرسم لحضور معرضه !!

قال ، يرتجف .. وكأنه يعيش الحالة ، مرة ثانية ، في ذهنه ..

ــ .. سمعت قرقعةً ، قرب النافذة المطلّة على القنال ! فما كدتُ أجري نحوها ، لأتبيّن مصدرها .. حتى تنبّهت الى صوتِ حركةٍ أخرى ، في غرفة النـوم !.. « دون ماكسيمليانو » .. إنها عصابة ، خطِرة !.. لقـد هاجمـوا

المرسم ، فور خروجك منه .. ومن جهتين اثنتين !! واحدة .. بهدف لفت انتباهي ، إليها ! والأخرى ، سعياً وراء الكتيّب ، الذي ظنّ السارق أنني أُخفيه ، في غرفة النوم !!

ـ .. وأين كان الفهرس ؟!

ـ كنتُ قد أخفيته ، في غرفة المياه .. فور خروجك من الدار !! وضعته في كيسٍ ، يَقيه من الماء .. ثم أسقطته في علبة المياه التي فوق المرحاض !!

تبسّم فراس ، لما سمع .. وحرّك رأسه ، ينتظر بقية الرواية .. فقال « فولف » ، والاضطراب في عينيه ..

ـ .. لمّا عُدت الى غرفة النوم .. رأيتُ أحدهم ، يقفز من النافذة ، ثم يعبر الجسر .. ويختفي في النفقِ المقابلِ للدار !! ولقد جالَ في ذهني ، على الفور ، أن قصدهم ، من تلك الحركة الظاهرة ، كان يُخفي محاولة أخرى ، لإبعادي عن الغرفة ، والدار !.. يا لهم من مكرةٍ ، دهاة .. لعلّهم ظنوا أنني سوف أجري وراء اللص .. أو أترك الدار ، لطلب النجدة !

ـ .. لكنك لم تفعل !

ـ .. لكنني لم أفعل !! ومكثتُ هنا !.. بالقرب من غرفة المياه ، أحرسها ، وهذا السلاح في يدي .. حتى سمعتُ قرع الباب ! وتعرّفتك ، من وقع قدميك !!

لم يسمع فراس إلا التعجّب لهذا الولاء الآلي ، الذي أغدقه عليه « فولف فون فيرتبورغ » !.. وتساءل عن مدى اهتمام الشاب بتفاصيل ما اشترك فيه ، وما يجري حوله ! ترى ، ماذا كان يعرف عن محتويات تلك المخطوطات ؟!.. وما الذي يحرّك دوافعه ، لحمايتها ؟ هل كان ولاءه ، لشخص الكاردينال ؟! أم ولاءه للعقيدة ، ورجالها ؟! وأي حيّز يمتلكه ، هو ، « دون ماكسيمليانو » الانسان ، من تفكيره ؟! ترى ، هل يرافقه ، ويطيع

أوامره اتصياعاً منه ، لرغبة الكاردينال ؟! أم خدمة ، وتفانياً ، لقضيّة بعينها ؟!

قال « دون ماكسيميليانو » .. مسروراً لنجاة الفهرس ، قلقاً ، على مصيره ..

ـ « فولف » .. أرى أن ترافقني الى « الكارنفال » !.. فليس من المعقول أن تبقى وحدك ، هنا .. بعد الذي حدث !.. وليس في استطاعتنا طلب المعونة ، أو النصيحة ، من أحد !!

هزّ « فولف » رأسه ، موافقاً .. وقال ..

ـ وأخفي الكتيّب في ثيابي !! إن في خزانة الأمير عدداً من الأزياء الفضفاضة .. سمح لي باختيار أحدها .. فيما لو قررتُ الذهاب معكم !!

ـ .. وهل وقع اختيارك على أحدها ؟!

ـ ..سأرتدي زي فارس «جرماني» !..وقد أبدو فيه مثل «كورفينال» صديق « تريسْتان » !! الذي مات حبيبه ، بين ذراعيه !!

تعجّب « دون ماكسيميليانو » أيّما عجبٍ ، لملاحظة « فولف » ، تلك ، التي تشير الى الصداقة المتفانية ، حتى الموت !! وما ظنّنهُ مُدركاً أن في العالم مثل تلك العلاقات الحميمة !

سمع « فولف » ، يسأله ..

ـ « دون ماكسيميليانو » ! وماذا سترتدي .. أنت ؟!

ضحك فراس لسؤاله .. وقال يستزيده ، من نوع ملاحظته ..

ـ .. وما رأيك ؟.. هل أرتدي زيّ « تريستان » صديقك ؟ هل يليق بي أن أظهر بشخصية « تريستان » ؟!

قطّب « فولف » فجأة .. وقال في جدّية ، كأنه نبيل عسكري ، جرمانيّ ، يُدلي بقسمٍ غليظ ..

ـ إذا فعلتَ .. « دون ماكسيميليانو » !.. فإني سوف أفديكَ .. بدمي .. وروحي !!

ضحك فراس ، مغتبطاً ، لفورة عاطفة « فولف » .. تلك !.. ثم قال ..

ـ أشكركَ .. وأرجو أن تبقى دوماً صديقي .. حتى بعد انتهاء مهمّتنا !على أية حال، لقد سها الأمير «فوسكاري» عن اطلاعك على أن الأزياء ستقتصر على الألبسة الإيطالية .. ألبسة « فينتزيه » بالذات ، ومن عصرها الذهبي ..

* * *

الفصل الرابع

يتوسّط قصر « فوسكاري » ، عقدٌ كاملٌ مرصوصٌ ، من الصروح القديمة ، الرائعة الهندسة .. جدارٌ ، متكاملٌ ، من واجهاتِ القصور المتلاصقة .. يحدّ أبرز الجزر المُشرفة على مدخل البندقية .. يراه كل زائرٍ ، مُبحرٍ الى داخل المدينة ، عبر الـ « كانالي غراندي » .. يُطلّ على ممرّها المائي العريض ، فما إن يتجاوز المركب ، الرأس الملقّب بالـ « بونتا ديللا دوغانا » .. ويَمْخر الماء ، تحت جسر « الأكاديميا » .. حتى يستطلع الزائر ، تاريخ البندقية البرّاق ، عبر القصور التي تحمل أسماء الأسر التي بنت ، وسكنت تلك البيوتات الشرقيّة ، العريقة ! فَيَصِل قصر « فوسكاري » ، الذي يحيط به الماء ، من جوانبه الثلاثة .. يتوقّف « الجندول » على مدخله البحريّ .. ليخفّ من وقفوا على بابه ، في لباسهم الرسميّ ، لاستقبال مدعوّين .. أتوا تلك الليلة لزيارته ، ليس تلبيةً لدعوةٍ حكوميةٍ رسميةٍ ، فاترة .. بل نزولاً عند رغبة صاحب القصر ! الأمير « فوسكاري » .. ابن المدينة .. يحمل أحد أبرز أسماء أسرها النبيلة ، يريد لمدعوّيه ، في تلك الليلة ، إحياء أحلى لياليها !

كان صوت « الماندولين » طائراً جذلاناً ، يرفرف محوّماً فوق ألحانٍ موسيقيّةٍ تُسمع من بعيد .. ما إن تقترب قوارب الجندول .. تحمل الزائرين ، من رصيف القصر ، حتى يزيد العازفون من ضرب الدفوف ! يرون القادم من الشرفة المطلة على المدخل ، فيرافقون نزوله ، الوجل ، من القارب ،

بألحانٍ موسيقيةٍ مرتَجفة ! وما إن تحطّ قدمــه الثانية ، على الرصيف ، في ثبــاتٍ ، حتى ترتفــع الخشخشة .. ويعلــو صوت النقــر على الدفوف .. مرحاً..وابتهاجاً ، فتَجْمع المدعوّات أطراف أثوابهن التنكريّة ، الفضفاضة، بين أذرعهن .. يرْتكزن على سواعــد مرافقيهم .. ويمضي جميــع هؤلاء ، متخفّين ، وراء أقنعــةٍ عريضةٍ ، سوداء .. مُجوّفة العيــون .. تدلّى من جوانبها ما يُحكم سترَ بقية معالم الوجوه ..

تدفّق المدعوون على القصر .. أُضيئت مشاعله النارية المحيطة بجدرانه الخارجيــة ..

وصلوا في قوارب ، عملــوا ، جميعهم ، على تزيينها بقناديــل زيتيّة ، وأشرطة ملوّنة ، تعلــن هدفَ الحفل التنكري ! وليس مثل أهــل البندقية يخفّون للمشاركة في إذكاء القصد من وراء تلك المناسبات .. تذكّرهم بروح مدينتهم الفنّية ، المسرحية ! فما كانت تلك القوارب تقترب من هدفها .. حتى كنتَ ترى المارة ، على أرصفة القنال ، يصفّقون لها ، في مــرحٍ وحماسةٍ .. يلوّحون لأصحابها .. يُطلقــون وراءهــا الأهازيج ، وصيحات الإعجاب ، المُرحّبــة !

كان جميــع المدعوين .. أي ، ما يزيــد على المائتين منهم ، قد حرصوا أشد الحرص ، على إخفاء أسمائهم ، وشخصياتهم ! فلا الشقراء ، ولا السمراء ، كشفت للناس عن حقيقة لــون بشرتها أو شعرها ، بما يُنبيء عنها ! ولا خفيف الشعر ، أو ذو الشاربين ، أظهر من معالم وجهه ما يشير الى هويته !

كانوا جميعهم ، قد بذلوا جهداً ، فائقاً ، في التخفّي ، والاعتناء بأزيائهم السلفيّة ، البرّاقة المُترفة .. فبــدت أروقــة القصر .. ممــرّات خياليّة ، يتمشى فيها التاريخ ، بما تقلّب عليــه من عــاداتٍ وتقاليد ، وأشكال !! أما القاعة الكبرى .. فلقد احتك فيها الحريــر المُشرّقُ ، بالقطيفةِ المبهْرمة .. تهدّل السّدوس ، والسّاج ، والطيلسان .. على أكتافٍ تعرّت عن بشراتٍ

رائعاتِ البياض !.. تمازجتْ ألوانها ، مع ما تدثّرت به النساء ، من ثيابٍ حمراء وبيضاء ، وسوداء .. تجلّلت بغلالاتٍ وأخْمِرةٍ شافةٍ زرقاء ، وخضراء وبنفسجية .. معظمها ، موشّحة بخيوطِ الفضةِ ، والذهب ! تعلوها، جميعها ، رؤوس مقنّعة .. صُفّف شعر النساء منها ، على نمطٍ سلفيٍّ عريقٍ .. جُمعت ضفائره ، أو جدائله ، الحقيقية منها ، والمستعارة .. بأشكالٍ تشابكت بحبالِ اللؤلؤ .. وتهدّلت فوق أعناقٍ أحيطت بجميع أنواع القلائد ، القديمة الصنع !

لوحةٌ ، جامعةٌ ، رائعة الألوان ، والتشكيل ! جميع من شارك فيها ، من جُزَيئاتها ، هو رسمٌ متكامل ، في حدّ ذاته ! باهر الأناقة ، والتصوير ! عالمٌ أسطوريٌ .. دلف « دون ماكسيميليانو » بين حشوده ، لا يتعرّف من الأزياء التنكرية ، سوى زيّ « فولف فون فيرتبورغ » ، الذي أصرّ على ارتداء ثياب مرافقٍ لأحد النبلاء ، وسارَ الى جنبه ، كأنه يهدف في ذلك الى تأكيد رِفعةِ مكانةِ الزيّ الذي اختاره « دون ماكسيميليانو » لنفسه !.. لباسٌ فضفاضٌ .. بندقيٌ .. من القطيفة السوداء ، الموشّحة بخيوط الذهب .. خطوطه حائرة ، بين الشرق ، والغرب .. ثوبٌ ، كان قد انتقاه من بين الأزياء العديدة التي تركها له «باولو ألبيرتو» في خزائنه العارمة..

* * *

سرعان ما انخرط « دون ماكسيميليانو » في ثنايا ذلك العالم الغريب .. يشرب ، على غير عادته ، دون حساب !.. ينحني لفتاةٍ تخفي ابتسامتها تحت مروحتها .. يداعب خصر فتاةٍ أخرى ، تقفز ، دائرةً على إيقاع أنغام « التاراتيلا » المرحة .. يحاول التقاط قبلةٍ طائرةٍ من شفاهٍ تخفيها غلالات « الداتيل » السوداء ! يهنأ الى أنه دخل فجأة معبداً أسطورياً ، لا أحد فيه يكترث إلا الى اللحظة الخاطفة !! عالمٌ ، لا جدوى لأحد فيه من محاولة الكلام أو الحوار ! والكل ، حتى إذا تكلّموا .. حريصون على تبديل نبرات أصواتهم .. وذلك ، للاستمتاع بقضاء ساعاتٍ نادرات ، من العمرِ ، لا يحمل

أحدهم فيها ثِقَل اسمه ، أو عبء مركزه الاجتماعي ! فيتحرر الجميع من كل التزامٍ تفرضه عليهم التقاليد .. يمنّي ، كل منهم ، النفس ، باقتراف أشدّ المعصيات حرمةً .. دون خوفٍ من مراقبةٍ ما .. ولا تحسّبٍ لتقريع ، أو توبيخ من أحد !!

راح « دون ماكسيميليانو » يُمعن النظر في الوجوه المقنعة ، والأجساد المزينة .. يجدّ في البحث ، يتسلّى .. علّه يتعرّف الى أحدٍ من أصدقائه .. أو معارفه ! أَطال التحديق في بعض تلك الوجوه المقنّعة .. يلاحق حركاتها ، الغائبة التعبير .. وكان منها من غطّى جميع تقاطيع وجهه ، بوجهٍ اصطناعي ، كامل الحجم ، ذي تعبيرٍ جامدٍ واحد !.. فكاد يأخذه دوار مفاجىء للحركة الغريبة ، الآليّة ، لتلك الوجوه .. أحسّ من خلاله ، كأنه انتقل الى عالم « سوريالي » وهميّ .. لا إرادة مستقلة لسكّانه !.. تتحرك الأشخاص ، فيه ، لا بوحيٍ من إرادتها المتخفّية ، الجامدة !.. بل بدفقٍ من الموسيقى ، التي لا شك ، كان يوجهها صاحب الدعوة ! تعلو مَرِحةً ، طربةً ، حيناً .. فتتسارع الحركة ، وترتفع أصواتُ الضحكِ ، والمرح ، واللهو !.. وتخفّ أحياناً .. يمور فوقها لحن واحد ، بعيد ، حزين .. فتسكن النفوس ، وتمتد الأيادي الواجفة .. تبحث في الخفاء عن أيادي واجفة ، مماثلة !.. تتشابك ، تحت ظلال الأنوار الخافتة !.. أو يداعب بعضها أجساد بعض .. في مواضع تمنعها التقاليد المحتشمة .. ويحظرها العرفُ الاجتماعي السائد ..

* * *

تنبّه لفتياتٍ ، يتلاحقن بعضهن بعضاً .. في مرحٍ ولا مبالاةٍ .. ثم لذكورٍ ، يجدّون في البحثِ عن لذاتهم ، من الذكور .. نظر « فولف » إليه ، متسائلاً .. يُخفي حقيقة انطباعه ، تحت القناع ..

ردّ عليه صوت « دون ماكسيميليانو » ، من وراء قناعه ، هو الآخر ..

ـ « فولف » .. إنما هذه الليلة .. فصلٌ من مسرحية « حلم منتصف ليلةِ صيف » لـ « شكسبير » ، أنظر ، تلك الفتاة التي تداعب صاحبتها !

قـد لا تكون ، في الواقع إلا شاباً متنكراً في زي أنثى !! وذلك الفارس الذي يتقبّل تلك الشقراء ! قد لا يكون إلا فتاةً ، في زي شابٍ ، وسيم !!

ضحك « فولف » ، وقال ..

ـ على هذا الأساس ، لن أتقبّل جميـع المداعبات فقط .. بل ، سوف أبادر الى مثلها !.. فمن يدري ؟ لعلّ فتاة تظنني ، أنا الآخـر ، فتاة متخفّية وراء قناعي الجرماني ، الصارم !.. لكن .. لعل الفتاة التي سأجري وراءها .. ليست سوى فتى متنكّر !!

تابع « ماكسيميليانو » ضحكه لحيرة « فولف » .. وقال ..

ـ بالضبط .. فهذا هو القصد الخفيّ .. وراء كل « كارنفال » !

بـدا على « فولف » أنه يتردّد في الكلام .. ثم قال ..

ـ على ذلك .. يتوجّب عليّ الابتعاد عنك !.. وإلا .. فلن أجرؤ قط ، على التصرّف في حريةٍ كاملة .. نظراً لأننا يعرف أحدنا زيّ الآخر !

ـ اذهب !.. وماذا يمنعك ؟!

ـ إني أحمل الفهرس ، في صدري .. هل ذلك بادٍ عليّ ؟

ـ « فولف » !.. لقد تحقّقنا من ذلك مرّات .. في البيت ! اذهـب ، وتسلّ .. فلن تلحق بنا اللصوص الى « الكارنفال » !!

* * *

ما إن بات فراس وحده ، بـين عشرات الأقنعة التي أخذت تمـرّ به .. تحدّق فيه .. تقترب منـه ! تبتعـد عنـه !! حتـى دارت رأسـه ، فجأة ، كأن جميـع الأقنعة التي عرفها في حيـاته ، راحت تتزاحـم ، لتخرج ، هـي الأخرى ، من وراء قناعـه الأسود ! للقـاء ما أمامها ، من وجـوه متنكّرة ! هذا .. ينظـر إليه قنـاع « مكسيم » ! وتلـك .. يحـاول مداعبتها « دون ماكسيمليانو » ! ذاك .. يتجـاهل لمساتـه « ميشكا » ! هـذه .. يمسـك بردفها « فراس » !

أحسّ بمرحٍ ، ما بعده مرح ، لتشتّت إحساسه بالمسؤولية عن أفعاله ! بل لشعوره بتبدّد مفهـوم المسؤولية ذاته ، في نفسه ، وهو وراء ذلك القناع الخافي ! فأسرع ، يتلفّظ بجميـع ما يخطر لـه على بال .. يسـأل قومـاً ، ما لا يُسأل ! ويجيب ، آخرين ، بمـا لا يُجـاب ! يبـادر الى مداعبـات ، لا هـدف له منها !.. ويتقبّل منها ، ما لا طائل من ورائـه !.. حتى استرعى انتباهه شكلُ فتـاةٍ ، في ثوبٍ أبيض ، هفهاف .. جمّعت خصلات شعرها الأشقر الطويـل ، في جديلة عريضة مرصوصة .. تهدّلت على كتفهـا ، حتى لامست صدرها الناهـد !

كانت تجلس على حافة نافذة ، مطلّة على « القنـال الكبير » .. تقـدم منها ، يحـاول مخاطبتها .. فنهضتْ في الحـال ، من مكانهـا .. وأسرعت ، مبتعدة عنه .. تحاول التخفّي بـين الجموع !.. ما إن تبعهـا .. وكان قـد أحسّ بنشوة ، زائـدةٍ ، لما تناولـه من خمـر ، حتـى رآهـا تخـرج من القاعة .. وتدلف في ممرٍ ، معتمٍ .. مكتظٍ بأناسٍ صامتين !

أسرع الخطى وراءها ، يتمنّى لو أنها أقصـر قامـةً ، لأن ذلك سيزيد من احتمال كونها « بالوما » !.. فرآها تنعطف الى اليمين ، لتغيب على درجاتِ سلّم ، ينحدر نحـو الدور الأسفل .. ما إن نزل ، وراءها ، حتى سار عبـر عـددٍ من الممراتِ المظلمة .. على جوانبها ، غرفٌ ، مضاءة بنـور خفيف .. مكتظّة بأناسٍ أخفت ظلمة المكان معالم أزيائهم .. فبـدوا كأنهم ، جميعهم ، يرتدون ألبسة قاتمة الألوان .. تحت أقنعتهم السوداء .. يتهامسون .. فيصدر عنهـم صوتٌ ، مجتمعٌ ، يشبه دويّ موجٍ متواصلٍ ، بعيد !

توقفت الفتاة ، برهـة .. تلفتّت فيها الى الوراء ، كأنها تبحث عنـه ، أو عـن شخص ما ، ثم تابعت سيرها .. عبـر الممـر .. متجهة نحـو بـابٍ عريض .. ما إن دخلته ، يتبعها مسرعاً ، يحثّ الخطى ، وراءها ، حتى وجـد نفسه وسط قاعـةٍ أخرى كبيرة ، مماثلة للقاعة التي تركها في الدور الأعلى .. وبدل الإضاءة ، المشعّة ، التي تركهـا ، فـوق .. أُضيئت ، هـذه ، بمئات

الشموع .. تبعثرت في جميع أرجائها !.. وبـدل الموسيقى ، المرحة ، الحيّة ، التي فوق .. انبعثت في أجواء هـذه ، أنغام « الأداجيتّو » لـ « ماهلر » .. أمـواجٌ ساحرة .. مخدِّرة .. حزينة .. هادئة .. ملأت الجـوّ على همسٍ وحركاتٍ جميـع من كانوا في تلك القاعة .. توقفوا ، فجـأة ، عن الكلام .. والحركة .. لدى اقتراب القادمين .. وراحوا ينظرون إليهما .. عبر أقنعتهم .. في جمـود !

دنت الفتاة .. ترفل بثيابها البيضاء ، الشفافّة .. فأحاطت عنقه بذراعيها ، في صمتٍ ، طابعة قبلة طويلة على شفتيه ، عبـر الوشاح الرقيق الذي تدلّى من قناعهـا !

سمع بعضهم ، يردّد في صوتٍ خفيف ..

ــ عطيل ؟.. و « دزدمونة » ؟.. هل سوف يقتلها .. عما قريب ؟

مـال برأسه الى الوراء ، يُمعـن النظـر فيما اختفى من معالم الفتاة ، خلف القنـاع .. يسألها .. مذهولاً ، لِما انتقل إليـه فجأة من جـوٍّ تائهٍ ، غريب .. بعث القشعريرة في جسده ..

ــ .. ماذا ؟.. هل أنزلتني الى مَطْهَرِ « دانتي »* ؟!

فإذا به يسمع منها صوتاً أليفاً لم يتعرّف عليه ، همسٌ في أذنه ..

ــ لا تخف .. لا تتردّد .. جميـع من في هذه القاعـة اليوم ، عطيل ، و « دزدمونه » .. بشكلٍ ، أو بآخر !.. غـداً .. يعود كل منا الى حقيقته .. إنما هذه لحظة « فينيتزيه » فاغتنمها ، اذا استطعت .. إن لفي علاقاتنا جميعاً ، استحالة ما .. ليس من حلّ لها .. إلا الموت ..

---

* « دانتي » اشهر شعراء ايطاليا في العصـر الوسيط ، كتـب الكوميديا الإلهية متأثرا بابي العلاء المعري ، يصف فيها تفاصيل زيارته لعالم ما بعد الموت ، حيث تنزل الأجساد الى « المطهر » ، ثم الى جهنم ، او تصعد الى الجنة ..

سخر فراس ، متعجباً .. يذكـر « توماس مان » .. وقـال .. ساهماً .. كما في حـلم ..

ـ ولِمَ الإغراق في هذه المأساوية ؟..أليس من حلّ..أسهل من الموت ؟

ردّت الفتاة على الفـور .. في صوتها المتخفّي ، الغريب النبـرة ..

ـ بلى .. بالطبع .. والحلّ هو جهنّم ، في هذه الحيـاة .. هل تـودّ أن ترى عن كثب .. ما يدور فيها ؟!

وابتعدت عنه فجأة .. تسير به عبـر ممرات أخرى متعرّجة ، ملتوية .. حتى غاب عن ذهنه ما إذا كان ما زال في الدور الأرضي ، من القصر .. أم إنـه غادره ، عبر مسالك خفيّة ، غريبة ، تحتيّة .. قادته الى حيّز آخر ، في بنـاءٍ مجاورٍ آخر ..

أفلتت الفتاة ثانية من ذراعـه التـي ضمّت لخصرها إليه .. وأسرعـت الخطى ، تبتعـد عنه ، في ممـرات أخرى .. تَلِج أجـواء أشـدّ عتمة من الأولى .. فجدّ وراءها .. يسعى لتجنّب الاصطدام بغـيره ، ممـن انشغلوا عـن العـالم في عنـاقٍ ، ومداعباتٍ حالمـة .. جميعها صامتة .. غريبـة .. وإذا بها ، مـرة أخرى ، تختفي في منعطفٍ يقـود الى بـابٍ ، ما إن فتحه ، باحثاً عنها ، حتى رأى طيفها ينـزل درجاتِ سلّمٍ معتم ، ضيّق .. اكتـظّ بالأقنعة ، والشعرِ المصفّف المستعار ، والأزياء الفضفاضة ، جميعها .. يسبح في أبخـرة مخدّرة كثيفـة ، شديدة العبـق .. تنشّقها في عمـق ، فسرَتْ في جسده رعشة ، زادت خدره ، على خدر !

أسرع ، ينـزل وراء فتاتـه ، درجاتٍ عميقـة الانحدار ، والبعـد .. يقصد في الوقت ذاتـه الخروج السريع من ذلك السرداب المائـل ، قبـل أن يتمكـن منه مفعول تلك الأبخرة ..

هبط درجات عتيقة ، عميقة الانحدار ، والبعد .. لحظات .. وجد نفسه بعدها في ممـرّ مظلم طويل .. تنيره مشاعل متهالكة اللهـب .. علّقت على

جدرانـه .. هنا وهناك .. فسار بينها .. يتجنّب ، مـرة أخـرى ، التصادم بغيره من الأشكال التي وقفت تشخص أقنعتها الملونة ، في الظلام .. لا يبـدو من وجوهها إلا فجوات عيونها الفارغة ، السود !

كانت الفتاة تنتظره .. تقف أمام بابٍ خشبي ، متآكل ، قديم .. كسته رؤوس مئات المسامير النحاسيّة المزخرفة ، الداكنـة ، العريضة .. همست في أذنه ، في صوتٍ أقلّ رقّة وعذوبة ، من صوتها الأول ..

ــ إن وراء هذا الباب، قاعة ، يُسمح فيها برفـعِ كلّ شيء .. ما عـدا رفـع الكلفة ، أو القنـاع !.. فحاذر أن تخلّ بهـذا الشرط !.. أو ، الطلب الى غيرك الإخلال بـه !.. مهما كانت الظروف !.. هل أنت موافق ؟!

هـزّ « دون ماكسيمليانو » رأسه الذي أثقله الشراب ، وما تنشقه من من أبخرة المخدرات وهو في طريقه الى ذلك المكان .. وانحنى ، يتبع الفتاة .. دلفت ، تحت قوس الباب المنخفض الارتفاع .. وإذا به داخل ردهـة حجريّة واسعة .. معقودة السقف .. كأنها سرداب قصر « فوسكاري » .. أو أحـد سراديب القصور المجاورة .. لا أثـاث فيها ، سوى مصطباتها الحجرية ، لصق جدرانها .. وبعض الخِوانات ، والمقاعد ، ممـا ترك لرطوبةِ ميـاهِ البحر ، المحيقةِ بجدرانِ جميع قصور البندقية ..

لم يفهـم في البدء من معنى لمـا طالعه من أشكالٍ ، تتحرّك في إيقـاعٍ وأوضاعٍ غريبة .. تحت الظلال المرتجفة لبضعة مشاعلَ نارية .. علّقت على أربعة أعمـدة متينة ، غليظة .. توسّطت الردهة .. وحملت السقف ..

رآى عالماً مقلوباً ، رأسـاً عـلى عقب !.. كـأن أبيضه أسود اللـون ، والعكس بالعكس !

غابت وجـوه جميع من فيه ، وراء أقنعتها الكثيفة الشاخصة ، وتعرّت.. ودبّت الحياة ، في أعضاءٍ عارية بيضاء .. متفرّقة .. من باقي أنحاء الجسد ! بدت تلك الأجساد الساكنة ، أو المتحركة ، أو المستلقية ، كأنها لمخلوقاتٍ

عُزِلت رؤوسها عن الحركة ، وأُحِلَّت مكانهـا ، في المقام الأول ، ما اختارته من بقية أعضائها ، لينوب عن الرأس ، بالأهمية ، والحركة ! فهذا جلس فارِجاً فخذيه .. لا يظهر منهما ، ومن ثوبه الأسود الا عضوه المهنَّد ، أو المتدلّي .. وذاك مستلقٍ على ظهره .. لا وجه له .. غارق في السواد .. يرفع قدماً عاريةً ضخمة، بيضاء ، في الهواء ، ويحرّك أصابعها .. يقف أزاءها، أناس يلعقونها .. أو يحدقون فيها ، عبر فجواتِ أقنعتهم السوداء ، كأن بين كعبهـا وأصابعها ، حياة مستقلّة ، أخرى ، لا صلةَ لها بالساق التي تحملها ، ولا بالجسد ..! عالم من الجنون المنظّم .. كـون من الرموز ، تقـوم بحركات عصابية ، ايمائية .. كأنها نصوص « فرويديّة » .. دبَّت فيها الحياة !

كانت نساء قد كشفن عن نهدٍ واحد ، رفعنه بيد واحدة .. تؤشر إليه ، باليد الأخرى ! وأخريات .. كشفت الواحدة منهنّ نهديها ، كليهما .. رفعتهما بكلتا يديهما .. وقفن ، فخوراتٍ بهما ، أمام من اختار تأمل أشكالهما الدائرية البضّـة ..!

كذلك الذكور .. منهم من كشف عمـا أمامه ، في فخـار !.. ومنهم من كشف عن قفـاه ، يهـز ردفيه ، أو يقـوم برسم دوائرَ خياليّة في الهـواء !

انحنت امرأة الى الأمـام على أربـع .. تهـزّ نهديها المتدليين ، هـزاً خفيفاً .. بينما كشفت ثوبها عن ردفيها العاريين ، رفعتـه على ظهرها .. تحلّق خلفها عـدد من الأشخاص ، وقفوا يراقبونها في سكون .. تشخص أقنعتهـم المفرّغة من العيون الى أستها !.. بينما وقفـت أمامها ، امرأة أخرى ، رفعت ثوبهـا المخمليّ الطويـل ، عن ساقين ، وفخذين بيضاوين ، مفتولين .. لتظهر ما انتصب بينهما .. ركع البعض أمامه .. تتأمل أقنعتهم ، حركته النابضة ..

تلفّت عطيـل حوله ، يبحث عن « ديزدامونا » .. فلم يجد أثراً لهـا .. تنبّه الى صوت كحّةٍ مألوفةٍ لديه .. جـدّ في البحث عن مصدرها .. فإذا بها تنبعث عن الشخص البدين ذي العورة المكشوفة ، والجسد المنحني نحـو

الأمام !.. صُعق ، إذ جال في ذهنه أن ذاك قد يكون « أماديـو » .. « دوقا داوستي » ! وأنه قد يكون بـين أصدقاء له .. لا يعرف واحدهـم شيئاً عن وجـود الآخريـن !.. هل كـان « شارل غوستاف » بينهـم ؟ هـل كـان « باتريس » .. أو « بالوما » .. هناك كذلك ؟

رأى امرأة .. تحمـل سوطاً متشعّب الأطـراف .. تقترب ممن ظنـه « أماديـو » .. راحت تسحب فروعه على بشرة عورته العاريـة ، فيئـن هذا للمسها ، فرحاً .. ولـمّا يـذق بعـد ، طعم لـذّة الجَلْد المترقّبة !.. بينما اقترب قناع ، راكع من حيث وقف ، هـو ، وانحنى يرفع طـرف ثوبه الطويل عن الأرض ، يتأمل حذاءه في ولهٍ .. يمسح ما بـان من خديـه وجبينه ، على سطح الحذاء .. يتنشق رائحة الجِلد .. ويُصدر ، أثناء ذلـك تأوهّاتٍ ، كما لو أنه يقبّل وجهاً حبيباً !

تنبّه الى أن الباب كان موصداً من الداخل ، لا يُفتح إلا لقرعٍ معيّن .. شقّ أحدهم مصراعه ، بعـد برهة .. فدلف منه « فولف » في زيّه المقنّع .. تجدّ في أثَره « ديزدمونا » ، ومن خلفها ، سعت فتـاة أخرى .. غطّى رأسها وكتفيها وشاحٌ أسود ، كثيف .. فلم يبـدُ من جسدها إلا يداها .. راحتـا تداعبان إحدى فخذي « فولف » ، الملفوفة ببنطال فخـذه الواحدة ، سوداء اللـون .. بينمـا تركت الفخـذَ الأخرى الملفوف ببنطال أبيض اللـون ، لـ « دزدمونا » .. جهدت في كشف فتحته ، تحاول ، في الوقت ذاتـه ، التقاط قبلة من صاحبة الوشاح الأسود ، التي نجحت في إدخال يديهـا تحـت درع « فولف » ، تسعى لمداعبة بشرة صدره !

لم يدرِ فراس ، إلا وصيحةٌ مكتومةٌ صدرت عن « فولف » ! وقف ، أثرها مكانه .. كأنـه يصحو من غفـوة .. ثم لحـق بالفتـاة ، ذات الوشاح الأسود ، انفلتت منه .. تقصد الباب .. لا تلوي على شيء !!

اجتازت الردهــة ، في خطواتٍ .. وغابت وراء البــاب الذي أوصده أحدهم خلفها .. كأنه وقف هناك يترقّب هروبها المفاجيء !

خفّ فراس الى حيــث توقّف « فولف » ، مشدوهاً .. يحاول فتــح الباب .. يمنعــه عن ذلك ، أحدهم .. ووقف خلفه .. يشدّه إليه !

وما إن ســمع « فولف » يتلفّظ بكلمة الفهرس .. حتى استمات معــه في شدّ المزلاج إليهما ، متغلبين على من وراءه !.. لحظات .. وكانا يطيران وراء رجــلٍ يسعى وراء الفتــاة ذات الوشاح .. انعطفت في آخــر الممر الضيق ، الى اليمين .. مخالفة الاتجاه المؤدّي الى الأدوار العليا من القصر !

مرّت بفراس لحظات" سود" ، اختلط عليــه فيها ظلام المكان ، بظلمةٍ ، غشيت نظره ، لفرطِ ما انتابه من غضب ، وغمّ !!

راح يجري وراء « فولف » الذي سبقه بخطوات .. يُلقي بكامل جسده على كل حاجــزٍ يعترضه .. يُمسك بكــل ما يقــع أمامه أثنــاء جريــه .. يقذفــه على الرجــل الذي بــات على خطوات منــه ، ومن الفتــاة التــي أدركهــا التعــب !

كأن الرجل قد تيقّن من أنــه سيسقط في قبضة « فولف » ، لا محالة ! فانعطف الى اليمين ، فجأة .. مخالفاً وجهــة الفتــاة .. يصعــدُ سلّماً بــان أمامــه .. تاركــاً الفتــاة لمصيرها .. أو ، لعلّه أراد تعميــة من يجدّان في أثرهما .. علّهما يسعيان وراءه .. تاركين للفتــاة فرصة النجــاة ، بما معهــا ! وكانت هذه قد أدركت باباً صغيراً ، موصداً .. كــادت أن تنجح في فتحــه ! فاندفــع « فولف » وراءها .. ما إن أدركها ، حتى أطبــق بكلتا يديــه على عنقهــا ، من الخلف ، دون وعــي .. ثوانٍ .. تراخــت بعدها ساقاها ، ثــم ذراعاها ، ثم يداها ، تاركةً الفهرس .. ثم هــوت بدورها ، كالجثة الهامدة ، على الأرض !

كان الباب الأخير قد انفرج بعض الشيء عن عتمة الليل ، وحفيف الموج ، وأضواء الشاطئ الآخر من القنال وبيوت البندقية .. تلفّت « فولف » في تصميمٍ غريبٍ ، يبحث عمن يراقبه .. فلما لم يجد أمامه سوى « دون ماكسيميليانو » .. شدّ الجسد المتهالك بعيداً عن الباب .. يفسح المجال لـ « دون ماكسيميليانو » بأن يفتحه .. ثم انحنى ، يرفع غريمته عن الأرض ، ويلقي بها في الماء ، لتلاقي المصير الذي سيختاره لها القدر !

* * *

وإذ سارا يلهثان .. عائدين في الأروقة المظلمة .. يتلمسان طريقهما ، فيها .. ويَعجبان لطول المسافة التي اجتازاها دون التعثّر ، أو السقوط فيما صادفهما من فجواتٍ ، وأحجار مبعثرةٍ .. سأل « دون ماكسيميليانو » مرافقه ..

ــ هل رأيتَ الرجلَ ، بوضوح ؟.. هل تستطيع التعرّف عليه ؟..

هزّ « فولف » رأسه ، نافياً .. وقال .. يُعيد الفهرس الى صدره ..

ــ ظننته في البدء ، يلاحق الفتاة .. يقصد مداعبتها !.. لم أكن أعلم أنهما كانا يجدّان في إثري أنا .. من حيث لا أدري !! لا بد أنهما من العصابة ولا أظن أننا سوف نسلم من شرّها ، حتى نَتْرك هذه المدينة !

ــ من يدريك ؟! لعلهم سيجدّون وراءنا ، حتى نصل الدير !

راحا يهتديان بالأصوات البعيدة في طريقهما الى ما تركاه .. لا همّ لهما سوى ستر ما خلّفاه من انطباع هربهما المفاجئ ، من تلك الردهة التي قادتهما إليها « دزدمونا » !.. فما إن تعرّفا على بعضِ معالمِ الطريق .. وأدركا أنهما يسيران في الاتجاه الصحيح .. حتى ظهرت أمامهما « دزدمونا » .. خرجت من إحدى الممرّات المجاورة ، تقول لـ « دون ماكسيميليانو » .. في صوتٍ عميقٍ مفاجئ ..

ــ لقد سوّيتُ الأمور ، بعد غيابكما .. أحلتُ القضية ، الى مضايقةٍ جنسيّة .. تافهة !

ذهل الرجلان للتبدل المباغت الذي طرأ على صوت الفتاة .. سأل « دون ماكسيمليانو » قناعَ الفتاة .. لا يصدّق ما تعرّف عليه من نبرة صوتها .. الجديد ..

ـ « باولو أليبرتو » ؟.. هل هذا أنت ؟.. ويحك .. ظننتك « بالوما » !

ـ نعم يا عزيزي ، عطيل !.. هذا أنا .. « باولو » .. ولقد كانت قبلة حسبِتْها تحمل رياح الشرق الحارة ، بكاملها ! إن مثل هذه الأمور تحصل في الشرق ، في جوّها الطبيعي .. لا يكترث أحد إليها .. أما عندنا ، فإنها تقود الناس الى جهنم .. تلك التي زُرتَ ، منذ قليل !!

ثم التفتَ الى « فولف » .. وقال له ..

ـ أما أنت .. فلنا حديث لم يتمّ بيننا .. بعد !

صعدوا السلالم المتعرّجة ، الضيّقة ، التي كانوا قد نزلوا .. ثم سار ثلاثتهم ، في صمتٍ ، عبر الأروقة الطويلة .. بعضهم ما زال يقف فيها ، على الشكل الذي تركوه فيه .. منذ زمن طويل ..

مروا بالقاعة الكبيرة .. تنبعث من جنباتها موسيقى « ماهلر » .. تناثرت أنغامها في الهواء ، رذاذاً أثيرياً سحرياً .. يتنفسّه جميع من فيها .. يتلهّفون ، وراء أقنعتهم المفرّغة من العيون ، الى تبادلِ نظرةٍ صادقةٍ والهة .. يتحرّقون ، من وراء الثقوب المفرّغة من الأفواه والشفاه ، لو أنهم يتبادلون القُبَل .. وقفوا .. كأنهم لا يقوون على الحركة .. لا يجرؤون على الجرأة !

عادوا الى عبور الأروقة ، وصعود السلالم القديمة ، الملتوية .. يحرّضهم على الإسراع في الخطى ، صوت هرجٍ ، تصاعد فوق أصوات موسيقى البندقية .. تعزفها جوقة الشباب .. تدثّرت بثيابٍ تنكرية ، زيّنتها أشكالٌ مضلعةٌ ، ملونةٌ ، متشابكة .. حمراء ، وبيضاء ، وسوداء ..

ما إن رأى « دون ماكسيمليانو » وجه « بالوما » ، دون قنــاع .. تقف بين الجموع إزاء النافذة المطلّة على البحر .. تشير ، في حركات عصبيّة ، الى شيء بعيــد فيه .. حتى هــرع إليها ، رافعاً قِناعـه ، هو الآخر .. وسألها في لهفــة صادقة ..

ــ .. ماذا في الأمر ؟.. وأين اختفيتِ .. طوال الحفل ؟!

لم تردّ على سؤاله .. بدت كأنهــا لا تقــوى على الكلام .. أمسكت ذراعــه ، بيــدٍ ، وراحــت ، باليد الأخرى ، تتابــع إشارتها .. تحضّه على النظــر الى الماء .. حيث بـان جسد امرأة مقنّعــة الوجــه .. متلفّحة ثيابها السوداء .. تطفــو على الماء ، بالقــرب من الرصيف ، وقد دفعتها الأمــواج الخفيفة نحو مدخل القصر ..

كانت « بالوما » شاحبة الوجه .. فتحت عينيها فجأة حتى لكأن حجمهما قد تضاعف .. وقالت ، في صوت أجشّ ، عميقٍ ، وقد تسمّرت سبابتهــا في اتجاه الجسد الطافي ..

ــ « مكسيم » .. تلك ثياب « ليــزا » !!.. تلك ثياب « ليــزا » !!.. انظــر !!

ــ كيف !! ومن أخبرك بذلك ؟!

تمتمت « بالوما » ، تقــول ..

ــ لقد عادت من « نابولي » ، مساء أمس .. هتفت لي ، كي أنتظرها في المطــار .. لم تشــأ إطلاع أحــدٍ ، على قدومهــا .. قالــت .. إنها تــودّ مفاجأة الجميع !

ثم أضافت ، وقد انهمرت دموعها .. تسيل على خديها .. تتكلّم ، كأنها تضبط حاجة ملحّة للصراخ ..

ــ كيف سقطت ؟.. كيف غرقت ؟! كنــت أظنّهــا تُتقــن السباحة ؟.. ترى، هل هو ثقل وزن الثياب .. هل علقت ثيابها بشيء ؟.. « ماكسيمليانو » .. لعلها كانت مخدّرة حين سقطت في الماء !!

ـ لئن كانت تلك « ليزا » فمن الخير لكِ الكفّ عن طرح الأسئلة ومغادرة المكان !.. إنك تعرفين انتماءات « ليزا » وسعيها المشبوه الى هذا ، وذاك .. تعالي .. نبتعد عن هذا المكان !!

* * *

كان بعض الناس ، قد تجمهروا على الرصيف .. وقفوا مع الحرّاس .. ينتظرون وصول قارب السلطة ، كي ينتشل الجثة ..

تكوكب المحتفلون ، في نوافذ القصر ، يطلّون بأقنعتهم الملوّنة ، الجامدة التعبير ، يراقبون القوارب التي بدأت تغادر المكان ..

نظر فراس الى واجهة قصر « فوسكاري » يتمعن فيما تركه وراءه .. ست نوافذ .. في كل أربعة أدوار .. تتوسّط كل دورٍ منها ، شرفة" طويلة ، ذات أعمدةٍ تسع .. صُفّت ، بعضها فوق بعض .. نوافذ وشرفات .. تنأت منها تلك الرؤوس .. مئاتها .. برزت فوق أجسادٍ كأنها حمّالات ثيابٍ ، علّقت عليها جميع أنواع الأقمشة ذات الألوان الزاهية المزركشة .. اتخذ أصحابها أوضاعاً ثابتة .. تراكمت ، بعضها ، فوق بعض .. شخَصَتْ أقنعتها ، ذات الثقوب الفارغة السوداء ، وفجوات الأفواه .. تجمّدت فتحاتها ، ترسم تعابير ، وضحكاتٍ ، وابتساماتٍ ، غريبةٍ .. متحجّرة !!

لوحة عجائبيّة ، مركّبة .. ألّف موضوعها الخيالي « أنسور » .. ورسمها الـ « تيتزيانو » بريشته المتقنة ، وألوانه المرتجفة الحارة ..

راح « دون ماكسيمليانو » يراقب ذلك المشهد الفريد ، وقد جلس في قارب « الجندول » .. يشدّ على خصر « بالوما » التي اضطجعت ورأسها على كتفه .. يقيها من البرد بدفء جسده ، وحماية الهودج ، ذي السقف المنخفض .. يحسّ بقلقٍ دفينٍ لما سيواجهه من أخطارٍ ، وقد صمّم على التوجّه الى الدير ، منذ الصباح الباكر .. يستبق المضايقات .. تحسّباً لما قد يطرأ أمامهما من مضاعفاتٍ ، إثر حادثة الليلة !

* * *

تصاعد لحنٌ حالمٌ ، حزين ، من أحـد مقاهي رصيفِ الشاطىء الذي تهادى القارب إزاءه .. فامتزج الحزن في نفس « بالوما » ، باللّوعة العطشى.. وأجهشت ، في بكاءٍ صامتٍ مريرٍ .. نـال ممّا تصلّب من نفس فراس ، إثر ما مرّ معه في سراديب قصر « فوسكاري » ..

قال ، في لهجة ساهمة ، صادقة ، عِطوف ..

ــ .. لو كنّا نعيش أحداثاً روائيـة ، خيالية ، مثيرة .. لاغتنمتُها الآن، فرصةً ، لاسترجاع ما فقدتُهُ ، منكِ .. منـذ أن عقدتِ لـ « ليـزا » مـع نفسك !.. أبهذه السهولة تنتقلين .. من حبٍّ ، الى حبٍّ ؟!.. أبهذه السهولة تتخلّين عما كان بيننا ؟!

لم تردّ على سؤاله .. بل لم تبـدِ ما يشير الى أنها سمعته !

مسحت « بالوما » دموعهـا ، بكفٍّ مرتعـدةٍ .. وتمتمت في صوتٍ يُحرّقه الألم ..

ــ .. لقد ماتت !! يا إلهي !! إن جسدها الحبيب يتجمّد الآن.. برداً !.. وغداً .. أو بعد غدٍ .. سوف تلتهمه الديدان !.. سوف يتفسّخ ذلك الجسد الدافىء الحبيب .. ولن تبقى منه إلا العظام !

أغرقت وجهها في عنقـه .. وتابعت ، في صوتٍ ملوّع ، مخنـوق .. تضرب صدره بكفّها المُغلقة ، ضرباً عصبياً ، خفيفاً ..

ــ ماذا يهمّني من قيـم الناس ، وقواعد الكون !!.. لقـد أحببتُها !! ولقد أحسستُ في لثم شفافها ، ما لم أحسّ به مـع مخلوقٍ قط ! أين تلـك الشفاه العطرة ؟ وماذا سيحلّ بها ، بعد أيام ؟! يا لله ! سوف تأكلها الديدان .. ما معنى هذه الحياة ؟! ما جدوى أن يعيش الانسان .. وأن يحبّ ؟! ونهاية كل ذلك ميتة ، مثل هذه !! أو الشيخوخة ، والعجز ، والتابوت .. والديدان ؟!

لم يجد فراس ما يردّ به عليها .. ضمّها الى صدره في رفـقٍ ، بعـث الدفء في جسده .. فتنبّه الى أن زيّ « فولف » ، الرقيق ، لا يكفي لحمايته من بـردِ الليل القارس ..

أشار إليه بالدخول الى الهودج المبطّن بالقطيفة القرمزية المعجّنة، فتقدّم هذا، مسرعاً، واندس الى جنب فراس و « بالوما »، اللذين كانا ينعمان بما اختزناه من دفء، تحت معطف فراس المخمليّ الفضفاض ..

* * *

صاح النوتيّ، من حيث وقف عالياً، يجدّف الى طرفِ الجندول الخلفيّ، وراء الهودج ..

ــ ما رأي السيّد في نزهةٍ نحو الـ « جيوديكا » أو « سان ميكيلي »؟.. أرى عدداً من قوراب المحتفلين .. يُبحر في نزهة مماثلةٍ ! نعبر الأقنية الضيقة، أولاً .. ثم نخرج الى البحر العريض ..

مال فراس الى الأمام، يكشف ستارة نافذة الهودج، التي الى جانبه، فرأى سِرباً من قوارب « الجندول »، التي أقلّت أصحابها الى الحفل .. ينساب في صمت .. يزيّن الماء بأنوار مصابيحه المتلألئة، يتهادى كعرائس البحر .. تسبح في الليل، تحت ضوء القمر ..

تناءى ذهنه عن أحداث الليلة، وسَرَت أفكاره فوق المويجات الرقيقة، نحو الأفق البعيد .. تلمع نجومه فوق بساطٍ من زرقة الماء الداكنة.. الموشحة بشرائط الفضة ..

ماذا عساه يفكّر بعلاقته بمن حوله .. أو بما يربطه بكونٍ، يُقال إنه جزء منه .. ولا يجد سبيلاً للانصهار فيه ؟!

لا شك أنه نقطة متناهية في الصِغر، وسط كونٍ لا حدود له..ما بُعْد المدى الذي يقوى خياله على الترامي في أرجائه ؟.. أعشرات السنين ؟.. مئاتها ؟ ألوفها ؟.. وما أثر هذه المقاييس، أو تلك، في كونٍ تصل الى بصره منه، في تلك اللحظة، أضواء نجومٍ، ماتت، وتبدّدت، منذ مئات ملايين السنين الضوئية ؟!

كيف ؟.. كيف ينصهر في تلك اللحظة مع الكون .. والموت والفناء

يتربّصان به .. بل لقد كانا على مدى لحظات منه ، تلك الليلة .. يذكّرانه بما تبقّى أمامــه من طريقٍ محدودة ، قصيرة ؟! ما قيمة وعيــه أو إدراكه لأيّ موضوعٍ ، إذا كان ذلــك الإدراك مقيّد بمعرفةٍ ، وثقافةٍ ، يرجــع تاريخها الى بضع عشرات السنين .. أو بضع مئاتها .. أو حتى ألوفهــا ؟!.. وما ألوف السنين ، من المعرفة في مدى هذا الكــون السحيق ، إلا ومضُ شــرارةٍ .. وسَقْطُ أتون يستعر أواره منذ الأزل .. والى الأبد ؟!

لماذا يَهِبُ الانسان نفســه لعقيدة ، أو معرفــةٍ ، أو قضيةٍ ما ، قد يموت في سبيلها ، في الغد .. حين يعلم أن الديدان سوف تأتي على شفتيه .. وتفقأ عينيــه .. غــير آبهــة بمــا تلفّظتا بــه أمس من كلمات الحــب .. ولا مكترثة لما تعبّدتا إليه ، أثناء الحياة من أسماء الآلهــة ؟! هل لأنه يطمــع في الحياة الآخرة ؟.. فما شــأن الذين لا يؤمنون بها ؟! ما الذي يحضّ هؤلاء على هدر قدراتهم ، والتضحية بحياتهم .. وهم يعلمون أن ليس لهــم غيرها ؟!

* * *

تناهى الى سمعه ، في تلك اللحظة ، صوتٌ مهيــبٌ ، لغنــاءٍ جماعيّ بعيــدٍ .. لم يدرك مصدره .. راحــت أصداؤه ترتفــع كرعشات قلــبٍ متوثبٍ .. وتنخفض ، كزفراتِ نفسٍ تجهد في كتمان نحيبٍ دفين ..

ســرت في جسده رعشةٌ وهو يزيــد من ضمّ « بالومــا » الى صدره ويهمــس ..

ــ يا الله .. هذه ألحــانٌ دينيــة لـ « راخمانينوف » .. ما أعجبها من مصادفة !.. ترى ، كيف تصل سمعنا ، ونحن في عرض البحر ؟!

كان لصوت الغناء أثراً سحريّاً ، غامضاً ، على الجميع ..

استوى « فولف » ، بعض الشــيء .. يخاطب النوتي ، من خلال فتحــة الستارة .. يسأله عن مصدر الغناء .. فسمع الجميع ردّه ، وهو يقول ..

ــ إننا نحاذي « جزيرة الموتى » .. لعلهم يقيمــون فيهــا الصلاة عــلى روح واحد من المشاهير ..

أزاح فراس ستارة نافذة الهودج التي الى جانبه ، يستكشف البحر .. فطالعه انعكاس نور القمر البارد على رخام أضرحة صارمة بعيدة ، كئيبة .. تتوسط جزيرة صخريّة ، صغيرة ، مهجورة .. عدا ما احتوته من أشجار السرو الباسقة ، والقبور .. مكسوّة بظلال بدت كأشباح متطاولة ، داكنة .. رست إزاءها بعض القوارب .. أقلّت أولئك الذين جاؤوا ، في هزيع الليل .. يُحيون ذكرى موت أحد العظماء الذي توارت رفاته في ذاك المكان ..

تمازجت أصوات عشرات الذكور والإناث في نداء موسيقيّ ، متناغم ، عميق .. ينبع من تراب أرض روسية ليس مثلها من يعرف كيف يخلق أرواحاً تتفجّر بالحزن المأسوي المهيب ..

قال فراس ، وقد نقله ذلك المشهد الى عالم نفسيّ لا يمكن وصفه .. تحسّ فيه الروح أنها معلّقة بخيط واه .. تائهة ، بين الحياة والموت .. بين المعرفة كلّها ، والجهل كله .. بين العاطفة كلها .. والصمت كلّه ..

ــ إنها ذكرى وفاة « سترافنسكي » .. لا بد .. انهم ..

وكفّ عن الكلام ، وقد سيطرَ على أعماق كيانه إحساس مأسويّ ، قاتم .. استوت في أبعاده جميع المعاني والقيم ..

تشبّع إحساسه فجأة بوعي مما لفّ شعْر « بول فاليري » من إعصار فكريّ صامت مخيف ، وهو يكتب قصيدة « المقبرة البحريّة » !

ها هو ذا نفسه ، يمرّ أمام مقبرة بحريّة ، حقيقية .. اختلط ترابها برفاة « فاغنر » ، و « سترافينسكي » يحمله إليها قارب أسود ، كالتابوت .. والى جنبيه كل من « بالوما » و « فولف » .. كأنهما الـ « بارك » .. ملائكة الموت ، والعالم الآخر .. يغزلان في صمت ، خيط حياته وموته .. هو ..

طار في ذهنه الى مقبرة « فاليري » وأزيز الطبيعة ، تحت لفح شمس جزر اليونان .. في ظهيرة نهار صيفيّ قائظ .. واستوى في إحساسه ، نور

الظهيرة ، بما كان فيه من ظلمة منتصف الليل .. وتماثَل عنده لهيب لفحات الشمس ، بصقيعِ نسمات القمر ..

ألم تُنقَل رفات أولئك الموتى ، الى تلك الجزيرة ، في مثل قارب الحب الذي كان مضطجعاً فيه ؟!

ألم يكن في تلك اللحظة نفس الجسد المسجّى الذي سوف ينزلق على سطح ماءٍ ما ، أو أرضٍ ما ، الى وجهةٍ مماثلة أخيرة ؟!

لفّه إحساسه ذاك حتى غاب عمّا حوله ، كأنه محاط بصقيعِ كَفنَهِ الأخير ..

* * *

تاه عن الزمان حتى ابتعد عن خربة الموتى .. وغابت موسيقى « راخمانينوف » .. وصل سمعه من جديد ، صوت غناء النوتي الشاب .. يعلو فوق دغدغة ألحان « الماندولين » الناعمة .. عادت الى مسامعه من حيث لا يدري .. تنادي الحب بكلماتٍ رقيقة .. تنادي الحياة .. تلفّظها النوتي في لهجة البندقية الدافئة ، كأنها نُظمت لانسياب « الجندول » على إيقاع حركة المجذاف الناعمة ..

أين توارت ، واختفت ، موسيقى « راخمانينوف » .. وبريق صخور جزيرة الموتى ؟!

أية لحظة تلك التي كان يعيشها في عالم مركّب ، من مدينة اختلط الخيال ، بالواقع فيها .. حتى باتت مآسيها ، كأنها هموم خيالية .. تقوم بأدائها عمالقة أسطورية وهمية ، على مسرحٍ إلهي مهجور ..

كان مضطجعاً بين « بالوما » ، و « فولف » .. ثلاثتهم ، في شبه استلقاءة ناعسة .. يغطّيهم معطفه الدافىء الفضفاض ..

كيف التقت يد « فولف » بيد « بالوما » .. وهو بينهما .. ومَنْ ، من الاثنتين ، بدأت في البحث عن الأخرى ؟!

لعل يديهمـا ، احتكتا مصادفةٍ . وكانت يـد الفتـاة ، تطوّق صدر فراس .. فـإذا بهـا تشتبك بيـد « فولف » ، في حـرارة .. يحسّ « دون ماكسيمليانو » بدعابتهما .. تتحاوران ، ثم تصمتان .. في حوار دافىء غريب .

أغلـق « دون ماكسيمليانو » عينيـه ، وكأنـه « الجندول » ، يسري على ألحان غنـاء نوتـي ، حالـم .. ينسابُ ، ويسعى للانفلات في مـدى لا جذور لـه .. ولا قيـود فيه .. قارب الموت ، يسري الى عالـمٍ ، يتبادل سكانه من الكلام ما لا يُقال ، يكتبون فيـه ما لا يُنظم ، في عبـاراتٍ ، إذا قُدّر لها أن تُقرأ .. فلن يفهمها أحـد ..

* * *

الفصل الرابع

كان «باولو ألبيرتو» قد شاهد الخروج الهائج لـ «دون ماكسيمايانو» و « فولف » ، إثر الفتاة المتنكّرة بالوشاح الأسود ، ورفيقها .. فلم يتبعهما ، إلا بعد طمأنة بقيّة المدعوين الى أن الأمر لا يعدو كونه مزاحاً ثقيلاً .. لذلك ، فاتته مشاهدة ما جرى لـ « فولف » مع الفتاة .. وحين أدركهما ، لم ينتبه إلا لمنظر الشاب ، وهو يستند الى حافة الباب ، بعد أن كانت الفتاة قد سقطت في القنال المجاور لجدار القصر !

لذلك لم يشكّ في صدق أقوال « فولف » ، حين أكدّ له محاولته إنقاذ الفتاة ، بعد استرجاع الفهرس منها .. لكنه لم يستطع إقصاء ظلٍّ من الشك ، لازم تفكيره .. سببه هلاك الفتاة السريع ، وتلكّؤ كل من « دون ماكسيمليانو » ، و « فولف » ، في طلب النجدة لإنقاذها !

لذلك ، كان لا بد لـ « دون ماكسيمليانو » من إطلاعِ «باولو ألبيرتو» على مجمل قضية الفهرس ، وما كلّفه الكاردينال ، القيام به من التحقّق من سلامة المخطوطات .. بعد اكتشاف اختفاء ما سُرقَ ، أو اختفى منها ، من مكتبة الفاتيكان .. مما ألهب خيال الأمير « فوسكاري » ، ودفعه للإلحاح على صديقه ، للسماح له ، بمرافقتهما الى الدير ، وهو الذي كانت تسحره ، منذ طفولته ، حياة الرهبان الصامتة .. يخلو في مرسمه ، الى موسيقاهم « الجريجوريّة » .. حتى ليسيطر عليه الإحساس بأنه بات راهباً في صومعة نائيةٍ ، قصيّة !

* * *

لم يجد أحدٌ غرابة ، في دعوة الـ « دون ماكسيميليانو » للأمير « فوسكاري » ، لقضاء عدة أيام في « كورتينا دامبيتزو » .. في شمال إيطاليا .. يتزلّجون خلالها على سفوح جبالها الشهيرة ..

قال « شارل غوستاف » ، يودّع صديقيه .. يرافقهما الى السيارة التي جلس في مقعد قيادتها « فولف » .. يرتدي ملابس صوفيّة ملوّنة تنبىء بما اعتزم القيام به ، من رياضة شتويّة ..

ــ .. « مكسيم » .. أيها الأناني ! تتركني ، أُنهي أعمال صديقك الذي غابت أخباره عنا ، في روما ! وتذهب للتريّض .. مع هذين الشابين الوسيمين .. لا ترافقكم حتى « بالوما » !

تبسم فراس ، وقال ..

ــ أتركها في عهدتك !.. إنها لم تصحُ بعد ، تماماً .. من صدمة البارحة .. لكن .. ماذا تمّ من أمر التحقيق ؟!.. هل تعرّف أحدٌ على شخصية « ليزا » ؟!.. رسمياً ؟!

ردّ « شارل » ، في صوت خفيض ..

ــ .. لقد كَذَبَتْ علينا !.. فهي لم تكن إنكليزية الجنسيّة ، كما ادعت ، بل تحمل جنسية السفارة التي كانت تعمل فيها .. والأغرب من كل هذا ، هو أن السفارة ، ذاتها ، طلبت التستّر على موضوع وفاتها !.. لقد تسلّموا جثتها هذا الصباح .. وهي في طريقها ، الآن ، الى بلادها !

* * *

تركوا البندقية ، متّجهين نحو الجبال ، وانسابت السيارة في طريقٍ زفتيٍّ عريض .. تواكبها أرتال من المركبات ، المتّجهة الى أقصى شمال إيطاليا .. بعضها ، في طريقه الى النمسا ، والمانيا .. ومعظمها محمل بأدوات التزلج ، والألعاب الشتوية .. ما إن انعطفت طريقهم في اتجاه منتجع « كورتينا » .. حاملة مركبات المتريّضين ، بثيابهم الملوّنة .. ووجوههم المتوثّبة ، الضاحكة .. وما إن استقلّ « فولف » المنعطف الجبلي الآخر ،

حتى خلتْ دربهم بالتدريج من المعالم الإنسانية .. ضاقـت ، وتعرّجت .. وبانت قمـم الجبال البعيـدة ، عبر السحاب .. رماديـة داكنة ، أو سوداء قاتمـة .. كأنهـا انسلخت من جسدِ الأرض ، فجـأة .. رسومٌ خرافيـة ، مدبّبة الرؤوس، حادة الأظافر !.. مجموعة ، من رؤوس الحراب ، والخناجر، والأدوات الحادة ، الصدئة ، تسـعى لمحاربة السماء .. تشـدها الأرض .. وتعجز الثلوج التي تكسو الجبال عن سترها !

قال « دون ماكسيمليانو » في عجب ، وتطيّر ..

ـ يا له من منظر مخيف !! قيل لي.. في الشرق ، إن الرهبـان يلجؤون للأماكن المنعزلة ، النائية .. خوفاً من الأعداء .. أو تحسّباً لهجوم مفاجىء .. من أصحاب الديانات المعادية لهم !.. تـرى ، ما الذي يدعوهم ، هنـا ، الى مثل هذه الاحتياطات ؟! وكل من في إيطاليا ، يعتنق العقيدة ذاتها ؟!

ضحك « باولو ألبيرتو » .. وقال ..

ـ .. على ذلك ، إنهـم يشكون إما من إحساسٍ بالذنب ! أو ، إنهـم لا يثقون بعقيدةٍ أو إيمانٍ أحد !

قال « فولف » ، متعجباً ..

ـ ولِمَ لا يكون السبب .. هو الميـل الى التعبّد .. في وحدة وخلوة عن الناس ؟!

ـ لأن مثل هـذا الأسلوب في العبادة ، منافٍ لمبادىء العقيـدة ذاتها ! وإلا ، فكيف توفّق بين ، « أَحبّ جارك ، كمـا تحـب نفسك » .. وبـين الهرب منه ، للتعبّد بعيداً عنه .. وعن عالمه !

كان « فولف » يتّجه حسب إرشادات مخططٍ تركه الكاردينال.. يقود السيارة في طرقاتٍ موحشةٍ ، خطرة..وما من إشارةٍ رسميّة على أطرافهـا ، ترشد المسافر الى وجهته ، أو مكانه !

ـ لعلهم تعمّدوا رفع الاشارات .. كي يستأثروا ، وحدهم ، بالتعرّف على مخاطر المنطقة !

ضحك « باولو ألبيرتو » لقولِ « فولف » .. وأجاب ..

ــ إن لك أفكاراً بوليسية ، طريفة !

نظروا الى ما فوقهم ، يتفحّصون القمم الشاقولية التي باتت تشرف على أوديةٍ راح الطريق يتعرّج بينها .. وقال « فولف » متعجّباً ، ينظر الى ما فوقه ..

ــ هناك .. هناك ! انظرا .. ما أغرب هذا المشهد !

بان الدير .. على رأس قمّةٍ صخريةٍ شاهقةِ الارتفاع .. تلفّ الغيوم جدرانه القاتمة .. كأنه امتدادٌ لتلك القمة المنفردة .. أو ، كأنه هو رأس القمة ذاتها .. وما صخور الجبلِ ، الذي تحته ، رغم شدة ارتفاعها ، إلا أساساً لقاعدته ، البعيدة العمق !

كانت جدرانه امتداداً للصّخور الشاقولية ، الملساء !.. اتّخذت مسار انحرافاتها الطبيعية .. تبدأ عند القاعدة ، في محيطٍ ، شبه دائريّ ، متعرّج الأطراف .. فإذا ما علت ، تحولت الى شكلٍ متطاول ، مثمّن الاضلاع .. ضاق ، في قمته ، واتّخذ شكل سورِ قلعةٍ متينة .. ما مِنْ ندٍّ ، أو عدوّ لها ، إلا الطبيعة ذاتها التي احتمت بها..يحار المرء ، كيف بُنيت ، ولماذا.. ويُذهل للجهد المستحيل الذي بذله الانسان ، لرفع الصخور ، الى قممٍ عافتها الوحوش .. وكرهت الطيور الجارحة سكناها !

كانت طريقاً ضيّقة ، سيئة التعبيد .. تسلّقتها السيارة في مشقة زائدة ، اضطرت « فولف » الى التوقّف مراراً ، لإزاحة صخرة ، أو أغصانٍ تهالكت على الطريق .. تنوء بما تراكم فوقها من ثلوج .. ما إن أدركوا نهايتها ، وتوقّفوا أمام باب الدير ، ثم ترجّلوا ، يتأملون السحب الرمادية ، المحيطة بهم ، تتخلّلها قمم الجبال المجاورة، حتى تنهّد «دون ماكسيمليانو»..وقال..

ــ ها قد وصلنا ، أخيراً !.. كنت أظنّني أحلم بالوصول الى هذا المكان .. وها نحن ، أخيراً ، أمامه !!

ثم تمعّن فيما حوله من ألوان الأثير الباهتـة الاخضرار ، والسواد .. وقـال ..

ــ لا ملامة على من يعيش هنا ، إذا ما هو فقـد صلته بالأرض .. ومن فيها ! إن تعاقب حياة جيلين ، أو ثلاثـة ، في مثل هذه البيئـة ، لكفيـل أن يشكّل ، لدى الانسان ، عاداتٍ مماثلة لعادات الطيور الجارحة !!

وقف على رتاج الدير ، راهبان .. أحدهما أعـور ، نحيـل ، دميـم ، طويل القامة .. يقاوم برد لفحاتِ الهواء العاصف ، في رباطة جأش ظاهرة.. والآخر ، بديـن ، متوسّط الطـول ، يفـرك كفّيـه بغيـة تدفئتهما .. تقدّم من الضيوف ، يساعد « فولف » على حمـل متاعهم القليل .. وقال ، وهو في عجلة من أمره .. دون ترحيب ..

ــ .. إن « الأب الرئيس » في انتظـار « نيافة الدوق » .. سأقودكم ، أولاً ، الى غرفكم .. هلا تفضلتم ..

ثم أسرع ، يتقدم « دون ماكسيمليانو » ، ثم الأمـير « فوسكاري » ، و «فولف»، الى داخل الدير ، مارّين، جميعا ، أمام الراهب الطويل، الذي لم يبرح مكانه..وقف ينظر إليهم..مقطّباً حاجبين معقودين ، كثيفين ، نال منهما الشيب .. زادا من قباحـة أنفـه المعقوف !

ما إن تجـاوز الركبُ البـاب ، حتـى علّـق « باولو أليبرتـو » في صوتٍ خفيض ..

ــ أفّ !! إن وجهه ليبعث الرعب في نفس الشيطان ، ذاته .. أرجو ألا يكونوا ، جميعهم ، على هذه الدرجة من الدمامة !

تركوا حقائبهم في عهـدة « فولف » ، يصفّف متاعهم ، كلّ في خزانة غرفتـه المنفـردة ، الصغيرة .. وتوجّـه « دون ماكسيمليانو » ، والأمـير « فوسكاري » ، لزيارة رئيس الديـر ، في مكتبه ، الواقع في أحـد الأبراج

العلويّة من الدير .. برجٌ ، يضمّ ، الى جانب المكتب الفسيح ، غرفة نومٍ مريحة ، واسعة .. وغرفة أخرى للجلوس ، إذا ما تمشّى المرء فيها .. ونظر من نوافذها أحس كأنه في أعلى دورٍ ، من أطول ناطحة سحاب في العالم !

تبسّم « الأب الرئيس » ، في اعتزاز ، وهو يلحظ نظرات الدهشة على وجهيّ زائريه ، النبيلين .. وقال في تواضعٍ مهذّبٍ .. مشيراً الى سكنِه ..

ــ إنها حقاً لشقّة رحبة .. مريحة .. تتناقض كل التناقض مع الانطباع الموحش الذي يشعر به الإنسان .. وهو يشاهد الدير من الخارج .. وسط هذه الطبيعة ، المعزولة ، الموحشة !

قال ذلك وهو يرحّب بضيفيه ، يطلب منهما الجلوس قرب الموقدة ، ويعود الى مكتبه ، لقراءة رسالة من الكاردينال ، سلّمه إياها « دون ماكسيمليانو » لدى دخوله المكتب ..

قال ، وهو يعيد طيّها ، ويلحقها بغيرها ، في درجٍ خاصٍ بالوثائق الهامة ..

ــ لقد تلقّيت آنفاً رسالتين .. بشأن زيارتكم هذه .. من نيافة الكاردينال .. لكني فوجئت بزيارة نيافة الأمير « فوسكاري » .. ورغم ذلك ، فإن نظامنا الـ « بندكتيني » معروفٌ بحسن الضيافة !.. وإنه لشرف لنا أن يزورنا أبناء البندقية الحقّة !

وطفق يتحدّث ضيفيه ، في إسهابٍ ، عن تاريخ الدير العريق ، وعن تركيز مبادئه على العمل المتواصل في الحياة .. عمّا كان يحتويه من تحفٍ ، تعتبر كنوزاً اليوم .. وعدهم بزيارة بقاياها ، في الغد .. يتجنّب الإشارة الى المخطوطات .. إما تجنّباً لذكر الموضوع ، أمام « باولو ألبيرتو » .. أو حذراً من الافصاح عما يتوجّب عليه كتمانه ، وهو لم يسمع من « دون ماكسيمليانو » بعد ، إشارة تنبىء عن مدى اطّلاعه على خفايا الأمور ..

قال « باولو ألبيرتو » ، متعجّبا ..

ــ لكني سمعت عن شهرة مكتبتكم القديمة .. أرجو السماح لي بزيارتها ..

ــ بالطبع .. بالطبع .. إن لدينا مجموعة رائعة من الكتب القديمة ، القيّمة.. نقوم بإعادة نسخها .. حسب طلب بعض المصادر.. تأتينا الطلبات، من جميع أنحاء العالم .. ومن جميع مكتباتها !

ثم أردف ، في ثقة واعتزاز ..

ــ إن ذلك بات مورد رزقنا الوحيد .. في هذه الأيام الصعبة ، التي لا يجد الإنسان فيها الطريق ، لكسب عيشه ! لدينا ستة وخمسون ناسخاً.. هل تريدون زيارتهم الآن .. أم نرجىء ذلك ، الى الغد ؟!

كان الوقت يشرف على الغروب.. ينبىء بليلٍ طويلٍ.. لا شاغل فيه.. ولا تسلية .. وما كان أمامهما سوى مهمّة واحدة في تلك الزيارة .. لذلك ، بادر « دون ماكسيمليانو » الى القول ..

ــ بل نزورهم الآن .. متى يتوقّفون عن العمل ، في المساء ؟

ــ إنهم يعملون منذ الصباح الباكر ، حتى الواحدة ظهراً .. ثم ، من الرابعة ، حتى الثامنة مساء .. ولا يتوقفون عن عملهم .. إلا لأداء الصلاة ..

* * *

لم يكن رئيس الدير ، على علمٍ بجميع ما تحتويه مكتبة الدير ، من مخطوطات سريّة قيمة..ولم تكن مشيئة الكاردينال، حين أودع المخطوطات، في تلك القلعة المنيعة ، إطلاع أحدٍ على مكانها .. حسبه انه وزّعها بين آلاف الكتب ، والمخطوطات الأخرى ، في نظام معينٍ .. مشيراً الى أماكنها برموزٍ خفيةٍ ، دوّنها على الفهرس المفقود !

لذلك اكتفى الكاردينال بالكتابة الى رئيس الدير ، طالباً منه السماح لـ « دون ماكسيمليانو » بالتجوّل في جميع أنحاء الدير .. وبالاطلاع على جميع ما تحتويه خزانتها من مخطوطات .. شارحاً له مهمته بأنها مقارنة

أكاديمية ، بين بعض مخطوطات « الأسكوريال » والنسخ الموجودة عنهـا ، في مكتبة الدير .. كذلك ، المقارنة بـين بعض مخطوطات الديـر الأصليّة ، وما يوجد عنها ، من نسخٍ ، في « مكتبة الاسكوريال » ..

نزلـوا سلّماً حجرياً ، قادهـم مباشرة الى رواقٍ عـريضٍ مزخرف الجدران .. تحيط أعمدته المزدوجة بحديقة داخليّة .. تتوسطها بحـيرة فيها مصدر للمياه ، يغذي الدير بالماء العذب ..

قال « الأب الرئيس » مشيراً الى جدران الرواق ..

ــ إن غُرَفَ التجليد ، والعمـل .. والطعام .. والمخبـز والمشفى ، والمخبر .. وجميـع لوازم الدير العمليّة ، مجموعة هنا ، في هـذا الدور .. وراء تلك الجدران ! أما فوقها .. في الـدور الأول ، فتعلوها غرف النـوم ، حيث نمرّ الآن .. ويوجد منها ما يتسع لمئة راهب .. وضيوف الدير !

أخلد الى الصمت ، وهو يرتقـي درجات السلم المقابـل ، في تثاقلٍ ، يعيقـه كرشه الضخم وثوبه الطويل .. فما إن وصل الـدور الأول ، وتنفس الصعداء ، حتى قال ..

ــ .. أما فوقنا مباشرة .. في الدور الثاني .. فتقـع قاعـة النسخ .. حيث سنصل بعد قليل .. وفوقها ، مباشرة ، مكتبتنا الشهيرة !

أطلق تنهـدة قصيرة ، وأضاف ، في حيرة واستسلام .. تعجّب لهمـا الزائران !

ــ .. وهي في عهـدة الأخ « داميانو » .. الذي كان بلا ريب على باب الدير .. لدى وصولكم .. إنه القيّم الجديد .. منذ خمس سنوات ..

صعدوا السلّم الذي يقـود الى الدور الثاني ، ودخلوا قاعةً كبيرة .. تحتلّ قسماً لا بأس به من مساحةِ البناء .. تُطـلّ ، من الجهـة الداخلية ، على حديقةِ الرواق ، عبر نوافـذَ مستطيلة عالية .. ضيّقة .. ومن الجهـة الخارجية ، تُشرفُ نوافذهـا على ما توسّطه الديـر من قمـمٍ مستدقّة ،

قاتمـة اللون .. تَنْشقّ وترتفع عن سفوح جبالٍ كست معظمها الثلوج .. وبانت منها رؤوس الأشجار الغليظة، والباسقة !

كانت جميع جدران القاعة مغطّاة بخزائن خشبيّة .. انفرجت معظم مصاريعها عن أوراق ومخطوطاتٍ مبعثرةٍ، في جوّ عمل ودأب ! مجلّدات، وكتب، ومخطوطات، من جميع الأشكال والمقاييس ! معظم أغلفتها الجلدية القديمة محلاّة بزينة شرقيّة، أو خطوطٍ وأشكالٍ هندسية إسلامية .. ذات غلافاتٍ متينةٍ، عريضةٍ مقوّاة .. تمكّن الانسان من إغلاق الكتاب بأقفالٍ، علّقت مفاتيحها بها ! أما وسط هذا السور الخشبيّ، من الخزائن والرفوف، فلقد رُتّب ما يقارب الخمسون منضدة .. جميعها، ذات هندسة قديمة .. صُنّعت منذ عدة قرون .. جلس إليها الرهبان النَسَخَة .. كلّ، أمامه هرم خشبيّ صغير، ثُبّتت عليه لوحات من الورق .. أو الرقّ، كأن عمر الواحدة منها عدة قرون .. راح يخطّ عليها ما وُضع الى جنبه، أو أُخفي، على رفّ تحت منضدته، من مخطوطٍ نادرٍ، عُهد إليه إعادة نسخه !

همس رئيس الدير، في أذن « دون ماكسيميليانو »، ضيفه الإسباني النبيل ..

ــ إن هذا الدير كان لجماعة « الدومينيكان »، قبل أن تؤول ملكيته الى جماعتنا .. الـ « بندكتينية »..لقد صمّم هذه القاعة، والمكتبة التي فوق، الراهب الأخ « سافونا رولا » بنفسه، في القرن الخامس عشر !

تعجب « دون ماكسيميليانو » أيما عجب، لسماع قوله، وأجاب ..

ــ وما علاقة « سافونا رولا » بالمكتبات ؟ أعلم أنه حرق من المخطوطات واللوحات الفنّية، ما حرق .. في « فيرنزه » المزدهرة، خلال حكم آل « بورجيا » لـ « توسكانا » !!

ضحك « الأب الرئيس » على الفور، يتحاشى إسماع غيره ما يقول ..

ــ آه، يا عزيزي .. هناك ما لا يعرفه أحد، حتى بين أولئك الذين

يكتبون التاريخ ! إن الأخ « سافونا رولا » جعل من هذه المكتبة « المحجر الصحي » لجميع ما كان في خزائن آل « بورجيا » .. من كتبٍ ، ومخطوطاتٍ !.. كان ذاك ، هو شرطه الأساسي للتعاون مع تلك الأسرة .. قبل سيطرته عليها تماماً !! قام بنقلِ جميعِ ما كان في خزائنهم إليها ، وأعاد نَسْخَهَا ، هنا !! وعلى هذه المقاعد بالذات !! ولم يُبْقِ للأصول من أثر !!

ـــ وما الذي كان في لخزائنهم مما يستوجب ذلك ؟!

ـــ .. جميع ما احتفظت به الثقافة البيزنطية ، أو تشرّبته ، من تأثير الفلسفات الشرقية !.. ثم إنه مسح تماماً كلمة « مسلم » .. من اللغات الأوروبية !.. وأحل محلّها .. كلماتٍ ، مثل « تركي » .. و « موري » .. أي مغربي ، أو « سارساني » .. الخ !! لقد قام في هذا المضمار بعملٍ رائع جبار .. فهل تظن أن إزاحة كلمةٍ من لغةٍ بكاملها .. أمرٌ سهلٌ ؟!

كان رئيس الدير ، في كل ما يقول ، يلحظ عن بعدٍ الأخ « داميانو » الذي وقف متأهّباً ، منذ دخولهم القاعة ، قرب باب ضيّق .. لا يبارحه للحظة واحدة .. إلا حين يطلب منه أحدهم مخطوطاً من المكتبة .. فيتركه على الباب ، لحراسته .. بينما يغيب هو برهة ، يعود بعدها بالمخطوط المطلوب .. يعيد النظر والتدقيق في جميع أنحاء القاعة ، كأنه يستطلع أي تحرّك أو تبدّل ، حصل أثناء غيابه .. وقد اشتبكت يداه واختفت ، تحت طيّات كمّي ثوبه الطويل !

ما إن صعد سلّم المكتبة المظلم، من جديد ، تلبية لطلب أحد الرهبان.. حتى أسرع رئيس الدير ، مبتعداً عن « دون ماكسيميليانو » ، واقترب من أحد الرهبان .. جلس ، منهمكاً ، يُنهي تلوين ما بدا أنه الصفحة الأولى من مخطوط شرقي قديم ..

همس بعض الكلمات في أذن الراهب .. فرفع هذا رأسه ، حاسراً عنه قلنسوةٍ عريضة كانت تستر جنبي وجهه ، فبدا شاباً .. في مقتبل العمر ..

تورّدت وجنتاه لكلمات « الأب الرئيس » .. وهزّ رأسه بالموافقة ، في ارتباك .. ثم عاد الى ما كان عليه ، من تلوين !

كان الراهب « ذاميانو » قد عاد من المكتبة .. فسارع رئيس الدير للاقتراب من « دون ماكسيميليانو » .. متظاهراً بإتمام جملةٍ ، من حديثٍ لم يبدأه !.. ثم قال له ، وهو يقترب من الراهب العَبوس .. متشاغلاً عن النظر الى وجهه المتجعّد ، القبيح ..

ـ .. « دون ماكسيميليانو » .. سوف يرافقك ، الأخ « داميانو » ، لزيارة المكتبة !.. إنه مطّلع تماماً .. على جميع ما تحتويه .. أما أنا ، فإن لديّ ما يشغلني الآن عن مرافقتكم .. سوف أنتظركم ، في غرفتي .. فيما بعد .. لتناول العشاء ، معاً .. بالمناسبة .. أنتم أحرار في التجوّل في جميع أنحاء الدير ، بحسب ما تشتهون ، عدا غرفة النسخ ، هذه ، والمكتبة التي فوق .. طبعاً .. إلا إذا صحبكما في ذلك الأخ « داميانو » .. قيّم المكتبة !

وسار ، متجهاً في وقار ، نحو باب القاعة. .تاركاً كلاً من «ماكسيميليانو» و « باولو ألبيرتو » في دهشة من انسحابه المفاجيء ، وتحت رحمة أنظار جميع من كانوا في القاعة ، من خمسين راهباً أو أكثر .. ما إن توارت جبّة الأب الرئيس ، وراء الباب ، حتى رفعوا جميعاً رؤوسهم ، وحسروا أطراف قلنسواتهم عن عيونٍ متسائلةٍ متفحّصة .. ووجوه فتيّة .. . معظمها في ريعان الشباب ..

تقدم الأخ « داميانو » من « دون ماكسيميليانو » ، و « باولو ألبيرتو »، في هدوءٍ وثقة .. تتلاعب ابتسامة ساخرة ، خافتة ، على طرف شفتيه المتجعّدتين ، وقال ..

ـ أمامنا ساعة من الوقت .. هل تريدان زيارة المكتبة ، الآن ؟.. أم نترك ذلك الى الغد .. أو الى ما بعد جولة نقوم بها الآن بين النَسَخَة ؟!

كان « فولف » .. قد دخل القاعة ، تلك اللحظة ، فالتفتت الأنظار إليه ،

تستطلع وجهه .. تستغرب شبابه ، وما ارتداه من ثيـاب التزلّج الصوفيّة ، الملونـة !

تبسم « داميانو » لالتفات الرهبان الى « فولف » .. فقال ، ساخراً ..

ــ إن معظمهم في هذا الديـر ، منذ سنوات .. لا يخرجون منه أبـداً ، وهم لم يـروا مثل هذه الألوان الزاهية ، إلا عـلى صفحات المنمنمات التـي يعيدون نسخها !

ردّ « باولو أليبرتو » .. غير مكترثٍ لغمزة الراهب ..

ــ وإن مثل تلك الصفحات ، هي أجمـل ما في المخطوطات ! فـلا بأس إذا تذكّروا أن الجمال من صفات الإنسان ، كذلك !!

زاد تقطيب الراهب لما سمع ، مما كـاد يخفي فجـوة عينـه العمياء ، الفارغة ، الدامعة .. وقال ، في اقتضاب .. يمسح ما سال منها ..

ــ حسنٌ .. هل قررتم زيارة المكتبة ؟!

هزّ « دون ماكسيميليانو » رأسه بالموافقة.. يتمعّن في صدر « فولف »، يُفهمه عبر ابتسامة راضية ، أن لا أثر بادٍ على ثيابـه ، لما يخفيه وراءها ، من فهرسهما الثمين !

* * *

صعد الضيوف الثلاثـة السلم ، خلف الراهب .. ودلفوا الـى الدور الثالث ، عبـر فتحةٍ في الجدار ليس ما يشير الى كونها أُحدثت لتكون باباً ، بل لتبقى فجـوة مؤقتة ، يسهـل إغلاقها ، إذا ما اقتضت الحاجة .. ذلـك ، بإعادة بنائها ، بما يستر جوانبها ، فتغيّب كلياً ما تخفيه وراءها عن الأنظار !

طالعتهم خزائن خشبيّة طويلة .. يكـاد يلامس ارتفاعهـا السقف .. صفّت جنباً الى جنب .. بعضها قـرب بعض ، وعلى مسافـاتٍ معتدلة .. ما إن يصل المرء الى آخر أي صفٍّ منهـا ، حتى ينعطف ، يمنـة أو يسرة .. ويسير حذاء صفٍّ جديد ، يتبـع مساراً موازياً للأول ، أو مقاطعا له ، ليصل الى آخره .. فينعطف من جديد ، في زاوية قائمة ، أو في مائة وثمانين درجة ،

ويعود الى قطع تلك المسافات المتساوية الطول .. فما إن تنقضي برهة ، وهو على تلك الحال ، حتى يدرك أنه قد توغل ، رغماً عنه ، في تيه لا سبيل الى الخروج منه ، إلا باقتفاء أثر الدليل !

كان « دون ماكسيميليانو » منشغلاً في مشاهدة ما حوته تلك الخزائن من غلافات ، ومخطوطات رائعة .. حين تلفّت حوله ، فجأة ، ولمّا لم يطالعه إلا « فولف » ، الذي كان يسير الى جانبه ، في صمت ، وحذر ، قال .. مستطرفاً ما وجد نفسه فيه من جوّ غريب ..

ــ .. إن المرء ليشعر كأنه يسير في تيه .. يشبه في تركيب مساراته المعقدّة ، المتشابكة .. ذلك الذي تعودنا التلهّي في حلّه .. ونحن أطفال !

سمع صوت « فولف » ، يرد عليه .. في توثّب ظاهر ..

ــ بل نحن دخلنا تيهاً أكيداً .. وأرجو أن نوفّق الى الخروج منه !

سخر فراس من قوله .. ونظر حوله يبحث عن « باولو ألبيرتو » .. أو الراهب « داميانو » ، فبهت إذ لم يجد لأيٍّ منهما من أثر .. صاح على الفور .

ــ « باولو » أين أنت ؟! « فرا داميانو » !! « باولو » !!

سمع صوتاً خافتاً بعيداً ، مخنوقاً .. يردّ عليه .. تبيّن منه معالم صوت « باولو ألبيرتو » ! فلما كرّر النداء .. أصغى جيداً .. وإذا صوت « باولو » يأتيه من بعيد ..

ــ .. هنا .. أنا .. هنا .. أين أنتم ؟!

انتابه برد مفاجىء ، وهو يتنبّه لما قد يقع فيه ، في ثنايا ذلك التيه ، لولا وجود الراهب بينهم ، يرشدهم للخروج منه .. فكرّر صيحاته ، ينادي « داميانو » الذي اختفى ، هو الآخر .. كأنه تبخّر ، فجأة !! فتوقّف في مكانه ، يعيد الإصغاء الى صوت « باولو ألبيرتو » .. يقترب منه حيناً ، ثم لا يلبث أن يبتعد عنه ، حتى ليكاد يغيب تماماً عن سمعه !

كانوا قد ساروا برهة من الزمان .. في جوٍّ مُغْلَقٍ ، لا نوافذ فيه .. اختلطت برودة هوائه بما يشبه رائحة الغبار ، والورق القديم .. وبدأت الظلمة تخيّم عليه ، والنور يتسرب إليه من فراغٍ ضئيلٍ .. مسافاتٍ ضيقةٍ تفصل السقف عن أسطحة الخزائن العالية !

توقف « دون ماكسيميليانو » يُمعن الفكر فيما وجد نفسه فيه .. لا يصدّق أنه قد ضاع فعلاً عن الراهب ، وصديقه .. لكنه ، في الوقت ذاته ، لا يفهم سبباً لاختفاء الراهب ، ولصيحات صديقه التائه !

قال لـ « فولف » .. كأنه يحدّث نفسه ..

ــ لا شك أن هذا الدور بكامله يشكّل المكتبة .. وأن لا مخرج لنا منه ، إلا عبر الفجوة التي دخلنا منها ..

أطلق « فولف » صوتاً متعجباً .. وقال ..

ــ يا إلهي .. إنها لمساحة شاسعة ! إن الضلع الواحدة من بناء الدير تزيد على الثلاثين متراً .. ثمانية أضلاع .. عرض الواحدة منها عشرة أمتار أو يزيد .. ألفا متر مربع !! أو ثلاثة آلاف .. منها !! يا إلهي .. جميعها .. مقسّمة طولاً وعرضاً .. في نظام هذه الممرات الضيقة ، المحيرة !.. « دون ماكسيميليانو » !! إننا في تيهٍ قد يزيد طول دروبه على عشرة كيلو مترات !! كيف السبيل للخروج منه ؟!

توقّف « دون ماكسيميليانو » فجأة عن الحركة ، وصاح ، غاضباً ..

ــ .. سوف يسمع الحبر الأعظم عن هذا المزاح ، المجرم !!

ثم التفت الى « فولف » .. وقال ..

ــ .. إن « باولو ألبيرتو » لن يسمعنا .. ما دمنا نصرخ ونحن على الأرض ، وضمن هذه الأنفاق المتشابكة ! هيا .. تسلّق فوق هذه الرفوف .. وصح لـ « باولو ألبيرتو » أن يفعل مثلك، من حيث هو..أي حذاء السقف !

لحظات وكان « فولف » قد تمسك جيّداً بأعلى رفوف الخزائن المتصلة ، حتى لامس رأسه السقف ..

ناداه « دون ماكسيمليانو » .. وزاد على قوله ..

ــ وأطلب منه إشعال عود ثقابٍ ، متى تسلـّق الرفوف ، هو الآخر كي نهتدي الى مكانه ..

ما إن صاح « فولف » من وضعه الجديد .. ينادي « باولـو » ، حتى سُمع لصوته صدى مدوٍّ مخنوق كأنـه هديرٌ مقبـلٌ من خلف الجبـال البعيدة .. لحظات ، وإذا بصوت « باولو ألبيرتو » يـردّ عليـه .. يتضمّن ما يشبه اللعنات المتلاحقة لأسماء وأشياء كثيرة !!

كان « دون ماكسيمليانو » عـلى وشكِ المسير بحثاً عن صديقه ، مهتدياً بإرشاد « فولف » الذي رأى انعكاس شعلة نورٍ أضاءها « باولو ألبيرتو » ، حين سمع صوت الراهب « داميانو » ، يقول ، وهـو يخرج فجـأة من وراء أحد المنعطفات ..

ــ لا حاجة بكما للتحرّك من هنـا إلا إذا كنتما تتوقان لنزهـةٍ مشابهة لنزهته !!.. سأذهب وأعود به ! إني أعرف هذه الممرّات جيداً !!

كتم « دون ماكسيمليانو » حنقه ، لغياب الراهب ، ثم لتهاونه في البحث عن صديقه .. وقال له ، وهو يراه يبتعد عنه ..

ــ .. وأين كنت .. طوال هذه المدة ؟! أين ، وكيف اختفيت ؟!

ردّ « فولف » عليه .. بصوتٍ لخافت ..

ــ لا شك انه قد تعمّد هذه الحادثة .. كل ما أتمنّاه الآن ، هو أن نخرج سالمين من هذا التيه !

غاب الراهب برهـة .. عاد بعدهـا يستنير بفانوسٍ قديـمٍ .. يسـير « باولو ألبيرتو » خلفه ، وقـد زاد من شحوبه ما كتمه في نفسه من حنق !

تابـع سيره ، يهمّ بقيـادة الزائرين ، للعودة من حيث أتـوا ، حين قال له « دون ماكسيمليانو » مستغرباً عجلته ..

ـ كنت أودّ زيارة مطوّلة للمكتبة .. لكن ، يبدو لي أن لا وقت لديك ، هذه الليلة .. غداً ، ربما .. في الصباح ..

ردّ الراهب ، في وجوم ، وصرامة ..

ـ إن المكتبة واسعة .. كما رأيتم ! والتجوّل فيها خطر .. للغاية !.. فما الذي تهتمّ به بالضبط ؟!

ـ المخطوطات الشرقية ..

ـ لدينا منها الآلاف !

ـ ألا تقع في جناح معين ؟! أليس لها من تبويب يُرشد الى أماكنها ؟!

نظر الراهب الى « دون ماكسيمليانو » في صمت ، ثم قال ..

ـ اتبعني ..

وسار في خطى واسعة ، يجدّ الركب في إثره .. متنبّهين الى طريقهم .. يحاول كل منهم ، فهم المسار الذي يتبعه الراهب.. انطلق ، يختصر المنعطفات .. ينظر الى الأعلى ، من حين الى آخر .. الى أن توقّف أمام ممرّ طويل ، وقال ..

ـ هنا يبتدىء الجناح الشرقي .. لقد تجاوزنا ثلثي القطر الداخلي للمكتبة .. فإن شئتم ، تركتكم لمطالعة ما تريدون .. وإن شئتم .. أرجأتم هذه الزيارة الى الغد ..

نظر « دون ماكسيمليانو » الى ساعته ، ثم قال ..

ـ بل نُرجئها الى الغد .. ثم إني أحتاج الى نور أقوى من هذا الفانوس ! أين وجدته ، أخ « داميانو » ؟! إنك لم تكن تحمل فانوساً .. حين دخلنا المكتبة !

بدا على الراهب أن السؤال قد فاجأه .. لكنه كتم ذلك وأجاب ، في بساطة وبرود ..

ـ كنت أحتفظ به .. في خزانة قريبة من المدخل .. والآن هيا للعودة ..

* * *

في تلــك الليلة ، جلسوا الى مائــدة رئيس الدير .. يــروي الأمــير « فوسكاري » ما جرى له في المكتبة ، مما سبّبه له الأخ « داميانو » .. يجهد في ضبط انفعاله .. يكاد يرتعــد من شدّة غيظه ..

قال .. وقد انساقت نبرة صوته ، وراء انفعاله ..

ــ ولو أن الأمر حــدث عَرَضاً .. لما أعرتــه من الأهميــة أكثر ممــا يستحق ! لكن اللّعين ، لا شك ، تعمّد ذلك !.. لعلّه أراد الانتقام من غمزةٍ كانت قد صدرت مني .. لم أدرِ إلا وهو يلفت انتباهي الى أمرٍ ، ثم يتوارى، فجأةً .. دون السماح لي بالانتباه الى الوجهة التي سار فيها !

أخلد الى الصمت .. يستعيد في ذهنه ما مرّ به .. ثم قال ..

ــ ولو أن في الأمر مزاحاً .. لمــا اكترثت إليــه .. لكني كنــت أسمع قهقهاته الساخرة ، الخافتــة .. تصدر من مكان خفــيّ ، أستطيع تمييــزه ! قهقهــة شيطانية ، كانت تلاحقني .. كأن اللعين يبيّت لي شراً أكيداً !

تبسّم « الأب الرئيس » في تعالٍ .. لم ينجح في إخفاء ارتباكه..وقال..

ــ هوّن عليك ، يا نيافــة الأمــير ! إن الأمــر لا يستحقّ كل هــذا الاهتمام !! إن « فرا داميانو » راهــب مسؤول .. وهــو يكاد لا يعرفك .. فكيف يبيّت لك الشر ؟! وماذا يجني .. من وراء ذلك ؟!

ردّ « باولو ألبيرتو » في حيرة ظاهرة ..

ــ لست أدري .. لكني واثق مما أقول ! إنه لأمر محيّر .. حقاً !!

علّق « دون ماكسيميليانو » .. في هدوء ..

ــ لعله يوجّه إنذاراً لنا .. عن طريقك ..

ــ .. إنــذار ؟!

ــ لعله يكره عودتنا الى المكتبة !.. لا يرضى عن زيارتنا لها !!

ضحك رئيس الدير ، في شيء من الارتباك .. وقال ..

ــ إنه ليس إلا القيّم على هذه المكتبة .. و « الأب الرئيس » ، هو أنا !

تنبّه الحاضرون الى نبرة تحدٍّ مترددة أفلتت في قــول رئيس الدير .. طرحت إشارة استفهام كبيرة على علاقته بقيّم المكتبة ، الذي بــدا لهم ، منذ اللحظات الأولى لدخولهم الدير ، كأنه سلطة في ذاتها !

تساءلوا عما يجري في الخفاء ، في تلك البقعة النائيــة من العالم..وعلى إحدى قمم الجبال التي لولا وجود ذلك البناء عليها ، لانقضت آلاف السنين ، دون أن تطأها قدم إنسان !

كم عدد من كانوا في ذلك الدير .. ثمانون رجلاً ؟! تسعون ؟! معظمهم من الشباب .. يعيشون تلك العزلة الاختيارية .. في عالمٍ لا شاغل لهـم فيه ، إلا نسخ مخطوطاتٍ غريبةٍ ، وترديد الصلوات ، وتكرار الطقوس !.. وماذا يمكــن لأعمالٍ ، مثل تلــك ، أن تشغــل من حيّزِ تفكيرِ شابٍ في مكتمل قــواه البدنية ؟! وأيــن تزهــق حياتهم العاطفيــة ، وحاجاتهم الجنسية التي نسيت القوى الإلهيــة وأدها في تلــك الأجساد النضرة ؟! لماذا انتظر « الأب الرئيس » غيــاب قيّم المكتبــة ، للهمس في أذن الراهب الشاب ؟! وما الذي أراده منه ، حتى تورّدت وجنتا الشاب لدى سماعه كــلام رئيسه الزمنيّ ، والروحيّ ؟!

كانت مهمة « دون ماكسيميليانو » شاقّة ، خطرة ، في حــدّ ذاتهــا .. لا تحتاج للمزيــد من العقبات الجانبية .. ماذا الآن ، وسلطة رئيس الدير ، التي جاء مستنداً إليها ، باتت مربوطة ، بما يقيّدها ، مما يعرفه قيّم المكتبة عن علاقة رئيس الدير ، بأحد الرهبان .. أو بعــدد منهم !! ثم .. كيف سيُتاح له الوصول الى تلــك المخطوطــات العربيّــة ، إذا ما قـيّـدت زيــارته للمكتبة بمرافقة « داميانو » ؟!

ما كادوا يفرغون من تنــاول الطعــام ، ورشفِ شرابٍ مهضّمٍ بسيط بعــده ، حتى تنحنح رئيس الدير وشرع ينظر الى ساعته ، من وقت لآخر .. فنهضوا ، شاكرين له حسن ضيافته .. وخرجوا من جناحه ، متوجّهين الــى غرف نومهم ، في الدور الأول ..

كان الراهب « داميانو » يتمشّى .. جيئة وذهاباً .. في الممر الطويل الذي تفرّعت عنه غرف النوم .. ينتظر دخول آخر الرهبان الى غرفته ..

قال « دون ماكسيمليانو » لـ « باولو ألبيرتو » يودعه ..

ــ هل لديك ما تقرأه هذه الليلة ؟.. إن المولّد الكهربائي يتوقّف عن العمل ، حوالي منتصف الليل ..

ضحك « باولو » ، وأجاب في صوتٍ خافتٍ ، كأنه ، هو الآخر ، بات يخشى سطوة الراهب ..

ــ عندي رواية بوليسية تافهة .. اسمها .. « جريمة" في دير .. » !

التفت « ماكسيمليانو » الى « فولف » سائلاً ..

ــ هل لدينا ، في غُرَفِنا ، وسيلة نستضيء بها .. غير الكهرباء ؟!

ردّ « فولف » على الفور ..

ــ يوجد مصباح زيتي .. وبضعة شموع ..

ثم همس في أذن « ماكسيمليانو » .. سائلاً ..

ــ ألا تودّ زيارة المكتبة .. في الليل ؟!

تبسّم فراس لفطنة مرافقه .. وهز رأسه قائلاً ..

ــ وافني في غرفتي .. بعد منتصف الليل ..

* * *

كان الدور الأول ، المكان المخصّص لنوم الرهبان .. صفّين من الغرف المتقابلة ، بعضها ، يحتوي سريرين أو ثلاثة ، يمرّ بينهما رواق دائري طويل .. يلف الدير بكامله .. تقع في أوله غرف كل من قيّم المكتبة ، ومساعده .. ثم رئيس المخبر ، والمستوصف .. ثم غرف الزائرين ، ودورات المياه .. وكانت عادة « داميانو » ترك باب غرفته مفتوحاً .. يراقب بذلك جميع الداخلين الى دورات المياه ، والخارجين منها .. فلا يتأخر أحد فيها .. ولا يعلو صوت الكلام بين الرهبان ، عن الهمس المقتضب !!

كانت ليلة ممطرة عاصفة .. ما ان أوى الجميع الى مهاجعهم .. وخيم

الصمت على البناء بكامله ، حتى تضاعف أثر أصوات الطبيعة ، لا سيما عويل الرياح .. صار صفيرها يلف أروقة الدير ، يرتج له زجــاج النوافذ ، من حين لآخر ، فتسري القشعريرة في أجساد من باتــوا في أسرتهم ، يبحثون بأيديهم وأقدامهم العارية عن زوايا دافئة يركنون إليها ..

* * *

غاب النور الكهربائي ، فنهض « فولف » يجمع الشموع التي لديه، يسير على رؤوس أصابعه ، وخرج من غرفته .. ينقر نقراً خفيفاً على باب غرفة « دون ماكسيميليانو » ..

خرج هذا من غرفته ، وهمس في أذن « فولف » ، على الفور ..

ــ يجب تفادي المرور أمام غرفة « داميانو » .. لذلك .. يجب علينا لف الرواق .. بكامله .. فنصل إلى الســلم المؤدي إلى الدور الثاني ، من الجهة المقابلــة ..

ودلف الاثنان في ممر مظلم ، ينيره مصــباح زيتي ، شاحب النور ، يسمعان عبر صفير الرياح أصوات أبواب تفتــح في بطء .. وأخرى ، تغلق في حذر وهدوء .. يختبئان تحــت أقواس الأبواب العريضة ، لــدى مشاهدتهم لأشباح بعض الرهبان ، تترك غرفها ، أو تعود إليها ، مسرعة .. كأنها هررة ، تعودت التنقل في الظلام !

قطعا القسم الأكبر من الممــر .. ثم تجــاوزا القسم الأخير منه ، الذي اقترب من جــديد من غرفة « داميانو » .. فما إن صــعدا السلم إلى الدور الثاني ، وأشعل كل منهما شمعة كان يحملهــا ، حتى أسرعا يبحثان عن مدخل الدور الثالث ، الذي قادهما إلى فتحة المكتبة ، في جدار الدور الأخير ..

همس « فولف » في أذن « دون ماكسيميليانو » ..

ــ وكيف نسير في هذا التيــه ؟! كيف نهتــدي الى وجهتنا ؟! هل تذكر الطريق التي اتبعها « داميانو » ؟!

رفع « ماكسيميليانو » يده إلى أعلى ، بما يزيد من إنارة السقف ، وأشار الى أحرفٍ وأرقامٍ ، كُتبت بمادة باهتة اللون ، على كل منعطف .. وقال ..

ــ إني ما أزال أذكــر تسلسل الأرقــام ، والإشارات التــي اتّبعهــا « داميانو » ، وهو يقودنا الى الجناح الشرقي .. ألم تنتبه الى استرشاده بتلك الإشارات ، من وقتٍ الى آخر ؟!

كان فراس قد حمل معه من روما الوريقــات المتبقّية من نسخة الفهرس التي وجدها في صندوق « يان فراتيتشيك » .. لا لسببٍ ، إلا لأنها حــوت إشارات ، لم يفهمها آنــذاك .. أرقــام كُتبت بحبــر باهــت إزاء اسم كل كتاب .. فما إن وصل الى القسم الشرقي ، وقلبه يضرب بشدة لما وجد نفسه إزاءه ، وفي حريّة تامة ، من مخطوطاتٍ ، كان مجرّد الاقتراب منهــا ، حلماً لا سبيل لتحقيقه .. حتى شرع في تفحّص أرقامها .. يقارنها بما معه من أرقام .. يفتح بعضها ، يتفحّص نصوص البعض الآخر .. لا يصدّق أنه يجري أصابعه على تلك الوريقات العربية العزيزة .. وعلى ذلك الخط المفهوم !

كان « فولف » يراقب استغراقه .. في دهشــة زائــدة .. لا يجرؤ على الكلام ، لما وجد « دون ماكسيميليانو » ، فيه من حالةٍ وجدٍ لم يشأ تعكيرها ! لكن صبره عيل ، في النهاية .. وقد تسرّب بردّ المكان إلى مفاصله وأصابعه ، التي لم يعد يجدي النفخ فيها وتحريكها لاعادة الدفء إليها ! ..

قال ، في لهجة خافتة ، متوسّلة ..

ــ « دون ماكسيميليانو » .. هلا تحقّقنا من وجود بقيّة الكتب التي في الفهرس ؟! وإلا .. فسوف يأتي الصباح ، ونحن على هذه الحال !!

تنبه فراس من شروده .. وأدرك فجــأة ما يشكّله وجــود « فولف » معه ، من عقبة !!

ماذا يفعل ..؟! الآن وقد صار وجها لوجه مع ضالته المنشودة ؟!

هل يحاول اخراج بعض تلك المخطوطات من الدير ؟! .. كيف ؟! .. وكلّ منها حملٌ ثقيلٌ في حدّ ذاته ؟! هذا ، علاوة على أنه ما جاء إلى الدير ، بالنسبة

لمرافق الكاردينال ، إلا للتحقق من وجود تلك المخطوطات وسلامتها .. وليس لمحاولة سرقتها .. أو حتى زحزحتها من مكانها !!

نظر إلى « فولف » ، وقال ..

ـ اسمع .. سنبدأ في التحقــق من وجود كتــابٍ بعينه .. ومن ثم ، ننتقل إلى غيره .. وهكذا .. بما يسمح لنا الوقت .. لكن .. هل تقرأ العربية ؟!

هز « فولف » رأسه بالايجاب .. وقال ..

ـ لكني ، لا أجيد ذلك .. لقد بدأت في دراسة العربيّة والعبرية ، منذ التحاقي بخدمة الكاردينال ، منذ سنة ..

أخرج فراس من جيبه وريقات فهرس « يان فراتيشيك » .. وقال ..

ـ ما عليك ســوى البحــث عن هذا العنوان .. داخل الأغلفــة .. إنه « خلاصة النظر ، في فلسفة العبر » ، وسأتبع أنا ، نظاماً مرقّماً .. علّه يوصلني إلى نتيجة ما .. وطفق يبحث عن أي رقمٍ ، أو تسلسلِ حروفٍ مشابه للرموز التي وجدها على الوريقات التي بين يديه ..

ما إن أمعنا النظر ، يدقّقان في عناوين الكتــب التي أمامهما ، وكانا قد توقّفا عن الحركة ، حتى سمعا صوتاً ، فالتفــت كل منهما إلى الآخر .. يبحث عن مصدره ..

كانت الريح قد هدأت لحظةً .. تَجمــع قواها ، لتعصف من جديد ..! فإذا بصوتٍ مشابه للهمس البعيد ، يُسمع في صمت الظلامِ المحيط بهما !

قال « فولف » ، على عجلٍ ..

ـ إن في المكتبة لغيرنا .. ما العمل ؟!.. اين نختبىء ؟!

همس « ماكسيميليانو » على الفور ..

ـ لا بد أنهم يحمـلون نوراً ما .. اســمع ..! هل تستطيع تسلّق هذه الرفوف .. كما فعلت اليوم ؟!

ـ بالطبــع ..

ــ إذن .. فافعل ذلك ، هنا .. إذ لا بد انك ستشاهد انعكاس نورهم ، على السقف ، فنهتدي الى موقعهم ! هيا !!

وغطى وهج الشمعة التي بيده بكفه الاخرى .. يخفف من انعكاس نورها على السقف ، حيث تسلق « فولف » ..

لحظات .. وعاد « فولف » إلى النزول .. يقول ..

ــ هنالك نورٌ واضحٌ على مسافة غير بعيدة عنا .. لقد بدا لي انه انعكاس أكثر من شمعة واحدة ..! كأنه انعكاس عدد من الفوانيس .. ماذا نفعل ؟!

ما كاد يتم قوله ، حتى سمعا صوت خطى، بدا لهما كأنه يقترب من المكان الذي وقفا فيه .. فتسارعت ضربات قلبيهما خوفاً من المفاجأة ..

وقفا حائرين .. لا يدريان من أين يأتي الصوت تماماً .. ولا في أية الاتجاهات يمكنهما الابتعاد عنه ! ..

نفخ « دون ماكسيميليانو » على شمعته ، فأطفأها .. ثم أمسك شعلتها بأصبعيه ، يمنع تتابع احتراقها ، وحذا « فولف » حذوه .. ثم تسمرا في مكانيهما ، تاركين أمرهما للقدر !!

لحظات .. وإذا بنورٍ ساطع يسبق وقع خطواتٍ يقترب منهما .. تلاه وجه راهبٍ شابٍ .. يستطلع طريقه .. يحمي عينيه من وهج مصباح زيتي ، يستنير بضوءه ..

وضع الراهب الفانوس على أحد الرفوف .. ثم مدّ رأسه نحو المنعطف الذي أتى منه .. يحدث شخصاً يقف وراء رف الكتب .. فقال ..

ــ .. هل الكتاب .. لابن خلدون ؟! ولِم هذه العجلة في استخراجه ؟!

ثم أصغى برهة لإنسان يكلّمه .. وعاد يتمتم لنفسه .. يذكر رقماً لا بد سمعه من أحدهم ، وقف وراء صف الرفوف ..

تناول أحد المخطوطات التي أمامـــه .. وحاول فتح قفل اللسان الجلدي الذي يُغلقها .. فلما تعذّر عليـــه ذلك ، أخرج عدداً من المفاتيـــح الصغيرة من جيبه ، أدارها ، الواحدة تلو الأخـــرى في القفل .. حتى نجح في فتحـــه .. ثم حاول تقليب صفحات المخـــطوط .. بدت له كأنها قد التصـــقت بعضها ببعض فاستعان على ذلك بلحس أصبعه مراراً .. ولما ضاق بما كـــان يفعله ، أعـــاد المخطوط الى مكانه .. يقول لزميله ..

ــ اسمع .. لن أبدأ جديداً .. قبل إنهاء المخطوط الذي بين يدي .. فما سبب هذه العجلة ؟! .. لنعد .. ولنقل .. له .. اننا لم نجده ! ان هذا المخطوط يثير الاشمئزاز في نفسي .. لقدم أوراقـــه !! لست أدري ماذا غطست به هذه الاوراق اللعينة !! إن المرارة ملأت فمي !

ثم حمل فانوسه ، وعـــاد من حيث أتى ، غير منتبـــه الى شـــبحي فراس و« فولف » ، اللذين تسمرا في آخـــر صف الرفوف .. تكاد ضربات قلبيهما تُسمع من بعيد !!

.. ما إن غاب وقع خطوات الراهب حتى أشعل فراس شـــمعته ، وتقدم من حيث تَرك المخـــطوط ، وبقلبٍ واجف ، ويدين تكـــادان ترتجفان ، لشـــدة انفعالهما .. تناول الكتاب الذي تصفحـــه الشاب ، وفتح القفـــل الذي نسي إقفالـــه ..

شد « فولف » ذراع « دون ماكسيميليانو » فجأة .. وقال ..

ــ لقد عادوا .. إنهم في طريقهم إلينا ! هيا ! أسرع !!

تنبّه فراس إلى الخطر المحـــدق بهما .. ، فأسرع ، يعيـــد المخطوط إلى مكانه .. يطفىء شمعته من جديد .. ويتراجع في الظلام إلى حيث اختفى هذه المرة ، وراء صفّ الرفوف ..

سمعا وقع خطى يتوقّف حيث كان المخطوط .. ثم صوتاً آخر يقول ..

ــ ها هو ذا .. سآتيك به !.. لستُ أفهم سبباً لهذه العجلة !

ثم غاب الصوت .. يتبعه وقع أقدام صاحبه ..

ما كان فراس في حاجة لمن ينبئه ان المخطوط قد اختفى من مكانه .. وانه لا بدّ في طريقه إلى حيث تجمّعت الأصوات وأنوار الفوانيس .. في مكان ما من ذلك التيه !!

ماذا كان وراء ذلك التجمع ؟! ماذا يفعل في الليل ، أولئك الرهبان في مكتبة يُحظّر الدخول إليها في النهار ، إلا على من كان في صحبة « داميانو » الشرس ؟!

همس « دون ماكسيمليانو » في أذن « فولف » ..

ــ لنعد في الحال الى المهجع .. لمراقبة الغائبين عن غرفهم ! ونعود غدا ، الى مكان تجمّعهم ، هنا .. تتوضح ماذا يخبّئون !

ــ وكيف نراقبهم .. ونحن لا نعرف هويتهم ؟! كيف نخرجهم من وكرهم، للتعرف اليهم ؟!

ــ تعال معي ، وسوف ترى !

هبطا السلّم .. عائدين إلى قاعة النسخ في الدور الثاني ، ومنها .. تسللا الى دور غرف النوم ، فتوقّف « دون ماكسيميليانو » أمام دورة المياه .. وقال « لفولف » ..

ــ سوف أدخل إلى الحمام، وأصطنع نوبة آلام حادّة .. عليك بالوقوف أمام السلّم هنا .. فلا يفاجئك ما سيصدر عني ، ولا تفارق السلم ، حتى ترى جميع من سيهرعون عائدين من المكتبة الى غرف النوم ، عبر ذلك الطريق !

وأشار إلى السلم الوحيد الذي يقود إلى الدور الثاني ، والمكتبة !

لحظات .. وكان صوت « دون ماكسيميليانو » يدوّي ، في دورة المياه ، عن صراخ مؤلم .. أعقبه صوت ارتطام على الأرض..وسقوط ، تلاه صوت تحطيم بعض الآنية !

سُمع لصراخه صدىً مدوٍّ .. تلته برهــة صمت مخيفة .. ثم شرعت أبواب غرف النــوم بالانفراج ، الواحد ، تلــو الآخــر .. يخرج منها بعض الرهبان .. مسرعاً .. عائداً ، الى غرفتــه .. ويهــرع الباقون للاستفسار عما يجــري في دورة الميــاه !

ما إن سُمع الصراخ من جديــد .. حتى خــرج رئيس المستوصف من غرفتــه .. يسأل « فولف » عما يجري .. ثم هرع الى غرفته .. يُحضر بعض الأدوية منها ، طارقاً في طريقه باب غرفــة الراهــب « داميانــو » الــذي لم يستجب لا لندائــه ، ولا لصراخ المريض الــذي كــان يتلوّى عــلى أرض غرفــة الميــاه ..

انقضــت برهــة قبــل أن ينهض « دون ماكسيميليانو » عــن الأرض ، بمساعدة « باولو أليبرتو » ، وكــان من أوائل الذين خفّوا لمساعدته .. ما إن وصلا الى الباب حتى طالعهــم الراهب « داميانو » ، يتجــه نحوهم ، قادمــاً من جهة الدور الثاني ، لا من جهة غرفة نومه .. يسير وراءه أربعــة رهبان .. تشاغلوا ملتفتين الى ما ناب ضيفهم ، من مرضٍ مفاجىء !

ما كاد « دون ماكسيميليانو » يدخل غرفتــه ، حتى سمع في ممــر الدور الأول صراخاً جديداً .. بدا كأنــه يصدر من إحدى غرف النوم .. تلاه هرجُ ومرجُ الرهبان .. خفّــوا ، هذه المــرة ، لمساعدة أحــد زملائهم .. وكان قد سقطَ على الأرض .. يتلوّى من ألمٍ شديدٍ في أحشائه !!

هــرع رئيس المستوصف إليه بالدواء المسكّن .. دون جدوى ! وكان «فولف» الذي وقف بين الرهبان،يراقب ما يجري،قد تعرّف على الشاب الذي كان في المكتبة ، والذي أتى في طلب المخطوط .. وشكا من مرارةٍ في فمه !

سرعان ما وصل رئيس الدير ، يستطلع ما يجري في تلك الساعة المتأخرة من الليل ! ما كاد يخرج من غرفة « دون ماكسيميليانو » ، وقد اطمأن الى حالة

الضيف .. حتى رَوَّع بأحدهم ، يهرع إليه .. يلطم وجهه ، وهو ينقل له نبأ وفاة الراهب الشاب !

تمتم الأمير « فوسكاري » .. في خوفٍ ظاهر ..

ـ .. هل هو وباء ؟! « ماكسيمليانو » ؟! يجب نقلكَ الى مشفى ، في أقرب وقت ! من يدري ؟! لعله وباء .. مثل الـ « كوليرا » .. أو ما شابه !

كان رئيس الدير قد خرج مسرعاً ، يتحقّق مما سمع .. فتبسّم « ماكسيمليانو » في هدوء ، يطمئن صديقه .. وقال ..

ـ .. لا تجزع !.. إن الأمر بالنسبة إليّ ، لم يكن مرضاً حقيقيّاً !.. بل دوراً ، قمت بأدائه ، لاستعجال من كانوا في المكتبة ، في النزول ! ولم أتصوّر أن « داميانو » كان معهم ! لكن موت ذلك الشاب المسكين ، فاجأني !! ترى ، ما الذي أودى بحياته ، بمثل هذه السرعة ؟! هل تعرف ، من الأمراض ، ما يفتك بالإنسان في غضون نصف ساعة من الزمن ؟!

ـ ماذا تعني ؟! ألم تكن ميتة طبيعية ؟!.. هل قتله أحد ؟!

ـ من يدري ؟! لست أستبعد أي احتمال ، في مثل هذا الجو القائم على السريّة ، والتضليل !

ما إن خرج « باولو أليبرتو » من غرفة « دون ماكسيمليانو » حتى تناول ، هذا ، ورقة صغيرة في محفظته ، كان قد نسخ عليها ما جاء في الرسالة التي أُخفيت في غلاف الفهرس .. وأعاد قراءة النص التالي ..

« .. إعلم يا أخي أني عبدٌ مأمور ، لا حولَ له ولا قوة ، وأني ما عدتُ الى طليطلة من فاس ، إلا بأمر من الملك « فيليب ».. نحمل له كُتباً من خزانة السلطان .. إن القادر الذي لا يُعجزه شيء ، قد شاء أن ينكشف أمر صاحبي ، وخليلي ، فأذاقه « فيليب » من السمّ الفاتك الذي أتيناه به من فاس ، حسب طلبه .. وإلي ، لا محالة ، هالكٌ بنفس السمّ إن عاجلاً أو آجلاً .. ولن أُترك حرّاً طليقاً لأذيع خبر الناسخين ، المائة والخمسين ، الذين أنا منهم .. نعمل ، ليلاً نهاراً ، في إعادة

كتابة ما لدينا من مخطوطات عربيّة .. ولعل السلطان، أدام الله عزّه، هو الذي أمر بالقضاء علينا، بعد أن علمْنا من أمر ما أجراه النسّاخ من تعديلٍ على مخطوطاتِ كتابِ العِبر الذي حملناه معنا من خزانته، والذي لا يحمل في الأصل كلمة « بربر » في عنوانه .. إعلم، يا أخي، أن هذه شهادتي قبل أن أموت.. وإني أُقسم بالله العظيم، وبالقرآن الكريم، أني رأيت النسّاخ « الموريسك » يعيدون كتابة « كتاب العبر »، وغيره، فيبدّلون كلّ ذكر لكلمةِ أعرابي، في كتاب ابن خلدن .. ويضيفون فصولاً بكاملها، في مدح البربر، حسب مشيئة السلطان .. وبذمّ العرب، حسب ما بنفوس أصحاب الدير.. ويحذفون فصولاً بكاملها في ذِكْرِ مآثر العرب.. مما كتبه ابن خلدون ..

إعلم يا أخي أن السمّ الذي أتينا به من فاس سيستر الحقيقة الى الأبد عن أهل الدنيا قاطبة، واعلم أن هذه الورقة هي شهادتي أمام ربّي، يوم الحشر .. »

قرأ فراس هذا .. ثم راح يُمعن التفكير في قول الكاتب : « واعلم يا أخي أن السمّ الذي أتينا به من فاس، سوف يستر الحقيقة عن الدنيا قاطبة الى الأبد » !

* * *

الفصل الخامس

فتح « دون ماكسيميليانو » عينيــه ، في صباح اليوم التالي على ابتسامة « فولف » ، وصوته ، وهو يحضّه على النهوض ، قائلاً ..

ــ لقــد أحضرتُ لك فنجانــاً من القهــوة المعــدّة لإفطــار رئيس الديــر ، نفســه !

ضحك فراس ، وتناول القهوة ، قائلا ..

ــ إنه لشرف كبير !.. لكن .. أين « باولو أليبرتو » ؟

ــ إنه يراقب عمــل الرهبان .. في قاعة النَسْخ ..

ــ هل من جديد .. حول الراهب الميت ؟

ــ لقد أتمّوا شرائع الدفــن ، هذا الصباح .. وسوف يقيمــون صلاة الموتى ، على روحه .. هذا المساء ..

ــ « فولف » .. هذه فرصتنا !

ــ ماذا تعنــي ؟

استوى « دون ماكسيميليانو » في سريره الضيّق .. وقال ..

ــ إن جميــع الرهبان مُلزمون بحضور الصلاة .. وليس ما يُجبرنا ، نحن ، على حضورها.. فهل من مناسبةٍ أفضل ، لزيارةِ المكتبــة ؟! وتقصّي السر الذي دفــع الرهبان الى التسلّل إليها ، ليلة البارحة ؟

أطــرق « فولف » .. يُمعــن التفكير فيما ينتظرهم الليلة .. ثم قال ، يهــزّ رأسه توجّساً ..

ــ إن هؤلاء الرهبان لا يتوانون عن شيء ، إذا أضمروا لنا الضرر ! وهم ماضون في مهمّةٍ ما ، ذلـك أمـر لا شك فيـه ! لكـن ما علاقتنـا نحـن بتجمّعاتهم الليليّة ؟! « دون ماكسيمليانو » .. ألَمْ تجـد البارحة ، فيما طالعتـه من مخطوطات ، بعض التي نبحث عنها ؟

هـزّ « دون ماكسيمليانو » رأسـه بالإيجـاب ، فـأردف « فولف » عـلى الفـور ..

ــ .. إنها إذن ، سليمة .. في أماكنها ! فما شأننا ، وما يقوم به الرهبان ، في المكتبة ، أثناء الليل ؟!

ــ إنها سليمة.. وتبقى سليمة إذا لم تمتـدّ اليهـا الأيـدي الخفيّة ! هـل تدري أن ذلك المخطوط الذي توارى من مكانه ، أمام أعيننا ، أمس ، كان أهمّ مخطوط جاء اسمه في الفهرس ؟!

ــ وما الغرابة ، في مطالعة أحدهم ، لما فيه ؟

ردّ « دون ماكسيمليانو » ، يكتم ما عاوده من توتّر ، سبّبته أحـداث الليلة الماضية ..

ــ « فولف » ! إن عنـوان ذاك المخطوط ، ليس مُدرجـاً على فهرس مكتبة الدير ! فكيف يطلبـه أحدهم ؟! ولماذا ؟! ثم ، كيف عَلِمَ بوجوده ؟! وإذا كان الأمر ، حدثاً عارضاً .. فإن أمـر بقيـة كتب الفهرس ، لن يلبث أن ينكشف ، أمام تلك الأعين المتفحّصة !.. عندئذ .. قـد تختفي ، أو تُسرق جميع المخطوطات ! ولا أحد يستطيع البحث عنها ، أو المطالبة بها ، لعدم وجود قيـودٍ لها ، في مكتبة الدير !! هل فهمتَ الآن أهميّة اكتشاف ما وراء تلك الجماعة التي تتفحّص المخطوطات سرّاً ، في الليل ؟! لا سيما حـين نعرف أن على رأسها « داميانو » .. الذي يكـاد يُسيطر على الدير !! وعلى جميـع ما يحتويه من كتبٍ ، ونَسَخَةٍ !!

قام « دون ماكسيمليانو » الى ثيابـه ، يرتديهـا ، في عجلة .. يعينـه « فولف » على ذلك .. الى أن سأل ..

ـ وهل سنزور المكتبة .. في رفقة « داميانو » .. اللعين .. هذا النهار كذلك ؟ وما الطائل من وراء ذلك ، وهو لن يسمح لنا بالتحرّك فيها ، إلا بما يشاء ؟

ـ « فولف » .. يجب علينا التصرّف بشكلٍ طبيعيّ .. بحسبِ ما رسمنا له البارحة ، حتى يحين موعد الصلاة .. وإلا ، أثرنا الريبة والانتباه الى قصدنا من هذه الزيارة !.. إذا كان قصدي الظاهري من زيارة الدير ، هو فحصُ بعض المخطوطات .. فيجب عليّ القيام بهذه المهمة ، وإلا ، فما معنى قدومي الى الدير ، في مثل هذا الطقس المثلج ؟!

وسرعان ما توجّه الاثنان الى قاعة النسخ ، يبحثان عن الراهب « داميانو » ، يطلبان منه قيادتهم الى المكتبة .. للشروع في المهمة التي أتيا من أجلها ..

سأل الراهب ، في برودٍ متعالٍ .. يتأمّل ثياب « فولف » الصوفية ، المتعددة الألوان ..

ـ هل لي بمعرفة نوع العلوم التي تودّون مطالعتها ؟!

ردّ « ماكسيمليانو » ، على الفور .. في تبرّم ظاهر ..

ـ أيها الأخ « داميانو » ، إننا لم نأتِ هنا للمطالعة ، بل للتدقيق في بعض النصوص .. ومقارنتها بمثلها التي عندنا ، في « الأسكوريال » .. لذلك .. لا حاجة لنا للجلوس ، والمطالعة هنا .. بل نستطيع القيام بمهمتنا ، بخير قيام .. في المكتبة .. فوق !.. أثناء تجوالنا !.. إنها قضية مراجعة بضعة سطور ، في بعض المخطوطات .. لا غير !

زمّ الراهب شفتيه وقال ، في اقتضابٍ شديد ..

ـ حسنٌ !.. وأي المخطوطات ، يهمّكم أمرها ؟!

ـ هل لديكم نسخة أصلية عن الـ « سبتانت »* ؟ أو أي نصٍّ ، من

---

* Septante هي أول نسخة للتوراة ، يقال انها ترجمت الى اليونانية على ايدي سبعين مترجماً .. نقلا عن آلاف النصوص المتفرقة ، في القرن الثالث قبل الميلاد ..

النصوص التي يقال إن الـ « سبتانت » تُرجمت عنها ؟

تصلبت معالم وجـه الراهـب فجـأة ، وكأنـه أصيب بمسٍّ تيـارٍ كهربائـي ! ثم قال ، وجفن عينيـه الفارغـة يرتجف ، في تقلّصات عصبية ..

ـ لدينا نسخٌ حديثة عنها .. أما القديمة .. فلا !

عجب « دون ماكسيميليانو » لما أصاب الراهب .. لكنه تابـع أسئلته في هـدوء مفتعل .. كأنـه لم ينتبـه الى ذلك ..

ـ يقـول « فليون اليهودي » ، إن « بتولومي الثاني » هو الذي أمـر بترجمة الـ « سبتانت » في القرن الثالث قبل الميلاد .. في الاسكندرية .. فهل لديكم ما يشير الى صحة ذلك ؟! أو ما يدعم هذا القول ؟!

تابـع الراهب صمته ، ثم قال ، كمن يتكلم عن مضض ..

ـ لا .. ليس لدينا ما يشير الى ذلك !!

حدّق « ماكسيميليانو » في وجه الراهب ، وقال ..

ـ لعلّي أهتدي الى ما أريده ، بنفسي ..

ما إن وقف « دون ماكسيميليانو » في حريّة تامـة أمام رفـوف تحتوي ما لا حصر لـه من المخطوطات الدينيـة .. المغلّفة .. المُقفلة .. عالـم من الكتابات ، باللغـات .. اليونانيـة ، واللاتينيـة ، والعربيـة ، والعِبْرية ، وغيرها .. حتى أحسّ بعقمِ محاولةِ الشروعِ في البحث فيهـا ، عـن أيّ موضوعٍ ، دون مساعدة قيّم المكتبـة ، الذي وقف يراقبه ، في بـرودٍ .. لا يُبدي أي استعداد لمؤازرته ! ولعل « فولف » ، هو الآخر أدرك ما وصلا إليه من طريق مسدود .. فوقف يراقب حيرة « دون ماكسيميليانو » ، ينتظـر خطوته التالية ..

التفت هذا فجأة الى الراهب ، وقال ، في سخرية ظاهرة ..

ـ أيها الأخ « داميانو » .. يظهر أن حيـاة الرهبنة ، المنقطعة للصلاة ، والتعبّد ، قـد أنستك أن علاقاتك ، وعلاقـات جميـع من في هـذا الدير ،

ما زالت مرتبطة بالعالم الخارجي ! وان روما ، مهما ابتعدت عنك ، فإنها ما زالت قريبة ! جميع الطرق .. تقود إليها !

رفع الراهب حاجبيه الكثيفين ، الأشعثين دهشةً لما سمع .. لكن « دون ماكسيميليانو » لم يُمهله .. بل تابع ما ابتدأه ، في لهجةٍ زاد من نبرة السخرية فيها ..

ــ إني بالطبع ، لستُ أعني فقط حسن استقبالك لنا !.. بل مؤازرتك التامة لنا ، في البحث عن مستنداتٍ ، ليس من تسعى للتستّر عليها ، إلا جماعاتٍ معيّنة..معروفة لدينا !! جماعات ، لم يعد هنالك في « الفاتيكان »، من لا يشعر بالحاجة الماسة لاستئصالها ، من جذورها !!

شحُب وجه « داميانو » ، وتناوبت على عينه الواحدة ، نظرات الخوف ، والتحدّي !!

كان « دون ماكسيميليانو » هو الآخر.. يُحدق في وجهه ، في برودٍ ، وصرامةٍ .. فبان على الراهب أنه يبذل جهداً ، واضحاً ، كي لا يبدر منه ما يوحي بأنه قد تفهم التحديّ ، وتراجع عن مواجهته !!

نظر الراهب الى ساعته ، فجأة ، وقال ، كمن تذكّر أمراً هاماً ..

ــ أنا لا أستطيع البقاء ، طوال النهار ، هنا !.. قل لي ما ذا تريد ، بالضبط .. وإلا أتممنا هذه الجولة ، في المساء .. قبل صلاة الموتى .. أو بعدها !

تبسّم فراس ، في برود .. وقال ..

ــ لا بأس !.. بل تتمّها ، في المساء .. بعد الصلاة..وأكون قد حضّرت المزيد من المراجع التي أريدُ تصفّحها ! والآن ، هلا قدتنا الى القسم الشرقي ، قبل مغادرة المكتبة ؟!

تململ « داميانو » ، ثم قال في حرجٍ غريبٍ يفضح طباعه العدائية ..

ــ ألا يمكننا إرجاء ذلك .. حتى المساء ؟

ـ إذن ، لنخرج من المكتبة ، مروراً بقسم المخطوطات الشرقية .. فأنا إنما أقصد التجوّل في أنحائها ، الآن .. وليس الوقوف عند شيء بذاته !

وسار كل من « دون ماكسيميليانو » و « فولف » ، وراء الراهب الذي تقدمّهما في صمتٍ ، يتفحّصان معالم طريقهما ، جيداً .. يحفران في ذاكرتهما ، جميع ما على السقف من إشاراتٍ باهتة .. فما إن اقتربا من حيث كانا البارحة ، حتى راح فراس يبحث بعينين واجفتين عن مخطوطِ ابن خلدون .. دون جدوى !

كان أحدهم قد أحلّ مكانه مخطوطاً .. آخر !!

* * *

في المساء وقبيل حلول موعد الصلاة ، دخل « باولو ألبيرتو » الى غرفة « دون ماكسيميليانو » ، مستبشراً .. مشرقَ الوجه .. وسأل صديقه ..

ـ ألن تحضر الصلاة ؟ عَلِمْتُ أنهم سيرتّلون من الألحان « الجريجوريّة » ، ما يسحر الألباب !

سرّ هذا الانشراح صديقه .. لكنّه وضع يده على معدته ، وقال ، متظاهراً بالألم ..

ـ أفضّل البقاء هنا .. وقد أتجوّل في قاعة النسخ ، إذا ما زال الألم يرهق معدتي ، على أيّة حال .. سوف تَصِلني الموسيقى جليّةً ، واضحةً ، حيثما كنت ، وأنّى تنقّلتُ في أرجاء هذا الدير الفسيح !

ضحك « باولو ألبيرتو » .. وقال ..

ـ لكن السماع ، شيء .. ومشاهدة تلك الحناجر الفتيّة ، ترتجف مع..

ـ « باولو » !.. ليس هذا وقت الحناجر الفتية ، بالنسبة لي ، على الأقلّ ! قد ألجأ لدخول المكتبة ، أثناء الصلاة .. ولا أريد لـ « داميانو » اكتشاف ذلك ! فإذا لاحظتَ أنه يحاول الخروج من المعبد ، لأي سبب ، فاسرعْ الى مدخل المكتبة ، وانذرني على الفور ..

ضحك « باولو أليبرتو » .. وقال ..

ــ سوف ألجــأ الى حيلةٍ بارعــة ، لمراقبــة ذلــك الوغــد .. ولقد فَطنتُ إليها منذ برهــة !.. سوف أرتدي جبّــة أحد الرهبــان ، فتختفي معالمي ، تماماً ، عن أنظار عينه الشيطانية ! بذلك ، أُحسن مراقبتــه ، دون أن يفطــن الى وجودي قربــه !

علّق « فولف » على قوله ، ضاحكاً ..

ــ ودون أن يفطن أحد .. الى مداعبتك ، لبقية زملائك ، من الرهبان !

غادر الأمير « فوسكاري » غرفة صديقه ، مُتّجهاً نحو غرفته ، وما هي إلا برهة قصيرة حتى خرج منها ، مرتدياً جبّة « البندكتين » الطويلة..مسدلاً قلنسوتها ، فوق رأسه ، ووجهه .. يسير في ركب بقيّة النسّاك .. دلفوا الى المعبد ، في خشوعٍ ، كأنه واحد منهم !

* * *

لم يكن « دون ماكسيمليانو » ، منــذ وطىء أرض الدير ، قــد أحسّ بعــدُ ، بما يربط سكّانه ، أو أجواءه ، بعالم الروح ، أو العبادة ..

ما إن تعالت أصوات عشرات الحناجر .. سبعون ، أو ثمانون منها .. في صوتٍ فتيٍّ خاشعٍ واحــدٍ .. تُردّدُ أصداءه جــدران الديــر .. تصفّيه أروقتــه اللولبيــة .. صوت شاب ، ينظــر الى السماء .. يحــنّ إليهــا .. ولا يحسنُ الفصل بــين رغبــات جسده ، وارتعاشات روحــه .. تمازجــت جميــع انفعالاتــه في زفــراتٍ متهدّجةٍ ، متتاليــة .. في صلاة متواصلة ، واحدة .. ما إن تعالــت نبراتها الحنون ، تقطــرُ وحــدةً ، وحناناً .. حتى ارتعش لها جسد « دون ماكسيمليانو » ولاقت في نفسه هوى مماثلاً ، تحــير معاييره بين حدود الجســد الدافىء ، وآفــاقِ الروح التــي لا تنفكّ تسعى للخلاص من سجنها .. صورتها الوحيدة الممكنة في هذا الكون ..

نهض ، يهزّ رأسه ، ينفض عن نفسه ، تأثير ما سمع ، وأسرع نحو قاعــة

النسخ ، في الدور الثاني ، يصعد السلم ، مسرعاً ، مع « فولف » ، دالفاً في أروقة المكتبة المظلمة ..

رفع الشمعة التي كانت في يده ، نحو السقف ، يسترجع في ذهنه إشارات الطريق التي كان قد اختزنها في ذاكرته ..

همس « فولف » في أذنه ، سائلاً ..

ــ هل نذهب الى القسم الشرقي ؟.. أم نبدأ بغيره ؟!

ــ بل الى القسم الذي تجمّعت فيه الفوانيس ، البارحة !.. ولولا التعرّجات الطويلة ، التي تفصلنا عنه الآن لأدركناه بسهولة .. فهو في الواقع ليس بعيداً عنا .. إنه يقع وراء ثلاثة أو أربعة صفوف ، من هذه الرفوف !.. لكن الطريق الصحيح إليه ، متعرّج .. طويل !

حرص « دون ماكسيميليانو » ألا ينعطف في اتجاه جديد ، دون تدوين الأحرف المقابلة له ، على السقف .. ورَسْم مخطّط لمساره .. محافظاً ، بذلك ، في ذهنه ، على الاتّجاه الأصلي .. كأنه يسير بهدي بوصلةٍ ترشده الى ميلِ قوسِ جدران البناء .. فما إن تجاوز مسافةً لا بأس بها .. حتى راجع الرسم .. وإذا به يكتشف أنه عاد أدراجه ، من حيث أتى ! إنما ، في حين أنه بدأ المسار ، حذاء الجدار الداخلي للبناء ، فإنه يعود الآن ، الى مكانه الأول ، محاذياً الجدار الخارجي للدير !!

قال لـ « فولف » ..

ــ لئن صحّ ظنّي ، فإن نوافذ المكتبة تختفي وراء هذه الصفوف الأخيرة من الخزائن ، والرفوف .. ألا تسمع صوت الرياح أكثر وضوحاً هنا.. أم أنه يخيّل إليّ ، ذلك ؟!

ــ بل أشعر بمزيد من الصقيع كذلك .. لكن ، ما معنى وجود هذا الحاجز المعترض أمامنا .. هناك ؟

ودققا النظر .. وإذا بهما أمام حاجزٍ من الرفوف ، يعترض طريقهما ،

بما يخالف اتجاه جميع خزائن ورفوف المكتبة !.. نظرا الى السقف ، وإذا الحاجز يقع تحت عدد من الإشارات .. بحيث تعثّر عليهما الاهتداء الى السبيل الصحيح !!

قال « فولف » مستغرباً ..

ــ ألا يحتمل أن أحدهم قد أزاح هذا الصف من الرفوف ، عن مكانه الأصلي ؟

ــ بل إنه لكذلك !.. هيا !! تسلّق الى فوق ، وانظر جيداً أية إشارة قد تكون وراءه !

رفع « فولف » النور بما تجاوز ارتفاع صفّ الرفوف ، فطالعته بقعٌ سوداء ، كأن تياراً من الدخان الأسود قد أحدثها على السقف !

أشار « دون ماكسيميليانو » إليه بالنزول فوراً .. قائلاً ..

ــ إنها آثار دخان الفوانيس .. وإن وراء هذه الرفوف .. يقع مركز تجمّع « داميانو » ، وعصابته ! هيا .. يجب إزاحة هذه الخزانة !.. إذ ، لا شكّ أنهم لم يتركوا الممرّ إليها مفتوحاً !!

لم يكن من السهل عليهما إزاحة خزانة كتب ، بكاملها .. دون إحداث جلبة في تلك المكتبة التي أطبق على ظلامها الصمت !

قاما بعددٍ من المحاولات المخفقة ، اهتديا في النهاية الى أنجعها .. فما إن أزاحاها ، بما يكفي لهما بالتسلّل خلفها .. وصارا على الجنَبِ المقابل ، حتى وقفا مذهولين لما اكتشفا !!

كانت رفوف الكتب والخزائن ، قد صُفّت ورُتّبت في شكل حُجرةٍ مغلقة ، وسط تلك الممرات الطويلة .. يمرّ أمامها الإنسان ، فلا يلتفت الى اعوجاجها ، ولا يخطر في باله ، أن وراء ذاك الاعوجاج ترتيباً مدروساً ، يخفي غرفة نَسْخٍ ، خاصةٍ ، بأصحابها !! تناثرت عليها مخطوطات .. فُصلت أوراقها عن أغلفتها .. وثُبّتت فصولٌ منها على قواعد هرمية مماثلة

لتلك التي شاهداها في قاعة النسخ ! كأن أصحابها يجدّون في نسخٍ ، أو إعادةِ نسخِ نصوصٍ لا صلةَ للدير بها !!

* * *

كان أول ما التفت إليه فراس ، هو مخطوط ابن خلدون ، الذي مرّ أمام ناظريه بالأمس .. فإذا هو ، مفتوحٌ ، على أولى صفحاته.. فُصلت عنه.. وبدل عنوانه ، واسم صاحبه الذي بدا واضحاً جلياً ، بانت قطعة ورقٍ منفصلة ، كُتب عليها اسم آخر .. اسم « ابن ميمون » .. كأن الذي يخطّها ، يقلّد الأصل ، يهيئها لدمجها بنُسخةٍ جديدةٍ .. أو بالمخطوط ذاته .. فلا يتغيّر إلا اسم صاحب الكتاب !!

همس فراس في أذن « فولف » .. وصوته يرتعدُ لما وجد ..

ـ أستر الفانوس .. هيّا .. فلا يظهر انعكاس نوره على السقف !

وانحنى على المخطوط يحاول تصفّح أوراقه !

ما إن لمست أصابعه الصفحة الأولى .. حتى عاذ ورفعها بسرعة خاطفة ، وراح يبصق عليها في هلعٍ .. ويمسح ما لصق عليها ، بكلّ ما وجد أمامه من أوراق أو غلافات كتب !! تنفّس الصعداء .. ثم أخرج من جيبهِ منديلاً ، لفّه حول أطراف أصابعه ، واستعان به على فتح الصفحة الأولى من المخطوط.. وكانت قد التصقت على غيرها من الصفحات ، كأنها ، جميعها ، قد غُطّست بمادة لزجة !!

ما إن قرأ السطور الأولى من المخطوط .. حتى أحس بوهن مفاجىء في أوصاله .. وراح جبينه يندى بعرقٍ بارد ..

قرأ فراس المقطع التالي :

« اعلم أن العقل هو أعدل الأشياء توزّعاً بين البشر ، لأن كل فردٍ يعتقد أنه قد أوتي منه الكفاية ، حتى الذين يصعب إرضاءهم بأي شيء آخر ، ليس من عادتهم أن يرغبوا في أكثر مما أصابوا منه .. وليس براجحٍ أن يخطىء الجميع في ذلك ، بل الراجح أن يكون هذا شاهداً على أن قوّة الإصابة

في الحكم ، وتمييز الحق من الباطل ، وهي القوة التي يُطلَق عليها في الحقيقة اسم العقل ، أو المنطق ، واحدة ، بالفطرة عند جميع الناس .. وهكذا ، فإن اختلاف آرائنا لا ينشأ عن كون بعضنا أعقل من بعض ، وإنما ينشأ عن كوننا نوجّه أفكارنا في طرقٍ مختلفةٍ ، ولا نطالع الأشياء ذاتها .. إذ لا يكفي أن يكون الفكر جيداً ، وإنما المهم أن يطبّق تطبيقاً حسناً .. إن أكبر النفوس مستعدّة لأكبر الرذائل ، كما هي مستعدّة لأعظم الفضائل » ..

طغى على ذهنه وعيٌ بأنه قرأ هذا النص في كتاب ما.. أين ؟!.. وفي أية لغة ؟!

حاول استجماع ذاكرته ، وهو يقلّب الصفحات من جديد.. الى أن وقف عند النص التالي ..

« واعلم إني رأيتُ أنه ، بدلاً من هذا العدد الكبير من الفوائد التي يتألّف منها المنطق ، يمكنني الاكتفاء بالقواعد الأربع الآتية ، شريطة أن أعزم عزماً صادقاً وثابتاً على أن لا أخلّ مرة واحدة بمراعاتها ..

الأولى..أن لا أتلقّى على الاطلاق شيئاً على أنه حقّ ، ما لم أتبيّن بالبداهة أنه كذلك ، أي أن أُعنى بتجنّب التعجّل ، والتشبث بالأحكام السابقة .. وأن لا أُدخِل في أحكامي إلاّ ما يتمثّل لعقلي ، في وضوحٍ وتميّزٍ ، لا يكون لدي معهما أي مجالٍ لوضعه موضع الشك ..

والثانية .. أن أقسّم كل واحدة من المُعضلات التي أبحثها الى عددٍ من الأجزاء الممكنة ، واللازمة لحلّها ، على أحسن وجه ..

والثالثة .. أن أرتّب أفكاري ، فأبدأ بأبسط الأمور ، وأيسرها معرفة ، وأتدرج في الصعود شيئاً فشيئاً ، حتى أصل الى معرفة أكثر الأمور تركيباً ، بل أن أفرض تركيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضاً بالطبع ..

والأخيرة .. أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات كاملـة ، ومراجعات عامـة ، تجعلني على ثقـة من أنني لم أغفل شيئاً » ..

كاد يصيح ، وهـو يذكر أن هذه قواعـد التفكير الذي استنـد عليها « ديكارت » .. في أشهر مؤلفاته !!

فهل يكون « ديكارت » قد قرأ هـذا المخطوط ، قبـل كتابـة مؤلفه الشهير « مقال الطريقة » * ؟! هل اطّلع عليـه ، والمخطوط أسـير في غياهب سجون هولندا ؟!

تابع تقليب الصفحات .. يتلفّت حوله ، كمخلوقٍ شرس ، يكاد يموت جوعاً ! يُمسك بغذائه ، بين يديه ، يخاف عليه من هجوم مفاجىء !!

ما إن وصل الى النص التالي، حتى باتت الجريمة واضحة أمامه ، إذ قرأ ..

« ولما رأيـتُ أن هذه الحقيقة ، (أنا أُفكر ، إذن ، أنا موجود) ، هي من الرسوخ بحيث لا تزعزعها فروض الريبيين ، مهما يكـن فيها من شططٍ ، حكمتُ بأنني أستطيـع مطمئناً أن أتخذها مبـدأ أول للفلسفة التي كنـت أبحث عنها ! »

مال فراس برأسه للوراء ، يتنفّس في عمـق ، وقـد أطبق على نفسـه ما تناوب على إحساسه من فرحٍ ، وكمدٍ ، وتوثّبٍ ، وغمٍّ ، وخوف !!

ماذا ؟.. هل هو حقّاً أمام خميرة الفكر الفلسفي التـي ارتكزت عليهـا أذهان معظم فلاسفة أوروبا ، إن لم نقل ، جميعهم ؟!

وهل هذا الكنز الفكريّ، الذي طالما فاخر به الفكر الغربيّ، والفرنسيّ خاصّة ، ليس إلا من نتاج فكر ، ابن خلدون ، العربي ، المسلم .. سُرق منه ،

* Discour De la Méthode

من جهة .. واستبدلت صفحات من مخطوطاته من جهة أخرى .. بما أظهرها كأنها تهاجم العرب الذي يفتخر ابن خلدون في نسَبه إليهم ؟!

« أنا أشكّ ، إذن ، أنا أفكّر .. وبما أني أفكّر ، إذن فأنا موجود ، والعالم موجود كذلك ، وهو بالتالي فِكْر ، ومساحة » ..

وأكمل فراس بقيّة التسلسل المنطقي مما يذكره من فلسفة «ديكارت» ..

« .. بينما الإنسان ، جسد ، وروح » .. وبما أن الجسد يتحرّك دون مساعدة الروح ، فقد فتح ذلك الباب أمام علم الحركة ، والميكانيك !

كيف لا يكون ابن خلدون كاتب هذا الاستنتاج المنطقي ، وهو الذي لخّص دراسة ابن رشد ، عن المنطق ، واستند في جميع ما ذكره ، في مقدمته ، عليه ؟! ثم كيف لا يتردد انسان حذر ، مثل ابن خلدون ، في إظهار هذا الكتاب أمام الملأ ، ونزعة الحكم ، في العالم الإسلامي ، آنذاك ، دينيّة صرفة ، قد تسبّب لابن خلدون باتهامات لا طائل له من ورائها .. تبعده عن منصب القضاء ، في مصر ، وهو الذي حرص أشد الحرص على التمسّك به !

كيف وقع ذلك المخطوط في يد الإسبان ؟! ذلك سؤال أتفه من أن يطرح ! وقد سقطت جميع لخزائن العرب والمسلمين ، تحت رحمتهم ، واستولو على جميع كنوزهم ، يوم سقوط غرناطة !! فأين الغرابة في أن يحتفظ « دون فرناندو الفاريز دي توليدو » به ، في خزائنه ؟ ثم ينقله معه الى هولندا ، التي حكمها !! وهناك .. يُبقي عليه في عهدة رجال الدين ، الذين وجدوا أن خير طريق للنهوض بالفكر الأوربي ، هو في نِسْبة مثل هذه الفلسفة الى أحد مفكريهم ..

« أنا موجود ، لكني لستُ كاملاً ، وبما أني أُدركُ الكمال ، ولست كاملاً ، فالكامل هو مسبّب وجودي ، هو الله » ..

وهي المقـولة التـي ، وان ارتكزت على المناقشة الفكرية ، إلا أنها لا تبتعد كلياً عن النتائج المثالية ، التي كانت حلاً وسطاً أمام تيارات الفكر الملحد الذي بانت بشائرها في الأفق !

ولماذا لا يقبـل إنسانٌ مثل « رينيــه ديكارت » أن تنسب مثل هــذه التحفة الرائعة الى تاجـه ، وهــو الحائر في حيــاته الخاصة ، بين الحيــاة العسكرية ، والدنيويّة ! ومن الذي يجهــل أن « ديكارت » كان قــد أمضى عشرين عاماً في هولندا دون الالتفــات الى الفلسفة ، أو الفكر !! ومن الذي يتردّد من المفكرين ، حتى في يومنا هذا ، في تبنّي مثل هذا المؤلَّف الرائع .. خصوصاً ، حين يعلمون أنها الطريقة الوحيدة لإخراجه من الظلام ، وإظهــار روعتــه على الملأ !!

رحمك الله ، يا ابن خلدون!! يا سيّد الفلاسفة ، وأنبل المفكرين العرب!! لقد كان ابن خلدون إذن ، هو الذي فتح الباب أمام فلسفة الغرب ! فتح الباب أمام الفلسفة الروحيــة ، من جهــة ، والفلسفة الواقعيــة من جهــة أخرى .. فتلمذ على يديــه ، من الروحيين ، كل من « ديــدرو » ، و « هيلفيتيوس » ، و « ماركوس » .. ونمــا على مذهبــه الواقعــي ، كــل من « هوسّرل » ، و « مالبرانش » ..

* * *

كان « دون ماكسيمليانو » قد تــاه كليّاً عمــا حوله ، يسبح ذهنــه في الأثر المدوّي الذي سيحدثه نشر هذه الوثيقة التاريخية على العالم ! يتصوّر الهزّة الكبرى التي ستنتج عن دكّ عرش « ديكارت ».. والفكر الفرنسي .. ليتبوّأ مكانها ، ابن خلدون ، مجــده المسروق ، الضائع .. مستعيداً بذلــك حقيقة مكانته الفلسفية !!

هزّ « فولف » كتفه منبّها .. مشيراً الى كتابٍ آخر ..

ـ « دون ماكسيمليانو » ؟ أليست هــذه ، نسخــة « السبتانت » التي

طلبت من « داميانو » مُراجعتها وأنكر وجودها ، في المكتبة ؟! إنهم يعيدون نسخها ! ويبدّلون في بعض الكلمات ، منها !! يا إلهي .. إنهم يبدّلون في الوقائع التوراتية !!

تنبّه فراس ، الى ما حوله .. وعاد الى التدقيق فيما وجد أمامه من مخطوطات ، ومحاولاتٍ خفيّةٍ لتزويرها .. ولم يكن من الصعب عليه التعرّف الى هويّة الجهة التي سوف تستفيد من نسْبة مؤلّف ابن خلدون ، الى ابن ميمون ، اليهودي الأصل ! ولا الى تلك التي تتلاعب دوماً بالجذور لبقية الشعوب !

إذن ، لقد كان في تلك الحجرة ، داخل خليّة جديدة للتزوير !! حلقة ، تعمل لحسابها الخاص ، ضمن معمل التزوير الكبير !! تُحوّر ، وتُغيّر ما يحلو لها ، وما تريده ، في تلك المخطوطات !.. تُعيد كتابة صفحات بكاملها .. على ورق قديم ، محفوظ في خزائن المكتبة .. أو تعيد نسخ المخطوطات ، من أولها ، الى آخرها .. ثم تغلّفها من جديدٍ .. على الطريقة القديمة ، بحيث لا يمكن ، حتى للخبراء ، كشف ما قامت به تلك الأيدي العابثة ، المجرمة ، من تزوير التاريخ !

استدار يبغي محادثة « فولف » .. حين تنبّه الى حركة خلفه !! فما إن التفت إليها ، حتى روّعه ما رأى قبالته ، من وجه « داميانو » ، وكأنه وجه الشيطان الرجيم ، بذاته ، وقد فَغَرَ فاهُ ، وطفق جفن عينه الفارغة يرتجف في عصبية مخيفه !! بينما شهر عليهما مطواة حادة طويلة !

قال « داميانو » في صوت أبحّ ، مخيف ..

ـ لقد دخلتما مقبرتكما !! ولن تخرجا منها حيَّيْن !!

وطفق يدفع لخزانة الكتب بكلّ قواه !! يحاول إغلاق الفسحة الضيّقة التي انزلق « دون ماكسيمليانو » و « فولف » منها ، الى وكره !

أمّا كيف نهض « دون ماكسيمليانو » واقفاً .. وتكلّم في برودٍ ، وهدوءٍ

مُصطنعين .. فهذا أمر تجاوز فهمه !.. لم يدر إلا وهو ينهض ، ويقول ..

ــ .. كيف ؟!.. وتقضي على أهم وثيقة تلموديّة ، أُخفيت ضمن هــذا المخطوط ؟! وثيقة تلمودية ، يا « داميانو » !!

حدّق « داميانو » في عينيه !! لا يصدّق ما سمع !! ثم صاح لشخصٍ يقف وراءه ، يأمره بحراسة الممــر !! وتقدم ، يحمــل فانوساً بيــدٍ ، شاهراً مطواته ، باليــد الأخرى ، ينزلــق من الفسحة ، الى حيــث وقــف « دون ماكسيمليايو » ينظــر الى مخطوطِ ابن خلدون ، وقــد أعــاده الى الصفحة الأولــى ..

تقدّم « داميانو » من المخطوط ، يردّد في صوتٍ ، مبحوحٍ ، مخيف..

ــ أين ؟!.. أين ؟! أعطني ؟!

في حين تراجع « دون ماكسيمليانو » عنــه يشــدّ ، ذراع « فولف » ، وهــو يقــول ..

ــ إنها ورقة تلمودية هامــة .. استند إليهــا ابن خلدون !.. إنها بــين صفحاته الداخلية .. فلماذا تهاجمنا ؟! ونحن إنما نقوم بمساعدتك ؟!

انحنى « داميانو » على المخطوط ، يحــاول تصفّح أوراقه التــي لصق بعضها ببعض ، يلْعق إصبعه ، ليفتح الواحدة منها ، تلو الأخرى .. يعــاود لعْق اصبعه ! بعد قلبِ كل صفحةٍ ، من صفحاته !! فما إن تجاوز عدداً منها ، حتى صاح .. من جديد !

ــ أين ؟.. والله لأبقرنّ بطنك بيــدي !! وأُحرق هذه الكتب فــوق جثتيكما !! كنتَ ستخبر الفاتيكان بأمري ؟! سوف ترى من منّا سيصل خبره الى الفاتيكان .. قبل الآخر !!

وعاد يقلّب الصفحات .. يُكثر من لعق إصبعه ، المرة بعد المرة ، لفتح الصفحة الواحدة ، التي بدت كأنها قد غُطّست بمادة لزجة ، دبقــة !!

كان فراس يتراجع في لخطوات هادئة الى الوراء ، يستند على ذراع « فولف » في طريقه .. لحظات .. وإذا حشرجة مخيفة تصدُر عن جوف « داميانو » !! ترك المخطوط ، ليسقط من يده على الأرض .. ضاماً ذراعيه على أحشائه .. يعصرها في تشنّجٍ الى الأمام يكاد رأسه يلامس ركبتيه .. لشدة الألم !!

سرعان ما سقط على الأرض ، يحاول التمسّك في طريقه بما أمامه من مناضد .. تهاوت وراءه ، مما أحدث جلبةً مدويّة ، أخافت الراهب الذي كان قد وقفَ يحرس الفتحة !! فتراجع عنهما .. مما سهّل لـ « فولف » التسلسل منها ، مسرعاً الى خارج الوكر .. فانطلق ، يلكم وجه الراهب ، بكل قواه فأخذ هذا ، يجري بعيداً عنهما .. لا يلوي على شيء !!

كان صوت « داميانو » قد بدأ يشبه العواء المكتوم !!

شدّ المخطوط إليه ، وهو ينظر الى « دون ماكسيميليانو » .. ويقول والزبد الأصفر يسيل من شدقيه ..

ــ ... ماذا فعلتَ ؟.. ماذا فعلت ؟! هل هو السم ؟! ومن وضعه .. من أنت ؟ بحق الشياطين !! من أنت ؟!!

قال ذلك ، وضرب فراساً بالمصباح الذي في يده اليسرى .. فمال هذا .. متفادياً لهب الفانوس .. ومدّ يديه ، يحاول شدّ المخطوط من قبضة الراهب الكاذب .. يبغي استرجاعهُ ، فإذا بـ « داميانو » يدفع بالمنضدة في وجهه ، ثم يمسك بفانوسٍ آخر ويطيح به عبر الكتب والمخطوطات !!

صاح فراس لـ « فولف » .. أن يحاول إطفاء ما اشتعل من أوراقٍ جافّةٍ مبعثرة !! بينما تابع ، هو ، شدّ المخطوط من يدِ « داميانو » أطبق عليه ، وكأن إبليس ، يشدّ من أزره !! يتلوّى من أثر السمّ ، الذي بدأ يأكل أحشاءه !!

كانت عينه ، قد بـدت كأنها جمـرة نـارٍ ملتهبة .. بينما اختلط على شفته الزبـد الأصفر بلونٍ داكنٍ كأنـه نـزف دم متخثر .. قاتم اللـون !!

قال عبر ما تراكم على شفتيه وشدقيه من زبدٍ ، وقذارةٍ ..

ـ لن تأخذه مني !! لن تأخذه مني !! سآخذه معي ! حيـث أنا ذاهب .. لقـد سمّمتني .. عليـك اللعنـة !! عليـك اللعنـة .. لقد سمّمتني !!.. آه !!.. آه !!

صاح « فولف » .. في هلعٍ ظاهرٍ ..

ـ دعه .. « دون ماكسيمليانو » !! إن النار حولنا .. سوف تطبق علينا في لحظـات !! « دون ماكسيمليانو » أرجـوك !! إن المكتبـة بأسرها سوف تلتهب ، بعد لحظات .. إنها ورقٌ جاف !! وخشب قديـم !.. أرجوك !.. دع الكتاب .. تعال ، ننجو بأنفسنا ، ننجو بأنفسنا !!

كان المخطوط قد بدأ يتمزق إرباً ، إرباً ، من شدّ ، وتنـازع الخصمين ، له!! لا يجرؤ فراس على لمس أكثر من غلافه الخارجي.. في حين راح «داميانو»، وقد بدأ يفقـد رشده ، يزيـد من تمزيـق ما بين يديـه ، من صفحاته ، في حركة مروّعة عصبيّة ، تعكس ما يأكل أحشاءه من سمّ زعاف لا بـدّ أنـه تناول قسطاً وافراً منه عبر ما لعقه من صفحاته المسمومة !!

تنبّه فراس لهسيس النار ، التي لحقت بالرفوف ، وبدأت بالانتشار بين صفوف المخطوطات ، المسكوكة عليها !!

نظر حوله ، يبحث عن مصدر الحرارة التي لفحت وجهه .. يحاول فهـم درجة انتشار اللهب ، فأدرك على الفور أن النار قد انتشرت بأكثر مما كان قد قـدّر لهـا !! وأن لا سبيـل له ، و لـ « فولف » ، الى إطفائها !.. فدفـع بصديقه ، خارج الفتحة ، التـي كادت تلتهم جوانبها النـار ، ثم انزلـق منها وراءه ، على عجلٍ .. يحضّ « فولف » على إزاحـة صفّ الرفوف الملتهب ،

لإعادة إغلاقه ، وإرجاعه الى ما كان .. مُغلقاً بذلك تابوت « داميانو » ، على جسده المحترق !!

لحظات ، وكانا قد أعادا ظاهر الأمـور الى ما كانت عليه ، عـدا ألسنة اللهـب التي بدأت تطـير من رف ، الى آخـر .. في سرعة مروّعة !! يسري دخانها في الممرات الضيقة .. تبثّ أنفاسها السامة في جوّ المكتبة المحصور ..

صاح فراس لـ « فولف » ..

ــ الى الفتحة .. « فولف » هيّا .. أرجو ألا تكون النار قد سبقتنا الى الفتحة !! لنسرع إليها !!

كانت تجربة مخيفة !! مروّعة !!

راح الاثنان يسابقان النار .. جيئة ، وذهابا ! في كل مرة يسبقهم دخانها الى المنعطف التالي ، فيحجب عنهم رؤيـة الإشارات التـي استدلاّ بواسطتها على طريق الدخول !!

أصاب فراساً ضربٌ من الذعـر المجنون .. وهـو يجري بعيـداً عن النار ، فيما يرى في خياله ألسنة اللهب تأكلُ وريْقات المخطوط التـي مزّقتها يدا ذلك الشيطان الرجيم !

همّ بالعودة ، مرات ، الى حيث ترك المخطوط .. لمحاولة إنقاذ ما تبقّى منه .. تعترضه ، في كل مـرة ، أمواج جديدة من اللهب ، أشدّ أواراً من المرة التي قبلها !!

سالت دموع اللوعة على خديه .. وهـو يستسلم الى اليأس !! فجـرى يقصد رفوف المخطوطات الشرقية .. يبعثر ما عليها .. علّه ينقذ شيئاً منها !! ما يكاد يرفـع بعضها ، حتى تتساقط من يـده أجزاء منها ، فحماً أسود يندلع اللهب فيها ، ما إن تتحرّر من أغلفتها الخانقة وتلامس وريقاتها الهواء !

تابع محاولاته تلك ، حتى احترقت يداه .. فلما أعيتـه الحيلة ، أذعـن لمصـيره ، وأسرع وراء « فولف » ، حتى بلغـا في جرْيهما رفوفاً ملتهبـة .. حائط من نار استحال عليهما تجاوزه !! كانت النار قـد أحاطت بهما ، من كل جنـب !! فجلسا القرفصاء .. مستسلمين لقدريهما .. يتجنّبان سموم الدخان

الأسود الـذي بـدأت سحبُه تتكاثف في الجـو ، وتهبط نحوهما ونحـو أرض المكتبة !!

نظر الى « فولف » نظـرة طويلة .. يأسف لما أورده فيـه من تهلكة !.. وكان على وشك أن يسرّ إليه ، بأمر هام .حين سمع صوت « باولو ألبيرتو » يناديه .. من خلف ألسنة النار .. يحضّه على التصبّر والجلد !!

كان الراهب الذي هـرب من لكمات « فولف » ، قـد أسرع في طلب النجدة .. لا يعلم من كل ما جرى إلاّ أن « داميانو » كان قد طلب منه حراسة تلـك الفتحة !.. فما إن شقّت صنابير المـاء دربآ ، ضيّقة ، للصديقين ، حتى هرعا إليها .. يسيران فـوق الجمـر الملتهب ، نحـو الفتحة المطلّة على قاعة الدور الثاني !

وقف رئيس الدير في استقبالهما ، أسفل السلم .. يصيح بهما ..

ـ أين « فرا داميانو » ؟! أين « داميانو » ؟ ماذا حلّ به ؟!

ولما سمع « فولف » يردّ عليه في صوت متهالك .. يقول ..

ـ أظن .. أنه لاقى حتفه ..

لمعت عينا رئيس الديـر .. وراح يُصدر التعليمات في حماسةٍ ، يحضّ فرق الإنقاذ على محاولة فصل المكتبة ، بالماء ، الى قسمين .. أو أكثر .. علّهم ينجحون في إنقاذ جزء منها !!

بينما راح ، آخرون ، يقترحون عليه إهمال المكتبة ، التـي قـُضي عليها ، في ظنّهم ، ومحاولة إنقاذ قاعـة النسْخ ، بما فيها من كتبٍ ومخطوطات !

* * *

سار الضيوف الثلاثة ، نحـو غـُرفهم .. يجمعون ثيابهم في وجـوم ، ثم توجّه « دون ماكسيمليانو » الى سيارته ، خارج الديـر .. يتكىء على كتف « باولو ألبيرتو » في سيره .. ثم وقف على الباب ينتظـر وصول « فولف » ، الذي ذهب يُخطر رئيس الدير رغم انشغاله بالنار ، عن نية الثلاثة بالسفر ..

سأل « باولو ألبيرتو » وهو يغلق نافذة السيارة في وجه صفير الرياح ، ورائحة الدخان ، التي بدأت تعصف في الجو المحيط بالدير ..

ــ « دون ماكسيميليانو » هل تتوجّه الى «كورتينا دامبيتزو» ؟ .. ومنها الى البندقية .. غداً ؟

أجاب فراس ، في وجوم ..

ــ يا صديقي .. لقد مللت إيطاليا .. في الوقت الحاضر .. أودّ من « فولف » أن يقودني الى الحدود النمساوية ، القريبة .. ثم تعودان ، معاً ، بسيارتي الى « كورتينا » .. وتخبران « شارل غوستاف » لدى وصولكما للبندقية ، أني سألقاه ، في وقتٍ قريب ..

تعجّب « باولو ألبيرتو » وقال ..

ــ إن الأمير « نيقولا » ، وربيبه « كزافييه » في النمسا ، اليوم .. هل تنوي لقاءهما هناك ؟

ــ ربما .. من يدري !

* * *

وفي ستر ظلام الليل ، والسيارة تسبح بهم عبر طرقات جبال « الالب » ، الى النمسا .. جال في ذهن فراس ، ما طالع جدّته منه ، أيام طفولته ، وهو يردّ عليها بالإنكليزية .. على ما طلبت ! .. وتبسّم طويلاً ، إذ تصوّر المشقّة التي سوف يلقاها في بناء الجسور مع « كزافييه » .. الفرنسي .. الروسي .. الأمريكي ! ولكنه ولده .. ولعله الآن على مثل ما كان هو ، في الماضي ، التصاقاً بالغَرْب .. يطفو ، كالنَيْلوفر ، يبحث عن أرضٍ تمتدّ جذوره فيها !!

ماذا لو نجح في قيادته الى ترابِ الأجداد ؟! وأيّ ندّ لأشد أعداء الوطن ، خير منه .. وهو الأوربي المنشأ ؟!

سوف تكون مهمة شاقة .. لكنه ، ولده .. رغم غرابة ولادته ، ونشأته ! ولو كانت جدته ، أم تاج العارفين ، ما تزال على قيد الحياة .. لقالت له ..

ـ لا بأس عليك يا بنيّ !.. دعه يزر غرناطة .. ثم خـذه الى دمشق .. الى دمشق القديمة، دون أن تسدي له النصائح .. دعه يطوّف فوق جذوره . ودعه يزر الجامع الأموي ، وقبر صلاح الدين .. وتمشّ معه ، أمام مدفنكم.. وأطلعه على أن دماً شريفاً يسري في عروقه .. مهما قلّ شأن ذلك الأمر في نظر الآخرين !.. واعلمه ، يا بنيّ ، أنه من أحفاد أهل البيت..وأنه حفيد الشريف مصطفى ، ونسيب الشريف محمد .. أمير عسكر المسلمين ، لدى السلطان .. وآخـر العنقود من أحفـاد الإمام علي الرضا ، بن الإمام موسى الكاظم ، بن الإمام جعفر الصادق ، بن الامام محمد الباقر ، بن الامام زيـن العابدين ، بن الامام حسين ، رضوان الله عليهم أجمعين ..

* * *

للمؤلف

ثلاثية البحث عن الأنــا

- السقوط الى أعلى ـ صدر عام ١٩٧٣
- مسافر بلا حقائب ـ صدر عام ١٩٧٩
- رحلة النيلوفر أو آخر الأمويين ـ صدر عام ١٩٨٤
- النمــرود ـ مجموعة قصصية ستصدر قريباً

صدر للمؤلف من منشورات :

PRO MUSICA - ROMA

المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية التالية للبيانو :

- SONATINE
- TOCCATA
- FUGUE
- ETUDE
- NOCTURNE

مطبعة الكاتب العربي

أُســس آلية لحضارة استهلاكية برّاقة، جوفاء يُنذر كبار فلاسفتها بانهيارها ! ثم عاش أحداث وفضائح مجتمعاتِ المال والحكم، في الشرق الحديث، في رواية "السقوط إلى أعلى".. في عالم مركزه بيروت تنبأ لصورتها آنذاك، بالانهيار منذ أواخر الستّينات !

ها هو فراس، يعود إلى دمشق في "رحلة النيلوفر"... في محاولة لمدّ جذوره في ترابٍ جُبِلَ جسده منه، يعود إلى أزقّة المدينة القديمة. لا سائحاً، مستطرفاً قِدَمها.. بل "آخر الأمويين" باكياً على ما كان لها من بهاء، شاهد مثله في أزقّة ودروب مدن الأندلس الشاميّة.. ينعم بها الأسبان، حتى اليوم، في قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة !!

المؤلف